دراسات تاريخية

مجلة علميّة فصليّة

تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب

تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

العدد الخامس ، رمضان ١٤٠١ هـ / تموز (يوليو) ١٩٨١ م

إصدارات لجنة كتابة تاريخ العرب
جامعة دمشق - الجمهورية العربية السورية

ثمن العدد

سورية	٣٠٠ ق.س	السعودية	٦ ريالات
لبنان	٣٠٠ ق.ل	الامارات العربية	٧٫٥ دراهم
الاردن	٣٠٠ فلس	مصر العربية	٤٥٠ مليما
العراق	٦٠٠ فلس	ليبيا	٤٥٠ مليما
الكويت	٤٠٠ فلس	تونس	٦٠٠ مليم
عدن	٦٠٠ فلس	الجزائر	٦ دنانير
البحرين	٦٠٠ فلس	المغرب	٦ دراهم
قطر	٦ ريالات	السودان	٧٥٠ مليما

شارك في هذا العدد

صفحة

تنويــه

- **الاراء الواردة في المجلة تعبر عن وجهة نظر كاتبها .**
- **ترتيب البحوث يخضع لضرورات فنية .**

تقديم

بين دفتي هذا العدد من مجلة « دراسات تاريخية » بعض من الابحاث والدراسات التي القيت في المؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، الذي عقد في رحاب كلية الآداب بجامعة دمشق في الفترة ما بين ١٦ ــ ٢٢ جمادى الاخرة ١٤٠١هـ / ٢٠ ــ ٢٦ نيسان ١٩٨١ . وقد شاءت المجلة أن تبدأ بتعريف قرائها بما قدم للمؤتمر من دراسات في مختلف ميادين الحضارة العربية الاسلامية دون أن تنتظر صدور المجلد او المجلدات التي ستضم وقائع المؤتمر ، رغبة منها في أن يتصل قراؤها بما أبدعه فكر ودأب باحثين عرب ومسلمين وأجانب في هذا الجانب الهام من جوانب تاريخنا . وليس هنا مجال الحديث عن هذا المؤتمر الذي كانت أيامه السبعة سلسلة متلاحقة من جلسات العمل والنقاش الفكري الرفيع الذي أغنى ما قدم من دراسات وبحوث ، ونبه الاذهان الى ما غفلت عنه هذه الدراسات والبحوث أو جانبت فيه الصواب . ولكنا لابد ذاكرين أن الحصيلة كانت هذا التكامل المدهش بين ما قدم مكتوبا وما قيل شفاها وسجلته آلات التسجيل ، والذي ستضمه صفحات المجلد او المجلدات التي ستصدر قريبا لتحمل للمفكر العربي وسواه من المهتمين صورة صادقة وامينة عما قيل في قاعات مؤتمر نعتز أنه كان مساهمة متواضعة من قطرنا العربي السوري بمناسبة الاحتفال بمولد القرن الخامس عشر للهجرة .

وسيطول بنا الحديث اذا نحن حاولنا أن نرصد الجديد في كل ما كتب أو قيل ، ومن هنا كان قرار مجلتنا بأن تنشر هذه الابحاث تباعا ، معتبرة أنه لابد لها في سعيها لتحقيق رسالتها الاصلية في الدعوة الى كتابة تاريخ أمتنا في جميع جوانبه ومجالاته ، من أن تولي الوجه الحضاري الانساني لهذا التاريخ ما يستحق من اهتمام وعناية . ويقودنا هذا الى القول بأن البحوث والدراسات المنشورة في هذا العدد أو التي ستنشر في الاعداد التالية تظل مفتوحة للحوار العلمي الهادف البناء الذي ينشد الحقيقة العلمية في أدق صورها وأوضح معالمها .

ولعل أهم ما يجب أن يذكر في هذا المجال أن المؤتمر بعد ان تدبر امر تاريخنا الحضاري وتدارس ما كتب أو ألف فيه ، وقال القائلون ما أمدتهم به خبرتهم في هذا الموضوع وجدوا أنه لابد لمؤتمر كهذا من أن يخرج بتوصيات حول هذا الموضوع تراعيها الحكومات والمؤسسات التي تعنى بهذا الجانب من جوانب تاريخنا وتراثنا ، فكانت التوصيات التالية :

١ ـ توجيه تحية تقدير وعرفان للسيد الرئيس حافظ الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية على الرعاية الكريمة لهذا المؤتمر ودعمه المستمر للعلم والعلماء، وتشجيعه لكل جهد يهدف الى ابراز منجزات الحضارة العربية الاسلامية ودورها الانساني الرائد في ميادين الحضارة الانسانية المختلفة .

٢ ـ حث الباحثين ، ولا سيما العرب والمسلمين منهم ، على ايلاء الجوانب الحضارية في تاريخنا عناية خاصة واعتماد فكرة كتابة هذا التاريخ من منظور الفهم الحضاري للتاريخ وابراز الجانب الانساني من تاريخ العرب واحلال الامة العربية المكانة الحضارية اللائقة بها بين الامم وبما يتناسب مع عطائها الحضاري الثرّ.

٣ ـ ايلاء مختلف مظاهر الحضارة العربية الاسلامية العناية التي تستحقها ، وابراز اثر كل مظهر من تلك المظاهر في حضارات الامم الاخرى .

٤ ـ دعم المعاهد التي تعنى بدراسة ونشر التراث العربي الاسلامي ، والايصاء بانشاء المزيد منها ، أو اقامة فروع لها في الاقطار العربية والاسلامية ، وتمتين اواصر التعاون والتنسيق في الدراسات والبحوث بينها .

٥ ـ الاستمرار في اقامة الندوات والمؤتمرات الدولية حول الحضارة العربية الاسلامية في مختلف حواضر الوطن العربي والعالم الاسلامي لاغناء الدراسات في الميادين الحضارية بعامة وبعض الميادين المحددة بخاصة .

٦ ـ اقامة ندوة تهدف الى وضع الصيغة الملائمة لكتابة تاريخ الحضارة العربية الاسلامية على اساس موسوعي شامل .

٧ ـ توصية الجامعات العربية والاسلامية تضمين مناهجها الدراسية مادة الحضارة العربية الاسلامية في المرحلة الجامعية الاولى ، وتشجيع الباحثين في مرحلتي الماجستير والدكتوراه لانتقاء موضوعات رسائلهم عن موضوعات هذه الحضارة.

٨ ـ الاطلاع على ما ينشر في العالم اليوم حول الحضارة العربية الاسلامية وتصحيح ما يجانب الموضوعية منه .

٩ ـ وضع أطلس تاريخي لتوزع مظاهر الحضارة العربية الاسلامية في انحاء العالم وبيان مدى انتشارها .

١٠ ـ انشاء مجلة حولية او فصلية متخصصة في تاريخ الحضارة العربية الاسلامية في دمشق او احد المراكز العربية الاسلامية التي تحتوي مركزا او معهدا للتراث.

١١ ـ شجب الاعتداءات الاسرائيلية على المقدسات الاسلامية في فلسطين ، وانتهاك حرمة الآثار العربية الاسلامية في الاراضي المحتلة .

١٢ ـ نشر البحوث التي القيت في المؤتمر واصدارها في مجلد خاص بالسرعة الممكنة.

المَسْجِدُ

وأَثَرُهُ في تَطويرِ التعليم

د . حسين أمين

الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب ـ بغداد

قام المسجد ولا يزال وسيبقى ابد الدهر ، عنصرا اساسيا في حياة المسلمين بخاصة والانسانية بعامة ، لما له من الاثار المهمة في توجيه الانسان وتهذيبه واعداده مواطنا صالحا يعمل لخدمة المجتمع بكل صدق وصفاء وبكل اخلاص ووفاء .

وسيبقى المسجد الاسلامي الاشعاع المنير لكل المؤمنين من أجل التحرر والخلاص من مزالق الدنيا وهفوات الزمن ، والركن الاصيل لكل الدراسات الانسانية الصافية ، والمورد العذب لكل الثقافات الاسلامية السامية .

وكما كان المسجد مركزا اساسيا للجهاد من أجل الحق والحرية ومنه انطلق المجاهدون والمؤمنون لنشر الرسالة الاسلامية الخالدة ، فهو المعهد الاول لتعليم المسلمين القراءة والكتابة وتفقيههم بامور دينهم ، ومنه تخرج الرواد الاوائل من الصحابة الكرام ، بناة حضارتنا الزاهرة .

وما من شك ، فان التعليم لازم الدعوة الاسلامية منذ فجر انبثاقها وكانت اولى الايات القرآنية الكريمة التي انزلت على سيدنا محمد (ص) تشير الى العلم وبعض ادواته ، قال تعالى : (اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم) وتوالت الايات القرآنية الكريمة تنزل على الرسول الكريم وكثير منها تحث المسلمين على طلب العلم وتشجعهم على التعليم،كما كانت تلك الآيات الكريمة ترفع قدر العلم وتعلي شأن العلماء وتمجد العقل والمعرفة وتخفض من الجهل واهله ، قال تعالى : (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لايعلمون ، انما يتذكر اولوا الالباب) وقال تعالى : (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات) ، واعتبر القرآن الكريم التعليم من مهمات الرسول (ص) قال عز وجل : (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم اياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، انك انت العزيز الحكيم) .

وبديهي فان التعليم من اسس مستلزمات تطور وازدهار المجتمع الانساني ، وهو في أبسط مظاهره ليس سوى تكيف الفرد مع ضرورات الحياة ولوازمها في بيئته ، واذا كان الاسلام هو النظام الموجه للحياة عند المسلمين بكل مظاهره ، فقد كان فهمه ودراسته أمرا لابد منه لافراد الجماعة الاسلامية ، فالتعليم اذن كان من مستلزمات الدعوة الجديدة لتحقيق التربية الصحيحة التي تهدف اليها الدعوة الاسلامية ، ومن الواضح أن الرسول (ص) كان يستهدف بناء امة جديدة وانشاء حكومة تضاهي الحكومات القائمة في عصره ، فلابدمن وجود طبقة متعلمة متنورة ، تتحمل عبءالدعوة وعندها قوة الحجة والمقدرة على الاقناع بالطرق العلمية ، ويذكر القلقشندي في كتابه صبح الاعشى : أن عدد الكاتبين من بين العرب عند بعث الرسول (ص) لم يكن يزيدعلى بضعة عشر نفرا ، ولهذا كان من أهداف الرسول (ص) الواضحة ان يعمل على نشر التعليم بين المسلمين وتشجيعهم على ارتياده ، ذلك ان الرسول(ص) ادرك ماللتعليم من اهمية في بعث الامة من جهلها وتخلفها ، لذا صار يعمل جاهدا على نشر التعليم بين المسلمين كما اخذ يحثهم على ارتشاف مناهل العلم والسعي الى اقتباسه وطلبه، لتتفتح الاذهان ويطلع العرب المسلمون على حقائق العلم ودقائقه ، قال عليه الصلاة والسلام (غدوة في طلب العلم احب الى الله من مائة غزوة) وقال (ص) : (افضل الناس المؤمن العالم) وقال (ص) : (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) .

واخذ المسلمون يتسابقون الى طلب العلم ، وطبيعي فان المسجد هو المكان الملائم لاجتماع المسلمين ، وكان مسجد الرسول (ص) أول مكان اتخذ لنشر العلم وتعليم المسلمين اصول الكتابة والقراءة ، روى عن مكحول(1) : قال حدثني عشرة من أصحاب رسول الله (ص) قالوا : كنا ندرس في مسجد قباء اذ خرج علينا رسول الله (ص) فقال : (تعلموا ماشئتم ان تعلموا فليس يأجركم الله حتى تعلموا) .

ومما لاشك فيه أن التوجيه العام للتعليم في مرحلة النبوة ، كان يقوم على اساس تعلم القرآن الكريم وحفظ آياته وفهم معانيه ، وهذا سيؤدي الى حقيقة تاريخية عظيمة الاهمية ، جليلة القدر ، تلك هي اعداد طبقة من المسلمين الاولين المتعلمين من حفظة القرآن الكريم ومعانيه السامية ، وتكوين طبقة ذات مكانة سامية في المجتمع الاسلامي ، هي طبقة الحفاظ ، والحافظ يعتبر اسمى درجة من العالم بالحديث اوالمشتغل باللغة ، وقدمت هذه الطبقة أجل خدمة للدين وانبل عمل للاسلام واصدق وحي للانسانية،وذلك هو تدوينها القرآن الكريم بكل أمانة ونزاهة وحقيقة واخلاص.

وتشير الاخبار التاريخية ، ان الرسول (ص) دخل مدينة يثرب سنة ٦٢٢ م وهو عام الهجرة ، وأول عمل حضاري باشره (ص) بناؤه المسجد الشريف والذي

عرف بالمسجد النبوي وأصبح مكانا للصلاة والعبادة وملتقى الرسول (ص) بالصحابة الكرام (رض) ومقرا للمجاهدين المسلمين ، ومنه ينطلقون الى سوح الجهاد دفاعا عن المبادىء الشريفة والذود عن حياض المسلمين ، وفي المسجد صار المسلمون يتلقون مبادىء الدعوة ويتفقهون بفقه الاسلام .

فالمسجد اذن ، المعهد الاول لنشر العلم ومكان التعليم في العالم الاسلامي ، واصبحت المساجد في عهد الرسول (ص) والخلفاء الراشدين مراكز تهذيبية وتعليمية كان لها الاثر الكبير في نشر الوعي الديني الصحيح وبث روح المعرفة في نفوس المسلمين .

وقام الصحابة الكرام (رضي الله عنهم) بعد الرسول بتعليم المسلمين وتفقيههم في شؤون الدين ، وكانوا يجيبون على اسئلة السائلين فقد كان عبد الله بن عباس يجلس بفناء الكعبة وقد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن كما أن المسلمين كانوا يقصدونه من أقصى البلاد يسألونه في المشكلات الدينية .

وسار التابعون على نهج الصحابة فكانوا يجلسون في المساجد يعظون الناس ويعلمونهم اصول الدين ومن اشهرهم الامام محمد الباقر والامام جعفر الصادق وكانا يجلسان في المسجد النبوي يشرحان للمسلمين معاني القرآن ويوجهانهم الوجهة الصحيحة ، كذلك ربيعة الرأي (٢) وكان له مجلس في المسجد النبوي وكان يأتيه مالك ابن انس والحسن البصري وأشراف المدينة للاخذ عنه . وكان لربيعة الراي هذا حلقة وافرة كما كان للحسن البصري حلقة كبيرة في مسجد البصرة يعظ فيها الناس ويذكرهم وكان من أفصح أهل زمانه .

إن تلك الحلقات العلمية في المساجد الاسلامية كانت مدارس خلقت حركة علمية كبيرة عملت على ازدهار الثقافة الدينية وتطوير العقلية الى حالة التفكير المنطقي والبحث في المسائل المطروحة بروح موضوعية ، كما كانت تلك الحلقات فتحا لوضع اسس قويمة لعلم الفقه عند المسلمين .

ولم يبق المسجد مقتصرا على الوعظ والارشاد وتعليم المواضيع الدينية البحتة ، بل اخذت المواضيع العلمية التي تعرف المسلمون عليها نتيجة الفتوحات العظيمة طريقها الى المسجد وصارت تدرس الى جانب العلوم الدينية ، فالاختلاط بين العرب والعناصر التي دخلت الاسلام بعد الفتوح ادى الى ظهور مشاكل كبيرة ، منها ان اللغة العربية السليمة تعرضت للوثة العجمة ، كما ظهر بين العرب من لا يحسن العربية ، وتعرضت عقيدة البعض منهم لشيء من الشك ، وظهرت بعض الافكار

والمبادىء تحمل لونا جديدا من التعليل والتسبيب ، فادى ذلك الى ظهور الدراسات اللغوية كالنحو مثلا . وتشير الاخبار التاريخية ان الامام عليا بن ابي طالب (رض) هو واضع علم النحو وان ابا الاسود الدؤلي أخذ العلم من الامام علي (رض) وما من شك أن الامام علي (رض) املى ذلك العلم على ابي الاسود الدؤلي في مسجد الكوفة ايام خلافته في تلك المدينة العربية العريقة .. وكانت مشكلة مرتكب الكبيرة هي السبب المباشر لنشوء فرقة اسلامية فكرية كبيرة هي فرقة المعتزلة وكان ظهورها في مسجد البصرة اثر الجدل الذي حصل بين الشيخ الحسن البصري وبعض من كان ملازما لحلقته امثال واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وانصارهما والذين كونوا حلقة جديدة في مسجد البصرة تقول بافكار واراء يعرضها الحسن البصري وانصاره : وهكذا ظهرت حركة المعتزلة وانتشرت آراؤها من مسجد البصرة الذي شهدت رحابه معارك كلامية ومجادلات عنيفة .

كذلك كان الشعراء يتخذون من المسجد مكانا لرواية الشعر ، ويؤيد هذا ماذكره الجاحظ من انه ادرك بالبصرة رواة المسجديين والمربديين ، وعن رواية الشعر تفرعت رواية اللغة وغريبها ، وظهرت طائفة من الباحثين اللغويين عرفت اذ ذاك باصحاب العربية الذين كانوا الرواد الاوائل للدراسات اللغوية ، وكان المسجد مقر العالم الخليل بن احمد الفراهيدي المتوفى سنة ١٧٤ هـ والذي يعتبر اول من رسم علم اللغة واول من صنف فيه . ويذكر ابن خلكان ان سبب موته كما قيل انهدخل المسجد فصدمته سارية وكان يقطع بحرا من العروض . والخليل بن احمد هذا هوواضع علم العروض وفن المعاجم في العربية ، وقد عاش معظم حياته في البصرة متزهدا متعففا ومن اشهر تلاميذه سيبويه والذي كان امام البصريين في النحو .

وكان مسجد الكوفة مدرسة رائدة لاقراء القرآن الكريم ، ففي هذا المسجد العتيد كان شيوخ الاقراء يجلسون فيلقنونطلاب العلم القراءات التيرووها باسانيدهم وكان عبد الله بن حبيب بن ربيعة السلمي الضرير مقرىء الكوفة اول من جلس لاقراء القرآن الكريم في مسجد الكوفة . وان يفخر مسجد الكوفة بقارىء نال شهرة واسعة وكان ثقة ثبتا ، انما يفخر بان رحابه ضمت احد قراء القرآنالكريم السبعة: حمزة بن حبيب بن عمارة الكوفي ، واليه صارت الامامة في القراءة بعد عاصم والاعمش، وتوفي حمزة سنة ١٥٦هـ .

وكان مسجد الكوفة مركزا كبيرا وخصبا من مراكز الفقه ، ففي هذا المسجد الشريف ظهرت بوادر مبادىء الفقه المبنى على التجرد واستنباط مفهومه من الكتاب والسنة ، في هذا المسجد جلس الامام علي بن ابي طالب (رض) يلقن الناس اصول

الدين وفي هذا المسجد جلس عبد الله بن مسعود وعروة بن ابي الجعد وشريح بن الحارث وسعيد ابن جبير ، وامتازت مدرسة الكوفة الفقهية بكثرة علمائها ووفرة آثارهم وأثرهم الكبير في ازدهار هذا العلم .

كما ظهرت في مسجد الكوفة مدرسة لتفسير القران الكريم واشتهر من رجالها سعيد بن جبير الذي قتل سنة ٦٤ هـ وكان سعيد بن جبير عالما بالتفسير وذكر ان الحلقة التى تحيط به في مسجد الكوفة كانت من اكبر الحلقات واكثرها طلابا . واستمر مسجد الكوفة في مسيرته التاريخية وهو يحفل بالادباء والعلماء وطلبة العلم ، يقوم بواجبه الثقافي وتشع منه أنوار المعرفة في شتى فنونها .

وفي المسجد كان المحدثون يعقدون الحلقات لرواية الحديث ، كما كان القضاة يعقدون جلساتهم في رحابه ، وهكذا اصبح المسجد مكانا للدرس والتدريس فيه يتعلم الناس القراءة والكتابة ، ويحفظون القرآن الكريم ويتفهمون معاني آياته ، ويدرسون اللغة العربية ويسمعون الشعر وروايته . هذا من ناحية التعليم ، اما مايخص التربية، اي تربية الفرد المسلم ، فانها كانت بشكل عام قائمة وخاضعة للتعاليم الاسلامية ومنبثقة من وحي القرآن الكريم وروح السنة الشريفة ، وتستمد اصولها من التقاليد والعادات العربية الاصيلة ، فالتربية اطار قوامها العام ، الخلق الحسن والآداب الحميدة والامر بالمعروف والنهي عن المنكر والشهامة والمروءة والعفو عند المقدرة والتعاون وعمل الخير والكرم والشجاعة وضبط النفس ومساعدة الفقراء والضعفاء، وكان الرسول (ص) وصحابته (رض) القدوة الحسنة للجيل العربي المسلم في صدر التاريخ الاسلامي .

ان المساجد الاسلامية ، مدارس خرّجت الرجال العظماء وانجبت العلماء الافذاذ اجل انها مدارس كنت تعمل بحق من اجل اعداد جيل قوي يتحمل عبء المسؤولية ، جيل يؤمن بالله عز وجل ، وبرسالة الاسلام الخالدة ، مدارس هذبت النفوس وصقلت العقول واحيت الضمائر ، فالنفس الطيبة والعقل المفكر المؤمن والضمير الانساني الحي كانت دعائم حياة المسلم وعلائم الشخصية العربية الاسلامية ، انها مدارس خرجت ابابكر الصديق مثل الصدق والوفاء وعمر بن الخطاب رمز الارادة القوية والعزيمة الثابتة وحمزة بن عبد المطلب نموذج الفداء والتفاني وعليا بن ابي طالب رمز الجهاد الخالد ونموذج العلم الكامل وصفحة الاسلام المشرقة بالحق والعدالة ، وبلال الحبشي ومصعب بن عمير وعماربن ياسر ومعاذ بن جبل وزيد ابن حارثة وطلحة بن عبيد الله وسعد بن ابي وقاص وابا ذر الغفاري وغيرهم كثيرين

رضي الله عنهم اجمعين ، كان لهم اثر كبير في وضع الاسس الرصينة من اجل بناء مجتمعنا الاسلامي المجيد .

واستمرت المساجد الاسلامية في أداء رسالتها التعليمية واخذت تعمل على تخريج عناصر علمية طيبة عملت على توسيع وتطوير العلوم وخدمة الانسانية ، فقد نبغ جعفر الصادق في مسجد المدينة وكان ملازما للعلم والتعليم حتى توفي سنة ١٤٨هـ ويعتبر جعفر الصادق من رواد الفقه الاسلامي وعنه اخذ ابو حنيفة النعمان بن ثابت المتوفى سنة ١٥٠ هـ ومالك ابن انس المتوفى سنة ١٧٩ هـ ، وظهر الشافعي في مسجد الفسطاط كما تعلم احمد بن حنبل في مساجد بغداد ، ومن الجدير بالذكر أن المدارس الفقهية ظهرت وترعرعت في رحاب المساجد الاسلامية .

وفي المساجد الاسلامية تعلم ونبغ الكثير من اللغويين والمفكرين والفقهاءوالمحدثين والمؤرخين ، ومن المساجد التي اشتهرت بحلقاتها العلمية وادت رسالتها التعليمية على احسن وجه : المسجد النبوي الشريف والحرم المكي ومسجد البصرة ومسجد الكوفة ومسجد الفسطاط ومسجد القيروان والمسجد الاموي بدمشق والمسجد الاقصى ومسجد الزيتونة وجامع المنصور ببغداد وجامع قرطبة وجامع ابن طولون والازهر الشريف بالقاهرة ، ان هذه المساجد وغيرها أدت رسالتها التعليمية والثقافية خير اداء وكانت النواة الاولى في تأسيس المدارس الجامعة في العالم الاسلامي ، ذلك أن المساجد كان يدرس فيها — كما قلنا — الكثير من العلوم ويفد اليها الطلاب من جميع أنحاء العالم الاسلامي ، فالتدريس في مسجد المنصور ببغداد كان امنية كثير من العلماء والفقهاء لاهميته ومكانته في القرن الخامس الهجري ، ذكر الخطيب البغدادي ، : انه لما حج شرب من ماء زمزم وسأل الله أن يحقق له ثلاث حاجات احداها أن يحقق له املاء الحديث بجامع المنصور ببغداد .

وروي ان اعرابيا دخل مسجد البصرة فانتهى الى حلقة يتذاكرون فيها الاشعار والاخبار فجلس وهو يستطيب كلامهم ، ثم اخذوا في العروض وتباحثوا في أوزان الشعر وظن انهم يأتمرون به فخرج مسرعا وهو يقول شعرا :

قد كان اخذهم للشعر يعجبني — حتى تعاطوا كلام الزنج والروم
لما سمعت كلاما لست افهمه — كانه زجل الغربان والبوم
وليت منفلتا والله يعصمني — من التفحم في تلك الجراثيم

وروى السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ ان القراءات والطب والميقات بالاضافة

الى دروس التفسير واللغة درست في الجامع الطولوني ، وهذا تطور كبير للدراسات في المسجد ، فتدريس الطب في الجامع الطولوني يعني تقدم الدراسات العلمية وعلى رأسها الدراسات الطبيــة في العصــور الاسلامية واهتمام المساجــد في تدريســها مما يدل على دور المسجد الاسلامي في تبني العلوم والعمل على ازدهارها والافــادة منها ، وهنا لابد من القول أن تدريس الطب في الجامع الازهر او جامعة الازهر لم يكن الاول من نوعه في الاسلام كدراسة منظمة فقد سبق ذلك المدرسة المستنصرية التي انشئت في بغداد سنة ٦٣٠ هـ ويبدو ان هذا العلم ادخل الى الجامع الطولوني ايام السيوطي اي في أواخر القرن التاسع الهجري .

ومن الجدير بالذكر انه كانت تلحق بكل مسجد مكتبة ضخمة تضم عددا كبيــرا من الكتب في مختلف العلوم والفنون والتي كانت توقف في العادة على المساجد حتى لاتبددها الايدي .

ان حركة التعليم تطورت في المساجد تطورا ملحوظا منذ أن شيد أول مسجد في عصر الرسول (ص) حتى القرن الرابع الهجري ، فقد كان التعليم قاصرا على تعلم القرآن وحفظه ، وتطور الى دراسة العلوم اللغوية ثم الى دراسة الحديث وروايته ، وبعد ذلك اخذ الفقه واصوله طريقهما الى المسجد ، ثم بدأت المجادلات الكلاميــة تأخذ مكانها في رحاب المساجد ، وقد نشأ منها علم الكلام والفرق الاسلامية كالمعتزلة والاشاعرة وغيرهما من الفرق الكلامية ، وفي القرن الثاني والثالث الهجريين نضجت حركة تدوين العلوم الشرعية وحركة تدوين العلوم اللسانية ، وصار المتعلم لاغنــى له عن درس التفسير والقراءات والحديث والفقه والكلام والنحو واللغة والبيان والادب ، وبرزت في هذين القرنين حركة الترجمة ونقل علوم القدامى وتراثهم من فلسفة وهندسة وطب وكيمياء ، وهذا يؤدي بنا الى حقيقة حضارية واضحة ، ذلك أن طلب العلم في أول الامر كان يتناول العلوم الدينية واللغوية ، ثم تناول بعد ذلك غيرهما من العلوم الدخيلة ، لهذا كانت الثقافة الاسلامية مزيجا من علوم العرب المسلمين ومن علوم الاقدمين ، وقد لعبت المساجد الاسلامية دورا مهما وبارزا في الحركــة العلمية التي سادت القرنين الثاني والثالث الهجريين وكانت طليعة البعث الثقافي وقاعدة التعليم بوجه عام قبل ظهور حركة المدارس في العالم الاسلامي .

والمساجد الاسلامية التي أدت رسالتها التعليمية بنجاح وازدهار ، كانت خير أمكنة انتشرت منها بحوث وتآليف العلماء والفقهاء والادباء ، ومعظم المصادر العربية

والاسلامية المخطوطة والمطبوعة كان المسجد مكان كتابتها ونشرها . فالقرآن الكريم كتاب الله العزيز ، كان الرسول (ص) يملي بكل ما يوحى اليه على اصحابه الطيبين في مسجده الشريف ، وصار الناس يستنسخون القرآن الكريم عندما انتشرت نسخ منه في المساجد الاسلامية .

وفي مسجد المدينة صنف مالك بن انس كتابه (الموطأ) وفي مسجد الفسطاط الف الشافعي كتابه (الام) ، وفي مسجد البصرة كتب الخليل بن احمد الفراهيدي كتبه المعروفة ومن اشهرها كتاب (العين)،وفي المسجد الاقصى بدأ الغزالي في تصنيف كتابه المشهور (احياء علوم الدين) واتمه في جامع دمشق ، وكتب التاريخ والتراجم تزخر باخبار العلماء والفقهاء والادباء الذين اتخذوا من المساجد الاسلامية امكنة ملائمة فيها يتزودون بالعلوم والمعارف ، وفيها يقيمون ويعيشون ، وفيها يدرسون ويتدارسون ويؤلفون ويصنفون ويخلدون آثارهم العامية والادبية .

وفي أواخر القرن الرابع الهجري بدات المدارس الاسلامية في الظهور وبخاصة في منطقة نيسابور، ثم انتشرت المدارس في العراق وسورية ومصر وسائر بلاد الاسلام.

ومن الجدير بالذكر ان قيام المدرسة في الاسلام بشكلها المنظم كان أول ذلك في العراق عند تأسيس المدرسة النظامية في بغداد سنة ٤٥٩ هـ والتي يسميها المؤرخون بأم المدارس والتي تعتبر من أشهر المدارس الاسلامية والتي قام بتاسيسها وانشائها الوزير السلجوقي نظام الملك والذي كان قد أمر بانشاء عدد من المدارس تحمل اسم النظامية في بغدادوالموصل والبصرة وهراة ونيسابور وغيرها من الامصار الاسلامية . ولعل من أشهر من درس في هذه المدرسة ، اعني المدرسة النظامية ببغداد ، الشيخ ابو اسحق الشيرازي والامام الغزالي .

وبعد انشاء المدرسة النظامية بدات الحركة المدرسية في الاسلام واخذ الخلفاء والامراء الموسرون يتسابقون في انشاء المدارس ، ولعل من اشهر تلك المدارس واكثرها تنظيما وروعة المدرسة المستنصرية ببغداد والتي اسسها الخليفة العباسي المستنصر بالله سنة ٦٣٠ هـ والتي تعتبر من أبرز الاثار العباسية في بغداد واصدق نموذج لتراثنا العربي الاسلامي .

وعلى الرغم من انتشار المدارس الاسلامية بشكل واسع وتطورها السريع ، فقد ظل المسجد الاسلامي قاعدة مهمة للتربية والتعليم ، وصار هو الذي يمد المدارس الاسلامية بطلبة العلم ، كما صار يتجاوب مع مايجد من علوم واداب تتفق وروح الدين الاسلامي . فالمسجد النبوي الشريف والحرم المكي والازهر الشريف

والنجف الاشرف والزيتونة فيتونس والقرويين بفاس والقدس الشريف، معاهد اسلامية كانت وستبقى باذن الله تمثل الوجه الناصع لمثالية الاسلام وتعبر بحق عن اهدافه العلمية ، وتقدم للعالم وبسخاء نتاج الفكر العربي والاسلامي قبسا من الروح والعقيدة والايمان .



(١) مكحول ــ هو مكحول بن أبي مسلم شهراب بن شاذل ابو عبد الله ، الهذلي بالولاء فقيه الشام في عصره ، من حفاظ الحديث النبوي الشريف .

(٢) ربيعة الراي ــ فقيه ومن الحفاظ وكان صاحب الفتوى في المدينة توفي سنة ١٣٦ هـ .

أثــر صقليــة

في نقل الحضارة العربية الإسلامية إلى الأوربيين

د . محمد كامل عياد

مجمع اللغة العربية ــ دمشق

يختلف المؤرخون الاوروبيون في نظرتهم الى الحضارة العربيــة ــ الاسلامية وتقدير قيمتها ، وحاول بعضهم الحط من شأنها وانكار كل أصالة لها ، فزعم باحث مشهور مثل ــ رينان ــ ان الفلسفة العربية ليست سوى فلسفة يونانية مكتوبة بحروف عربية ، في حين ان علماء آخرين يؤكدون مقدرة العرب المسلمين على اقتباس وتمثل ما يحتاجون اليه من عناصر غريبة ثم ابداع آثار جديدة منهــا . وهم ينوهون بما أضافه العرب المسلمون من اختراعات واكتشافات الى علوم القدماء وفنونهم ، كما يلحون على ابراز الصفات الذاتية والملامح الخاصة بالحضارة العربية ــ الاسلامية حتى أصبح من السهل جدا تمييز الآثار العربية ــ الاسلامية من غيرها في كل انحاء العالم .

على أن هؤلاء المؤرخين والعلماء الذين تتباين آراؤهم حول مكانة الحضــارة العربية ــ الاسلامية يجمعون من جهة اخرى على الاعتراف بتأثيرها في نشأة الحضارة الاوروبية الحديثة . فليس بينهم من ينكر ان الاوروبيين الذين عاشوا حقبة طويلة من الزمن في حالة مزرية من التأخر والجهل والهمجية بالقرون الوسطى لم يستيقظوا وينهضوا ويسيروا في طريق التطور والتقدم الا بعد ان اصطدموا واحتكوا بالعرب المسلمين واقتبسوا عنهم مظاهر الحضارة ونقلوا عنهم تراث القدماء وأخذوا عنهم كثيرا مما توصلوا اليه من منجزات في مختلف العلوم والفنون .

* * *

حدث الاصطدام والاحتكاك والالتقاء بين العالم العربي ــ الاسلامي والعالــم الاوروبي على ثلاثة محاور :

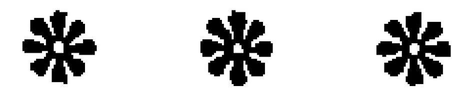
---

* اعــد هذا البحث للمؤتمر العالمي لتاريـخ الحضارة العربية الاسلامية ، دمشق ١٦ ــ ٢٢ جمادي الآخرة ١٤٠١هـ / ٢٠ ــ ٢٦ نيسان ١٩٨١م.

١ ـ في الاندلس ، حيث استمرت الحروب منذ فتحها في القرن الثامن الميلادي حتى خروج المسلمين منها في القرن الخامس عشر ، سواء في بعض مقاطعات اسبانيا أو في جنوبي فرنسا وتخلل ذلك فترات سلام واختلاط وتمازج بين السكان فازدهرت الحضارة الاسلامية بالاندلس وتأسست الجامعات العربية واخذ كثير من الاوروبيين يحجون الى طليطلة للدراسة وترجمة الكتب العربية .

٢ ـ في صقلية التي فتحها المسلمون في القرن التاسع الميلادي والتي سادت فيها اللغة العربية والحضارة الاسلامية عدة قرون .

٣ ـ في البلاد المقدسة خلال الحروب الصليبية منذ أواخر القرن الحادي عشر اذ احتل الغزاة الصليبيون أجزاء من فلسطين وسورية وعاشوا مع سكان البلاد ، على الرغم من استمرار القتال والتعصب والكراهية ، في فترات من الهدنة فعقدوا المعاهدات وتبادلوا الاسرى والبضائع التجارية واقتبسوا الكثير من مظاهر الحضارة.



ان البحث هنا سيقتصر على (صقلية) والدور الهام الذي قامت به في نقل الحضارة العربية ـ الاسلامية الى الاوروبيين .

تقع جزيرة صقلية في وسط البحر المتوسط بين الحوض الشرقي منه والحوض الغربي . وبسبب هذا الموقع المركزي كانت على اتصال بالشرق والغرب وبالشمال والجنوب وتعرضت الى تأثيرات مختلفة . وقد استقر فيها بالتناوب : القرطاجيون واليونان ثم الرومان والبيزنطيون والعرب والنورمان الذين ظلت اثارهم العمرانية وروائعهم الفنية قائمة فيها جنبا الى جنب . وبسبب موقعها الممتاز أيضا كانت هدفا لمطامع الدول المجاورة : فاحتدم التنافس والنزاع عليها بين القرطاجيين واليونانيين منذ القرن الثامن حتى الخامس قبل الميلاد ثم بين قرطاجة وروما في القرن الثالث قبل الميلاد . وبعد انهيار الامبراطورية الرومانية حاول اللومبارديون الاستيلاء عليها ولكنها ظلت تحت حكم البيزنطيين الى ان فتحها العرب في القرن التاسع الميلادي .
ويذكر المؤرخون أنها قد تعرضت الى غارات العرب المسلمين وغزواتهم مرات عديدة منذ انتصارهم على الاسطول البيزنطي في معركة (ذات الصواري) سنة ٣٤ هجرية /٦٥٥ ميلادية ، فغزاها عبد الله بن قيس سنة (٤٦) في زمن معاوية بن أبي سفيان وأصاب فيها غنائم ثمينة ، ثم تكررت الغزوات . الا ان المسلمين لم يخططوا جديا لفتحها الا بعد قيام دولة الاغالبة في القيروان سنة ١٨٥ هجرية / ٨٠١ م . وكان

للاغالبة أسطول قوي جعلهم يطمحون الى السيطرة على البحر الابيض المتوسط سيطرة تامة فاحتلوا جزيرة (كورسيكا) في سنة ١٩٣ هـ / ٨٠٩ م ، وجزيرة (ساردينيا) في سنة ١٩٤هـ / ٨١٠م ، ثم جزيرة (كريت) سنة ٢٠٨هـ \ ٨٢٣م، وبعد مدة جزيرة (مالطة) في سنة ٢٥٥هـ \ ٨٦٩م .

أما (صقلية) فقد سنحت الفرصة للاستيلاء عليها سنة ٢١٢هـ \ ٨٢٧م اذ يروي المؤرخون ان أحد الثوار الصقليين ضد الحكم البيزنطي جاء من مدينة (سرقسة) يطلب النجدة من (زيادة الله بن الاغلب) في القيروان الذي انتهز هذه المناسبة فأرسل اسطولا يحمل (٧٠٠) فارس وعشرة آلاف مقاتل تحت قيادة القاضي والوزير (أسد بن الفرات) الذي كان يبلغ السبعين من العمر . وقد مات (ابن الفرات) وكثير من جنوده بالطاعون وتوقف الفتح فترة . ولكن بعد وصول نجدة من الاندلس وأخرى من القيروان استطاع المسلمون الاستيلاء على مدينة (بلرم) سنة ٢١٦ هـ / ٨٣١ م . ، واتخذوها مركزا لادارة الجزيرة وقاعدة لمتابعة فتح سائر المدن . . ولم يكن من السهل التغلب على المدن الحصينة مثل (سينا) و (سرقة) و (طبرمين) و (جرجنت) و (قصريانه) التي استغرق فتحها أكثر من خمسين سنة .



دام الحكم العربي ـ الاسلامي في (صقلية) مدة قرنين ونصف القرن . وكانت السلطة في أيدي ولاة يرسلهم أمراء بني الاغلب من القيروان . وبعد قيام الخلافة الفاطمية في افريقية كان الولاة يرسلون من (المهدية) أولا ، ثم من مصر بعد انتقال العاصمة اليها .

وقد كثرت الثورات والاختلافات بين العناصر والطوائف العديدة فاضطربت العلاقات بين عاصمة الدولة وبين الجزيرة وأخذ الولاة يميلون الى الانفصال حتى جاء(الحسن بن علي بن الحسين الكلبي)الذي عينه الخليفة الفاطمي المنصور واليا على (صقلية) سنة ٣٣٧ هـ / ٩٤٨ م. ، فاستطاع ان يؤسس فيها أمارة شبه مستقلة تعاقب في الحكم عليها أولاده وأحفاده مدة خمسين عاما . وكان هؤلاء الامراء الكلبيون يعيشون في قصور فخمة ويجمعون في بلاطهم الشعراء والعلماء فازدهرت العاصمة (بلرم) بالاخص في عهد (أبي الفتوح يوسف بن عبد الله الكلبي) ٣٧٩ ــ ٣٨٩ هـ / ٩٨٩ ــ ٩٩٨ م .

اننا عندما نطالع تاريخ (صقلية) لدى المؤرخين العرب مثل (ابن الاثير)

و (ابن عذارى) و (ابن خلدون) و (النويري) لا نجد ذكرا الا للفتن والثورات والحروب الدامية ، المتواصلة ، ولابد أن نتعجب ، كما تعجب بالمؤرخ الانكليزي (سكوت) في كتابه (تاريخ الإمبراطورية العربية في أوروبا) ونتساءل معه : « كيف تمكن المسلمون في صقلية ، مع كل ذلك ، من أن يضربوا بسهم في تطور الحضارة وان يتقدموا في الحياة العمرانية ــ المدنية ، وأن يعملوا في الزراعة أو الصناعة وان يشاركوا في العلوم والفنــون ؟

وفي الواقع لم تكن الحرب كل شيء في حياة (صقلية) ، بل كان هناك وراء الاحداث التي يرويها أولئك المؤرخون مسرح آخر ترتسم فيه معالم واضحة للمسجد والمدرسة والسوق والبيت والمزرعة والمصنع . فاذا رجعنا الى الرحالة (ابن حوقل) الذي زار (صقلية) حوالي سنة ٣٦٠هـ / ٩٧٠م ، في عهد الكلبيين ، نراه يقول انه وجد في مدينة (بلرم) وحدها (٢٠٠) مسجد و(٣٠٠) معلم مدرسة، ولاحظ أن هؤلاء المعلمين يلاقون من السكان كل احترام وتقدير . ثم أضاف قائلا : « ذلك على الرغم مما اشتهر به معلمو الصبيان . من غفلة وخفة ونقصان عقل . »

لقد كانت (صقلية) العربية ــ الاسلامية تزخر بآثار العمران وكان فيها آلاف الشعراء وكثير من العلماء والاطباء الكبار الذين ذاع صيتهم في الاندلس ايضا . كذلك كانت هناك جامعة في (بلرم) . . على أن حضارة (صقلية) العربية ــ الاسلامية لم تبرز معالمها ويتجلى مستواها الرفيع الا بعد استيلاء (النورمان) على الجزيرة . .



ان المقاتلين (النورمان) الذين اجتاحوا (صقلية) في سنة ٤٥٢هـ / ١٠٦٠م بقيادة الامير (روجر بن تانكرد) ، وظلوا يحاربون مدة ٣٠ عاما قبل أن يتمكنوا من اخضاع الجزيرة لسيطرتهم ، قد خربوا كثيرا من المدن والحصون والقصور وعملوا على محو الآثار الاسلامية .

ولكن سرعان ما اضطر هؤلاء الغزاة الهمج الى الاستعانة بالعرب المسلمين في حكم الجزيرة . فقد حافظ الامير (روجر الاول) على نظام الادارة والدواوين القائمة وأبقى الموظفين المسلمين ، حتى الكبار منهم . في مناصبهم ، كذلك اختــار اكثر جنوده من المسلمين واتبع أساليب التدريب السائدة من قبل . وعلى الرغم من أنه لم يكن مثقفا فقد أحاط نفسه بجمع من العلماء والمنجمين والاطباء العرب المسلمين . وأصبح بلاطه في (بلرم) لا يختلف عن أمثاله في الشرق .

ويتجلى لنا المظهر العربي ـ الاسلامي بصورة اقوى في بلاط ابنه وخلفه الملك (روجر الثاني) (١١٠١ ـ ١١٥٤) الذي امتاز بالشجاعة الطموح والدهاء والاندفاع الى العمل . وقد تغلب على خصومه والمتربصين به واستطاع أن يوسع بلاده ويرغم البابا على تتويجه ملكا على (الصقليتين) (أي جنوبي ايطاليا وجزيرة صقلية) ويلقبه الادريسي بالملك المعظم المعتز بالله ، المقتدر بقدرته ..

استخدم (روجر الثاني) اكبر عدد ممكن من العرب المسلمين في تنظيم الجيش وادارة الدواوين ، في حين استعان باليونانيين في تجهيز الاسطول والعناية به . واقتبس الاصطلاحات العربية فكان هناك على رأس الاسطول والجيش (أمير الامراء) وكان هناك القاضي والقائد ، وكانت هناك مختلف الدواوين مثل ديوان المظالم وديوان الطراز وديوان التحقق المعمور . وكانت تستخدم في السجلات وفي المراسيم والاوامر الملكية اللغات الثلاث:العربية واليونانية واللاتينية.ان أقدم وثيقة على الورق موجودة في اوروبا هي أمر صادر عن والدة (روجر الثاني) الوصية عليه في سنة ١١٠٩ وقد كتبت باللغتين العربية واليونانية .

كان (روجر الثاني) نفسه يرتدي الثياب العربية ويجاهر بحبه للاخلاق الاسلامية وقد حشد في بلاطه عددا كبيرا من العلماء والمستشارين العرب المسلمين وفي مقدمتهم العلامة (الشريف الادريسي) الذي عهد اليه الملك بتأليف في الجغرافيا وجمع حوله مساعدين قاموا بتحديد مواقع المدن في صقلية وقياس المسافات بينها . وقد رسم الادريسي خارطة شاملة للعالم المعمور الذي قسمه الى سبعة أقاليم وجعل لكل اقليم عشر خرائط . ومجموعة الخرائط السبعين كان نشرها الباحث الالماني (كونراد ميللر) في شتوتغاردت سنة ١٩٢٦ ـ ١٩٣١ ، ثم اعيد نشرها منقحة من قبل المجمع العلمي العراقي في بغداد سنة ١٩٥١ .

ومع الخارطة قدم (الادريسي) الى (روجر الثاني) كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الافاق) المشهور أيضا باسم (كتاب روجر) . وقد نشر مختصر للكتاب مع ترجمة لاتينية في روما سنة ١٥١٢، فظل الاوروبيون يستقون منه معلوماتهم الجغرافية مدة طويلة ثم ظهرت ترجمة كاملة بالفرنسية (سنة ١٨٣٦ ـ ١٨٤٠) . ومنذ سنة ١٩٧٠ بدأت لجنة من علماء ايطاليا مع خبراء عالميين باصدار طبعة منقحة ، اقتصادية للكتاب . ولا عجب من هذا الاهتمام فان كتاب (الادريسي) يعد فتحا عظيما في تطور العلوم وفي الربط بين الجغرافيا الوصفية والجغرافيا الفلكية وكان له تأثير بالغ في تقدم المعرفة الجغرافية على الرغم مما يلاحظ عليه من نقص في النواحي الفيزيائية والرياضية بسبب عدم استفادته من بحوث (البيروني) في هذا المجال ..

وقد أفاض (الادريسي) بمقدمة كتابه في مدح (روجر الثاني) ووصف مزاياه والاشادة بكرم اخلاقه وبيان رجاحة عقله وسداد رايه وبقدرته على تصريف الامور ومعرفته بالعلوم . يقول العلامة (سارتن) أن (روجر الثاني) كان أكثر حكام عصره تنورا وقد استطاع ان يجعل من (صقلية) في مدة قصيرة ارقى واغنى دولة في اوروبا ، تمتاز بحضارتها وحسن نظامها على جميع البلاد الاوروبية في ذلك العصر . والى (روجر الثاني) يعود الفضل في العناية بالزراعة والصناعة والتجارة التي كانت تقدمت في عهد العرب المسلمين فاقتبس اساليبهم واعتنى خاصة بالمزروعات التي ادخلها العرب الى الجزيرة مثل قصب السكر والكتان والزيتون وشجع تربية دود القز وصناعة الحرير ، كما ارغم الامراء الاقطاعيين على الاقامة في بلاطه لتسهيل مراقبتهم ومنع تعدياتهم على الفلاحين ..

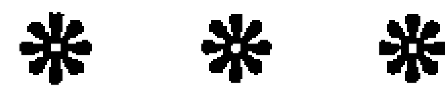
ان (روجر الثاني) الذي عاش في بيئة تسودها الحضارة العربية الاسلامية كان متسامحا في الامور الدينية والثقافية ويطلق الحرية لمختلف الاجناس والطوائف في مملكته . ولا بد هنا من الاشارة الى أن (روجر الثاني) الذي ارسل اسطوله لقصف القسطنطينية لم يشترك في الحرب الصليبية الثانية سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٧ م . وكيف كان يمكنه الاقدام على ذلك واكثرية رعاياه وجنوده من المسلمين ؟ وعدا ذلك فقد كان مخاصما لامراء الفرنج في مملكة القدس اللاتينية وكان يرفض تموين الصليبيين في البلاد المقدسة منذ الفضيحة التي نجمت عن زواج والدته ثم طلاقها من ملك القدس بغدوين الاول .

ظل الطابع العربي ـ الاسلامي سائدا في (صقلية) بعد عهد (روجر الثاني) ايضا ، فكان ابنه (ويليام الاول) (يرد أسمه في الكتب العربية غليالم) ، الذي خلفه من سنة ١١٥٤ ـ ١١٦٦ يتكلم العربية ، وقد الف له العلامة (الادريسي) ، الذي بقي مستشارا في البلاط ، عدة مصنفات جغرافية وكتابا في (الادوية المفردة) يسرد فيه اسماء الادوية باثنتي عشرة لغة . وكان (ويليام) الاول يشجع الترجمة الى اللاتينية سواء من اللغة العربية أو الاصول اليونانية. وفي عهده (أي في سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) تم نقل كتاب (المجسطي) الى اللاتينية من اللغة اليونانية مباشرة، واشترك في الترجمة عالم صقلي اسمه (أوجين البلرمي) المشهور باسم (الامير) الذي كان يتكلم اليونانية ويعرف العربية واللاتينية . وقد ترجم الى اللاتينية عن العربية كتاب (البصريات ـ اوبتيكا) المنسوب الى بطليموس والذي ضاع اصله اليوناني ، كما انه ساعد في ترجمة كتاب (كليلة ودمنة) من العربية الى اليونانية .

أما خلفه (ويليام) الثاني (١١٦٦ ـ ١١٨٩) م فيذكر عنه الرحالة (ابن جبير) ،

الذي زار صقلية في عهده (سنة ١١٨٤) ، انه يقرأ ويكتب بالعربية ويحيط نفسه بحرس من المسلمين ثم يضيف قائلا : « شأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين واتخاذ الفتيان . وهو كثير الثقة بالمسلمين وساكن اليهم في احواله وفي المهم من اشغاله حتى أن الناظر في مطبخه رجل من المسلمين » . كذلك هو « كثير الاعتناء بالاطباء والمنجمين ، شديد الحرص عليهم حتى انه متى ذكر له أن طبيبا أو منجما اجتاز ببلده أمر بامساكه وأدر له أرزاق معيشته حتى يسليه عن وطنه ». ويروي (ابن جبير) انه شاهد في (بلرم) النساء المسيحيات يرتدين ثياب المسلمات ، مما يدل على رسوخ التقاليد والعادات الاسلامية في الجزيرة . كذلك يتحدث (ابن جبير) عن استقلال المسلمين في ادارة شؤونهم وعن وجود موظفين مختصين بأحوالهم من مشايخ وحكام وقضاة وعمال وقادة ..

مات (ويليام) الثاني دون ذرية فانتخب الامراء احد احفاد (روجر الثاني) غير الشرعيين ، اسمه (تانكرد) ملكا في سنة ١١٨٩ ، ولم يستطع التغلب على الفوضى التي سادت البلاد ومهدت السبيل لاستيلاء الامبراطور الالماني (هنري السادس) على صقلية في سنة ١١٩٤ .



بذلك انتهى حكم (النورمان) في صقيلة . ولكن التراث العربي ـ الاسلامي ، الذي ظل حيا ومؤثرا في حياة السكان طول عهدهم مدة مائة وثلاث سنوات ، لم يتوقف عن الاشعاع والتفاعل بعد انتقال السيطرة الى أسرة (هوهنشتاوفن) الجرمانية . واذا كان الغزو الالماني قد أحدث كثيرا من الخراب واذا كان الحكم الاقطاعي الذي فرضه هؤلاء الالمان وسياسة الاضطهاد والاستعباد التي اتبعوها مما اضطر العرب المسلمين الى الهجرة خارج صقلية او الى الالتجاء في الجبال الوعرة ، فانه على الرغم من كل ذلك بقيت اثار الحضارة العربية ـ الاسلامية ظاهرة في الجزيرة وظل المسلمون يؤلفون جزءا كبيرا من سكانها الذين استمر معظمهم يتكلم بالعربية الى جانب اليونانية واللاتينية .

من هذه البيئة ، التي كانت تلتقي فيها وتختلط مختلف الحضارات واللغات والاجناس والطوائف ، برز الامبراطور (فريدريك الثاني) الذي تأثر الى ابعد حد بالحضارة العربية ـ الاسلامية والذي كان له أعظم الاثر في نقل الفلسفة والعلوم العربية ـ الاسلامية الى الاوروبيين .

ان (فريدريك الثاني) ابن الامبراطور (هنري السادس) من زوجته الاميرة (كونستانسا) بنت (روجر الثاني) ملك صقلية النورماني ووريثة عرشه الشرعية ولد في سنة ١١٩٤ م . وقدمات والده وهو في الثالثة من العمر ثم ماتت والدته سنة ١١٩٨ وهو في الرابعة من عمره فورث عنها عرش (صقلية) ونشأ يتيما تحت وصاية البابا (اينوسنت الثالث) الذي اهمل تربيته وتعليمه وحاول أن يحول دون وصوله الى عرش ابيه في الامبراطورية . ولكن الحظ ساعده فانتخب امبراطورا وتم تتويجه سنة ١٢١٥ بعد ان اقسم للبابا بأن يقود حملة صليبية لاستعادة القدس . الا انه أخذ يماطل ويؤجل موعد الحملة من سنة الى اخرى بأعذار صحيحة أحيانا وكاذبة في الغالب ، واستمر على ذلك في عهد البابا (اينوسنت الثالث) كله ثم في عهد خلفه (هونوريوس الثالث) الذي مات سنة ١٢٢٧ ، فتولى مكانه البابا (غريغوريوس التاسع) المعروف بصرامته والذي نفذ صبره فأعلن حرمان (فريدريك الثاني) من الغفران .

على الرغم من هذا الحرمان ومن مقاطعة رجال الدين ، سافر (فريدريك الثاني) الى فلسطين في خريف سنة ١٢٢٨ وتوج نفسه في كنيسة القيامة ملكا على القدس بعد ان دخلها سلما بالاتفاق مع الملك الكامل الايوبي . وقد تبين من مجرى الحوادث ان (فريدريك الثاني) كان على اتصال مع الملك الكامل منذ مدة سواء بالمراسلات او بتبادل الوفود والهدايا . وكان يقوم بالمفاوضات وزير الملك الامير (فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ) . ويبدو ان الملك الكامل خاف من انتماء أخيه الملك المعظم الى السلطان جلال الدين خوارزمشاه فاراد ان يستعين بالامبراطور فاستدعاه الى عكا ثم رضي بان يسلمه القدس وبيت لحم والناصرة على شرط ان تبقى اسوار القدس خرابا وأن لايتعرض الفرنج الى قبة الصخرة ولا الى المسجد الاقصى وان يكون الحكم في الرساتيق لوالي المسلمين .

كانت النقمة شديدة وعامة في البلاد الاسلامية على الملك الكامل لتساهله تجاه الصليبيين . الا ان معاهدة الصلح بين الطرفين ، التي تعتبر انجازا تاريخيا عظيما ومفخرة للامبراطور وشاهدا على مهارته السياسية قد اثارت من جهة اخرى استياء العالم المسيحي وسخط البابا الذي كان يريد محاربة المسلمين لا مفاوضتهم .

لم يبق الامبراطور سوى ثلاثة أيام في القدس . ثم أسرع الى عكا للابحار منها الى ايطاليا مودعا بشتائم الصليبيين الذين قذفوه بالاوساخ وهو في الطريق الى الميناء .

* * *

ان وصول الامبراطور (فريدريك الثاني) الى فلسطين ودخوله القدس سلما وزيارته لقبة الصخرة والمسجد الاقصى ، كل ذلك قد اثار اهتماما كبيرا لدى المؤرخين المسلمين المعاصرين . فقد شاع عن (فريدريك الثاني) انه كان مصافيا للمسلمين وخصما للبابا ، فكان طبيعيا ان يسرع المؤرخون البحاثة الى استقصاء اخباره وجمع اكثر ما يمكن من المعلومات عنه . وهكذا اخذ بعضهم يسأل القوام على ابواب الصخرة عن هيئته ومظهره ، واتصل اخرون بالقاضي شمس الدين عبد الكريم ، قاضي نابلس الذي نزل الامبراطور في داره والذي عهد اليه بمرافقته مدة اقامته في القدس ، للاستفسار منه عن حركاته واقواله . ومن طريف ما نقله (سبط بن الجوزي) في كتابه (مرآة الزمان) عن أحد القوام وصفه له بقوله : « كان الامبراطور اشقر،أمعط،في عينيه ضعف ، لو كان عبدا ما يساوي مائتي درهم » . ثم روى (ابن الجوزي) ان الامبراطور سأل القوام : « هذه الشباك التي على ابواب الصخرة من اجل ايش ؟ » قالوا : « لئلا يدخل العصافير . » فقال : « قد اتى الله اليكم بالخنازير » .

وذكروا انه لما دخل وقت الظهر وأذن المؤذنون قام جميع من كان مع الامبراطور من الفراشين والغلمان ومعلمه (وهو من صقلية كان قرأ عليه المنطق) فصلوا ، اذ كانوا من المسلمين .

وقال بعض الذين اتصلوا بالامبراطور : « الظاهر من كلامه أنه كان دهريا وانما بتلاعب بالنصرانية » .

ويشير المؤرخون العرب الى ان (فريدريك الثاني) كان عالما متبحرا في الهندسة والحساب والحكمة .

وفي الحقيقة قضى (فريدريك الثاني) طفولته في (بلرم) دون ان يتلقى تعليما منتظما ، انما كان مسموحا له بالتجوال في شوارع العاصمة واسواقها وبان ينتقي رفاقه كما يشاء وان يختلط بالناس ويعاشر من يروق له . وقد ساعده فكره الجوال المتعطش الى المعرفة ومواهبه الفطرية على ان يستفيد من كل ما شاهد او سمع وان يكتسب خبرة شخصية واسعة وان يتعرف الى مختلف الشعوب والطوائف ويطلع على عقائدها وتقاليدها وعاداتها وان يتعود على التسامح كما تعلم عدة لغات كانت منتشرة في صقلية مثل اللغة العربية واليونانية واللاتينيه والعبرية . فكان يكاتب صهره امبراطور بيزانس باليونانية وينشيء رسائله الى البابا او ملوك أوروبا باللاتينية، وينظم قصائده بالطليانية ويراسل الملك الكامل وحاشيته بالعربية ، وقد نقل (التاريخ

المنصوري) نص رسالتين بلغة عربية مزخرفة بعث بها بعد عودته من القدس الى الوزير ابن شيخ الشيوخ يتحدث فيهما عن حربه ضد البابا (غريغوريوس التاسع) .

يبدو أن (فريدرك الثاني) قد قرأ كثيرا من الكتب ، وبالاخص كتب التاريخ : وكان يطالع بعض الكتب العربية في مختلف العلوم والفلسفة وكان مغرما بالرياضيات والطبيعيات والميكانيك ويهتم بالتنجيم والسحر ويؤمن ببعض الخرافات الشائعة في زمانه . وبسبب غزارة معلوماته وتنوع مهاراته أطلق عليه معاصروه لقب (اعجوبة العالم وصانع المعجزات) . وليس ادل على مدى معرفته بالعلوم الاسلامية والفلسفية من المسائل المشكلة التي ارسلها الى الملك الكامل فعرضت على الشيخ علم الدين قيصر الحنفي (المعروف بتعاسيف) للاجابة عليها .

ولعل هذه الاسئلة لاتختلف عن تلك التي ارسلها أيضا الى ملك الموحدين (عبد الواحد الرشيد) فعرضها هذا على الفيلسوف الاندلسي المتصوف (ابن السبعين) الذي كتب رسالته المعروفة باسم (الاجوبة عن الاسئلة الصقلية) . ويظهر من كلام (ابن سبعين) ان أسئلة الامبراطور كانت تدور حول تعاليم (ارسطو) و (ابن رشد) في ازلية المادة وطبيعة النفس وخلود الروح وما شابه ذلك من قضايا فلسفية ودينية بالاضافة الى مسائل علمية مثل تصنيف النباتات وكيفية نمو اجناسها المختلفةوطرائق تلقيحها وتربيتها . .



كان الامبراطور مولعا بالصيد . ولذلك اعتنى بتدريب الصقور ثم اندفع الى دراسة طبائع هذه الطيور وغيرها من الحيوانات التي حشد أنواعا كثيرة منها في حدائق بلاطه . وقد جمع كثيرا من المؤلفات العلمية عن الحيوانات واضاف اليها كتابا من صناعته انتقل الينا وحده بين آثاره ، اعتمد في كتابته على كتاب في (البيزرة) باللغة العربية قام بترجمته الى اللاتينية (المعلم تئودور الانطاكي) وعني الامبراطور نفسه بمراجعته وتصحيح بعض اجزائه . وكان الملك الكامل قد أرسل الى الامبراطور، بطلب منه ، هذا العالم المنجم الذي لخص أيضا كتابا في (حفظ الصحة) ينسب الى (ارسطو) ،كماكان يقوم بتقطير الادوية والاشربة ويتولى المراسلات والبعثات الى الشرق .

وقبل ذلك كان (فريدريك الثاني) قد استدعى الى بلاطه عددا كبيرا من العلماء والمترجمين الذين يقومون بالبحوث والتجارب وفي مقدمتهم (ميخائيل سكوت)

الذي كان نقل الى اللاتينية كتاب الفلك للبطروجي وعهد اليه الامبراطور بترجمة شروح ابن رشد على مؤلفات ارسطو كلها . ويمكن القول ان (فريدريك الثاني) كان له فضل كبير في نشر فلسفة (ابن رشد) في البلاد الاوروبية لانه اعجب بنزعتها العقلانية ولانه كان في حاجة الى البراهين المنطقية والادلة العلمية في سبيل مكافحة تعاليم الكنيسة والرد عليها .

ولهذه الغاية ايضا انشأ في سنة ١٢٢٤ جامعة (نابولي) التي تعد من اهم مآثره اذ انها اسست بمرسوم امبراطوري دون ان تخضع للسلطة الكنائسية . كذلك قام الامبراطور بتوسيع مدرستي الطب في (سالرنو) و (بادوا) وجعلهما جامعتين كاملتين وجاء اليهما باساتذة من عرب صقلية .

وقد زود (فريدريك الثاني) مكتبة جامعة (نابولي) بمجموعة كبيرة من المخطوطات العربية واوعز بان تعتمد الدراسة على مؤلفات ارسطو وابن رشد التي كان امر بترجمتها كما طلب ارسال نسخ من الكتب المترجمة الى جامعتي (بولونيا) و(باريس).

واليه يرجع الفضل في نشر الارقام العربية وتقرير تدريس الجبر على الطلاب المسيحيين في اوروبا ...

الى جانب العلماء والفلاسفة في بلاط (فريدريك الثاني) كان هناك ايضا جمع من الشعراء يقصدونه من مختلف الاقطار وبالاخص من مقاطعة (البروفانس) جنوبي فرنسا حيث كان المغنون المنشدون (التروبادور) قد تأثروا بالشعر العربي في الاندلس مثلما تاثر به الشعراء الصقليون .

وكان الامبراطور يعرف بالتأكيد بعض الاشعار الشعبية في صقلية . كما كان هو نفسه وابنه (مانفرد) ينظمان الشعر باللهجة الطليانية ، وهذا شاعر ايطاليا الاكبر (دانتي) قد اثنى على شعرهما واعتبرهما من رواد الشعر الطلياني .

ان هناك فرضيات عديدة ونظريات متناقضه حول تأثير الادب العربي الاندلسي والصقلي في نشأة الاداب الاوروبية في عهد الاحياء وحول نصيب (فريدريك الثاني) وحاشيته في صقلية من هذا التاثير . والامر المؤكد الوحيد هو وجود علاقة بين التراث العربي ـ الاسلامي في الاندلس وصقلية على عهد النورمان ثم عهد (فريدريك الثاني) وبين النهضة الاوربية الحديثة .

كان اهتمام (فريدريك الثاني) متجها في الدرجة الاولى الى الامور العلمية ـ

الفنية والمسائل التطبيقية قبل التصورات الخيالية والتأملات الفلسفية والابحاث العلمية ــ النظرية البحتة .

وقد تمركزت عناية الامبراطور حول العلوم الطبيعية من حيوان ونبات ومن بيطرة وطب وفلك وتنجيم ثم كيمياء وميكانيك . وهو لايختلف في ذلك عن معاصريه الذين كانت تستهويهم هذه العلوم والفنون فاندفع الى اقتباسها من العرب المسلمين الذين كانوا قد نقلوها عن اليونان القدماء واستطاعوا تطويرها واغناءها بما قاموا به من بحوث وتجارب وما توصلوا اليه من اكتشافات واختراعات .

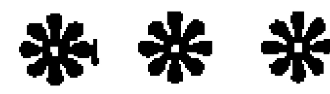
كذلك قام (فريدريك الثاني) بتنظيم الحياة الاقتصادية في بلاده متبعا الاساليب التي كان النورمان اقتبسوها في صقلية عن العرب المسلمين سواء فيما يتعلق بمصانع الطراز أو اصول المحاسبات المالية أو نظام النقد . وقد انتقلت هذه المالية الى التجار اللومبارديين ومنهم الى جميع المدن التجارية الاوروبية والدوائر الحكومية في بلاد الغــرب .

ومن المفيد ان نذكر هنا اقدام (فريدريك الثاني) على اصلاح نظام النقد . فقد لاحظ خلال اقامته في البلاد المقدسة فائدة وجود عملة ذهبية ثابتة القيمة . وكانت النقود الذهبية لم يبق لها أثر في البلاد الاوروبية بعد غارات البرابرة اذ اصبحت كل العملات الأوروبية ــ الغربية منذ القرن الثامن حتى القرن الثالث عشر اما من الفضة أو معادن دونها قيمة . لذلك كانت النقود الذهبية البزنطية التي تسمى في الغرب (بيزانتس) تتمتع بمكانة عالية في العالم المسيحي .

وقد قام (فريدريك الثاني) بعد عودته من القدس بسك نقود ذهبية اطلق عليها اسم (اوغوستاليس) لتنافس نقود الامبراطور الروماني (أوغسطس) المشهورة. وعلى الرغم من طابع التقليد البادي عليها فانها كانت متقنة السبك ، جميلة المنظر ، خالية من كل شعار ديني خلافا للمعتاد اذ ذاك ، مقتصرة على النسر الروماني يحيط باسم (فريدريكوس) على أحد الوجهين وكلمات : روما وقيصر واوغوست والامبراطور على الوجه الاخر . كان (فريدريك الثاني) يقصد بذلك اضفاء مظاهر الروعة والهيبة والقدسية على شخصه اسوة بالاباطرة الرومان والاستغناء عن وصاية الكنيسة وبركتها.

ويظهر حرصه على الاقتداء بالاباطرة القدماء في اطلاقه اسم (الكتاب الاوغوسطي) على مجموعة القوانين التي اصدرها في سنة ١٢٣١ . وتعتبر هذه المجموعة من أكمل الانظمة الحقوقية وقد بنيت على أساس علمي لاول مرة منذ قوانين (جوستينيان) ،

كما جعلت البلاد خاضعة لتشريع موحد وسلطة واحدة مطلقة . كانت هذه القوانين رجعية من بعض الوجوه لانها اقرت الفروق الطبقية الاقطاعية وحافظت على جميع حقوق السادة على الاقنان ، الا انها كانت تقدمية من وجوه كثيرة اذ جردت النبلاء من السلطات التشريعية والقضائية ومن حق سك النقود وادخلت اصلاحات عديدة على اصول المحاكمات ، فمنعت اساليب التعذيب كما شملت تنظيم مهنة الطب والعمليات الجراحية وبيع الادوية . وكان (فريدريك الثاني) يشجع على تشريح الجثث ، رغم معارضة الرأي العام .



يتبين من القوانين والمراسيم التي اصدرها (فريدريك الثاني) ومن الانظمة الادارية التي اتبعها انه كان حريصا كل الحرص على فرض سلطته الامبراطورية ، متمسكا بالحكم الفردي الاستبدادي المطلق ، القائم على مبدأ المركزية التامة . فلم يكن يسمح بالاعتداء على مصلحة الدولة او بالتحدي لاوامره ولا يتأخر عن معاقبة الخارجين على النظام بكل شدة .

وقد ابدى بعض الباحثين دهشتهم تجاه التدابير القاسية جدا التي لجأ اليها الامبراطور لمكافحة الهرطقة وهو الذي اشتهر بالتفكير الحر والتسامح الديني . ولكن الامر هنا يتعلق بسلامة المجتمع ومصلحة الدولة فلم يكن هناك مجال للتساهل . .

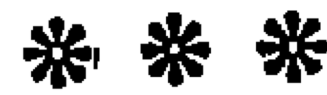
كذلك تعرض (فريدريك الثاني) الى انتقادات لاذعة بسبب قسوته تجاه بقايا المسلمين في صقلية الذين قاموا بالثورة دفاعا عن حقوقهم واراضيهم في سنتي ١٢٢٢ — ١٢٢٣ ثم السنوات ١٢٤٣ — ١٢٤٦ ، وذلك لما عرف عنه من ميله الى المسلمين وعلاقاته الطيبة بملوك المسلمين. ويروي مؤلف (التاريخ المنصوري) ان احد المسلمين الذين هربوا من صقلية وصل الى (حران) وقابل الملك الكامل وطلب منه الكتابة الى الامبراطور في هذا الشأن .

ان (فريدريك الثاني) لم يكن ليستطيع التساهل مع العصاة ومثيري الفتنة ولكنه اضطر الى تهجير هؤلاء المسلمين الثائرين من (صقلية) الى جنوبي ايطاليا فأسكنهم في مدينة (لوجيرا) واعتنى بأمرهم والف منهم حرسه الخاص الذي حارب به (البابا) .

يذكر المؤرخون ان وفدا اسلاميا زار (فريدريك الثاني) في سنة ١٢٣٢ في اثناء اجتماع (المجلس التمثيلي) للامراء والاساقفة الالمان فاسرع الامبراطور الى الترحيب

والاحتفاء بهؤلاء العرب المسلمين الذين كانوا يحتفلون بأحد اعيادهم ، ثم انضم اليهم وشاركهم في الاحتفال على مرأى من الجميع .

ويروي (ابو الفداء) نقلا عن قاضي حماة (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل) انه سافر في سنة ١٢٦٠ الى «الارض الطويلة» أي ايطاليا كما كان يسميها الجغرافيون العرب اذ ذاك ، موفدا من قبل الملك (الظاهر بيبرس) الى الامبراطور (مانفرد) ابن (فريدريك الثاني)و ان (مانفرد) كان من بين ملوك الفرنج مصافيا للمسلمين ويحب العلوم . ثم يقول (ابن واصل) : « فلما وصلت الى الامبراطور اكرمني واقمت عنده في مدينة من مدن (انبولية)واجتمعت به مرارا ووجدته متميزا ومحبا للعلوم العقلية . وقد صنفت له (الرسالة الانبرورية) في المنطق .. وبالقرب من البلد الذي كنت فيه مدينة تسمى (لوجيرا)اهلها كلهم مسلمون من اهل جزيرة صقلية ، يقام فيها الجمعة ويعلن بشعائر الاسلام .. » ويضيف (ابن واصل) قائلا : ان الامبراطور (مانفرد) قد حارب البابا برومية الذي كان حرمه من الغفران كما كان حرم والده (فريدريك) واخاه (كونراد) وذلك لميلهم الى المسلمين .



يقول المؤرخ السويسري (يعقوب بوركهاردت) في كتابه المشهور (حضارة عهد الاحياء في ايطاليا) : « ان (فريدريك الثاني) ، تلميذ العرب ، كان اول انسان اوروبي حديث ».

وقد عارض بعضهم هذا الراي وذهب الى ان فيه شيئا من المبالغة ، مدعيا ان (فريدريك الثاني) كان قبل كل شيء ابن القرون الوسطى وظل متمسكا بنظام الاقطاع وعبودية الاقنان وفكرة الامبراطورية الرومانية المقدسة .

ولكن لاشك أيضا في انه كان يمتاز على معاصريه وقد سبقهم بكثير من الافكار والمبادىء الجديدة التي لم تبرز الا بعد قرنين من عهد الاحياء . والسبب في اختلاف النظرة اليه يرجع الى شخصيته المعقدة ذات الجوانب المتعددة والمظاهر المتقلبة . وانه من الصعب حصر هذه الشخصية في قالب محدد او حشرها ضمن نوع معين من النماذج البشرية . ولفهم هذه الشخصية الفذة ، الغريبة، ومعرفة صفاتها الخاصة لابد من التذكير بان (فريدريك الثاني) عاش يتيما في طفولته ، محروما من حنان الوالدين ، مهملا، ، مشردا ، مضطربا ، تعلم في سن مبكرة جدا أن لايثق بأحد وأن لايعتمد الا على نفسه وأن يقابل الناس بالريبة والحذر وأن يلجأ الى المراوغة والمكر

والخداع ، فاعتاد على قساوة القلب وصار « واقعيا » لا يهتم الا بتحقيق اهدافه بكل الوسائل .

لقد كان مثقفا ، متنورا من الوجهة الفكرية ولكنه كان في الوقت نفسه رجعيا ، متخلفا من الوجهة السياسية .. كان احيانا متعصبا عندما تتطلب مصلحته ذلك ولكنه كان في اكثر الاحيان متسامحا ، متحررا من الخرافات ، كان يظهر عليه في بعض الاوقات الخشونةوالصلابة والعنف ، الا انه يبدو في أوقات اخرى مرحا ، لطيفا ، شهما ،انه كثيرا ماكان يتحمس ويندفع ويتهور ، ولكنه سرعان مايستعيد رباطة جائشه واتزانه ويسيطر على الموقف .. لقد كان يعرف معرفة دقيقة طبائع البشر وعواطفهم واهواءهم ، فاكتسب بذلك مرونة ومهارة في التعامل مع الناس .

لا غرابة في ان يجمع(فريدريك الثاني) المتناقضات في شخصه وهو الذي ورث طبائع اجداده الجرمان والنورمان وتلقن تعاليم القرون الوسطى وتقاليد الرومان والبزنطيين وتأثر بالحضارة العربية ــ الاسلامية وبالحكمة اليونانية القديمة . وقد انعكس هذا التراث الضخم في بلاطه الذي امتاز بالنشاط الفكري والبحث العلمي .

اننا بعد تحليل شخصية (فريدريك الثاني) والكشف عن العناصر المختلفة التي تمازجت فيها لابد لنا من الاعتراف بأنه حقا نسيج وحده وانه يستحق وصف (أول اوروبي حديث) لانه كان مجددا ، مبتكرا ، رائدا . فقد تحرر من الافكار السابقة ، المتوارثة ومن تقاليد القرون المظلمة واصطدم بالبابوات فحاربهم ، ونشر فضائحهم ومهد بذلك السبيل لتحرير الدولة من سيطرة الكنيسة وتعاليمها . وأهم صفة امتاز بها هي اتجاهه العقلاني ونزعته العلمية . فقد كان يحب الاطلاع ودراسة كل العلوم والفنون وكان اهتمامه منصرفا في الدرجة الاولى الى العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية .واليه يرجع الفضل في تشجيع طرائق البحث الاستقرائية والتجريبية .

وهكذا نستطيع القول انالحضارة العربية ــ الاسلامية التي ازدهرت في صقلية في عهد الامراء الكلبيين قد استمر تأثيرها في ملوك النورمان وفي عهد الامبراطور (فريدريك الثاني) الذي اقتبس عنها الكثير من المظاهر المادية ــ الخارجية والانظمة الادارية والاقتصادية ثم اعتنى قبل كل شيء بتراث العرب العلمي والفلسفي فنقل الى الاوروبيين مؤلفات (ابن رشد) وبذلك نشر التفكير الحر ومهد السبل الى عهد الاحياء . وقد قيل بحق انه لولا (فريدريك الثاني) لتاخرت النهضة الاوروبية الحديثة مدة قرن او قرنين ..

بعض مراجع البحث :

١ ـ د. احسان عباس ، العرب في صقلية . مصر ١٩٥٩

٢ ـ التاريخ المنصوري ، تاليف ابي الفضائل محمد بن علي الحموي .
(نشرت اكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي نسخة مصورة عنه سنة ١٩٦٣ ، ويقوم مجمع اللغة العربية بدمشق بطبعه في الوقت الحاضر) .

٣ ـ ميشيل اماري ، المكتبة الصقلية . * لايبزيغ 1887

٤ ـ حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الاندلس ، القاهرة ١٩٦٧

٥ ـ ابن حوقل ، المسالك والممالك .

٦ ـ ابن جبير ، الرحلة .

٧ ـ الشريف الادريسي ، نزهة المشتاق في اختراق الافاق .

٨ ـ سبط بن الجوزي ، مراة الزمان ، طبعة الهند المجلد (٨)

٩ ـ **Jacob Burkhardt, Die Kultur der Renaissance in Italien**

١٠ ـ **E. Kantoroviez, Kaiser Friedrich der Jocite, Berlin 1981**

(كتاب كانتوروفيج هذا ما زال احسن مصدر عن حياة فريدريك الثاني رغم مرور خمسين عاما على تأليفه . . ترجم الى الانكليزية) .

نظام ملكية الارض

في المغرب الإسلامي

القرون ١ – ٦ هـ ، ٧ – ١٢ م

د . الحبيب الجنحاني

كلية الاداب والعلوم الانسانية – الجامعة التونسية

بالرغم من تزايد العناية خلال السنوات الاخيرة بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الاسلامي(١) فان كثيرا من القضايا الكبرى ماتزال مطروحة ولا نعرف عنها الا النزر مثل البنية الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الريفي المغربي خلال العصر الوسيط . فاذا كانت معلوماتنا عن المدن متوفرة وتكاد تكتمل لدينا الصورة عن حياة الناس في المدينة ، فان مانعلمه عن الحياة الزراعية في الريف مايزال قليلا مشتتا لا يسمح بالتعمق في تحليل الهياكل انطلاقا من نصوص دقيقة واضحة ، ولا سيما خلال القرون الخمسة الاولى أي قبل بروز ظاهرة كتب الفتاوى والرحلات .

ان المشكلة الاولى التي تعترض سبيلنا في محاولة التعرف الى الهياكل الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع الزراعي المغربي هي نظام ملكية الارض . فاذاكانت كتب الجغرافيين العرب(٢) تمدنا ببعض المعلومات عن المناخ وعن الموارد المائية ، وعن زراعة البستنة في الواحات وفي ضواحي بعض المدن(٣) وعن انواع الزراعات ،وعن تربية الماشية ، فانها لا تفيدنا شيئا ذا شأن عن نوع ملكية الارض ، وأوجه انتقالها ، وأساليب استغلالها .

وأود في هذا الصدد الاشارة الى الملاحظات الاساسية التالية :

أولا : تهدف هذه المحاولة الى معرفة الواقع التاريخي لهذا الجانب الخطير من جوانب الحياة الاقتصادية في المغرب الاسلامي الوسيطي ، وهو واقع قد تجاوز نظرية الاسلام في ملكية الاراضي ، فانه من المعروف أن الدول الاسلامية التي قامت في المشرق والمغرب معا لم تحترم – في أغلب الاحايين – المبادىء التي طبقت على الاراضي المفتوحة في العصر الراشدي ، وهي التي حاول العودة اليها الخليفة

---

* أعد هذا البحث للمؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، دمشق ١٦ – ٢٢ جمادي الآخرة ١٤٠١هـ / ٢٠ – ٢٦ نيسان ١٩٨١م.

الاموي عمر بن عبد العزيز فيما ادخله من تغيير على الملكية الزراعية وعلى النظام الجبائي الاموي(٤) . وقد مس التجاوز المذكور نظام ملكية الارض وخاصة ارض الصوافي من جهة ، والضرائب الموظفة على انتاج الارض من جهة اخرى . ونبادر الى القول هنا بان المعلومات النظرية معروفة ومصادرها متوفرة (٥) ، ولكنها لاتعكس الواقع التاريخي وتطوره واختلافه من منطقة الى اخرى .

ثانيا : وتتبدل الصورة في بلاد المغرب ابتداء من القرن السادس الهجري حيث تمدنا كتب الفتاوى بمعلومات دقيقة عن اساليب ملكية الارض في كثير من المناطق المغربية . واذا كان المتتبع يقف على اشارات في هذا المجال هنا وهناك في كتب التاريخ والطبقات تتصل بفترة بروز دول مغربية مستقلة عن مركز الخلافة ابتداء من نهاية القرن الثاني للهجرة فانها اندر من الكبريت الاحمر خلال عصر الولاة (أعني خلال القرنين الاول والثاني) .

ونلمس في هذا الصدد فرقا واضحا في هذا المجال بين المشرق والمغرب ، فهنالك معلومات دقيقة عن ملكية الارض في العراق ولا سيما في اراضي السواد وفي بلاد الشام(٦) ، و مصر أيضا ، فابن عبد الحكم يسهب الحديث عن خراج مصر ، وعن اساليب جبايته في صدر الاسلام ، ويحدثنا عن القطائع وعن أصحابها(٧) .

ثالثا : انني اميل الى الاعتقاد بأن للخصائص الجغرافية لبلاد المغرب(٨) ومميزاتها الديمغرافية تأثيرا عميقا في اكتساب نظام ملكية الارض في المغرب سمات تميزه عن كثير من المناطق الاخرى للمجتمع العربي الاسلامي .

رابعا : ان معرفة اساليب ملكية الارض وخصائص البنية الاقتصادية الاجتماعية للريف ، والعلاقة بينه وبين المدينة أمر اساسي وضروري لمعرفة أساليب العيش وأنماط الانتاج ، والنمط السائد بينها .

ان الجهد التنظيري في تحليل البنى الاقتصادية والاجتماعية والحديث عن (النمط الآسيوي للانتاج)(٩) ، وعن نوعيه (الاقطاع) المغربي ، وعن (نمط الانتاج الرعوي) وغيرها من المفاهيم التي ماتزال في حاجة ملحة الى التوضيح والتدقيق بالنسبة للتاريخ الاسلامي عامة ، يبقى محدودا طاغيا عليه الطابع النظري التخميني ، ما لم تدعمه ابحاث تاريخية وجغرافية اجتماعية تنطلق اساسا من النصوص ومن قراءة جديدة لها ، ولنتائج الحفريات ، ومن دراسة علمية للعملة ، ومن كشف دقيق عن الموارد المائية .

لقد أكدت كثيرا على دور التجارة الكبرى فيما عرفه المغرب الاسلامي الوسيطي من تطور عمراني كبير(١٠) ، ولكنني بالرغم من ذلك لا أتفق مع الاستاذ سمير أمين في كتابه (الامة العربية) (١١) فيما ذهب اليه من تقليص دور الفلاحة وحصر أسباب الازدهار العمراني في التجارة الكبرى .

ان المجتمع المغربي الوسيطي يبقى مجتمعا زراعيا اولا وبالذات رغم ماعرفه من شبكة مسالك نشطة ، ومن مدن مزدهرة تجاريا ، كان لها اثر فعال في الدورة التجارية العالمية عصرئذ ، وذلك بفضل ربطها بين واجهتين تجاريتين حساستين ، الواجهة البحرية والواجهة الصحراوية ، ومد حركة التبادل التجاري الدولي ببضاعتين ثمينتين من بضائع العصر : الذهب والرقيق .

ونعتقد ان تطور التجارة البعيدة المدى قد ساهم في تطور الفلاحة حيث أصبح كثير من المنتوجات الزراعية تحتل مكانا بارزا في قائمة البضائع المتبادلة . وقد أدى ارتفاع ثمن بعض هذه المنتوجات الى العناية بها ، وتطوير الاساليب الزراعية لانتاجها مثل زراعة القمح في واحة سجلماسة ، فهو بضاعة ثمينة في تبادلها التجاري مع بلاد السودان ، فاعتنى السجلماسيون بالزراعة السقوية في البساتين المقامة على الوادي . ويشبه ابن حوقل زراعتهم السقوية بزراعة المصريين على ضفتي النيل قائلا : « فيزرع بمائه حسب زروع مصر في الفلاحة وربما زرعوا سنة عن بذر وحصدوا ماراع من زرعه ، وتواترت السنون بالمياه ، فكلما اغدقت تكد الارض سنة في عقب اخرى حصدوه الى سبع سنين بسنبل لايشبه سنبل الحنطة ولاالشعير بحب طلب المكسر ، لذيذ المطعم ، وخلقة ما بين القمح والشعير »(١٢) . ويسمى البكري هذا القمح بالصيني ، ويسع مد النبي (ص) منه خمسة وسبعين الف حبة .

ان هذه الاشارات تدل على عناية خاصة بتطوير هذه الزراعة ، وهي عناية تتجاوز في رأينا تلبية الحاجات الاستهلاكية لسكان الواحة ، بل تكمن وراءها أهمية هذا الانتاج الفلاحي في العلاقات التجارية بين المغرب وبلاد السودان . ونجد مثالا آخر يوضح مدى ارتباط الازدهار التجاري وبروز فئات اجتماعية ثرية متخصصة في التجارة الكبرى بمحاولة تطوير الزراعة وتسديد حاجات استهلاكية جديدة رغم صعوبة المناخ الجغرافي في مدينة تجارية صحراوية مثل مدينة اودغست (١٣) ، فقد استفاد مزارعوها من تجربة واحة تافيلالت واعتنوا بزراعة القمح السقوي لما يدره من أرباح نظرا لندرة البضاعة في مدينة تسكنها فئات التجار الاثرياء ، يقول البكري « وهي مدينة كبيرة آهلة رملية يطل عليها جبل كبير موات لاينبت شيئا ... وحولها

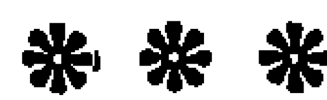
بساتين النخل ، ويزرع فيها القمح بالفؤوس ويسقى بالدلاء يأكله ملوكهم وأهل اليسار منهم ، وسائر أهلها يأكلون الذرة » (١٤) .

ويتحدث ابو العباس الناصري السلاوي عن النمط المعيشي لقبائل الملثمين ، وكان موطنهم أرض الصحراء والرمال الجنوبية فيما بين بلاد المغرب وبلاد السودان ، فيقول : « وفيهم قوم لا يعرفون حرثا ولا زرعا ولا فاكهة وانما أموالهم الانعام وعيشهم اللحم واللبن ، يقيم أحدهم عمره لا يأكل خبزا الا أن يمر ببلادهم التجار فيتحفونهم بالخبز والدقيق »(١٥) .

وقد عرفت الزراعات المتخصصة تطورا كبيرا نتيجة ازدهار الحركة التجارية ، مثل زراعة قصب السكر في منطقة قرية تارودانت ببلاد السوس الاقصى ، « وهي أكثر بلاد الله قصب سكر وفيها معاصر السكر كثيرة ... ومنها يجلب السكر الى جميع بلاد المغرب والاندلس وافريقية »(١٦) .

انه بالرغم من تأثير التجارة الكبرى في ميادين فلاحية معينة فقد بقي هذا التأثير محدودا ولم يساهم رأس المال التجاري مساهمة ذات أثر في تقدم الزراعة وتطور المجتمع الريفي المغربي ، ولا تقدم لنا النصوص المعروفة معلومات عن استثمار أرباح التجارة الكبرى في شراء الاراضي واستصلاحها في المغرب كما كان الشأن بالنسبة للعراق مثلا(١٧).

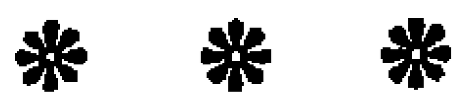
خامسا : ولابد من الاشارة هنا الى ان مشكلة المفاهيم المتصلة بالملكية الزراعية في البلاد المفتوحة مثل الفيء والغنيمة والجزية والخراج والضياع والاقطاع والحماية ونظم الجباية الموظفة على انتاج الارض ، ما تزال مطروحة رغم ما كتب عنها قديما وحديثا(١٨) ، فهي مفاهيم قد تطورت حسب واقع اقتصادي واجتماعي معين ، واختلفت من منطقة جغرافية الى اخرى لاسباب متنوعة ، فما نعرفه من تنظيم لشؤون الجزية والخراج في صدر الاسلام في مناطق مثل العراق ومصر يبقى غامضا في بلاد المغرب ، وأنواع الاقطاع الذي عرفته الخلافة العباسية ابتداء من القرن الرابع الهجري(١٩) ، لانجد له أثرا واضحا في المغرب . ومن هنا جاء تلميحنا الى دور الخصائص الجغرافية لبلاد المغرب وميزاتها الديمغرافية في تفرد نظام ملكية الارض في المغرب الاسلامي بسمات خاصة .



وبعد هذه الملاحظات العامة التمهيدية أعود الى مشكلية ملكية الارض في المغرب، وما عرفته من تحول خلال الفترة التي ندرسها هنا ، أي من القرن الاول الى سقوط الدولة المرابطة (٥٤٠هـ/١١٤٦ـ١١٤٧م) لطرح السؤال التالي :

كيف كانت سياسة الدولة الاسلامية في المغرب بعد الفتح ، وبعد اتخاذ قرار الاستقرار ، وتأسيس القيروان لتكون مصرا جديدا للعرب الفاتحين على غرار امصار المشرق مثل الكوفة ، والبصرة والفسطاط . ان العرب المسلمين قد انتهجوا دون ريب في الفترة الاولى نفس السياسة التي انتهجوها في العراق وفي بلاد الشام ، وخاصة في مصر حيث كان المغرب تابعا لولاية مصر(٢٠)، وقد شارك في فتحه كثير من العرب المسلمين المقيمين في الفسطاط « وكان الناس قبل ابي المهاجر يغزون افريقية ثم يقفلون الى الفسطاط »(٢١) .

والقضية الاولى التي تعترض سبيلنا في المستوى النظري هي : هل فتحت افريقية عنوة او صلحا ؟ وهي القضية الكلاسيكية التي واجهت الفقهاء والمؤرخين في فتح العراق وبلاد الشام ، ومصر(٢٢) . نقل عبد الله بن ابي زيد في كتابه (النوادر والزيادات على المدونة) عن سحنون،قال:كشفت عن أرض افريقية فلم أقف منها على حقيقة ، هل هي عنوة او صلح ، وسألت عن ذلك علي بن زياد فقال :« لم يصح عندي فيها شيء « . وعن بلاد المصامدة وارض مراكش قال ابن عبد الحليم (؟) : اتفق اشياخ بلادنا من أهل العلم انها اسلم عليها اربابها ، وليس فيها صلح ولا عنوة ، وقال عن ابي الاصبغ القرشي ادركنا أهل الفقه والورع في بلاد الاندلس يشترون الارض فيها ويبيعون ونحن متبعون لهم وانتم متبعون اسلافكم في مغربكم(٢٣) . وهناك رواية اخرى تشير الى ان البلاد المغربية لم تجر في الافتتاح على قانون، بل منها ما افتتح عنوة ومنها ما افتتح صلحا . ونقف في تتبعنا للنصوص القديمة حول هذه النقطة على مفهوم جديد « اسلم عليها اهلها » وهي ماتعنيه عبارة «المعيار» للونشريسي : « وأما بلاد افريقية ـ وهي معظم المغرب ـ ففيها بلاد ليست بصلحية ولاعنوية » (٢٤) . ويخبرنا صاحب الاستقصاء ان احد عمال المنصور بن ابي عامر صاحب الاندلس حين تغلب على ارض فاس قال لهم : « اخبروني عن ارضكم اصلح هي أم عنوة ؟ فقالوا له لاجواب لنا حتى يأتي الفقيه ، يعنون أبا جيدة ، فجاء الشيخ المذكور فسأله العامل فقال : ليست بصلح ولاعنوة انما اسلم عليها اهلها فقال: خلصكم الرجل »(٢٥)



وقبل الحديث عن وضع الملكية في بلاد المغرب خلال القرن الاول اود التذكير بالسياسة التي اتبعها المسلمون في مصر في هذا الميدان ، ايمانا منا بأن جوانب كثيرة من هذه السياسة قد طبقت في المغرب نظرا لارتباطه بمصر في هذه الفترة ارتباطا وثيقا ، فقد سعى العرب الفاتحون ان يتم فتح مصر صلحا لتكون لهم فيئا وغنيمة ، فلما عرض المقوقس على عمرو بن العاص التفاوض في صيغة الصلح « فاستشار عمر اصحابه في ذلك فقالوا لانجيبهم الى شيء من الصلح والجزية حتى يفتح الله علينا وتصير الارض كلها لنا فيئا وغنيمة كما صار لنا القصر وما فيه » (٢٦) . وبالرغم من فتحها صلحا على ارجح الروايات فقد الح كبار الصحابة على عمرو بن العاص بقسمة الارض ، فقد روي عن ابن ابي بردة يقول « سمعت سفيان بن وهب الخولاني يقول انا لما فتحنا مصر بغير عهد قام الزبير بن العوام فقال اقسمها ياعمرو بن العاص فقال عمرو والله لا اقسمها قال الزبير والله لتقسمنها كما قسم رسول الله (ص) خيبر قال عمرو والله لا أقسمها حتى اكتب الى امير المؤمنين فكتب اليه عمر اقرها حتى يغزو منها حبل الحبلة »(٢٧) ولكن الخليفة عمر بن الخطاب اتبع نفس السياسة التي اتبعها في أرض السواد ، وفي بلاد الشام حتى في المناطق المصرية التي فتحت عنوة ، مثل الاسكندرية ، والقرى الثلاث التي ظاهر اهلها الروم على المسلمين « فلما ظهر عليهم المسلمون استحلوهم ، وقالوا هؤلاء لنا فيء مع الاسكندرية فكتب عمرو بن العاص بذلك الى عمر بن الخطاب فكتب اليه عمر بن الخطاب ان تجعل الاسكندرية وهؤلاء الثلاث قريات ذمة للمسلمين ، ويضربون عليهم الخراج ، ويكون خراجهم ، وما صالح عليه القبط قوة للمسلمين على عدوهم ، ولا يجعلون فيئا ولا عبيدا ففعلوا ذلك »(٢٨) .

وبعد تأسيس الفسطاط وزعت الخطط على القبائل المشاركة في الفتح لبناء الدور « واختط حول عمرو والمسجد قريش والانصار ، واسلم وغفار وجهينة ، ومن كان في الراية ممن لم يكن لعشيرته في الفتح عدد مع عمرو »(٢٩) ، وتواصلت بعد ذلك حركة الخطط ، واستحبت همدان ومن والاها الجيزة دون الفسطاط فبنى لهم عمرو الحصن الذي بالجيزة سنة ٢١ هـ .

ولم تقتصر القطائع على اراضي الفسطاط وضواحيهالبناء المنازل والدور بل تجاوزتها لتشمل اراضي فلاحية ، وقد تكون هذه الاراضي من الموات ، او من اراضي النبلاء البيزنطيين الذين فروا بعد الفتح تاركين وراءهم اراضي شاسعة . ومن المعروف أن اغلب الاراضي المصرية قد بقيت بايدي السكان الاصليين ، القبط ، وقد وظف عليها الخراج . ولكن نص خطبة عمرو بن العاص يخاطب المسلمين الفاتحين

من سكان الفسطاط يحثهم على الخروج الى الريف المصري قائلا : « فحي لكم على بركة الله الى ريفكم فنالوا من خيره ولبنه وخرافه وصيده واربعوا خيلكم واسمنوها وصونوها واكرموها فانها جنتكم من عدوكم ، وبها مغانمكم واثقالكم ، واستوحوا بمن جاورتموه من القبط خيراً .. »(٣٠) ، يثير التساؤل التالي : ارض من هذه التي يحث على الخروج اليها للتمتع بخيرات ربيعها ؟ هل هي الارض التي تركت بايدي القبط لاستغلالها ووظف عليها الخراج باعتبارها نظريا ملكا لعامة المسلمين ، أم هي أراضي البيزنطيين الذين غادروا البلاد وتركت بأيدي الفلاحين لزراعتها ، ولكنها ملك لبيت المال ، وهي التي يقطع منها ! اننا نميل الى الاحتمال الثاني بالرغم من صمت النصوص .

ونلمس تحولا في سياسة مركز الخلافة تجاه الجزية ونظام القطائع في مصر ، ابتداءمنعهد معاوية بن ابي سفيان . فقداقطع عمرو بن العاص وردانمولاه ارضا ، واقطع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ابن سندر منية الاصبغ فخارلنفسه منها الف فدان ، وذلك في حالة معينة وحفظا لوصية الرسول (ص)(٣١) .

أما معاوية ففقداراد تجاوز شروط أداء القبط للجزية ، وقد كانت دينارين على كل رجل لا يزاد على احد منهم في جزية رأسه اكثر من دينارين فكتب الى وردانعامل الخراج على مصر : « ان زد على كل رجل منهم قيراطا فكتب وردان الى معاوية : كيف تزيد عليهم ، وفي عهدهم ان لايزاد عليهم شيء ، فعزل معاوية وردان »(٣٢) ، واقطع قرية كاملة الى ابنه يزيد . ويخبرنا ابن عبد الحكم عن ردود فعل المسلمين تجاه هذه السياسة الجديدة قائلا : « واقطع معاوية ايضا يزيد قرية من قرى الفيوم فأعظم الناس ذلك وتكلموا فيه ، فلما بلغ ذلك معاوية كره قالة الناس فرد تلك القرية الى الخراج كما كانت للمسلمين »(٣٣) .

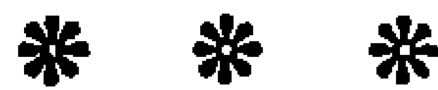
أما الوضع في المغرب فقد كان شبيها في مرحلة الفتح بما طبق في مصر ، ولكننا نرى ضرورة التأكيد على أمرين :

أولا : ان المسلمين قد اكتفوا في الغزوات الاولى التي سبقت تأسيس القيروان بفرض مبلغ معين من المال يؤديه سكان المغرب جزية ، فقد صالح عمرو بن العاص سكان برقة على ثلاثة عشر الف دينار يؤدونها اليه جزية على أن يبيعوا من احبوا من ابنائهم في جزيتهم « ولم يكن يدخل برقة يومئذ جابي خراج ، انما كانوا يبعثون بالجزية اذا جاء وقتها »(٣٤) . وقد طلب رؤساء أهل افريقية ، بعد انتصار المسلمين وهزيمة جرجير فيغزوة العبادلة سنة ٢٧ هـ ، الى عبد الله بن سعد أن يأخذ منهم

مالا « على أن يخرج من بلادهم فقبل ذلك ورجع الى مصر ولم يول عليها أحدا ولم يتخذ بها قيروانا »(٣٥) وبالرغم من أن معاوية بن حديج الكندي قد اتخذ قيروانا عند القرن فان ظاهرة القطائع لم تبرز لانه سرعان مارجع الى مصر مكتفيا بالغنائم . ووزعت الاراضي لبناء الدور بعد غزوة عقبة الاولى وتأسيسه القيروان ، « وأمر الناس بالتنقية والخطط ، ونقل الناس من الموضع الذي كان معاوية بن حديج نزله الى مكان القيروان اليوم »(٣٦) .

ويلوح لنا ان الاحداث السياسية والعسكرية بصفة خاصة قد حالت دون الاهتمام بقضية الارض في هذه المرحلة المبكرة ، وهذا ما يفسر لنا ندرة المعلومات عن ملكية الاراضي وتنظيم شؤون الخراج ، وذلك بالقياس الى مصر مثلا .

ثانيا : ان اراضي الفئة الحاكمة وفئة النبلاء البيزنطيين قد اصبحت ملكا عاما يتصرف فيه الامير باسم الخليفة ، ويقطع منه ، ووظف الخراج على فئة اجتماعية معينة تسميها المصادر « الافارق » ، (ولعلهم عجم افريقية كما ورد في مصادر اخرى) وعلى من بقي من الروم بالبلاد ومن أقام معهم على النصرانية . واغلب هذه الاراضي في افريقية وفي السهول الخصبة من شمال بلاد المغرب . اما الاراضي الكبرى التي تسيطر عليها القبائل وخاصة في جنوب افريقية وفي المغربين الاوسط والاقصى فهي التي اطلق عليها المفهوم الجديد : « اسلم عليها اهلها » .



بعد انتصار حسان بن النعمان الغساني على قوة المعارضة العسكرية لقبائل المغرب الاوسط ولاسيما قبائل الاوراس بزعامة الكاهنة سنة ـ ٨٢ ـ هـ ، بدأ التفكير جديا في تنظيم شؤون افريقية ، وفي مقدمتها شؤون الخراج وملكية الارض ؛ « ودانت له افريقية فدون الدواوين وصالح من القى بيده على الخراج ، وكتب الخراج على عجم افريقية ، وعلى من اقام معهم على النصرانية من البربر والروم »(٣٧) . اما اذا اسلم سكان المناطق المفتوحة فان ارضهم تبقى بأيديهم ولايدفعون عنها الا العشر .

ويحدثنا صاحب (الاخبار المجموعة) عن فتح موسى بن نصير لطنجة سنة ٨٩هـ فيقول : « فأسلم اهلها واختطها قيروانا للمسلمين وأوطنها اياهم »(٣٨) . وحتى اراضي مناطق القبائل البربرية التي حاربها موسى بن نصير في زغوان ، وفي بلاد هوارة ، وزناتة ، وكتامة ، وصنهاجة ، وغيرهامن المناطق ، فانها بقيت بايدي اصحابها ، وسرعان ما اعتنقت هذه القبائل الاسلام فأصبحت اراضيها ممن « اسلم عليها اهلها » .

فلم يبق – اذن – ملكا عاما للمسلمين يقطع منه والي افريقية على رؤساء الجند وزعماء القبائل الا الارض الموات ، أو الاراضي المهجورة التي تركها البيزنطيون . ولم تقطع هذه الاراضي لرؤساء الجند ولرؤساء العشائر العربية النازية الى المغرب ، بل استغلها الامراء انفسهم ، فاختط موسى بن نصير بالقرب من القيروان وقد روى بعض اهل افريقية « ان موسى ركب يوما حتى خرج من القيروان فوقف قريبا من افريقية على رأس اميال فأخذ بيده ترابا فشمه من ثم ، ثم امر بحفر بئر وابتنىدارا ومنية ، واتخذ فيها خيلا ، فسميت منية الخيل ، فليس يعلم بالمغرب بئر اعذب منها »(٣٩) .

وكان الولاة يعطون أراضيهم الخاصة للوكلاء لزرعها . يقول ابن عذاري في حديثه عن ولاية يزيد بن حاتم (١٥٥ – ١٧١ هـ) ، « ان بعض وكلائه زرع فولا كثيرا في بعض رياضاته ، فقال له يا ابن اللخناء اتريد ان اعير بالبصرة فيقال يزيد بن حاتم باقلاني ، ثم أمر بأن يباح للناس »(٤٠) .

ولكن يبدو أن الاقطاع قد تطور بسرعة ، وسمحت الرتب الادارية والعسكرية بامتلاك قرى كاملة حيث نقرأ في ترجمة ابي عبد محمد بن مسروق من أهل القيروان ان اباه مسروقا كان خليفة موسى بن نصير بالمغرب ، فلما مات ابوه بات ينظر في كتبه وفي أمواله ومنازله ،وقد ترك له ابوه قرى كاملة ملكا له « فكان بعد ذلك (بعد تزهده) يمر بالقرية من قرى ابيه فيخرج اليه اهلها ، ومن فيها فيقولون : نحن عبيدك وكل مالنا في هذه القرية فهو لك ، فيقول: ان كنتم صادقين فانتم احراروما لكم لكم » (٤١) .

ان هذه الملكية الشاسعة لايمكن ان يكون مصدرها غير الاقطاع ، ونحن في مطلع القرن الثاني الهجري ، والسؤال الذي يتبادر الى الذهن : من كان يملك هذه القرى قبل الفتح ؟ اننا نميل الى انها كانت بيد أفراد الاسرة الحاكمة او فئة النبلاء البيزنطيين



وهكذا فاننا نستطيع ان نتحدث عن استقرار ملكية الارض بعد انتهاء مرحلة الفتح ، واستقرار الوضع السياسي والعسكري في بلاد المغرب ، ويمكن ان نتحدث عن انواع ثلاثة للملكية – بالاضافة الى اراضي الوقف – : ملكية الفئة الحاكمة ، وملكية فردية بايدي الفلاحين في القرى ، او بايدي فئات مقيمة في المدن ، وتستغل الارضعن طريق العبيد او الاجراء ، والملكية الجماعية ، وهي أهم انواع ملكية الاراضي في المغرب الاسلامي ، ولا سيما ملكية القبائل الرحل التي تسيطر على ملكية مناطق سباسبية او

صحراوية شاسعة . يتحدث ابن ابي زرع الفاسي عن قبائل المرابطين فيقول : « وهذه القبائل كلها صحراوية ، حوز بلادهم في القبلة مسيرة سبعة أشهر طولا ومسيرة اربعة أشهر عرضا ، من نول لمطه الى قبلة القيروان من بلاد افريقية ، وهي مابين بلاد البربر وبلاد السودان »(٤٢) .

وقد عرفت الملكية الفردية مساحات شاسعة انجرت غالبا عن طريق الاقطاع . فقد كان عبد الرحيم الزاهد (توفي سنة ٢٤٧ هـ) من أصحاب سحنون يملك ضيعة كبرى تحتوي على سبعة عشر الف شجرة زيتون(٤٣) ، وكان الامراء من كبارالملاكين ، ويشترون في بعض الحالات الاراضي التي يرغبون فيها ، ولايستطيع السكان الرفض خوفا من المصادرة والاضطهاد ، فقد اباح ابراهيم بن احمد الاغلبي عبيد السودان على نساء أهل (ابيانة) حين امتنعوا من بيعها منه »(٤٤) .

وقد كانت سياسة التغريم التي انتهجها الفاطميون بصفة خاصة عاملا اساسيا من عوامل انتقال الاراضي من اصحابها الى الدولة(٤٥) . وقد اقطع الخلفاء الفاطميون ضياعا الى انصارهم ومواليهم ، فقد اقطع المهدي ضيعة بكورة الجزيرة للاستاذ جوذر(٤٦) . وكان له وكيل يدير شؤونها .

ولم يعرف نظام الملكية في العهد الزيري ، قبل الهجرة الهلالية ، تحولا يذكر بالنسبةلماكان عليه في العصر الفاطمي، فقد اقطع بنو زيري وبنو حمادضياعا لانصارهم وعمالهم ، كما تحدثنا بعض الفتاوى عن نظام المغارسة والمناصفة في افريقية خلال الفترة الزيرية .

اما بعد سقوط القيروان ، واستيلاء قبائل بني هلال وبني سليم على افريقية والمغرب الاوسط ، فقد تدهور نظام ملكية الارض واضطرب .

ويحصل هذا التحول في نظام ملكية الارض في المغربين الادنى والاوسط في نفس الوقت الذي تظهر فيه في المغرب الاقصى دولة جديدة غلب عليها الطابع العسكري ، وقامت على أساس التحام العصبية القبلية بالدعوة الدينية ، واعتبر مؤسسها عبد الله بن ياسين الجزولي المناطق التي فتحها غنيمة فقسم الخمس على اللمتونيين .

ان المصادر التي بين ايدينا لاتحدثنا عما سنه المرابطون من جديد في نظام ملكية الارض في بلاد المغرب ، ولاسيما في الاراضي الخصبة التي فتحوها بالسيف مثل

أراضي قبيلة برغواطة في منطقة تامسنا على سواحل المحيط ، ولكن نصا ثمينا يقدمه لنا ابو بكر الطرطوشي يدل على أنهم ادخلوا تغييرا جذريا بسنهم لنظام (الاقطـاع) العسكري ، وذلك بالنسبة للاراضي التي هي ملك الدولة . وقد طبق هذا النظام في الاندلس ولايستبعـد ان يكون قد طبق في بلاد المغرب ايضا(٤٧) . فهل تأثرت الدولة المرابطية بنظام (الاقطاع) العسكري الذي عرفه البويهيون والسلجوقيون في المشرق ؟



١ ــ انظر كتابنا : (المغرب الاسلامي : الحياةالاقتصادية والاجتماعية) ، تونس ١٩٧٨ . (دراسات مغربية) ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٨٠ .

٢ ــ راجع مثلا : اليعقوبي ، البلدان ، ليدن ، ١٩٨١ . ابن حوقل ، صورة الارض ، بيروت ، دت الاصطخري ، المسالك والممالك ، القاهرة ١٩٦٧ . ابو عبيد البكري ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، الجزائر ١٨٥٧ . الادريسي ، نزهة المشتاق ، ليدن ، ١٨٦٤ . ابن محشرة (؟) ، كتاب الاستبصار في عجائب الامصار ، الاسكندرية ١٩٥٨. ياقوت الحموي ، معجم البلدان بيروت ١٩٥٧ . الحميري ، الروض المعطار في خبر الاقطار ، بيروت١٩٥٧ .

٣ ــ راجع عن زراعة البستنة بضواحي مدينة تاهرت : المغرب الاسلامي ، سبق ذكره ص ١٠٠ ، ١٣٢ وفي واحة تافيلالت نفس المصدر ص ١٧٢ ومايليها .

٤ ــ راجع في هذا الصدد :

فلهوزن ، تاريخ الدولة العربية ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٢٧٦ وما بعدها . عبد العزيز بن محمد الرحبي ، فقه الملوك ومفتاح الرتاج المرصد على خزانة كتاب الخراج ، بغداد ١٩٧٣ ، ج١ ، ص ٣٩٨ ومابعدها .

Claude Cahen, l'islam des origines au début de l'Empire attoman, Paris, 1970, PP. 39 — 42

٥ ــ راجع في هذا الصدد : الماوردي ، الاحكامالسلطانية ، القاهرة ١٩٠٩ . ابو علي الحنبلي ، الاحكام السلطانية ، القاهرة ١٩٦٦ . ابو عبيد ،كتاب الاموال ، القاهرة ، ١٣٥٣ . ابو يوسف كتاب الخراج ، القاهرة ١٣٥٢ . الرحبي ، فقهالملوك ومفتاح الرتاج ، سبق ذكره . يحي بن ادم ، كتاب الخراج ، ليدن ١٨٩٦ . الطرطوشي ، سراج الملوك ، القاهرة ، ١٣١٩ هـ .

ومن المراجع الحديثة انظر في هذا الصدد :

محمد عبد الجواد محمد ، ملكية الاراضي فيالاسلام ، القاهرة ١٩٧١ . ابراهيم فؤاد احمدعلي ، الموارد المالية في الاسلام ، القاهرة ، ١٩٦٨ . محمدضياء الدين الريس ، الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٩ . صبحي الصالح ، النظم الاسلامية ، بيروت ، ١٩٦٨ .

٦ ــ كان موضوع رسالة الماجستير التي قدمها محمد علي نصر الله الى قسم التاريخ بجامعة بغداد عن ــ تطور ملكية الاراضي في منطقة السواد حتى نهاية العصر الاموي ــ لم تنشر بعد ، انظر عن بلاد الشام : فالح حسين ، الحياة الزراعية في بلادالشام في العصر الاموي ، عمان ، ١٩٧٨ ، ص ٤٣ وما بعدها .

٧ ــ ابن عبد الحكم ، فتوح مصر واخبارها ، ليدن ١٩٢٠ ، راجع المعلومات الدقيقة عن طريقة

جمع الخراج ، وعن احصاء السكان لتوظيفه ص ١٥٢ ، ومايليها ، ص ١٥٦ ، وراجع عن القطائع ص ١٣٢ وما بعدها .

٨ ـ انظر : سمير امين ، اقتصاد المغرب (بالفرنسية) ، باريس ١٩٦٦ ، ص ٩٩ ومابعدها .

٩ ـ انظر في هذا الصدد : احمد صادق سعد، ست دراسات في النمط الاسيوي للانتاج ، بيروت ، ١٩٧٩ .

Mexim Rodinson, Islam et capitalism, Paris, 1966, PP. 73; sur le féodalisme, paris, 1971; sur le « mode de production asiatique », Paris, 1969

١٠ ـ انظر التجارة في المغرب الاسلامي خلال القرنين الثالث والرابع للهجرة ، ضمن كتابنا : المغرب الاسلامي ... ، سبق ذكره ص ١٣ ـ ٤٥ .

١١ ـ بالفرنسية ، باريس ، ١٩٧٦ ، ص ٢٧

١٢ ـ صورة الارض ، سبق ذكره ، ص ٩٠ .

١٣ ـ راجع ((اودغست : التطور العمراني ـ الحياة الاقتصادية والاجتماعية)) ، ضمن كتابنا : المغرب الاسلامي .. ، سبق ذكره، ص ١٩١ ـ ٢١٧ .

١٤ ـ المغرب ، سبق ذكره ، ص ١٦٨ .

١٥ ـ الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى ، الدار البيضاء ١٩٥٤ ، ج٢ص٣ .

١٦ ـ كتاب الاستبصار في عجائب الامصار ، سبق ذكره ص ٢١١ ومايليها .

١٧ ـ انظر في هذا الصدد : عبد العزيز الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري ، بيروت ، ١٩٧٤ ، ص ٤٦ .

Robert Mantran, l'expansion musulmane, Paris, 1969, P. 168, 273.

١٨ ـ الاضافة الى المصادر المذكورة في تعليق رقم ـ ٥ ـ راجع عن ـ الاقطاع ـ عبد العزيز الدوري ، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، بيروت ١٩٦١ ص ٨٦ وما يليها . الدوري ، نشأة الاقطاع في المجتمعات الاسلامية ، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد العشرون ، ١٩٧٠ . ابراهيم علي طه خان ، النظم الاقطاعية في الشرق الاوسط في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٨ . دائرة المعارف الاسلامية (مع قائمة مصادر ومراجع مفصلة) ، الطبعة الفرنسية الجديدة ، ليدن ١٩٧١ ، ج٣ ، ص ١١١٥ ـ ١١١٨ . راجع عن الخراج : دائرة المعارف الاسلامية (مع قائمة مصادر ومراجع مهمة) سبق ذكرها ج ٤ ، ص ١٠٦٢ ـ ١٠٨٧ .

راجع عن الجزية نفس المصدر، ج٢ ، ص ٥٧٣ ـ ٥٨١ .

راجع عن الضيعة نفس المصدر ، ج٢ ، ص ١٩٣ ـ ١٩٤ .

راجع عن الحماية نفس المصدر ، ج٣ ص ٤٠٦ وما يليها .

١٩ ـ انظر الدوري ، تاريخ العراق الاقتصادي ، سبق ذكره ، ص ٣٩ ومابعدها .

٢٠ ـ انظر : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، سبق ذكره ، ص ١٩٧ . اخبار مجموعة لمؤلف مجهول مجريط ١٨٦٧ ، ص ٢٥ .

٢١ ـ ابن عبد الحكم ، سبق ذكره ، ص ١٩٧ .

٢٢ ـ انظر مثلا عن مصر نفس المصدر ، ص ٨٤ ومابعدها .

٣ ـ راجع الفصل المنشور من كتاب الاموال الداودي ضمن التاليف ـ دراسات في الاستشراق ـ (بالفرنسية) المهدي لذكرى ليفي بروفنسال ، باريس ١٩٦٢ ، ج٢ ص ٤٠٨ .

٢٤ ـ ن. م.

٢٥ ـ شكري فيصل ، المجتمعات الاسلامية في القرن الاول ، بيروت ، ١٩٦٦ ، ص ١٦٦ ومايليها.

٢٦ ـ ابن عبد الحكم ، نفس المصدر ، ص ٧٠ .

٢٧ ـ ن. م. ، ص ٨٨ .

٢٨ ـ ن. م. ، ص ٨٣ .

٢٩ ـ ن. م. ، ص ٩٨ .

٣٠ ـ ن. م. ، ص ١٤٠ . ونلاحظ في هذا الصدد ان الجند قد نهي عن الزرع ، يقول ابن عبد الحكم (ص ١٦٢) ان عمر بن الخطاب « امر مناديه ان يخرج الى امراء الاجناد يتقدمون الى الرعية ان عطاءهم قائم ، وان رزق عيالهم سائل فلا يزرعون ولايزارعون » .

٣١ ـ ن. م. ، ص ١٣ وما يليها .

٣٢ ـ ن. م. ، ص ٨٦ .

٣٣ ـ ن. م. ، ص ١٠١ .

٣٤ ـ ن. م. ، ص ١٧٠ وما يليها .

٣٥ ـ ن. م. ، ص ١٨٣ .

٣٦ ـ ن. م. ص ١٩٦ .

٣٧ ـ تاريخ افريقية والمغرب المنسوب للرقيق القيرواني ، تونس ١٩٦٨ ، ص ٦٤ . انظر ايضا ابن عبد الحكم ، سبق ذكره ، ص ٢٠١ . ونشير هنا الى ان حسان بن النعمان قد قسم الارض على البربر الذين اعتنقوا الاسلام ، واصبحوا يقاتلون مع الجيش العربي ، « واخرجهم مع العرب يفتحون افريقية فكان يقسم الفيء بينهم والارض ، وحسنت طاعتهم فدانت له افريقية ، ودون الدواوين » ، المالكي ، رياض النفوس ، القاهرة ، ١٩٥١ ، ج١ ، ص ٣٦ .

٣٨ ـ اخبار مجموعة ، سبق ذكره ، ص ٤ .

٣٩ ـ ابن قتيبة الدينوري ، الامامة والسياسة ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ج٢ ص ٨٦ .

٤٠ ـ البيان المغرب ، ليدن ١٩٤٨ ، ج١ ، ص ٨١ ومايليها .

٤١ ـ المالكي ، رياض النفوس ، القاهرة ،١٩٥١ ، ج١ ، ص ١٢٦ .

٤٢ ـ الانيس المطرب ، الرباط ، ١٩٧٣ ، ص ١٢٠ .

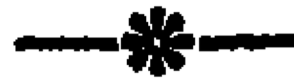
٤٣ ـ رياض النفوس ، سبق ذكره ، ص ٣٢٨ .

٤٤ ـ ن. م. ، ص ٣٨٤ .

٤٥ ـ راجع في هذا الصدد : السياسة المالية للدولة الفاطمية ضمن كتابنا (دراسات مغربية) ، سبق ذكره ، ص ٤٥ ـ ٧٠ .

٤٦ ـ سيرة الاستاذ جوزر ، القاهرة ، ١٩٥٤ ، ص ٩٩ .

٤٧ ـ يقول الطرطوشي : « وسمعت بعض شيوخ الاندلس من الاجناد وغيرهم يقولون مازال أهل الاسلام ظاهرين على عدوهم وامر العدو في ضعف وانتقاص لما كانت الارض مقطعة في أيدي الاجناد فكانوا يستغلونها ، ويرفقون بالفلاحين فيربونهم كمايربي التاجر تجارته ، وكانت الارض عامرة ، والاموال وافرة ، والاجناد متوافرين والكراع والسلاح فوق ما يحتاج اليه الى ان كان الامر في اخر ايام ابن أبي عامر فرد عطايا الجند مشاهرة بقبض الاموال على النطع ، وقدم على الارض جباة يجبونها فاكلوا الرعايا ، واجتاحوا اموالهم واستضعفوهم فتهاربت الرعايا ، وضعفوا عن العمارة فقلت الجبايات المرتفعة الى السلطان ، وضعفت الاجناد ، وقوى العدو على بلاد المسلمين حتى اخذ الكثير منها ، ولم يزل امر المسلمين في نقص وامر العدو في ظهور الى ان دخلها المتلثمون فردوا الاقطاعات كما كانت في الزمان القديم ، ولا أدري ما يكون وراء ذلك » سراج الملوك ، القاهرة ١٣١٩ هـ ، ص ١٠٧ .



الواجهة العسكرية

للحضارة العربية الإسلامية

فتح إفريقية : جذوره السياسية وأبعاده الاستراتيجية

د. عمر السعيدي

كلية الاداب والعلوم الانسانية ـ الجامعة التونسية

ان فتح العرب المسلمين لافريقية خاصة وللمغرب عامة كان دائما موضوع جدال واسع بين المؤرخين يتناول على الخصوص طول مدة الفتح (أكثر من نصف قرن) وصعوبة عمليات هذا الفتح وعدم استقرار السيطرة العربية الاسلامية ، الى غير ذلك من النقاط الحيوية الدقيقة التي مازالت تحتاج الى دراسة متانية تحاول استغلال المصادر القليلة التي لدينا لوضع قضية فتح افريقية في اطار اشمل ، وهو الاطار الدولي انذاك .

وهذا الجدال طفت عليه اعتبارات معاصرة صاحبت فترة الاستعمار ، نكتفي بالاشارة الى أهم مميزاتها ، وهي الحرص على التمييز في بلدان المغرب بين العرب والبربر ، لاثارة العنصرين وحثهما على التناحر والوقوف وجها لوجه .

وبما أن الانتماء العربي الاسلامي كان يعتبر الاخطر على استمرار ، فقد وقع التأكيد على البطولات البربرية ، واطلق على الكاهنة اسم (جان دارك المغرب) ، واعتبر كسيلي بطلا قوميا بربريا ، وراح بعضهم الى حد تمجيد البربر للدور الذي قاموا به ، بفضل مقاومتهم ، في حماية الغرب من الزحف الاسلامي (المتعصب) و (المتوحش) .

وقد أثرت هذه الاراء(1) تأثيرا كبيرا في دراسات تاريخ المغرب العربي الاسلامي ولم تتخلص منها الاذهان حتى بين العرب والمسلمين . وربما مما رسخ هذا الاتجاه العون غير المقصود الذي اسداه له بعض المؤرخين العرب المسلمين ، الذين اتخذوا موقفا متطرفا نقيضا لما اصبح يعرف بموقف مدرسة الجزائر التاريخية (زمن الاستعمار) ولكنه مثبت له في آن واحد ، وذلك انه هو الاخر يلخص القضية في الصراع

اعد هذا البحث للمؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، المنعقد بدمشق ١٦ ـ ٢٢ جمادى الاخرة ١٤٠١ هـ / ٢٠ ـ ٢٦ نيسان ١٩٨١ م .

بين العرب والبربر ، ويترك انطباعا عنصريا عن هذه الفترة من تاريخ افريقية والمغرب.

وتاريخ هذه الفترة يجب أن يدرس في نطاق مشروع حضاري ينظر فيه الى الماضي حسب متطلبات الحاضر وتطلعات المستقبل ، اذ ليس هناك تاريخ موضوعي بالمعنى الالي ، وليس هناك تاريخ محايد ، والسؤال السليم يبقى دائما : لماذا التاريخ؟ ولاي هدف ؟

ان نقاط الجدال التي اشرنا اليها آنفا تستدعي نقاشا طويلا ليس هنا مجاله بل نكتفي بالاشارة الى أن مدة الفتح الطويلة وصعوبته النسبية تعزى الى عدة عوامل تهم الطرفين ، وابرزها ان فترة فتوحات افريقية صادفت ازمات متكررة في مركز القيادة العربية الاسلامية من جهة ، وجابهت مجتمعا يمتاز بتشتيت مراكز النفوذ ووجوب القضاء عليها واحدا واحدا . لم تكن افريقية والمغرب على ما كانت عليه الامبراطوريتان الساسانية والبيزنطية حيث كان انهزام الجيوش الامبراطورية يعني نهاية العمليات العسكرية . وهذه النقطة هامة جدا ، وبدأت تتضح بفضل دراسات جديدة طريفة عن حالة افريقية والمغرب في أواخر العهد البيزنطي ، بما في ذلك البنية الاجتماعية للقبائل البربرية وعلاقات رؤسائها مع السلطة البيزنطية ، وانواع التعاون والاستقلالية في هذه العلاقات . وتثبت هذه الدراسات توزع مراكز النفوذ وتجزؤها مما يجعل من الصعب أن تتم أي سيطرة خارجية بسهولة .

أولا : مصادر تاريخ فتح افريقية :

الى جانب هذه الدراسات التي نحاول في تونس والمغرب عامة ان نطورها للقضاء على مظهر الثغرات في مسيرة تاريخنا نلاحظ ان المصادر عن فتح افريقية جلها من عصور متاخرة عن فترة الفتح وكثير منها تختلط فيها الاحداث التاريخية بالاساطير فلذلك اذا استطعنا رسم مراحل الفتح الرئيسية طيلة أكثر من نصف قرن فالجزئيات تبقى غامضة مرتبكة لان المعطيات التي وصلتنا غير دقيقة والفتح من خلال مصادرنا المتاخرة يشبه سيرة بطولية اكثر منه حروبا متواصلة فيها الانتصارات والهزائم والتقدم والركود الى غير ذلك .

ذلك لان النصوص رغم انها عديدة كلها متاخرة ،وكل نص ينقض الاخر فيزداد الغموض ويتكثف من نص الى النص الذي يتبعه ويزج الغلط والاعاجيب وتطول الروايات فتضيع الاحداث المضبوطة في خضم من الجزئيات الحشوية .

وترجع هذه النصوص الى ثلاثة انواع من المصادر :

ــ مصدر يمكن تسميته بالشرقي وهو قديم نسبيا ويمثله ابو القاسم عبدالرحمان ابن عبد الله بن عبد الحكم المتوفى سنة (٢٥٧/٨٧١) وهو محدث اكثر منه مؤرخا .

ــ مصدر افريقي(٢) نسبة الى افريقية ربما تأثر بالمصدر الشرقي واصلهمحمد ابن يوسف الوراق(٣) المتوفى سنة (٣٦٣/٩٧٣) بقرطبة حيث سافر من القيروان .

ــ مصدر اندلسي ــ مغربي يظهر انه استعمل من طرف المتاخرين من المشارقة امثال ابن الاثير والنويري .

وخير ممثل لهذا المصدر هو على اغلب الظن ابن عذاري المراكشي في البيان المغرب الذي استعمله ابن الخطيب وابن خلدون دون ذكره . واصل هذا المصدر هو احمد الرازي(٤) .

وميزة ابن عذاري انه يذكر مصادره ومنها البكري وابن ابي الفياض الاندلسي وابن القطان وابن عبد البر وابن حماد والبرنسي .. والى جانب هؤلاء الكتاب المؤرخين نجد ان لابن عذاري مصادر غير مكتوبة تتمثل في استقصائه لمعلومات شفوية اهمها بالنسبة الفتح ترجع الى ابي علي صالح بن ابي صالح عبد الحليم الذي كان يقطن بلدة نفيس بالاطلس الاكبر في اوائل القرن الثامن الهجري (الرابع عشر ميلادي) (٥) ولهذا المصدر الشفوي الممثل لذاكرة اهل الجهة اهمية بالغة بالنسبة لعمليات عقبة بالمغرب الاقصى .

ثانيا ــ مراحل فتح افريقية :

فاذا قارنا هذه النصوص وتمعنا فيها وفي اختلافاتها استطعنا الى حد ما رسم ملامح الفتح العربي الاسلامي لافريقية والمغرب .

ولكن سوف لا نتناول جزئيات الاحداث خاصة وان هذا الجانب الاكاديميمعروف لدى الجميع اذ تناوله كثير من الدارسين نذكر منهم سعد زغلول عبد الحميد وشارل اندري جوليان ــ وايفرستليفي برفنسال وغيرهم . فالذي يهمنا بالدرجة الاولى هو سياسة الفتح التي ستسلك في خلافة عثمان (٢٣ــ٣٥ هـ/٦٤٤ ــ ٦٥٦ م) وفيما بعدها .

امتازت فترة خلافةعثمان بالقضاء بصورة تكاد تكوننهائية على التمييز بين مسلمي ما قبل الردة ومسلمي الردة . وامتازت كذلك بتقلص نفوذ تأثير النخبة المدنية التي برزت على يد عمر بالاستناد الى الاسبقية في الاسلام ، فنتج عن هذا ظهور نفوذ

الارستقراطية القبلية التقليدية الى جانب ظاهرة اخرى مهمة في خلافة عثمان تتمثل في تضخم هجرات القبائل الى امصار البلاد المفتوحة التي نشأت على اثرها توترات بين قدامى عرب الامصار واللاحقين منهم . فهذه المعطيات الجديدة التي تنطبق على مصر كانت اساسا لسياسة الفتوحات في خلافة عثمان الذي كانت تدفعه ديناميةانتشار العرب في البلاد المفتوحة وتلاحقهم اليها . فهكذا كان فتح افريقية جزءا من الاستراتيجية الجديدة الثلاثية : الانطلاق من البصرة لاكتساح ماتبقى من الامبراطورية الساسانية ، والانطلاق من الكوفة للتمكن من الاقاليم الشمالية الشرقية حول بحر الكاسبيان والانطلاق من مصر نحو الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط .

وتهمنا الجبهة الغربية ــ المصرية على الخصوص فالانتقال من مصر نحو الغرب ليس في الحقيقة الا استمرارا لمبادرة تجاوز حدود فلسطين الى مصر ، قصد تحقيق أمن بلاد الشام بحريا خاصة .

كانت عملية فتح مصر تكاد تكون ــ (الى جانب ضغط رؤساء القبائل الراغبين في الحصول على نصيب من عائدات الفتوحات) ــ عملية اضطرارية لحماية بلاد الشام . وهنا يجدر بنا ان ننبه الى تجربة معاوية كوال للشام حيث لا شك وانه فكر ــ وكذلك الشاميون الذين اصبحوا معنيين بالتوسع العربي الاسلامي ــ في حماية الشام من الخطر البيزنطي المتمثل في جبهتين : الجبهة البرية التي كان يمكن التصدي اليها بذلك التنظيم المحكم الذي ارساه معاوية الذي حرص على تنظيم هجرة القبائل وعلى اقرار قدر ادنى من انسجامها . اما الجبهة البحرية وقواعدها المعادية فهي تتمثل في مصر وخاصة الاسكندرية من جهة وفي جزر الحوض الشرقي للبحر الابيض المتوسط وخاصة منها قبرص التي كانت عبارة عن مدفع تقابل فوهته بلاد الشام .

هذه الاعتبارات عمقت في راينا لتصبح رؤية استراتيجية واسعة وتطورت لتفضي الى سياسة بحرية من جهة والى اعتبار مصر منطلق جبهة جديدة ستكون هامة جدا في مجابهة بيزنطة ومحاولة اضعافها ، في فترة اصبح من الواضح لدى العرب المسلمين بان بيزنطة هي العدو الرئيسي واصبح من الواضح كذلك ان الصراع معها لايمكن ان يكون حدوديا بل يجب ان يصبح استراتيجية جغرافية سياسية . وهذا ينم على وعي كبير من طرف القادة العرب المسلمين ، لا سيما وان الجبهة الشرقية البرية للصراع مع بيزنطة كانت جبهة صعبة جدا اذ تمتاز فيها بيزنطة بالتمتع بحاجز دفاعي طبيعي في جبال الطوروس ومضايقها الخطرة .

فاختيار الجبهة المصرية الغربية ــ خاصة وان مصر فتحت بسرعة مذهلة في مدة ثلاث سنوات ، اختيار مصيب ومنطقي وحيوي في آن واحد(٦) ، اذا تذكرنا ان البيزنطيين نجحوا في استرداد الاسكندرية بعد سنوات قليلة من استيلاء العرب

المسلمين عليها ، واضطر هؤلاء الى عملية جديدة اقتضتهم باسترسال المجابهة ، خاصة من الزاوية البحرية .

ومن هذا المنطلق نفهم كيف استغل العرب المسلمون قدراتهم الذاتية لتذليل صعوبات الصحراء الغربية والتمركز بمنطقة برقة في وقت مبكر منذ اواخر عهد عمر واتخاذها قاعدة للقيام بغارات استطلاعية غربا نحو طرابلس (التي احتلت سنة ٦٤٣/٢٤) ونحو ما يسميه المؤرخون القدامى باطراف افريقية وللقيام باستطلاعات اخرى نحو الجنوب الى صحراء ليبيا وواحاتها والى الفزان كذلك فكانت برقة راس خط هجومي سوف يكتمل بالاستيلاء على جزيرتي رودس واقريطش. فخلافة عثمان دعمت بوادر هذه السياسة ووسعت آفاقها ومكنتها من الوسائل الكفيلة بانجاحها .

أ . عبد الله بن سعد بن ابي سرح : ومن الجدير بالتنويه ان المصادر تكاد تجمع على أن عثمان اخذ رأي الصحابة قبل أن ينظم اول حملة ضد افريقية مما يعني انه كان يعتبر نفسه مقدماعلى اختيار سياسي هام جدا . وكان عثمان قد عزل عمرو ابن العاص عن مصر سنة ٦٤٦/٢٥ وعوضه باخيه للرضاعة عبد الله بن سعد بن ابي سرح الذي كان اليه الصعيد منذ عهد عمرو فكان هذا الاجراء مشيرا بالهجوم على افريقية كجزء من محاولة تجاوز الجنب البحري الايمن لبيزنطة .

وعبد الله هذا من بني عامر بن لؤي فهو قرشي عامري وامه اشعرية ارضعت عثمانا والمعروف عنه انه اسلم قبل فتح مكة وهاجر الى المدينة . لكنه كما تقول المصادر (افتتن وارتد) فكاد يقتل بعد فتح مكة ولعل ما حماه من القتل مكانة عشيرته .

وشارك عبد الله في فتح الشام وصاحب عمرو بن العاص الى مصر قائدا على ميمنته وكان عمرو يرسله الى اطراف افريقية غازيا (٧) .

فلم يكن اذن غريبا عن ابعاد المهمة الجديدة الموكلة اليه والتي سيصحبه فيها عدد هام من الصحابة فعرفت غزوته هذه بغزوة العبادلة السبعة (٨).

وكانت القوات المشاركة فيها تتالف من عشرين الف مقاتل وانطلقت سنة ٢٦ للهجرة ، فلما وصلت الى برقة تلقاها عقبة بن نافع الذي كان حاميه هناك وتضافرت القوات للهجوم على طرابلس ثم دخلت افريقية وكان انتصار سبيطلة على جرجير الذي ارسل عبد الله على اثره فوات الى قفصة والجم . ودامت الغزوة حسب ما تقول المصادر سنة وربع السنة. وبعد هذه الغزوة(٩) شارك عبد الله بن سعد سنة ٦٤٩/٢٨ في عملية منسقة بين الشام ومصر ضد قبرص لجعلها الطرف المقابل والمكمل للاسكندرية كخطوة لمخطط ارساء خط بحري ضد البيزنطيين . وفي سنة ٣١ للهجرة ، فلما وصلت الى برقة تلقاها عقبة بن نافع الذي كان حامية هناك وتضافرت نافع الذي أرسله عمرو بن العاص هناك .

فعبد الله بن سعد اذن قائد كامل الكفاءات ملم بالمستلزمات الاستراتيجية ويحق ان يعتبر عديل معاوية في ارساء السياسة الاسلامية البحرية الجديدة فنحن نجده بذات الصواري سنة ٦٥٥/٣٤ وتقول بعض المصادر ان عبد الله بن سعد كر ثانية على افريقية سنة ٦٥٤/٣٣ .

ب ـ معاوية بن حديج : ومن اهم قادة الفتح الاسلامي لافريقية بعد عبد الله ابن سعد شخصية لاتقل أهمية عن هذا الاخير نعني بهذه الشخصية معاوية بن حديج السكوني الكندي ومعاوية هذا شهد فتح مصر مع عمرو بن العاص وهو الذي حمل الى عمر بن الخطاب نبأ الاستيلاء على الاسكندرية ـ وشارك معاوية كذلك في عمليات النوبة تحت لواء عبد الله بن سعد بن ابي سرح حيث ذهبت عينه في احدى الوقائع وشارك كذلك في العمليات العسكرية ضد افريقية .

فهذا الرجل الذي يمتاز بتجربة فائقة على الجبهة الغربية هو الذي وقع عليه اختيار معاوية بن ابي سفيان لقيادة الغزوة المهمة الثانية ضد افريقية سنة ٦٦٥/٧٤ فغزاها على رأس جيش يعد عشرة آلاف مقاتل ويضم جماعة من الصحابة والتابعين من بينهم عبد الملك بن مروان . فانتصر على البيزنطيين(١٠) ، واستولى على قلعة جلولاء التي كانت على ما يظهر من قلاع الخط البيزنطي الدفاعي الثاني واستولى على الجم وبعث عبد الله بن الزبير الى سوسة فاستولى عليها وبعث بحرا رويفع بن ثابت الانصاري الى جربة فاحتلها . واستقر هو بجبل القرن قرب الموقع المقبل للقيروان وجعل منه مركز القيادة مدة ثلاث سنوات ، (١١) وقام فيه ببعض التجهيزات .

ومما يلاحظ ان معاوية بن حديج هذا أول من قام بعمليات بحرية ضد صقلية وذلك سنة ٦٥٦/٣٦ رأس عليها عبد الله بن فنيس ، ومعاوية بن حديج هو كذلك الذي اغزى عقبة بن نافع بحرا باهل مصر ضد الروم(١٢) .

ولا ننسى اخيرا ان معاوية بن حديج كان رئيس الشق الاموي بمصر زمن الفتنة فولاه معاوية مصر سنة ٦٦٥/٤٧ خلفا لعبد الله بن عمرو بن العاص .

ج ـ عقبة بن نافع : ثالث شخصيات الفتح العربي الاسلامي لافريقية ـ وهو اشهرهم ـ هو عقبة بن نافع الفهري القرشي . ولدينا روايتان في شان والده نافع فالاولى تقول بانه مات مشركا وذلك قبل فتح مكة(١٣)، والثانية مفادها انه أسلم وكان مع عمرو بن العاص في فتح مصر وبعثه عمرو الى غزو برقة .

وهناك روايات مختلفة حول علاقات عقبة النسبية بعمرو بن العاص ، فابن حزم

يجعل منه اخا لعمرو لامه(١٤) ، ورواية اخرى تجعل منه ابن خالة لعمرو (١٥) ورواية ثالثة تجعل من عمرو خالا لعقبة (١٦) وراوية رابعة تجعل من عقبة ابـن اخ للعاص ابن وائل السهمي (١٧) فعقبة حسب كل هذه الروايات من اقارب عمرو . وقد شهد فتح مصر معه سنة ١٩ و ٢٠ للهجرة ، وقاد جيشا استولى على زويلة بالصحراء الغربية سنة ٢٠ و ٢٢ للهجرة . وهـو ينتمي الى عشيرة فهـر التـي اشتهرت بكفاءاتها العسكرية .

وفي سنة ٢٢ للهجرة بعثه عمرو غازيا الى النوبة ثم اقره بعد ذلك حامية لبرقة وقد اشرنا الى مشاركته من مركزه ببرقة في غزوة عبد الله بن سعد بن ابي سـرح لافريقية .

وفي سنة ٤١ للهجرة قام عقبة بامر من عمرو بن العاص بغزوات هامة جـدا في صحراء ليبيا وواحاتها فاخضع قبائل لواته وهورة البربرية واستولى على غدامس سنة ٤٢ للهجرة ، وافتتح كورا مـن السودان سنة ٤٣ للهجرة وافتتح ودان سنة ٤٦ للهجرة ثم جرمة ثم الفزان مكسبا التمهيد لفتح افريقية عمقا استراتيجيا في غاية الاهمية ستظهر فعالياته عند حملة عقبة في منتصف القرن الاول .

ولا ننسى ان نشير اخيرا الى أن المصادر تشير الى ان عقبة غزا الروم بحريا مرتين على الاقل وذلك في سنتي ٣٩ و ٤٩ للهجرة .

ثالثا ـ اهمية الجبهة الغربية في الفتوحات الاسلامية

لم نستعرض فترات فتح العرب المسلمين لافريقية لذاتها ولم نذكر قادة هذا الفتح لذاتهم ولكن حاولنا ان نبرز من خلال هذا الاستعراض السريع ـ بعـد رسم الملامح العامة للفتح كحدث ضخمـان عمليات الفتح لم تكن عرضية وانما كانت جزءا من استراتيجية محكمة نستطيع تلمسها منذ اخر عهد عمر حيث قطعت خطوة فتح مصر ثم برزت واضحة في عهد عثمان(١٨) ثم تعمقت وتاكدت في عهد معاوية وكسبت الارادة السياسية المدعمة لها .

فاذا انتبهنا الى هذا المخطط الاستراتيجي اصبحت التعثرات واختيار الظروف الملائمة وابدال القواد بالعزل والتعويض باشياء ثانوية . ويتضح لنا هذا المخطط اذا اعتبرنا المدى المتوسط فحسب والذي يتمثل في بعض التواريخ التي ترسم لنا عناصر المخطط فلنتذكر ان الاسكندرية استعادهاالبيرنطيون سنة ٦٤٥ واستردها ثانية

وبسرعة العرب المسلمون ثم استولوا على قبرص فامنوا خطا بحريا اولا يحمي بلاد الشام اكثر من كونه خط هجوم الى الغرب . وفي مرحلة لاحقة وقع ارساء خط ثان يتكون من جزيرة رودس (سنة ٥٢ / ٦٧٢) التي احتلت في اعقاب تأسيس القيروان وجزيرة اقريطش ٥٤ / ٦٧٤ فصارت هاتان الجزيرتان مكملتان لموقع برقة . واخيرا نذكر المحاولات المبكرة ضد صقلية لاثبات خط ثالث (صقلية ـ افريقية) .

فهذه هي الملامح الاساسية للسياسة الجديدة ذات البعد البحري والتي كان مؤسسها الحقيقي معاوية بن ابي سفيان وشاركه في بلورتها عبد الله بن سعد بن ابي سرح . وقد بدأت هذه السياسة تعطي ثمارها منذ ذات السواري سنة ٦٤٩ التي تبعتها غارات ضد صقلية(١٩) حيث كان للبيزنطيين مركز ثقل هام جدا(٢٠) .

ونلاحظ من ناحية اخرى ان قادة ومحركي فتح افريقية كلهم من ارستقراطية مكية قرشية ومن مجموعة عمرو بن العاص وهم يمتازون بتجربة ثلاثية : تجربة مصرية وتجربة صحراوية (النوبة وواحات الصحراء الغربية والليبية) وتجربة بحرية .

وتلفت نظرنا التجربة التي اسميناها بالصحراوية والتي لم يتسع المجال لتناولها بشيء من التوسع . هذا البعد لعمليات الفتح على الجبهة الغربية يتطلب دراسة خاصة على ضوء البحوث الجديدة في تاريخ افريقيا السوداء وعلاقات مصر وافريقية بها . وهذه البحوث تنبهنا من جديد ان المغرب العربي ليس مجرد طفوف على شواطىء البحر الابيض المتوسط بل له ابعاد اخرى عميقة الى الجنوب ، والى ذلك البحر الاخر اي الصحراء الكبرى .

أهمل المؤرخون البعد الصحراوي للفتوحات على الجبهة الغربية وعزوا ذلك الى الطبيعة العربية البدوية والى ركون العرب الى مناخات معهودة بالنسبة اليهم الى غير ذلك من المتاهات ناسين او متناسين ان الشخصيات الماطرة للعرب كانت لها تجارب وكفاءات ذات ابعاد متعددة وتفوق بكثير آفاق العربي البدوي العادي البسيط .

هذه الابعاد الصحراوية كانت لها مبررات استراتيجية عسكرية طبعا ولكن اهم دوافعها دوافع اقتصادية اذ نلاحظ ان العرب المسلمين الفاتحين كانت لهم عناية خاصة بالصحراء وواحاتها في الجبهة الغربية .

ولم تكن تهمهم الواحات وحدها أو لذاتها وانما دور تلك الواحة كعمق استراتيجي يطوق البلاد التي يخطط لفتحها وكذلك دورها في المسالك التجارية مع افريقيا جنوب الصحراء وسيتضح هذا البعد الخطير فيما بعد عندما نلاحظ ان

السيطرة العربية الاسلامية على الساحة يختلف عن التصورات السابقة ، تصورات الرومان والبيزنطيين مثلا .

هكذا تتضح لنا اهمية الجبهة الغربية التي تكون افريقية حلقة مهمة فيها . فلا غرابة اذن ان تكون من بين اولى مبادرات عبد الملك بن مروان ، بعد فراغه من امر عبد الله بن الزبير، ان بعث بحسان بن النعمان الى افريقية على راس جيش ضخم ، بالمقارنة الى ما سبقه من القوات ، راسما له مهمة اساسية وهي تأسيس قاعدة بحرية بتونس . ولا غرابة كذلك ان تتجدد الحملات ضد القسطنطينية بعد تركيز هذه السياسية حوالي سنة ٦٧٣ بعد الميلاد .

هكذا يتضح ان فتح افريقية من طرف العرب المسلمين يندرج ضمن مخطط ضخم هدفه الاستراتيجي .

- حماية الشام ثم مصر .
- تجاوز الجنب البحري الايمن لبيزنطة .
- السيطرة على الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط لحصر المجابهة من الاطراف الشمالية للحوض الشرقي منه وحول اسيا الصغرى والقسطنطينيةبالذات .

فامام هذه الاعتبارات تظهر جليا سخافة الأساطير المتعلقة بخوف العرب من البحر ومن المسافات البعيدة والمتعلقة بتفضيلهم الطرقالصحراوية لانهم كبدو معتادون مثل هذه الطرق الى غير ذلك من المتاهات .

فما تصرف العرب المسلمين الفاتحين الا التزاما بتخطيطات دقيقة تقتضد الزمن والوسائل وتستغل القدرات الخاصة .

واذا لم نسلم بهذه الرؤية فليس لنا اختيار ثان الا ان نبقى اسرى تلك النظرة القائلة بأن العرب المسلمين اندفعوا تعصبا ورغبة في الغنيمة فقط .

كان الحافز الديني والحماس المتاتي عنه عنصرين هامين جدا في الهبة العربية الاسلامية وكانت الغنائم عنصرا مرغبا كذلك ولكن فوق كل هذه الدوافع كانت الرؤيـة الاستراتيجية والعزيمة السياسية اهم العوامل لا للفتح فحسب بل وكذلك فينجاحه.

(١) انظر فرنسيس رود ، الكاهنة ملكة البربر .

(٢) انظر عنه (مجلة معهد الدراسات الشرقية) (A.I.E.D) ، عدد VI (١٩٤٥-١٩٤٧) ص ١٠٨-١٥٥ .

(٣) انظر عنه Melanges GAUDEFROY — DEMOMBYNES القاهرة 1935 — 1945 ، ص 52. — 151

(٤) انظر عنه : تاريخ اسبانيا الاسلامية لليفي بروفنسال (Levy — Provençal)

(٥) انظرعنه ليفي بروفنسال Levy Provençal في مجلة اربيكا (Arabica) ، المجلدالاول (سنة 1954)

(٦) انظر دراسة هشام جعيط عن ولاية افريقية وتاكيده على اهمية علاقتها مع مصر مدة طويلة : مجلة (ستوديا اسلميكا) (Studia Islam'ca) مجلة عـدد 27 .

(٧) انظر ابن الاثير والطبري والمالكي صاحب رياض النفوس ، الجزء الاول ، ص : 44

(٨) عبد الله بن عباس عبد الله بن عمر ، عبد الله بن الزبير ، عبد الله ابن جعفر ... وانظر فتح البلدان للبلاذري ، 226, والطبري ، ١ ، ص : 2814 و 18, — 2817 وفتوح مصر لابن عبد الحكم ، 183 .

(٩) انظر ابن عبد الحكم والبلاذري وابن الاثير وابن خلدون .

(١٠) يقال بان معاوية بن ابي سفيان نظم هذه الحملة على اثر نصيحة قائد بيزنطي اسمه (جناديوس) (Gennadius) وهذا يدل على شيئين اثنين اهتمام معاوية بالموضوع وامكانية وجود نشاط مخابرات اسلامية في الاقاليم البيزنطية بما فيها البعيدة منها .

(١١) انظررياض النفوس ومعالم الايمان لابن ناجي والخلاصة النقية للباجي المسعودي .

(١٢) البيان المغرب ، دار الثقافة ببيروت الجزء الاول ص : 19

(١٣) انظر الاصابة لابن حجر العسقلاني .

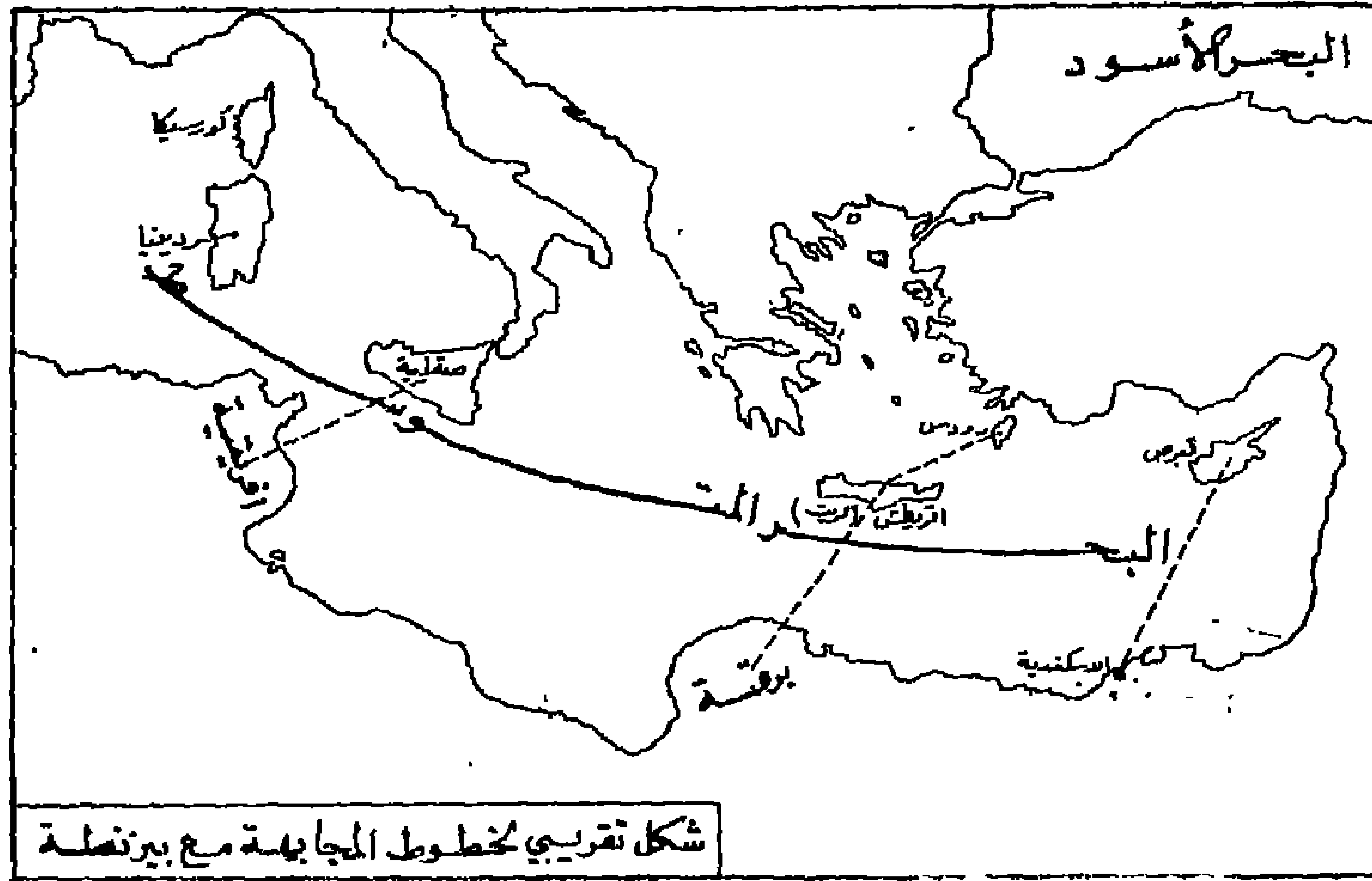
(١٤) الجمهرةص : 163

(١٥) المغرب في حلى المغرب لابن سعيد واسد الغابة لابن الاثير والاستيعاب لابن عبد البر .

(١٦) الاصابة لابن حجر

(١٧) سير اعلام النبلاء للذهبي .

(١٨) منذ سنة 651 صارت العمليات البحرية اساسية في سياسة التوسع العربي الاسلامي .



شكل تقريبي لخطوط المجابهة مع بيزنطة

(١٩) اليك شكل تقريبي لخطوط المجابهة البحرية ضد بيزنطة

(وانظر خارطة للحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط وجزره وشواطئه) .

(٢٠) بعد اغتيال الامبراطور قسطنطين ، واجه خليفته قسطنطين بوجونا (Constantin Pogonat) امبراطورا منازعا بصقلية .

الوقف

ومكانته في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية

في الجزائر

في أواخر العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي

د . ناصر الدين سعيدوني

معهد العلوم الاجتماعية ـ جامعة الجزائر

تعريف الوقف وتحديد احكامه :

ظلت الاوقاف ، أو الاحباس كما تعرف في اقطار المغرب العربي ، باعتبارها تقليدا اسلامياعريقا ، تشكل احدى مظاهر الحضارة العربية الاسلامية التي تميز بها العهد العثماني بالجزائر ، وتاثرت بها اوضاع البلاد الجزائرية اثر تعرضها للغزو الفرنسي عام ١٨٣٠ م ، بحيث لا يمكن لاي مؤرخ أو باحث التقليل من اهمية قضايا الوقف او اهمال النتائج المترتبة عليه . وهذا ما دفعني الى تناول مكانة الوقف في الجزائر كما شجعني على التعرف على اثاره في مختلف اوجه الحياة الاقتصادية والاجتماعية او الثقافية وحتى السياسية منها . وحتى نأخذ فكرة واضحة عن اوضاع الوقف بالجزائر اواخر العهد العثماني واوائل الاحتلال الفرنسي يجدر بنا ان نشير في مستهل هذا البحث الى طبيعة الاحكام الشرعية للوقف وما تميزت به من احكام خاصة ومعاملات محددة . فالوقف باعتباره(*) عقدا لعمل خيري ذي صبغة دينية(١) يقوم على توفر الواقف الذي له اهلية التبرع(٢) بما يملك من ذات او منفعة ، وعلى وجود الموقوف وهو المنفعة التي تصرف على سبيل الحبس ، فضلا عن توفر الموقوف عليه وهو المستحق لصرف تلك الذات او المنفعة ، ولو كان مصلحة عامة كالمسجد والزاوية وغيرها ، هذا مع اشتراط صيغة الوقف ولو كانت بكتابة على مسجد او مؤسسة خيرية .

اعد هذا البحث للمؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، دمشق ١٦ ـ ٢٢ جمادي الاخرة ١٤٠١هـ / ٢٠ ـ ٢٦ نيسان ١٩٨١م .

(*) الوقف من تصرفات الارادة المنفردة وليس عقدا لعدم حاجته الى قبول .

فبفضل هذه الاسس والاركان كما نعرف فقهيا يأخذ الوقف مفهومه الشرعي ويصنف حسب الغرض من صرف المنافع المترتبة عليه ، فمنه ما هو وقف عام يعود اساسا على المصلحة العامة التي حبس من اجلها ، ومنه ماهو وقف خاص لا يتحول صرف منفعته على المصلحة العامة التي حبس على اساسها الا بعد انقراض العقب او انقطاع نسل صاحب الحبس ، اي الواقف ، وهذا الصنف الاخير من الوقف يعرف بالوقف الذري او العائلي او الاهلي ، وهو الشائع في اغلب اقاليم الامبراطورية العثمانية ومن ضمنها الايالة الجزائرية ، وهو غير الوقف الخيري الذي سبقت الاشارة اليه وقد نتج عن هذا التنوع في الوقف تباين نظرة كل من المذهب الحنفي والمذهب المالكي الى الهدف والغاية من صرف الحبس ، فالمذهب المالكي الذي يتمسك به غالبية الجزائريين كان يرى ضرورة صرف الحبس على المصلحة العامة التي حبس من اجلها مباشرة بدون قيد او ارجاء او تردد ، بينما المذهب الحنفي الذي تتميز به الطائفة التركية وجماعة الكراغلة وبعض الحضر بالمدن الكبرى في الجزائر كان يسمح بجواز انتفاع الواقف وعقبه بما حبسه من وقف بحيث لا يعود الوقف الى الغاية التي حبس من اجلها الا بعد انتفاء الورثة المنصوص عليهم في وثيقة الحبس . وعلى كل فان التسهيلات التي يقرها المذهب الحنفي دفعت غالبية الجزائريين الى تحبيس املاكهم حسب احكام المذهب الحنفي حتى يتمكنوا من الانتفاع بها ، هم وعقبهم من بعدهم ، مع كونهم من اتباع المذهب المالكي . وهذا ما تؤكده اغلب الوثائق الشرعية الخاصة بالوقوف التي تعود الى العهد العثماني(٣) . والتي نجد في بعضها فتاوي شرعية تشير الى موقف كل من المذهب المالكي والحنفي من قضية الوقف قبل الاخذ براي ابي يوسف الذي يجيز الوقف الاهلي(٤) . وهذا ما دفع حمدان خوجة الى القول في كتابه «المرآة»: ان الفقهاء بالجزائر قد اجمعوا على العمل بمقتضى المذهب الحنفي الذي يجيز حبس الهبات المشروطة وذلك ليكثروا من مردود الهدايا لصالح الفقراء(٥) .

اما كيفية الانتفاع بالحبس واستغلاله لفائدة العقب اذا كان وقفا اهليا ، او لمصلحة الغرض الذي حبس من اجله في حالة ما اذا كان الوقف خيريا ، فتراعى فيه الاحكام الشرعية التي ترى في صيغة الوقف صفة اللزوم والديمومة Inalienabilité بحيث لا يمكن التراجع فيه ، او الغاؤه او تحويله الى منفعة اخرى غير التي حبس من اجلها . فلهذا لا تجيز الاحكام الشرعية بيعه او اعارته او رهنه . وقد نص على ذلك ابو حنيفة(*) وصاحباه ابو يوسف ومحمد وعامة العلماء (٦) ، بأن الوقف عقد مؤبد لا يمكن تحويله من الغرض المحبس عليه ، او هذا ما نص عليه ابن عرفة بقوله : « الحبس اعطاء منفعة شيء مدة وجوده لازما بقاؤه في ملك معطيه ولو تقديرا »(٧) . وقد استثنى العلماء عند الضرورة كراء الحبس او استبداله . فيسمح

(*) في مذهب ابي حنيفة لا يكون الوقف لازما للواقف وله الرجوع عنه في كل وقت .

باستبدال الحبس في حالة توقع فساده او ضياعه او انقطاع مردوده او عجز مستغله عن اصلاحه وترميمه ما لم يكن مسجدا ، وقد اشار الى ذلك صاحب التنوير بانه : (يجوزشرط الاستبدال به ارضا اخرى .. فاذا فعل صارت الثانية كالاولى في شرائطها وان لم يذكرها)(٨) كما يسمح بكرائه كراء مؤبدا لضمان مردوده والمحافظة عليه ، وفي هذه الحالة يصبح كل ما يستخدمه متولي الكراء من بناء وغرس ملكا شخصيا له شريطة ان يلتزم بخدمته وصيانته وبذلك تراعى مصالح متولي الكراءويحافظ في نفس الوقت على وضعية الوقف وتحترم وصية صاحب الحبس والغرض الذي حبس من أجله وهذا ما يسمح لنا ان نصف الوقف بانه ملكية انتفاع وليس امتلاك عين حيث انالمحبس له ليس له سوى حق التمتع بفوائد الحبس وتعرف عملية كراء الحبس التي قد تكون مؤبدة او محددة بعدد من السنين قد تبلغ في كثير من الاحيان التسعين سنة(٩) بالعناء لدى اهالي الجزائر وبالانزال في ايالة تونس او التحكير في اقاليم المشرق العربي . ومما يلاحظ ان عملية استبدال الحبس او كرائه لا يمكن انتتم الا بعد تزكيتها من وكيل الوقف اذا كان الوقف خيريا او متولي الوقف اذا كان الوقف اهليا ، وبعد استشارة اهل الرأي والمشورة في البلد وبعد اقرار صريح من المجلس العلمي الذي كان ينعقد في الجامع الكبير في كل الحواضر الكبرى مرة كل اسبوع . هذا ولا يسجل عقد الكراء او الاستبدال الا بعد وضع الحبس في المزاد العلني لتقدير مقدار العناء (الكراء) المتوجب عليه وذلك حتى لا تتخذ عملية الاستبدال او الكراء مطية لابطال الحبس او الغائه او تحويله عن غرضه ، لا سيما وان كثيرا من الاحباس تحولت عن اغراضها بعامل الزمن الى ملكيات خاصة وهذا ما تفطن له الفقهاء اذ اشار شارح الدرالمنتقى الى ذلك بقوله : (ونحن لانفتي به وقد شاهدنا في الاستبدال من الفساد ما لا يعد ولا يحصى ، فان ظلمة القضاة جعلوه حيلة الى ابطال اكثر اوقاف المسلمين) (١٠) ومما يلاحظ ان متولي الحبس لا يلزم الا بدفع نصف الكراء اذا تعهد باصلاح الحبس وترميمه ، ونصف الكراء المتبقى عليه يسدد نفقات الاصلاح .ولهذا بعد ان يستوفي صاحب العناء ما صرفه عن الحبس يصبح بعد ذلك ملزما بدفع الكراء كاملا ، والجدير بالذكر ان هذه العملية لا تتم الا بعد ان يتحقق وكيل الحبس من ضرورة هذا الترميم ويقر فائدته ويستشير عادة شيخ البنائين في ذلك . اما اذا تهدم الحبس ولم يعد بناؤه او اهمل تماما فان الارض التي كان مقاما عليها تعتبر حبسا لاتباع ولا تشترى وانما يحدد لها عناء مؤبد محافظة على احكام الوقف واحتراما لطبيعته .

وضعية الحبس بالجزائر في اواخر العهد العثماني :

بعد هذه النبذة المقتضبة عن احكام الوقف الشرعية نتطرق الى وضعية الوقف

بالجزائر في اواخر العهد العثماني واوائل الفترة الاستعمارية هذه الوضعية التي اتصفت باوضاع خاصة واحوال مميزة نجملها في النقاط التالية :

١ ـ يعتبر الوقف في حد ذاته ظاهرة اجتماعية اسلامية عرفتها الجزائر في الفترة الاسلامية التي سبقت مجيء الاتراك واستحواذهم على مقاليد الامور . غير اننا لا نملك الآن الا النزر القليل من الوثائق التي تعود الى تلك الفترة ، وخاصة تلك التي تهم القطاع القسنطيني اواخر العهد الحفصي ، والجهات الغربية من الجزائر تحت حكم الزيانيين ، وهي في اغلبها تعود الى القرن الخامس عشر الميلادي ، مثل الوثيقة التي تسجل اوقاف مسجد ومدرسة سيدي ابي مدين بتلمسان والتي يرجع تاريخها الى عام ٩٠٦هـ / ١٥٠٠م ، والتي توزع اوقاف ابي مدين على الوجه التالي ٩ بساتين و ٤ مزارع وقطعتا ارض وطاحونتان ٢ وحمام واحد داخل تلمسان ونصف الحمام القديم بالمنصورة بالاضافة الى نصف بستان وقطعةارض للحراثة تقدرمساحتها بعشر زويجات (١٠٠ هكتار) وارض صالحة للزراعة تقدر مساحتها بعشرين زويجة (٢٠٠ هكتار)(١١). كما ان اقدم وثائق اوقاف الجامع الاعظم بالجزائر العاصمة لا تتجاوز عام ٩٤٦ / ١٥٤٠(١٢) .

٢ ـ تميزت الفترة العثمانية بالجزائر بتكاثر الاوقاف وانتشارها في مختلف انحاء البلاد ، وذلك بفعل الظروف التي عرفتها الجزائر منذ اواخر القرن ـ١٥ـ وحتى مستهل القرن ١٩م ، والتي اتصفت اساسا بازدياد نفوذ الطرق والزوايا وتعمق الروح الدينية لدى السكان الذين وجدوا فيها احسن وسيلة وخير عزاء امام مظالم الحاكم وانعدام الامن وهجمات الاساطيل الاوروبية على السواحل ، وتكرر الكوارث الطبيعة فضلا عن الحكام الاتراك الذين رأوا في الرابطة الدينية عاملا قويا مكنهم من بسط نفوذهم وتدعيم مكانتهم لدى الاهالي ، الامر الذي دفعهم في كثير من الاحيان الى تحبيس املاكهم اظهارا للورع والتقوى وتقربا للمرابطين واكتسابا لتأييد رجال الدين فعلى سبيل المثال نذكر ان الباي حسين بن صالح عام ١٢٢١ / ١٨٠٧، عندما خرج في احدى حملاته العسكرية اخذ على نفسه نذرا يتعهد فيه (ببناء دار الولي سيدي علي العريان والسيد محمد بن سيدي سعيد واصلاح مسجده وتحسين اوقاف يستعين بها على رعاية الطلبة والغرباء وابناء السبيل)(١٣) ، وذلك حتى يكسب تاييد السكان المحليين ويضمن معاضدتهم له في حملته العسكرية على الجهات الشرقية من بايليك قسنطينة . ومما يلاحظ ان الاوقاف ما لبثت أن تزايدت في اواخر العهد العثماني حتى اصبحت تشكل نسبة كبيرة من الممتلكات الزراعية والحضرية منذ أواخر القرن ١٨ ، وهذا ما تؤكده لنا سجلات الاوقاف ووثائق المحاكم

الشرعية . واحسن دليل على هذا التطور الذي عرفته الاوقاف في الجزائر العثمانية ، نستخلصه من وضعية اوقاف سيدي عبد الرحمن الثعالبي التي لم تتجاوز منذ اواخر القرن ١٥ وحتى بداية القرن ١٨ احد عشر وقفا ثم ما لبثت ان تزايدت بعد ان اكتسب صاحبها شعبية وصيتا في اوساط الاهالي منذ اواخر القرن ١٨ حتى اصبحت عشية الاحتلال الفرنسي يناهز عدد اوقافها ٨٢ وقفا(١٤) . والتطور نفسه عرفته كثير من اوقاف المؤسسات الدينية مثل اوقاف الجامع الاعظم بالجزائر العاصمة التي لم تتجاوز ١٥٩ عقدا خلال ٢١٠ سنوات (١٥٤٠ ـ ١٧٥٠) ثم ما لبثت ان تزايدت منذ منتصف القرن ١٨ حتى اصبحت سنة ١٨٤١ (٥٤٣) اي بزيادة (٣٨٤) عقداً خلال الفترة الممتدة من ١٧٥٢ ـ ١٨٤١ م (١٥) .

٣ ـ اصبح الوقف بالجزائر بعد انتشاره وتكاثره في اواخر العهد العثماني مؤثرا على مختلف اوجه الحياة ، بحيث اصبحت الاوقاف تشتمل على الاملاك العقارية والاراضي الزراعية وتضم العديد من الدكاكين والفنادق وافران الخبز والعيون والسواقي والحنايا والصهاريج والطواحين وافران معالجة الجير ، هذا بالاضافةالى الكثير من الضيعات والمزارع والبساتين والحدائق ، حتى ان القنصل الفرنسي فالبير الذي تعرف على الجزائر على ١٧٨١ اكد على (ان مؤسسة اوقاف الحرمين الشريفين تمتلك جل مساكن مدينة الجزائر واغلب البساتين المجاورة لها(١٦) . ولم يقتصر أمر انتشار الحبس على مدينة الجزائر وضواحيها بل شمل اغلب جهات البلاد الجزائرية بحيث اشتهرت كثيراً من المدن والفحوص بكثـرة اوقافها مثل مازونـة وتلمسان ومعسكر وقسنطينة وعنابة وبجاية والمدية ومليانة والبليدة والقليعة ففي مدينة قسنطينة وضواحيها كان عدد الاملاك المحبسة تزيد على (١٧٠) وقفا منها (٤٠) رحى واقعة على وادي الرمال ، والباقي املاك مختلفة وبساتين واراض زراعية (١٧).

٤ ـ لم تعرف الاوقاف بالجزائر العثمانية تنظيما محكما واشرافا فعالا الا في فترة متأخرة نسبيا تعود الى اوائل القرن ـ١٨ـ ، وهذا ما تؤكده كثير من الاشارات الواردة ضمن وثائق الوقف . مثل الوثيقة(*) التي تسجل الاوقاف بمدينة قسنطينة وتتعرض للاوضاع المتردية التي كانت عليها والمبادرة التي قام بها صالح باي من اجل ضبطها وتسجيل مردودها في عدة دفاتر تتوزع بين الموظفين والمكلفين برعايتها ، وهم ناظر بيت المال وشيوخ البلد والقاضي الحنفي والقاضي المالكي وحسب ما يفهم من هذه الوثيقة المؤرخة في اواسط ربيع الاول عام ١١٩٠هـ افريل عام ١٧٧٦م ، ان الهدف من هذه التنظيمات التي خضعت لها الاوقاف كان الغرض منه وضع حـد للتهاون

(*) هذا التنظيم خاص بالاوقاف الخيرية دون الاهلية كما هو واضح في الوثيقة .

والتحايل على الاوقاف ، وان العملية انتهت الى وضع احصاء دقيق محكم وهـذا ماتنص عليه الوثيقة في الفقرات التالية : (الحمد لله ولما وقع التقصير من وكلاء مساجد قسنطينة ولم يكن لهم اعتناء بشان الاوقاف وفرطوا في ذلك غاية التفريط وضاع الكثير منها .. وبلغ امر ذلك لحضرة المعظم الاسعد المنصور .. سيدنا صالح باي ايده الله تعالى . فالهمه الله الى احياء ما اندرس من المساجد والاوقاف .. امر حينئذ قضاته والمفتين ان يبحثوا عن اوقاف المساجد وعن المساجد التي دثرت ويثبتوا ذلك بأربعة سجلات متماثلة فامتثلوا امره وبلغوا جهدهم في البحث عن اوقاف المساجد وعن المساجد التي دثرت)(١٨) .

٥ ـ اتخذت تنظيمات الاوقاف شكل ادارة محلية مميزة وجهاز اداري مستقل محدد الصلاحيات يتميز بمهارة المشرفين عليه وكفاءة القائمين به(١٩) فرغم ان العديد من موظفي الاوقاف كانوا يخضعون مباشرة للسلطة الحاكمة بعد ان يعينون بأمر من الباشا (الحاكم) ، وباقرار منه بعد تزكيتهم من طرف اعضاء الديوان وكبار الموظفين(٢٠) فان التصرف في شؤون الاوقاف واتخاذ الاجراءات العملية المتعلقة بها كان يعود الى المجلس العلمي الذي ينعقد للبت فيها عادة كل يوم خميس من كل اسبوع في الجامع الكبير ، بحضور المفتي المالكي والحنفي والقاضي المالكي والحنفي ، وبعض الموظفين الآخرين كوكيل بيت المال وشيخ البلد . وللمجلس العلمي صلاحيات مطلقة في التصرف في شؤون الاوقاف ومراقبة الموظفين القائمين عليها ، كالشيخ الناظر وجماعة الوكلاء والكتاب (الخواجات) والاعوان والشواش والحزابة (٢١) (الطلبة الذين يقراون القرآن بالمسجد) .

ويعتبر الشيخ الناظر او المتولي او الوكيل العام كما تعرفه بعض المصادر ،(٢٢) الموظف الرئيسي بمصلحة الاوقاف فهو يكلف بالاشراف على اوجه الانفاق وحفظ مصادر الاوقاف ، ومراقبة دفاتر الحسابات الخاصة بالمؤسسة التي تقع تحت رعايته مباشرة . ويأتي في درجة ثانية من حيث السلم الاداري لموظفي الاوقاف وكلاء المدن الكبرى والاحياء الرئيسية بمدينة الجزائر ، فهم مكلفون بجمع المحاصيل وقبض المداخيل وصرف المرتبات وصيانة الحبس وتقديم حساب مفصلّ عن ذلك لناظر الاوقاف كل ستة اشهر على ماتحت ايديهم من املاك محبسة ، كما كانوا ملزمين ايضا بضبط حسابات كل سنة وتسجيلها في الدفاتر الرسمية بعد طرح مصاريف شؤون الصيانة والخدمات المختلفة (٢٣) .

وقد جرت العادة على ان يقدم هؤلاء الوكلاء عرضا عن خدماتهم بمحضر وكيل بيت المال وشيخ البلد حتى يمكن ان يطلع عليه المجلس العلمي بعد ان يتكلف الشيخ

الناظر بتقديمه له . ونظرا لطبيعة عمل موظفي الاوقاف وتزايد اهميتهم اضطر الشيخ الناظر الى توظيف كاتب خاص يعرف بالسايجي او الخوجة لضبط حسابات الاوقاف التي يشرف عليها ، كما اضطر الوكلاء الى الاستعانة بجماعة العدول الذين يعينون من طرف القضاة وذلك لاداء مهامهم المختلفة . ويلحق بهؤلاء الموظفين جماعة الشواش والقيمين المكلفين بأمور الحراسة والقيام بالخدمات الضرورية .

والجدير بالذكر ان انتشار الاوقاف وتزايد اهميتها جعل بعض الموظفين الآخرين يتولون الاشراف عليها مثل شيخ البلد والمزوار وبيت المالجي(٢٤) ، فشيخ بلد قسنطينة توسعت صلاحيته في أواخر العهد العثماني فاصبح يشرف على الاوقاف بالجامع الكبير بقسنطينة. كما اصبح يتصرف باوقاف الحرمين الشريفين بالمدينة نفسها ، الامر الذي سمح له ان يحتكر عوائد ومغارم قبلتي اولاد جبارة وبني واغطين حتى يتمكن من الانفاق على الاوقاف التي وضعت تحت رعايته ، بينما خصصت منح سنوية لباقي موظفي الاوقاف ، فكل من الوكيل او الناظر كان يخصص له عطاء سنوى لايزيد على ٤٠ ريالا (٢٥) . مما اضطر كثيرا من النظار ووكلاء الوقف الى البحث عن مصادر اخرى قد تكون في اغلب الاحيان على حساب مردود اوقاف المؤسسة التي يقومون بخدمتها ، وهذا مما لاحظه موظفو الادارة الفرنسية اثر الاحتلال مباشرة(٢٦)، كما كان سببا رئيسيا في تحول كثير من الاوقاف عن الغرض الذي حبست عليه لتصبح من الاملاك الخاصة تحت حجج مختلفة واعتبارات متباينة واساليب ملتوية .

المؤسسات الدينية التي تتوزع عليها الاوقاف الجزائرية :

بعد هذه المميزات التي اتصفت بها اوضاع الاوقاف بالجزائر العثمانية نذكر ان الاوقاف الجزائرية كانت تتوزع على عدة مؤسسات خيرية ذات طابع ديني وشخصية قانونية ووضع اداري خاص ، وهي حسب كثرتها تصنف حسب الترتيب التالي :

١ - **اوقاف الحرمين الشريفين** ، وكانت تشكل اغلب الاوقاف الخيرية أو الاهلية وذلك للمكانة السامية والمنزلة الرفيعة التي خص بها سكان الجزائر البقاع المقدسة بالحجاز وكانت هذه الاوقاف من الكثرة بحيث بلغت نسبتها في اواخر العهد العثماني ثلاثة ارباع الاوقاف الموجودة آنذاك(٢٧) ، وكان عدد اوقاف الحرمين بمدينة الجزائر وضواحيها عشية الاحتلال الفرنسي يتراوح ما بين ١٣٥٧ - ١٥٥٨ ملكية عقارية تبعا للمصادر المختلفة(٢٨) التي نرجح منها احصاء دوفو(٢٩) ، التي اعتمد فيه على سجلات الاوقاف والذي ذكر فيه نوع الحبس ومردوده السنوي كما يلي:

— 840	منزلا مردودها السنوي	26653,80 فرنكا
— 258	دكانا مردودها السنوي	4278,60 ف .
— 33	مخزنا مردودها السنوي	449,70 ف
— 11	فرنا للخبز مردودها السنوي	102,60 ف .
— 06	طاحونات مردودها السنوي	97,50 ف .
— 01	فندق مردودها السنوي	135,70 ف .
— 04	مقاهي مردودها السنوي	161,70 ف .
— 82	غرفة مردودها السنوي	846,65 ف .
— 57	بستانا مردودها السنوي	1257.45 ف.
— 62	ضيعة مردودها السنوي	1830,45 ف .
— 03	افران جير مردودها السنوي	200,45 ف .

فيكون المجموع ١٣٥٧ ملكا عقاريا مردوده السنوي ٣٦٠١٣ر٤٥ ف . ، يضاف لها كراء (عناء) (٢٠) وقفا اخر يقدر محصوله بـ (٧٢٠٩ر٢٥ ف) بحيث يصبح عدد الاملاك المحبسة على الحرمين الشريفين (١٥٥٨إ) ومردودها السنوي (٤٣٢٢٢ر٧٠)ف.

والجدير بالذكر ان جزءا ضئيلا من عوائد اوقاف الحرمين لايتجاوز (١٥ر٠٠٠)ف سنويا(٣٠)، كان يرسل الى البقاع المقدسة بواسطة امير ركب الحجاز أو يسلم لمبعوث شريف مكة عند زيارته للجزائر ، بينما ينفق الباقي على المحتاجين والفقراء وابناء السبيل او يعطى كاعانة للمنتسبين الى الحرمين الشريفين المقيمين بالجزائر او الوافدين عليها من الحجاز. كما يساهم في بعض الاحيان بجزء من عوائد اوقاف الحرمين في عتق المسلمين الذين وقعوا في الاسر ومما يلاحظ ان اوجه صرف عوائد اوقاف الحرمين التي سبقت الاشارة اليها لاتتم في الغالب الا بعد تسديد نفقات الصيانة واجور الموظفين اذ كانت مؤسسة الحرمين ملزمة بصرف منحة سنوية للموظفين الدائمين بها وبالانفاق على ثلاثة مساجد حنفية بمدينة الجزائر(٣١) وصيانتها .

٢ — اوقاف الجامع الاعظم وبقية المساجد المالكية الاخرى ، وهي من حيث كثرة عددها ووفرة مردودها تحتل الدرجة الثانية بعد اوقاف الحرمين . ولعل هذا يعود

اساسا الى الدور الذيكان يلعبه الجامع الاعظم في الحياة الثقافية والدينية ولكثرة عدد المساجد المالكية في الحواضر الجزائرية الكبرى ، ففي مدينة الجزائر مثلا كان عدد المساجد المالكية يبلغ(٩٢) مسجدا(٣٢)، ، وكل مسجد خصصت له اوقاف تنفق عليه ، وكان في طليعة هذه الاوقاف الخاصة بالمساجد الحنفية اوقاف المسجد الاعظم التي بلغت من الكثرة والضخامة بحيث كانت تناهز ٥٥٠ وقفا تشتمل على المنازل والحوانيت والبساتين والمزارع والضيعات وغيرها ، ويعود التصرف فيها للمفتي المالكي الذين يوكل امر تسيير شؤونها الى الوكيل العام الذي يعاضده وكيلان احدهما متكلف بأوقاف المؤذنين واخر يهتم بأوقاف الحزابين .

٣ ـ اوقاف سبل الخيرات :

أسست حسب بعض المصادر عام ٩٩٩هـ / ١٥٨٤م ، على يد شعبان خوجه(٣٣) وهي مخصصة للانفاق على المساجد الحنفية الواقعة بمدينة الجزائر والبالغ عددها ثمانية مساجد (الجامع الجديد وجامع سفير وزاويته وجامع دار القاضي وجامع كتشاو وجامع الحاج شعبان خوجة وجامع الشبارلية ومسجد حسين داي ومسجد علي خوجه الواقعين بحصن القصبة) .

ويعود امر التصرف في اوقاف سبيل الخيرات الى المفتي الحنفي الذي يقوم بالصلاة ويتولى الافتاء بالجامع الجديد (المسجد الرئيسي لاتباع المذهب الحنفي بالجزائر) الذي اسس مكان مدرسة المولى ابي عنان سنة ١٠٧٠ هـ/ ١٦٦٠ م .

وتعود اهمية اوقاف سبل الخيرات رغم قلة عدد المساجد الحنفية وكون غالبية الجزائريين من اتباع المذهب المالكي ، الى غنى الطائفة التركية وجماعة الكراغلةوبعض العائلات الحضرية المنتسبة للمذهب الحنفي،وهذا ما جعل عدد اوقاف سبل الخيرات يناهز (٣٣١) وقفا منها (١١٩) ملكية عقارية (٢١٢) عناء توفر مدخولا سنويا يقدر ب ١٨٠,٠٠٠ ف، وذلك قبل ن تتعرض الى ضغط الادارة الاستعمارية فتتضاءل الى (١٧٥) وقفا في السنوات الاولى للغزو الفرنسي(٣٤) .

٤ ـ اوقاف الاولياء والاشراف واهل الاندلس : حظي اغلب الاولياء (المرابطين) باوقاف خصصت للانفاقعلى اضرحتهم . ففي مدينة الجزائر كانت تتوزع اوقاف الاولياء على(٩) اضرحة ،(٨) منها تقع داخل مدينة الجزائر ، وواحد وهو ضريح سيدي عبد الرحمن يقع خارجها بنواحي جرجرة . وتأتي في مقدمة اوقاف الاولياء اوقاف سيدي عبد الرحمن الثعالبي التي كانت تقدر في السنوات الاولى للاحتلال الفرنسي

ـ٦٩ـ وفقا مردودها السنوي ـ٦٠٠٠ـ فرنك ، تنفق على القائمين على الضريح، ويوزع قسم منها على فقراء المدينة كل يوم خميس بنسبة فرنك الى ثلاثة فرنكات لكل فرد(٣٥) .

اما الاشرف الذين كانت تنتسب الى جماعتهم ـ٢٠٠ـ الى ـ٣٠٠ـ اسرة(٣٦)، فقد كانوا يحظون بتقدير العامة ورعاية الحكام الذين خصصوا بعض الاوقات لرعايتهم ، مثل الداي محمد بقطاش الذي اسس لفائدتهم زاوية عام ١١٢١هـ/١٧٠٩م وقد عرفت هذه الزاوية بزاوية الاشراف التي خصصت لها اوقاف كثيرة قبل ان تتعرض للتصفية من قبل الادارة الفرنسية عام ١٨٣٢م. ولا تقل اوقاف اهل الاندلس عن اوقاف الاولياء والاشراف وذلك لاستقرار كثير من مهاجري الاندلس بالبلاد الجزائرية وامتلاكهم ثروات ضخمة نتيجة اعمال القرصنة والاشتغال بالزراعة .وقد خص كثير منهم جامع الاندلس والزاوية الملحقة به الذي اسس في النصف الاول من القرن السادس عشر بكثير من الهبات والاوقاف بلغت ـ٤٠ـ ملكية و ـ٦١ـ عناء وضعت تحت تصرف وكيل الاندلس(٣٧) .

٥ ـ اوقاف الجند والثكنات والمرافق العامة : خصصت كثير من الاوقاف للانفاق على المعوزين من الجند وصيانة بعض الثكنات والحصون والابراج ، فضلا عن العديد من المرافق العامة الاخرى كالعيون والسواقي والحنايا والصهاريج والابار . وقد خصص لكل مصلحة من هذه المرافق العامة وكيل خاص يرعى اوقافها ويتعهد شؤونها ، مثل وكيل العيون والسواقي الذي كان مدخوله السنوي من الاوقاف التي يشرف عليها يبلغ ـ ١٥٠,٠٠٠ـ ف في السنوات الأولى للاحتلال(٣٨).

ولكي نأخذ فكرة واضحة عن مختلف اوقاف المؤسسات الدينية ونتعرف على مدى اهمية نفقاتها والفوائد التي توفرها نثبت الجدولين التاليين اعتمادا على المعلومات الملخصة من الموظفين الفرنسيين الذين اوكل اليهم الاشراف على الاوقاف اثر الاحتلال ، وهما ، رغم كونهما يعودان الى السنوات الاولى من الاحتلال ، الاانهما يعكسان واقع الاوقاف في الفترة التي سبقت الاحتلال مباشرة(٣٩) .

آ ـ جدول عام لمصاريف اوقاف بعض المؤسسات الدينية حسب تقرير المدير المالي للادارة الفرنسية بالجزائر بتاريخ ٣٠ سبتمر ١٨٤٢ مقدرا بالفرنكات :

السنة	اقاوف الحرمين الشريفين	أوقاف سبل الخيرات	أوقاف أهل الاندلس
1836 —	105701.15	9750,40	—
1837 —	109895,99	13341,27	3970,80
1838 —	109937,25	13903,70	3973
1839 —	143068,62	12192,70	4141,24
1840 —	166495,25	10712	3384,20
1841 —	177268,91	10615,55	2775,20
المجموع	812367,17	72515,61	18734,20

ب جدول عام لفائض مردود اوقاف بعض المؤسسات الدينية من ١٨٣٦ الى ١٨٤١ مقدرا بالفرنكات :

السنة	الحرمين الشريفين	سبل الخيرات	اهل الاندلس
1836 —	107462,96	10019,33	92,22
1837 —	111038,46	13408,04	3988,50
1838 —	127895,65	13989,25	4098,54
1839 —	131941,13	14393,78	4963,98
1840 —	167585,44	15715,66	4017,85
1841 —	178815,19	14447,19	2823,10
المجموع	824788,83	81973,25	19979,19

تاثير الوقف على الحياة الاقتصادية والاجتماعية للجزائر في اواخر العهد العثماني .

كان للوقوف تاثير مباشر على النشاط الاقتصادي والعلاقات الاجتماعية يمكن ان نلخصها في النقاط التالية :

١ ـ **النفقة على رجال العلم والمدرسين والطلبة** : فبفضل مردود الاوقاف والمداخيل التي يوفرها تمكن حكام الاتراك بالجزائر من ايجاد وسيلة ملائمة لتسيير بعض المصالح التعليمية والخدمات الثقافية التي لم تر الدولة ضرورة لرعايتها ، ولم تكن الخزينة العامة تهتم بالانفاق عليها ، مثل منح الطلاب واجور المدرسين وجرايات القائمين على شؤون العبادة بالمدارس والزوايا والمساجد والاضرحة ، مثل الخطيب والامام والحزاب وقيم المكتب والمؤذن وصاحب تربة والمنشد والشعال .

فباستثناء الجهات النائية والمناطق الجبلية التي كانت القبائل فيها تتكفل بالانفاق على اماكن العبادة والتعليم فيها ، فان مردود الاوقاف كان يشكل المصدر الوحيد لرعاية الخدمات الثقافية والدينية بأغلب البوادي والحواضر الجزائرية التي كانت تزخر بالمساجد والمدارس فمدينة الجزائر مثلا كانت تحوي (١٠٦) مساجد ، اهمها الجامع الاعظم الذي يقوم بخدمته ١٤ مدرسا و١٨ مؤذنا و٨ حزابين و ١٣ قيما(٤٠) . بالاضافة الى ثلاثة وكلاء يسهرون على تنظيم الاعمال به ، اما مدينة قسنطينة فكان عدد اماكن العبادة والتعليم بها ينيف عن ـ١٠٠ـ منها ـ٣٥ـ مسجدا و ـ١٦٩ـ زاوية و ـ٧ـ مدارس رئيسية فيها ـ٦٠٠ـ تلميذ منهم ـ١٥٠ـ من الارياف ، وكلهم يتقاضون منحة سنوية من وكيل الاوقاف تقدر ـ٣٦ـ ف للطالب(٤١) مع أعانة نصف سنوية تتألف من كمية من الزيت والشموع والبخور والسجاجيد(٤٢) .

والجدير بالذكر ان فائض مردود الاوقاف كان كثيرا ما يستغل في انشاء اماكن جديدة للعبادة والتعليم ، مثل زاوية الجامع الاعظم بالجزائر التي بنيت بفضل مردود الاوقاف عام ١٠٣٩هـ / ٢٩ـ١٦٣٠م ، واصبحت تضم طابقين من الغرف خصصت للمدرسين وطلبة العلم مما جعل مدينة الجزائر تحتوي على ست زوايا مخصصة لاقامة الطلبة ، ثلاثة منها لطلبة الجهات الغربية واثنتان لطلبة النواحي الشرقية وواحدة افردت لطلبة مدينة الجزائر (٤٣) . وهذا ما ساعد على انتشار العلم والمعرفة في اوساط السكان حتى ان احد الكتاب الفرنسيين ، وهو راينال الذي تعرف على الجزائر اثر الاحتلال ، كتب مايلي : (كان يوجد بمدينة الجزائر عدد كبير من المدارس التي تتميز بانتهاج طرق تعليمية تشابه كثيرا نظم التعليم بفرنسا .. و لااظن اني مبالغ حين أؤكد ان التعليم الابتدائي كان اكثر انتشارا في الجزائر منه في فرنسا)(٤٤) .

٢ ــ **الاحسان الى الفقراء والتخفيف من شقاء المعوزين :** يتكفل وكلاء الاوقاف بتقديم مبالغ مالية ومساعدات عينية للفقراء والمحتاجين على شكل اعانات وصدقات تقدم في ايام محددة ومواسم معينة ، مثل صدقة وكيل بيت المال التي توزع على ٢٠٠ فقير كل يوم خميس ،(٤٥) واعانة وكيل اوقاف سيدي عبد الرحمن الثعالبي التي يحظى بها عادة زوار الضريح من الفقراء وابناء السبيل . وتكفل وكيل الاوقاف بقسنطينة بتقديم نصيب من الزلابية لموظفي المساجد والطلبة في منتصف شهر رمضان بعد ان يقتطع ــ ٣٠٠ــفـمن مدخول الاوقاف التي يشرف عليها لهذا الغرض(٤٦) .

٣ ــ **الحد من المظالم والاحكام التعسفية للحكام :** كان الوقف وسيلة فعالة للمحافظة على الثروات والاملاك والاراضي الموقوفة لكونها لا تباع ولا تشترى ، ولا يمكن حيازتها بتصرف او استحواذ او مصادرة ، وبالتالي لم يعد في استطاعة الحكام وذوي النفوذ مد ايديهم الى الاملاك المحبسة ، فرغم الظروف الصعبة التي عرفتها الجزائر في اواخر العهد العثماني والتي دفعت كثيرا من الحكام الى اصدار قرارات العزل والمصادرة والتغريم ، فان جل الاملاكالموقفة في مأمن من تعسفاتهم وتجاوزاتهم نظرا للاحكام الشرعية الصريحة في شأنها ، التي لم يجسر احد علىانتهاكها او التحايل عليها .

٤ ــ **تمكين العجزة والقصر من تسيير واستغلال مصادر رزقهم :** وذلك لكون الحبس الاهلي يسمح لصاحبه بكرائه مقابل عناء محدد يقره المجلس العلمي بعد وضعه في المزاد العلني ، مما مكن فئات من المجتمع من المحافظة على مصادر دخل وافرة ومضمونة ، كالنساء المطلقاتوالارامل وغير الراشدات وبعض المعوقين . ولهذا السبب بالذات نلاحظ كثرة النساء اللاتي كن يحبسن املاكهن . فعلى سبيل المثال نذكر ان هناك اثنتين وعشرين امرأة وضعن املاكهن وقفا على الجامع الاعظم بالجزائر(٤٧) . كما سمحت طريقة استغلال الحبس الاهلي استغلالا غير مباشر لبعض الجماعات من الموظفين المشتغلين بمهام واعمال لا تسمح لهم بالتفرغ لاستغلال املاكهم ، كالمنخرطين في الجيش ، والمتولين لبعض الوظائف الخاصة ، من الانتفاع من ملكياتهم . وهذا ما يؤكده توارد اسماء العديدمن الموظفين والجند في وثائق الحبس الاهلي(٤٨) .

٥ ــ **العمل على تماسك الاسرة الجزائرية وحفظ حقوق الورثة :** فأحكام الوقف الاهلي تقر لصالح الحبس ان ينتفع هو وعقبه بالحبس حسب الوصية التي يسجلها في وثيقة الوقف فلا يصرف الحبس على الغاية التي وقف من اجلها الا بعد انقراض العقب وانتفاء الورثة ، وهذا ما مكن الاسرة الجزائرية من المحافظة على تماسكها وحال دون اقتسام الاملاك او بيعها اورهنها من طرف الورثة .

٦ ـ **رعاية المرافق العامة وصيانتها** : ساهمت الاوقاف في المحافظة على بعض المرافق العامة مثل العيون والسواقي والابار والطرق والمسالك ، التي خصت بأوقاف عديدة كما سبقت الاشارة الى ذلك . وهذا ما وفر للسكان خدمات اساسية واوجد وسائل ضرورية للحياة لم تكن الدولة تهتم بها ولم يكن الحكام يحرصون على توفيرها ففي مدينة قسنطينة كان وكيل اوقاف العيون يصرف حوالي ـ ٥٠٠ ـ ف لنقل الماء الى الاحواض السبعة المنتشرة وسط المدينة ، بنسبة حمولتين لكل حوض يوميا تكلف حمولة البغل الواحد ـ ٢٥ر٠ ـ ف(٤٩).

وفي مدينة الجزائر ساهمت الاوقاف في احداث كثير من العيون حتى بلغ عددها مائة بالمدينة وضواحيها في منتصف القرن ـ ١٨ ـ م (٥٠) .

٧ ـ **انشاء وترميم الثكنات والتحصينات المختلفة** . كان لعائدات الاوقاف الفضل في تشييد العديد من الثكنات والحصون والابراج والاسوار والبطاريات بقصد الدفاع عن البلاد ضد الهجمات البحرية الاوروبية وغارات القبائل داخل البلاد . وكان اكثرها يتركز بمدينة الجزائر والجهات القريبة منها. ففي وسط المدينة كانت الثكنات السبع تنال نصيبا وافرا من عائدات الاوقاف تنفقه على رعاية الجند وصيانة المرافق بها وفي الجهات القريبة منها كانت الحصون المختلفة تنتفع بما يخصص لها من اوقاف، مثل حصن تافورة (باب عزون) وحصن مولاي الحسن (الامبراطور) وبرج الزوبية (البرج الجديد) وحصن سيدي تقليلالت (حصن الانكليز) وبرج العتار (المرسي) وبرج قامة الفول (حصن الانكليز) ، الذي نقتبس من وثيقة الحبس الخاصة به نصا(٥١) ، على سبيل المثال ، نتعرف من خلاله على نوعية هذه الاوقاف الخاصة بالحصون . وقد جاء في هذه الوثيقة ما يلي (وبعد ان كان المكرم مصطفى باشا في التاريخ ابن المرحوم ابراهيم احدث بقامة الفول خارج الوادي برجا معدا لمحاربة الكفار وكان مما رامه السيد مصطفى باشا من الحسنات استجلاب الماء للبرج من عين ماء جنته الكائنة بفحص زغارة المعروفة بجنة السناجي لمرور الماء ان يبتاع من الجنة الى اسفل جنته بتاريخ اوائل محرم ـ ١١٩٥ ـ هـ .. وقد انفق لتحبيس الماء على حصنه مقدارا من المال قدر بـ ـ ١٤٨ ـ دينارا ذهبا مقسطة على أماكن مرور ماء الساقية الى الحصن) .

موقف الفرنسيين من الوقف في الجزائر :

نظرت سلطات الاحتلال الفرنسي بالجزائر الى الوقف على انه احد المشاكل العويصة والقضايا الصعبة التي تحد من سياسة الاستعمار وتتنافى مع المبادىء

الاقتصادية التي يقوم عليها ، وذلك لكون الوقف كان في حد ذاته جهازا اداريا ووسيلة اقتصادية فعالة تحول دون المساس بالمقومات الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية للجزائريين . وهذا ما دفع قادة الجيش الفرنسي للعمل على مراقبة المؤسسات الدينية وتصفيتها والاستيلاء على الاحباس التابعة لها باعتبارها احد العوائق التي كانت تحول دن تطور الاستعمار الفرنسي وتحول دون نجاحه ، وهذا ما دفع احد العوائق التي كانت تحول دون تطور الاستعمار الفرنسي وتحو لدون نجاحه . وهذا ما دفع احد الكتاب الفرنسيين الى القول (بأن الاوقاف تتعارض والسياسة الاستعمارية وتتنافى مع المبادىء الاقتصادية التي يقوم عليها الوجود الاستعماري الفرنسي في الجزائر(٥٢) ولهذا السبب بالذات عملت الادارة الفرنسية جاهدة لاصدار قرارات ومراسيم تنص على نزع صفة المناعة والحصانة عن الاملاك المحبسة هذه الحصانة التيلم يتردد احد الكتابالفرنسيين منوصفها بأنها تشكلاحد العوائق التي لايمكن التغلب عليها والتي تحول دون الاصلاحات الكبرى التي هي وحدها القادرةعلى تطوير الاقليم الذي اخضعته اسلحتنا وتحويله الى مستعمرة حقيقية(٥٣) .

« l'Inaliénabilité des biens habous ou engagés est un obstacle invincible aux grands améliorations qui seules Peuvent transformer un véritable colonie, les territoires conquis par nos armes.

كان الهدف من تلك القرارات والمراسيم ادخال الاوقاف في نطاق التعامل التجاري والتبادل العقاري حتى يسهل للاوروبيين امتلاكها ، بعد ان وضع الجيش الفرنسي يده بالجزائر العاصمة في السنوات الخمس الاولى للاحتلال على -٢٧- مسجدا و -١١- زاوية ومصلى (٥٤). وكان اول قرار فرنسي يتعلق بالاوقاف قد صدر في ٨ سبتمبر ١٨٣٠ وتضمن بنودا تنص على ان للسلطات العسكرية الفرنسية الحق في الاستحواذ على املاك موظفي الادارة التركية السابقة وبعض الاعيان من الكراغلة والحضر بالاضافة ال ىبعض الاوقاف التابعة لمؤسسة اوقاف الحرمين . وهذا ما أثار سخط واستنكار رجال الدين والعلماء واعيان مدينة الجزائر الذين رأوا في هذا القرار انتهاكا صريحا للبند الخامس من معاهدة تسليم الجزائر (٤ جويلية ١٨٣٠) وكان في طليعة المحتجين المفتى ابن العنابي مما حال دون مصادرة اوقاف الحرمين .

ثم تلا هذا القرار مرسوم في ٧ ديسمبر ١٨٣٠ يخول الاوربيين امتلاك الاوقاف عملا بتوصية كل من فوجرو وفلاندان ، الموظفين بمصلحة الاملاك العامة ، والرامية الى وضع الاوقاف تحت مراقبة المدير العام لمصلحة الاملاك العامة السيد جيراردان ..

مع ابقاء المشرفين عليها من الوكلاء . وهذا ما اعتبره رجال الدين وبعض الاعيان مخالفا للاحكام الشرعية ومنافيا للاتفاقيات المنصوص عليها في معاهدة التسليم السابقة الذكر ، وكان في طليعتهم المفتي محمد بن محمود بن العنابي وابن الكبابطي وحمدان خوجه وبوضربة ، الذين اتضح لهم مدى خطورة هذا المرسوم بعد ان استولى المدير المدني بيشون على ـ٨١ـ وقفا منها ـ٥٥ـ وقفا تابعة للحرمين و ـ١١ـ وقفا تخص الجامع الاعظم ، مع بعض الاوقاف المخصصة للمرافق العامة كالطرق والعيون(٥٥) . لكن المرسوم اصطدم بصعوبات جمة حالت دون تنفيذ بنوده . فبغض النظر عن رجال الدين والاعيان فان هذا المرسوم يفتقد الى خطة محكمة ودراسة وافيه ، كما انه لم يجد التاييد المطلوب من طرف الحاكم الفرنسي الجديد برتوزان الذي خلف ليكوزال في حكم الجزائر ، والذي فكر جديا اثر الصعوبات التي اعترضت تطبيق هذا المرسوم في ارجاع الاوقاف المصادرة لمستحقيها رغم معارضة الوكيل المدني بيشون لهذا الاجراء . وهذا ما يجعلنا ننظر الى هذا المرسوم على انه بداية خطة تكتيكية وفاتحة مرحلة انتقالية لتصفية الاوقاف استمرت ـ٥ـ سنوات وانتهت بسيطرة الادارة الفرنسية على كل الاوقاف الجزائرية . وقد بدأت هذه الخطة بالفعل في ٢٥ اكتوبر ١٨٣٢ حين تقدم المدير العام لاملاك الدولة (الدومين) السيد جيراودان بمخطط عام لتنظيم الاوقاف الى المقتصد المدني L'Intendant وقد حظي هذا المخطط بتأييد جانتي دو بوسي (Genty de Bussy) الامر الذي دفع السيد بلاندال Blondel الى قبوله وتطويره ليتخذ شكل تقرير مفصل حول المؤسسات الدينية في نهاية سنة ١٨٣٤ ، وتقدم به الى اللجنة الافريقية الملكية المكلفة بالتعرف على اوضاع الجزائر في مستهل سنة ١٨٣٥ (٥٦) .

وبذلك امكن للسلطات الفرنسية بالجزائر فرض رقابتها الفعلية على الاوقاف وتشكيل لجنة لتسييرها تتألف من الوكلاء المسلمين ، برآسة المقتصد المدني الفرنسي الذي اصبح يتصرف بكل حرية في الفي وقف موزعة على مائتي مؤسسة ومصلحة خيرية، حسبما جاء في التقرير العام عن الاوقاف بتاريخ ١٠ ديسمبر ١٨٣٥م(٥٧).

وبمقتضى هذا الاشراف الفعلي على الاوقاف امكن للادارة الفرنسية بالجزائر ان تصدر قرارا آخر (Ordonnance) في اول اكتوبر ١٨٤٤ ، ينص بصريح العبارة على ان الوقف لم يعد يتمتع بصفة المناعة ، وانه بفعل هذا القرار اصبح يخضع لاحكام المعاملات المتعلقة بالاملاك العقارية الامر الذي سمح للاوربيين بالاستيلاء على كثير من اراضي الوقف التي كانت تشكل نصف الاراضي الزراعية الواقعة بضواحي المدن الجزائرية الكبرى ، (٥٨) وبذلك تناقصت الاوقاف وشحت مواردها فلم تعد تتجاوز

ـ٢٩٣ـ وقفا منها ـ١٢٥ منزلا و ـ٣٩ـ دكانا و ـ٣ـ افران و ـ١٩ـ بستانا و ١٠٧ عناء عام ١٨٤٣(٥٩) . وكانت قبل الاحتلال تقدر بـ ٥٥٠ ـ وقفا .

ثم جاءت الخطوة التالية المتمثلة في مرسوم Le Décret ٣٠ اكتوبر ١٨٥٨ ، الذي وسع صلاحيات القرار السابق واخضع الاوقاف لقوانين الملكية العقارية المطبقة في فرنسا وسمح لليهود وبعض المسلمين بامتلاكها وتوارثها(٦٠) . واعقب هذا الاجراء القرار الاخير الذي عرف بقانون ١٨٧٣ والذي استهدف تصفية اوقاف المؤسسات الدينية لصالح التوسع الاستيطاني الاوروبي في الجزائر ، وبذلك فقد الجزائريون احدى الوسائل المادية والروحية والثقافية للوقوف في وجه مطامع الاستعمار ومخططاته الرامية الى القضاء على المقومات الاقتصادية والاسس الاجتماعية للشعب الجزائري المسلم ، ومما تجدر ملاحظته في ختام البحث ان الوقف رغم فوائده المباشرة وانعكاساته الايجابية على الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، الا انه لا يخلو من سلبيات على النشاط الاقتصادي والعلاقات الاجتماعية . فهو قد ساعد على تمايز الطوائف السكانية تبعا لمختلف المؤسسات الدينية والاوقاف التابعة لها ، مما حافظ على هيكل كل جماعة على حدة ، من اشراف واندلسيين واتراك ومنتسبين الى الحرمين الشريفين . زيادة على أن الاوقاف كانت احدى العوامل التي ساهمت في تجميد الملكية الفردية والحيلولة دون انتقال الثروة العقارية تبعا للنشاط الاقتصادي واحكام الوراثة ومعاملات البيع والشراء ، مما تسبب في الانكماش الاقتصادي والجمود الاجتماعي قبل الاحتلال . ومع ذلك فاننا نرى ان الوقف باعتباره عاملا اجتماعيا وحافزا ثقافيا وجهازا اداريا ووسيلة اقتصادية له فضل كبير على تماسك المجتمع الجزائري وتوفير الخدمات الضرورية لافراده ، والحيلولة دون تنفيذ المخططات الاستعمارية في الفترة الاولى من الاحتلال ، فلم يستطع الفرنسيون تصفيته الا بعد الاستيلاء على العديد من المساجد والزوايا والمدارس التي نثبتها في القائمة الدينية التالية (٦١) حتى نتعرف على مدى خطورة الاستعمار الفرنسي على الوقف ومؤسساته.

قائمة بالمساجد والزوايا التي استولى عليها الفرنسيون بمدينة الجزائر في العامين الاولين للاحتلال

مسجد الشواش ، مسجد الشعاين ، مسجد الجنائز ، مسجد المرسي ، مسجد سيدي حدى ، مسجد باب الجزيرة ، مسجد سوق الكتان ، مسجد العين الحمراء ، مسجد صباط الحوت، مسجدعلي باشا ، مسجد سيدي عامر التنسي ، مسجد علي خوجه ، مسجد الكشاش القديم ، مسجد خضر باشا ، مسجد عبدي باشا ،

مسجد سوق اللوح ، مسجد قاع السور ، مسجد علي خوجة ، مسجد كتشاوة ، مسجد سيدي الرجي ، مسجد سيدي سعدي ، مسجد سيدي جامعي ، زاوية سيد الصيد ، زاوية سيدي بتكة ، زاوية كتشاوة ، زاوية الكشاش بالمرسى ، زاوية الانكشارية بالقصبة ، زاوية تشيكتون ، زاوية الانكشارية القديمة ، زاوية محمد ميزو مورتو ، زاوية الوالي سيدي الفبرني بالمرسى ، مسجد حسين بالقصبة ، مسجد القصبة ، مسجد فرن القشور ، مسجد ستي مريم ، مسجد علي بتشني ، مصلى الانكشارية القديم بالقصبة ، مصلى الانكشارية الجديد بالقصبة ، مصلى سيدي عبد الرحمن .



(1) (Mercier, E. le Habous ou Oukaf, Alger. Jourdan 1895 P. 51.

(٢) ما هو معروف اهلية التبرع بالحبس يشترط فيها البلوغ وصحة الملكية واحقية التصرف فيها.

(٣) راجع دراستنا حول وضعية الاوقاف العقارية بفحص مدينة الجزائر اواخر العهد العثماني ،التي قدمت في ندوة المؤسسات الدينية بالمغرب العربي المنعقدة بجامعة برلين الحرة في شهر مارس ١٩٨٠ ، وهي في طريق النشر باللغتين العربية والفرنسية .

(٤) الارشيف الوطني بالجزائر ، الوثائق الشرعية علبة ١٠٦ رقم ٥٣ — ٢٠٨ .

(٥) حمدان بن عثمان خوجة ، كتاب المراة ، ترجمة وتقديم محمد بن عبد الكريم ،بيروت ،١٩٧٢ ص ٢٣٧

(٦) الشيخ عبد العزيز خياط ، اوقاف القدس عن تاريخ الدر المنتقى ، مع العلم بان ابي يوسف اشترط لصيرورة الوقف ان يسلم للمتولي وان يكون مفرزا ومؤيدا وغير مشترط .

(7) Mercier, E. le code du Habous, Constantine, 1899. p. 10

(8) Idem, p 34. cité par Etanwir **oua Durrar.**

(9) ROBE, E. origine et formation et etat actuel de propriété immobilière en Algérie, Paris. Challamed, 1885, p. 58.

(١٠) الشيخ عبد العزيز خياط ، نفس المصدر ، اعتمادا على تاريخ الدر المنتقى .

(11) Brossard, les Inscription Religieuses de tlemcen, in Revue Africaine, 1859, p. 413.

(١٢) التميمي ، عبد الجليل ، من اجل كتابة تاريخ الجامع الاعظم بمدينة الجزائر ، والمجلة التاريخية المغربية ، جويلية ١٩٨٠ عدد ١٢—١٩ ص ١٦٠ .

(13) Féraud L. un Voeu d'Hussein Bey de Constantine, 1807, in Revue Affri-caine 1863,pp 91-92.

(14) Tobleau de la situation des Etablissements Français en Algérie, Année 1837.

(١٥) التميمي ، نفس المصدر ،ص ١٦٥ .

16 — Vallière Ch. mémoire, L'Algérie en 1781 publiés par L. Chaillon, toulon S.D, L. 31.

17 — Archives du ministère de la guerre de Vincennes à Paris (A.M.G.) H226pp 45-50.

18 — Féraud L. les anciens Etablissements réligieux musulmans de Constantine, in rovue africaine 12-1868, p. 125-126.

(١٩) صالح خرفي ، الجزائر والاصالة الثورية ، اعتمـادا على مقال ينسب الى الصحفي الجزائري ابن قدور نشربجريدةاللواء عدد ٢١٥٣ بتاريخ ١٧اكتوبر ١٩٠٦ .

(٢٠) مما يلاحظ ان بعض المدن الكبرى كانت تتميز بتنظيماتها الخاصة لشؤون الاوقاف مثل مدينة قسنطينة التي كان يتولى بها قائد الدارمهام ناظر الاوقافويعين مباشرةمنطرف الباي ، وليس للمفتي المالكي سلطة او مراقبةعامة ،راجع وثائق الارشيفالفرنسي السابق الذكر : ص ٢٢٦ .

(٢١) مثل فاتوردو بارادي الذي يطلق عليه لقب المتولي ، راجع

(22) Venture de Paradis, Alger au XVIII Siécle, in Revue Africaine, No 219-1895, P. 275.

(23) Feraud, les anciens, pp. 130-131.

(٢٤) نور الدين عبد القادر ، صفحات في تاريخ مدينة الجزائر ، نشر كلية الاداب ، الجزائر ،ص٧٦.

(25) Féraud, les anciens, pp. 130-131.

(26) Yacono, X. la régence d'Algeren 1830d'aprés l'enquêtedes commissions de 1833-1834, in Revue d'accident musulman et de la méditerranée No1/1966.

(27) Busson de Jenssem, G. Contribution à l'étude des Herbons publics Algériens, Thése, Alger 1950. p 2 7.

(٢٨) يختلف عدد اوقاف الحرمين باختلاف المصادر فهي حسب تقرير مدير الاملاك العامة (جيراردان ١٠٤٠ وقف بمدينة الجزائر وضواحيها ، وفي جدول المؤسسات الفرنسية في الجزائر ١٤١٩، وفي تقرير أول سبتمبر ١٨٣٧ – ١٤١٠، وعندجانتي بوسيتقدر ب ١٤١٤ وفقا .

(29, Devoulx, notice, pp. 14-15.

(30) Yver, G. mémoire de Bouderbah, in Revue Africaine, 27-1913, p. 240.

(31) Aumerat, F. la Propriéte Urbaine, et le bureau de b.en Faisance musulman d'Alger, in Revue Africaine 41-1897 p. 323.

(٣٢) ذكر باناتني أن مدينة الجزائر تضم ٥٠ مسجدا صغيرا و٩مساجدكبرى و ٣ مدارس فيوقت كان فيه عددسكانها يناهز١٢٠ الف نسمة، كما ذكر لوجي دوتاسي ١٧٢٥ ان مدينة الجزائر بها ١٠ مساجد اكبرى و ٥٠ مسجدا صغيرا بالاضافة الى ثلاث مدارس وحسب احصاء دوفوان فان عدد مساجد الجزائر١٢٢ مسجدا منها ١٠٩ مساجد صغيرة و١٣ مسجدا كبيرا . كما ذكر ابن حرة اوميرا انعددالمساجدبالجزائر عام١٨٣٠كان يبلغ ١٠٣ منها ٨٩ مسجدا مالكيا و ١٤ حنفيا، بينما تقرير اول سبتمبر ١٨٣٧ الذي وضعته السلطات الفرنسية يحدد عددها ب١٠٧ مساجد وزاوية ، ولا يختلف من هذا التقرير كثيرا المعلومات التي ادلى بها بوضربة الذي قدرها ب ١٠٦ مساجد منها ٩٢ مسجدا خاصة بالمذهب المالكيو١٤ تابعة المذهب الحنفي .

(33) Devoulx A. les Edifices religieux de l'ancien alger, in Revue africaine 1867,p.383 et 385.

(٣٤) اعتماد على مقارنة العديد من المصادر وثائق الارشيفات ، راجع الارشيف الوطني الفرنسي لما وراء البحار ٨٠ - ١٦٣٢ تقرير دول سبتمبر ١٨٣٧ وكذلك الارشيف الوطني الجزائري علبة ٣٥ سجل ٣٥٤ .

35) Aunerat, op. cit, p. 329.

Emerit, M. L'Etat Intellectuel et moral de l'algérie en 1830 in Revue d'histoire moderne et contemporaine 1954, p. 200.

36) Archive nationale d'outre-mer, a Aix en-provence, France (A.O.M) F 80-1632, Repport de ler Sept. 1842.

37) Tableau, op-cit, année 1837.

38) Idem. p. 287.

39) A.O.M F. 80-1932-2 Corporations, Réponse aux questions de M. Le Directeur des Finances, 30 sept, 1842.

40) Devoulx, les Edifices, pp. 377-381.

41) Emerit, op eit, p 203, d'aprés ropport Resseau en 1847.

42) A.M.G H.226 p 46.

43) Emerit op-cit, p. 203.

44) Raynand, De la domination française en Afrique, Paris 1832, p. 28.

45) Aumerat, op. cit, pp. 7-8.

46) A.M.G H 226 p. 46.

(٤٧) التميمي نفس المصدر

(٤٨) حسبما يستخلص من وثائق المحاكم الشرعيةالجزائرية التي تعود للفترة العثمانية .

49) A. M. G. H 226 pp 50-51.

(50) lespes R. Alger Esquisse de géographie Urbaine, Paris 1930 p175-176.

(٥١) الارشيف الوطني الجزائري الوثائق الشرعية علبة ١٠٦ وثيقة ١٠٦-٢-٣٥

52) Zeys, cité par Terras, Essai sur les biens habous en algérie et en Tunisie Lyon, 1899, p. 68.

53) Blanque l'algérie rapport sur la situation économique de nos possessions dans le nord de l'afrique paris 1840, 228.

(٥٤) راجع القائمة الملحقة بآخر البحث والمتضمنة اسماء المساجد والزوايا التي استولى عليها الفرنسيون في مدينة الجزائر مابين ١٨٣٠ - ١٨٣٢ .

(55) A.O.M F. 80 1673.

(56) A.O.M F. 80 1632, 2e réposne au questions.

(57) A.O.M F. 80 1632, 2,30 Sept. 1842.

Berthaul, la propriété rurale en Afrique du nord, in Revue, l'Afrique française No 4 1936, p. 211.

(59) A.O.M F. 80-1632 Etat daté 1843.

(60) Terras op-cit, p. 7.

(61) Klein, H. les Fenillets d'el Djazair, Alger, Fentana, 1937 pp. 15-20

الرِّبَـــاطُ وَالمُرَابِطُونَ
فِي سَاحِــلِ الشَّام
من الفتح الإسلامي حتى الحروب الصليبية

د. عمر عبد السلام التدمري

كلية الاداب ـ الجامعة اللبنانية ـ طرابلس

مقدمـــة :

منذ فتح المسلمون سواحل الشام في عهد الخلفاء الراشدين تحولت المدن الثغرية الى رباط للصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ وللمجاهدين في سبيل الله ، وللزهاد والعباد المنقطعين الى الله تعالى .

والرباط : الاقامة على جهاد العدو بالحرب وارتباط الخيل واعدادها .

(قاله في : النهاية) . يقال : ((فلان له رباط من الخيل)) الحصن أو المكان الذي يرابط فيه الجيش .

وقال القتيبي : أصل الرباط أن يربط الفريقان في ثغر ، كل منهما معد لصاحبه ، ثم سمي المقام في الثغور رباطا .

والمرابط أو الرابط : الزاهد أو الراهب ، الحكيم الذي نزه نفسه عن الدنيا . ويقال : ((رابط الجأش)) : شجيع لا يخاف .

ولقد حث الله المسلمين في قرآنهم الكريم على الرباط والمرابطة ، في غير موضع ، فقـــال تعـــالى :

((يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا اللهلعلكم تفلحون))(1) .
(آل عمران ٢٠٠)

وقال تعالى :

((وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكـــم)) .

(الأنفال ٦٠)

اعد هذا البحث للمؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، دمشق ١٦ ـ ٢٢ جمادي الاخرة ١٤٠١هـ / ٢٠ ـ ٢٦ نيسان ١٩٨١م .

كما جاء في الحديث الشريف ترغيب المسلمين على الرباط والمرابطة وبيان أجر المرابط . قال سلمان الفارسي : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« رباط يوم وليلة في سبيل الله كصيام شهر وقيامه ، وان مات جرى له أجر المرابط الى أن يبعث ، وأومن من الفتان(١) ، وقطع له برزق من الجنة »(٢) .

وأجر المرابط يتضاعف في رباطه على الساحل عن رباطه في الحصون الداخلية، وهذا ما يدل عليه حديث أم الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم :

« من رابط في شيء من سواحل المسلمين ثلاثة أيام أجزت عنه رباط سنة »(٣) .

وكان ساحل الشام كله يعتبر رباطا بعد الفتح ، اذ عنده تنتهي حدود الدولة العربية الاسلامية على الطرف الشرقي للبحر الابيض المتوسط ، وفي الطرف الآخر حدود دولة الروم البيزنطية بأسطولها البحري الذي يهدد سواحل الشام في كل وقت . وكانت نقاط المواجهة مع العدو والربط تنتشر على الساحل ، ومن أهمها : جبلة ، وانطرطوس ، وطرابلس ، وجبيل ، وبيروت ، والصرفند ، وصور ، وعكا ، وعسقلان . والرباط في هذه الثغور الشامية يفضل الرباط في السواحل الاسلامية الاخرى بعدة أضعاف ، لتعاظم الخطر الدائم عليها . وهذا ما تشير اليه رواية أوردها الحافظ ابن عساكر في « تاريخ دمشق » على لسان « ابراهيم اليماني » قال :

« قدمت من اليمن فأتيت سفيان الثوري ، فقلت : يا أبا عبد الله اني جعلت في نفسي أن أنزل جدة فأرابط بها كل سنة ، واعمر كل شهر عمرة ، وأحج في كل سنة حجة ، أفأقرب من أهلي أحب اليك ، أم آتي الشام ؟ فقال لي : يا أخا أهل اليمن ، عليك بسواحل الشام ، عليك بسواحل الشام ، فان أهل البيت محجه في كل عام مائة ألف ، وثلاثمائة ألف ، وما شاء الله من التضعيف ، لك مثل حجهم ، وعمرتهم ، ومناسكهم »(٤) .

ونلحظ أن الحديثين السابقين اللذين استشهدنا بهما ، من رواية صحابية وصحابي رابطا في ساحل الشام ، هما : أم الدرداء ، وسلمان الفارسي . وهناك مرابط آخر هو « سعيد بن أبي سعيد الساحلي » نزل ساحل الشام وروى حديثين عن فضل الرباط ، رفعهما عن انس بن مالك ، يقول الاول منهما :

« من حرس ليلا في سبيل الله كان أفضل من صيام رجل وقيامه شهرا في اهلــه » .

والثـــاني :

« من حرس ليلة على ساحل البحر كان أفضل من عبادة رجل في أهله ألف سنة ، السنة : ثلاثمائة وستون يوما ، كل يوم ألف سنة »(٥) .

ورغم أن الحديثين ضعيفين على ما يبدو ، فانهما يعطيان مع غيرهما انطباعا عن التزام المرابط برواية أحاديث الرباط في الساحل ، ولعل المحدث يرمي من وراء ذلك اقران القول بالعمل ، ليقتدي به الآخرون .

الصحابة يرابطون في ساحل الشام :

عرف الصحابة في وقت مبكر ، فضل المرابطة في ثغور الشام ، فنزل عدد كبير منهم في المدن والحصون الساحلية ، وشاركوا في الغزوات البحرية والدفاع عن سواحل الشام . ولقد نزل « أبو الدرداء عويمر الانصاري » ثغر بيروت عقب الفتح الاسلامي مباشرة ، وكان فتح بيروت قد تم في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، على يد « يزيد بن أبي سفيان » ، وعلى مقدمة جيشه أخوه معاوية ، وذلك حول سنة ١٣ هـ . وكذلك تم فتح مدن صيدا وجبيل وعرقة حول هذا التاريخ (٦) .

والذي يجعلنا نميل الى هذا التاريخ ما رواه « محمد بن المبارك الصورمي » المتوفى سنة ٢١٥ هـ . من ان سلمان الفارسي قدم دمشق ، فلم يبق فيهـا شريف الا عرض عليه المنزل ، فقال : اني عزمت على بشير بن سعد مرتي هذه ، فسأل عن أبي الدرداء ، فقيل : مرابط . فقال : وأين مرابطكم يا أهل دمشق ؟ قالوا : بيروت . فخرج للرباط معه هناك(٧) .

فهذه الرواية تؤكد لنا أن مرابطة أبي الدرداء وسلمان الفارسي كانت في وقت مبكر بعد فتح المسلمين لبيروت مباشرة ، اذ أن بشير بن سعد الذي نزل عنده سلمان في دمشق توفي سنة ١٣ هـ(٨) . مما يعني أن بيروت كانت مفتوحة في تلك السنة ، وأن أبا الدرداء كان مرابطا فيها ، ثم لحق به سلمان الفارســي ، ومعه « عبد الملك بن أبي ذر الغفاري » . فقد ذكر « ابن عساكر » أن عبد الملك قدم مع سلمان الفارسي الى الشام مرابطا ، وكان مرابط سلمان ببيروت ، وقال عبد الملك : أمرني أبي بصحبة سلمان الفارسي ، فصحبته الى الشام فرابطنا فيها،

حتى اذا انتهى رباطنا اقبلنا نريد الكوفة(٩) . وكان سلمان حين نزل بيروت اجتمع عليه المسلمون في مسجدها ليسمعوا حديثه ، فقال لهم : يا أهل بيروت ألا أحدثكم حديثا يذهب الله به عنكم غرض الرباط ؟ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« رباط يوم كصيام شهر وقيامه . ومن مات مرابطا في سبيل الله أجير من فتنة القبر ، وأجري له ما كان يعمل الى يوم القيامة »(١٠) .

وهكذا كانت مدينة بيروت من أوائل ثغور المرابطين وأهمها ، وذلك لقربها من دمشق ، وكونها فرضة مدينة بعلبك . وفي ذلك يقول « ابن حوقل »: «بيروت على ساحل بحر الروم ، وهي فرضة بعلبك ، وبها يرابط أهل دمشق وسائر جندها ، واليها ينفرون عند استنفارهم »(١١) .

ونحن نعرف أن أبا ذر الغفاري ، وعبادة بن الصامت ، وزوجته ام حرام بنت ملحان ، والمقداد بن الاسود ، وشداد بن أوس ، وأبا الدرداء الانصاري ، كانوا في مقدمة الغزاة الى جزيرة قبرص ، مع معاوية بن أبي سفيان ، حين خرج بالاسطول الاسلامي من ميناء عكا في سنة ٢٨هـ . / ٦٤٩م(١٢) . ولنا أن نظن ، مع الترجيح ، أن هؤلاء الصحابة كانوا من المرابطين في سواحل الشام في تلك الفترة . فقد تأكد لدينا أن أبا الدرداء كان في بيروت ، وأن عبادة بن الصامت كان أميرا على اللاذقية مرابطا بها ، وهو فاتح : جبلة ، وأنطرطوس ، وبانياس . كما أن أبا ذر الغفاري كان يرابط في ساحل لبنان عند الصرفند ، حسب الروايات المتواترة الى الآن عند أهالي جنوب لبنان ، وقد مر معنا أن ابنه عبد الملك صحب سلمان الفارسي ورابط معه في بيروت بناء لامره . ولعل أبا ذر كان يتخذ من الصرفند رباطا له ، ثم تحولت الى حصن ورباط لأبناء « الأنصار » من ذريته ، ومن ذرية أبي الدرداء الأنصاري ، ومن ذرية النعمان بن بشير الانصاري ، وهذا نتبينه من تراجم بعضهم حيث ينسبون الى الصرفند ، الحصن القريب من صيدا ، والواقع بين صيدا وصور . أما المقداد بن الأسود ، وشداد بن أوس ، فيحتمل أنهما كانا يرابطان في مكان ما من ساحل الشام ، وان كانت المصادر التاريخية لم تسعفنا بشيء عن ذلك .

بعلبك القاعدة الخلفية لامداد المرابطين في الحصون الامامية

اتخذ المسلمون من مدينة بعلبك قاعدة خلفية للجند المرابطين في الحصون الامامية ، ومركز امداد متوسط بين دمشق ، في الداخل ، وكل من بيروت وطرابلس

على الساحل . ومنها انطلق الجيش الاسلامي بقيادة عاملها الصحابي « سفيان بن مجيب الازدي » في خلافة عثمان بن عفان لفتح طرابلس حول سنة ٢٤ هـ . فرابط عندها اشهرا ، وقام ببناء أول حصن عربي في تاريخ المسلمين الحربي ، كان يخرج منه بجنده فيغيرون على المدينة في النهار ، ويبيتون ويتحصنون فيه ليلا ، حتى تم فتح المدينة حول سنة ٢٥ هـ .(١٣)

ولما كان الروم قد اخلوا طرابلس وباتت خاوية على عروشها ، وكان على جند بعلبك ان يعودوا الى قاعدتهم ، حسب الخطط العسكرية التي كان يضعها والي الشام معاوية ، فقد لجأ في اول الامر الى احضار جماعة كبيرة من يهود الاردن ، وأسكنهم في حصنها الواقع عند طرف الراس البري الداخل في البحر ، حيث تقوم الميناء الآن . (١٤) ولم يسكنها غيرهم لبضع سنين . (١٥ ولما كان عدد المرابطين من المسلمين الذين آثروا البقاء في السوحل غير كاف لرد غائلة البيزنطيين واعوانهم في البر والبحر ، فقد اتبع معاوية سياسة اقطاع الأراضي على العرب ، ليس لتكوين طبقة من المزارعين ، بل لتدعيم شأن المحاربين المرابطين في الثغور الخطرة ، فأغرى العرب بتملك الاراضي ليحل مشكلة اسكان الساحل وتأمين المدافعين عنه .(١٦) وكان الخليفة عثمان اصدر تعليماته الى معاوية يأمره فيها بتحصين السواحل وشحنها واقطاع من ينزله اياها قطائع ، ففعل .(١٧) ولكن العرب لم يتحمسوا لهذه الاغراءات على ما يبدو ، وبقيت مدن الساحل شبه خالية ، ولذلك اتجه معاوية عندما آلت اليه الخلافة الى الاستعانة بغير العرب ، فاستقدم الفرس من بعلبك وغيرها وأنزلهم في سواحل الشام ، على مايقول « ابن واضح اليعقوبي » المتوفى سنة ٢٨٤ هـ :

« .. وبعلبك وأهلها قوم من الفرس ، وفي أطرافها قوم من اليمن . وجبل الجليل وأهلها قوم من عاملة . ولبنان صيدا وبها قوم من قريش ومن اليمن . ولجند دمشق من الكور على الساحل : كورة عرقة ولها مدينة قديمة فيها قوم من الفرس ناقلة ، وبها قوم من ربيعة من بني حنيفة . ومدينة اطرابلس واهلها قوم من الفرس كان معاوية بن أبي سفيان نقلهم اليها ، ولهم مينا عجيب يحتمل الف مركب . وجبيل ، وصيدا ، وبيروت ، وأهل هذه الكور كلها قوم من الفرس نقلهم اليها معاوية بن أبي سفيان » (١٨)

ولم يوضح « اليعقوبي » تاريخ نقل الفرس الى طرابلس ، ولكن « البلاذري » يضع تاريخا لذلك عند حديثه عن انطاكية فيقول ان معاوية نقل اليها في سنة ٤٢ هـ . جماعة من الفرس وأهل بعلبك وحمص ، ومن المصرين (١٩) . ويذكر في موضع

آخر عن أحد الانطاكيين ان معاوية نقل من فرس بعلبك وحمص وأنطاكية الى سواحل الأردن صور وعكا وغيرها سنة ٤٢ هـ . ونقل من أساورة البصرة والكوفة وفرس بعلبك وحمص الى أنطاكية في هذه السنة أو قبلها أو بعدها بسنة جماعة .(٢٠) وذكر « لبلاذري » عن محدث في مدينة صور هو « هشام بن الليث الصوري » أن مشايخه قالوا: « نزلنا صور والسواحل وبها جند من العرب وخلق من الروم . ثم نزع الينا أهل بلدان شتى فنزلوها معنا ، وكذلك جميع سواحل الشام » . (٢١) كذلك ذكر « الطبري » أسماء بعض وجوه أهل الكوفة واشراف العراق الذين اخرجهم عثمان الى دمشق ، ثم اخرجهم معاوية الى حمص ، فقام واليها عبد الرحمن بن خالد بن الوليدفأنزلهم ساحل الشام واجرى عليهم رزقا وألزمهم الدروب ، وذلك في سنة ٣٣هـ . (٢٢) ومن بعلبك نقل معاوية جماعة الى جزيرة قبرس عند فتحها في المرة الثانية سنة ٣٣ هـ . وبعث اليها باثني عشر ألفا كلهم أهل ديوان ،فبنوابها المساجد ، وبنى بها مدينة . .(٢٣)

ووضع معاوية نظاما دفاعيا خاصا بمدينة طرابلس لخطورة موقعها ، وكان هذا النظام يقضي أن يوجه اليها في كل عام جماعة كثيفة من الجند المسلمين يشحنها بهم ليدفعوا عنها العدو في حال اغارته عليها . وولى عليها عاملا من قبله . وكانت هذه القوة تستبدل مرتين في العام الواحد لتظل معنويات الجند المرابطين مرتفعة ، فاذا انغلق البحر في الشتاء وعلت أمواجه واشتدت الريح وتعذر على المراكب الاستواء على ظهره والسير فيه ، عاد معظم الجنود من حيث اتوا الى دمشق، ولا يبقى في طرابلس سوى عاملها في جماعة يسيرة من الجند ، وعندما ينتهي فصل الشتاء وتهدأ أمواج البحر ويصبح الابحار فيه آمنا ، يقدم الجند الى طرابلس للمرابطة فيها من جديد .(٢٤) واستمر الوضع فيها على هذا المنوال في أيام « يزيد بن معاوية » (٦٠ — ٦٤ هـ . / ٦٨٠ — ٦٨٤ م .) و «معاوية بن يزيد » (حكم ٤٠ يوما) ، و « مروان بن الحكم » (٦٤—٦٥هـ. / ٦٨٤—٦٨٥ م.) حتى أيام « عبد الملك بن مروان » ، الذي قام باعادة بناء حصنها البحري .(٢٥) وجدد عمارة المدينة وحصنها وأسكنها المسلمين « فصارت آمنة عامرة مطمئنة » .(٢٦) . ووضع لها نظاما مشابها لنظام معاوية ، فكان يرسل اليها جندا من دمشق فيرابطون فيها خلال الصيف ، أما في الشتاء فكان يوجه اليها جندا من بعلبك .(٢٧) كما شملت عنايته كلا من صور وعكا ، فجدد حصنهما بعد خرابهما . (٢٨) .وكذلك فعل بقيسارية وعسقلان . (٢٩) واقطع لفرس بعلبك خمس مدينة طرابلس ، فنزلوها ورابطوا فيها . (٣٠).

الامام الأوزاعي ينتقل من بعلبك الى بيروت للرباط

وكما كانت بعلبك رافدا للمدن الساحلية بالجند والمرابطين ، فقد أخرجت علما من اعلام المذاهب الفقهية في الاسلام ، هو الامام « ابو عمرو عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي » ، الذي ولد فيها سنة ٨٨ هـ . وأخذ العلم في بلده الكرك التي تعتبر من أعمال بعلبك ، وتعرف بكرك نوح ، ثم استقر في بيروت مرابطا ومكتتبا في ديوان الساحل ، وهذا التعبير يقصد به ، حسب تعريفنا الحاضر : دائرة تجنيد حرس السواحل . فكان أحد أفراد الحرس في بيروت ، يخرج في الغزوات والبعوث العسكرية التي كانت توجهها الدولة ، فاكتتب مرة في بعث الى اليمامة (٣١) وكان يأخذ العطاء كغيره من جند الساحل المرابطين ، الى أن أصبح عالما للجند في العصر الأمــوي .

ولقد كانت بيروت حتى نهاية القرن الأول الهجري لاتزال تتمثل بأخلاق الصحابة والتابعين الذين نزلوها ورابطوا فيها ، وتحيا بزهادها وحكم اقوالهم ، وبلاغة مقصدهم وغاياتهم ، وتواضعهم في الملبس والمظهر ، مثل « حيان بن وبرة المري » صاحب أبي بكر الصديق ، رضي الله عنه ، الذي كان يجتمع عليه الناس في مسجدها ليسمعوا منه ، وهو يلبس قميص كرابيس (قطن) الى نصف ساقيه ، وعمامة وقلنسوة صغيرة ، وثياب رثة .(٣٢) وهذا ما استهوى الامام الاوزاعي حين فكر بالنزول فيها . ولقد عزم أن ييمم نحوها اثر حوار قصير دار بينه وبين امراة سوداء في مقبرة المدينة ، حيث قال :

جئت الى بيروت ارابط فيهافاعجبني انني مررت بقبورها، فاذا امراة سوداء في القبور ، فقلت لها :

ــ أين العمــارة ياهنتاه ؟

فقالت لي :

ــ ان أردت العمارة فهي هذه ، ــ وأشارت الىالقبور ــ وان كنت تريد الخراب فأمامك ــ واشارت الى البلد .

فقلت :

ــ هذه سوداء تقول هذا ! لاقيمن بها .

فاقمت ببيروت .(٣٣)

واتخذ الاوزاعي لنفسه مسجدا كان يشغله بالفتيا ودروس الفقه والحديث ،

فيغش مجلسه الجمع الوفير من الطلبة والمشتغلين بالعلم ؛ فيمر بمجلسه « ابراهيم ابن أدهم » ذات يوم ، فرأى حوله حلقة كبيرة من طلاب الحديث ، فقال : على هذا عهدت الناس ، كأنك معلم وحولك الصبيان ، لو أن هذه الحلقة على أبي هريرة لعجز عنهم فقام الأوزاعي وتركهم .(٣٤)

ويبدو أن الحياة أخذت تتبدل ملامحها في بيروت بعد قيام الدولة العباسية وانفتاح مينائها لاستقبال سفن التجار الافرنج من مرسية (٣٥) وبدأ الابتعاد عن المفاهيم الدينية ، والتحلل من بعض الامور السلوكية يسود المجتمع الاسلامي في المدينة ، حتى ان قاضيها خطب في الناس بعد أن لمس استشراء الفساد ، فقال لهم في خطبته : ان لحاكم نبتت على الضلالة فاحلقوها حتى تنبت على الطاعة وحمل الناس كلهم على حلق لحاهم . ويروي شاهد عيان هو (سعيد بن عبد العزيز البيروتي) : انك كنت لاتلقى احدا في اسواق بيروت الا محلوق اللحية . (٣٦)

وخرج الأوزاعي يومامن باب مسجد بيروت ، وهناك دكان فيه رجل يبيع الناطف (نوع من الحلويات) بجوار درج المسجد ، والى جانبه صاحب دكان يبيع البصل ، وهو يقول : يابصل أحلى من العسل ، أو قال : أحلى من الناطف . فقال الأوزاعي : سبحان الله ! أيظن هذا أن شيئا من الكذب يباح ؟! فكأن هذا مايرى في الكذب بأسا . (٣٧)

ونجاه هذا الواقع الذي آلت اليه أحوال الناس في بيروت ، والتي كانت تعكر صفو المرابطين من الزهاد والعباد والصالحين المتمسكين بالمثاليات ، فقد عبر الامام الأوزاعي عن رأيه في أن بيروت لم تعد خير مثال للمرابطين ، وهو بات يفضل الرباط في صور عليها ، ونتبين ذلك من رواية لحسان بن سليمان الساحلي يقول فيها :

(كنت رفيقا لسفيان الثوري فحبب الي الرباط ، فقلت له : اني أحببت الرباط واني لأحب أن ترتاد لي موضعا أحبس فيه نفسي بقية أيامي . فقال لي : ان الاوزاعي بالشام ، فأته ، فانه لن يدخر عنك نصيحة . فأتيت بيروت فبت فيها فلما صليت الغداة مع الجماعة قلت لرجل الى جانبي : أيهم الاوزاعي فأشار اليه بيده ، وكان مستقبل القبلة . وكان اذا صلى لم يلتفت عن القبلة حتى تطلع الشمس فاذا طلعت اسند ظهره الى القبلة ، فمن سأله عن شيء أجابه . فقلت : ان يكن عند احد خير من سفيان فعند هذا الرجل ، فتقدمت فسلمت عليه ، فقال لي : كيف تركت أخي سفيان ؟ فقلت له : بخير ، وهو يقرئك السلام . ثم قلت : اني

كنت رفيقا له. زمانا ، وأخبرته بخبري . فقال : عليك بصور فانها مباركة مدفوع عنهـا الفتن ، يصبح فيها الشر فلا يمسي ، ويمسي فيها فلا يصبح . قبر نبي في اعلاهـا . فقلت له : تشير علي بصور ، وأنت في بيروت ؟! فقال لي : سبق المقدور ولو أنني استقبلت من امري مااستدبرت ماعدلت بها بلدا) . (٣٨)

وعندما تحول أمر الخلافة الى العباسيين اصبحت الاعطيات لاتقوم بالكفاية كما كان الامر أيام بني أمية ، مما دفع بالأوزاعي لان يأخذ المبادرة ويكتب الى الخليفـة أبي جعفر المنصور يصف حال الجند المرابطين في الساحل ومايواجهونه من خطـر الغزو ، ووطأة البرد ، وقلة المال مع غلاء الاسعار ، وحفظ لنا « ابن ابي حاتـم الرازي) المتوفى سنة ٣٢٧هـ نص رسالة الأوزاعي الى المنصور ، والتي نثبتها هنا لما تضمنته من معلومات عن حال المرابطين في السواحل صيفا وشتاء ، والحياة القاسية التي يواجهونهـا .

(رسالة الأوزاعي الى أمير المؤمنين شفاعة في زيادة أرزاق أهل الساحل)

قال عبد الرحمن بن ابي حاتم : حدثنا العباس بن الوليد بن مزيد ، قراءة قال : أخبرني أبي عن الأوزاعي انه كتب :

(.. امـا بعد ولى الله لامير المؤمنين اموره بمـا ولى به امـور مـن هـدى واجتبى وجعله بهـم مقتديا ، فـان امير المؤمنين اصلحه الله كتب الي الا ادع اعلامه كلما فيه صلاح عامة وخاصة . فان الله عز وجل يأجر على مـن عمل بـه ويحسن عليه الثواب . وانا أسأل الله عز وجل ان يلهـم امير المؤمنيـن مـن أعمال البر مايبلغه به عفوه ورضوانه في دار الخلود . وقد كان أمين المؤمنين ــ حفظة اللهــ قصر بأهل الساحل على عشرة دنانير في كل عام سلفا من عطياتهم ، وأمين المؤمنيــن ــ أصلحة الله ــ ان نظر في ذلك عرف أنه ليس في عشرة دنانير لامرىء ذي عيــال عشرة ، أو أدنى من ذلك أو أكثر كفاف وان قوت عشرة وقتر على عياله ، فربما جمع الرجل عشرته في غلاء السعر في شراء طعام لعياله مايجد منه بدا ، ثم يـدان بعد ذلك في أدامهم وكسوتهم وماسوى ذلك من النفقة عليهم في عشـرة لقابل . ولو أجرى عليهم أمير المؤمنين ــ اصلحة الله ــ في أعطياتهم سلفا في كل عام خمسة عشر دينارا ماكان فيها عن مصلح ذي عيال فضل ولاقدر كفاف ، وأهل الساحـل بمنزل عظيم غناؤه عن المسلمين ، فانه لايستمر لبعوث أمير المؤمنين فصول الـى ثغوره ، ولاسياحة في بلاد عدوهم حتى يكون من وراء بيضتهم وأهل ذمتهم بسواحل الشام من يدفع عنهم عدوا ان هجم عليهم ، وانهم اذا كان القيظ تناوبوا الحـرس علي ساحـل البحر رجالا وركبانا ، واذا كان الشتاء قاسوا طول الليل وقـره

ووحشته حرسا في البروج ، والناس خلفهم في اجنادهم في البيوت والادفـاء . فان رأى أمين المؤمنين ــ حفظة الله ــ أن يأمر في اعطياتهم قدر الكفاف ، ويجريه عليهم في كل عـام فعل . وقدتصرمت السنة التي كانت تأتيهم فيها عشراتهم ، ودخلوا في غيرها ، حتى اشتدت حاجتهم وظهر عليهم ضرهـا . وهم رعية أمير المؤمنين والمسؤول عنهم ، فانه راع وكل راع مسؤول عن رعيته . وقد بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (انه لحبيب الي ان افارق الدنيا وليس منكم احد يطلبني بمظلمة في نفسه ولاماله) . أتم الله على الامير نعمته واحسن بلاءه في رعيته .

وقد قدم علينا رسول أمير المؤمنين ــ اصلحه الله ــ بالعطية من النفقة والكسوة التي امر امير المؤمنين ــ عافاه الله ــ بقسمها في اهل الساحل فقسمناها فيهم من دينار لكل رجل ودينارين . وقل المال عن اليتامى والارامل فلم يقسم فيهم منه شيء ، واليتامى والارامل وهم من المساكين في الوجوه الثلاثة في كتاب الله عز وجل من الصدقات ، ومن خمس المغانم ، وما افاء الله على رسوله والمؤمنين من اهل القرى ، فان رأى امير المؤمنين ــ أصلحه الله ــ أن يبعث بما يقسم فيهم فعل . جعل الله امير المؤمنين برسوله صلى الله عليه وسلم متشبها في رافته ورحمته بالمؤمنين ،وأتم عليه نعمته ومعافاته والسلام عليكم ورحمة الله) .(٣٩)

ابراهيم بن أدهم يرابط في صور

كانت مدينة صور عند فتوحـات المسلمين الاولى تعتبر من اجناد الاردن ، ولذلك قـال ــ ابن الفقيه الهمداني ــ ان صور منبرهـا الى دمشق وخراجها الى الاردن (٤٠) وهي مدينة حصينة على البحر ، بل فيه ، يدخل اليهـا من باب واحد على جسر واحد ، قد أحاطالبحر بهـا ، ونصفها الداخل حيطان ثلاثة بلا ارض تدخل فيه المراكب كل ليلة ، ثم تجر السلسلة كي لايعبر عليها الروم في الليـل . ويدخل اليها الماء في قناة معلقة ، وهي نصفان : نصف كبس ، ونصف حيطـان في المـاء مثل عكـا . وهي مدينة جليلة نفيسة ، بهـا صنائع كالبصـرة ، ولاهلهـا خصائص . ومنها اكثر سكر الشام ، ولهم ماء غزير ، ومزارع القصب بها كثير وبينها وبين عكـا شبه خليج ، ولذلك يقال : عكا حذاء صور الا أنك تدور ، يعني : حول الماء (٤١) .

وقد صرف (هشام بن عبدالملك) (١٠٥ ــ ١٢٥ هـ /٧٢٤ ــ ٧٤٣م .)عنايته الى تدعيم السواحل ، وفي عهده انتقلت صناعة السفن من عكا الى صور . وحول

ذلك يروي (البلاذري) أن رجلا من عكا كان يملك ارحاء ومستغلات ، فأراد هشام إن يشتريها منه ، فأبى الرجل ، وعند ذلك نقل هشام الصناعة الى صور وإتخذ بها فندقا ومستغلا . وظلت صناعة المراكب في ميناء صور منذ ذلك الوقت ، حتى عهد المتوكل العباسي.(٤٢) ولذلك ذكر اليعقوبي في البلدان : ولجند الاردن من الكور : صور ، وهي مدينة السواحل ، وبها دار الصناعة ، ومنها تخرج مراكب السلطان لغزو الروم . وهي حصينة جليلة ، وأهلها أخلاط من الناس)(٤٣)

ومنذ القرن الثاني الهجري اخذت صور تنافس بيروت كحصن وثغر للمرابطين حتى أن الامام الاوزاعي كان يتمنى لو رابط فيها بدل بيروت ، ونصح حسان بن سليمان الساحلي أن يرابط فيها ، كما مر .

واشهر من نزل مدينة صور من المرابطين الزاهد المشهور ـ ابراهيم بن أدهم ـ اصله من كورة بلخ ، وكان من ابناء الملوك . دخل مكة وصحب بها سفيان الثوري ، وغيره ، ثم دخل الشام واجتاز بساحل لبنان حول منتصف القرن الثاني ، فدخل جبيل وأقام فيها مدة ، وعقد مجالس للحديث والرواية ، فقصده الطلبة وسمعوه في جامعها ، وكان منهم « خلف بن تميم الدارمي » ، وقد حدث عنه فقال : « لقيت ابراهيم بن أدهم بجبيل ، فقلت له : هنيئا لك الرباط والجهاد . فقال : ما قدمت الشام مرابطا ولامجاهدا ، وانما قدمتها لاشبع من خبز الحلال ، تراني احمل هذا الحطب من الجبل فأبيعه ، فلا يراني احد الا وقال : فلاح أو حمال .(٤٤)

وانتقل ابن أدهم الى بيروت فأقام فيها مدة ، وتردد على الامام الاوزاعي وسمعه الاوزاعي أيضا وحكى عنه . وكذلك سمعه ببيروت : أبو الحسن علي بن بكار البصري الزاهد الذي سكن طرطوس والمصيصة مرابطا (٤٥) ، وسهل بن هاشم الواسطي البيروتي نزيل دمشق (٤٦) ، وصحبه ببيروت وساحل الشام وبغزواته البحرية ، بقية ابن الوليد المتوفى سنة ١٩٧هـ . (٤٧)

وانتقل اخيرا الى صور ورابط بالثغر ، واطال المقام فيها حتى استشهد وهو يجاهد في سبيل الله وذودا عن سواحل الشام ضد قراصنة الدولة البيزنطية الذين كانوا يدأبون على الاغارة بشكل مستمر على السواحل العربية الاسلامية . وعن نزوله مدينة صور يذكر « أبو نعيم الاصبهاني » هذه الرواية :

« قال أبو محمد القاسم بن عبد السلام : حدثنا فرج مولى ابراهيم بن أدهم بصور سنة ١٨٦ ـ وكان أسودا ـ قال : كان ابراهيم بن أدهم رأى في المنام كأن الجنة فتحت له ، فاذا فيها مدينتان ، احداهما من ياقوتة بيضاء ، والاخرى

من ياقوتة حمراء ، فقيل له : إسكن هاتين المدينتين فإنهما في الدنيـا ، فقال : ما اسمهما ؟ قيل : اطلبهما ، فانك تراهما كماوريتهما في الجنة ، فركب يطلبهما فرأى رباطات خراسان فقال : يافرج ، ماأراهما ! ثم جاء الى قزوين ، ثم ذهب الـى المصيصة والثغور ، حتى اتى الساحل في ناحية صور ، فلما صار بالنواقير – وهي نواقير نقرهـا سليمان بن داود على جبل على البحر – فلما صعد عليها راى صور فقال : يافرح ، هذه احدى المدينتين ، فجاء حتى نزلها ، فكان يغزو مع احمـد ابن معيوف ، فاذا رجع نزل يمنة المسجد ، فغزا غزوة فمات في الجزيـرة ، فحمل الى صور ، فدفن في موضع يقال له « مدفلة ». فأهل صور يذكـرونه في تشبيب اشعارهم ، ولايرثون ميتا الا بدأوا أولا بابراهيم بن أدهم . قال القاسم بن عبـد السلام : قد رأيت قبره بصور . والمدينة الاخرى : عسقلان » . (٤٨)

اما « ابن معيوف » الذي كان ابن ادهم يغزو معه ، فهو في « حلية الاولياء »: (أحمد) وعند « البلاذري » : (حميد – تصغير احمد) وقد قام بغزو جزيـرة اقريطش (كريت) وفتح بعضها في خلافة هرون الرشيد (٤٩) . والمحفوظ حسب تعبير ابن عساكر – ان ابن ادهم توفي سنة ١٦٢ هـ . وحول تلك الفترة كان يلـي الغزو وامارة البحر في ساحل الشام على عهد الخليفة المهدي بن المنصور (١٥٨ – ١٦٩هـ . / ٧٧٥ – ٧٨٥م .) كل من :

★ الغمر بن العباس الخثعمي ، وقيل السكسكي .

★ عبد الله بن الاسود المحاربي

★ جرير بن عبد الله العبسي .

وقد ولي « الغمر بن العباس » غازية البحر بعد « عامر بن ربيعة السلمي » في عهد ابي جعفر المنصور ، وقام بغزوتين في سنتي ١٦٠ و ١٦١ هـ غير ان المصادر التاريخية لم تفصح عن وجهة تينك الغزوتين . (٥٠) أما المحاربي والعبسي فلم تتحدث تلك المصادر عن جهودهما بشيء . ومن رواية « أبي نعيم » يتبين لنـا ان « ابن معيوف » كان يغزو في بحر الشام في عهد المهدي بن المنصور ، ثم في عهـد هرون الرشيـد .

وحسب قول « اليعقوبي » و « الطبري » وابن تغري بردي فانه كـان يلـي سواحل بحر الشام الى مصر . وهو الذي نزل على جزيرة قبرس في سنة ١٩٠هـ . بأسطول ضخم « فهدم وحرق وسبى من اهلها ستة عشر الفا » . (٥١)

ولقد خرج بن أدهم في عدة غزوات بحرية كما يبدو من « حلية الاولياء »لابي نعيم ، وكان معه في بعضها : بقية بن الوليد (٥٢) ، وابو رجاء الهروي ، (٥٣) وفديك ، وأبو المرتد : (٥٤) وغزا غزوتين في البحر ولم يأخذ سهمه من الغنائم او يفترض ، (٥٥) وذلك زيادة في زهده .

وكان بن ادهم يعيب على سفيان الثوري تركه للرباط بعد أن رابط بثغر عسقلان اربعين يوما . (٥٦) وكان يقدم الاوزاعي على سفيان ، لان الاوزاعي ظل يرابط في بيروت حتى توفي بها سنة ١٥٧هـ . بينما ترك الثوري الرباط وهو لايزال صغيرا في السن وحين سئل ابن ادهم عن تعليل الثوري في ترك الغزو والرباط هو واصحابه اجاب : ان سفيان كان يقول : انهم يضيعون الفرائض ! (٥٧)

ولقد خرج بن ادهم في احدى الغزوات مع أمير البحر « ابن معيوف » الى جزيرة من جزائر البحر الرومي ، فنزل عليها ورابط فيها حيث مات هناك وهو على نية الجهاد شهيدا . قال « أبو عبد الله الجوزجاني » رفيق ابراهيم بن ادهم :

« غزا ابراهيم في البحر مع اصحابه ، فقدم اصحابنا فاخبروني عن الليلة التي مات فيها ، فقالوا : انه اختلف خمسة او ستة وعشرين مرة الى الخلاء ، وفي كل مرة يجدد الوضوء ، وكان به البطن ، فلما كانت غشية الموت ، قال : أوتروا لي قوسي ، فأوتروه ، فقبض عليه ، فمات وهو قابض عليه يريد الرمي به الى العدو فدفناه في بعض الجزائر ببلاد الروم » .(٥٨)ويحدد الامام البخاري مكان مدفن ابن أدهم فيقول انه بـ « سوفنن » حصن بلاد الروم . (٥٩) ويؤيد كل من «ابن حبان» و «ابن عساكر» انه دفن فياحدىجزر بلاد الروم غازيا سنة ١٦١هـ(٦٠) فيما ينفرد « أبو نعيم الاصبهاني » بأن المسلمين اتوا بابن أدهم بعد غزوتهم فدفنوه في صور .

وجاء في حاشية احدى نسخ « فوات الوفيات » ان وفاة ابن ادهم كانت في الساحل قريبا من طرابلس وليس في جزيرة . (٦١)وذهب بعضهم الى انه توفي بدمشق ودفن في مرج غوطتها . (٦٢) ولكن المشهور ان ضريحه في جبلة على الساحل وهو معروف الى الان .

مرابطون آخرون

يمكن القول ان معظم المسلمين الذين كانوا يسكنون ثغور الشام الساحلية يصح وصفهم بالمرابطين . ولكن المصادر التاريخية وكتب الطبقات وتراجم الرجال وغيرها

لم تصرح الا بأسماء العدد القليل من الذين وصفوا بأنهم من المرابطين ، مع جماعة الزهاد وأمراء البحر ، والغزاة في البر والبحر ، وولاة المدن الساحلية وقضاتها .

ونقتصر هنا على ايراد اسماء الذين نصت كتب التاريخ على انهم نزلوا ساحل الشام للرباط ، غيرالذين سبق ذكرهم في هذه الدراسة :

❊ اسماعيل بن عبيد الله بن ابي المهاجر مولى بني مخزوم

قال الأوزاعي : قدم علينا مرابطا ببيروت زمن « مروان بن محمد » آخر خلفاء بني امية (١٢٧ ـ ١٣٢ هـ) . وكان اسماعيل متشددا ضد القدريين = المعتزلة ، وحين راى الاوزاعي ظن انه منهم ، فجبذه وقال له : اني أراكن من هؤلاء القوم ، يعني القدرية ، فلعلك منهم ! فقال الأوزاعي : لا والله ما انا منهم . وكان يؤدب أولاد عبد الملك بن مروان ، واستعمله عمر بن عبد العزيز على افريقية سنة ١٠٠ هـ . فاسلم عامة البربر في ولايته . وكان حسن السيرة . ولد سنة ٦١هـ . وادرك معاوية وهو صغير ، وتوفي سنة ١٣٢ هـ . (٦٣)

❊ حسان بن سليمان ، ابو علي الساحلي

نزل بيروت للرباط ، ثم انتقل الى صور فرابط فيها . سمع سفيان الثوري والإمام الأوزاعي . روى عنه ابو حفص عمر بن الوليد الصوري . (٦٤) وقد مر ذكره .

❊ سعيد بن أبي سعيد البيروتي الساحلي ، ابو سعيد بن كيسان المقبري

كان ثقة كثير الحديث ، لكنه كبر واختلط قبل موته بثلاث سنين . كان قدم الشام مرابطا وحدث ببيروت ، فسمعه بها : عبد الرحمن بن يزيد بن جابر .

توفي سنة ١٢٣هـ . (٦٥)

❊ سعيد بن خالد بن ابي طويل القرشي الصيداوي (ويقال البيروتي)

محدث من اهل صيدا . روى عن انس بن مالك ، وواثلة بن الاسقع . روى عنه : محمد بن شعيب بن شابور البيروتي ، واسماعيل بن عياش الحمصي . له في « سنن ابن ماجة » حديث واحد في الرباط . (٦٦)

❊ **سليم بن أيوب بن سليم** ، ابو الفتح الرازي

الشيخ الفقيه الأديب المفسر الشافعي . تفقه وهو كبير لانه كان اشتغل في

صدر عمره باللغة والنحو والتفسير والمعاني ، ثم لازم الشيخ ابا حامد الاسفراييني . وبعد وفاة شيخه جلس للتدريس مكانه في بغداد ، ثم سافر الى الشام ونزل ثغر صور مرابطا ينشر العلم ، فتخرج عليه ائمة من أهلها ونزلائها . وكان يقول : وصفت مني صور ، ورفعت بغداد من ابي المحاسن بن المحاملي .

له تصانيف مشهورة وكثيرة في الفقه ، وهو أول من نشر هـذا العلم بصور . وقد غرق في بحر القلزم عند ساحل جدة بعد عودته من الحج في شهر صفر سـنة ٤٤٧هـ .(٦٧) .

* عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان الشامي الدمشقي

أحد العباد الأولياء . كان ينزل صيدا . حكى عنه ابراهيم بن مخلد الجبيلي . ويظهر أنه كان يرابط في ساحل الشام ثم انقطع عن ذلك فعاتبه الامام الأوزاعي في كتابه اليـه بقوله :

« .. فقد كنت بحال إبيك لي وخاصة سريرته ، ، فرأيت أن صلتي اياه تعاهدي اباك بالنصيحة في أول مابلغني عنك من تخلفك عن الجمعة والصلوات ، فجددت ولججت ، ثم بررتك فوعظتك ، واجبتني بما ليس لك فيـه حجة ولا عذر .. وقد كنت قبل وفاة أبيك ــ رحمه الله ــ ترى ترك الجمعة والصلوات في الجماعة حراما ، فأصبحت تراه حلالا ، وكنت ترى عمارة المساجد من شرف الأعمال فأصبحت لـه هاجرا ، وكنت ترى ان ترك عصابتك من الحرس في سبيل الله حرجا فأصبحت تراه جميلا .. وقد كنت في ثلاث سنوات مررن ــ والمساجد والديار تحرق ، والدماء تسفك ، والأموال تنتهب ــ مع أبيك لاتخالفه في ترك جمعة ولاحضور صلاة مسجد ، ولا ترغب عنه حتى مضى لسبيله » .

مات بحدود سنة ١٦٧ هـ . (٦٨)

* عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد ، ابو زرعة الرازي

الحافظ المؤرخ ، احد الائمة الجوالين والحفاظ المتقنين . رحل لطلب العلم ، فنزل بيروت في رحلته ورابط فيها ، وقال : لا أعلم أنه صح لي رباط يوم قط الا ببيروت . وقد سمع : عبد الله بن محمد بن بشير بن ذكوان البعلبكي ، وعبد الحميد بن بكار ، وعمرو بن هاشم ، والعباس بن الوليد البيروتيين . وكتب بالري قبل أن يخرج الى العراق عن نحو ثلاثين شيخا ، وخرج الى الري ثانية سنة ٢٢٧ ورجـع في أول سنة ٢٣٢ ثم خرج الى مصر ، والشام ، والجزيرة ، وعاد الى بغداد

والكوفة والبصرة ، جالس الإمام احمد بن حنبل وذاكره ، وكان يقول : ان في بيتي ماكتبته منذ خمسين سنة ، ولم اطالعه منذ كتبته ، واني اعلم في اي كتاب هو ، في اي ورقة هو ، في اي صفحة هو ، في اي سطر هو . وكان احمد بن حنبل يقول: صح من الحديث سبعمائة الف حديث وكسر ، وهذا الفتى يعني ابا زرعة ــ قد حفظ ستمائة الف .

ولد سنة ٢٠٠ وتوفي بالري اواخر سنة ٢٦٤هـ.(٦٩)

* علي بن أحمد بن يوسف ، ابو الحسن القرشي الأموي الهكاري

محدث متصوف ، يعرف بشيخ الاسلام .نزل صيدا وصور ، وطاف بجبل لبنان ، فسمع بصيدا : الحسن بن محمد بن جميع الصيداوي المعروف بالسكن ، وأبا الفرج عبد الوهاب بن الحسين بن عمر بن برهان ، وبصور : ابا القاسم سعيد بن محمد الاندلسي . وله سماع بمصر ، وبغداد ، والرملة ، والموصل ، وحلب ، والقدس ، ومكة .

قال السمعاني : تفرد مدة بطاعة الله في الجبال وابتغى لـه اربطـة ، مواضع يأوي اليها الفقراء والصالحون . وكان كثير الخير والعبادة ، مقبولا وقورا .. توفي في أول المحرم سنة ٤٨٦هـ. (٧٠)

★ القاسم بن شهر ، أبو سفيان الدمشقي

مرابط من اهل دمشق ، انقطع الى ساحل لبنان وثغوره ، فرابط نحوا من خمس وأربعين سنة . سمعه ابو بكر عثمان بن سعيد بن أبي كريمة الصيداوي في شهر شعبان سنة ١٩٧ هـ وحكى عنه انه كان بساحل دمشق مرابطا ، الى ان وقعت فتنة هناك وكثر البلاء ، فتنحى عن موضعه ، وخرج الى ذروة جبل لبنان مما يقبل على الساحل ، في موضع يقال له « هرميسا » بأصل قرية يقال لها » ملخ « (؟) من كورة صيدا ، فمكث هناك زمانا طويلا ، والتقى هناك بشيخ حدثه عن فتنة وقعت بين أهل صيدا ، وجماعة عرفوا بـ « الصارمية » ثم ذكر لـه الصلح بينهما (٧١)

اقول : ان هذه المعلومة عن الفتنة بساحل الشام لم اجد لها ذكرا في اي مصدر اخر ، كما لم اعرف من هم « الصارمية » الذين وقعت الفتنة بينهم وبين الصيداويين ، ولافي اي سنة كان ذلك . وهي معلومة تستحق التقصي والبحث ،

لانها تكشف لنا صفحة من تاريخ ساحل الشام في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري .

★ الليث بن تميم الفارسي الطرابلسي

من أهل ساحل دمشق ومن غزاة البحور . نسبه الحافظ « ابن عساكر » الى طرابلس وقال انه من أهلها ، وذكره في معرض روايته لفتح طرابلس على يد « سفيان بن مجيب الازدي » . وهو والد هشام الذي يروي عنه « البلاذري » في فتوح البلدان . ويظهر أنه فارسي الاصل ممن أتى بهم معاوية بن أبي سفيان وأسكنهم سواحل الشام . وانتقل هو وابنه الى صور فنسب اليها . وفي ذلك يقول « البلاذري » : « حدثني هشام بن الليث قال : حدثني أشياخنا قالوا : نزلنا صور والسواحل وبها جند من العرب وخلق من الروم . ثم نزع الينا أهل بلدان شتى فنزلوا معنا وكذلك جميع سواحل الشام » .

والليث هو أخو « أبي خراسان الفارسي » الذي كان يغزو في البحر وكان الليث ممن غزا على اسم « عمر بن هبيرة » وعطائه ، اذ ولاه سليمان بن عبد الملك غازية البحر ، فرافق الليث اخاه أبا خراسان في غزوة الى القسطنطينية (٧٢) سنة ٩٧ هـ/٧١٦ م . (٧٣) وكان اخوه « ابو خراسان » يتولى غزو البحر الشامي في عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦ ــ ٩٦ هـ ٧٠٥/٢ ــ ٧١٥ م . ثم في عهد سليمان ابن عبد الملك (٩٦ ــ ٩٩هـ . / ٧١٥ ــ٧١٨م .) (٧٤) .

المصادر والحواشي

(١) الفتان : بفتح الفاء ، وروي بضمها : جمع فاتن . قال القرطبي : ويكون للجنس اي كل ذي فتنة .

(٢) تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر – عبد القادر بدران – ج ١٧٧/٣

(٣) التاريخ الكبير – البخاري – مجلد ١ ق١ ج٣٩٤/١

(٤) تاريخ دمشق – ابن عساكر – تحقيق د.صلاح الدين المنجد – ج٢٧١/١

(٥) تاريخ دمشق – ابن عساكر – نسخة خطية بالخزانة التيمورية بدار الكتب المصرية رقم (١٠٤١) تاريخ – ج١٢٤/٦ و ٤٠٨/١٥ ، خلاصة تذهيب الكمال – الخزرجي ١٣٧ ، كتاب المجروحين والضعفاء والمتروكين – ابن حبان – ج٣١٧/١ ، تهذيب التهذيب – ابن حجر ١٩/٤ ، تقريب التهذيب – ابن حجر ٢٩٣/١ ، الكاشف – الذهبي ٣٥٨/١ ، لسان الميزان – ابن حجر ١٣٢/٢

(٦) فتوح البلدان – البلاذري – تحقيق د.صلاح الدين المنجد – ق١٥٠/١

(٧) تاريخ أبي زرعة – عبيد الله بن عبد الكريم – تحقيق شكر الله القرجاني – مجمع اللغة العربية بدمشق – ج٢٢٢/١ – طبعة ١٩٨٠ ، انساب الاشراف – البلاذري – تحقيق د . محمد حميد الله – ج١٨٨/١ مصر ١٩٥٩ ، تاريخ بغداد – الخطيب البغدادي ١٦٣/١ – ١٧١ ، تاريخ دمشق (المخطوط) ٩٢/١٦ و ٣٧٨/٢٤ ، تهذيب تاريخ دمشق ١٩٧/٦ ، تهذيب التهذيب ١٣٧/٤ ، طبقات ابن سعد ٦٦/٢ ، المعارف – ابن قتيبة ٢٧٠ و ٢٧١ ، تاريخ الاسلام – الذهبي – نشره القدسي – ج٢/ ١٥٨ .

(٨) تهذيب التهذيب – ابن حجر ٤٦٤/١.

(٩) تاريخ دمشق (المخطوط) ٩٢/١٦ و ٣٧٨/٢٤

(١٠) التاريخ الكبير – البخاري – ج١٣٥/٤

(١١) صورة الارض – ابن حوقل – طبعة المثنى – ص ١١٦

(١٢) فتوح البلدان – ق١٨١/١ ، تاريخ الرسل والملوك – الطبري – تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم – طبعة دار المعارف المصرية – ج٢٦٢/٤

(١٣) تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور – د . عمر عبد السلام تدمري – طبعة دار البلاد للاعلام بطرابلس – لبنان ١٩٧٨ – ج٦٨/١ – ٧٠

(١٤) فتوح البلدان ق١٥١/١

(١٥) تاريخ دمشق ٧٧/١٦

(١٦) الحدود الاسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري ـ فتحي عثمان ـ طبعة القاهرة ١٩٦٦ ـ ج١/٣٣٨

(١٧) فتوح البلدان ق١/١٢٧ ، العرب والارض في بلاد الشام في صدر الاسلام ـ د.عبد العزيز الدوري ـ (عن : تاريخ بلاد الشام) ـ ص ٢٨ ـ طبعة الجامعة الاردنية ١٩٦٢

(١٨) البلدان ـ اليعقوبي ـ ص ٣٢٧

(١٩) فتوح البلدان ق١/١٧٥

(٢٠) فتوح البلدان ق١/١٧٥

(٢١) فتوح البلدان ق١/١٤٠

(٢٢) انساب الاشراف ـ البلاذري ـ طبعة القدس ـ ج ٥/٤٣ ، طبعة المعهد الالماني ببيروت ، تحقيق د. احسان عباس ١٩٧٩ ـ ج١ ق٤/٥٤٢ ، الطبري ٤/٣٢٦

(٢٣) فتوح البلدان ق١/١٨٢

(٢٤) فتوح البلدان ق١/١٥١

(٢٥) فتوح البلدان ق١/١٥١ ، الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ طبعة دار صادر ببيروت ـ ج٢/٤٣١

(٢٦) البداية والنهاية في التاريخ ـ ابن كثير ج١٣/٣١٣ ، عقد الجمان ـ بدر الدين العيني ـ نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم (١٥٨٤ تاريخ) ـ ج٢٠ق٤/٧٢١

(٢٧) تهذيب تاريخ دمشق ٦/١٨٣ ، الحدود الاسلامية ـ ج١/٣٦١

(٢٨) من تاريخ التحصينات العربية في ساحل الشام ـ د.محمد عبد الهادي شعيره ـ طبعة جامعة الدول العربية ، القاهرة ١٩٦٣ ـ ص ٤٣١

(٢٩) فتوح البلدان ق١/١٤٠ و ١٧٠

(٣٠) تاريخ دمشق (المخطوط) ٧٨/١٦

(٣١) البداية والنهاية ١١٦/١٠

(٣٢) تاريخ دمشق (المخطوط) ١٧/٥ و ١٩ ، الجرح والتعديل ـ ابن ابي حاتم الرازي ـ طبعة حيدر اباد ١٩٥٢ ـ ج٣/٢٤٥ ، التاريخ الكبير ـ البخاري ـ ق١ج٢/٣٥ ، من حديث خيثمة ابن سليمان القرشي الاطرابلسي ـ تحقيق د.عمر عبد السلام تدمري ـ طبعة دار الكتاب العربي ببيروت ١٩٨٠ ـ ص ١١

(٣٣) تاريخ دمشق ٢٣/١٨٤ ، تاريخ الاسلام ٦/٤١٢ ، البداية والنهاية ١٠/١١٨

(٣٤) تهذيب تاريخ دمشق ١٧٥/٢ ، البداية والنهاية ١٣٧/١٠

(٣٥) تاريخ دمشق (المخطوط) ١٨/٦ ، تهذيب تاريخ دمشق ٤٧/٣

(٣٦) تاريخ دمشق ٥٧٩/١١٥

(٣٧) تاريخ دمشق ١٨١/٢٣ ، البداية والنهاية ١١٩/١٠

(٣٨) تهذيب تاريخ دمشق ١٤٠/٤ و ١٤١

(٣٩) تقدمة المعرفة ـ ابن أبي حاتم ـ ج١٩٣/١ ـ ١٩٥ ـ طبعة حيدر أباد ١٩٥٢

(٤٠) مختصر كتاب البلدان ـ ابن الفقيه ـ ص ١٠٥ ـ طبعة المثنى

(٤١) احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ـ المقدسي ـ ص ١٦٣

(٤٢) فتوح البلدان ق١٤٠/١

(٤٣) البلدان ـ اليعقوبي ـ ص ٣٢٧

(٤٤) تاريخ دمشق ٢١٠/١٢ ، تهذيب تاريخ دمشق ١٦٩/٥ و ٣٢٩/٦ ، بغية الطلب في تاريخ حلب ـ ابن العديم ـ نسخة مصورة بمعهد المخطوطات في جامعة الدول العربية رقم ٩٢٤٩ تاريخ ـ ج٢٠٨/٥

(٤٥) التاريخ الكبير ٢٦٢/٦ ، تهذيب التهذيب ٢٨٦/٧

(٤٦) الجرح والتعديل ٢٠٥/٤ ، تهذيب التهذيب ٢٥٩/٤

(٤٧) تهذيب ابن عساكر ١٨٩/٢ ، حلية الاولياء ـ ابو نعيم الاصبهاني ـ ج٥/٨

(٤٨) حلية الاولياء ـ ج٩/٨

(٤٩) فتوح البلدان ق٢٧٩/١

(٥٠) تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ـ د.تدمري ـ ج١٢٨/١

(٥١) تاريخ طرابلس ١٢٨/١

(٥٢) حلية الاوليـــاء ٥/٨

(٥٣) حلية الاوليـــاء ٦/٨

(٥٤) حلية الاولياء ٧/٨

(٥٥) حلية الاولياء ٢٨٨/٧

(٥٦) حلية الاولياء ٢٥/٧

(٥٧) حليـة الاولياء ٨١/٧٠

(٥٨) تهذيب تاريخ دمشق ١٩٩/٢

(٥٩) تهذيب تاريخ دمشق ١٩٩/٢

(٦٠) مشاهير علماء الامصار ابن حبان البستي — نشوه فلايشهمر — ص ١٨٣ — القاهرة ١٩٥١ .

(٦١) فوات الوفيات — ابن شاكر الكتبي — تحقيق د. احسان عباس — طبعة دار صادر — ج١/١٣

(٦٢) معالم واعلام — احمد قدامة — ق١ج١/١٧ — دمشق ١٩٦٥

(٦٣) تاريخ أبي زرعة ٢٥٤/١ ، تاريخ الاسلام ٢٢٦/٥ ، الحلة السيراء — ابن الابار ٣٣٥/٢ ، تهذيب تاريخ دمشق ٢٥/٣ — ٢٧ ، مشاهير علماء الامصار ١٧٩ ، معالم الايمان في معرفة أهل القيروان — الدباغ والانصاري — ج١/١٥٤ — طبعة تونس ١٣٩٠ هـ . رياض النفوس — المالكي — تحقيق د.حسين مؤنس — ج١/٧٥ القاهرة ١٩٥١ ، البيان المغرب — ابن عذارى ٤٨/١ ، حلية الاولياء ٨٥/٦ و ٨٦ ، تاريخ خليفة بن خياط — تحقيق د.أكرم ضياء العمري — ص ٣٢٣ ، قـادة الفتح الاسلامي في المغرب العربي — اللواء الركن محمود شيت خطاب — ج٢/١٦٧ دار الفكر ببيروت ١٩٧٣ ، معجم العلماء المسلمين في تاريخ لبنان الاسلامي (مخطوط) — د.عمر تدمري — ق١ج١/٤٩٣ (رقم ٣٠٥)

(٦٤) — تاريخ دمشق (المخطوط) ٣٢٦/٨

(٦٥) طبقات الصوفية — السلمي ٢١٣ ، تاريخ دمشق ١/١٦ ، تاريخ الاسلام ٨٠/٥ ، معجم العلماء المسلمين — ق١ج٢/٨٦٠ رقم (٦٠١)

(٦٦) كتاب المجروحين ٣١٧/١ ، الجرح والتعديل ١٥/٤ ، الكاشف ٣٥٨/١ ، تاريخ دمشق ٤٠٨/١٥ ، تهذيب تاريخ دمشق ١٢٤/٦ ، لسان الميزان ١٣٢/٢ ، التاريخ الكبير ٤٦٩/٣ ، معجم العلماء المسلمين — ق١ج٢/٨٦٤ رقم (٦٠٥)

(٦٧) تاريخ دمشق ٤٢٩/٤٤ ، طبقات الشافعية الكبرى — السبكي — ج٤/٢٧ ، شذرات الذهب — ابن العماد الحنبلي — ج٣/٣٩٥ ، وفيات الاعيان — ابن خلكان — تحقيق د.احسان عباس — ج٦/١٩١ ، التاج المكلل — القنوجي ١٤٨ ، طبقات المفسرين — الداودي — تحقيق علي محمد عمر — ج١/١٩٦ ، معجم البلدان — ياقوت الحموي — ج٥/١٧١ ، معرفة القراء الكبار — الذهبي — ج ٣٤٦/١ ، تبيين كذب المفتري — ابن عساكر ٢٦٢ ، طبقات الفقهاء ١٣٢ ، العبر في خبر من غبر — الذهبي ٢١٣/٣ ، التكملة لوفيات النقلة — المنذري — ج١/٦٦ ، طبقات الشافعية — الاسنوي ٥٦٣/١ ، انباه الرواة — القفطي ٩٥/١ ، تهذيب الاسماء واللغات — النووي — ج١ق ٢٣١/١ روضات الجنان الخوانساري ٧٣/٤ سير اعلام النبلاء (المصور) الذهبي — ج ١٤٤/١١ طبقات الشافعية — الحسيني ١٤٧ تاريخ الاسلام تحقيق د.بشار عواد — ج١٨/٣٨٦ فهرسة ما رواه عن شيوخه — الاشبيلي ١٩٥ مرآة الجنان — اليافعي ٦٤/٣ معجم العلماء المسلمين — ق١ج٢/٩١٩ رقم (٦٤٨)

(٦٨) المعرفة والتاريخ الفسوي — تحقيق د.اكرم ضياء العمري — ج٢/٣٩١ و ٣٩٢ تاريخ

دمشق (المخطوط) ٤/٠٤٤ التهذيب ٢/٢٩٦ تاريخ بغداد ١٠/١٧ و ٢٢٢ - ٢٢٥ مشاهير علماء الامصار ١٨١ ، تهذيب التهذيب ٦/١٥٠ معجم العلماء المسلمين - ق١ج٣ دون ترقيم .

(٦٩) تقدمة المعرفة ١/٣٣٣ - ٣٤٠ تاريخ بغداد ١٠/٣٢٦ - ٣٣٧ ، تاريخ دمشق ٢٥/٣٤٠ - ٣٤٣ ، تهذيب التهذيب ٥/١٣٢ طبقات الحنابلة ١/١٩٩ - ٢٠٣ ، معجم العلماء المسلمين - ق١ج٣ دون ترقيم .

(٧٠) الانساب - السمعاني (النسخة المصورة) - ٣٥٦ او ٣٥٨ ب و ٥٩١ ب ، الانساب المتفقة - ابن القيسراني ٨٧ و ٨٨) وفي تاريخ دمشق لابن عساكر ان وفاته كانت في سنة ٤٨٩ هـ - ج ٢٨/٤٥١ و ٤٥٢ ، معجم العلماء المسلمين - ق١ج٤ دون ترقيم .

(٧١) تاريخ دمشق ٣٥/١١٠ و ١١١ معجم العلماء المسلمين - ق١ج٤/١٥٧٢ رقم (١١٨٩) .

(٧٢) تاريخ دمشق ٣٦/١٩٥ - ١٩٨ معجم العلماء المسلمين - ق١ج٤/١٥٩٥ رقم (١٢١٢) .

(٧٣) تاريخ اليعقوبي - ج٢/٢٩٩ ، تاريخ خليفة ٣١٤ و ٣١٥ ، تاريخ الطبري ٦/٥٢٣

(٧٤) تاريخ دمشق ١٥/١٢٢ بغية الطلب ٧/٢٢٠

أجناد القبائل العربية في بلاد الشام في العهد المملوكي

الأستاذ أمين النفوري
دمشق

١ ــ العهد الزنكي والايوبي :

لئن كانت جيوش دولة الخلفاء الراشدين والامويين تتألف بمعظمها من القبائل العربية ، القيسية واليمنية فان جيوش الدولة العباسية قد اعتمدت العناصر غير العربية في كتائبها وجحافلها ولا سيما خلال مدة الانحطاط الطويلة التي تقسمت فيها أراضي الخلافة الى دويلات في الشرق والغرب .

وتوضع قسم كبير من القبائل العربية في المدن والحواضر الاسلامية ، التي توالت عليها الفتن والاضطرابات الموضعية في مناسبات متلاحقة ، لدمجها في امارة جديدة أو في سلطة مناوئة . وانكفأ بعضها الى الصحارى والبوادي ، تجوس خلال المدن وتنشر الرعب والهلع بغاراتها على المدن وبغزواتها للقرى وطرق القوافل سواء في العراق أو في بلاد الشام أو في مصر .

وحاولت بعض القبائل مثل تغلب أن تشكل امارة عربية في شمال بلاد الشام غير أنها لم تبق طويلا ، وتعرض الحمدانيون من بني تغلب الى مناوآت محلية من الامراء الطامعين ومن حاضرة الاسلام في بغداد ، وجابهوا تحديا خارجيا كبيرا تمثل في الامبراطورية البيزنطية واتباعها في الاناضول . وأصبحت بلاد الشام في بحران سياسي وعسكري خلال فترة لاحقة حيث كانت في خطوط تقاطع المجالات الحيوية للخلافة العباسية في بغداد ، والخلافة الفاطمية في القاهرة ، والسلطة الجديدة السلجوقية والتركية ــ التركمانية ، فضلا عن الامارات الصليبية التي نشأت في أعقاب الحملات الصليبية .

وكانت الدويلات المتعددة في بلاد الشام تتحالف وتختار أصدقاءها من بين هذه التشكيلة من القوى المحلية والاجنبية ، تبعا للاخطار ووفقا للمناسبات .

وتوالت في بلاد الشام امارات من قبائل عربية مثل بني كلاب القيسيين في شمال البلاد ، والعقيليين في الموصل ، وبني نمير في دبار بكر ، وبني فهد وبني كلب في صرخد ، وبني عمران في الموصل ، وبني منقذ في شيزر ، وبني ملاعب الاشهبي في حمص ، وبني الصليحة في الساحل ، وقبائل بني مالك في حوران ، وبني محرز في المرتفعات الجبلية المطلة على الساحل ، فضلا عن امراء جبل بهراء (العلويين) .

ومن هذا الفسيفساء العرقي واللغوي والديني والطائفي على الصعيد الداخلي والخارجي تشكلت ميول ونزعات سياسية كانت تتسق احيانا وتتنافر احيانا اخرى بتأثير ردود الفعل الداخلية والخارجية المنبثقة عن التحالفات المتعددة والمتنوعة بين بعض مكونات هذا الفسيفساء البشري والجنسي .

وقد طال التنازع القبلي القديم والجهل الذي استشرى في القبائل العربية نتيجة الاهمال الطويل في العصور العباسية ، دون تآلف هذه القبائل الكثيرة القوية المنتشرة في كل بلاد الشام ، حضرا وريفا وبداوة ، ودون تشكيلها دولة واحدة موحدة ، تفرض وجودها على كل هذا المزيج العربي والاجنبي في بلاد الشام على الاقل .

ولما امتد السلاجقة الى بلاد الشام وفي اعقابهم سواهم من الغز والتركمان ، وتشكلت امارات تركية وتركمانية في شمال بلاد الشام ، وفي داخلها ، كانت الحملات الصليبية توالي عبورها من بلاد الروم والبحر المتوسط باتجاه بلاد الشام للسيطرة على بيت المقدس وكل الرقعة الساحلية وجزء من الشطر الداخلي في بلاد الشام ، ووقفت القبائل العربية الضاربة في الصحراء موقف المشاهد المراقب المترقب ، ووقع عبء الصراع في المرحلة الاولى من النضال ضد الغزو الصليبي ، على القبائل التركمانية الكثيرة التي انساحت في شمال سورية وفي وسطها وخارج البلاد في أراضي الروم ، وأصبحت ترابط في الثغور الاسلامية الشمالية بخاصة ، وحلت مكان العرب الذين كانوا يقيمون فيما مضى حول مناطق الجهاد في العواصم والثغور .

ولما اشتدت الحملات الصليبية كان الامراء المحليون المسلمون يستخدمون القبائل العربية في صد الهجمات الصليبية ، ولا سيما غزوها وهي تتحرك برتل المسير ما بين انطاكية حتى القدس وعسقلان وغزة .

وقد تدفقت على بلاد الشام قبائل عربية كثيرة خلال هذه الفترة وبعدها ، قادمة من الحجاز ونجد والعراق ومصر ، واكثرها من قبيلة طي (الموالي) وآل

علي ، وآل أبي ريشة ، والفضل بن ربيعة ، وانتشرت على طول بلاد الشام من الشمال الى الجنوب بحكم القرابة القبلية بينها .

وكانت دمشق هدفا مستمرا للصليبيين يحاولون بلوغه بكل الوسائل ، باستخدام القوة والحيلة والافساد والتآمر ، أو التحالف مع بعض الامراء المحليين .

وكان حول دمشق وعلى مشارفها الشرقية القريبة وفي أواسط قبيلة بني كلب ولا سيما حلة كلثوم بن حسان بن مسمار الكلبي ، ويقع جنوب منزلة حلة مرى بن ربيعة من طي وفي فلسطين عرب الجراح من طي أيضا ، الذين أزعجوا النفوذ الفاطمي في فلسطين لمدة واقلقوا الصليبيين في تحركاتهم وغزواتهم المفاجئة عليهم في الارياف والبوادي وخلال مسير الجيوش الفلسطينية في الشقة الساحلية (١) . فكان بنو هوبر وحلة بني ربيعة حول عسقلان تتخطف القوافل .

وقد لجأ والي دمشق طغتكين الملقب بظهير الدين الى استخدام العرب في جيشه على نطاق واسع ففي وقعة طبرية مع الفرنج عام ٥٠٧ هـ استدعى ظهير الدين العرب الطائعين والكلابيين والخفاجين واستعان بهم للقتال فوصلوا في خلق كثير بالمزادات والروايا والابل لحمل الماء (٢) .

وبعد انتقال بانياس الى الفرنج طمعوا في دمشق فسار اليهم عسكر دمشق وانضم اليه التركمان من منازلهم حول البلد والامير مرة بن ربيعة في العرب واصلبن معه وتفرقوا كراديس في عدة جهات (٣) .

وكان آل معن من العرب الايوبية وهم بطن من بني ربيعة ، قد سكن جدهم أيوب الجزيرة الفراتية وتكاثر بنوه ثم رحل الى حلب وجعل يغزو الفرنج عند ظهورهم في انطاكية سنة ٥٠٢ هـ ١٠٤١) ثم انتقل الامير معن الى سهل البقاع وأمره ظهير الدين أن يصعد بعشيرته الى الجبال العالية من لبنان ويطلق الغارة على فرنج الساحل(٥)

ولم يكن خلف ظهير الدين أقل اهتماما بالقبائل العربية ، للحاجة الماسة اليها في قواته ، فقد بادر تاج الملوك بوري بتجريد الاتراك الدمشقيين والتركمان والعرب القادمين مع الامير مرة بن ربيعة ، لملاقاة الفرنج في مناطق حوران حول ناحية « براق » فحمل العرب والاتراك حملة هائلة واسروا الفرنج (٦) .

ويظهر أن مرى بن ربيعة كان على اتصال مع دبيس بن صدقة الاسدي العراقي ، والذي كان مناوئا للخليفة العباسي ، فانهزم دبيس خوفا من المسترشد

بالله ، وضل الطريق ، وكان قصده حلة مري بن ربيعة . فكان ذلك سببا في قبض والي دمشق شمس الملوك على مري بن ربيعة وعلي بن اسامة بن المبارك ، وقتل مري بعد ذلك (٧) ، تقربا من أعتاب الخلافة العباسية البغدادية .

وقد تزايد بعد ذلك استخدام القبائل العربية في جيوش الشام ولا سيما في عهد معين الدين انر ، اذ كان يكاتب العرب كلما ألم به أمر من الصليبيين فيالساحل وفي حوران والجولان(٨) .

وكان جل اعتماد دمشق على ما تحمله قوافل العرب من الغلال في حوران لتأمين تموين هذه المدينة الكبيرة ، فكان على والي دمشق أن يسير النجدات الى بلاد الشام الشمالية والوسطى ، وان يسير عسكرا الى حوران لايناس قبائل العرب وحفظ أطرافهم لنقل الغلال على جمالهم الى دمشق على جاري العادة ، وحفظها والاحتياط عليها (٩) .

وفي عهد نور الدين أصبحت حوران قاعدة تموين وهجوم على الفرنج ، فكان يعسكر بالقبائل العربية فيها ويحفظ العرب الجلابين للغلال ويشن الغارات على الفرنج بالتركمان والعرب في قلاعهم الساحلية والجبلية ما بين بانياس وطبريا وهونين في جبل عاملة(١٠) .

وهكذا ازداد اعتماد الامراء والحكام في بلاد الشام على دعم القبائل العربية ولا سيما قبيلة ربيعة من طي بن كهلان من القحطانية ، والتي انتشرت في طول البادية الشامية ولا سيما في وسط البلاد وحول المدن . وقد كانت الرئاسة لهذه القبيلة زمن الفاطميين ، وكان كبيرهم مفرج بن دغفل بن جراح الذي اقطع منطقة الرملة في فلسطين .

وكان مبدأ ربيعة أنه نشأ في أيام الاتابك زنكي صاحب الموصل وكان أمين عرب الشام أيام ظهير الدين طغتكين السلجوقي صاحب دمشق ، ووفد علىالسلطان نور الدين محمود فأكرمه وأشاد بذكره ، وكان لربيعة أربعة أولاد : فضل ، ومرا (مرى) ، وثابت ، ودغفل . وانقسم آل ربيعة الى ثلاثة أفخاذ ولكل منهم امير مخصوص : (١) آل الفضل وهم أعلاهم درجة وارفعهم مكانة وديارهم من حمص حتى قلعة جعبر والرحبة آخذين على ضفتي الفرات وأطراف العراق ، حتى البصرة ، وبرز منهم آل عيسى ، (٢) آل مرا وديارهم من حوران والجولان حتى مكة ، (٣) آل علي وديارهم مرج دمشق وغوطتها بين اخوتهم آل الفضل وبني عمهم آل مرا(١١) .

ــ وكان الملك الكامل قد طلب من ماتع بن حديثة جمالا يحمل عليها غــلالا الى خلاط فاحتج بغيبة جماله في البرية ، وكان بعض بني كلاب حاضرا فتكفل له بحاجته من الجمال ووفى له بذلك ، ثم جاؤوا اليه عندما اخذ مدينة آمد(ديار بكر).

وكانت بنو كلاب تخدم الملك الاشرف موسى وتصحبه لمتاخمتهم بلاد الروم، وكان الناصر محمد بن قلاوون لا يزال ملتفتا الى تألف بني كلاب وأمر عليهم سليمان بن مهنا من آل الفضل وجعل عليهم حفظ قلعة جعبر وما جاورها (١٢) .

ــ واخذ ذكر آل الفضل من ربيعة طي ينتشر ولا سيما في دولة المعز ايبك والمنصور قلاوون ، حيث حضر الى الابواب السلطانية زامل بن علي وعيسى ابن مهنا وأولاده ، وكان لهم عند السلطان حرمة كبيرة وصيت عظيم الى رونق فــي بيوتهم ومنازلهم .

واجتمع أيام الظاهر بيبرس جماعة من آل ربيعة فحصل لهم من الضيافة في مدة قصيرة شيء عظيم(١٣) .

ــ لقد ازداد نفوذ القبائل العربية ، ولا سيما آل الفضل ، بظهور التتار في العراق وتهديدهم بلاد الشام ، وكان المماليك يخشون انحياز هذه القبائل الى التتار فرفعوا من شأنهم واكرموهم وادروا عليهم العطاء ومنحوهم الاقطاعات ليكونوا في وجه التتار وعيونا للسلاطين في الصحراء وحول الفرات ، وبرز منهم في تلك الفترة شرف الدين عيسى بن مهنا بن مانع بن حديثة امير العرب الذي أعطاه الملك المظفر سلمية عام ٦٥٦ هـ (١٤) وقد قدم زامل بن علي أمير العرب من آل الفضل في عدة من العربان مع الملك الاشرف موسى بن شيركوه صاحب حمص والملك المنصــور صاحب حماة ، وواقعوا التتار على الرستن عام ٦٥٩ هـ فأفنوهم قتلا واسرا .

ويعزى لآل الفضل (الموالي) شرف تثبيت الخلافة العباسية في مصر زمن الملك الظاهر بعد انقراضها على أيدي التتار في بغداد سنة ٦٥٦هـ ، وذلك عندما هرب أحد ابناء عم الخليفة المستعصم بالله من مذبحة التتار في بغداد ولجأ الى جماعة من عرب بني مهنا حول الفرات في منطقة عانة ، فاصطحبه آل الفضل في جوف الصحراء وورد الغوطة ومعه جماعة من عرب خفاجة في قريب خمسين فارسا بعد أن وفد الى الرحبة على الفرات واتاه الامير علي بن حديثة من آل الفضل في ٤٠٠ فارس من العرب . ثم سافر الخليفة المقبل حيث اثبت الفقهاء والشهود في القاهرة نسب الخليفة العباسي فنصبه الملك الظاهر خليفة وذلك سنة ٦٥٩هـ(١٤) .

واستمرت قبيلة بني كلاب في التوطن حول حلب واطرافها وصاروا يتكلمون التركية بحكم اختلاطهم بسلاجقة الروم والتركمان . ويركبون الاكاديش . وهم عرب غزو ورجال حروب وابطال جيوش ومن اشد العرب بأسا . وأما آل بشار فمساكنهم الجزيرة ، وبعض بلاد حلب ، وبنو عجل وديارهم سنجار الى الجزيرة العربية وأطراف بغداد ، حسب مؤلف كتاب مسالك الابصار وصبح الاعشى (١٦) .

كان عماد الدين زنكي كثير التنقل في غزواته ، سريع الحركة لملاقاة الفرنج في شمال بلاد الشام وسواحلها وجنوبها ولا سيما في جنوبي دمشق وحوران .

وقد شن غارة كبيرة على ولاية طرابلس جمع لها من التركمان والعزبان عددا كبيرا وقتل من الفرنج طائفة عديدة(١٧) .

واستخدم نور الدين التركمان والعرب في شمال بلاد الشام لاسر الامير الصليبي جوسلين . وكان التركمان والعرب يحيطون ببانياس الجولان عندما زحف اليها ملك القدس بلدوين (١٨) وفتح نور الدين حارم برجال المدن وعربان البر واسر من الفرنج خلقا كثيرا وفتح بانياس(١٩) وكان امير تنوخ ظهير الدين بن بحتر حاكما على ثغر بيروت فولاه نور الدين القنيطرة والبقاع وظهر الاحمر ووادي التيم وبرج صيدا والدامور ، وكان له معاش ٤٠٠ فارس لمقاتلة الفرنج ، وكان آل تنوخ أكبر الطوائف التي حضرت من معرة النعمان (٢٠) . وسار آل شهاب من حوران الى وادي التيم خوفا من نزاع نور الدين وصلاح الدين وفتكوا بالفرنج في حاصبيا(٢١) .

وتعاظم دور العرب في الحروب الصليبية ، وقد خشي صلاح الدين أن يستخدمهم الفرنج ويتقووا بهم فكتب الى نور الدين يقول :

« لقص أجنحة الفرنج وفل اسلحتهم وقطع موادهم انه لم يبق في بلادهم احد من العربان بعد ترحيلهم وتبديل ديارهم الى أن صار العدو (الفرنج) اذا نهض لايجد بين يديه دليلا ولا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلا »(٢٢) .

ولما عزم الملك العادل على دخول بلاد الفرنج أمر ولده الاشرف ان يغير عليها ، فاستدعى الاشرف عساكره وحضر عنده عرب طي في ظاهر حلب ووصل اليه أمير العرب مانع بن حديثة في جمع عظيم من العرب من آل الفضل(٢٣) .

ولئن كانت هذه القبائل أداة قوة ضد الفرنج فانها كثيرا ما كانت اداة تدمير وتخريب للمدن الداخلية كحمص وحماة وغيرها(٢٤) .

واشتهر في الفترة من امراء آل الفضل مانع بن حديثة واخوه علي بن حديثة،

وكان لهما دور بارز في الصراع مع الخوارزمية حول حلب والسلمية ، وكانا يتأرجحان بين تأييد سلطة خلفاء صلاح الدين من الامراء الايوبيين ، وبين الانتصار لخصومهم حسبما تقتضيه مصلحة هؤلاء العربان .

٢ ـ العهد المملوكي :

وفي العهد التالي أحضر السلطان الملك الظاهر بيبرس امراء العربان وسلمهم درك البلاد والزمهم حفظ الدروب الى حدود العراق ، وكتب منشور الامرة على جميع العربان للامير شرف الدين عيسى بن مهنا(٢٥) .

وكان لعرب الكرك والشوبك خطورة كبيرة ، وهم من بني عقبة وينتسبون الى قبيلة جذام ، اذ ان هذين الموقعين كانا يشرفان على طريق المواصلات الرئيسي المؤدي الى مصر والى الحجاز (طريق الحج) .

ـ ولم يصرح لاحد من آل الفضل بأمرة العرب الا في أيام العادل أبي بكر أخي السلطان صلاح الدين ، حيث أمر منهم حديثة بن عقبة بن فضل بن ربيعة ، ثم كان بعده مانع بن حديثة الذي توفي عام ٦٣٠ هـ ، وولي عليهم بعده مهنا وحضر مع المظفر قتال هولاكو ملك التتار واقطعه سلمية .

ولما تولى الملك الظاهر بيبرس عند سيره الى دمشق لتشييع الخليفة الى بغداد نبغ عيسى بن مهنا بن مانع بن حديثة في تلك الفترة .

وفي عهد الاشرف خليل بن قلاوون وفد عليه الى دمشق مهنا بن عيسى في جماعة من قومه وقبض عليهم وبعث بهم الى قلعة الجبل في القاهرة حتى افرجعنهم سنة ٦٩٤هـ حيث رجع الى امارته . وكان مهنا يتأرجح بين المماليك والتتار في العراق .

وجاء أخوه فضل بن عيسى الى السلطان الناصر سنة ٧١٤ هـ فولاه مكانه . وبقي مهنا مشردا ثم لحق سنة ٧١٦ بملك التتار فأقطعه الاراضي في العراق . ورجع مهنا الى الشام وبعث بأولاده الى الملك الناصر فأكرمهم واحسن اليهم ورد مهنا الى امارته واقطاعه ، غير ان مهنا عاد الى موالاة التتار فطرد السطان آل الفضل بأجمعهم من الشام وجعل مكانهم في الامرة ، آل علي ، ثم وفد مهنا على السلطان الملك الناصر بوساطة الافضل صاحب حماة فأعاده السلطان الى أمرته السابقة وتوفي سنة ٧٣٤هـ .

وتوالى بنو مهنا على امرة العرب مثل سليمان وسيف وأحمد بن مهنا وفياض وجيار وزامل ومعيقل ثم نعير وعساف وغيرهم(٢٦) .

واشتهر منهم في خلال قرن ونصف عيسى بن مهنا ، ومهنا ونعير .

وكان امراء آل الفضل يدعون بملوك البر واما الامرة عليهم فقد جرت العادة ان يكون لهم امير كبير منهم يولى من الابواب السلطانية ويكتب له تقليد شريف بذلك ويلبس تشريفا أطلس اسوة بنواب المملكة في البلاد الشامية ان كان حاضرا ، أو يجهز اليه ان كان غائبا . ويكون لكل طائفة من هؤلاء العرب كبير منهم يقوم مقام أمير عليهم ، وتصدر اليه المكاتبات من الابواب الشريفة . ولم يكن فيما مضى يكتب له تقليد أو مرسوم ، فكان أول من أخذ الامرة بتقليد من السلطان ، حديثة بن عقبة بن فضل ابن ربيعة(٢٧) .

وكان يكتب بالولاية لامراء العربان في المملكة الشامية ومنهم أمير آل الفضل وامير آمرا وامير آل علي ومقدم قبيلة جرم ، كما كان يكتب ايضا بالولاية لمقدمي التركمان والاكراد ومقدمي الجبلية في البلاد الشامية (نابلس ، لبنان) واتابك طائفة الاسماعيلية بقلاع الدعوة وحاكم الفندق(٢٨) .

ولذا كان ممن يولى عن الابواب السلطانية امراء العربان وهم على طبقات :

الطبقة الاولى وهم ممن يكتب له تقليد « بالمجلس العالي » وهوأمير آل الفضل سواء كان مستقلا بالامارة أو شريكا لغيره فيها ، وصورة ذلك كما ورد في تقليد سنة ٧١٢ هـ : « رسم بالامر الشريف العالي ان يفوض اليه .. ، وليكن لاخبار العدو مطالعا ولنجوى حركاتهم وسكناتهم على البلد سامعا ولديارهم كل وقت مصبحا حتى يظنوه من كل ثنية عليهم طالعا ، وليدم التأهب حتى لا تفوته من العدو غارة ولا غرة ، ويلزم أصحابه بالتيقظ لادامة الجهاد الذي جرب الاعداء منه مواقع سيوفهم غير مرة » .

وقد كتب مرسوم شريف بامرة آل الفضل الى الامير حسام الدين مهنا بن عيسى هذه بعض صورته : « فلذلك رسم أن يعاد الى الامرة على امراء آل فضل ومشايخهم ومقدميهم وسائر عربانهم ومن هو مضاف لهم ومنسوب اليهم على عادته وقاعدته ، آخذا للجهاد اهبته من جمع الكلمة واتحادها واتخاذ القوة واعدادها وتضافر الهمم والزام امراء العربان بتكميل اصحابهم وحفظ مراكزهم التي لا تسد ابوابها الا بهم . والتيقظ لمكائد عدوهم والتنبيه لكشف أحوالهم في رواحهم وغدوهم وحفظ الاطراف التي هم سورها من أن تتسورها مكائد الاعداء ، وتخطف من يتطرق الى الثغور من قبل أن يرفع الى أفقها طرفا او يمد على البعد الى جبهتها المصونة يدا ، وليبث في الاعداء من مكايد مهابته ما يمنعهم من الفرار ويحسن لهم الفرار »(٢٩) .

الطبقة الثانية من عرب الشام ، من يكتب له مرسوم شريف :

المرتبة الاولى : أمير آل علي ورتبته « السامي » ومنزلهم مرج دمشق وغوطتها بين اخوانهم آل فضل وبني عمهم آل مرا ، ومنتهاهم الى الحوف حتى تيمياء .

وصورة الكتاب اليهم : « رسم بالامر الشريف ان تفوض اليه امرة آل علي ، تامة ، عامة ، كاملة ، شاملة ، يتصرف في امورهم وآمرهم ومأمورهم قربا وبعدا غورا ونجدا وظعنا واقامة » .

المرتبة الثانية : بعض امراء آل الفضل : « رسم بالامر الشريف ان تفوض اليه التقدمة على العربان بالشام المحروس وان منازله الداروم من الرستن الى الملوحة والالزام له بذلك . ولهم مخاوض تحفظ (على الفرات) ومفاوز تلحظ (بادية الشام) ومطارح لا تلفظ ومشات ومصايف ونفائض ومصارف ومرابع ومراتع ، فليرتب ذلك أجمل ترتيب وليسلك فيه خير مذهب وتهذيب وليدع العادي ويلاحظ الرائح والغادي وليؤمن ذلك الجانب(٣٠) .

الطبقة الثالثة : أمير آل مراء ورتبته السامي ومنازلهم حوران والجيدور والجولان الى الزرقاء وبصرى حتى مكة .

وصورة الكتاب : (رسم بالامر ان يستقر المشار اليه في .. وقد اقمناه اميرا على آل مرا (مرى) وليقمع المفسد من عربانه ويقابله بالنكال والصالح الخير يجزل له النوال(٣١ . وليأخذ للجهاد هبته ويعجل اليه هبته وليقف من وراء البلاد الشامية المحروسة دريئة لاسوارها المنيعة ونطاقا على معاقلها الرفيعة وسدا من بين ايديها وخلفها لباب كل ذريعة وخندقا يحوط بلادها الوسيعة ولا يفارق البلاد حتى يعبس في وجوهها ولا يعود حتى تؤذن زروعها المخيمة بذهاب ، وليحصل من الخيل كل سابقة تليق أن تقدم الينا ..

المرتبة الثانية : من ارباب المراسيم من العرب ومن يكتب له في قطع الثلث (شكل الورق المكتوب)بالسامي بدون الياء .

ومنهم في الدرجة الاولى امراء بني مهدي ورتبة كل منهم (مجلس الامير) ومنازلهم البلقاء الى علم اعفر وهذه المنطقة مقسومة على أربعة امراء ، وكان يطلب منهم التأهب للجهاد حيث سارت الجيوش المنصورة ..

ومنهم في الدرجة الثانية مقدم زبيد ومنازل بعضهم المرج وغوطة دمشق وبعضهم بصرخد وحوران .

وعلى هذا فان عربان الشام يمثلون جل القوم من القبائل وعين الناس . وكانت عناية الملوك بهم ولا مبالاة بغيرهم . ورأس الجميع آل فضل وآل مراء وآل علي الذين هم من سلسلة قبيلة طي ، والبداءة كانت بآل الفضل اذ كانوا في نحر العدد ولهم العديد الاكثر والمال الاوفر وكان يمثلهم ما بين ٦٥٦هـ — ٦٨٠هـ ، أي في الموجة التتارية الاولى ، عيسى بن مهنـا واستمر في قبيلتـه بقرب الفرات يحفظ المخاضات ويرقب تحرك التتار منها نحو الشام ويجمع الخيول للدولة ويقيم على طاعة السلطان فكان يضاعف اكرام هذه القبيلة وتوفر لهم الاقطاعات ويكتب لهم برتبة : المجلس العالي الاميري في مبتدىء امرهم . ويأتي بعد آل الفضل امير آل مرا (مرى) ، ودون هؤلاء بنو عقبة .

اما بنو مهـدي فيسهمون في قبيلة عـدوان وامرتهم في اربعـة ، وكذلك عرب غزة فأمرتهم آل فضل بن حجي. ورسم المكاتبة الى امرائهم (مجلس الامير) .

ـ اما بقية عرب الشام مثل زبيد المرج وزبيد حوران وخالد حمص والمشارقة وزبيد الاحلاف ، فأجل كبرائهم واشرافهم واشياخهم من يكتب له (مجلس الامير)(٣٢) وقد ترسل الملوك والسلاطين وتوجه « المطلقات » الى الامراء في الشام والى قبائل العرب والتركمان والاكراد وصورتها :

والى كل واقف عليه (أي الكتب المطلقات) من المجالس السامية الامراء الاجلاء المجاهدين المؤيدين الانصار ، الغزاة ، الانجاد ، الامجاد ، امجاد الاسلام ، اعوان الدولة عدد الملوك والسلاطين بالبلاد الشامية وسائر المماليك الاسلامية والثغـوروالحصون والاطراف المحروسة (٣٣)

وهكذا كان يكتب الى امراء القبائل العربية في بلاد الشام ، كل على قدر منزلته وحسب طبقته ودرجته ، مرسوم أو تقليد بالامرة . ويعني حدود هذه الامرة وعلى من تقع ومايلزم الامير ان يؤديه من واجبات ازاء الدولة من الطاعـةوالمناصحة ورصد العدو وجمع الخيول والجمال اذا اقتضى الامر فيالمهماتالداخلية والخارجية، والمسير مع جيوش الدولة لمقابلة اعدائها في الداخل والخارج ، سواء كان ذلـــكفي التجاريد العسكرية الى البغاة والعاصين في الداخل ، او في الغزوات لاعداء الدولة في الخارج ، حيث كانت جيوش السلطنة تنقسم الى اجناد حلقة وبرجيه او بحرية وعرب وتركمان واكراد وغيرهـم ، وحيث كان السلطان يسير بنفسه أو يعيـن من يختاره من جيشه لقيادتها بعد استعداد الخيالة والرجالة والرماة(٣٤) للمسير فيها . واشهر هذه التجاريد غزو قبرص وساهم فيها العربان وعشران لبنـــان عام ٨٢٩ هـ ورحلة يشبك عام ٨٧٥ هـ .

وثمة واجبات عسكرية اخرى تسمى (المهمات الشريفة) ، هي تجري كلما طرأت ضرورة لحراسة ثغر من الثغور أو طرف من اطراف الدولة وحفظه او ما في مثل ذلك ، وكان يعين لقيادتها جماعة من الامراء في استعداد اقل من طريقة (التجاريد) التي كان السلطان او أحد القادة الكبار يسير فيها(٣٥) .

وثمة احصاء دقيق بينه لنا صاحب كتاب (زبدة كشف الممالك) عن عدد اجناد السلطنة ، ومنها عدد اجناد القبائل العربية في زمانه حيث يقول حول عام ٨٠٠ ــ ٨٢٠ هـ :

قبائل العربان :

آل الفضل وهم بنو نعير ٢٤ الفا ، ثم عرب الحجاز ٢٤ الفا، آل علي ٢٠٠٠، عرب العراق ٢٠٠٠،عرب يلمام ٢٠٠٠،عرب الجزيرة ٢٠٠٠،عرب متروك ٢٠٠٠،عرب جرم ١٠٠٠ ، عرب بني عقبة وبني مهدي ١٠٠٠ ، عرب آل مرا (مري) ١٠٠٠ ، عرب جذام عرب العايد ١٠٠٠ ، عرب فزارة ١٠٠٠ عرب متفرقة بمصر ٣٠٠٠ ، عرب هوارة ٢٤ الفا ..

مقدمو العشران (ابناء الفلاحين والعرب المتوطنين في نابلس والقدس وغزة ولبنان وصفد والكرك والشوبك والبقاع وجبة عسال والزبداني وغيرهم) وعددهم ٣٥ مقدما، وقرر عليهم ٣٥ الف خيال (٣٦)

وكانت سياسة المماليك خلال ثلاثة قرون ، الاكثار من عدد الامراء في القبيلة الواحدة خوفا من سلطة واحدة تجمعها وتناوىء الدولة . ولا سيما وان وزن هذه القبائل في المجتمع من حيث التأثير السياسي كان عظيما جدا، وكثيرا ماسببت هذه القبائل مشاكل حربية للسلاطين عندما كانت تميل الى احد الامراء العاصين على الدولة ، أو عندما كانت تقف على الحياد او تمالىء عدوا خارجيا كالتتار ، او الامارات الاسلامية الرومية او التركمانية الكثيرة التي انتشرت في شمال بلادالشام وحتى قلب العراق وفارس .

وكانت السلطنة تستفيد ، لتثبيت هيبتها ، من التنازع المعهود على الامارة في هذه القبائل التي كانت تغزو بعضها في كثير من المناسبات انتصارا لاخ على اخيه في القبيلة او دعما لابن عم على ابن عمه .

وكثيرا ماكانت تشتد الفتن بين هذه القبائل بعضها على بعض ولاسيما ال الفضل فيما بينهم ويشترك في ذلك عشير البلاد الجبلية وغيرها بحيث كانت في اغلب الاحيان

تشكل حربا اهلية مدمرة كانت تجري في دمشق وحلب والقاهرة وغزة ونابلس وحمص وحماه ولاسيما اذا ما ثار على السلطان احد الامراء الكبار وحاول اخذ السلطة لنفسه كما جرى ذلك عشرات المرات في بلاد الشام ، فكانت القبائل العربية ولاسيما ال الفضل تشترك في هذه النزاعات بين المماليك انفسهم وتنتصر اما للسلطان القائم او للامير الثائر ، وكانت ساحة الصراع تمتد من غزة والكرك والقدس ودمشق وعلى طول الصحراء والمدن الداخلية حتى حلب وآمد والرها وانطاكية ، مع ما يعقب ذلك من اضعاف للدولة وافقار المدن وحرق وتقتيل في السكان والجيوش وانهيار في هيبتها . وغالبا ما كانت تنتهي هذه المنازعات والحروب الاهلية بتثبيت سلطة احد الامراء وعودة الامور الى نصابها بعد حروب خراب وتدمير في عدد من المدن والقرى .

وتعج كتب التاريخ في تلك الفترة باخبار وحوادث هذا التدمير والتخريب وتذكر اسماء الامراء والسلاطين الذين وقعوا في الفتنة كما تذكر سلوك القبائل العربية وامراءها ازاء تلك الاحوال وما كان يفعله اولئك الذين زجوا بأنفسهم في الفتنة .

وكانت تكثر هذه الفتن عندما كان يطرق العدو الخارجي حدود الدولة وقد لوحظ ذلك عند مجيء التتار الى بلاد الشام عام ٦٥٨هـ ثم عام ٦٧٠هـ ، ثم قبل مجيء تيمورلنك وبعده .

ـ وكان يؤثر في ميزان القوى عند الصدام مع التتار موقف القبائل العربية وطاعتها . ففي سنة ٦٧٢ / ١٢٧٤ تواردت الاخبار بحركة التتار فرسم السلطان الملك الظاهر للامير عيسى بن مهنا امير العربان باغارة عليهم فوصل الانبار . ولما علم (ابغا) ملك التتار ظن ان السلطان الظاهر قد دهمه ، فرحل بعسكره وانهزم على أسوأ حال(٣٧) وفتح الملك الظاهر بلاد الارمن (سيس) لمظاهرتهم التتار وفي خدمته العساكر وجميع العزبان وعرضهم ركبانا وجرد منهم عيسى بن مهنا والامير حسام الدين الى جهة البيرة بصورة جاليش للعسكر (طلائع) وفتحت مدينة سيس الارمنية ، وسار العشير والعربان الى رأس العين ووقع الرعب في التتار فولوا منهزمين . (٣٨)

وفي عام ٦٧٩ / ١٢٨٠ كان أحمد بن حجي من آل مري ملك العرب في البلاد القبلية، وشرف الدين عيسى بن مهنا ملك العرب بالبلاد الشرقية والشمالية ولما انهزم شمس الدين سنقر الاشقر ، احد الامراء الكبار ، من دمشق اقام عند عيسى بن مهنا ثم توجها الى الرحبة على الفرات .

وكاتب شمس الدين سنقر الملك ابغا التتاري يعرفه ما وقع بين العساكر الاسلامية من الاختلاف وحثه على قصد البلاد بجيوشه ووعده الانحياز اليه (٣٩) وكتب الامير

شرف الدين عيسى بن مهنا الى الملك أبغا بمثل ذلك ، وعند ذلك اخرج الملك المنصور اقطاع عيسى بن مهنا الى الامير فخر الدين عثمان بن مانع من آل الفضل والى الامير محمد بن أبي بكر من آل الفضل الى الامير حسام الدين دراج .

ــ واستقر الحال على ان يكون للامير فخر الدين والامير شمس الدين اميري آل فضل وآل علي وان تكون منزلة فخر الدين عثمان من الرستن الى الملوحة ومنزل شمس الدين من الملوحة الى شط الفرات وان يكون حسام الدين اميرا على ال عامر وأن تكون منزلته من الرستن الى العقابيات وكتب مناشيرهم وتقاليدهم بذلك .

ــ غير ان عصيان عيسى بن مهنا لم يطل فقد عاد من العراق الى خدمة الملك المنصور سيف الدين قلاوون وسأل الصفح عما فرط من ذنبه وما كان عزم عليه من الانضمام الى التتار ، وكان اجتماعه بالملك المنصور بمنزلة (الروحاء) ولما وصل عيسى الى الخدمة ركب السلطان اليه وتلقاه واكرمه وبالغ في اكرامه واحسن اليه .(٤١)

ولما عبر التتار الى الشام وقع المصاف معهم بحمص وهزم التتار ، وكان لال الفضل وال مري وابي ريشة النصيب الوافر في الحا ق الهزيمة بالموغول في عام ٦٨٠هـ / ١٢٨١م ، وذلك في اواخر ايلول واوائل تشرين الاول / الموافق لشهر جمادي الآخرة .

ــ وكان التتار وبقيادة منكو تمر اخي ابغا بن هولاكو ، حيث خرج الملك المنصور من دمشق وبعث الى سائر البلاد بالحضور الى دمشق لملاقاة التتار ولم يتأخر أحد من العربان والتركمان وسائر الاطراف . ونزل الملك المنصور على حمص بالعساكر والجموع وكان مع الموغول الكرج والروم والارمن والفرنج ، حسب ما اورده مؤلف كتاب زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة .

ووقف الملك المنصور في الميمنة وفيها ايضا صاحب حماة وفي رأس الميمنة شمس الدين عيسى به مهنا وآل فضل وآل مري وعربان الشام ومن انضم اليهم . وفي رأس المسيرة التركمان بجموعهم وعسكر حصن الاكراد والجاليش وهو مقدمة القلب وفيه المماليك السلطانية ، وكان الملتقى بين الرستن ونهر العاصي ومجمع المروج في تلك النواحي ، ووقعت ميمنة التتار على ميسرة المسلمين وكسروها ونزل التتار في المروج عند سد حمص وجاءهم عيسى بن مهنا في اصحابه استعراضا وقتلوا من التتار مقتلة عظيمة وانهزمت فرقة منهم باتجاه سلمية والبرية وفرقة اخذت جهة حلب والفرات فجهز الملك المنصور في اثر التتار جماعة كثيرة من العسكر والعربان(٤٢)

وفي هذه المعركة اعلم بعض ال الفضل رؤوسهم بريشة لكي يعرفوا خلال المعركة فسموا بعد ذلك بآل ريشة .

وبعد هذه الوقعة اقبل آل مرى الى دمشق وهم زهاء اربعة آلاف فارس شاكي السلاح على الخيل المسومة وعليهم الكزغندات الحمر والاطلس المعدني والديباج الرومي وعلى رؤوسهم البيض متقلدين بالسيوف وفي ايديهم الرماح وامامهم العبيد تميل على الركائب وبين ايديهم الجنائب ووراءهم الظعائن والحمول(٤٣) .

وكانت الوصايا الدائمة لامراء العرب في تلك الفترة ومن اجل مراقبة تحركات التتار على الشكل التالي وتوجه اليهم من الابواب السلطانية في القاهرة :

استعلم اخبارا العدا في طليعة كل صباح وتأهب لهم ولا تتبدل بالفرات واردا ولا تتبعك المناظر اذا ارسلت طرفك الى سواها رائدا ، واحفظ اطراف البلاد ممن يتولع ببنائها أو يترصد لمرابع اسودها ، ولاتدخل الى البرية الا اذا لم يبق لك بالبلاد مقام .

واما العرب فهو اميرهم المطاع وآمرهم وهم له اتباع فليجعلهم على طاعتنا الشريفة وان يأخذ نفسه واخوته وبني عمه واهله وعترته الاقربين بان يكونوا بالجياد الينا مقربين ..(٤٤)

وفي عام ٦٨٧ / ١٢٨٨ كتب السلطان مرسوما شريفا باسم بدر الدين طيمون بن ريشة الكلبي ان يكون اميرا على عرب الكلبيين وبني كلاب الشاميين المقيمين في ثنية العقاب (٣٠كم شمال دمشق) الى الجهات القبلية خارجا عن بني كلاب ، ثم الكلبيين الشاميين والروميين المقيمين شمال ثنية العقاب المعروفين في حمص وشيزر وحلب وتلك البلاد ، وان يلزم بتحصيل عداد بيوتهم على ما كان علية عديدهم في الايام الناصرية ويكون له من عدادهم المستقر ، الربع ، ومهما ثمره من العداد زايدا عن المستقر في عداد بيوتهم ، يكن له في النصف (٤٥) وثمة وجه سلبي لخروج القبائل العربية عن الطاعة وتشجيع العدو الخارجي ولا سيما الموغل للتعرض لدولة المماليك والجراءة على اقتحامها .

وقبل مجيء تيمورلنك الى بلاد الشام حدثت فتن كبيرة وحرب اهلية بين امراء المماليك اشترك فيها العشير والقبائل العربية وكانت سببا في اضعاف الجيش المملوكي وانقسام السلطنة وطمع الموغول فيها .

وكانت فتنة الامير منطاش والناصري وما وقع فيها من احداث مدمرة وحرب

اهلية ما بين القاهرة وغزة ودمشق وحمص وحماة واللاذقية وحلب من العلائم المتجعة لتيمورلنك في غزو بلاد الشام حيث اشترك فيها الى جانب العصاة على السلطنة امير آل الفضل نعير ومعه عنقا بن شطي من آل مرى(٤٦) ، وما كان يرافق ذلك من اقتتال دام واحراق وتخريب وتقتيل في المدن والقرى وفي كل ساحة البلاد الشامية بدوها وحضرها جندها وعشيرها وتركمانها وعربها .

لقد امتد سلطان ال الفضل الى شاطىء الفرات حتى البصرة ويذكر ابن الفرات ان ولد الامير نعير بن حيار حضر الى الوطاق الشريف واخبر أن والده نعير استولى على بغداد وجلب معه محضرا مثبوتا وانه خطب فيها باسم السلطان الظاهر(٤٧) سنة ٧٩٦هـ / ١٣٩٤ ، وان السلطان ارسل خلعة للامير نعير باستقراره في امرة ال الفضل على عادته .

وكان المماليك يستعينون بالتركمان المنتشرين في شمال بلاد الشام والاناضول ، على القبائل العربية العاصية (٤٨) .

والخلاصة لقد كان للقبائل العربية في بلاد الشام دور سياسي وعسكري بارز منذ القرن الرابع الهجري بتشكيلهم بعض الامارات العربية المستقلة في شمال بلاد الشام مابين الموصل وحلب ثم اقتصر دورهم على اطراف الصحراء وحول المدن يقدمون الدعم والعون للسلاطين حتى العهد العثماني ، وقد اثروا في الحياة الاجتماعية في دولة المماليك والسلطنة العثمانية ، وكانوا اغلب الاحيان في صراع دائم مع المماليك وامتدت انتفاضتهم من صعيد مصر والصحراء الشرقية وبلاد الشام حتى السماوة والبصرة والحجاز ، طورا يلتزمون بالطاعة للولاة والسلاطين ، وطورا يعيثون فسادا ويشتركون في الحروب الاهلية التي كانت تجري باستمرار لكثرة الطامعين في الحكم فضلا عن الصراع القيسي اليمني بين عشران فلسطين وعشران دمشق .

وثمة امر يلفت النظر في اوضاع تلك القبائل العربية وحالتها السياسية اذ انها رغم كثرتها وانتشارها وقوتها العسكرية الكبيرة لم تستطع ان توطد سلطتها العربية في امارات وسلطنات اغلب المسيطرين فيها ليسوا عربا .

ويعود ذلك الى قلة استقرار هذه القبائل في مواضع محددة ذات طابع توطني دائم فكان في مكنتها التنقل والرحيل من بلاد الشام الى العراق وغيرها ، وترك منازلها فلم تستقر في مدينة كبيرة تسيطر عليها بمفهوم الحكم السياسي رغم توفر العصبية التي هي اساس الحكم من اجل انشاء كيان امارة او دولة ذات طابع مدني فكانت تكتفي بفرض الاتاوات على المدن والقرى حيث سادت العقلية البدوية الاعرابية

على ان الجهل وانعدام العلم بمفهومه الديني والدنيوي والتربوي وغياب المـــدارس والتدريس عند هذه القبائل بحيث جهلوا تاريخهم وموقعهم الاجتماعي ولم يدركوا حقيقة هويتهم ، قــد كان مــن أسباب عجزهم عــن حكم البلاد والمواقع التي سيطروا فيها بداوتهم السطحية ، فصاروا اداة في يد غيرهم يتسلطون على غيرهم ويظلمــون انفسهم .

لقد نشأت في عهدهم امارات تركمانية وسلطنات كثيرة مابين شمال الشـــام والعراق وفارس بفئات تركمانية قليلة (القطيع الاسود والابيض) عندما استقــرت في مدن وحواضر كبيرة مع عصبية عرقية ، وعجزت القبائل العربية في نفس الوقت عن اقامة حكم مستقر رغم كثرتها وقوتها وعصبيتها وسعة انتشارها ما بين صعيد مصر والصحراء الشرقية وبلاد الشام والعراق بسبب جهلها وترحلها وضيق نظرتها السياسية الى الحياة العــامة .

انهــا ظاهرة معقدة في تاريخنــا ينبغي جلاؤهــا وتحليلهــا والعكوف عــلى دراستها واستخلاص العبر والنتائج من اسبابهــا لانها ماتــزال تتحكم في تاريخنا الحديث بانعكاساتها المتعددة في مجتمعنا ، واحرى بالمجلة التاريخية وطالبي الدراسات التاريخية في الجامعات العربية ان يتوفروا على استجلائها ورفع الظلال عنهــا لتكون عونا لنا في حياتنا العربية المعاصرة ولا سيمابعد ان حاول الاجانــب ويحاولون استكشاف الثغرات في تركيبنا الاجتماعي ــ النفسي لتسخيره ضدنا والاضرار بنا والافادة من هذا التناقض والتفاوت المتعدد في البيئة العربية .

(١) ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي طبع بيروت ١٩٠٨ ص ١٨٣ ــ ٨١٥ ــ ٢٢٥ ، ٢٣٠
(٢) الذيل ١٨٥
(٣) الذيل ٢٢٥
(٤) تاريخ حيدر الشهابي ص ٣١٦
(٥) نفس المصدر ، ص ٣٢٣
(٦) الذيل ٢٢٥
(٧) الذيل ٢٣٠ ــ ٢٣٦
(٨) الذيل ٣٠٤
(٩) الذيل ٣٠٤
(١٠) الذيل ٣١٢ ، ٣٤٣
(١١) صبح الاعشى ٢٣/٤ ــ ، ٢٠٤ ، ٢٠٨
(١٢) صبح الاعشى ٢٣٢/٤
(١٣) صبح الاعشى ٢٠٤/٤
(١٤) السلوك للمقريزي . طبع دار الكتاب المصري ٤٣٣/١
(١٥) السلوك للمقريزي ــ طبع دار الكتاب المصري ٤٤٢/١ ــ ٤٤٥ ، ٤٦٢
(١٦) صبح الاعشى ٢٣١/٤ ، ٢٣٢
(١٧) تاريخ حيدر الشهابي ص ٣٣٢
(١٨) تاريخ حيدر الشهابي ص ٣٤٧
(١٩) تاريخ حيدر الشهابي ص ٣٥٦
(٢٠) تاريخ حيدر الشهابي ص ٣٤٩
(٢١) تاريخ حيدر الشهابي ص ٣٥٢
(٢٢) مفرج الكروب لابن واصل القاهرة ١٩٥٣ ص ٢٢٥/١
(٢٣) مفرج الكروب لابن واصل القاهرة ١٩٥٣ ص ٢٦٥/٣
(٢٤) مفرج الكروب لابن واصل القاهرة ص ١٧٧/٤ ــ ٢٥٥/٥ ــ ٥٨٢/٥ ــ ٢٨٩/٥
(٢٥) السلوك ٤٦٥/١
(٢٦) صبح الاعشى ٢٠٦/٤ ــ ٢٠٨
(٢٧) صبح الاعشى ٢٥٠/٤
(٢٨) صبح الاعشى ٢٥٢/٩
(٢٩) صبح الاعشى ١٢٠/١٢ ــ ١٢٣
(٣٠) صبح الاعشى ١٢٩/١٢
(٣١) صبح الاعشى ١٣٠/١٢ــ١٣٤

(٣٢) التعريف بالمصطلح الشريف (ابن فضل الله العمري) ص ٧٩-٨٠

(٣٣) التعريف بالمصطلح الشريف (ابن فضل الله العمري) ص ٨١

(٣٤) رحلة الامير بشبك الدوادار مخطوط مصور بالمجمع العلمي بدمشق رقم ٩ يذكر فيه حملة مجهزة بالمدافع خرجت من القاهرة الى بلاد الارمن في كيليكيا واخضعتهم اشترك فيها عشران نابلس والقدس والصقيلبية وعربان ربيعة وامير جرم وعساكر الشام .

ص ١- ١٢- ١٨- ١٩- ٣٥- ٧٤ .

(٣٥) زبدة كشف الممالك : ابن عبد الظاهر ص ١٣٦ طبع باريز ١٨٩٤

(٣٦) زبدة كشف الممالك : ابن عبد الظاهر ص ١٠٥ طبع باريز ١٨٩٤

(٣٧) تاريخ ابن الفرات تحقيق قسطنطين زريق ١٩٤٢، الجزء ٦/٧

(٣٨) تاريخ ابن الفرات تحقيق قسطنطين زريق ١٩٤٢ الجزء ٢٩/٧-٣١

(٣٩) تاريخ ابن الفرات تحقيق قسطنطين زريق ١٩٤٢ الجزء ١٦٩/٧-١٧٢

(٤٠) ابن الفرات ١٧٧/٧-١٧٨

(٤١) ابن الفرات ٢٠٠/٧

(٤٢) ابن الفرات ٢١٣/٧ — ٢١٨

(٤٣) صبـــح الاعشـــى ٢٩/٤

(٤٤) التعريف بالمصطلح الشريف ص ١٠٩ — ١١٠

(٤٥) ابن الفرات ٦٧/٨

(٤٦) ابن الفرات ٢١٢/٩-٢٣٣

(٤٧) ابن الفرات ٢٧٨/٩-٣٨٢

(٤٨) ابن الفرات ٤٥/٩

بيتُ المقدِس
كما صورها ناصر خسرو في رحلته

د . يوسف بكّار
جامعة اليرموك ــ الاردن

ــ ١ ــ

انه لنافلة ان يقال ان دواعي الرحلة والسفر في الاعصر الغابرة قد تعددت وتنوعت ، فكان منها الاطلاع على ارجاء الدولة الاسلامية المترامية الاطراف لوصفها تسهيلا لمهمة الولاة والحكام في تطبيق احكام الشريعة . ومن هنا جاءت دراسة البلدان وخراجها وانبجست فكرة التاليف في ((تقويم البلدان)) .

وكان منها طلب العلم والتوسع في التجارة ، ومن الرحالة من جمع بين الامرين معا . ومنها ما كان يتم عن طريق السفارة والارسال من لدن الحكام . ولعل اداء فريضة الحج كان من اكبرها واوسعها ، وكذلك ((سلوك الطريقة)) (التصوف) ، ومن اكبر الامثلة على هذا الداعي ما كان من امر فريد الدين العطار والغزالي وجلال الدين الرومي .

وليس من شك في ان ما عرف عن الشرقيين ن اكرام الضيف واحترامه . وبساطة العيش وسهولته قد ساعد على تسهيل امر الرحلات آنذاك(١) .

ــ ٢ ــ

في اطار هذه الدواعي او بعضها يمكن ان نسلك رحلة نفر من علماء الفرس وشعرائهم وفلاسفتهم الى المشرق العربي من بلدان الخلافة الاسلاميه . وقد كان في طليعة هؤلاء الاعلام ، غير ناصر خسرو موضوع هذا البحث : حجة الاسلام ابو حامد

* اعد هذا البحث للمؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام ، عمان ، ٤ ــ ٩ جمادي الاخرة ١٤٠٠ هـ/١٩ ــ ٢٤ نيسان ١٩٨٠ م .

الغزالي (٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ) ، والشاعر الخاقاني (٥١٠ ـ ٥٩٢ هـ) ، وفريد الدين العطار (٥٣٧ ـ ٥٨٩ هـ) ، ومولانا جلال الدين الرومي البلخي (٦٠٤ ـ ٦٧٢ هـ) والشاعر المعروف سعدي الشيرازي (٦٠٦ ـ ٦٩١) .

الغزالي كان اقدمهم رحلة الى ديارنا ، وكانت بغداد التي عينه السياسي العجوز والوزير الداهية نظام الملك الطوسي مدرسا في « نظاميتها » عام ٤٨٤ هـ مفتتح اسفاره ، وفيها إقام اربع سنوات ثم تركها الى الشام والقدس ، يقول « واظهرت عزم الخروج الى مكة ، وانا ادبر في نفسي سفر الشام ، حذرا ان يطلع الخليفة وجملة الاصحاب على عزمي على المقام في الشام ، فتلطفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد على عزم أن لا اعاودها ابدا »(٢) .

ففي دمشق نزل بالمسجد الاموي وكان يعتكف طورا ويدرس تارة . وظل هناك سنتين ، وغادرها الى بيت المقدس واقام فيها مدة يقال انه كان يدخل قبة الصخرة يوميا ويغلق بابها عليه . وفي القدس الشريف شرع في تأليف « احياء علوم الدين » . واتمه بدمشق ، وهو الذي نُقل ، بعد ذلك ، مختصرا الى الفارسية باسم « كيماي سعادت » (كيميا السعادة) . ويقال انه الف في القدس ايضا « الرسالة القدسية في قواعد العقائد » وقد كتبها خصيصا لاهل بيت المقدس ، وجعلها قسما من ربع العبادات في « احياء علوم الدين » (٣) .

فأما الخاقاني افضل الدين ابراهيم الذي يلقبه الفرس (حسان العجم) ، فكان الهدف الاول من سفره عام ٥٥٠هـ زيارة مكة للمرة الثانية(٤) . وقد سجل مشاهداته في مكة وغيرها شعرا في مثنويه طويلة اسماها « تحفة العراقين »(٥) (عراق العرب وعراق العجم) ،وقد ضمنها ، فضلا عن مشاهداته ، معلومات كثيرة عن سيرته وحياته . وهي تقع في خمس مقالات : جزء من الثالثة عن العراق وبغداد خاصة ، والرابعة في وصف مكة ، والخامسة في وصف المدينة (٦) وذكر الشاعر « بيت المقدس » و « المسجد الاقصى » غير مرة في ديوانه ايضا (٧) .

اما فريد الدين العطار النيسابوري . فقد اكثر من الترحال وغادر مرتع طفولته فجاب ، فيما جاب ، الكوفة ومصر ودمشق ومكة ، وان ليس ثمة معلومات واخبار عن زياراته هذه (٨) .

وأما جلال الدين الرومي ، فيبدو انه اعتاد حياة الرحلة والسفر والفها منذ نعومة اظفاره ، اذ لقفها عن اسرته التي تركت « بلخ » مسقط رأسها اول مرة عام ٦٠٩ هـ لاسباب يختلط فيها السبب الفكري وهو اختلاف والده بهاء الدين محمد

المعروف بـ « بهاء الدين ولد » مع فخر الدين الرازي ، بالسبب السياسي وهو — فيما يروى — اختلاف الاب ايضا مع حاكم البلاد ، وباسباب اخرى عامة لعل من اهمها شعور الوالد بقرب هجوم المغول ، وقد كان عمر جلال الدين انذاك خمس سنوات . وهكذا طفقت الاسرة تتنقل من مدينة الى اخرى . والذي يهمنا تركها نيسابور الى بغداد ثم مكة ، واهم من هذا ما يقال عن رحيل « مولانا » بعد وفاةوالده عام ٦٢٨ هـ الى الشام للدرس والتحصيل في الوقت الذي كان ينزل فيها الصوفي المعروف محيي الدين بن عربي وان ليس ثمة ما يشير الى التقائه بابن عربي سواء في الاخبار ام في شعر جلال الدين نفسه . بيد أن من المحقق ان « مولانا » تلمذ بدمشق للشيخ برهان الدين الترمذي احد تلاميذ ابيه ، وتلمذ ، بعد وفاة برهان الدين ، للشيخ « شمس الدين التبريزي » ، وهو الذي سمى جلال الدين ديوانه « شمس تبريز » باسمه (٩) .

أما سعدي الشيرازي ، فقد بدأ اسفاره ، فيما يفهم من استنتاجات دراسية من شعره ، قبل عام ٦٢٣ هـ(١٠) حين اضطر الى ترك شيراز ثانية ، وظل يجوب الافاق قرابة ثلاثين عاما ، واقام ، فيما اقام ، ردحا من عمره في العراق والشام ، وقصد الحجاز حاجا (١١) .

— ٣ —

وأما ناصر خسرو (٣٩٤ — ٤٨١ هـ) موضوع بحثنا هذا ، فهو الرحالة الفارسي الوحيد ، فيما اعلم ، الذي كتب عن القدس من بين الذين زاروها من الفرس ووصفها في كتابه « سفر نامه » بالشكل الذي هو عليه الان (١٢) .

لست أراني في حاجة الى الكلام على حياة ناصر خسرو وسيرته ، او على رحلته وقصتها عموما بيد انه لا مندوحة من بضع اضاءات استهل بها حديثي : أولها ان رحلة سبع السنوات التي جاب فيها الرحالة الفارسي الافاق والتي لم يكن مخططا لها ان تطول الى هذا الحد ، كان مبعثها حيرة الرجل وتأملاته ومكاشفاته النفسيةوتعطشه لمعرفة الحقيقة التي لم يستطع ان يهتدي اليها فيما قرأ في الكتب السماوية وغير السماوية ، وفيما سمع من العلماء والفلاسفة (١٣) . وثانيها ، ان ناصرا زار بيت المقدس عن طريق لبنان قبل توجهه الى الديار المقدسة حاجا ، وعاد اليها بعد اداء الفريضة ، ثم عزم على الرحلة الى مصر على ان يغادرها الى مكة من جديد .

وثالثها واخرها ، انه بدا بكتابة اخبار رحلته ومشاهداته فيها من مذكراتهالتي

كان يدونها يوما فيوما ، فقد قال « هذا ما رأيت في جامع بيت المقدس ، فقد صورته وضممته الى مذكراتي » ، والا انى له هذه الدقة في الوصف ، وخاصة في وصف مسجد الصخرة وقبتها والمسجد الاقصى ، وطول النفس في تسجيل الاسماء والارقام فكل هذا مما لا يعلق بالذاكرة ، المدة الطويلة ، التي امتدت اليها رحلته ؟

— ٤ —

كانت أرض « عكة » أول ارض فلسطينية وطئتها اقدام ناصر خسرو ورفيقي سفره ، وهما اخوه الاصغر وغلام هندي . وفي جبل « عكة » زار مشاهد الانبياء ، عليهم السلام ،ثم ذهب الى قرى « البروة » و « دامون » و « اعبلين » حيث قبرهود عليه السلام ، وحطين(١٤) حيث قبر شعيب وقبر ابنته زوج موسى عليه السلام و « اربد »(١٥) ومنها الى « كفر كنه » التي عاد منها الى طبريا ثانية ، وقد وصف في تجواله هذا ما رأى وشاهد من اضرحة ومزارات ومبان وجبال واماكن ، وبحيرةطبرية

وبعد يوم في عكة تركها الى « حيفا » وقد كانت قرية ، فيما يقول . ومنها توجه الى قرية « كنيسة » ثم الى « قيسارية » التي تبعد عن عكه سبعة فراسخ(١٦)، ثم الى « الرملة » ومنها الى «اللطرون»(١٧) و «قرية العنب» حتى وصل الى بيت المقدس في الخامس من رمضان عام ٤٣٨ بعد سنة شمسية كاملة على خروجه من بلده ، لم ير فيها هو ورفيقاه الراحة قط .

نلاحظ باديء ذي بدء ان ناصرا لم يشر ، مثلما اشار الاصطخري قبله ، الى ان الرملة كانت مدينة فلسطين العظيمة الاولى انذاك ، وان بيت المقدس كانت تليها في الكبر (١٨) ونلاحظ ايضا ان الرحالة الفارسي يذكر بشيء من الدهشة والعجب ان « أهل الشام وتلك النواحي يطلقون على (بيت المقدس) بضم الميم وفتح القاف وتشديد الدال وفتحها ـ القدس » (النص الفارسي ، ص ٢٦) ولا غرابة لانالايرانيين الى يومنا هذا لا يعرفونها الا بهذا الاسم «بيت المقدس»(١٩) ، وليس بيت المقدس(٢٠) بفتح الميم وسكون القاف وكسر الدال) مثلما هي الحال عندنا .

— ٥ —

كان ناصر حسرو يهتم في تسجيل اخبار رحلته ومشاهداته بكل شيء : طبيعة البلاد ومناخها ، أبنيتها واثارها التاريخية والدينية ، مظاهر حياة اهلها وعاداتهم وتقاليدهم واحوال عيشهم . بيد ان اهتمامه بالعمارة ووصف المساجد والاماكن

الدينية فاق كل اهتمام ، ويتضح هذا بجلاء في وصفه بيت المقدس وقبة الصخرة ومسجدها والمسجدالاقصى وماشتملت عليه جميعاوصفا دقيقا مدعما بالارقامالدقيقة التي قلما نقع على مثلها عند الرحالة خاصة وعند كثيرين من المؤرخين عامة . يقول كراتشكوفسكي : « ويمثل وصفه لبيت المقدس قسما من أهم اقسام كتابه ، مما مكن لمدنيكوف Mednikov على اساسه أن يقدم وصفا واقعيا للمسجد المعروف بمسجد عمر »(٢١) .

لم يكن الرجل يقنع بما كان يشاهده بنفسه ، انما كان يسأل الناس ويستوضحهم وان لم يكن يأخذ بكل ما كان يسمع ، فما اكثر ما رد من اعتقاداتهم ومعارفهم . وكان يأخذ بالروايات محترسا بمثل قوله « والعهدة على الراوي »و « والله تعالى اعلم » .

— ٦ —

لم يقف الرحالة الفارسي عند وصف مدينة القدس والكلام على حياة اهلها أو على مرافقها المختلفه طويلا ، وكأنه كان يدخر حديثهلوصف معالمها التاريخية والدينية ومع هذا ، فقد سجل لنا عن قدسنا في ذلك الوقت معلومات مختصرة مهمة معرفتها لنا الان ، وانفرد بذكر اشياء لم يذكرها غيره .

فلقد وصف المدينة بانها « مشيدة على قمة الجبل ، وليس بها غير ماء الامطار ، وليست ذات عيون . والمدينة محاطة بسور حصين من الحجر والجص . وعليها بوابات حديدية . وليس بقربها اشجار قط ، فانها على رأس صخر » . ووصف اعمالها وما تتسم به بايجاز ، فقال : وسواد ورساتيق بيت المقدس جبلية كلها ، والزراعة واشجار الزيتون والتين وغيرها تنبت كلها بغير ماء . والخيرات بها كثيرة ورخيصة وفيها أرباب عائلات يملك الواحد منهم خمسين الف (من) من زيتالزيتون ، يحفظونها في الابار والاحواض ويصدرونها الى اطراف العالم . ولئن اكتفى ناصر بذكر الزيت من الصادرات فان المقدسي قبله باكثر من نصف قرن ذكر صادرات اخرى للقدس منها : الجبن والقطن والزبيب والمرايا (٢٢) .

ولم يفصل ناصر القول في اسواق المدينة وصناعاتها ، انما اكتفى بقوله :
وبها اسواق جميلة وابنية عالية .... وفي المدينة صناع كثيرون ، لكل جماعة منهم سوق خاصة .

ومن الغريب ان يغفل ناصر خسرو القادم من « خراسان » الاشارة الى مناخ

القدس وطبيعة هوائها وقد كانت كما وصفها المقدسي « لا شديدة البرد ، وليس بها حر ، وقل ما يقع بها ثلج(٢٣ » في حين ان خراسان كانت ، وما زالت معروفة ببردها وثلجها ، ولقد رسم شاعرنا ابو تمام صورا جميلة لشتائها في لامية(٢٤) يكاد يلخصها هذا البيت :

اذا خراسان عن صنبرها كشرت كانت قتادا لنا انيابها العصل

— ٧ —

انفرد ناصر خسرو بذكر عدد سكان المدينة المقدسة عام ٤٣٨ هـ ، فقال انه كان بها عشرون (٢٠) ألف رجل (٢٥) فانى له هذا الرقم ؟ ولماذا اغفل النساء وغير النساء ان لم يكن المقصود بالرجل شخصا ؟ .

وعلى اية حال ، فان في هذا ما يتلاءم مع ما يقال بأن عدد سكان القدس كان ، حين دخلت في حوزة الفاطميين عام (٩٦٦ م) على اثر احتلال جوهر الصقلي لها ، عشرين الفا من السكان جلهم من الشيعة (٢٦) .

وانفرد ايضا بالاشارة الى انه كان في القدس في العهد الفاطمي مستشفى عظيم عليه أوقاف طائلة ، ويصرف لمرضاه العديدين العلاج والدواء . وبه اطباء يأخذون مرتباتهم من الوقف المقرر لهذا المستشفى .

بهذا يكون الرحالة الفارسي قد اشار الى اثر هام من اثار الفاطميين وصرح من صروحهم العلمية في المدينة المقدسة . وانفرد بذكر هذا المستشفى الذي ليست لدينا معلومات عمن بناه (٢٧) والذي كان اول مستشفى عرفته القدس ، وكان يقوم في الموضع المعروف اليوم بـ « الدباغة »(٢٨)

— ٨ —

ولم يفت ناصرا ان يسجل ما رأى للقدس من مكانة دينية عند المسلمين وغير المسلمين . فأما المسلمون ، فكان يذهب اليها من اهل الشام في موسم الحج من لا يستطيع الذهاب الى مكة ، فيتوجه الى الموقف ويضحي العيد كما هي العادة . ويحضر هناك لتأدية السنة ، في بعض السنين ، اكثر من عشرين الف شخص في اوائل ذي الحجة ومعهم ابناؤهم .

وأما غير المسلمين ، فيذكر انه يأتي لزيارة المدينة من ديار الروم كثير من النصارى واليهود ، وذلك لزيارة الكنيسة والكنيش .

ويذكر ان خلقا كثيرين كانوا يقصدون سهل « الساهرة » املا في ان يموتوا في ارض الميعاد وفقا للاعتقاد الذي كان سائدا ، وهو ان هذا السهل سوف يكون ساحة القيامة والحشر (٢٩) .

ومن اعتقادات العامة التي سجلها ناصر خسرو ما كانوا يعتقدونه عن « وادي جهنم »(٣٠) الذي يبدو أن الرحالة الايراني كان ثالث من ذكره من قدماء البلدانيين ، والاخران هما : ابن الفقيه (٣١) والمقدسي (٣٢) يصف ناصر الوادي بشيء من الدهشة فيقول : « واد عظيم الانخفاض ، كأنه خندق ، وبه ابنية كثيرة على نسق ابنية الاقدمين ورأيت فيه قبة من الحجر المنحوت مقامة على بيت لم ار اعجب منها ، حتى ان الناظر اليها ليسأل نفسه : كيف رفعت في مكانها ؟ ويقول العامة : انها بيت فرعون » .

ويذكر انه سأل عمن سمى الوادي باسمه هذا ، فأجيب ان الفاروق عمر هو الذي سماه به بعد ان رآه حين انزل جيشه في « سهل الساهرة » . اما ماذا كان يعتقد العوام حول هذا الوادي ، فيقول مخبرا ومفندا ما قيل في آن واحد : «يقول العوام ان من يذهب الى نهايته (الوادي) يسمع صياح اهل جهنم ، فان الصدى يرتفع هناك وقد ذهبت فلم اسمع شيئا » .

ومن الطريف ان هذا الاعتقاد مازال حيا في اذهان العامة الى زماننا هذا (٣٣) وليس ببعيد ان يكون منشؤه ، آنذاك ، المقولة التالية التي نقلها ناصر ، ومقولة ابن الفقيه من قبله « وعليه (الوادي) ينصب الصراط(٣٤) » وقد يكون منشؤه ، كذلك ما يروى عن الرسول ، عليه السلام ، من احاديث واخبار في هذا الخصوص . روي عن ابي ذر ، رضي الله عنه ، انه قال : قلت : يا رسول الله ، اخبرنا عن بيت المقدس . قال : « ارض المحشر والمنشر »وعن كعب انه قال « العرض والحساب من بيت المقدس» ، وعن قتادة في قوله تعالى «واستمع يوم ينادي المنادمن مكان قريب »(٣٥) قال : « من صخره بيت المقدس » ، وعن ابن عمر رضي الله عنهما ، في قوله تعالى « فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب (٣٦) » ، قال : هو حائط بيت المقدس الشرقي الذي من ورائه واد يقال له : «وادي جهنم» ومن دونه باب يقال له « باب الرحمة »(٣٧) .

ومن اعتقاداتهم التي يذكرها ما يرتبط بـ « عين سلوان » يقول : « ويقال ان

من يستحم من ماء هذهالعين يشفى مما ألم به من الاوصاب والامراض المزمنة » .
وقد يكون هذا الاعتقاد استمرارا لما عرف عن « عين » كانت عند « عين سلوان » في زمان بني اسرائيل ، هي التي قيل فيها « وكانت المرأة اذا قذفت اتوا بها فشربت منها فان كانت بريئة لم تضرها ، وان كانت نطفة ماتت . فلما حملت مريم حملوها فشربت منها فلم تزدد الا خيرا . فدعت الله ان لا يفضح بها امرأة مؤمنة ، فغارت العين(٣٨) واستمرارا لما وصفت به عين سلوان بانها « من الجنه » (٣٩) .

ومع تركيز ناصر على معتقدات العامة والاكثار منها ، فانه لم يذكر عن اهل فلسطين عامة واهل القدس خاصة شيئا ، وكذا بالنسبة لمراكزها العلمية وعلمائها ، وبالنسبة للفرق والمذاهب الدينية سوى قوله «وفي عرض المسجد، مسجدالصخرة . رواق في حائطه باب خارجه صومعتان للصوفية » ، في حين ان المقدسي وصف اهلها بقوله « ولا اعف من اهلها ، ولا اطيب من العيش بها »(٤٠) ،وقالعن الفرقوالمذاهب وببيت المقدس خلق من الكرامية (٤١) لهم خوانق ومجالس ، ولا ترى به مالكيا ولا داوديا(٤٢) ، وقال : ولاصحاب ابي حنيفة بالمسجد الاقصى مجلس ذكر يقراون في دفتر وكذلك الكرامية في خوانقهم . وكان الحراس يهللون بعد صلاة الجمعة ، ويجلس الفقهاء بين الصلاتين وبين العشائين ، وللقراء مجالس في الجوامع (٤٣) وفي حين ان محيي الدين بن عربي الذي رحل الى بيت المقدس قبل رحالة فارس بحوالي نصف قرن عرض لمدارسها وشيوخها وعلمائها ومجالس المناظرات فيها مع الكرامية والمعتزلة والمشبهة واليهود (٤٤) .

— ٩ —

فأما عن الصخرة وقبتها ومسجدها ، فقد مهد ناصر قبلالكلامعليهابنبذةتاريخية مؤكدا ان المسجد ما بني على حافة المدينة الشرقية الا لوجود(الصخرة)هناك،الصخرة التي امر الله موسى ، عليه السلام ، ان يتخذها « قبلة » وظلت قبلة الى مجيء محمد عليه السلام ، حين امر الله تعالى ، عباده ان يولوا وجوههم شطر الكعبة .وقد بنى سليمان ، عليه السلام، المسجد بحيث تكون الصخرة في وسطه .

ثم سرد حكاية تعليق الصخرة بما قيل ان الرسول (ص) صلى ليلة المعراجفي« قبة الصخرة » ووضع يده على الصخرة ، فلما خرج وقفت اجلاله ، فوضع يده عليها لتعود الى مكانها وتستقر ، وهي نصف معلقة . ويقال انها حين قامت خلا ماتحتها فلما استقرت بقي هذا الجزء كما كان ، وهو الغار الذي تحت الصخرة ،والذييضاء بالشمع دائما .

ووصف الصخرة بانها حجر ازرق اللون لم يطأها احد برجله ابدا ، وفي ناحيتها المواجهة للقبلة انخفاض كأن انسانا سار عليها فبدت اثار قدمه فيها . وعليها اثار سبع اقدام قال انه سمع انها اثار اقدام اسماعيل ، عليه السلام ، لما مشى عليهاحين كان مع أبيه عليه السلام .

وليس من شك في ان الرحالة الفارسي اعتمد فضلا عن مشاهداته على معلوماته التاريخية عن المدينة وما يتصل بها ، لانه كثيرا ما يصدر اخباره ورواياته بكلمة « يقال » ويعلق على بعضها تعليقات تنم عن هذا . يقول عن « قبة السلسلة » : « وهي السلسلة التي علقها داود ، عليه السلام ، والتي لا تصل اليها الا يد صاحب الحق ، اما يد الظالم والغاصب فلا تبلغها » ويعلق على هذا بقوله « وهذا المعنى مشهور عند العلماء » .

وتتجلى « علمية » ناصر خسرو وجلده في دقة مقاييسه وحساباته فيما خلفه من وصف بالارقام لقبة الصخرة ومسجدها والمسجد الاقصى فقبة الصخرة بيت مثمن منظم كل ضلع من اضلاعه الثمانية ثلاث وثلاثون (٣٣) ذراعا(٤٥) ، وله اربعة ابواب على الجهات الاربع الاصلية ... وبين كل بابين ضلع . وجميع الحوائط من الحجر المنحوت وارتفاعها عشرون (٢٠) ذراعا ..

ومحيط الصخرة مائة (١٠٠) ذراع ، وهي غير منتظمة الشكل ، لا هي مدورة ولا مربعة ، ولكنها حجر غير منتظم كحجارة الجبل . وقد بنوا على جوانب الصخرة الاربعة اربعة دعائم مربعة بارتفاع حائط البيت المذكور . وبين كل دعامتين ، على الجوانب الاربعة ، عمودان اسطوانيان من الرخام ، بالارتفاع نفسه . وعلى قمة تلك الدعائم وهذه الاعمدة الاثني عشر (١٢) بنوا القبة التي تحتها الصخرة ، والتي يبلغ محيطها مائة وعشرين (١٢٠) ذراعا ...

والخلاصة ان «قبة الصخرة» كانت ترتكز على اثنتي عشرة دعامة محيطة بالصخرة، يقول « فتراها على بعد فرسخ كأنها قمة جبل لانها من اساسها الى قمتها ثلاثون (٣٠) ذراعا ، وهي تستند الى اعمدة ودعامات ارتفاعها عشرون (٢٠) ذراعا . وقبة الصخرة مشيدة على بيت ارتفاعه اثنتا عشرة ذراعا . واذن فمن ساحة المسجد الى رأس القبة اثنتان وستون ذراعا » .

واذا ما وازنا بين وصف ناصر خسرو لقبة الصخيرة وبين ما هي عليه الان نجد (٤٦) :

أولا : ـ انه كان يوجد بقبة الصخرة اثنان وثلاثون (٣٢) عمودا مستديرا (سوى الدعامات المربعة) ، في حين أن فيها الان ثمانية وعشرين (٢٨) فقط .

ثانيا : يتفق قياس محيط القبة في ايامه مع قياسه الحالي .

واخيرا : ثمة تفاوت بين ارتفاع القبة عند ناصر خسرو وهو (١٢٤) قدما وبين ارتفاعها الحالي (١١٢) قدما .

وليس من شك ان سبب هذا وما اعترى المسجد الاقصى من تغيير يعود الى ما انتاب الحرم القدسي من عوادي الطبيعة في الفترة ما بين المقدسي وناصر خسرو وخاصة زلزال عام ٤٢٥ هـ (١٠٣٣ م) ، اذ تكفل الخليفة الفاطمي الظاهر لاعزازدين الله اعماره في السنة التالية (٤٧) .

وأما « مسجد الصخرة » فذكر انه مبني على حافة المدينة من الناحية الشرقية ، ويطل احد حيطانه على وادي جهنم . ارتفاعه مائة (١٠٠) ذراع من الحجر الكبير الذي لا يفصله عن بعضه « ملاط » أو « جص » . وذكر انه كان ينوي ان يقيس المسجد بنفسه لولا ان رأى عند الجانب الشمالي بجوار قبة يعقوب ، عليه السلام ، طاقا مكتوبا على حجر منه ان طول المسجد سبعمائة واربع وخمسون (٧٥٤) ذراعا ، وعرضه اربعمائة وخمس وخمسون (٤٥٥) ذراعا بذراع الملك (٤٨) .

ولقد ساعده هذا في التفرغ لوصف داخل المسجد وصفا يكشف عن اعجابه بالدقة التي روعيت في تنظيمه . فأرضه مغطاة بحجارة موثوقة الى بعضها بالرصاص ، وفيه رواق عظيم جميل ارتفاعه ثلاثون ذراعا وعرضه عشرون . وله جناحان منقوشة واجهتاه وايوانه بالفسيفساء المثبتة بالجص « وهي من الدقة بحيث تبهر النظر » . وكانت على الرواق كتابة منقوشة بالمينا . وقد كتب هناك لقب سلطان مصر . وفوق الرواق قبة كبيرة من الحجر المصقول ، وله بابان مزخرفان وواجهتاهما من النحاس الدمشقي ، وقد طعما بالذهب وحليا بالنقوش الكثيرة ، وطول كل منهما خمس عشرة (١٥) ذراعا وعرضه ثمان (٨) واسمهما ((باب داود)) . وبعد هذا الباب ، على اليمين ، رواقان كبيران في كل منهما تسعة وعشرون (٢٩) عمودا من الرخام ، تيجانها وقواعدها مزينة بالرخام الملون ووصلاتها مثبتة بالرصاص . وعلى تيجان الاعمدة طيقان حجرية مقامة فوق بعضها بغير « ملاط وجص » . ولا يزيد عدد حجارة الطاق الواحد على اربع او خمس قطع . وعلى اليسار رواق طويل به اربعة وستون (٦٤) طاقا كلها على تيجان اعمدة من رخام .

وجعل يذكر الاروقة والابواب الاخرى ، فذكر : باب السقر ، وبابالاسباط ، وباب الابواب ، وباب الرحمة ، وباب التوبة .

— ١٠ —

وحين وصل الى وصف المسجد الاقصى قال انه اكبر « مرتين »(٤٩) من مسجد « مهد عيسى » وقال : انهم (بنوا به ابنية غاية في الزخرف ، وفرش بالسجاد الفاخر ، ويقوم عليه خدممخصصون يعملون به دواما . والمسجد مشيد على صخرة وارضه مستوية . وهناك ساحة المسجد والجزء المسقوف منه الذي به «المقصورة» ويقع عند الحائطين الجنوبي والغربي وطول هذا الجزء اربعمائة وعشرون (٤٢٠) ذراعا وعرضه مائة وخمسون (١٥٠) . وبه مائتان وثمانون عمودا من الرخام . ثم اخذ يصف تيجان الاعمدة والمقصورة ونقوشها وفرشها ، ويعدد محاريبها واروقتها وابوابها وما تشتمل عليه جميعا بدقة تامة . وذكر ان احد الابواب الخمسة عشر زين « غاية الزينة ، وهو من الحسن بحيث تظن انه من ذهب . وقد نقش بالفضة وكتب عليه اسم الخليفة المأمون ، ويقال انه هو الذي ارسله من بغداد » .

هنا يلتقي ناصر خسرو مع المقدسي مع فارق بسيط هو ان ناصرا ذكر اسم المأمون في حين ذكر الاخر ان رواق الخمسة عشر بابا احدثه عبد الله بن طاهر الذي كان واليا للمأمون على مصر والشام (٥١) .

ويذكر ناصر ان كان عند الحائط الكبير « رواق به اثنان واربعون طاقا ، وكل اعمدته من الرخام الملون . وهذا الرواق متصل بالرواق المغربي . ثم يذكر الابواب الخارجية التي تؤدي الى ساحة المسجد ، وهي : باب النبي في الجنوب ، عرضه عشر اذرع . وارتفاعه يتفاوت حسب المكان ، فهو في مكان خمس اذرع وفي اخر عشرون . والجزء المسقوف من المسجد الاقصى مشيد فوق هذا المر « ويقال ان سليمان بن داود هو الذي بناه ، وقد دخل منه نبينا عليه الصلوات والسلام الى المسجد ليلة المعراج » . وباب العين شرقي في عرض المسجد ، وباب الحطة وهو تحت الارض ، وهو الباب الذي امر الله ، عز وجل ، بني اسرائيل ان يدخلوا منه الى المسجد الاقصى ، فقال « وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم . وسنزيد المحسنين »(٥٢) . وباب السكينة .

ولقد وقف (لسترنج) عند وصف كل من المقدسي وناصر خسرو للمسجد الاقصى فرأى انهما يعطيان معا فكرة واضحة عن المسجد قبل ان يصل اليه

الصليبيون ، بيد ان الفارق الرئيسي بين وصفيهما يكمن في عدد الابواب التي كانت على عهد المقدسي خمسة عشر الى الشمال واحد عشر الى الشرق في حين ان ناصر خسرو وصف سبعة الى الشمال وعشرة مفتوحة شرقا . وقد عزا هذا الاختلاف الى الزلازل التي حدثت في فترة الستين سنة بين زيارة كل من الرجلين للمدينة(٥٢) وهو ما المحت اليه عند الكلام على المتغيرات التي اعتورت قبة الصخرة .

ولا مندوحة من الاشارة الى ان الرحالة المسلم لم يشر من قريب او بعيد الى « باني » المسجد الاقصى . لربما انه كان يدرك حقيقة الاختلاف في بانيه : اهو عبد الملك بن مروان ، فيما يذكر المقدسي ومؤيدوه . من مؤرخي القرنين الثالث والرابع الهجريين ، أم الوليد ابنه فيما يذهب فريق اخر (٥٤) فآثر الا يخوض في مسألة احتدم فيها الخلاف ، والا يحشر نفسه في زمرة من زمر المختلفين ، واهتم بوصف المسجد والكلام على ما فيه ..

غير ان ناصرا التفت الى مسألة هامة ، هي المياه التي كان يعتمد عليها المسجد فقال : « وتحت الارض في الحرم المسقوف حوض يجعل بحيث يكون في مستوى الارض حين يغطى . وقد بني لتجمع فيه مياه المطر .. وقد حفرت في ارض المسجد احواض وصهاريج كثيرة ، فان المسجد مشيد كله على صخرة . فمهما يهطل المطر لا يذهب خارج الاحواض ولا يضيع سدى ، بل ينصرف الى الاحواض وينتفع به الناس . وهناك (ميازيب) من الرصاص ينزل منها الماء الى احواض حجرية تحتها وقد ثقبت هذه الاحواض ليخرج منها الماء ويصب في الصهاريج ، بواسطة قنوات بينها ، غير ملوث أو عفن » .

وجره الحديث عن مصادر مياه المسجد الى الكلام على مصادر مياه المدينة كلها، فقال « وقد رأيت على ثلاثة فراسخ من المدينة صهريجا كبيرا تنحدر اليه المياه من الجبل وتتجمع فيه . وقد اوصلوه بقناة الى مسجد المدينة حيث يوجد اكبر مقدار من مياه المدينة . وفي المنازل كلها احواض لجمع ماء المطر ، اذ لا يوجد غيره هناك ، ويجمع كل انسان ما على سطح بيته من مياه ، فان ماء المطر هو الذي يستعمل في الحمامات وغيرها . ووصف ماء المدينة بانه اعذب وانقى من اي ماء اخر .

مصـــادر البحث ومراجعـــه

أولا : العربيـــة

ـ الاشعري ، ابو الحسن علي بن اسماعيل :
مقالات الاسلاميين ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . النهضة المصرية ، الطبعـــة الثانية ١٩٦٩ .

ـ الاصطخري ، أبو اسحق الفارسي :
مسالك الممالك . طبع ليدن ـ بريل ١٩٦٧ م

ـ ابو تمام ، حبيب بن أوس :
ديوان أبي تمام ، الجزء الرابع . تحقيق محمد عبـــده عزام ، دار المعـــارف بمصر ١٩٦٥ .

ـ ابن الجوزي ، عبد الرحمن :
فضائل القدس ، تحقيق الدكتور جبرائيل جبور . دار الافاق الجديـــدة ـ بيروت ١٩٧٩ .

ـ الخالدي ، احمد سامـــح :

١ ـ اهل العلم بين مصر وفلسطين . الطبعة العصرية ، القدس (دون تاريخ) .

٢ ـ المعاهد المصرية في بيت المقدس . الطبعة العصرية ، القدس (بدون تاريخ) .

ـ الخشاب ، يحيى (الدكتور) :
مقدمة الترجمة العربية لرحلة ناصر خسرو .

ـ الدباغ ، مصطفى مـــراد :
بلادنا فلسطين ، الجزء التاسع ـ القسم الثاني . دار الطليعة ، بيروت ـ الطبعة الاولى ١٩٧٥ .

ـ زايد ، عبد الحميد (الدكتور) :
القدس الخالدة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ١٩٧٤ .

ـ زكي محمد حسن (الدكتور) :
الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، دار المعارف بمصر ١٩٤٥ .

ـ الشرباصي ، أحمد (الدكتور) :
الغزالي ، دار الجيل ، بيروت ١٩٧٩ .

ـ العارف ، عارف :
١ ـ تاريخ الحرم القدسي . مطبعة الايتام ، القدس ١٩٤٧ .

٢ ـ تاريخ قبة الصخرة المشرفة والمسجد الاقصى . مطبعة دار الايتام ـ القدس (دون تاريخ) .

٣ ـ المفصل في تاريخ القدس ، الجزء الاول . مطبعة المعارف ـ القدس ، الطبعة الاولى ١٩٦١ .

ـ ابن عربي ، محيي الدين :
رحلة ابن العربي الى المشرق كما صورها « قانون التأويل » . تحقيق الدكتور احسان عباس : مجلة الابحاث ـ الجامعة الامريكية ، بيروت . السنة (٢١) الاجزاء (٢ و ٣ و ٤) كانون الاول ١٩٦٨ .

ـ الغزالي ، ابو حامد :
المنقذ من الضلال ، تحقيق الدكتورين جميل صليبا وكامل عياد . دار الاندلس . بيروت ، الطبعة التاسعة ١٩٨٠ .

ـ ابن الفقيه ، ابو عبد الله الهمذاني :
مختصر كتاب البلدان . مطبعة بريل ، ليدن ١٣٠٢ هـ (١٨٨٥ م)

ـ كفافي ، محمد (الدكتور) :
مثنوى جلال الدين الرومي ، الجزء الاول. المكتبة العصرية ، بيروت وصيدا ١٩٦٦

ـ المقدسي ، شمس الدين البشاري :
احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم . طبعة ليدن ١٩٠٦ م .

ـ النويري ، شهاب الدين :
نهاية الارب في فنون الادب ، الجزء الاول . طبعة « تراثنا » المصورة عن طبعة دار الكتب (دون تاريخ) .

ثانيــا : الفارسيــة

ـ اميري ، منوجهر (الدكتور) :
آيا سفرنامه ناصر خسرو تلخيصي است ازمتني مفصلتر ؟ (هل كتاب الرحلة تلخيص لنص اطول ؟) بحث في كتاب « يادنامه ناصر خسرو » (ذكرى ناصر خسرو) . مطبوعات جامعة مشهد ـ ايران . مشهد ١٩٧٦ .

ـ الخاقاني ، افضل الدين :
ديوان الخاقاني . تحقيق حسين نخعي ، طهران ١٣٣٦ شمسي .

ـ دبير سياقي ، محمد (الدكتور) :
« نكتة ، أي جندر ياره سفرنامه ومسيرنا ناصر خسرو » (بضـع ملاحظات حول سفرنامه ناصر خسرو ورحلته) بحث في كتاب « يادنامه ناصر خسرو » السابق .

ـ صفا ، ذبيح الله (الدكتور) :
تاريخ أدبيات در ايران (تاريخ الادب في ايران) طهران ، الطبعة الثانية ١٣٥٣ شمسي .

ـ عباسي ، م . محمد لو :
مقدمته لديوان الخاقاني السابــق .

ـ فروازنفر ، بديع الزمان :
« سعدي وسهروردي » (سعدي والسهروردي)بحث في كتاب « سعدي نامه » (كتاب سعدي) . عدد خاص من مجلة « تعليم وتربيت » (التعليم والتربية) . السنة السابعة . اسفندماه ١٣١٦ شمسي .

ـ قزويني ، محمد :
« ممدوحين شيخ سعدي » (ممدوحو الشيخ سعدي) بحث في كتاب (سعدي نامه) السابق .

ـ ناصــر خسرو :
سفر نامه ناصر خسرو . تحقيق الدكتور نادر وزين بور ، طهران ١٩٧٧ .

ـ يوسفي ، غلامحسين (الدكتور) :
ديداري با اهل قلم (في صحبة اهل القلم) الجزء الاول . منشورات جامعة مشــهد ، مشهد ١٩٧٦ .

ثالثا : الاجنبية المترجمة والاصلية

ـ براون . ادوارد :

تاريخ الادب في ايران من الفردوسي الى السعدي ، ترجمة الدكتور ابراهيم امين الشواربي . مطبعة السعادة ، القاهرة ١٩٥٤ .

ـ كرتشكوفسكي ، اغناطيوس :

تاريخ الادب الجغرافي العربي ، ترجمة صلاح الدين عثمان هشام . الجزء الاول لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٧ م .

ـ ناصر خسرو :

سفرنامه (رحلة ناصر خسرو) . ترجمة الدكتور يحيى الخشاب . دار الكتاب الجديد بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٧٠ .

— Le strange, Gy :

Palestine under the Moslems. Beirut, 1965

وترجمته العربية :

فلسطين في العهد الاسلامي ، ترجمة محمود عمايرة . وزارة الثقافة والاعلام ، عمان ١٩٧٠ .

(١) راجع : زكي محمد حسن ، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ٥ – ١٣ .

(٢) المنقذ من الضلال ١٣٧ ، تحقيق الدكتورين جميل صليبا وكامل عياد . وفهم بعض الدارسين من هذه العبارة ان الغزالي حج اولا ثم ذهب الى دمشق والقدس ، انظر ، مثلا :

١ – مقدمة المنقذ من الضلال للمحققين المذكورين اعلاه ، ص ١٢

٢ – مقدمة طبعة دار العلم للجميع من (المنقذ من الضلال) ص ٢١٠ لم يذكر مكان الطبع وتاريخه.

٣ – ادوارد براون : تاريخ الادب في ايران من الفردوسي الى السعدي ٣٦٩ ، ترجمة الدكتور ابراهيم امين الشواربي .

(٣) راجع : احمد الشرباصي ، الغزالي ٤٠ – ٤٢ .

(٩) راجع : ذبيح الله صفا ، تاريخ ادبيات درايران ، الجزء الثالث – القسم الاول ٤٥٣ – ٤٥٥ (ص ٥٥) حيث ذكر انها طبعت بالاسكندرية .

(٤) يقال ان حجته الاولى برفقة عمه قبل ذلك بثلاثين سنة (براون : تاريخ الادب في ايران ٤٩٩ – ٥٠٠) .

(٥) طبعت المثنوية مرتين : الاولى في لكنـــو عام ١٢٩٤ هـ ، والاخرى بطهران عام ١٣٣٣ شمسي من تحقيق الدكتور يحيي قريب .

(٦) يراجع ، لمزيد من التفاصيل : مقدمـــة ديوانه ، ص ٢٣ وما بعدها ، وهي بقلم : م . محمد لو عباسي .

(٧) انظر ، على سبيل المثال : الديوان : الصفحات : ١ ، ١٩ ، ١٦٤ ، ٢٦٩ .

(٨) براون : تاريخ الادب في ايران ٦٤٤ .

(٩) راجع : ذبيح الله صفا ، تاريخ ادبيات در ايران ، الجزء الثالث – القسم الاول ٤٥٣ – ٤٥٥ وبراون : تاريخ الادب في ايران ٦٥٤ – ٦٥٥ ، ومحمد كفافي : مثنوي جلال الدين الرومي ١ : ٣ – ٤ .

(١٠) انظر مقالة « سعدي وسهروردي » في : سعدي نامة ص ٧٧ ، العدد (١١ و ١٢) من مجـلة « تعليم وتربيت » الايرانية ، السنة السابعة ، اسفندماه ١٣١٦ شمسي .

ويرى الدكتور ذبيح الله صفا ان اسفار سعدي كانت في حدود ٦٢٠ – ٦٢١ هـ (تاريخ ادبيات در ايران السابق ، ص ٥٩٢) ، في حين ان محمد قزويني يشك فيما ينسب الى سعدي من شعر في اسفاره ، وفي احدى حكايات « بوستنة » (راجع مقالة : ممدوحين شيخ شيخ سعدي في كتاب : سعدي نامة السابق ، ص ١٦٥) .

(١١) ذبيح الله صفا : تاريخ ادبيات در ايران ٣ (القسم الاول) ص ٥٩٦ ، وبراون : تاريخ الادب في ايران ٦٧٣ .

(١٢) اقول هذا لان ثمة رأيين متضاربين حول الكتاب : خلاصة الاول ان الكتاب قد يكون مختصرا عن الكتاب الام او انه ناقص . ولاصحاب هذا الرأي ادلتهم .

راجع : يحيى الخشاب ، مقدمة الترجمـــة العربية لسفر نامة ص ١٧ – ١٨ ، وغلا محسين يوسفي : « سيرى در افاق » (سير في الافاق) في كتاب ديداري با اهل قلم ١ : ٥٦ و ٥٩ ومنو

جهر اميري : ارا سفر نامة ناصر خسرو لمخيصي سنتاز متبني مفصلتر ((في كتاب)) يا دنامة ناصر خسرو ص ٨٠ ـ ٩٥ .

اما الراي الاخر ، فيرى ان الكتاب عن رحلةناصر خسرو قد وصل الينا كاملا ، ويمثله الدكتور محمد دبير سياقي اكبر المهتميــن بناصر خسرووالمشتغلين باثاره .

راجع خسرو : نكتة اي جند دربار سفر نامةومسير ناصر خسرو ((في كتاب)) يا دنامة ناصر خسرو السابق ص ١٨٠ ـ ١٩٣ وخاصة ص ١٨٣ .

(١٣) ذبيح الله صفا : تاريخ ادبيات در ايران ٢ : ٢٤٦ ، ومقدمة الخشاب للترجمة العربية من سفر نامــة .

(١٤) في الاصل والترجمة العربية : الحظيرة ،وهو تصحيف . والصحيح ما اثبته (معجم البلدان حطين ، وبلدانية فلسطين العربية (٦١ ـ ٦٣)

(١٥) في الاصل والترجمة العربية : اربل (باللام) ، وهو تصحيف ايضا . والصحيح ما اثبته (معجم البلدان ـ اربد ، وبلدانية فلسطين العربية ، ص٥

(١٦) معرب ((فرسك)) الفارسية . والفرسخ يعادل ستة كيلو مترات

(١٧) في الاصل الفارسي : خاتون. وقد صححهايحيى الخشاب عن ((شيفر)) (الترجمة العربية ، هامش ص ٥٥) .

(١٨) مسالك الممالك ، ص ٥٦ .

(١٩) نجد هذا ايضا في : النويري ، نهايةالارب ١ : ٣٢٥ . ويذكر انه سمي بهذا لانه طهر من الشرك وجعل مسكنا للانبياء والمؤمنين .

(٢٠) سمي بهذا ، لانه يتطهر به من الذنوب (النويري : نهاية الارب ١ : ٣٢٥ ايضا) .

(٢١) تاريخ الادب الجغرافي العربي ١ : ٢٥٩ ترجمة صلاح الدين عثمان هشام .

(٢٢) احسن التقاسيم ٨٠ .

(٢٣) احسن التقاسيم ١٦٥

(٢٤) ديوان ابي تمام ٤ : ٥٢٧ ـ ٥٢٩ .

(٢٥) الحملة الفارسية وشهري بزرس است كهان وقت كه ديديم بيست هزار (مرد)
در وى بودند . ومعنى مرد الفارسية رجل .

(٢٦) عارف العارف : المفصل في تاريخ القــدس ١ : ٤٣٠ .

(٢٧) انظر ايضا : احمد سامح الخالدي ، اهل العلم بين مصر وفلسطين ، ص ٧ .

(٢٨) عارف العارف : تاريخ قبة الصخرة المشرفة ص ٢٨ ، واحمد سامح الخالدي : المعاهد المصرية في بيت المقدس ٥ ـ ٦ .

(٢٩) انظر ايضا : المقدسي ، احسن التقاسيم١٧٢ .

(٣٠) راجع تفصيلات اكثر عن هذا الوادي في : مصطفى الدباغ ، بلادنا فلسطين ، الجزء التاسـع ـ القسم الثاني ، ص ١٤ ـ ١٨ .

(٤٦) راجع : عارف العارف ، تاريخ قبة الصخرة ٧٩ و :

(٣٢) احسن التقاسيم ص ١٧١ .

(٣٣) الدباغ : بلادنا فلسطين السابق ص١٦ (الحاشية) .

(٣٤) مختصر كتاب البلدان ١٠١ و ٩٥ ايضا .

(٣٥) سورة « ق » ، اية ٤١ .

(٣٦) الحديد ، اية ١٣ .

(٣٧) ابن الجوزي :فضائل القدس ١٣٦ – ١٣٧، والنويري : نهاية الارب ١ : ٣٣٤ – ٣٣٥ .

(٣٨) و (٣٩) ابن الجوزي : فضائل القدس٩٧ – ٩٨ ، والنويري : نهاية الارب ١ : ٣٤٤ .

(٤٠) احسن التقاسيم ١٦٦ .

(٤١) الكرامية : الفرقة الثانية عشرة مـن المرجئة اصحاب محمد بن كرام يزعمون ان الايمان هو الاقرار والتصديق باللسان دون القلب الاشعري مقالات الاسلاميين ١ : ٢٢٣ .

(٤٢) احسن التقاسيم ١٧٩ .

(٤٣) المصدر السابق ١٨٢ .

(٤٤) راجع : رحلة ابن العربي الى المشرق كما صورها – قانون التأويل – ص ٧٩ – ٨٥ تحقيق ودراسة الدكتور احسان عباس مجلة الابحاث بالجامعة الامريكية – بيروت . السنة ٢١ ، الاجزاء (٢ و ٣ و ٤) كانون الاول ١٩٦٨ .

(٤٥) يذكر عبد الحميد زايد أن كل ضلع من أضلاعه (١٦) ذراعا (القدس الخالدة ١٩٨) .
الدعامة : المربعة المبنية ، ويقابلها بالفارسية « ستون » .

(٤٦) راجع : عارف العارف ، تاريخ قبة الصخرة ٧٩ و :

(٤٧) عارف العارف : تاريخ الحرم القدسي ٤٤ ، وتاريخ قبة الصخرة ٧٨ – ٧٩ .

(٤٨) ذراع الملم يساوي (١٨) بوصة ، وكان يسمى بخراسان ، فيما يذكر ناصر خسرو « كرشايكان » .

(٤٩) أصل الفارسية « دوبا بزركتر از مسجد مهد عيسى » . و « دوبار » تعني « مرتين » . غير أن الدكتور يحيى الخشاب يقول « يعتقد شيفر أنه ينبغي ان يكون النص » ده « بمعنى عشرة بدلاً من » دو « بمعنى اثنين » . (الترجمة العربية ٦١ ، حاشية ١) .

(٥٠) كذا في النص الفارسي ، لكن الدكتور الخشاب يقول « هنا أصلح شفر زاده النص وفق النسخ المختلفة لما في نسخة شيفر من اضطراب » الترجمة العربية ٦١ ، (حاشية ٣) ، بيد أنه لم يذكر هذا الاضطراب .

غير أن لي سترانج يقول ((وأما الطول الذي هو ٤٢٠ ذراعا ويساوي ٤٠٠ قدما فمن المستحيل أن يكون صحيحا ، لأن هذا القياس ان بدأ من الحائط الجنوبي العظيم لمنطقة الحرم تقع الابواب الشمالية مع حائط الأقصى الشمالي فوق قبة الصخـــرة والمنصة فحتى نتجنب هذا الخطأ يجب أن نقرأ الرقم (١٢٠٠) ذراعا بدل (٤٢٠) ، وهذا الرقـــم (١٢٠٠) ذراعا أي (٢٤٠٠) قدما بجعل الحائط الشمالي مع الابواب التي رآها ناصر في المكان نفسه الذي تقع فيه الأبواب والحائط الشمالي للمسجد في الوقت الحاضر)) .

ترجمته العربية : فلسطين في العهد الاسلامي ١١٣ و ١١٥ أيضا .

(٥١) أحسن التقاسيم ١٦٩ ، وانظر : الخشاب ، الترجمة العربية لرحلة نـــاصر خســرو ، ص ٦٢ (حاشية) .

(٥٢) البقرة ، آية ٥٨ .

(٥٤) عارف العارف : تاريخ الحرم القدسي ٤١ .



دور الجمعيات الإصلاحية والنوادي الثقافية

في مجابهة السياسة التعليمية في عدن

خلال تبعيتها للهند (١٨٣٩-١٩٣٧)

الأستاذ سلطان ناجي

عضو مجلس الشعب الاعلى باليمن الديمقراطية

لقد كانت عدن اول منطقة في الجزيرة العربية تتعرض للغزو الاجنبي وتصبح مستعمرة بريطانية عام ١٨٣٩ . وكانت آخر مستعمرة في الوطن العربي تحصل على استقلالها عام ١٩٦٧ . وتحاول هذه الدراسة التاريخ لهذه الفترة الاولى من الاستعمار البريطاني للمنطقة ــ والتي لم يسبق لها أن درست من قبل بالعربية أو الانكليزية ــ أن تبين أسلوب المواجهة التي كان يقوم بها الوطنيون العرب من اليمنيين ازاء السياسة الاستعمارية التي حاول البريطانيون اتباعها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين ، في هذا الجزء الاستراتيجي الحساس من الوطن العربي . وهذا النموذج العربي اليمني للمقاومة هو في الواقع جزء من التصادم الحضاري العام الذي وقع في العصر الحديث بين الحضارتين الغربية والعربية الاسلامية ، عندما تعرضت المنطقة العربية للغزو الاجنبي . بمختلف اشكاله .

لم يبدأ الانجليز في فتح اول مدرسة في عدن الابعد مضي (١٧) عاما من استعمارهم لها . وحتى تلك المدرسة الاولى التي فتحوها عام ١٨٥٦ اغلقت أبوابها بعد سنتين فقط من وجودها . ولم يعد فتحها الا عام ١٨٦٦ ، بمعنى اخر فان الانجليز لم يفتحوا اول مدرسة ابتدائية الا بعد مضي ربع قرن من استعمارهم للمنطقة اليمنية . ومنذ البداية فقد كانت الاهداف من وراء فتح المدرسة سياسية وتبشيرية ومن أجل ((ان تثبت وتنشر تأثيرها في طول وعرض اراضي الداخل ، ثم تجذب أبناء الرؤساء ليقيموا اتصالات مستمرة مع البريطانيين في عدن بالاضافة الى تخريج كتبة عرب للادارة البريطانية ») (١) وفي أول كتاب رسمي أصدره مساعد

---

* اعد هذا البحث للمؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، دمشق ١٦ ــ ٢٢ جمادي الآخرة ١٤٠١ هـ ، ٢٠ ــ ١٦ نيسان ١٩٨١ م

المقيم السياسي البريطاني بشأن مستعمرة عدن عام ١٨٧٧ ، يشير الكاتب بأن من أهداف تأسيس المدرسة الاولى كان أيضا من أجل محاولة تخفيف كراهية اليمنيين وتعصبهم ضد البريطانيين . (٢)

وهذا هو وصف رسمي لحالة التعليم في عدن خلال عشر السنوات الاولى منذ بداية تأسيسه في عام ١٨٦٦ وحتى عام ١٨٧٥ : ((خلال العامين الاولين فان تقدم المدرسة لم يكن مرضيا بأن حال من الاحوال : فمعظم التلاميذ كانوا من ابناء جنود الوحدة الهندية في الجيش البريطاني المعسكرين في عدن . ولم يكن في سجل المدرسة سوى (٦) تلاميذ فقط من المدرسة ذاتها .. وخلال الاربع سنوات الاخيرة فان المؤسسة والتي تسمى (مدرسة الاقامة في عدن) أصبحت تضم تلاميذ من كل الطبقات والمذاهب . وقد بلغ مجموع التلاميذ عام ١٨٧٨ (٦٠) تلميذا وزعوا حسب جنسياتهم كالتالي فرس ٢٩ ، بانيان ٨ ، خوجة ٢ ، مهمن ٧، بهرى ٥، يهود ٣، عرب ٢٥ ، مسلمون هنود ١٥ ، مسيحيون محليون ٦ » (٣) . ومن هذه الارقام يلاحظ بالطبع قلة النسبة للتلاميذ اليمنيين في المدرسة (حوالي ٨٪) وايضا النشاط الواضح السياسة التبشيرية . فالمسيحيون المحليون لم يوجدوا في الواقع الابعد مجيء الاستعمار أي بعد تنصير يمنيين مسلمين سابقين . وعلى كل حال فان مدارس ومستشفيات الارساليات كانت من اوائل المؤسسات في عدن . كما ان عدنا كانت ركز الجمعية الماسونية في الجزيرة العربية حتى الاستقلال .

وبجانب هذه المدرسة الانجليزية فقد حافظ الاهالي على مدارسهم الوطنية الاسلامية الملحقة عادة بالمساجد . كما كان لليهود ايضا مدارسهم الخصوصية . وبالنسبة للوحدات والبطاريات العسكرية فقد كانت لها مدارسها الخاصة التابعة لها . واذا تابعنا تطور التعليم الحكومي خلال ربع القرن الاخير من القرن التاسع عشر فسنجد انه لم تضف سوى مدرستين عربيتين حكوميتين ابتدائيتين . كذلك فقد فتحت خلال هذه الفترة ايضا مدرستان تبشيريتان كاثوليكيتان . وقد بلغ عدد التلاميذ في الثلاث المدارس الابتدائية العربية في اواخر القرن — أي بعد استعمار نحو ستين عاما كاملا — (٢٥٦) تلمذا فقط . اما المدرسة الحكومية الانجليزية فلم يتعد عدد تلامذتها في اخر القرن (٨٨) تلميذا . اما بالنسبة للمنهج فقد أدخلت مادة مسك الدفاتر في المدرسة الحكومية الانجليزية بجانب الدروس المحتوية على التواريخ الابتدائية لانجلترا والهند وروما والكتاب الاول من اقليدس والجغرافية والحساب والجبر . كما ن حصص الدراسات القرآنية قلل منها في المدارس الحكومية العربية مقابل زيادة في المواضيع النفعية على مستوى ابتدائي .(٤)

وفي عام ١٨٩٧ بدىء بنظام مساعدة المدارس الخاصة . وقد بلغ مجموع

التلاميذ في المدارس الحكومية والتبشيرية والخاصة (١٧٦٨) تلميذا .ولم يزد عدد التلاميذ العرب في المدارس الانجليزية عن (١٦) تلميذا فقط ، كما ان عددهم في المدارس الاخرى كان يقل عن النصف . ويقول جافين ((ان التركيب العرقي للصفوف المدرسية قد عكس طبيعة التركيب السكاني لعدن ذاتها . اما النظام التربوي الذي كان سائدا فكان يقوم على أسس تقليدية .))(٥)

لقد كانت عدن هندية اكثر منها عربية في ذلك الوقت . وقد انعكس هذا الوضع على حالة اللغة العربية ومناهج الدراسة . ولم يستطع ان ينكر تلك الحالة المؤسفة البريطانيون انفسهم . فعندما كتب مساعد المقيم البريطاني هارولد جاكوب كتابه (ملوك العرب) في مطلع هذا القرن ، وصف حالة التعليم والثقافة العربية في عدن كالتالي :

من الممارسات المؤسفة في عدن ان يستخدم الكثيرون اللغة الهندستانية . فعدن بسرعة تتهند كل يوم . فالاعلانات التي توضع أمام شبابيك مكاتب البريد هي بالهندستانية أو الجزراتية . وتبدو اللغة العربية وكأنها لغة اجنبية ، ومعظم المدرسين من الهنود ، والمدينة كلها قد نومت تنويما مغناطيسيا واصبحت كلها تعيش تحت نكهة بومبي . ان التاريخ العربي لا يدرس في المدارس الحكومية . فهل نخاف منهم اذا ما درسوا سيرة ابطالهم الوطنيين كما فعلنا مثلا في الهند في وقت من الاوقات عندما حظرنا عبادة شيفاجي ؟ فاذا كانت المدارس الحكومية في الهند الان تعلم الشباب احترام وتقديس شيفاجي ، افليس من الضروري للمؤسسات الخاصة في عدن ان تكون مدارسها الوطنية على نمط المدارس في الهند)) (٦)

بعد ادخال نظام الحماية في الثمانينات من القرن الماضي الى الارياف المحيطة بعدن بدلا من نظام الحماية فكر الانجليز باحكام قبضتهم اكثر على المنطقة من خلال (الدائرة العربية) التي كانت مكلفة بتسييس الشؤون القبلية هناك وذلك عن طريق مشروعي اقامة سكة حديد من جهة وبحاجة امس انشاء كلية لابناء السلاطين والمشائخ من جهة ثانية . فقد طرحت فكرة انشاء الكلية في عام ١٩٠٥ ، ثم أحييت القضية من جديد عام ١٩٢١ ولكن مآلها كان الفشل . وكما يقول الضابط السياسي البريطاني وقتها فان ((الفائدة السياسية من اقامة مثل هذه المؤسسة لتبرر دفع اموال الامبراطورية لفتحها . ان سياستنا في انشاء الكلية ستكون لها عواقب معينة وبعيدة المدى وليست عامة داخل محمياتنا)) ثم يسترسل ويقول :((ان الشباب العربي ينشأ وهو يجهل كل شيء الا الحروب القبلية التي يتشبع بها منذ طفولته . ومن الافضل ان نضع عليهم ايدينا وهم لا يزالون صغارا لان الشباب العربي يمتلك امكانيات كبيرة نستطيع توجيهها))(٧)

منذ انتهاء فترة الحرب العالمية الاولى وحتى انضمام عدن الى وزارة المستعمرات في لندن عام ١٩٣٧ تعاقب على ادارة المعارف في عدن ثلاثة من النظار الهنود المسلمين

استجلبوا من الهند وذلك بحكم ان النظام التربوي كان جزءا من النظام التربوي الهندي حيث كانت مدة الدراسة الابتدائية تتراوح بين ٤ـ٥ سنوات ثم تتبعها المرحلة الثانوية ، التي كانت تستغرق مابين ٥ـ٦ سنوات وفي نهايتها يتقدم الطلبة الى امتحان شهادة الجونير كامبردج والتي لم تكن تؤهل للالتحاق بالدراسة الجامعية او العليا . فماذا كانت حالة التعليم في هذه الفترة ؟ وهذا هو تقييم احد قادة الحركة الاصلاحية في اليمن . ففي عام ١٩٢٣ نشر الاستاذ محمد علي لقمان كتيبا باللغة الانكليزية تحت اسم مستعار بعنوان : « از ذيس اسكراب اف بيبر» (هل هذه قصاصة ورق ؟) (٨) انتقد فيه المؤلف حالة التعليم في عدن ، وذكر ان ٥٠ ٪ من اطفال عدن الذكور لايجدون مدرسة يؤمونها ، وهم يتسكعون في الاسواق ، والامية منتشرة بينهم بينما جزيرة سيشل وسكانها ١١٠٠٠٠ مقابل ٥٦٠٠٠ نسمة سكان عدن ، وتجارتها لاتوازي ربع تجارة عدن تتمتع بكلية ومدير معارف عام الى غير ذلك من تأخر عدن المحزن حتى انهالم تخرج طالبا واحدا يحمل شهادة البكالوريا الثانوية في (٨٤) سنة. ثم اضاف قائلا بأن الفوضى قد ضربت بجرانها في المدارس والكتاتيب . وكانت هذه المدارس على درجة العموم ضيقة ، مظلمة ، فاقدة أصول التهوية الصحية ، قذرة . وكان المعلمون أغبياء لايحمل احد منهم شهادة كفاءة ، رواتبهم حقيرة ، ومقامهم غير محسود . اما برامج التعليم فقد كانت تفتقر الى عدة عناصر هامة كالجبر والهندسة والصحة والجغرافية الطبيعية والعلوم . وكانت اللغة العربية أضعف مواضيع الدروس على الاطلاق . (٩)

اما مدير المعارف العام في بونا في الهند الذي زار عدن في عام ١٩٢٤ فقد كان من نصائحه ان يعفى اولاد الفقراء من دفع الرسوم وبأن تؤسس مدرسة عمومية للصنائع . ثم طالب في رفع مستوى التعليم وكذلك مستوى المعلمين وزيادة مرتباتهم لكي يتفرغوا لواجباتهم بدل الاعمال التجارية لتغطية المصاريف . ثم اضاف قائلا :« من العبث ان ننتظر وفاء واخلاصا من جماعة من الناس يخدموننا برواتب حقيرة» . ولان ارسال اول المبعوثين للدراسة الجامعية في الخارج قدتم في البداية اما بواسطة الاباء انفسهم أو الجمعيات الخيرية فقط ، فقد قال المسترلوري بان من واجب حكومة عدن ان تساعد اهاليها وتقدم لهم النصائح متى ارادوا ارسال اولادهم في بعثات الى الكليات والجامعات في الخارج خصوصا بعد اجتياز شهادة السينير كامبردج او بكالوريا لندن .(١٠)

وحتى اشهر هؤلاء النظار الهنود في هذه الفترة وهو الاستاذ عطا حسين فقد كان يعتقد ان غاية النظام التربوي في عدن « لم تكن تتفق والغرض الانساني العام . فقد كانت المدارس ترمي الى اعداد الطلبة للالتحاق بخدمة الحكومة . ولذا فان عددا

كبيرا من الشبان الذين لم تكن لديهم المؤهلات لهذه الخدمة وجدوا انفسهم مدفوعين الى البطالة بعد مغادرة المدرسة . وكانت الدروس لاتتعدى اللغة الانجليزية والحساب وقليلا من الجغرافية السياسية او تاريخ الهند السياسي او تاريخ الامبراطورية .ولم تكن المدارس تعنى بالثقافة العامة ، ولم تكن تعنى بتنمية الذكاء وشفوف الحس بين ابناء المدارس بتدريس الاداب والفنون الا قليلا . وكان الاهتمام بالغا حده في تشجيع الحفظ بصورة ميكانيكية والترديد المقيت لايكسب الطالب شخصية مستقلة . وكان من رايه ان تمنح المعارف في عدن ابناءها تعليما تحرريا . »(١١)

وفي ايام هذا الناظر الجديد (١٩٢١- ١٩٣٠) أدخل نظام التعليم في المراحل الاولى من المدرسة الثانوية الوحيدة باللغة العربية . وعين اول مساعد عربي له من فلسطين هو الاستاذ طاهر حمزة . وقد قدم الاستاذ حمزة جهودا طيبة في سبيل ترقية الادب العربي واللغة العربية . « فسعى لنشر محاسنها ودعا المعلمين لتعليم النحو واللغة » . وكان هذا الفلسطيني اول من نصح بفتح اول مدرسة ابتدائية للبنات(١٢) . وفي أيام هذا الناظر الهندي أيضا عين الاستاذ كامل عبدالله صلاح ، أحد رجال الدين المشهورين من الحجاز مديرا للمدرسة الحكومية الابتدائية ، فأدخل التعليم الديني لاول مرة ، الا انه لم تكن تعطى علامات للمادة في نتائج الطلبة .

والحقيقة ان هذه الخطوات التي اتخذت في طريق الاهتمام باللغة العربية لم تأت الا نتيجة مطالبة مستمرة من قبل اليمنيين الذين كانوا يشعرون كالغرباء في مدارسهم . وقد سجل لنا احد الحكام البريطانيين في مطلع الثلاثينات من هذا القرن هذا الحديث المرير مع احد أعيان عدن حول الحالة التعليمية والثقافية انذاك . قال الشيخ اليمني للحاكم البريطاني مايلي :

« ماذا عملت لنا الهند ؟ لاشيء . متخلفون ، متخلفون جدا ، والذنب ذنب الهند تماما . ان التعليم ضروري ، ضروري لكل الشعوب ولنا بدرجة اكثر من الجميع لاننا لانملك شيئا منه . لقد رأيت المدارس بنفسك ، ورأيت الهنود الذين يقومون بالتدريس أين العرب المدرسون ؟ آه ! اعرف انك ستجيب بأن علينا ان نصبر لانه ليس عندنا في عدن ، وانه في الامكان جلبهم من البلدان العربية الاخرى ، وانه الى ان يكون لنا مدرسون قديرون للغتنا فلن نحرز اي تقدم . ان احد اولادي الذي يدرس حاليا في ادنبرة ، قد فشل في الامتحان وان المادة التي فشل فيها كانت اللغة العربية . ان الامر مخز ومن اجل ذلك الخزي يجب ان نشكر الهند . نحن لسنا جزءا جغرافيا من تلك البلاد ولسنا شعبا واحدا ، ولانتكلم لغة واحدة . » (١٣)

ان المطالب اليمنية انذاك والتي كانت بسبب عدم وجود الاحزاب السياسية او الصحافة تعبر عن نفسها عن طريق النوادي وخاصة الاصلاحية فيها ، لم تقتصر على المطالبة بوجوب الاهتمام باللغة العربية واعداد المعلمين الوطنيين ، وانما شملت أيضا

المطالبة بالاستقلال عن الهند والتبعية مع لندن . فمنذ «العشرينات من هذا القرن ، وبسبب امكانية استقلال الهند بدأ الانجليز يعملون تدريجيا على محاولة سحب عدن النهائي من تحت الحكومة الهندية . وبدأت اصوات المسؤولين ترفع الان شعـــــار ان عدن عربية وان مستقبلها مع أهل الجزيرة وليس مع الهند . وهذا الاتجاه الجديد أثار بالطبع مخاوف الهنود، مسؤولين وتجارا وموظفين، لان تحويل عدن من تحت الهند لن يكون في صالحهم » . (١٤) وكانوا يسخرون من فكرة اعداد معلمين وطنيين ويظنون « ان ابناء عدن تشربوا بالمبادىء السياسية المتطرفة » .(١٥)

وكانت الاصوات ترفع أيضا من قبل الاباء ورجال الاصلاح بأن « طلبة المدارس يعيشون في وسط يفسد عادة ماتصلحه المدرسة». كما طالبوا بالحاح «في أن ترقى الرياضة البدنية في المدرسة رقيا مطردا وتصبح اجسام الطلبة قوية صحيحة »وكانوا يستغربون عدم تدخل ادارة المعارف في القضايا التي تمس اخلاق الطلبة وتربيتهم كالسينما .« فالافلام السينمائية الهندية التي تعرض على الاطفال افلام تجارية تعرض الوان السحر والشعوذة والدجل . وتعرض صنوف النهب والسلب والاغراء » . (١٦)

اما ارسال أولى البعثات الدراسية الى الخارج فلم يكن للحكومة فيه نصيب وانما تم كل ذلك بواسطة النوادي الثقافية والجمعيات الاصلاحية والآباء . لقد كان نشوء الجمعيات والنوادي الثقافية في عدن مباشرة بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى متأثرا الى حد كبير بالحركة الاصلاحية التي كانت قائمة انذاك في بعض البلدان العربية كمصر وسورية ولبنان وفلسطين . ففي عام ١٩٢٥ زار عدن الاستاذ عبد العزيز الثعالبي واقترح تأسيس ناد ادبي عربي فيها . فتأسس (نادي الادب العربي) برئاسة الشاعر والمؤرخ والفنان المشهور الامير أحمد فضل القمندان . وكان مديره الاستاذ محمد علي لقمان . ولما انتشر وباء الجدري والطاعون في عدن مابين عامـــي ١٩٢٧ ـ ١٩٢٩ قام اعضاؤه بجمــع التبرعات الكبيرة للمرضـــى . وفي الاخيــر اقتصرت أعمال النادي تقريبا على الحفلات التكريمية واستقبال الشخصيات العربية عند زيارتهم لعدن . والحقيقة انه يمكننا ان نرجع بوادر الوعي الثقافي في عدن الـــى قبل نشوء (نادي الادب العربي) ، وبالذات الى مستهل القرن العشرين . لقد كان الشعور الاسلامي قويا بين أوساط سكان عدن في مطلع هذا القرن وذلك بحكم تداولهم آنذاك للصحف والمطبوعات العربية . فلم ينته الانقلاب العثماني عام ١٩٠٨ الا وكان الناس يتداولون الصحف المصرية ، ثم يتجادلون في قضية السلطان عبد الحميد وجمعية الاتحاد والترقي . (١٧)

وفي عام ١٩٢٩ تأسس (نادي الاصلاح العربي) ، ثم تبعه في عام ١٩٣٠ (نادي الاصلاح العربي الاسلامي) وانضم اليه الجم الغفير من الوجهاء والشبان . وكان من

اهداف هذا النادي العمل لرفع مستوى الاخلاق ونشر العلم وتنشيط المعارف . كما ان اعضاء النادي « سعوا للاتصال برجال العرب في جميع اوطانهم وشادوابذكر ماكان للعرب من مقام في التاريخ واثاروا الرغبة الكامنة في النفوس باحياء أيام العرب ونشر محاسن الاسلام » .(١٨) وقد افتتح اعضاء نادي الاصلاح العربي مدرسة في الشيخ عثمان وكان يديرها العلامة الشيخ المعروف احمد العبادي الوهابي النزعة. وقد تخرج على يديه خاصة من حلقاته الخاصة اشهر علماء عدن . وقد الف الشيخ العبادي منظومة علق عليها الشيخ البيحاني اسمها (هداية المريد الى سبيل الحق والتوحيد) طبعت فيمصر ونشرت فيعدن وغيرها من الاقطار الاسلامية في سنة١٩٣٩ . وقداحتوت المنظومة على حقائق علمية تحث على توحيد الخالق وتنهى عن البدع والخرافات وانواع الشعوذة . وقد اثارت افكار العبادي بعض العلماء التقليديين فحاولوا قتله عند باب مسجده .

وقد سبق ان تعرض للقتل في عمان بعد ان الف منظومته (السهام الدقيقة على كشف الحقيقة) خالف فيها الاباضية والخوارج . والحق فقد كان « دور العبادي في ايقاظ الفكر الديني وفي مجال التربية والتعليم وفي مضمار النشاط الاجتماعي ومناهضة الاستعمار دورا بارزا » .(١٩)

ومن الامور الطيبة التي قام بها (نادي الاصلاح العربي الاسلامي) هو ان رئيسه كتب عام ١٩٣٦ كتابا طويلا الى غازي الاول ملك العراق شرح فيه حاجة اهالي عدن الى مثقفين وطلب منه ان يقبل عشرة من ابناء عدن ليلتحقوا بمدارسها . فقبل الملك غازي بذلك وسافرت اول بعثة دراسية الى العراق في ذلك العام مكونة من ثمانية اعضاء ، ثم لحقتها بعثتان فيما بعد الاولى الى العراق وعدد اعضائها خمسة والاخرى الى مصر وعددها ثمانية .(٢٠)

ثم قامت جمعيات ونواد اخرى . وكانت معظم هذه النوادي الثقافية تهدف في البداية الى«الالتفاف حول رئيس والتفاني في طاعته لخدمة هذا الوطن البائس ، وتأليف وحدة عربية اسلامية توعو الى الحث على مكارم الاخلاق ، ورفع مستوى البلاد ، والوعظ المستمرفي المساجد والنوادي ، ومقاطعةالسكارى وتشجيع التمثيل الحر ، وايجاد العمل للعاطلين ،والدعوة لتشجيع الزواج ، وتخفيف مهور البنات، ونشر العلم ومطالبة الحكومة بتسهيل الوصول اليه وتعليم البنات ...)) كماان بعض أعضائها كانوا يعطفون على القضية العربية ويرون فيها الشفاعة الكبرى . ويحدبون على الام العرب وامالهم ويجمعون بين فترة واخرى التبرعات لمنكوبي الزلزال في فلسطين والمنكوبين بالطليان في طرابلس ، ويكرمون رجال العرب الذين يزورون عدن. وأهم ماأحدثته هذه النوادي هي اليقظة التي شعر بها الناس عموما في هذا البلد

والوعي القومي الذي تغلغل في نفوس بعض المخلصين فاكسبهم روحا وطنية امنت بحقها فقامت تسعى له . (٢١)

وعندما زار الكاتب المجري لاديسلاز فاراجو عدن عام ١٩٣٧ ترك لنا وصفا دقيقا للحياة الثقافية والسياسية والاجتماعية فيالمستعمرة وذلك في كتابيه (العربي الغريب)و(لغز بلاد العرب) يقول فاراجو : « اخذني على ـ دليل المؤلف ـ الى كثير من النواديالعربية ، وبدأت اعيش حياة المثقف العربي . ففي عدن يوجد اكثر من ١٢ ناديا من هذه النوادي ، الا ان اهمها هو (نادي الادبالعربي) ..وكانت السياسة محظورة رسميا فيهذه النوادي ، وقد اصر كثير من اصدقائي العرب بأن القصد منها كان للاغراض الاجتماعية فقط . ومع ذلك فان يقظة الفكر السياسي العربيفيعدن قد تشكلت في هذه النوادي . فالمناقشات كانت دائما تدور حول مواضيع مثل التأثير المتنامي لايطاليا في شمال افريقيا والبحر الاحمر . ومعاناة العرب في فلسطين .. وكانت جدران هذه النوادي التي تدعي انها نواد غير سياسية مغطاة بشعارات سياسية صارخة امثال «بلاد العرب للعرب» او «ياعمال بلاد العرب اتحدوا»اوبصور مثيرةمنزوعة من صحف مصرية تبين اعمال ارهاب يمارسها جنود احدى الدول الاوروبية ضد عرب يعذبون .. وفي الشوارع الضيقة للسوق في عدن قابلتممثلين لكل البلدان العربية تقريبا . لقد قابلت لاجئين من سوريا وتونس وليبيا ومصر والسعودية وفلسطين .. ومن بين الهاربين من بلاد العرب وجدت لاجئا من العائلة المالكة الهاشمية هو السيد الدباغ . وبالباقي من ثروته الضخمة يقوم الان بالصرف على مدرسة عربية في عدن وكتابة رسائل لاحصر لهاالىالسعوديةلتنوير اصدقائه . وقد رافقت السيد الدباغ الى محاضرة عربية حيث قام احد اللاجئين التونسيين بتقريع الفرنسيين ، وبعدها في المساءذهبت الى اجتماع حيثقام عربي منمقاديشو ، لاشك أنه كان مأجورا ايطاليا ، يتكلم عن بركات الفاشية ودعا موسوليني ب « سيف الاسلام » (٢٢)

كما اننا نجد المجلات العربية تنتقد السياسة التعليمية في عدن . فمثلاكتبت (مجلة الرابطة العربية) في عام ١٩٣٨ مانصه : « لايزال مدير المعارف في عدن يقتل الروح الاسلامية العربية في مدارس الحكومة بكل الوسائل ، وجل جهوده ومراميه ان يكون برنامج المدارس استعماريا صرفا ... واشتد النكير والتضييق على المدارس الاهلية سيما مدرسة الفلاح الاسلامية العربية المعروفة بنزعتهاالوطنية الصادقة في تعليمها واناشيدها خاصة بعد حادثة الرحلة التي قامت بها بعثة الفلاح في أراضي لحج ويافع » (٢٣) ان اهم ما فعلته تلك النوادي والجمعيات كان يتعلق بمجال التعليم

وبالذات ارسال البعثات الى الاقطار العربية الاخرى على حساب حكومات تلك الاقطار فمثلا من الرسالة التي وجهها رئيس نادي الاصلاح العربي الاسلامي الاستاذ احمد الاصنج الى الزعيم السوداني عبد الرحمن المهدي عام ١٩٣٧ نلمس الشكوى العامة من ضعف مستوى التعليم والثقافة العربية في المستعمرة . تقول الرسالة :

«..وبعد فاني ارفع الى فضيلتكم ان عدن كما تعلمون الثغر الطبيعي لليمن كلها من اقصى العربية السعيدة غربا الى اخر حضرموت شرقا ، والاكثرية الساحقة من سكانها عرب مسلمون .

ابناء العرب في هذه الديار في ديجور حالك من الجهل ، والتعليم هنا على وجه العموم لايسمن ولايغني حيث يخرج الطالب من المدرسة الثانوية لايحسن العربية (وهي لغته) ولا يجيد الانجليزية (وهي اللغة الرسمية) . وكل ما هنالك علوم سطحية لاتقوم بالحاجة . ويكفي ان أقول انه لايوجد في عدن كلها طبيب او مهندس او محامي ولااستاذ في التربية والتعليم من ابناء العرب . ولهذا فقد استحوذ على مرافق البلاد وخيراتها الاجانب واصبح العربي فيها ليس الا غرا جهولا ، يقاسي الام الجوع والفاقة لهذا رأينا ان لا سبيل الى انتشال ابناء المسلمين من هذه الهوة السحيقة الا بالعلم فالتجينا الى ملوك المسلمين وعظمائهم من اهل الفضل ، فكان ان قبلت حكومة جلالة ملك العراق المعظم عددا من الطلاب يتلقون لعلم في العراق على نفقتها كون الطلبة من الفقراء ، كما ارسلنا البعض الى الهند ايضا ، وهانحن اليوم في مخابرة مع حكومة جلالة ملك مصر المعظم بهذا الصدد .

ولما كنتم فضيلتكم من زعماء المسلمين المعدودين ، ومن الذين اشتهروا باعمال البر والاحسان ، ترانا نتقدم الى فضيلتكم بهذا الالتماس راجين من مكارم اخلاقكم بأن تفكروا فيما نقاسيه من الويلات ، وان تمدوا لنا المساعدة في انقاذ شباب المسلمين بأن تتقبلوا بقبول عشرة من ابنائنا ليتلقوا علومهم العربية والانجليزية في كلية غردون أو في اية مدرسة او جامعة تختارونها فضيلتكم في السودان او مصر .» (٢٣)

واذا اخذنا اعداد الطلبة الموجودين في مدارس عدن في منتصف الثلاثينات ، اي قبيل انضمام عدن الى وزارة المستعمرات ، وبعد مضي حوالي مئة عام من الاستعمار أو التبعية للهند ، سنجد انها كانت قليلة للغاية : فالمدارس الابتدائية الحكومية في المستعمرة لم تزد عن (٤) مدارس ، أما المدارس الابتدائية المعانة فكانت (٦) مدارس فقط . وكان مجموع طلبة هذين النوعين من المدارس اقل من (١٦٦٦) تلميذ . اما تلامذة الكتاتيب أو المدارس غير المعترف بها بما في ذلك بعض مدارس الاقليات فكانت حوالي الالفين (٢٤) ، كما ان طلبة الثلاث مدارس الانجلو ـ محلية (أي ذات الاقسام الثانوية) لم يزيدوا عن (٢٠٠) طالب . وكانت الدراسة في هذا النوع الاخير من المدارس فيما عدا الثلاث صفوف النهائية تعطى بواسطة لغة الطلبة التي يتكلمونها كالعربية والجزراتية . وعلى الرغم من ان السكان العرب كانوا هم الغالبية فانهم كانوا من حيث اعداد الطلبة اقل تمثيلا من بقية الجاليات كالهنود واليهود . اما ماكان

يصرف من ميزانية المستعمرة الضئيلة على التعليم فلم يتعد نسبة ٥٪(٢٥) .

وقبل ان تنتقل عدن الى التبعية المباشرة لوزارة المستعمرات في لندن في عام ١٩٣٧ ، نجد انالانجليز قد استطاعوا في الاخير تحقيق هدفهم الذي استمر يراودهم منذ احتلالهم لعدن ، وهو انشاء (كلية ابناء الرؤساء) أو (مدرسة جبل حديد) فيعدن. والحقيقة ان تبعية المحميات لوزارة المستعمرات كانت قد سبقت عدن بعشر سنوات وذلك عام ١٩٢٧ . ومنذ ذلك الحين بدىءفيتكثيف السياسة البريطانية وتدخلها المباشر في الارياف . فمن ناحية سياسية اصبح للمحميات جهاز سياسي قوي ، تطور فيما بعد الى داري الاعتماد والاستشارة في كل من المحميات الغربية والشرقية ، ومن ناحية عسكرية انشأ الانكليز قواتجديدة تمثلت (بجيش الليوي) و(الحرس القبلي) و(الحرس الحكومي)وذلك لخدمة تنفيذ سياستهم الجديدة ومن أجل تعزيز ودعم سلطة الامراء والسلاطين .

وكانت تلك القوى الثلاث تعمل وتتبع سلاح الطيران البريطاني وداري الاعتماد والاستشارة(٢٦) ثم اضيف الى هذين الجهازين السياسي والعسكري المكلفين باخضاع الارياف جهاز ثالث هو الجهاز التربوي السياسي الذي تمثل بـ (كلية ابناء الرؤساء) وقد تم افتتاح تلك الكلية في عدن في ابريل ١٩٣٥ .

وكما قال المستشار البريطاني المقيم المكلف برسم سياسة تلك الكلية والاشراف على فتحها فان ما كانوا يريدونه « رئيسا يجب ان لايكون متعلما تعليما عاليا » ،ولم يكن المطلوب اعطاء خريجيها « ثقافة ادبية عالية وانما فقط ما فيه الكفاية من اللغة الانجليزية تمكنهم من الاتصال بضباط سلاح الطيران الملكي والزوار الاخرين الذين لا يعرفون العربيه » أما المستوى المطلوب للعربية « فهو ان يكون بمقدور التلميذ كتابة رسالة مفهومة »(٢٧) أما بالنسبة لمدير ومدرسي المدرسة فقد جلبوهم خصيصا من السودان وجزيرة زنجبار في شرق افريقيا لانهم « يمتلكون الادراك لفهم الهدف من وراء المدرسة » . كما قال انجرامز .

ان اهمية انشاء كلية ابناء الرؤساء بالنسبة لسياسة اخضاع المحميات كان كبيرا . فمن المقدمة الجديدة التي نشرها انجرامز لكتابه بعد مضي حوالي(٢٥) عاما على طبعته الاولى ، تبين لنا بأن انجرامز قد هدد بالفعل السلطان الكثيري بمغادرة البلاد مالم يواصل اولاده دراستهم في كلية ابناء الرؤساء . كما ان تهديده للسلطان بمغادرة حضرموت قد جعل بعض انصار المستشار البريطاني من الحضارمرؤساء القبائل يعرضون عليه فكرة تنحية السلطان الكثيري وتنصيب انجرامز نفسه سلطانا على الدولة الكثيرية في منطقة حضرموت !(٢٨) وكما يقول مؤلف كتاب (لغز بلاد العرب) الذي زار الكلية عام ١٩٣٧ فان تلك المدرسة كانت تعد حوالي « اربعين سلطانا محتملا

لوظائفهم كحكام في المستقبل » . ثم يضيف الكاتب قائلا : « وكانت نظرية المستر انجرامز (المستشار البريطاني المقيم) هو انه سيكون اسهل بان تحكم البلاد اذا مانشىء الحكام المحليون الى طور الرجولة تحت التأثير المباشر لبريطانيا » (٢٩)

ان حكومة المستعمرة لم يكن لها يد في ارسال البعثات الى الخارج خلال تبعية عدن للهند . وكذلك كان حالها في السنوات الولى من تبعيتها المباشرة لوزارة المستعمرات فالاربعة الجامعيون الذين عادوا الى عدن بنهاية هذه الفترة كان قد تم ارسالهم من قبل ابائهم او الجمعيات التبشيرية أو بجهودهم الخاصة . فقد تخرج احدهم كطبيب من بريطانيا بعد ان تم تنصيره (احمد سعيد عفارة) والثاني كمهندس (محمود مكاوي) والثالث بكالوريوس اداب من الجامعة الامريكية في بيروت (محمد عبده غانم) . اما الرابع (المستر حسين حمود) فقد تخرج في الطب الطبيعي او الشعبي من « جوامع الهند »(٣٠) وبالنسبة لمبعوثي الجمعيات الاصلاحية والنوادي الثقافية الى العراق ، ومصر والهند فسنراهم يتخرجون بانتهاء الحرب العالمية الثانية ، أي بعد حوالي عشر سنوات من انتهاء هذه الفترة التي نتكلم عنها

والحقيقة ان التعليم بعد تبعية مستعمرة عدن للندن عام ١٩٣٧ لم يتقدم تقدما كبيرا كما كان متوقعا وذلك على ضوء اعلان بريطانيا بانها قد خصصت مالية خاصة برفاهية المستعمرات . وبالطبع فان جهود النوادي والجمعيات الاصلاحية والثقافية لم تتوقف عند ارسال البعثات فقط وانما شملت ايضا نقد السياسة التعليمية البريطانية الجديدة . ففي عام ١٩٤٠ وجه (نادي الاصلاح العربي الاسلامي) مذكرة الى حاكم المستعمرة موقعة من قبل ١٧ عضوا من أعيان عدن يمكننا ايجازها كمايلي:

(١) رفع مستوى التعليم في عدن لدرجة عالية تمكن بها الطلاب من ابنائها من الاندماج في الجامعات الكبرى للطب والهندسة وغيرهما .
(٢) ارسال الطلبة من عدن لطلب العلم في الخارج على نفقة الحكومة .
(٣) تعليم الكيمياء والعلوم للطلبة في عدن .
(٤) تعليم الطلبة الى مستوى يؤهلهم لطلب درجات عالية غير « المكرانة » (بمعنى الوظائف المكتبية) .
(٥) انشاء مدرسة للصنائع والفنون
(٦) انشاء كلية عدن .
(٧) تطوير مدرسة البنات بحيث يتعلمن التطريز والخياطة وترتيب المنزل والصحة .

ومن رد الحاكم البريطاني بمذكرته المطولة (رقم ٥٤٣٤ بتاريخ ١٥ اغسطس ١٩٤٠) نجد ان تبريرات الحكومة في عدم استطاعتها تحقيق المطالب المذكورة اعلاه هي في الواقع بمثابة اعتراف منهم بانهم لم يقوموا بشيء ذي بال في طريق تطوير التعليم بعد انفصال عدن عن الهند (٣١)) .

وبانتهاء هذه الفترة ساعدت عوامل خارجيـــة وداخليـــة على اجهاض هذه النوادي الثقافية والجمعيات الاصلاحية . فالحكومة الاستعمارية نفسها لم تكن ترضى عن نشاطها . لهذا فاننا نجدها اثناء الحرب العالمية الثانية تقوم بنفي بعض الاعضاء البارزين من منطقة الى اخرى في المستعمرة وتفرض عليهم الاقامة الاجبارية هناك متهمة اياهم بالتعاون ونشر الدعاية لصالح دول المحور . كما انها كانت تتمكن ، عبر بعض الرجال التقليديين من نشر الاشاعات بان « مقاصد واغراض تلك الجمعيات هي غايات سياسية لاخير لاحد في اعتناقها . . وقال اخرون ان تعليم البنت وتشجيع التمثيل امران مخالفان للدين والعقائد الاسلامية »(٣٢) . وكما قال احدهم بحق « ان الرجعيـــة في كل زمان اداة هدامة في صرح القومية وبناء الوطنية تنسب لكل حركة جديدة ترمي الى الاصلاح وتسعى للوعي القومي كل نقيصة » (٣٣) .

اما بالنسبة لحركة النشر والصحافة خلال هذه المئة سنة الاولى من الاستعمار البريطاني لعدن ، فقد كانت كل المطبوعات والجرائد باللغة الانجليزية او الجزراتية او العبرية ، وقد استوردت تلك المطابع الاجنبية الاحرف العربية لغرض مواجهة الطلبات المتنامية للطباعة عند التجار العرب او من اجل طبع بعض الاوراق والمعاملات المحلية .
ومن الطريف ان نذكر ان دخول اول مطبعة انجليزية الى عدن كان في عام ١٨٥٣ ، ففي تلك السنة طلبت الادارة البريطانية في المستعمرة مطبعة صغيرة كجزء من « الاعمال الشاقة» في سجن عدن . وارسل بعض نزلاء السجن الى بومباي للتدريب على صف الحروف والطباعة . وبعدعوتهم طلب منهم تدريب بعض نزلاء السجن الاخرين . اما الجرائد فكانت كلها انجليزية (ايدن ويبكلي جازيت ، ايدن فوكس ، استار ، ايكو . . الخ) .
وكانت اهم المؤسسات الطباعية العربية هي مطبعة (فتاة الجزيرة) لصاحبها الاستاذ محمد علي لقمان المحامي التي افتتحت عام ١٩٤٠ . وكانت أول مطبعة تضيف النشر الى انشطتها الاخرى في عدن . فقد كانت تقوم بطبع (فتاة الجزيرة) أول صحيفة عربية في عدن ، بالاضافة الى عدد من النشرات اليومية والاسبوعيـــة باللغتـــين العربيـــة والانجليزية بجانب كتب وكتيبات عربية حول مختلف المواضيع . واول كتاب عربي طبعته « سلالة قحطان »(٣٤) .

المصادر والهوامش

1 — R.J.Gavin. **Aden under British Rule 1839-1967**, London, Hurst, 1975, p. 192
2 — F.M.Hunter. **An account of the Biritish Settlement of Aden**, London, cass, 1877, p. 148
3 — **Ibid.** pp. 149-151
4 — Gavin. **op. cit.** p. 193.
5 — **Ibid.**
6 — H. Jacob. **Kings of Arabia**.London, 1939, ch. 14 « The eye of the yemen in 1923. »
7 — **Ibid.**

(٨) ظهر الكتيب تحت اسم مستعار للمؤلف هو NEDA وهو قلب لاسم عدن ، اما الناشر فتحت اسم Junius

(٩) محمد علي لقمان .. النهضة الحديثة في عدن (٤) فتاة الجزيرة ، العدد ٢٢٦ ، ١٨ يونيو ١٩٤٤ ، ص ١ — ٨ .

(١٠) المصدر ذاته .

(١١) محمد علي لقمان . النهضة الحديثة في عدن (٧) فتاة الجزيرة ، العدد ٢٣٤ ، ١٣ اغسطس ١٩٤٤ . ص ١— ٨.

(١٢) النهضة الحديثة في عدن (٩) فتاة الجزيرة ، العدد ٢٣٦ ، ٢٧ اغسطس ١٩٤٤ ، ص ١ — ١٢.

13 — Sir Tom Hickinbotham. **Aden**. London, Constable, 1958, pp. 20-21

(١٤) سلطان ناجي (ترجمة) عدن تحت الحكم البريطاني ١٨٣٩ — ١٩٦٧ . مجلة الخليج العربي ، مركز دراسات الخليج العربي ، جامعة البصرة ، العدد ٨ ص ٥٠— ٨٠ .

(١٥) النهضة الحديثة في عدن (٩) فتاة الجزيرة ، العدد ٢٣٦ ، ٢٧ اغسطس ١٩٤٤ ، ص ١ — ١٢.

(١٦) مراحل التعليم في عدن . فتاة الجزيرة ، العدد ٢٠٢ ، يناير ١٩٤٤ ، ص ٦ — ٧ .

(١٧) محمد علي لقمان . عدن بعد الاحتلال البريطاني. فتاة الجزيرة (٢) العدد ٢٢٣ ، ٢٧ مايو ١٩٤٤.

(١٨) ماذا عملت النوادي . فتاة الجزيرة (٢) العدد ٢٣٢ ، ٣٠ يولو ، ١٩٤٤ ، ص ١٠—١٢ .

(١٩) محمد سعيد جرادة . دور العبادي في مناهضة الاستعمار . مجلة الحكمة (لسان اتحاد الادباء والكتاب اليمنيين) العدد ١ ، ١٩٧٠ ، ص ٤٧ — ٥٢ .

(٢٠) ماذا عملت النوادي . (من الجدير بالذكر انهم كانوا هناك اثناء وجود بعثة صنعاء التي كان فيها الرئيس السلال) .

(٢١) المصدر ذاتـه

22 — Ladislas Farago. **The Riddle of Arabia**. Robert Hale, 1939, pp. 75-83

(٢٢) العدد ١١٧ بتاريخ ١٤سبتمبر ١٩٣٤ .

(٢٣) نسخة الرسالة المؤرخة ٢٨ رجب ١٣٥٦ هـ (١٩٣٧) موجودة ضمن ملف (نادي الاصلاح العربي الاسلامي)وهو في حوزتي . والاستاذ احمد الاصنج هو مؤلف (نصيب عدن من الحركة الفكرية) اول كتاب فكري في عدن، مطبعة الشورى القاهرة ١٩٣٤ .

24 — Aden gov't, Annual Report 1931 - 32.

25 — Gavin, **op. cit. pp. 287-290.**

(٢٦) سلطان ناجي . التاريخ العسكري لليمن ١٨٣٩ — ١٩٦٧ . الكويت ، ١٩٧٦ ، ص ٧٠، ١٤٢، ١٥٠، ١٥٦، ١٥٠ .

27 — H. Ingrams. **Arabia and the Isles.** London. J. Murray, 1942, pp. 95-99

28 — author's «**Introduction to third editon**». J. Murray, 1966. pp. 31-32.

29 — Ladislas Farago. **The Riddle of Arabia.** Robert Hale, 1939, pp. 190-92

(٣٠) انظر قائمة — اولعدني في فنه — . فتاة الجزيرة ، العدد ٢٠٢ يناير ١٩٤٤ ، وايضا : راجي خير نحن لانريدادباء) فتاة الجزيرة ، العدد ٢١٨ ، ٢٣ ابريل ١٩٤٤ .

(٣١) كلا المذكرتين موجودتان في ملف نادي الاصلاح العربي الاسلامي الذي هو الان فيحوزتي .وكلتاهما مكتوبتان بالانجليزية . ومذكرة نادي الاصلاحمؤرخة ١٦ ابريل ورد الوالي في ١٥ اغسطس ١٩٤٠ .

(٣٢) محمد علي لقمان . النهضة الحديثة في عدد (٦): ظهـور النوادي . فتـاة الجزيرة ، العدد ٢٣٠ ، ١٦ يوليو ١٩٤٤ .

(٣٣) محمد علي لقمان . ماذا عملت النوادي ، فتاة الجزيرة ، العدد ٢٣٢ ، ١ — ١٢ .

34 — Ali M. Lukman. « Education and press in South Arabic». in « **The Arabian Peninsula : Society and Politics** ». ed. D. Hopwood. George Allen, 1972, pp. 264-5.



الرِّدَّةُ وَمَوْقِفُ أَبِي بَكْرٍ مِنْهَا

الأستاذة نجدة خماش
كلية الاداب ـ جامعة دمشق

تستخدم المصادر العربية كلمة الردة للدلالة على انتقاضه القبائل العربية اثر وفاة الرسول الكريم ، ويعتبر العديد من المؤرخين هذه الردة ارتدادا أو رجوعا عن الاسلام ، ولكننا قبل أن نتهم هذه القبائل في اليمن وحضرموت ومهره وعمان واليمامة وبلاد اسد بالرجوع عن الاسلام ، يجب ان نستبين مدى تغلغل الاسلام بين هذه القبائل ، الاسلام بمعنى الايمان التام والكامل كدين ونظام للحياة والجماعة من جهة ، ومدى تقبل القبائل العربية لمفهوم الدولة الاسلامية التي ظهرت بظهور الاسلام وما يتضمنه مفهوم الدولة من انصياع للسلطة المركزية من جهة اخرى .

من المتفق عليه أن فتح مكة وما اعقبه من استسلام هوازن وثقيف اثبت للعرب أن المسلمين قوة سياسية وحربية الى جانب العقيدة التي تنزلت على النبي العربي ، ولذلك بدأت القبائل ترسل وفودها منذ نهاية العام الثامن وطوال العام التاسع كما ان مقدمات سورة التوبة من أولها الى نهاية الاية الثامنة والعشرين ، والتي نزلت في نهاية السنة التاسعة قبل موسم الحج تضمنت أحكاما نهائية بالنسبة الى العرب المشركين الذين سيمهلون مدة اربعة أشهر فان لم ينضموا الى الصف المسلم فسيحاربون وسيكون الله ورسوله براء منهم « براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين ، فسيحوا في الارض اربعة أشهر واعلموا انكم غير معجزي الله وان الله مخزي الكافرين ... ، فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا واقاموا الصلاة واتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفوررحيم»(١) .

كان لهذا الوعيد والانذار اثرهما في حث من بقي على الشرك من العرب على الانضمام للصف الاسلامي ،

واضحت القبائل التي تلكأت في اعلان اسلامها او ارسال وفود من قبلها لبيعة الرسول الكريم معرضة لغزوالمسلمين حتى تقر بالاسلام وتعترف برئاسة الرسول كما كان حال بني الحارث بن كعب ،اذ بعث الرسول خالد بن الوليد في شهر ربيع الاول او في جمادي الاولى من السنة العاشرة للهجرة الى نجران وامره أن يدعوهم للاسلام قبل ان يقاتلهم ، ثلاثا ، فاناستجابوا قبل منهم اسلامهم والا وجب عليه قتالهم (٢) كما وجه الرسول علي بن ابي طالب في سرية الى اليمن في رمضان فأسلمت همدان ثم تتابع اهل اليمن على الاسلام (٣) .

واذا قمنا باحصاء الوفود التي قدمت على المدينة في السنة العاشرة للهجرة ، لوجدنا ان عددها اكثر بكثير من تلك التي قدمت في السنة التاسعة بمعنى ان معظم هذه الوفود قدمت عندما ادركت ان لا فائدة من المقاومة وان من الافضل القبول بالامر الواقع ومبايعة الرسول على الطاعة والولاء . ولكننا في الوقت ذاته لا نستطيع الانكار ان بعض افراد هذه الوفود قد اسلموا عن ايمان فحسن اسلامهم ، بينما لم يدخل الايمان قلوب الاخرين ، وشتان بين المسلم والمؤمن ، وقد اشار القرآنالى ذلك صراحة : ((قالت الاعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم)) (٤) ، ومن ثم ما ان انتشر خبر مرض رسول الله (صلعم) اثر عودته من حجة الوداع (وهو غير مرض موته) حتى وثب الاسود العنسي باليمن ومسيلمة باليمامة ، ثم وثب طليحة في بلاد اسد . وانه مما يلفت الانتباه ان هؤلاء الثلاثة ادعوا النبوة كما ادعتها سجاح بنتالحارس بن سويد وذو التاج لقيط بن مالك الازدي في عمان فيما بعد ، وقد نتساءل عن السبب الذي دفعهم الى ادعاء النبوة ؟ لا شك انهم وجدوا ان في هذا الادعاء ما يكسبهم قوة ويمكنهم من السيطرة وتولي الحكم في المناطق التي ثاروا فيها ، وهو يشير كذلك الى ان هؤلاء الثلاثة وغيرهم لم يؤمنوا بمحمد (صلعم) على انه نبي مرسل ، وانما على اساس ان النبوة قد ساعدتهعلى تحقيق سيادته وسلطانه وسلطان قريش على العرب فهذا مسيلمة ، حسب روايةالبلاذري يقول لرسول الله حين اقبل مع الوفد ((ان شئت خلينا لك الامر وبايعناك على انه لنا بعدك)) ، فكان جواب رسول الله : ((لا ولا نعمة عين ولكن الله قاتلك)) وما ان انصرف وفد بني بني حنيفة حتى ادعى مسيلمة الكذاب النبوة وشهد له الدجال بن عنفوة بأن رسول الله (صلعم) اشركه في الامر معه فاتبعه بنو حنيفة وغيرهم ممن باليمامة وكتب الى رسول الله : ((من مسيلمة رسول الله الى محمد

رسول الله، سلام الله عليك ، فاني قد اشركت في الامر معك وان لنا نصف الارض ولقريش نصف الارض ، ولكن قريشا قوم يعتدون » ، وكان ذلك آخر سنة عشر (٧) .

اما الاسود العنسي ذو الخمار عبهله (٨) فليس هناك من رواية عند الطبري وابن هشام تشير الى اسلامه ، اما البلاذري فيذكر ان رسول الله (صلعم) بعث جريرا بن عبد الله البجلي في السنة التي توفي فيها الاسود يدعوه الى الاسلام فلم يجبه ، ويعلق البلاذري ان بعض الرواة ينكر بعثة النبي (صلعم) جريرا الى اليمن (٩) .

واذا ما درسنا الروايات المتعلقة بردة الاسود العنسي التي قضي عليها قبل وفاة الرسول الركيم ، ثم الردة الثانية التي قادها قيس بن عبد يغوث نجد انها عبارة عن رفض لفكرة الانصياع للسلطة المركزية التي اوجدها الرسول من ناحية ورفض للمكانة التي احتلها الابناء عند اسلامهم في المجتمع اليمني من ناحية ثانية ، والابناء هم اولاد اهل فارس الذين وجههم كسرى الى اليمن مع سيف بن ذي يزن ، (١٠) فلما قتل سيف تولى الحاكم الساساني امر ادارة اليمن يساعده في ذلك افراد القوة الساسانية . وحدثت في هذه الفقرة اضطرابات في الدولة الساسانية جعلت مركز هذا الوالي ضعيفا ، فقوي نفوز القبائل والامراء المحليين ، وثاروا على الحكم الساساني وحصروا نفوزه في صنعاء وما يجاورها .

فلما أسلم باذام (باذان) الفارسي واسلمت اليمن جمع رسول الله (صلعم) لباذام عمل اليمن كلها وامره على جميع مخاليفها ، فلم يزل عاملا لرسول الله حتى مات ، ففرق الرسول عمل اليمن بين جماعة من أصحابه ، وفي روايتين للزهري أن النبي (صلعم) رجع الى المدينة بعد ما قضى حجة الاسلام ، وقد وجه امارة اليمن وفرقها بين رجال ، وافرد كل رجل بحيزه ، ووجه امارة حضرموت وفرقها بين ثلاثة وافرد كل واحد منهم بحيزه واستعمل عمرو بن حزم على نجران ، وخالد بن سعيد بن العاص على مابين نجران ورمع وزبيد ، وعامر بن شهر على همدان ، وعلى صنعاء شهر بن باذام ، وعلى عك والاشعريين الطاهر بن ابي هاله ، وعلى مأرب أبا موسى الاشعري ، وعلى الجند يعلى بن امية وكان معاذ معلما يتنقل في عمالة كل عامل (١١) .

وهكذا نرى ان الرسول رغبة في احقاق المساواة الكاملة بين العربي المسلم والاعجمي المسلم ، ورغبة منه في ان يبين لاتباعه انه لا فرق بين

عربي واعجمي الا بالتقوى فانه كافأ باذام بان جعله عاملا له ليس على صنعاء فقط وانما على عمل اليمن كلها ، ولما مات عين ابنه شهر بن باذام عاملا على صنعاء ، فلما خرج الاسود العنسي ذو الخمار عبهلة بن كعب من كهف خبان ايدته مذحج وواعدته نجران واخرجوا عمرو بن حزم وخالد بن سعيد بن العاص وهما عاملا الرسول وانزلوا الاسود منزلهما ، كما وثب قيس بن عبد يغوث على فروة بن مسيك عامل الرسول على مراد فاجلاه ونزل منزله ، (١٢) وورد كتاب من الاسود الى عامل الجند ومن معه : ((ايها المتوردون علينا امسكوا علينا ما اخذتم من ارضنا ، ووفروا ما جمعتم فنحن اولى به وانتم على ما انتم عليه)) . فهو يعتبر هؤلاء دخلاء ويطلب منهم التخلي عن هذه الارض التي هي ارضهم وانهم ، اي اهل اليمن ، اولى بما جمعوه من اموال ، ولكن الاسود لم يعمد الى قتلهم كما قتل باذام (١٣)، وفي رواية البلاذري ان الاسود كان متجبرا فاستذل الابناء واستخدمهم فاضر بهم وتزوج امراة شهر بن باذام (١٤) . ومما يثير الانتباه ان الرسول عندما ارسل يحنس بكتابه طلب من الابناء وليس من عرب اليمن القيام على دينهم والنهوض في الحرب والعمل في الاسود اما غيلة واما مصادمة ، وقد تم قتل العنسي على يد فيروز ، وعن ابن عمر قال : ((اتى الخبر النبي (صلعم) من السماء الليلة التي قتل فيها العنسي ليبشرنا ، فقال : قتل العنسي البارحة قتله رجل مبارك من اهل بيت مباركين ، قيل من هو ؟ قال : فيروز ، فاز فيروز)) .

بعد مقتل العنسي عادت الامور الى مجاريها في اليمن ، ولكن ما ان وصل الخبر بوفاة الرسول (صلعم) حتى انتقضت الامور واضطربت الارض ثانية ، وفي رواية للسري عن شعيب عن سيف عن عبد الله بن فيروز انه بعد مقتل العنسي امن الامراء وتراجعوا واعتذر الناس وكانوا حديثي عهد بالجاهلية ، ولعل هذه العبارة الاخيرة تعبر اصدق تعبير عن الوضع فهم لا يزالون حديثي عهد بالجاهلية ، ولا بد من وقت حتى يستطيع افراد المجتمع كله ان يتفهموا الاسلام كدين وكنظام للحياة والجماعة (١٥) .

ونلاحظ هذا التحامل على الابناء في ردة اهل اليمن الثانية بقيادة قيس بن عبد يغوث من ناحية واعتماد ابي بكر على الابناء وعلى فيروز للقضاء عليها ، اذ عندما بلغ ابا بكر خبر ردة اليمن الثانية كتب الى وجوه اهل اليمن يامرهم بالتمسك بالذي هم عليه والقيام بأمر الله والناس : ((.... اما بعد فاعينوا الابناء على من ناواهم وحوطوهم واسمعوا من فيروز وجدوا معه ،

فاني قد وليته)) (١٦) وعندما سمع قيس بالامر ارسل الى ذي كلاع واصحابه : ((ان الابناء نزاع في بلادكم ونقلاء فيكم ، وان تتركوهم لن يزالوا عليكم ، وقد ارى من الراي ان اقتل رؤوسهم واخرجهم من بلادنا)) ولكن ذي الكلاع واصحابه وقفوا موقف الحياد فلم يمالئوا قيسا ولم ينصروا الابناء وقالوا : لسنا مما هاهنا في شيء ، انت صاحبهم وهم اصحابك)) وعمد قيس الى مكاتبة اتباع الاسود ، وامرهم بالمسير اليه ليكون امره وامرهم واحدا ، فلما اقتربت جموعهم من صنعاء تظاهر قيس بالجزع وطلب مشورة فيروز وداذويه ليبعد التهمة عن نفسه ولكي يطمئنا اليه ، ونجح قيس في قتل داذويه غيلة ، اما فيروز فقد استطاع ان ينجو بنفسه وان يتوجه مع جشيش نحو جبل خولان ، وهم اخوال فيروز .

واستولى قيس على صنعاء وجبى ما حولها واخذ يتريث حتى اتته خيول الاسود . اما فيروز فانه عندما اوى الى اخواله خولان فمنعوه ، انضم اليه الناس وكتب فيروز بالخبر الى ابي بكر ، وانضم الى قيس عوام قبائل من كتب ابو بكر الى رؤسائهم ، وبقي الرؤساء معتزلين . وعمد قيس الى الابناء ففرقهم ثلاث فرق ، اقر من اقام واقر عياله وفرق عيال الذين هربوا الى فيروز فرقتين ، فوجه احداهما الى عدن ليحملوا في البحر وحمل الاخرى في البر وقال لهم جميعا : ((الحقوا بارضكم) .

فلما سمع فيروز ما فعله قيس ، وان عوام اهل اليمن ساندوه ارسل الى بني عقيل بن ربيعة بن عامر بن صعصعة رسولا يطلب مساعدتهم في انقاذ الابناء ، كما ارسل الى عك يستمدهم ويستنصرهم كذلك ، فاستطاعوا ان ينتقذوا عيالات الابناء ثم اجتمعوا على قتال قيس ، وانتصر فيروز واضطر قيس الى الهرب ، وتذبذبت رافضتي العنسي وقيس معهما فيما بين صنعاء ونجران . ليس في الروايات المتعلقة بهذه الردة اشارة الى ارتداد عن الاسلام ، وانما نلاحظ رفضا للانصياع لاوامر السلطة المركزية المتمثلة بابي بكر الذي عين فيروز واليا على صنعاء وجعل للابناء مكانة متميزة في المجتمع اليمني .

ان هذا الرفض في الخضوع للسلطة المركزية نراه جليا واضحا كذلك في الروايات المتعلقة بطليحة ، والقبائل التي انضمت اليه ، ففي رواية ابي مخنف عن عبد السلام بن سويد ان خيل طيء كانت تلقى خيل بني اسد وفزارة قبل قدوم خالد فيدنو بعضهم من بعض ولا يقتتلون ، فتقول اسد وفزاره : « والله لا نبايع ابا الفصيل ابدا » فتقول لهم خيل طيء : ((اشهد ليقاتلكم حتى تكنوه ابا

الفحل الاكبر)) (١٧) . وهذا عيينه بن حصن حين ارتد وانضم الى طليحة يقول : ((ما اعرف حدود غطفان منذ انقطع ما بيننا وبين اسد وانني لمجدد الحلف الذي كان بيننا في القديم ومتابع طليحة ، والله لان نتبع نبيا من الحليفين احب الينا من ان نتبع نبيا من قريش ، وقد مات محمد وبقي طليحة)) (١٨) .

وعندما اوثق خالد عيينه وبعث به الى ابي بكر ، اخذ غلمان المدينة ينخسونه بالجريد ويقولون : اي عدو الله ، اكفرت بعد ايمانك ؟ فيقول : والله ما كنت آمنت بالله قط ، فتجاوز عنه ابو بكر وحقن دمه (١٩) .

وتشير رواية ابن الاثير الى ان قبائل عربية كثيرة تبعت طليحة عصبية (٢٠) ولهذا كان اكثر اتباعه من اسد وغطفان وطيء وانضمت عبس وثعلبة بن سعد ومره ، وارسلوا الى المدينة يبذلون الصلاة ويمنعون الزكاة . ولو تتبعنا اسباب ارتداد القبائل في المناطق الاخرى لوجدنا الاسباب نفسها ، فقد دانت القبائل بالولاء للرسول شخصيا واعترفت بزعامته وسيادته واعتبرته سيد الجزيرة بلا منازع ولكنها وجدت صعوبة في الانصياع لشخص آخر غير الرسول فتجلى هذا الرفض اما بالانضمام الى مدعي النبوة او برفض دفع الزكاة ، لان القبائل رات في الزكاة عبئا ثقيلا عليها لاتدرك معناه ، فالزكاة كانت ايام الرسول تجمع من كافة الاطراف المسلمة وترسل الى المدينة حيث يقوم الرسول بتوزيعها على المستحقين من المسلمين في كافة الديار فلما توفي الرسول نرى قرة بن هبيره من بني عامر يقول لعمرو بن العاص عندما نزل به منصرفه من عمان : « ياهذا ، أن العرب لا تطيب لكم نفسا بالاتاوة ، فان انتم اعفيتموها من اخذ اموالها فستسمع لكم وتطيع ، وان ابيتم فلا ارى أن تجتمع عليكم» (٢١). ولذا لجأت الدولة بعد القضاء على الردة الى ترتيب آخر يتلخص في ان تجمع الزكاة من الاطراف وينفق منها على المستحقين في هذه الاطراف ويرسل الفائض بعد ذلك الى بيت المال في العاصمة ، وهذا ولا شك ارضى سكان الاطراف وهدأ من ثورتهم .

موقف ابي بكر .

وقف ابو بكر من مدعي النبوة كما وقف من اولئك الذين امتنعوا عن دفع الزكاة موقفا واحدا صارما اذ ان مفهوم الايمان والدولة ووحدة كلمة العرب في الجزيرة العربية ومحو العصبية والشعور القبلي واحلال الوحدة الدينية والقومية الاسلامية محلها ، هذه الامور كلها كانت عند ابي بكر كلا لا يتجزأ ، ومن ثم قرر محاربة اولئك الذين رفضوا ان يدينوا له بما كانوا يدينون به للرسول

(صلعم) وبما ان الذين ثبتوا مع ابي بكر كانوا قلة بالقياس الى من ارتد فان الناس نصحوا الخليفة الا يحارب المتنعين عن دفع الزكاة ((لان العهد حديث والعرب كثير وهم شرذمة قليلة ولا طاقةلهم بالعرب)) (٢٢) ،وقدسمعوا رسول الله (صلعم) يقول : ((امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله ، فاذا قالوها عصموا مني دماءهم واموالهم الا بحقها وحسابهم على الله)) ، رفض ابو بكر الاصغاء اليهم فلجأوا الى عمر علّه ينجح في اقناعه ، وخلا به نهاره اجمع ، فقال ابو بكر : ((والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله لقاتلتهم عليه ، ولو لم اجد احدا اقاتلهم به لقاتلتهم وحدي حتى يحكم الله بيني وبينهم وهو خير الحاكمين ، وقد سمعت رسول الله (صلعم) يقول : ((أمرت ان اقاتل الناس على ثلاث : شهادة أن لا اله الا الله ، واقام الصلاة وايتاء الزكاة ، فوالله الذي لا اله الا هو لا اقصر دونهم)) وقد حمد له عمر رايه فيما بعد وقال له ((أنا فداؤك لولا انت لهلكنا)) (٢٣) .

حارب ابو بكر المرتدة جميعا بالرسل والكتب ، كما كان رسول الله (صلعم) حاربهم به ، الى ان رجع اسامة بن زيد من الشام ، الا ما كان من اهل ذي حسيٍ وذي القصة ، اذ ان مجموعة من القبائل التي كانت قد اجتمعت على طليحة اقامت في ذي القصة ، وامدهم طليحة باخيه حبال فكان على اهل ذي القصة من بني اسد ومن انضم اليهم من ليث والديل ومدلج، وكان على مرة بالابرق عوف بن فلان بن سنان ، وعلى ثعلبة دعبس الحارث بن فلان فبعثوا وفودا الى المدينة واعلنوا لابي بكر انهم مقيمون على الصلاة ممتنعون عن دفع الزكاة فرفض ابو بكر الاستجابة الى مطلبهم ولكن ايقن بانهم سوف يهاجمون المدينة لانهم راوا من المسلمين قلة ، وهذا ما حدث ، اذ عمد فريق الى مهاجمة المدينة ليلا ، وبقي فريق بذي حسيّ .

واستطاع المسلمون ان يردوا المهاجمين وان يتتبعوهم الى ذي حسي ولكنهم اضطروا بعد ذلك الى التراجع عندما نفرت ابلهم ، فظن القوم بالمسلمين الوهن وبعثوا الى القبائل المقيمة بذي قصة ان يقدموا عليهم ، وادرك ابو بكر حرج موقف المسلمين اذا ما تعرضوا لهجوم القبائل متكاتفة ، فبات يتهيأ ثم خرج ليلا فما طلع الفجر ((الا وهم والعدو في صعيد واحد فما سمعوا للمسلمين همسا ولا حسا حتى وضعوا فيهم السيوف ، فما ان بزغت حتى ولوهم الادبار)) وقتل حبال واتبعهم ابو بكر حتى نزل بذي القصة وترك بها النعمان بن مقرن مع عدد من الرجال ورجع الى المدينة ، فوثب بنو ذبيان وعبس على من فيهم من المسلمين فقتلوهم وفعلت قبائل اخرى فعل عبس وذبيان فحلف ابو بكر

((ليقتلن في المشركين كل قتلة وليقتلن في كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين وزيادة))(٢٤) . وفي ذلك يقول زياد بن حنظلة التميمي :

اقمنا لهم عرض الشمال فكبكوا
ككبكبة الفزى اناخوا على الوفر
فما صبروا للحرب عند قيامها
صبيحة يسمو بالرجال ابو بكر
طرقنا بني عبس بادنى نباجها
وذبيان نهنهنا بقاصمة الظهر

كان لانتصار ابي بكر بالرغم من قلة من معه من المسلمين رد فعل على المسلمين والمرتدين سواء فقد ازداد المسلمون ثباتا على دينهم في كل قبيلة وازداد لها المشركون انعكاسا من امورهم في كل قبيلة ، وطرقت المدينة صدقات بعض الاشخاص من الذين ترددوا في بادىء الامر كصفوان بن صفوان والزبرقان بن بدر وكانا من عمال الرسول على تميم .

وعندما قدم اسامة بن زيد استخلفه ابو بكر على المدينة وخرج الى الربذة ليلقى بني عبس وذبيان وجماعة من بني عبد مناة بن كنانة فلقيهم بالابرق فقاتلهم وهزمهم ثم عاد الى المدينة ، فلما استجم جند اسامة قطع ابو بكر البعوث وعقد الالوية فعقد احد عشر لواء لاحد عشر قائدا ، وكتب ابو بكر رسالة من نسخة واحدة الى جميع المرتدين وبعث بهذه الكتب مع الرسل امام الجنود ، وقد بدأ الكتاب بحمد الله والثناء عليه وذكر بعثه محمداً بالحق من عنده بشيراً ونذيرا وداعيا الى الله باذنه وسراجا منيرا ، وان الله هدى بالحق من اجاب اليه وان رسول الله (صلعم) ضرب باذنه من ادبر عنه حتى صار الى الاسلام طوعا او كرها ثم اشار الى وفاة الرسول بعد ان بلغ ما امره الله ان يبلغه للناس وان الله قد بين ذلك لاهل الاسلام فقال : ((انك ميت وانهم ميتون))(٢٥) وقال : ((وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد افان مت فهم الخالدون))(٢٦) وقال للمؤمنين : ((وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل افان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين (٢٧) وبعد ذلك قال : ((وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد ان اقر بالاسلام وعمل به اغترارا بالله عز وجل وجهالة لامره واجابة للشيطان ... واني بعثت اليكم فلانا في جيش من المهاجرين والانصار والتابعين باحسان وامرته الا يقاتل احدا ولا يقتله حتى يدعوه الى داعية الله ، فمن استجاب واقر وكف وعمل صالحا قبل منه واعانه عليه ومن ابى امرته ان يقاتله على ذلك ولا يبقى على احد منهم قدر عليه وان يحرقهم بالنيران ويقتلهم كل قتلة وان يسبي الذراري والنساء ، ولايقبل من احد الا الاسلام ، فمن اتبعه فهو

خير له ومن تركه فلن يعجز الله ، وقد امرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم والداعية الآذان ، فان اذن المسلمون فاذنوا كفوا عنهم وان لم يؤذنوا عاجلوهم ، وان اذنوا اسألوهم ما عليهم ، فان ابوا عاجلوهم ، وان اقروا قبل منهم ، وحملهم على ما ينبغي لهم)) . ان كل اجراء قرر ابو بكر اتخاذه يبين انه كان يريد تجنب القتال وحقن الدماء فترك المجال ، مفتوحا لمن يريد التوبة ، اما اولئك الذين يرفضون فمصيرهم التحريق والقتل وسبي الذراري والنساء .

بالرغم من ان ابا بكر عقد احد عشر لواء لاحد عشر قائدا، الا ان القائد الذي يعود له الفضل الاكبر في القضاء على اخطر حركتين بعد ردة الاسود العنسي هو خالد بن الوليد ، فقد قضى على حركة طليحة واتباعه (٢٨) ونجح في القضاء على مسيلمة الكذاب ومن اتبعه من بني حنيفة ، وكان مسيلمة قد هزم عكرمة بن ابي جهل وشرحبيل بن حسنه من بعده ، فوجه اليه ابو بكر خالد بن الوليد الذي ادرك أن هذه الفتنة لن يقضي عليها وتخمد جذوتها الا بقتل مسيلمة ففي رواية السري عن سفيب ، عن رجل من بني سحيم كان قد شهد القتال مع خالد قال بأنه «لما اشتد القتال وكان يومئذ سجالا انما تكون مرة على المسلمين ومرة على الكافرين ، قال خالد : أيها الناس امتازوا اي تفرقوا وانفصلوا لنعلم بلاء كل حي ولنعلم من أين نؤتى، فامتاز أهل القرى والبوادي ، وامتازت القبائل من اهل البادية وأهل الحاضر ، فوقف بنو كل أب على رايتهم فقاتلوا جميعا فاستحر القتل في أهل القرى ، وثبت مسيلمة فعرف خالد أنها لا تركد الا بقتل مسيلمة »(٢٩) وقتل مسيلمة ، قتله وحشي قاتل حمزة في غزوة «أحد» ورجل من الانصار ، كما قتل في المعركة التي دارت بين الفريقين في حديقة الموت التي التجأ اليها بنو حنيفة عشرة الاف مقاتل (٣٠) .

نجح أبو بكر خلال عام تقريبا في القضاء على حركة المرتدين فكان نجاحه تصفية وتثبيتا للاسلام ومدا له ، كان نجاحه تصفية لانها خلصت الدولة الاسلامية الناشئة من كل الشكوك التي اثارها موت الرسول والخوف من أن يتصدع البنيان بموت الباني ، كما كان تثبيتا للاسلام ومدا له الى الاطراف التي بدا وكأنها لم تكن قد لقنت الدين كما لقنته المراكز القريبة من مكة والمدينة ، فكان لابد من هذه الحركة قبل أن ينطلق العرب الى الشام والعراق ، ولكن ابا بكر بقي طيلة حياته وفي كل غزواته وجهاده لا يثق بالمرتدين ، ويحدثنا الشعبي ان أبا بكر « كان لا يستعين في حربه بأحد من أهل الردة حتى مات»(٣١)، كما كتب الى عماله : « لا تستعينوا

بمرتد في جهاد عدو »(٣٢) ؛ وكتب الي خالد بن الوليد وعياض بن غنم «ولا يغزون معكم احد ارتد حتى ارى رأيي »(٣٣) . وبالرغم من أن وجوه المسلمين وقادتهم حاولوا أن يثنوه عن خطته وأن يغيروا من رأيه ، فقد ظل أبو بكر عند خطته التي انتهجها فلا يشهد الايام مرتد(٣٤) . فلما كانت خلافة عمر لم يشأ أن تظل هذه القوى معطلة ولم يشأ أن يحرم المجتمع الاسلامي ثمرة هذا العقاب وما تركه في نفوس المرتدين من اندفاع ورغبة في التكفير ، فأذن لهم عمر ان يشاركوا في الحرب ولكن كجنود في بادىء الامر ، ثم اذن لهم أن يلوا بعض المراتب في الجيش ولكنه لا يطمعهم في الرياسة كما يقول الشعبي(٣٥) وانما يحد سلطانهم دون المائة ويكتب الى سعد ان لا يولي رؤساء اهل الردة على مائة (٣٦) فيضطر سعد ليلة الهدير تقيدا بسياسة الدولة ان يبعث قيس بن المكشوح في سبعين رجلا فحسب ، وقد أظهر المرتدون اندفاعا مشرفا رغبة منهم في تعويض الخطيئة السابقة بالحسنات الكثيرة اللاحقة واقبلوا على الموت اقبالا لا يعرف الهيبة . ويحدثنا الطبري « أن عمر ندب اهل الردة فاقبلوا سراعا من كل اوب فرمى بهم الشام والعراق » ، ومع ذلك فقد ظلت هذه الطبقة عهد عمر حشوة الناس على حد تعبير الشعبي « وكان رؤساء أهل الردة في تلك الحروب حشوة الناس » ، فلم تستطع فعالهم أن تقدمهم فتضعهم في مقام الذين ثبتوا على الاسلام . فلما كانت خلافة عثمان نجده يسقط عن هذه الطبقة آخر آثار العقوبات التي وضعها أبو بكر وكسر حدتها عمر « فيأذن باستعمال المرتدين استصلاحا لهم » .

وهكذا نلاحظ أن المجتمع الاسلامي نتيجة لهذه الحادثة التي تلت وفاة الرسول كاد أن ينقسم الى طبقتين، طبقة الذين ثبتوا على الاسلام وطبقة الذين ارتدوا ، وانه كان لذلك آثاره الواضحة في استعمال هذه الطبقة المرتدة وفي الاستعانة بها وفي ادماجها في المجتمع ، فاذا ذكرنا ان الارتداد شمل أكثر اطراف الجزيرة وأجزاء من وسطها وأنه لم يسلم منه الا هذه المناطق التي شهدت نشأة الدعوة وازدهارها ، اذا ذكرنا ذلك ادركنا عمق الآثار التي خلفتها الردة في التمييز بين هاتين الطبقتين من طبقات المجتمع الاسلامي ، غير أن الاسلام لم يقتصر على الجزيرة وانما جاوزها ، وخرج المسلمون الى هذه الاقطار التي غلبوا عليها وشاركهم عقيدتهم بعض السكان في هذه الاقطار ، ولذلك لم يحتفظ المجتمع في الحياة الاسلامية بهذا التمييز بين طبقة الذين ارتدوا

والذين ثبتوا وانما اتخذ المجتمع بمن انضاف اليه اشكالا جديدة .

بالاضافة الى هذا الانقسام الذي كاد المجتمع الاسلامي أن ينقسم اليه، نلاحظ ان حروب الردة حققت ، مع ما رافقها من خطر على كيان الدعوة الناشئة ، نوعا من الاختلاط بين العرب أنفسهم ، فقد مضت جيوش الخلافة الى اليمن والبحرين والى عمان ونجد وانتهى الامر بها الى الظفر . ولكن هذه الجيوش لم تحقق ظفرا ماديا فحسب وانما حققت ما كان مقدرا لها في طريق الوحدة فاذا الجنود لا يعودون جميعا الى بلادهم أو مجتمعاتهم أو قبائلهم ، وانما يظلون في هذا المجتمع الجديد الذي أنشأوه يمتزجون به ويختلطون معه ويشاركونه الحياة ولا تحول القبلية بينهم وبين هذه المشاركة ، اذ لم تعد القبيلة هي الرباط الاوحد ما بين هؤلاء الناس، وانما أضحت أخوة العقيدة وصلة الدين هي الرباط الاقوى ، هذا ما نفهمه من حديث الطبري : ان العلاء بن الحضرمي قائد الجيوش التي خرجت تحارب المرتدين في البحرين « أقفل الناس بعد انتصاره فرجع الا من احب المقام » .

يضاف الى ذلك أن حروب الردة أتاحت حركة تزاوج وتواصل عريضة بين جيوش الخلافة وبين مناطق الارتداد ، كما حمل كثير من السبي الى المدينة ، فلما استقامت الجزيرة كلها لنظام الخلافة وولي عمر ، قال: « انه ليقبح بالعرب أن يملك بعضهم بعضا وقد وسع الله وفتح الاعاجم واستشار في فداء سبايا العرب في الجاهلية والاسلام الا امرأة ولدت لسيدها ، وجعل فداء كل انسان سبعة أبعرة ، الا حنيفة وكندة » .

ولا شك ان عملية الفداء التي اقترحها عمر وانفذها لم تكن تخلو من معنى اجتماعي عميق ، فقد مضت أيام الخليفة أبي بكر أو أكثرها في اقرار الاسلام في الجزيرة نفسها وفي الاندفاعات الاولى نحو العراق والشام ، فلما ولي عمر الخلافة أدرك بما وهب من بعد نظر انه لابد من تجنيد كل قوى الجماعة الجديدة ومن استثارة كل طاقاتها ولا سبيل الى ذلك الا في تمكين وحدتها ، ولذلك حاول أن يصفي أحقادها في الجاهلية والاسلام فلجأ الى هذا الفداء الذي كان ادراكا بارعا لما يجب أن تكون عليه نفوس الذين ينطلقون في الفتوح من ود وصفاء ، وكانت كذلك تصفية لكل ما علق النفوس من آثار الهزيمة وعمل السبي .

(١) سورة التوبة ــ الآيات ١ ــ ٧ .
(٢) الطبري ج٣ ص ١٢٦ .
(٣) المصدر السابق ج٣ ص ١٣٢ .
(٤) سورة الحجرات الآية ١٤ .
(٥) الطبري ج٣ ص ١٨٥ ، تهذيب تاريخ دمشق الكبير ج٧ ص ٩٥ .
(٦) البلاذري ، فتوح ، ص ٩٧ .
(٧) المصدر السابق ص ٩٧ الطبري ج٣ ص ١٤٦ ، السيرة لابن هشام ج٤ ص ١٨٣ .
(٨) الاسود العنسي هو الاسود بن كعب من عوف العنسي ، تكهن وادعى النبوة وسمى نفسه رحمان اليمن كما سمى مسيلمة نفسه رحمان اليمامة وقال بعضهم هو ذو الخمار لانه كان متخمرا معتما أبدا ، ويقول بعض أهل اليمن أنه كان اسود الوجه فسمي الاسود للونه وان اسمه عبهلة (البلاذري) فتوح ص ١١٢ .
(٩) البلاذري ، فتوح ص ١١٢ .
(١٠) المصدر السابق ص ١١٤ .
(١١) الطبري ج٣ ص ٢٢٨ .
(١٢) الطبري ج٣ ص ١٨٥ .
(١٣) المصدر السابق ج٣ ص ١٨٥ .
(١٤) البلاذري ، فتوح ، ص ١١٤ .
(١٥) الطبري ج٣ ص ٢٩٣ .
(١٦) المصدر السابق ج٣ ص ٣٢٢ .
(١٧) الطبري ج٣ ص ٢٥٥ .
(١٨) المصدر السابق ج٣ ص ٢٥٧ ، كان بين اسدوغطفان وطيء حلف في الجاهلية ، فلما كان قبل مبعث النبي (صلعم) اجتمعت أسد وغطفان على طيء فأزاحوها عن دارها وغوثها وجديلتها فكره ذلك عوف فقطع ما بينه وما بين غطفان وأرسل عوف الى الحيين من طيء فأعاد حلفهم وقام بنصرتهم واشتد ذلك على غطفان .
(١٩) المصدر السابق ج٣ ص ٢٦٠ .
(٢٠) ابن الاثير ــ الكامل في التاريخ ج٢ ص ٣٢٣ .
(٢١) الطبري ج٣ ص ٢٥٩ .
(٢٢) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ج١ ص ٣٣ .
(٢٣) المصدر السابق ج١ ص ٢٣ .
(٢٤) الطبري ج٣ ص ٢٤٦ .
(٢٥) المرجع السابق ج٣ ص ٢٥٠ سورة الزمر : ٣٠ .

(٢٦) المصدر السابق ج٣ ص ٢٥٠ سورة الانبياء : ٣٤ .
(٢٧) المصدر السابق ج٣ ص ٢٥٠ سورة آل عمران : ١٤٤ .
(٢٨) هرب طليحة بعد ان خذله الله حتى الحق باعمال دمشق ونـزل على آل جفنة ، ثم اسلم وقدم مكة معتمرا ، ثم خرج الى الشام وجاهد وشهد اليرموك وشهد بعض حروب الفرس ـ تهذيب ابن عساكر ج٢ ص ٩٣ .
(٢٩) الطبري ج٣ ص ٢٩٣ .
(٣٠) المصدر السابق ج٣ ص ٢٩٤ .
(٣١) المصدر السابق ج٤ ص ٢٥ .
(٣٢) المصدر السابق ج٣ ص ٣٤١ .
(٣٣) المصدر السابق ج٣ ص ٣٤٧ .
(٣٤) الطبري ج٣ ص ٣٤٧ .
(٣٥) المصدر السابق ج٤ ص ٢٥ .
(٣٦) المصدر السابق ج٣ ص ٥٥٧ .



وثائق تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العهد العثماني

د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم

جامعة قطر ـ الدوحة

ان الحديث عن ماهية الوثائق المتصلة بتاريخ الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مصر في العصر العثماني يستلزم باديء ذي بدء ، وضع توصيف موجز لنوعيات هذه الوثائق المختلفة واماكن حفظها ، ثم كيفية الاستفادة منها ، واهمية كل نوع من انواعها في دراسة تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني . ولذا فان هذه الدراسة ستشمل العناصر التالية :

(اولا) : أنواع هذه الوثائق وتوصيفها واماكن حفظها .

(ثانيا) : كيفية الاستفادة من هذه الوثائق في دراسة الحياة الاقتصادية والحياة الاجتماعيـة .

(ثالثا) : تقويـم وخاتمـة .

* * *

(اولا) : انواع هذه الوثائق وتوصيفها واماكن حفظها :

ان وثائق الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مصر في العصر العثماني تشمل :

١ ـ دفاتر الالتزام : ويحمل الدفتر الاول منها تاريخ ١٠٦٩ هـ ـ ١٦٥٨ م ، وهو تاريخ بدء تطبيق هذا النظام في مصر ، وهذه السجلات عبارة عن دفاتر مستطيلة الشكل ، طول كل منها ٤٥ سم ، وعرضه ٢٠ سم ، ويبلغ عددها (١٥٠٠) سجل ، وتحفظ حاليا بدار الوثائق التاريخية ، بعد نقلها من دار المحفوظات التي كانت تحفظها من قبل ، وهذه السجلات بعضها خاص بولايات الوجه البحري ، وبعضها خاص بولايات الوجه القبلي (١) ، وقد خصص لكل عام سجل خاص بولايات الوجه البحري ، وسجل اخر خاص بولايات الوجه القبلي ، وبيانات هذه السجلات تقتصر على تسجيل اسماء الولايات والنواحي التي تتبع كل ولاية ، واسماء الملتزمين بهذه

النواحي ، وحصة كل ملتزم بالقيراط (٢) ولا تسجل اية معلومات تفصيلية عن مساحة الناحية (القرية) ، بالفدان كما تهمل ذكر قيمة الضريبة الاميرية المقررة على الفدان الواحد وانما تكتفي بذكر جملة الاموال الاميرية ، وغير الاميرية المقررة على الناحية (القرية) واقساطها وميعاد سداد هذه الاقساط وقيمة كل قسط ، وفي نهاية الجزء الخاص بكل ولاية من السجل نجد تسجيلا للحساب الاجمالي المطلوب من الولاية ، وجملة المصروفات المخصصة للادارة المحلية من هذا الحساب ، وما هو مطلوب للروزنامة من الولاية، وفي نهاية السجل نجد تسجيلا كاملا لاجمالي الاموال المطلوبة من الولايات المسجلة به ونعتقد ان هذه السجلات تركت تسجيل البيانات التفصيلية المشار اليها ، اعتماداً على انها مسجلة بدفاتر شهود القرى والمراقبين ، واجهزة الادارة المحلية التي كانت قائمة آنذاك ، والتي كانت مسؤولة امام الروزنامة عن تسديد اجمالي الاموال المقررة التي سجلتها دفاتر الالتزام ، ولكن مما يؤسف له ان دفاتر الادارة المحلية في الريف غير موجودة بدور حفظ الوثائق .

٢ ــ **دفاتر الجمارك (الكمارك)** : يحمل السجل الاول من هذه السجلات تاريخ ١٠٨٢هـ / ١٦٧١ ، وتحتوي هذه السجلات على معلومات وفيرة عن جمارك بولاق ومصر القديمة ، والسويس ، والاسكندرية ، ودمياط ، ورشيد ، ووكالة البذور بالمحلة الكبرى ، ووكالة البذور ببولاق ، وسوق الارز برشيد ، والمعلومات المالية المسجلة بهذه السجلات ترسم صورة واضحة عن ايرادات الروزنامة من هذه الايرادات التي كانت تجبى من هذه الجمارك والوكالات والاسواق ، كما تعطي صورة واضحة عن المخصصات التي كانت تحددها الروزنامة من هذه الايرادات لرجال القلاع المسؤولين عن حراستها وبخاصة قلاع السويس والاسكندرية ودمياط ورشيد وهذه الحقيقة تتضح مما سجلته دفاتر المرتبات الخاصة برجال هذه القلاع وكذلك الاوامر الصادرة من باشوات مصر الى حكام تلك الثغور والتي كانت تنص على صرف مبالغ تحددها تلك الاوامر لرجال هذه القلاع على ان تخصم هذه المبالغ من واردات جمرك . . . (٣) فالمعلومات المالية التي تحتوي عليها هذه السجلات جد مفيدة في الوقوف على حالة مصر الاقتصادية وبخاصة في مجال التجارة وتحفظ هذه السجلات الان في دار الوثائق التاريخية بعد نقلها من دار المحفوظات العمومية .

٣ ــ **دفاتر الجراية والعليق** : وهي سجلات المرتبات العينية من قمح وشعير ، وعددها ٨٠٠ سجل تبدأ من ١٠٦٦ هـ/١٦٥٥ ، وتحفظ الان بدار الوثائق التاريخية بالقاهرة ، والمعلومات التي تحتويها هذه السجلات تفيد في الوقوف على قيمة ومقدار المرتبات التي كانت تدفع لكل من الباشا ، وقاضي العسكر ، والدفتردار والامراء

الصناجق ، وكبار رجال الفرق العسكرية وكتاب الخزينة والمحالين على المعاش من موظفي الادارة ، وكذلك مرتبات كبار العلماء والاشراف وغيرهم من رجال الدين ، فهذه السجلات مصدر هام لدراسة اوجه الصرف من الخزينة العامة (الروزنامة) .

٤ ــ دفاتر الرزق الاحباسية : وهي دفاتر خاصة بالاراضي الموقوفة على اوجه البر ، وتحفظ حاليا بدار الوثائق التاريخية بالقاهرة ، بعد نقلها من دار المحفوظات العمومية ؛ وهذه السجلات تحتوي على معلومات هامة عن هذا النوع من الاراضي حيث نجد فيها تسجيلا كاملا وتتبعا لتاريخ كل رزقة واصحاب حق الانتفاع بها ، والملتزمين بها وقيمة دخل كل منها ، وصور الحجج الشرعية التي صدرت بخصوصها والافراجات والفرمانات التي صدرت لتنظيم حق الانتفاع بهذه الرزق ، وأوجه صرف ريعها في حالة انقراض ذرية اصحاب حق الانتفاع بها فهذه الدفاتر ذات اهمية كبيرة في دراسة النواحي الاجتماعية والاقتصادية ، بل والحياة الدينية في العصر العثماني .

٥ ــ دفاتر خدمة الديوان عربي : تحفظ حاليا بدار الوثائق التاريخية بالقاهرة وهذه الدفاتر بها تفصيل كامل لمرتبات موظفي رجال الادارة المركزية والمحلية ، وغيرهم من الموظفين ، وفي نهاية كل دفتر من هذه الدفاتر توجد الحجج والفرمانات الخاصة ببعض التغيرات الادارية في الريف ، ومرتبات حكام الولايات وغيرهم ، والبت فيها بالرفض او القبول ، وهي ذات فائدة لدراسة الحياة الاقتصادية .

٦ ــ دفاتر الجسور : يوجد الدفتر الوحيد الذي عثرنا عليه بدار الوثائق بعد نقله من دار المحفوظات وهذا السجل خاص بالجسور السلطانية والبلدية التي كانت قائمة بالوجه البحري آنذاك ، وبه معلومات عن الاعباء المالية التي كان على القرى تحملها في عملية جرف هذه الجسور ، وكيفية تحويل الجسور البلدية الى جسور سلطانية نظير مبالغ يتحملها الملتزمون والفلاحون ، ويوجد بنهاية الدفترالبيورلديات والفرمانات والحجج الشرعية الخاصة بكل جسر .

٧ ــ دفاتر الترابيع : دفاتر وضعها علماء الحملة الفرنسية سنة ١٢١٥ هـ /١٨٠٠ م ، وقد اخذ هؤلاء العلماء معلومات هذه الدفاتر من دفاتر المعلمين الاقباط (الصرافين) و (المباشرين) ، ولذا فان معلومات هذه الدفاتر ، جاءت وافية تماما وهي تسد بصورة كاملة النقص الذي يوجد بدفاترالالتزام ففيها تسجيل كامل لمساحة كل ناحية (قرية) بالفدان وانواع ارض كل ناحية حسب جودتها ، والمال الميري المقرر على كل فدان حسب نوع جودة الارض ، وهذا ما اهملته دفاتر الالتزام ، ثم تسجل هذه الدفاتر انواع الضرائب الاخرى ، وبها تسجيل كامل لأنواع العادات ،

التي فرضها رجال الادارة على الفلاحين وقيمة كل عادة نقداً ، والتي كانت تشكل ما عرف باسم المال البراني ، ولم نعثر من هذه الدفاتر الا على المجموعة الخاصة بالوجه البحري ، والتي تحمل ارقام ١٦٠٥ ، ١٦٠٨ ، ٤٩ ، وجميعها مكتوبة باللغة العربية وقد كنت اول من عثر عليها واستفاد منها منذ ان وضعها رجال الحملة الفرنسية عام ١٢١٥ هـ/١٨٠٠ م . وهذه الدفاتر تكمل الصورة العامة للاعباء المالية التي كان يتحملها الفلاحون .

٨ - أرشيف المحكمة الشرعية : يوجد حاليا بمقر الشهر العقاري ، شارع رمسيس بالقاهرة ، ويعد هذا الارشيف من أثمن المصادر لكتابة تاريخ مصر في العهد العثماني ، ويحتوي هذا الارشيف على سجلات المحاكم الشرعية التي انشئت في ذلك العصر وهي : محكمة الباب العالي وعدد سجلاتها (٥٥٩) سجلا ، محكمة بولاق وعدد سجلاتها (٨٣) سجلا، محكمة مصر القديمة وعدد سجلاتها (٣١) سجلا، محكمة قناطر السباع وعدد سجلاتها (١٥) سجلا ، محكمة طولون وعدد سجلاتها (١٢٠) سجلا محكمة قوصون وعدد سجلاتها (٤٧) سجلا ، محكمة الصالح وعدد سجلاتها (٦٥) سجلا ،ومحكمة الزاهد وعدد سجلاتها (٤٩) سجلا ، ومحكمة الحاكم وعدد سجلاتها (٤٦) سجلا ، ومحكمة الصالحية النجمية وعدد سجلاتها (١٠١) سجلا ، ومحكمة باب الشعرية وعدد سجلاتها (١١٥) سجلا ، ومحكمة القسمة العسكرية وعدد سجلاتها (٤١٨) سجلا ، ومحكمة القسمة العربية وعدد سجلاتها (١٥٧) سجلا ، ومحكمة البرمشية وعدد سجلاتها (١٥) سجلا ، ومحكمة باب سعادة والخرق وعدد سجلاتها (٧٥) سجلا ، ومحكمة الضواحي وعدد سجلاتها (٧) سجلات .

هذا بالاضافة الى ان هذا الارشيف يحتوي على سجلات الديوان العالي التي تبدأ من عام ١١٥٣هـ / ١٧٤٠م ، وتستمر حتى ما بعد عصر محمد علي ، وكذلك سجلات اسقاط القرى والتي كانت تسجل فيها جميع العمليات الخاصة باسقاط القرى ، سواء بالبيع او الرهن ، والنزاعات بين الملتزمين بعضهم بعضا ، وبينهم وبين الفلاحين ، وغير ذلك من المشاكل التي تنشب حول حصص الالتزام ، وهي صادرة من محكمةالباب العالي ، وكذلك فان هذا الارشيف يحتوي على (٣٥٣) محفظة دشت بها حجج من مختلف المحاكم ، وجميع سجلات هذا الارشيف مكتوبة بالعربية ويعيبها رداءة الخط ، وهي مستطيلة الشكل ٥٠ × ٤٠ سم ولكنها ضخمة الحجم حتى ان حجم بعضها يفوق الالف صفحة عدا ، ووثائق هذا الارشيف ذات اهمية كبيرة لدراسة الحياة الاجتماعية والاقتصادية في مصر في العصر العثماني .

٩ ـ مضابط محاكم الاقاليم : وتوجد هذه المضابط بدار المحفوظات العمومية بالقاهرة بالمخزن رقم (٤٦) وهي تحتوي على أحكام محاكم النواحي ، والموجود منها مضابط المحاكم التالية : محكمة المنصور،يبدأ السجل الاول منها بتاريخ ٩ ربيع اخر سنة ١١١٩ هـ/١٠ يوليه ١٧٠٧ م ، ومحكمة دمياط ، ويحمل السجل الاول منها تاريخ ١٣ صفر سنة ١٠٢١ هـ/١٥ ابريل ١٦١٢ م وسجلات هذه المحكمة غير منتظمة في تواريخها وكذلك توجد مضابط محاكم كل من رشيد ، ودمياط ، والمنصورة ، ولكنها خاصة بالفترة الاخيرة من القرن الثامن عشر .

١٠ ـ سجلات الديوان العالي : توجد بارشيف المحكمة الشرعية وهي غير كاملة ويبدأ السجل الاول منها سنة ١١٥٣ هـ/١٧٤٠ م وتستمر بعد ذلك ، حتى عصر محمد علي وما بعده وهي سجلات في غاية الاهمية حيث نعثر فيها تسجيل لكثير من حالات النزاع بين الملتزمين بعضهم بعضا حول حصص الالتزامات وكذلك النـزاع بينهم وبين الفلاحين ، والمصالحات التي تتم بشأن لك ، كما نجد بها كثيرا من الفرمانات والاوامر الادارية الخاصة بادارة مصر اداريا وماليا فهي مصدر هام لدراسة النواحي الاقتصادية والاجتماعية في مصر في العهد العثماني .

(ثانيا) كيفية الافادة من هذه الوثائق في :

(١) دراسة الحياة الاقتصادية : يستطيع الباحث عن طريق دراسة مجموعات الوثائق السابقة ان يخرج بصورة واضحة عن الحياة الاقتصادية في القرية والمدينة على السواء ، فعن طريق دفاتر الالتزام الخاصة بالاراضي الزراعية يمكن استخراج صورة كاملة عن الاموال الاميرية ، وغير الاميرية المقررة على القرية وحجمها واقساط سدادها وموعد سداد كل قسط ، ومدى وفاء الملتزم أو الملتزمين بسداد هـذه الاقساط واختلاف الاموال المقررة على كل قرية عن الاخرى ، حسب مساحتها وجودة اراضيها الزراعية ، وهل بها أراض موقوفة ، أم لا .

وسنسوق المثالين التاليين احدهما من الوجه البحري والاخر من الوجه القبلي كنماذج للمعلومات المالية التي تحويها **هذه الدفاتر :**

(١) قرية خطارة : تابع

بلغت جملة الاموال المقررة عليها (١٤٨٣١) بارة ، سددت على ثلاثة اقساط على النحـو التالي :

قسط اول ٤٩٤٦ بارة بتاريخ ١١٣٠ هـ

قسط ثان ٤٩٤٦ بارة بتاريخ ١٣ صفر ١١٣١ هـ

قسط ثالث ٤٩٤٦ بارة بتاريخ ٢٤ ربيع اول ١١٣١ هـ

الجملة = ١٤٨٣٨ بارة، وواضح ان التسليمات بها زيادة مبلغ ٧ بارات لان الكسر كان دائما يجبر لصالح الروزنامة .

٢) قرية طحطا (طهطا) تابع جرجا .

بلغت جملة الاموال المقررة عليها كثمن للغلال المقررة عليها والمضاف ومال حماية ومال مستجد مقدار (٢٤٨٧١٦) بارة سددت على قسطين على النحو التالي :

قسط اول ١٩٢٥٢٦ في ١٤ شوال ١١٢١ هـ/١٧ ديسمبر ١٧٠٩ م .

قسط ثان ٥٦١٩٠ في ٥ محرم ١١٢٢هـ / ٦ مارس ١٧١٠ (٤) .

واضح هنا ان التسليمات تمت على قسطين وليس على ثلاثة اقساط ، كما ان هذه القرية يوجد بها ارض وقف حيث فرض عليها مال حماية ، كما فرض عليها مال مستجد .

وربما قيل ان هذه الصورة خاصة بالقرية او الناحية ككل ، وليس بها ما يفيد في الوقوف على احوال الافراد الاقتصادية ، وهنا نجد المجموعة الثانية من مجموعات دفاتر الاطيان الزراعية تجيب على هذا التساؤل ، ونقصد بها ــ دفاتر الترابيع ــ التي قام رجال الحملة الفرنسية بوضعها بناء على المعلومات التي كانت مدونة بدفاتر المعلمين الاقباط (الصرافين) ، والتي تحوي معلومات تفصيلية عن الضرائب الاميرية وغير الاميرية ، ومساحة كل قرية بالفدان وانواع الاراضي جيدةام غير جيدة وضريبة كل فدان ، كما سجلت الاعباء المالية غير الرسمية التي كان يتحملها الفلاح المصري في ذلك العصر ، والتي كانت تسجل في السجلات الرسمية تحت اسم « براني » ، وقد اصبحت قيمة هذه الاعباء غير الرسمية كما هو واضح من هذه السجلات تفوق بكثير قيمة الاموال الاميرية ، كما يتضح من المثال التالي :

قرية اتريب :

نوع الارض	المساحة ف ط	ضريبة الفدان	جملة الضرائب
١ ــ طين فلاحة عال	١٦ ١٧٣	١٠٠	١٧٣٦٧
٢ ــ طين فلاحة اوسط	٢٠ ٣٤	٩٥	٣٣٠٩
٣ ــ طين فلاحة دون	٢ ٦٩٨	٨٤	٥٨٦٣٩

٤ ـ طين الاوسية	١٠ ١٩٧	٨٤	١٦٥٨٣
٥ ـ رزق	ـ ٣٢	ـ	ـ
٦ ـ بـور	١٣ ٣٠	ـ	ـ
٧ ـ مناجـزة	١١ ١٢٧	ـ	٧٩٣٦
الجملـة	٧٢ ١٢٩١		١٠٣٨٣٤
	ـ + ٣		

١٢٩٤ فدانا

ثم سجلت الاعباء المالية غير الرسمية المعروفة بالبراني كالآتي :

٥٠٠ زيادة طين التوجيب
١٦٠٦ مال طين اولاد طعيمة من البور
١٦٥٣ مال طين عامر طعيمة من البور
٤٩٢٤ زيادة المال الميري
١٠٠١ زيادة الحـوض الغربي
١٤٨٨ فايض رزقة الجامع بعد المصاريف
٠٠٨٤ خراج طين احمد هلا

١١٥٠٩٢ الجملة
١٨٦٢٤ مصاريف الناحية

٩٦٤٦٨ الباقي

اثمان العادات المقـررة

١٧٥٤ ثمن اغنام ضيافة
٢٠٠ عادة الخازندار
٦٠٠ حوالـة المـال
٦٨٠ عادة القائمقام
٥٠٠ هدية القائمقام
٦٠٠ تقدمة القائمقام
١٠٠٠٠ ثمن سمن مسلى معتاد القائمقام
٨٥٠٠ مـال السباخ

٢٤٩٦ ثمن الفروج
٥٧٤٠ مـال الجزيرة
١٨٦٥٠ تقدمت المجدوم (الملتزم)

١٤٦١٨٨ جملة صافي الاموال المطلوب من القرية سدادها بعد مصاريف الناحية ، وكانت هذه الاموال توزع على النحو التالي :
١٧٩٥٢ بارة الميرى (المال الخاص بالروزنامة)
٧٨٥١٦ بارة فايض (الخاص بالملتزم)
٤٩٧٢٠ بارة البرانى (ثمن العادات التي فرضها رجال الادارة على فلاحي القرية)

١٤٦ ١٨٨ الجملة (٥)

وواضح من هذا التسجيل الرسمي ان قيمة كل من الفائض الخاص بالملتزم والبراني الخاص برجال الادارة ، وهي الاموال غير الاميرية أصبحت تفوق بكثير قيمة الاموال الاميرية المقررة وعند مقارنة الاموال الاميرية المقررة على الفدان كما تسجله دفاتر الترابيع ، وقيمة الايجار الذي كان يؤجر به للفلاحين ، كما تسجلـه سجلات المحكمة الشرعية ، فاننا نجد ان الفرق بين القيمتين كبير ، فاذا كان متوسط ضريبة الفدان كما يرد فيدفاتر الترابيع للارض الجيدة هو (١٥٠) بارة كما في قرية ججر تابع الشرقية ،وللارض الضعيفة هو (٥٠) بارة ، كما في قرية القراموص تابع الشرقية كذلك ، (٦) فاننا نجد في نفس الوقت ايجار الفدان كما يرد في سجلات المحكمة الشرعية يتراوح بين (٣٦٩) بارة ، (٦٠٠) بارة (٧) وبمقارنة ما يرد في هذه السجلات فان الباحث يخرج بصورة واضحة عن حياة الفلاح الاقتصادية ، والاعباء المالية الضخمة التي كان يعاني منها ، وتزداد الصورة وضوحا عن الحياة الاقتصادية في الريف ، بل والمدينة على السواء بالرجوع الى سجلات اسقاط القرى ، الصادرة عن محكمة الباب العالي ، وسجلات محاكم الاقاليم(٨) ففي هذه السجلات يعثر الباحث على صورة كاملة للعلاقات الاقتصادية التي كانت قائمة بين الفلاحين والملتزمين ، وبين الملتزمين بعضهم ببعض ، وكذلك العلاقات التي كانت قائمةبين الفلاحين انفسهم من عمليات استئجار الاراضي ورهنها واسقاطها ، وطريقة الزرع والمزارعة او المشاركة وغير ذلك من وجوه العلاقات الانتاجية ، وعمليات التنازل عن الالتزامات ، أو اسقاطها أو رهنها والمبالغ المدفوعة او المشترطة في كل حالة تفصيلا ، ونـوع العملة وقيمتها وقت التعاقد(٩) .

وفي سجلات المحكمة الشرعية يعثر الباحث على ادق التفاصيل عن حياة الفلاح الاقتصادية ، وكيف أن الفلاح اضطر في كثير من الاحيان نتيجة للظروف الاقتصادية

السيئة التي احاطت به الى بيع محصوله ، قبل نضجه بسعر منخفض ، مما ادى الى تدهور حالته الاقتصادية وترتب على ذلك قيام كثير من المنازعات بين الفلاحين والتجائهم الى القضاء للفصل في هذه المنازعات (١٠) .

كذلك فان المجموعات السابقة من الوثائق ، تمكن الباحث من الوقوف على انواع الحاصلات التي كانت تزرع في جهات مصر المختلفة من قمح وشعير وفول وعدس وارز وكتان وغير ذلك من الحاصلات وبخاصة في السجلات الخاصة بالوجه القبلي حيث كانت الضرائب تسدد عينا من الغلال فتذكر السجلات مقدارها ونوعها والموازين والمكاييل التي استعملت في تقديرها (١١) .

اما سجلات الرزق ، فتعطي صورة دقيقة لهذا النوع من الارض الموقوفة ، وكيفية انتقالها من منتفع الى اخر ، والاوامر والفرمانات التي صدرت بشأنها واهميتها الاقتصادية والمنتفعين بها والضرائب المفروضة عليها واوجه صرف ريعها ، والصراعات التي كانت تثور حولها(١٢) .

هكذا يستطيع دارس التاريخ الاقتصادي ان يتتبع حياة الفلاح المصري الاقتصادية في العصر العثماني مع واقع هذه السجلات بدقة ، وبصورة متكاملة .

ثانيا :

أما عن دور هذه الوثائق في تسجيل الحياة الاقتصادية في المدينة ، في العصر العثماني فان هذا الدور لا يقل دقة عما سجلته عن حياة الريف ، فان الباحث في هذه الوثائق يجد صورة واضحة كذلك لحياة المدينة الاقتصادية ، وما كان يحدث فيها من مضاربات ، وما كانت تموج به من انواع المعاملات الاقتصادية ، فسجلات الجمارك ترصد صورة دقيقة عن مورد كل جمرك ، حيث كانت هذه الجمارك من اهم موارد الدولة ، وسجلات المحاكم الشرعية تسجل حركة العمليات التجارية الصغيرة والكبيرة على السواء ، وكيف كانت تعقد الصفقات التجارية بين التجار بعضهم بعضا وبينهم وبين الامراء المماليك والافراد على السواء ، كما تسجل الصفقات التجارية التي كانت تتم في مزادات بيع التزامات الاراضي الزراعية ، والدور الذي بدا تجار القاهرة يلعبونه في هذا المجال (١٣) ومن هذه السجلات تقف على اسعار السلع الاستهلاكية من سمن ولحم وخبز وقماش وبن ، وغير ذلك من السلع ، بل اكثر من هذا فان سجلات المحاكم توضح لنا حقيقة هامة في تاريخ المجتمع المصري وهي ان الطوائف المهنية ، كانت هي التي تتحكم في تحديد الاسعار ومواصفات انتاج هذه السلع طبقا لارتفاع او

انخفاض سعر المادة الخام التي تنتج منها هذه السلع ، وكانت كل طائفة تذهب الى دار المحكمة الشرعية ، وتسجل التغيير الذي تريد احداثه في الاسعار ، بين فترة واخرى ، هكذا كانت تفعل طوائف الخبازين ، والقصابين ، (الجزارين) واللبانين ، وغير ذلك من الطوائف (١٤) وبذلك يستطيع الباحث الذي يريد ان يتقصى حياة المجتمع المصري الاقتصادية في العصر العثماني ان يجد تفصيلات دقيقة عن هذه الحياة خاصة فيما يتعلق بعمليات القروض والرهونات والبيوعات وطرق الاستثمار واسعار السلع الاستهلاكية، وتطور هذه الاسعار ، كمايجد معلومات وفيرةعن النشاط التجاري والتيارات التجارية ، وطرق التجارة الداخلية وعمليات التبادل التجاري بين الريف والمدينة ، وطوائف التجار ، واسواق القاهرة الرئيسية ، واسواق المدن

كذلك فان هذه الوثائق وبخاصة وثائق المحكمة الشرعية تحوي معلومات وفيرة عن تجارة مصر الخارجية مع البلاد الافريقية وبلاد المشرق العربي ، والبلاد الاوربية ، وبخاصة فيما يتعلق بتجارة الرقيق الاسود والابيض على السواء ، وتجارة البن والاخشاب والبخور ، والاقطار التي تتم معها هذه العمليات التجارية (١٦) .

ثالثا : اما عن الوثائق كمصدر لاقتصاد الدولة الرسمي ككل ، فانها تعد من اثمن المصادر ، حيث يستطيع الباحث من خلالها تحديد موارد الدولة انذاك ،واوجه الصرف ، والفائض ، كما يجد تسجيلا للموازنة العامة للدولة ، وقد كانت موارد الدولة في ذلك الوقت تنحصر في الموارد التالية .

(١) : خراج الاراضي الزراعية .

(٢) : ايرادات الجمارك : (اسكندرية ، بولاق ، مصر القديمة ، البهار بالسويس ، دمياط ، مجموعة المقاطعات) . (١٣)

(٣) : اموال متفرقة ، وهي الاموال التي كانت تحصل من الحلوان ، وضرائب الاسواق والمناصب وقد كانت ايرادات الخزينة العامة تختلف من سنة الى اخرى طوال فترة الحكم العثماني لعوامل كثيرة منها عدم وفاء النيل بالفيضان في بعض السنوات وترك كثير من الاراضي الزراعية بورا ، وعجز الملتزمين عن سداد الاموال الاميرية المقررة على هذه الاراضي ، ومنها كذلك في بعض الاحيان في تسديد هذه الاموال ، وكذلك فان ثورات الجند والصراعات بين البيوت المملوكية وبخاصة في القرن الثامن عشر ادت الى عدم الوفاء بالالتزامات المالية الاميرية في كثير من الاحيان ، هذا بالاضافة الى انتشار مرض الطاعون في بعض الفترات ، كل هذه العوامل لعبت دورها بدرجات

متفاوتة في اختلاف الموازنة العامة من سنة الى اخرى ، واخر تسجيل رسمي بصورة كاملة لايرادات مصر ومصروفاتها ،والمبالغ التي ترسلها الى الاستانة كجزية سنوية هو التسجيل الخاص بعام ١٢١٦ هـ ، الذي وضعه شريف افندي الروزنامجي وسننقل نصه هنا لتكون لدينا صورة واضحة عن موازنة مصر العامة في نهاية القرن الثامن عشر مـن واقـع الوثائـق :

الايرادات المتحصلة واقلامها :

الايرادات هي الاموال المتحصلة وهي نوعان :

١ ـ الاول منها كان يتحصل من اموال الاطيان الخراجية ، واطيان الحمايـة والرزق ، موقوفة او غير موقوفة ، ومن الاطيان المخصصة للكشاف (المنوطين بضبط وربط الاقاليم المصرية) وهي المعبر عنها بالكشوفية .

٢ ـ منها يتحصل من المقاطعات التي كانت تعطى التزاما حسب المستخرج من دفاتر ١٢١٦ هـ ، ومنه ما هو مبين بالبارة وصار تحويله بعرفة القلم (قلم الروزنامة) للقرش على حسب فيات ذاك الوقت كالاتي ايضاحه :

جملة الايرادات :

جملة المتحصل من النوع الاول والثاني :

مفردات النوع الاول :

١٠	٩١٢٢٤	قلم ايرادات الغلال الاميرية (عشور) اطيان الرزق .
٢٧	٩٥١٥٧٢	قلم اموال الاطيان الخراجية بولايات الشرقية والقليوبية والبحيرة والمنصورة واطفيح .
٢١	٨٠٦٥٧٤	قلم اموال الاطيان الخراجية بولايتي الغربية والمنوفية .
٣٩	٥١٨٢٠٦	قلم اموال الاطيان الخراجية بولايتي منفلوط والجيزة .
١٤	٢٤٧٨٧٧	قلم ايراد اطيان الفيوم والبهنساوية والاشمونين والمنفلوطية .
٠٢	٣٦٨٢١٧	قلم ايراد اطيان الكشوفية .
٠٠	٠٢٨٠٢٥	قلم اطيان الاوقاف التي تحت ادارة نظارها .
٠٠	٥٠٣١٥٢	قلم ايراد اطيان الاواسي والالتزام الموقوفة وغيرها بما فيها الرسوم الاميريـة .
٠١	٠٥١٤٧٧	قلم ايراد الاطيان المعبر عنها بالحماية المرخص لملتزميها بالايقاف والاستبدال والهبة وغيره وهي الاطيان التي تحت سلطة اربابها وهي قليـلة .
٣٤	٣٥٦٦٣٢٦	الجملة المتحصلة من النوع الاول .

مفردات النوع الثاني :

١٠	٠٥٨٦٩	قلم ايراد مقاطعة صيارف الاسواق .
٠٨	٠٤٦٦٦	قلم ايراد مقاطعة معامل الزجاج والسلخانة بالمحلة الكبرى .
١٣	٠٣٣٣٣	قلم ايراد مقاطعة الاحتساب ، وظيفة المحتسب بالمحلة الكبرى .
٠٠	٠٨٧٥٠	قلم ايراد مقاطعة صياغة الفضة بالمحلة الكبرى .
١٤	١٤٥٨٣	قلم ايراد مقاطعة وكالة النيلة بالمحلة الكبرى .
٠٠	٢٤٥٠٠	قلم ايراد مقاطعة السلخانة ورسوم الاغنام الواردة للذبح بمصر .
١٤	٢٣٣٣٣	قلم ايراد مقاطعة عوايد ارباب الحرف بمصر .
١٤	٠٤٩٥٨	قلم ايراد مقاطعة بصمة خانة الشيت .
٠٨	٠٢٩١٦	قلم ايراد مقاطعة الاحتساب وغيره بولاية الاشمونين .
١٤	٠٢٣٣٣	قلم ايراد مقاطعة البصمة خانة البلدي .
٠٠	٠٠٢٢٥	قلم ايراد مقاطعة عوايد القلافطة ببولاق .
١٤	١٣٣٣٣	قلم ايراد مقاطعة وكالة الصابون والبذرة بمصر .
٠٠	٣٥٠٠	قلم ايراد مقاطعة سوق الارز بدمياط .
١٤	٢٣٣٣	قلم ايراد مقاطعة عوايد شياخة الدلالة .
١٤	٩٣٣٣٣	قلم ايراد مقاطعة حلقات الاقطان ببولاق ودمياط والمحلة والمنصورة وسمنود .
٠٠	٠٤٣٧٥	صاغات البنادر .
٠٠	٠١١٢٥	قلم ايراد مقاطعة قرية المعتمدية .
١٤	١٨٠٨٣	قلم ايراد مقاطعة وكالة السكر .
١٤	٤٣٩٨٣	قلم ايراد مقاطعة رسوم معرفي المراكب ببولاق والبنادر ـ قلم ذات ايراد من عهد قديم كما ورد بدفاتر ١١٢٨ هـ
٠٠	١٩٢٥٠	قلم ايراد مقاطعة وكالة الجلود .
١٤	٠٠٣٣٤	قلم ايراد مقاطعة حملة الفحم .
٠٠	٣٢٥٠	قلم ايراد مقاطعة مدق الاقطان .
٠٤	١١٠٣٢٣	قلم مقاطعة كمرك السويس وتوابعه ، قلم ذات ايراد من عهد قديم كما بدفاتر سنة ١٢٢٨ هـ .
١٦	٣٣٦٢٤٤	قلم ايراد عوايد مقاطعة اسكندرية قلم ذات ايراد من عهد قديم كما بدفاتر ١١٢٨ هـ .
٠٠	٤٧٢٥٠٠	قلم ايراد مقاطعة دمياط قلم ذات ايراد من عهد قديم كما بدفاتر ١١٢٨ هـ .
٠٠	٢٢٧٥٠	قلم ايراد مقاطعة سوق الارزاق بمصر ، قلم قديم ذات ايراد من

عهد قديم كما بدفاتر سنة ١١٢٨ هـ .

..	٨٤٣٧٥	قلم ايراد مقاطعة اسماك وطيور المطرية ونخيل غيط النصـــارى : قلم ذات ايراد من قديم كما بدفاتر ١١٢٨ هـ .
..	..٦٨٢٥	قلم مقاطعة وكالة القطن بمصر .
.٨	..٩٩١٦	قلم ايراد مقاطعة سوق الغلال بمصر .
..	٤١٣٥	قلم ايراد مقاطعة سوق الارز برشيد .
.٨	..٤٦٦٦	قلم ايراد مقاطعة وكالة البزور بالمحلة الكبرى .
١٤	..٧٥٨٣	قلم ايراد مقاطعة معمل النشادر بمصر .
.٨	.٣.٩١٦	قلم ايراد مقاطعة معمل بوية العصفر .
..	.١...	قلم ايراد مقاطعة التبن برشيد .
١٤	.٧٥٨٣٣	قلم ايراد مقاطعة كمرك مصر القديمة .
.٧	.٢١٩١٦	قلم ايراد مقاطعة الاسماك بمصر والبنادر .
.٨	١٨٦٦٦٦	قلم ايراد مقاطعة الرسالة وموارد السفن ببولاق ومصر القديمة .
.٨	..٢.٤.	قلم ايراد مقاطعة طايفة المعمار بمصر .
..	١٢٢٥..	قلم مقاطعة وكالة البزور ببولاق .
١٤	.١.٨٣٣	قلم ايراد مقاطعة سوق الغلال بالرميلة المسماة الان بالمنشية .

وربط الايرادات وعدم اغتيال شيء منها، ومؤشر امام انواع تلك الاقلام بما يفيد اعطاءها التزاما بعد اشهارها بالمزاد .

المنصرف

هو المصروفات السنوية التي تقررت بذاك النظام المرسل للباب العالي كما علم من مضمون صور الفرمانات وعنوان الدفاتر المختصة بالمرتبات والمصروفات ، التي كان العمل فيها جاريا بمعرفة ديوان الروزنامجة ، وهذا بيانه :

انواع الصرف وجهاته :

١٥	٣٢٧٣٠٣	مرتب أهالي ومجاوري الحرمين الشريفين والاشراف ، من ريع اوقاف الملوك والامراء والاهالي المصريين .
٠٠	٨٥٠٢٧٢	مصاريف المحمل الشريف وعوايد العربان بطريق الحجاز .
٠٠	٢٩٢٥٠٦	مرتبات قضاة مصر والحرمين الشريفين سنويا من غلال ونقدية هذا المرتب قديم العهد .
٠٣	٩١٩٥٣١	مرتبات وظايف دعا كوى وعلما جامع الازهر ومجاوريه والفقراء وزاوية العميان نقدية من ريع الاوقاف .
٠٠	٢٧١٥٢٢	مرتبات بدل جراية اهالي الحرمين الشريفين الجامع الازهر والتكايا وزاوية العميان والاضرحة بمصر وكانت تصرف تلك المرتبات تارة غلال وجراية وتارة نقدية من ريع الاوقاف بخلاف المخصص صرفه من الايراد بمقتضى الفرمانات الشاهانية المعروف بمرتبات وظايف الدعاكوى .
٠٠	١٥١١٤٤١	ماهية الوالي والقواد وعلوفة العساكر وماهياتهم بحسب صنوف اسلحتهم الاتي بيانها وهي (مستحفظان) القوة المتحركة للمحافظة والدفاع ، (جاويشان) ، عساكر ضبط وربط البنادر ، (سكبان) ارباب الصنايع واللفجية ، (كوكليان) ، محافظو السواحل (عزبان) محافظو قلاع مصر والبنادر ، (كشوفية) لضبط وربط البنادر ، (طوبجيان) الطوبجية البرية والسواحل .
٢٤	٥٣٧٤٤٧	ثمن مهمات وذخائر عسكرية وخلافه .
١٧	٠٢٩٩٦٢	ماهيات مستخدمي الروزنامة خلاف ما كانوا يأخذونه الكتبة برسم قلمية من ارباب الالتزامات عند تحرير السندات الديوانية لهم بعد الانحلال ، وليس ذلك محصورا بدفاتر .

٣٩	١٠٠٤٨٧	مصاريف تطهير الترع والمشتروات والعمارات الاميرية .
٠٠	٠٠٤٩٢٢	ثمن سكر نبات برسم شربات الحضرة الشاهانية ضمن الاشياء المقرر ارسالها سنويا للاستانــة .
٠٠	٠٣٤٩٠٦	ثمن كهرجلة وفتيل مصري واستوبي واسباولي برسم الطوبخانــة العامرة بالاستانة القررسنوي .
٣٣	٦٨٦١٤٥	الباقي من الايراد بعد المنصرف وارسل الاستانة .

هــذه مصروفات الولايــة التي كانت تصرف بعرفة الروزنامجة على الاقــلام المذكورة ..

واكمالا للصورة الاقتصادية ، فانه يمكن عن طريق وثائق المحكمة الشرعية تتبع التغيرات التي كانت تطرأ على العملة المستعملة آنذاك بانواعها المختلفة وقيمة كل منها بالنسبة للعملة الرسميــة وهي نصف الفضة أو البارة فمثلا :

	١١٤٣هـ	١١٤٤هـ	١١٥٤هـ(١٨)	
(١ الفندقلي	١٤٠	١٣٤	١٤٦	بارة (نصف فضة)
(٢) الزنجرلي	١١٢	١٠٧	١٠٧	بارة (نصف فضة)
(٣) دينار ذهب محبوب	١١٠	١١٠	١١٠	بارة (نصف فضة)
(٤) الريــال	٧٥	٧٥	٧٥	بارة (نصف فضة)
(٥) الكيسة	٢٥/٠٠٠	٢٥/٠٠٠	٢٥/٠٠٠	بارة (نصف فضة)

وكانت الادارة في كثير من الاحيان تتدخل بناء على خطوط سلطانية لوضع حد لغش العملة وتذبذب قيمتها ، فيصدر الباشا فرمانا يحدد فيه قيمة العملة وابطال تداول ما يراه‌مضرا بالمصلحة العامة منها ويرسل الى الادارات المحلية بالاقاليــم باتباع ما حدده ، واحيانا كانت الادارة المحلية بالاقاليم تتدخل لوضع حد لهذا الاضطراب في المعاملة بناء على اجتماع يعقد بالاقليم من القاضي ورؤساء الفرق العسكرية بالاقليم والكشاف وغيرهم من أهل الراي لاتخاذ قرار في هذا الامر الى حين وصول امــر من الادارة المركزية بالقاهرة ، وسجلات المحكمة الشرعية المختلفة مليئة بمثل هــذه الاوامر ولنذكر مثالا من مضابط محكمة المنصورة الشرعية النص التالي :

يوم الجمعة الازهر خامس عشر محرم ١١٢٨هـ .

استقر الحال على ان المعاملة ماشية بين المسلمين الفلوس الجدد الديوانيــة والفضة القديمة الديوانية الواسعة ، والريال بخمسة وسبعين نصف فضة ، والجدد

الزغل ، والفضة المقاصيص بطالة الى ان يحضر امر صاحب الدولة والسعادة بمصر ، حسب رضا اعيان الولاية بذلك (١٩) .

(٢)الحياة الاجتماعية : ان الدارس لتاريخ هذه الفترة الاجتماعي يستطيع بسهولة الحصول على صورة بارزة المعالم للحياة الاجتماعية من مجموعات الوثائق السابق ذكرها فيقف على العلاقات التي كانت سائدة بين فئات المجتمع المختلفة وتطور هذه العلاقات من مرحلة الى اخرى في ضوء الحياة الاقتصادية السالفة الذكر ، تتبع هذه العلاقات في ظل نظام المقاطعات الذي كانت تدار به الارض ومصالح الحكومة الاخرى ، وتتبع دور طوائف المهن المختلفة ، وكيف انها اصبحت واسطة العقد بين المهنة والادارة ، والدور الذي اصبحت هذه الطوائف في الحياة الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية التي كانت سائدة بين افراد الطائفة الواحدة كوحدة متماسكة من وحدات المجتمع ، وعن طريق وثائق المحكمة الشرعية التيتعد تسجيلا كاملا للحياة اليومية المصرية سواء في المدينة او الريف يمكن للباحث الوقوف على العلاقات الاجتماعية التي كانت سائدة بين أفراد الاسرة الواحدة ثم بين افراد المجتمع عموما عن طريق تتبع معاملاتهم اليومية واشتراكهم في الاعمال بعضهم مع بعض ، حيث ان كل المعاملات التي كانت تتم بينافراد المجتمع كانت تسجل بدار المحكمة الموجودة بالحي أو الاقليم(٢٠) .

كذلك يمكن من واقع هذه الوثائق الوقوف على دور الادارة وتصرفها ازاء بعض الازمات والصراعات التي كانت تسود المجتمع ، وكيف كان والي القاهرة ، الذي يعد مسؤولا عن حفظ الامن في القاهرة ، يتصرف ازاء هذهالازمات والصراعات . كذلكيمكن العثور في هذه الوثائق على جهود بعض الامراء المماليك ازاء حل بعض هذه الازمات ، وبخاصة الاقتصادية منها التي اصبحت تنتاب المجتمع بين فترة واخرى ، وبخاصة في القرن الثامن عشر(٢١) .

ومن هذه الوثائق كذلك يمكن تتبع ارهاصات التغير في الحياة الاجتماعية في الريف ، وكيف تغيرت العلاقات بين الفلاحين والملتزمين حينما ازدادت الاعباء المالية وكثرت المظالم على الفلاحين ولم يعودوا يرضخون لكل ما يفرض عليهم بسهولة ودون معارضة ، وانما اصبحوا ينازعون الملتزمين فيما يفرضونه عليهم من زيادات اصبحت ترهق كاهلهم ، ولم يعودوا كما كانوا في السابق يخشون بأس هؤلاء الملتزمين ، وحينما شعر الملتزمون بهذه الارهاصات وبثقل الإعباء على الفلاحين وخشوا هجر هؤلاءالفلاحين للارض مما يضر بمصلحتهم وبقاء الارض بدون زراعة فغيروا من علاقاتهم مع الفلاحين واختفت من عقود الايجارات بعض العبارات التي تحمل الفلاحين اعباء مالية اضافية فبعد أن كان العقد في السابق يتضمن انه على الفلاحين دفع مايترتب على الحصة المذكورة، لجهةالكشوفية، وحق الطرق، وخدم العسكر والرزق والاوقاف، وجرف الجسور والمساقي السلطانية ، ومال الجهات والتقادم والفرد وساير المصاريف الكلية والجزوية

وغير ذلك الجاري به العادة اختفت هذه العبارة في نهاية القرن الثامن عشر من عقود الايجار ، بل واصبحت هذه العبارة اذا ذكرت في العقد تردف بعبارة تلغيها من على كاهل الفلاحين وتحملها للملتزم نفسه فتذكر عبارة « فان ذلك جميعه على مولانا الملتزم المشار اليه اعلاه» (٢٢) .

ومن قراءة هذه الوثائق كذلك يمكن تتبع عملية امتزاج فئات المجتمع المختلفة وخاصة في القرن الثامن عشر فعمليات التزاوج اصبحت تتم بين هذه الفئات بصورة كبيرة وبدات الحواجز التي كانت تحكم المجتمع من قبل تذوب فاصبح ابناء التجار والمهن الاخرى من المصريين وغير المصريين يقبلون على التزاوج من الفئات الاخرى عسكرية وغير عسكرية ، بل ومن الديانات الاخرى وعمليات اشهار الاسلام بين اليهود والمسيحيين في تلك الفترة كما سجلتها الوثائق اصبحت تتم بصورة كبيرة نتيجة لهذا التزاوج بين المسلمين وغير المسلمين (٢٣) .

كما ان هذه الوثائق تسجل الاحوال الشخصية لاهل الذمة ، والمهن التي كانوا يشتغلون بها من صرافة وتجارة وحياكة وصياغة ونجارة وكيف انهم كانو يلجأون بشكاواهم الى قاضي الشرع مثلهم في ذلك مثل المسلمين ليفصل لهم قضاياهم ويرد لهم حقوقهم طبقا لاصول الشريعة وللتقاليد التي كانت سائدة في المجتمع(٢٤) .

اما بالنسبة لدور اهل الذمة في الريف فان هذه الوثائق ترسم صورة للدور الكبير الذي كان يقوم به الاقباط في ادارة القرية المصرية فقد كانوا يقومون بعمل الصرافة وكان هؤلاء الصرافون طبقا للدفاتر التي كانت بايديهم يعرفون المنزرع والبوز من اراضي كل قرية ومقدار الضرائب المقررة على كل فدان وقد تلاعب بعضهم في كثير من الاحيان بمقدرات الفلاحين مستغلين سلطتهم في وقت جمع الضرائب ، حتى اصبح وقت مجيء الصراف الى القرية من الاوقات الذميمة في نظر الفلاحين ، وعموما فان معرفتهم باراضي القرى تفصيليا اعطاهم اهمية كبيرة في ادارة القرية ، وقد استطاع رجال الحملة الفرنسية اعتمادا على دفاتر هؤلاء الصرافين الاقباط ان يضبطوا دخل مصر من الاراضي الزراعية وان يضعوا دفاتر الترابيع ، وهي الدفاتر التي تحتوي على تفاصيل ذات اهمية بالغة عن مساحة كل قرية بالفدان ومقدار الضريبة المقررة على كل فدان ، والاعباء المالية الاخرى المقررة التي كانت مقررة على القرى ، والى جانب ذلك فان الاقباط اشتغلوا ببعض الصناعات التي كانت قائمة آنذاك مثل صناعة غزل ونسيج الصوف والاشراف على خلايا النحل وصناعة التفريخ وغير ذلك من الصناعات الريفية (٢٥)

وقد كان اشتغال الاقباط بالاعمال السابقة هو الاساس الذي قامت عليه ثروات بعض بيوتهم منذ نهاية القرن الثامن عشر .

ومن هذه الوثائق يمكن رصد تاريخ عملية اجتماعية ذات مغزى كبير في تاريخ مصر الاجتماعي وهي حركة الاعتاق وتحرير الرقيق الذين كان يجلبهم الامراء المماليك ويحملون لقب معتوق او معتوقة ، وبذلك يملكو نحريتهم ويتزاوجون من فئات الشعب المختلفة ويمتزجون بها وبخاصة في القرن الثامن عشر ، بل ان هؤلاء العتقاء اصبحوا ملتزمين وتجارا واصحاب رؤوس اموال نتيجة لما كان أسيادهم الاول يغدقونه عليهم من هبات وبخاصة اذا كانوا عتقاء امير كبير من امراء المماليك .

اما وثائق محاكم الاقاليم فانها تسجل العلاقات الاجتماعية التي كانت سائدة في الريف وبخاصة عمليات الزواج والطلاق والتركات ، وعلاقات الاسر بعضها ببعض ، وكيف انها اصبحت متشابكة بين افراد العائلة الواحدة أو العائلات المختلفة كما توضح الدور الذي اصبحت تلعبه طوائف المهن في المجتمع الريفي ، وتحكمها في كثير من الاسعار ، وبخاصة فئة التجار ، كما نعثر فيها على ملامح تغير بعض العلاقات الاجتماعية التي كانت قائمة بين اهل الريف وفئة الملتزمين وبين الملتزمين بعضهم ببعض ، وبين الجميع واجهزة الادارة ، وهجر الفلاحين لقراهم وخراب كثير من القرى نتيجة لكثرة الاعباء التي اصبحت على الفلاح المصري وكيف تأثر كذلك بالصراعات المملوكية التي اتخذت من القرى ميدانا فسيحا لها ، كما توضح كذلك أن بعض ابناء الريف الذين حازوا على بعض الثراء اصبحوا يشكلون فئة اجتماعية متميزة على ابناء طبقتهم مثل مشايخ القرى وان كانت هذه الوثائق تعكس في نفس الوقت سوء حالة بعض هؤلاء المشايخ الاقتصادية ورغم ذلك فانهم ظلوا يمثلون الفئة الاجتماعية المتميزة على ابناء طبقتهم نظرا لوضعهم في ادارة القرية الذي ساعدهم على الاحتفاظ بهذا الوضع الاجتماعي .

كذلك فان هذه الوثائق تسجل تفصيليا الاحداث التي كانت تحدث في الريف مثل القتل والسرقة وعمليات الاغارة وغير ذلك من الجرائم ، وبخاصة ما كان يتعلق منها بأمور الري ، كما تسجل عمليات المصالحة التي كانت تتم بشأن هذه الامور ، وتلعب دورها في انهاء هذه الأفات التي كانت تهدد الريف ، كما توضح دور القضاء الشرعي في انهاء هذه الجرائم ووضع العقاب الرادع لها .

عموما فان دراسة هذه الوثائق تضع امام الباحث الصورة الاجتماعية لتاريخ مصر الاجتماعي في اوضح اطار .

تقويـم :

مما سبق يتضح ان وثائق تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني جد متوفرة ، ولا تحتاج الا لجهد فريق من الباحثين للتنقيب فيها وتحليلها واعادة كتابة تاريخ مصر عن هذهالفترة كتابة صحيحةبعيدة عن خرافاتبعض المدعين عن تاريخنا في هذه الفترة مع ملاحظة الامور التالية :

اولا : ان هذه الوثائق مع ضخامة المادة التي تحويها فانها في كثير من الاحيان ترصد الحقائق دون تفسير الاسباب التي كانت وراء حدوثها كما ان بعضها ، وبخاصة ما يتعلق منها بالناحية الاقتصادية مثل دفاتر الالتزام ودفاتر الترابيع فانها تقتصر على تسجيل البيانات الاقتصادية وما يطرأ عليها من تعديل زيادة ونقصانا ، ومن هنا فان الباحث في هذه الوثائق عليه ان ينقب لمعرفة اسباب هذا التغيير في المصادر المعاصرة ويربط هذه البيانات باقوال المعاصرين ويحللها ويخرج برأيه الذي يراه نتيجة للمقارنة والدراسة التي يجريها .

ثانيا : يجب ملاحظة انه مع اغراء هذه الوثائق الوفيرة فان الباحث يجب ان يكون حذرا والا يأخذ كل ما يرد بها على انه مسلمة من المسلمات لاجدال فيها ، وبخاصة وثائق المحكمة الشرعية فليس من المنطق اتباعا لاسلوب البحث العلمي السليم ان نعمم حكما يرد في هذه الوثائق ضد شيخ قرية كونه ظلم بعض الفلاحين ، على ان كل مشايخ القرى ظلمة ، وانما يجب ان يكون الحكم فيإطار الواقع والظروف التي حدث فيها الحادث ، كذلك حينما تسجل هذه الوثائق عدل ملتزم مع فلاحي حصته ، والتزامه فليس معنى ذلك ان كل الملتزمين كانوا عادلين ، وانما لابد من بحث الظروف التي ادت بهذا الملتزم ان يكون عادلا ، وهكذا يجب القياس حتى يخرج الباحث برأي علمي صادق في حكمه التاريخي .

ثالثا : لابد لمن يتصدى لدراسة هذه الوثائق اولا من الالمام بمصطلحات العصر واسلوبه حتى لايضل الطريق وفهم هذه المصطلحات بمدلول عصر غير العصر الذي كتبت فيه ، كما انه لابد له كذلك من معرفة معاني بعض التعبيرات التي كانت شائعة في عامية هذا العصر وكثيرا ما ترد في هذه الوثائق لتعبر عن معنى اجتماعي أو اقتصادي كانت تفهم به في عصرها بخلاف المعنى الذي نفهمه بها الان .

(١) كانت مصر في العصر العثماني مقسمة الى عدة اقسام ادارية ، يطلق على كل منها اسم ولاية أي محافظة وكانت هذه الولايات هي :

آ ـ الوجه البحري : الشرقية ، المنصورة ، البحيرة ، قليوبية ، غربية ، منوفية ، جيزة .

ب ـ الوجه القبلي : بهنساوية ، اشمونين ، منفلوط ، جرجا ، طفيح ، الواح داخل جرجا ، فيوم ، ولم يكن هذا القسيم ثابتا وانما طرأت عليه تغييرات كثيرة كان أهمها التغيير الذي حدث ١١٠٦ هـ/١٦٦٤ م ، حيث برزت جرجا كاحدى الولايات الكبرى واختفت ولايات اخرى مثل اسيوط ، ابريم .

لمزيد من التفصيلات عن التقسيمات الادارية انظر : عبد الرحيم عبد الرحمن ، الريف المصري في القرن الثامن عشر ، ص ٧ ـ ١٧ .

(٢) كانت اراضي كل ناحية في ذلك العصر تقسم الى اربعة وعشرين قسما متساويا ، يطلق على كل منها اسم قيراط ، وهذا النظام لم يكن معمولا به فقط في الاراضي الزراعية وانما كان معمولا به في جميع المعاملات أي تقسيم كل شيء الى اربعة وعشرين جزءا ، أي قيراطا ، فمثلا كانت البيانات تسجل في دفاتر الالتزام على النحو التالي : « مقاطعة سلمون (ولاية المنصورة) : در عهدة (أي في عهدة) مصطفى افا كتخدا سابق جاويشان بحق ٨ قيراط ، وشيخ يوسف الحنبلي بحق ٨ قيراط ، ومحمد عبد الرحمن البكري الصديق بحق ٤ قيراط ، ومحمد جوربجي تابع مستحفظان بحق ٤ قيراط » .

انظر سجلات الالتزام ، سجل رقم (٢) ، عبدالرحيم عبد الرحمن ، المصدر السابق ، ص ٩٨ .

(٣) بخصوص هذه الاوامر الباشوية والحجج الشرعية التي صدرت من قضاة الشرع في هذه الثغور بناء على هذه الاوامر يمكن الرجوع الى محافظ المرتبات ، المحفوظة بدار الوثائق التاريخية بالقاهرة حيث نجد على ظهر ورقة الامر ، الحجة الشرعية الصادرة بخصوصه ، فمثلا صدر الامر من والي مصر الى قاضي اسكندرية السيد سعدي الصادقي ، وامين جمركها عمر آغا :

الموضوع : صرف (٨٦٧٣٠) بارة ماهية عساكر قلعة اسكندرية عدد ٤٨٩ نفرا عن اشهر رجب وشعبان ورمضان ١٠٨٧هـ/١٦٧٦م ، (٣٧٠) بارة مشاهريتهم عن المدة المذكورة فيكون المبلغ (٨٧١٠٠) بارة ، صرف المبلغ المذكور اعلاه من واردات جمرك الاسكندرية الى محمد مصطفى البلوكباشي وقد صرف المبلغ في ٧ ذي الحجة ١٠٨٧هـ/١٠ فبراير ١٦٧٧ م ، تاريخ حجة التسليم .

وكما هو مدون في الاوراق فان تاريخ صدور الامر ١٣ رمضان ١٠٨٧هـ/١٩ نوفمبر ١٦٧٦ م ، كانت تصدر الاوامر الباشوية الى امناء الجمارك لدفع مرتبات الجند من ايراداتها .

(٤) انظر عبد الرحيم عبد الرحمن ، المصدر السابق ، ص ٢٧٤ .

(٥) دار المحفوظات العمومية ، مخزن (١٨) ، عين (١٩) ، دفتر الترابيع رقم ١٦٠٥ .

(٦) دار المحفوظات العمومية : مخزن ١٨ ، عين ١٩ ، دفاتر الترابيع ، دفتر ١٦٠٥ .

(٧) ارشيف المحكمة الشرعية ، محفظة دشت رقم ٢٩٢ ، ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

(٨) ارشيف المحكمة الشرعية ، سجلات اسقاط القرى ١، ٢، ٣٤ ، وعلى سبيل المثال سجلات محكمة المنصورة ، رقم ١، ٢، ٣٤، ٤٤، ٥ ، دار المحفوظات العمومية ، مخزن ٤٦ .

(٩) ارشيف المحكمة الشرعية سجلات الباب العالي سجل رقم ٢١٣ ص ٣٢٥ ، مادة ٧٢٩ .

(١٠) ارشيف المحكمة الشرعية ، محفظة دشت رقم ٢٩٢ .

(١١) المحكمة الشرعية ، سجلات اسقاط القرى ، سجل ، رقم ٣ ص ١٠١ .

(١٢) دار المحفوظات العمومية ، مخزن (١) تركي ، دفاتر الرزق الاحباسية رقم ١٦١٧ ، ١٦١٨ ، ١٦٢٤ ، ١٦٢٦ .

(١٣) عبد الرحيم عبد الرحمن ، الريف المصري في القرن الثامن عشر ، ص ٨٣ - ٨٤ .

(١٤) دار المحفوظات العمومية ، مخزن (٤٦) ، مضابط محكمة المنصورة الشرعية ، رقم ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، حيث نجد على سبيل المثال النص التالي خاص بطايفة الخبازين ((يوم الاربعاء العشرون من شهر رجب سنة ١١٢٦هـ / ١٠ اغسطس ١٧١٤ حضروا طايفة الخبازين ، وعملوا تسعيرة خبز ، فوافق الخبز الصامولى النظيف المقر بالنار اوقيتين ونصف وربع اوقية بجديد ، وان الخبز الطباقى ، اربعة اواق الا ربع اوقية بجديد ، وكان سعر القمح ستة أنصاف فضة ، وربع نصف فضة والطحن بنصف فضة وجديد)) مضبطة رقم (١) ص ١٠٨ . (م)

(١٥) المحكمة الشرعية ، ارجع على سبيل المثال الى ، سجلات محكمة الباب العالى ، وسجلات محكمة طولون ، حيث تجد سيلا من هذه الوثائق المتعلقة بهذه الموضوعات.

(١٦) المحكمة الشرعية ، ارجع الى سجلات التركات .

(١٧) دكتورة ليلى عبد اللطيف الادارة في العصر العثماني ، الفصل الثالث عشر ، ص ٣١٩ - ٣٦٥ .

(١٨) بخصوص هذه المعلومات انظر : سجلات اسقاط القرى ، سجل (٢) ، ص ٩٨ ، سجل (٣) ص ٣٠ ، سجلات الديوان العالي ، سجل (١) ، ص ٢ ، سجلات الباب العالي ، سجل (٢٠٧) ، مادة ١٤٤ ، ص ٣٧٧ .

(١٩) دار المحفوظات العمومية ، مخزن (٤٦) مضابط محكمة المنصورة الشرعية ومضبطة (١) ، ص ١٣٦ .

(٢٠) ارشيف المحكمة الشرعية ، سجلات الديوان العالي ، ١ ، ٢ ، ٣ ، وسجلات ، اسقاط القرى ، ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، وسجلات الباب العالي ، من رقم ١ الى نهاية المجموعة ، وسجلات محكمة طولـــون ، وسجلات محكمة باب سعادة والخرق ، وسجلات محكمة قناطر السباع ، وسجلات محكمة الصالحية النجمية ، ومحافظ دشت ففي هذه المجموعات صورة كاملة لواقع الحياة اليومية المصرية والعلاقات الاجتماعية .

(٢١) عبد الرحيم عبد الرحمن ، الريف المصري في القرن الثامن عشر ، ص ٢٢٨ - ٢٩٢ .

(٢٢) المحكمة الشرعية ، سجل مبايعات الباب العالي ، رقم ٣١٣ ، مادة ٨٩ ، ص ٣٢٥ .

(٢٣) المحكمة الشرعية ، سجلات محكمة طولون ، وسجلات الباب العالي .

(٢٤) عبد الرحيم عبد الرحمن الريف المصري ص ١٣٣ - ١٣٥ .

(٢٥) انظر : على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ص ٩ ، ص ص ٧٤ ، حيث ذكر وصفا مطولا لانواع معامل التفريخ ، والنسبة التي تؤخذ كاجر على عملية التفريخ .

دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية

تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب

تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

العدد السادس : ذو الحجة ١٤٠١ هـ / تشرين الاول ــ أكتوبر ١٩٨١ م

تنويـــه

- ترتيب البحوث يخضع لضرورات فنية .
- الاراء الواردة في المجلة تعبر عن وجهة نظر صاحبها .

قافلة الحج الشامي
واهميتها في العهد العثماني

د. عبد الكريم رافق

كلية الاداب ــ جامعة دمشق

كانت قافلة الحج الشامي احدى قافلتين رئيسـتين في الدولـة العثمانية ، والقافلة الاخرى هي قافلة الحج المصري . وقد اوجدت في عام ١٥٥٦/٩٦٣ قافلة ثالثة ، هي قافلة الحج اليمني ، ولكن وجودها كان متقطعا ، والغيت في عام ١٦٣٥ ، عندما استقل اليمن ، بزعامة الأئمة الزيديين ، عن العثمانيين . وكان اليمن بذلك اول ولاية عربية تخرج عن السلطة العثمانية .

وقد لعبت قافلة الحج الشامي دورا هاما في تاريخ دمشق وبلاد الشام بعامة ، من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والدينية . وكانت لها اهمية خاصة في الدولة العثمانية لان السلطان العثماني ، منذ فتحه حلب في عام ١٥١٦، اتخذ لقب حامي (او خادم) الحرمين الشريفين ، واقتضى ذلك تامين سلامة الحجاج لزيارة الحرمين الشريفين . كما ان انتقال العلماء والافكار ، وكذلك التجار ورؤوس الاموال ، من دمشق واليها ، ابان فترة الحج ، كانت له آثاره الواضحة محليا وفي الدولة العثمانية ككل .

تشكل القافلـة

أم دمشق ، في موسم الحج ، عدد كبير من الحجاج ، من المناطـق الشمالية والشرقية ، من داخل الدولة العثمانية وخارجها . ووصل الحجاج اليها جماعات عرفت بحسب مناطقها . وكان ابرزها الحج الرومي ، والحج الحلبي ، والحج العجمي،

* اعد هذا البحث للمؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، دمشق ، ١٦ ــ ٢١ جمادي الآخرة ١٤٠١ هـ / ٢٠ ــ ٢٦ نيسان ١٩٨١ م .

والحج الشـــامي(١) . ولم تكن هذه التقسيمات الجغرافية ضيقة المعنى ، اذ التحق بهذه الجماعات حجاج من خارج مناطقهم .وكان اكثر هذه الجماعات عددا الحج الرومي لان كلمة روم اطلقت على المناطق ما وراء طوروس والفرات(٢) .

ولم يمر الحج الرومي، في الغالب، بمدينةحلب، ولهذا لم يندمج معالحج الحلبي. أما الحج العجمي فكان يأتي الى دمشق اما عبر حلب اومباشرة عبر بغداد والطريق الصحراوي برفقة قافلة التجارة ، للافادة من الحماية المتوافرة لها . ووصل بعض الحجاج الى دمشق قبل انطلاق القافلة باربعة او خمسة اشهر ولكن الغالبية منهم وصلت في شهر رمضان . واقام معظم الحجاج في منطقة المرج بدمشق ، قرب التكية السليمانية . ونزل بعضهم في خان الحرمين ، قرب باب البريد(٣) ، او بالقرب من جامع الورد(٤) ، في سوقساروجا . واقام الحجاج الاعجـام عادة في حي الخراب والسويقة(٥) .

ولم يشر الاخباريون الدمشقيون الى عدد الحجاج الذين وصلوا دمشق .وكانوا يكتفون بالقول انه وصل حج كبير او كثير . واشاروا احيانا الى عدد الحجاج الاعجام الذين قدروا عددهم ، في احدى المرات ، بنحو ثلاثمائة (٦) ، وفي مرة اخرى ، بالف وستمائة ، ووصفوهم انذاك بانهم « حجاج كثيرون من العجم »(٧) . وقد لفت الحجاج الاعجام النظر بسبب البضائع التي كانوا يحملونها وبخاصة الاحجار الكريمة .

ولم يشر الاخباريون المحليون الى عدد حجاج قافلة الحج الشامي ككل الا في الحالات التي هوجمت فيها القافلة في طريقها الى الحجاز . ولم تكن الاعداد التي اعطوها صحيحة لانها غير مبنية على اية وقائع . وكثيرا ما كانت تضخم للايحاء بشدة الهجوم وكثرة الخسائر ، كما حدث مثلا بالنسـبة للقافلـة التي هوجمـت في طريق العودة في ايلول ١٧٥٧ ، في المنطقة بين القطرانة ومعان . وقد قدر عدد هذه القافلة الرحالة الفرنسي فولني ، الذي زار بلاد الشام في حوالي عـام ١٧٨٤ ، بأنه كان ٦٠٫٠٠٠(٨) . وقدرها مصـــدر معاصر في استانبـول بانها كانت بين ٧٠٫٠٠٠ و ١٠٠٫٠٠٠(٩). وذكر فولني أن عدد حجاج القافلة في الظروف العادية تراوح بين ٣٠٫٠٠٠ و ٥٠٫٠٠٠(١٠). وقد قدر عددها مراقب آخر في عام ١٧٣٩ بانه يتراوح بين ١٥٫٠٠٠ و ٢٠٫٠٠٠(١١) . ولعل متوسط عدد حجاج قافلة الحج الشامي كان بحدود ٢٠٫٠٠٠ ، وارتفع احيانا الى ٤٠٫٠٠٠ ، او اكثر ، في الاوقات التي اعقبت كارثة ما ، أو حربا ما ، اقتضت التوجه الى الحج لشكر الله على انتهائها ، او حين ازدهرت حركة التجارة مما زاد في عدد التجار المرافقين لقافلة الحج(١٢).

وقد تناقص عدد الحجاج الاروام ، الملتحقين بقافلة الحج الشامي ، في القرن التاسع عشر ، في اعقاب تسيير البواخر المنتظمة في البحر الابيض المتوسط ، فانتقل عدد متزايد من الحجاج بواسطتها الى جدة ، وبخاصة بعد افتتاح قناة السويس في عام ١٨٦٩ . وقدر عدد حجاج القافلة التي عادت الى دمشق في ٢١ نيسان ١٨٤٥ ب ٦٠٠٠ منهم ٢٠٠٠ تركي و ٢٠٠٠ عجمي والبقية من العرب(١٣) . وذكر ان الحجاج الاعجام قد استخدموا في اوائل عام ١٨٧٠ البواخر من الخليج العربي الى جدة(١٤) .

قيادة القافلة :

لم تخرج قافلة الحج الشامي الى الحجاز في السنتين اللتين اعقبتا الفتح العثماني لبلاد الشام في عام ١٥١٦ بسبب التبدل في السلطة الحاكمة واضطراب الامن في الارياف وتحرك القبائل البدوية(١٥) . وبعد ما قضى العثمانيون على ثورة جان بردي الغزالي ، والي دمشق المملوكي الاصل ، في عام ١٥٢١ ، استبعد المماليك نهائيا من امارة الحج الشامي ، في حين انهم تسلموا قيادة قافلة الحج المصري طوال وجودهم في مصر في العهد العثماني . وعمد العثمانيون ، في بلاد الشام ، الى تعيين احد الامراء المحليين ، من حكام صناجق غزة او عجلون او اللجون او نابلس او صفد او القدس ، التي كانت تتبع ولاية الشام ، اميرا على الحج . وممن عين من هؤلاء الامراء المحليين امراء لقافلة الحج الشامي قانصوه بن مساعدة الغزاوي امير عجلون والكرك ، الذي شغل منصب امير الحج الشامي مدة خمس عشرة سنة ، من حوالي عام ٩٨٠/١٥٧٢ — ١٥٧٣ ، وعين ايضا لهذا المنصب الامير منصور بن فريخ ، امير البقاع ، الذي مد سلطته على صناجق صفد وعجلون ونابلس ، والامير احمد بن الامير قانصوه بن مساعدة الغزاوي ، حاكم عجلون ، والامير طراباي ، حاكم اللجون ، والامير فروخ بن عبد الله ، حاكم نابلس والقدس(١٦) .

وكانت الدولة العثمانية قد اعترفت بهؤلاء الامراء المحليين ، الذين قامت قوتهم على اسس قبلية واقطاعية ، حكاما على الصناجق التابعة لولاية الشام لانهم اثبتوا وجودهم وسلطتهم محليا ، وكان القضاء عليهم سيكلف الدولة كثيرا من الجهد . وضمنت الدولة بذلك دفعهم الضرائب اي اموال الميري (المشتقة من امير وتجبى من اراضي الدولة) ، عن المناطق التي سيطروا عليها . ثم عمدت الى تعيين بعضهم امراء للحج لانهم اصحاب سلطة بين البدو وبامكانهم تسيير قافلة الحج بسلام الى الحجاز . ولجأت الدولة ، من ناحية اخرى ، لضمان سلطتها على هؤلاء الامراء ، الى اثارة امير ضد آخر .

وحين قام فخر الدين المعني الثاني ، امير جبل لبنان ، بتوسيع سلطته في الفترة بين ١٥٩٠ و ١٦٣٥ ، لتشمل الساحل اللبناني والبقاع وصناجق فلسطين ، اصطدم بالامراء المحليين ، الذين عينوا امراء على الحج ، فأزال بعضهم من السلطة ، واضعف البعض الآخر . وحين قضت الدولة العثمانية على الامير فخر الدين في عام ١٦٣٥ ظهر فراغ محلي في المنطقة ، سرعان ما ملأه ولاة دمشق وولاة صيدا ، بعد تأسيس هذه الولاية في عام ١٦٦٠ . وعمدت الدولة الى تعيين انكشارية دمشق الذين ازدادت سلطتهم ، في هذه الفترة ، امراء على الحج الشامي . وعين هؤلاء الانكشارية، في الوقت نفسه ، حكاما على صنجق او اكثر من صناجق فلسطين ، ليتمكنوا من جمع الضرائب المحلية ، لتغطية نفقات القافلة . كما ان القوات الموضوعة تحت تصرفهم ؛ لقيادة القافلة ، اقامت معهم في هذه الصناجق . وبازدياد نفوذ انكشارية دمشق عمدت الدولة ، في عهد الوزراء العظام من آل كوبريلي (١٦٥٦-١٦٧٦) ، الى البطش بزعمائهم في عام ١٦٥٩ . واقامت طائفة انكشارية جديدة عرفت بالقابي قول (عبيد السلطان) الى جانبهم . وكانت هذه الطائفة اكثر ولاء للسلطان . وعرفت الطائفة الاولى باليرلية (المحلية) وبدولة دمشق ، لكثرة ما سيطرت عليها العناصر المحلية ، بينما عرفت القابي قول بدولة القلعة ، حيث اقامت سلطتها ودعمت هيبة الدولة . ولجأت الدولة اثر ذلك الى تعيين موظفين عثمانيين ، ضموا بعض ولاة دمشق ، امراء الحج الشامي . وعين بعضهم ، في الوقت نفسه ، حكاما على الصناجق السابقة . وطبيعي انه لم تكن هنالك من سنة محدده تم فيها استبدال طائفة من امراء الحج باخرى ، اذ تداخلت الفترات مع بعضها ، ومع ذلك تميزت كل فترة باشتهار فئة معينة في امارة الحج(١٧) .

وحين عين حاكم الصنجق اميرا على الحج ، وكذلك حين عين امير الحج حاكما على صنجق ما . فان امير الحج - حاكم الصنجق اقام مع قواته في ذلك الصنجق الى أن يحين موعد سفر القافلة . ويأتي عندئذ الى قبة الحج ، في طرف دمشق الجنوبي ، خارج بوابة ، أو باب الله ، حيث تتجمع قافلة الحج ، لقيادتها الى الحجاز . وفي الحالات التي لم يعين فيها امير الحج حاكما على صنجق ما فانه اقام مع القوات الموضوعة تحت تصرفه في دمشق . ونتج عن ذلك اضطراب الوضع الامني والاجتماعي في المدينة لما سببته تلك القوات من فوضى . وذكر مفتي دمشق محمد خليل المرادي ، صاحب « سلك الدرر » . ان هذه الفوضى حفزت جده مراد المرادي للطلب من السلطان «برفع امارة الحج عن دمشق وعودها الى حكام القدس وعجلون وتلك البلاد كما كان الامر في الزمن السابق لاضمحلال حال دمشق بسبب ذلك فان دمشق من حين صارت امارة الحاج عليها زال رونقها وكثر الظلم بسبب ذلك فيها وزالت محاسنها وعمت الشدايد بها . . . وقبل السلطان رجاه ورفعها عن دمشق وكانت منذ سنين لم ترفع

ووجهها للشريف يحي بن بركات المكي بمنصب القدس فذهب المذكور في تلك السنة اميرا للحج وارتفع عن اهالي دمشق في تلك السنة الظلم والعساكر والبغي والجرائم مما كان يوجد في وقت الحج . ثم ان الشريف يحي المذكور سها سهوة بأذيه بعض الحجاج وبغى العرب فلما اخبرت الدولة العلية بصنيع الشريف يحي عزل من ذلك واعيدت امارة الحج الى دمشق كما كانت وهي الى الآن »(١٨) . وكانت امارة الشريف يحي للحج في سنة ١١٠٢ / ١٦٩٠ – ١٦٩١ . وأصبحت دمشق منذ هذا التاريخ مركز امراء الحج من الموظفين والولاة ، ولكن لم يعين ولاتها باستمرار امراء للحج حتى عام ١٧٠٨ .

ولم يكن للموظفين العثمانيين ، الذين عينوا امراء للحج ، مصالح محلية ، على غرار حكام الصناجق المحليين ، ليحرصوا عليها بل كان همهم الاثراء من منصبهم بعد ان اشتروه بالمال ، لذا عمدوا الى الامتناع عن دفع ما اعتادت الدولة دفعه من اعطيات للقبائل المتحكمة بطريق الحج لشراء طاعتها وحمايتها للقافلة . وقد عرفت هذه الاعطيات بالصر أو الصرة . وكانت تدفع للقبائل على قسطين ، في الذهاب وفي الاياب . وادى امتناع امير الحج عن دفع الصر الى البدو ، وبخاصة في طريق العودة ، الى مهاجمة القبائل القافلة . ومما أغرى البدو للقيام بذلك ان القافلة في طريق العودة كانت محملة بالبضائع .

وقد هوجمت قافلة الحج سبع مرات في القرن السابع عشر جرت خمس منها في الثلاثين سنة الاخيرة من القرن ، حين عين امراء الحج من الموظفين . وادى هجوم عام ١١١٢/١٧٠٠–١٧٠١ الى ابادة القافلة بكاملها تقريبا . وتسببت كثافة الهجمات في الاضرار بهيبة الدولة لدى المسلمين . وكانت الدولة العثمانية قد خرجت لتوها من حرب خاسرة مع ال هابسبورغ في اوربة اذ وقعت معهم في عام ١٦٩٩ معاهدة كارلو فيتز التي تخلت لهم بموجبها عن جميع هنغاريا وترانسلفانيا وبودوليا . وكانت هذه اول خسارة كبرى للعثمانيين منذ حوالي ثلاثمائة عام ، حين هزمهم تيمورلنك في عام ١٤٠٢ كما كانت هذه اول مرة وقع فيها العثمانيون الصلح كمنهزمين وتخلوا عن مناطق سيطروا عليها منذ فترة طويلة . وغدا السلطان، بنتيجة ذلك ، أكثر حرصا على سمعته بين المسلمين وبالتالي أكثر تصميما للحفاظ على سلامة قافلة الحج الشامي ، بصفته حامي الحرمين الشريفين . ولهذا عمد في عام ١٧٠٨ الى تعيين والي دمشق باستمرار اميرا للحج الشامي. وترتب على ذلك حدوث تطورات هامة في تاريخ دمشق . فلم يعد والي دمشق يكلف من قبل السلطان بالمشاركة في الحملات خارج حدود ولايته ، كما ان سفر الوالي – امير الحج مدة ثلاثة اشهر مع قافلة الحج اتاح المجال للقوى المتنفذة في دمشق للاقتتال فيما بينها وتعكير الامن العام غير عابئة بسلطة المتسلم الذي ناب عن الوالي .

وادى استئجار الوالي ـ امير الحج القوات المرتزقة وتجميعها في دمشق لحماية القافلة، الى اضطراب الامن في المدينة لان هذه القوات رفضت مغادرة دمشق بعد انتهاء مهمتها . وكان لها تأثير سيء على الاخلاق العامة التي أنهارت بسببها وبسبب الضائقة الاقتصادية لدى قطاع كبير من الشعب . وهذا ما يفسر كثرة ايراد البديري في يومياته لاخبار بنات الهوى وحوادث الانتحار .

ومن التطورات الهامة التي ترتبت على تعيين والي دمشق اميرا للحج استمراره في منصبه طالما انه يؤمن سلامة القافلة مما ارضى السلطان والراي العام الديني. ولهذا شهدت دمشق ، منذ عام ١٧٠٨ ، استمرار ولاتها في الحكم سنوات عديدة ، خلافا لما كان عليه الامر في القرن السابق . وقد أدى ذلك الى اطالة حكم الولاة من آل العظم الذين أمنوا سلامة القافلة ، وحكموا دمشق حوالي ستين سنة بشكل متقطع في القرن الثامن عشر ومطلع التاسع عشر .

واستمر ولاة دمشق يعينون امراء للحج حتى عام ١٨٦٦ حين فصل المنصبان ، وعهد بالامارة الى قائد قوات (الباش بوزوق) ، الذي أصبح يعرف بمحافظ الحج . واختير محافظ الحج ، في الفترة بين ١٨٦٦ و ١٩١٦ عندما توقفت القافلة ، من اغوات الاكراد في دمشق ، من أسر اجليقين وبوظو وشمدين واليوسف(١٩) . وهكذا نلاحظ ان تبدل هوية امير الحج الشامي ، خلال اربعة قرون من الحكم العثماني ، قد املته التطورات السياسية في بلاد الشام و تبدل الاوضاع العامة في الدولة العثمانية .

والى جانب امير الحج وجد امير الجردة الذي عرف ايضا بلقب باشة الجردة ، وجرده‌جي ، وامير الملاقاة . ومهمة الجردة ، في الاساس ، الخروج لملاقاة القافلة في طريق عودتها وتزويدها بالمؤن التي تنقصها . ونظرا لتعرض الجردة الى هجمات البدو فقد اضطرت الى التسلح. وعلى غرار امير الحج عين امين الجردة اولا من بين الامراء المحليين ثم من الانكشارية والموظفين. وحين أصبح ولاة الشام امراء للحج عهد بامارة الجردة الى والي صيدا او والي طرابلس، وفي حالات نادرة الى والي حلب. وعمد والي دمشق ـ امير الحج الى الطلب من السلطان ان يعين ابنا له او قريبا واليا على صيدا او طرابلس او كليهما ليضمن ولاء امير الجردة وحرصه على الذهاب الى ابعد مسافة في ملاقاة الحج . ولهذا كثيراً ما حكم افراد اسرة واحدة ، في القرن الثامن عشر ، ولايات الشام وصيدا وطرابلس في آن . وابعد نقطة وصل اليها امير الجردة لملاقاة قافلة الحج كانت في هدية . وتغادر الجردة دمشق عادة في شهر ذي العقدة او ذي الحجة ، واذا ما تعرضت الى اعتداء عليها وجب اعداد جردة اخرى. والقيت مسؤولية ذلك، في الغالب، على الدمشقيين(٢٠) .

تمويل القافلة

تنوعت المصادر المالية التي مولت قافلة الحج الشامي ، وجاء قسم كبيرمنها من الضرائب التي اشير اليها بمال الميري ، او من الرسوم التي فرضتهاالدولة على التجارة والصناعات في ولاية الشام بصورة رئيسية وفي ولايات صيدا وطرابلس وحلب الى حد ما . وقد سبقت الاشارة الى ان تعيين امير الحج من بين حكام صناجق نابلس ، عجلون ، اللجون ، غزة ، صفد ، القدس ، أو تعيين امير الحجحاكما ، فيالوقتنفسه، على واحد او اكثر من هذه الصناجق ، في الفترة التي سبقت تعيين والي الشام اميرا للحج ، في ١٧٠٨ ، كان الهدف منه جمع اموال الميري من هذه المناطق لتمويل قافلة الحج . وعرف المال المخصص لذلك بأنه « مال الحج » ، والمال المخصص للجردة بأنه «مال ملاقاة الجردة »(٢١) . وعندما عين والي دمشق اميرا للحج اصبح يخرج بنفسه كل سنة ، قبيل خروج القافلة ليدور على الصناجق التابعة لولايته ويجمع منها مال الميري المخصص للقافلة ، وعرف خروجه هذا بالدورة . ورغم ان والي دمشق هو في الاساس المحصل الرئيسي لاموال الميري في ولايته فلم يكن مضطرا قبل تعيينه لامارة الحج للخروج كل سنة لجمع الضرائب لان حكام الصناجق المحليين الذين عينوا امراء للحج قاموا عنه بهذه المهمة . واستغرقت الدورة ما يقرب من الشهر واصطدم الوالي خلالها بالملتزمين الذين رفضوا دفع اموال الميري ، كما حدث مثلا في هجوم والي دمشق سليمان باشا العظم على ظاهر العمر المتحصن في طبرية في عام ١٧٤٣ ،وقد توفيالوالي اثناء الحصار(٢٢) . واذا ما اضفنا الزمنالذياقتضاهغياب الواليفيالدورة الى فترة غيابه مع قافلة الحج لتبين ان مجموع غيابه عن دمشق مشتغلا بأمور القافلة قد بلغ حوالي اربعة اشهر .

ومن الموارد المالية التي رصدت لقافلة الحج « مال البدل » ، أي المال الذي دفعه أصحاب الاقطاعات من الجنود السباهية (الفرسان) لقاء اعفائهم من القيام بالخدمة العسكرية. وقد حدث ذلك بعد ان تضاءل شأنالجنود السباهية،بالمقارنة معالانكشارية اصحاب النفوذ المتزايد(٢٣) . كما ان مالكانات حمص وحماه ومعرة النعمان التي التزمتضرائبها مدىالحياة الحقتبواليدمشقمنذ ان عيناميرا للحجلينفقمنعائداتها على قافلة الحج(٢٤) . وهناك مصادر مالية اخرى ، مثل التزام المقاطعات والاقلام المتنوعة التي رصدت لتمويل الحج والتييضيق المجال بذكرها .

واستخدم امير الحج هذه الموارد للانفاق على احتياجات القافلة مثل استئجار قوى عسكرية غير نظامية للمشاركة في حماية القافلة ، وتوفير المؤن اللازمة للقائمين بشؤون الحج ، وكذلك وسائط نقلهم ، ولدينا معلومات مفصلة تبين أنواع السلع التي

اشتراها امير الحج للوفاء باحتياجاته فقد اشترى مثلا حسن باشا امير الركب الشامي في عام ١١١٩/١٧٠٨ مقدار ٧١٥ قنطارا من البكسماد من طائفة البكسمادية بدمشق لاحتياجاته(٢٥).

وعرف هذا البكسماد ، الذي كان على شكل قوالب ، بالسفري ، ويصنعونه عادة من طحين الخاص ، واشترط فيه ان يكون يابسا ، ظاهره كباطنه ، ليتحمل السفر ، ويبل بالماء عند اكله(٢٦) . وخصصت كميات كبيرة من الحنطة والشعير ، من صناجق ولاية الشام لتمويل القافلة . وقد جاء في سجلات غزة الشرعية مثلا ، انه نقل من شونه غزة في شوال ١٢٧٣ / حزيران ١٨٥٧ الى بندر معان ، لتموين الحج الشامي ، مقدار ١٨٦٤٠ كيلة شعير بالكيل المجيدي (تزن كيلة الشعير ٢٥ر٢٢ كغ) . ونقل في جمادى الاولى ١٢٧٦ / كانون الاول ١٨٥٩ ، مقدار ١٠٩٩١ كيلة حنطة (تزن كيلة الحنطة ٢٧ر٢٥ كغ) و ٢٥ر٢٢٩٩٢ كيلة شعير الى بندر معان للغرض نفسه (٢٧) .

واحتاج امير الحج الى استئجار المئات من الجمال لنقل الجنود والمؤن المتعلقة بالقافلة ، فقد استأجر عثمان باشا والي الشام وامير الحج ، فيجمادى الاولى ١١٧٤/ كانون الاول ١٧٦٠ ، خمسمائة جمل من مشايخ قرى حوران لنقل اثقاله من المزيريب الى المدينة المنورة (٢٨) . واستأجر اكثر من ذلك العدد في العام التالي (٢٩) .

وانفق امير الحج ، من المال المخصص للحج ، المبالغ المرصدة الصر أو الصرة التي كانت تدفع الى بعض القبائل البدوية على طريق الحج لشراء حمايتها . وقد حاول العثمانيون ، في مطلع حكمهم لبلاد الشام ، السيطرة على القبائل البدوية ، في جنوبي بلاد الشام ، ولكنهم فشلوا ، ولذلك لجأوا الى العادة القديمة بشراء رضى القبائل بالمال . ويذكر ان اسعد باشا العظم ،والي الشام (١٧٤٣ — ١٧٥٧) ، قد دفع الصر الى القبائل القوية علىطريقالحج في حين انه فرض الضرائب على القبائل الصغيرة. وقد استثيرت القبائل الصغيرة فثارت لنفسها بمهاجمة قافلة الحج الشامي في عام ١٧٥٨ وابادتها تقريبا ، وذلك في اعقاب عزل اسعد باشا عن ولاية دمشق (٣٠).

وكان السلطان العثماني يرسل ، بمناسبة سفر قافلة الحج الشامي الى الحجاز، اعطيات نقدية وعينية ، عرفت بالصرة ، الى اشراف وعلماء وفقراء الاماكن المقدسة ، التي ضمت مكة والمدينة واحيانا القدس . وعهد السلطان بالصرة الى موظف عرف بالصرة اميني أو أمين الصرة . وكان الصرة أميني يغادر استنابول كل سنة في أواسط رجب متجها نحو دمشق وسط احتفالات شعبية ورسمية ، ويرافقه ، بالاضافة الى

حاشيته ، عدد من الحجاج للافادة من الحماية المؤمنة له . وطلب السلطان من حكام الولايات التي مر بها موكب الصرة أميني تامين الحماية له ، كل في منطقته ، واعلام السلطان بذلك . ويصل الصرة أميني الى دمشق ، عادة ، في القسم الاول من رمضان ، ويغادرها ، بعد عودته من الحج باتجاه استانبول ، بين ١٥ صفر و ١٥ ربيع الثاني ، حسب الظروف (٣١) .

نقــل الحجــاج

مما يثير الاهتمام معرفة الطريقة التي تم بها نقل مابين خمسةعشرألفا،وعشرين ألف حاج ، بالاضافة الى القوات المرافقة لهم ، من دمشق الى الحجاز ، كل سنة ، وكذلك نقل القوات المرافقة للجردة من دمشق الى هدية . ان الحيوان الرئيسي الذي استخدم في عملية النقل كان الجمل . وقد اشتهرت قرى حوران ، التي كان سكانها بدوا أو من أصول بدوية ، بتوريد آلاف الجمال الى القائمين على شؤون القافلة مما سهل نقلها واتى بالفوائد المالية لاصحاب الجمال . وقام مشايخ قرى حوران بالنيابة عن سكانها بتأجير الجمال الى المسؤولين في دمشق . وذكرت وثائق دمشق الشرعية اسماء عدد من مشايخ هذه القرى تذكر منهم في الفترة بين ١١٧٤ – ١١٧٧/١٧٩٥ – ١٧٦٤ الشيخ شهاب الدين بن حمد الحتمل شيخ قرية الطره (أو الطرا) ، والشيخ أحمد بن عمر المحاميد والشيخ بكار بن موسى قطيفان شيخا قرية ادرعا(ترد ادرعات أو أذرعات وهي درعا اليوم) ، والشيخ ملحم بن ناصر الجبلاق شيخ قرية شمسكين أو أشمسكين (شيخ مسكين اليوم) ، والشيخ حمد بن علي الحريري شيخ قريةالسعلية (أو السلعة) ، والشيخ دعيبس بن حسين شيخ قرية الكرك،والشيخ حسن بن مقداد شيخ قرية بصير ، والشيخ عبد الله الشنور شيخ قرية اعجيم ، والشيخ راشد بن محمد الراشد شيخ قرية الحراك ، والشيخ رشيد بن علي الغزالي شيخ قرية الحراك الشرقي ، والشيخ منصور بن مصطفى حجار شيخ قرية السهوة ، والشيخ ابراهيم ابن الشيخ مصطفى الزعبي شيخ قرية البصيلة ، والشيخ ابراهيم بن الشيخ علي الزعبي شيخ قرية المسيفرة ، والشيخ محمد بن مصطفى شيخ قرية غوشه ، والشيخ سعيفان بن الشيخ محمد شيخ قرية صورا ، والشيخ محمد بن نصر الله شيخ قرية بصرة (بصرى) ، والشيخ حسن بن علي الغزالي شيخ قرية خربة الغزالة ، والشيخ ابراهيم الحريري وأحمد بن حمدان شيخا قرية منصورة ، والشيخ خليل العبادية بن ناصر شيخ قرية المحجي . وبرزت ايضا قرى عراضه وملجم وطفس في عملية تقديم الجمال . وشاركت كذلك ، في هذه الفترة ، طائفة السخانة من نواحي حماه . كما ان تجمعات قبليــة اخرى ،مثل السردية وبني صخر وبني صقر ، زودت القافلة بالجمال في أوقات مختلفة . ويمكننا معرفة الطاقة الاقتصادية لكل قرية باجراء

مقارنة بين اعداد الجمال التي قدمتها القرى . وقد حضر مشايخ القرى ، الذين اجروا الجمال الى والي دمشق أمير الحج ، الى المحكمة الشرعية بدمشق لتسجيل واقعة التأجير وكيفية دفع الاجرة ، وتبرئة ذمة الوالي مما يستحق لهم عليه . وكانت اجرة الجمل الذي حمل أثقال الوزير من المزيريب الى المدينة في عام ١١٧٥/١٧٦٢ مثلا، ٣٣½ قرشا ، ومن المزيريب الى مكة ٦٥ قرشا . وكانت أجرة الجمل الذي حمل اثقال الجردة من المزيريب الى هدية ، ومن هدية الى دمشق ٤٠ قرشا (٣٢) .

وقد وجدت طوائف حرفية خاصة في دمشق وحلب وغيرها لنقل الحجاج الى الحجاز . وابرز هذه الطوائف طائفة المقومين الدوجية . وكلمة الدوجية، أو الدعجية، المستخدمة بالتركية ، مشتقة من الكلمة العربية (يدعو) ، وتشير الى الذين يدعون الى اللـه . والمقوم هو الذي يتعهد بنقل الراغب بالحج من دمشق أو غيرها الى مكة المكرمة ، ويعيده ، بحسب الاتفاق ، الى مكان بدء الرحلة . ويركب المسافر في محارة ، وهي محمل من الخشب يغطى بالقماش ، وتتسع لراكب واحد . وتوضع اثنتان منها على ظهر الجمل ، كل واحدة من طرف . ولم يكن ضروريا وضع مسافرين على جمل واحد اذ وضعت أحيانا حمولة في الطرف الآخر . واستخدمت تسمية أخرى للمحارة، في دمشق وحلب ، في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وهي الشقدوفة (٣٥) . واستخدمت كذلك كلمة محفة (٣٦) ، وهي تخت خشبي وضع على ظهر الجمل واستخدم لنقل الحجاج . ويبدو ان للمحفة ميزات خاصة ميزتها عن المحارة ، أو الشقدوفة ، بدليل ان امرأة في مدينة حلب دفعت لنقلها في محفة الى مكة ثم عرفات ، ذهابا وايابا ، مع تقديم الزادوالماء وسائر اللوازم لها ، مائة وسبعين قرشا (٣٧) ، وهي ما يساوي تقريبا اجرة شخصين يركبان المحارة ، مع الخدمات ذاتها. ولا ندري اذا كان الركوب في المحفة يدل على الثروةوالمكانة الاجتماعية ، ام على حالة مرضية . ويقدم المقوم للمسافر ، بالاضافة الى مكان جلوسه ، طعامه وماءه وما يلزمه .

وانتظام المقومين في طائفة لها شيخها يدل على اهمية هذه الحرفة ، وضرورة مراقبة افرادها ذاتيا وحرفيا ، من قبل شيخ الطائفة ، وبمعرفة القاضي الشرعي . وخوفا من تقصير المقوم (الدوجي) في خدمة زبائنه ، أو هربه في الطريق ، تعهد المقومون ، امام القاضي الشرعي ، قبل السفر الى الحج ، بانهم يضمنون بعضهم بعضا، فاذا اخل أحدهم بشروط العقد مع المسافر ضمنه زملاؤه ، وضمن الجميع شخص واحد ، وذلك لحصر المسؤولية (٣٨) .

وساهمت طائفة العكامة في عملية نقل الحجاج ، ولكن دورها كان ثانويا اذا ما قورن بالمقومين الذين تعهدوا عملية النقل بكاملها . والعكام (٣٩) هو الذي يقود

الجمل ويخدم راكبيه(٤٠) . وفي حين ان طائفة المقومين اختصت بنقل الحجاج فقط ، فان طائفة العكامة استخدمت في مرافقة حيوانات النقل ، من جمال وغيرها ، في خدمات متعددة ، مثل نقل الذخائر بين حلب وبلاد الروم (٤١) ، او مرافقة المسافرين في انحاء الامبراطورية . وساهمت كذلك طائفة الجمالة في تقديم الجمال لاغراض الحج ولكنها لم تتدخل مباشرة بنقل الحجاج (٤٣) . وتقديم الجمال لاغراض الحج جزء من عمل هذه الطائفة الذي شمل أيضا تقديم الجمال للقيام بخدمات التحميل بصورة عامة . كما ان المشعلجيـة ، وهم حملة المشاعل ، رافقوا جماعات المسافرين .

واختلفت اسعار نقل الحجاج ، تبعا للخدمات المقدمة لهم . وقد قمنا بدراسة عينتين : الاولى من حلب ، من حوالي منصف القرن الحادي عشر الهجري ، والثانية من دمشق ، من حوالي منتصف القرن الثاني عشر الهجري . ففي العينة الاولى تعاقد مسافر وأمه ، في ١٦ شعبان ١٠٤٥ / ٢٥ كانون الثاني ١٦٣٦ ، مع مقوم على ان يدفعا له لقاء حملهما في محارتين من الخشب (شقدوفتين) ، ونقلهما من مدينة حلب الى مكة المكرمة ثم الى عرفات ،ثم الى مكة عودا ، صحبة الركب الشريف (أي قافلة الحج الشامي) ، المتوجه في ذلك العام الى الحجاز ، وتزويدهما « بجميع اكلهما ومايهما وزادهما وساير لوازمهما الضرورية التي لابد منها في الطريق»اجرة قدرها مائة قرش مقبوضة من المتعاقدين « قبضا تاما سلفا ومعجلا »(٤٤) . ويبدو أن هناك تخفيضا لافراد الاسرة ، وربما روعي سن الاولاد ، بدليل ان الام وابنها في المثال السابق دفعا مائة قرش في حين ان امرأة من حلب تعاقدت بعد شهر من العقد السابق على ان تدفع للمسافة نفسها وللخدمات ذاتها سبعين قرشا (٤٥) . ويبدو أن دفع اجرة الذهاب والاياب معا كانت اكثر توفيراً لأن المقوم يضمن العودة بدون شواغر . وكانت العادة ان يتخلف بعض الحجاج في الحجاز للمجاورة . وسواء كانت الرحلة للذهاب فقط ، ام للذهاب والاياب ، فقد دفعت الاجرة للمقوم علىاقساط . وبقي احيانا جزء من الاجرة الى مابعد العودة . وعمد بعض الراغبين بالسفر الى الحجاز الى استئجار الجمال فقط بدون الخدمات الاخرى . وبلغت اجرة الجمل من حلب الى مكة ، ثم الى عرفات ، وعودا الى مكة ، في تلك الفترة ، اربعا واربعين قرشا ، مما يعني ان قيمةالخدمات ، بالمقارنة مع مثال الام وابنها ، بلغت ستا وخمسين قرشا . ويفترض ان صاحب الجمال المؤجرة رافقها الى الحجاز للعودة بها . واذا كان قد رتب مسبقا لايجارها من هناك فهذا يدل على تنظيم دقيق في النقل والمواصلات .

وفي العينة التي اخترناها من دمشق في حوالي منتصف القرن الثاني عشر الهجري نلاحظ ان أجرة نقل المسافر من دمشق الى مكة في شوال ١١٥٨ / تشرين الثاني ١٧٤٥ كانت سبعين قرشا (تفصيلها : اجرة جمل ٤٠ ، سقاية ماء ٥ ، ثمن

شقدوفة ٥ ، اجرة عكام ٥ ، اجرة حمولة وزنها ١٥ أوقه ١٥ قرشا) . ويبدو أن الاجرة لم تتضمن الطعام لأنه لم ينص عليه (٤٦) . وفي مثال اخر تعاقد رجل وامه ان يدفعا اجرة نقلهما من مكة الى دمشق ، بما في ذلك كامل الخدمات ، مائتي قرش ، بمعدل مائة قرش للشخص مقسطة (تفصيلها : اجرة الجمل للشخص الواحد ٨٠ قرشا ــ من غير اجرة ارطال على الراكب اي بدون أجرة الحمولة ــ و ١٥ نظير اكله ، و ٥ لقاء سقايته) . وحين احتج الراكبان ، لدى وصولهما الى دمشق ، أن السعر مرتفع ، استدعى القاضي الشهود فشهدوا ان المائة قرش هي سعر المسلمين في سنة تاريخه ، فألزمهما القاضي بالدفع (٤٧) . وتؤكد هذه الاجرة امثلة أخرى من الفترة ذاتها (٤٨) . والملاحظ ان سعر العودة الى دمشق كان اغلى من سعر الذهاب ، وربما يفسر ذلك بعامل الاضطرار . كما انه بالمقارنة بين اسعار حلب ، في حوالي منتصف القرن الحادي عشر ، واسعار دمشق ، بعد قرن من ذلك ، يتبين لنا تدني قيمة العملة ، وبالتالي ارتفاع الاسعار ، وهذا امر كان شائعا في الدولة العثمانية .

واذا ما أخذنا عينة من اسعار السلع الاستهلاكية(٤٩) ، واثمان العقارات(٥٠) ، ومستوى الارباح والاجور ، في تلك الفترة ، وقارناها مع تكاليف السفر الى الحج ، لتبين لنا ان كلفة الذهاب للحج لم تكن بقليلة على اصحاب الدخل المحدود . وحتى العلماء ، الذين كان وضعهم المادي احسن من غيرهم ، نظرا للوظائف الدينية المتعددة التي شغلوها والتي رصدت لها الاعتمادات من مال الوقف ، فقلما ذهب واحدهم الى الحج أكثر من مرة بسبب النفقات الباهظة المترتبة على ذلك . وفي مقابلة بين عالم مصري وعالم دمشقي ، هو نجم الدين الفزي صاحب « الكواكب السائرة » ، في المدينة المنورة ، في اواسط محرم ١٠٠٢/ أواسط تشرين الاول ١٥٩٣، ذكر المصري أنه حج أربعا وعشرين مرة . فقال الفزي أن أهل الشام لايكاد يحج الواحد منهم الا مرة . فأجاب المصري « الواحد منا يستأجر بعيرا بعشرة ذهب ويحمل تحته الفريقيشات والبصلات ويحج وانتم اذا حج الواحد منكم تكلف كلفة كثيرة تكفي عدة منا وطريقكم اشق من طريقنا والاجر على قدر النصيب »(٥٢) .

ســـفر القافلـــة

كانت قافلة الحج الشامي تغادر دمشق في موكب حافل (٥٣) ، يسير فيه الوالي ــ أمير الحج ، ويحمل فيه المحمل والصنجق ، وترافقه قوات كثيرة . وتتم المغادرة ، في الغالب ، بين الثاني عشر والعشرين من شهر شوال . ويتوقف امير الحج عند قبة الحج ، خارج باب أوبوابة الله (سميت بذلك لانها تؤدي الى بلاد الله في الحجاز والقدس) ، بانتظار تجمع الحجاج . ويتباطأ هؤلاء في الخروج ، بسبب رغبة

بعضهم في مشاهدة موكب الحج ، أو لتوديع اقربائهم ، أو للقيام بالمشتريات في اللحظة الاخيرة ، ويكتمل خروجهم خلال اسبوع . ومن قبة الحج تتوجه القافلة نحو المزيريب (تبعد حوالي ١٠٣ كم جنوبي دمشق) بشكل متفرق ، لانه ليس ثمة من اخطار تجبرها على التجمع . كما ان عددا منأقرباء الحجاج ومن الباعة يرافقون الحجاج الى المزيريب . وبعد توقف ، يقارب الاسبوع ، في المزيريب ، حيث يلتئم عقد الحجاج ، وتتم الاستعدادات النهائية ، ويودع الراغبون من الحجاج ودائعهم في قلعة المزيريب ، تنطلق القافلة ككل باتجاه الحجاز . ويعود الذين رافقوا الحجاج الى دمشق ، ويعرفون بالمزيرباتية (٥٤) . ويرافق القافلة الى الحجاز قاض ، عرف بقاضي الركب الشامي ، لبنظر في القضايا الطارئة . واختير عادة من بين نواب القاضي الحنفي بدمشق ، أو من القضاة المتقاعدين ، أو من العلماء المدرسين (٥٥) .

وقد اشير الى الطريق الرئيسي ، الذي سلكته القافلة من دمشق الى الحجاز ، بالطريق السلطاني . وتألف من عدة منازل (مفردها منزل او منزلة) ، حيث يتوقف الحجاج للراحة ، والتزود بالماء ، وأحيانا بالمؤن . وضم الطريق السلطاني في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، المنازل التالية(٥٦) : قبه الحج ، المزيريب ، المفرق ، الزرقاء ، البلقاء ، القطرانة ، الحسا (تابوت قرهصى) ، العنزة ، معان ، ظهر العقبة (عقبة الحلاوة) ، جغيمان (المدورة) ، ذات حج ، القاع (قاع البسيط أو قاع الصفير) ، تبوك ، مغائر شعيب ، الاخضر (الاخيضر)، المعظم ، دار الحمراء (اقيرع او مفارش الرز ، اوشق العجوز) ، مدائن صالح (ديار او ابار ثمود او الحجر) ، العلا ، المطران (بيار أو ابار الغنم ، أو طوامير) بئر الزمرد ، شعب النعام ، هدية ، الفحلتين (النخلتين) ، وادي القرى ، الجرف ، المدينة المنورة ، قبور الشهداء ، الجديدة ، القاع ، رابغ ، قديد ، خليص ، عسفان ، وادي فاطمة ، مكة المكرمة . ولم تشمل هذه المنازل جميع الامكنة الصغيرة حيث توقف الحجاج في بعض الاحيان ، كما انه لم يكن من الضروري أن تتوقف القافلة في كل منها . واذا ما اراد البدو الاضرار بقافلة الحج ، دون الهجوم عليها ، لجأوا الى وضع الحشائش السامة ، مثل الحنظل ، أو بقايا الحيوانات المتفسخة ، في برك الماء ، في بعض المنازل . ولهذ اهتمت الدولة العثمانية ، منذ بدء حكمها في بلاد الشام ، ببناء القلاع في منازل الحج ، أو ترميمها ، أو تعزيزها بالحاميات لحماية القافلة (٥٧) . وقام ولاة دمشق ، على فترات ، ببناء ، او ترميم ، القلاع ، ووضع الحاميات فيها (٥٨) . وقد عهدت الدولة العثمانية ، في باديء الامر ، الى الجنود السباهيين . من أصحاب الاقطاعات بحماية القلاع (٥٩) ، ثم خلفهم الانكشارية ، وبخاصة اليرلية منهم ، بعد عام ١٦٦٠ ، حين حل مكانهم ، في حماية القلعة وسور وأبواب

دمشق ، الانكشارية القابي قول (٦٠) . واضطرت القافلة ، احيانا ، في طريق العودة الى دمشق ، الى التخلي عن الطريق السلطاني ، لتحاشي هجمات البدو عليها ، أو لانقاذ ما يمكن انقاذه في اعقاب الهجوم عليها . وحولت طريقها ، بعد منزلة ذات حج ، الى غزة ، حيث يمر الطريق التجاري المتجه من دمشق الى مصر ، وكان اكثر أمنا . وعرف هذا بالطريق أو الدرب بالغزاوي(٦١) . واقتضت العودة عن هذا الطريق تأخر وصول القافلة الى دمشق الى ما بعد النصف الأول من صفر ، وهو الموعد العادي لعودتها في الطريق السلطاني . واذا هدد الجردة ، التي كانت تخرج لاستقبال القافلة ، خطر مماثل عادت هي الأخرى على الطريق الغزاوي .

وسبق عودة القافلة الى دمشق وصول جوقدار (٦٢) الحج اليها ، مرسلا من قبل أمير الحج ، لابلاغ الدمشقيين بسلامة القافلة . وغالبا ما أرسل الجوقدار من معان ، حيث دخلت القافلة منطقة الامان . ويصل الجوقدار الى دمشق ، في العادة ، في أواخر شهر محرم (٦٣) . وخلال أسبوع من وصول الجوقدار يصل دمشق كتاب الحج حاملا رسائل الحجاج الى ذويهم ، وتوزع الرسائل في الدرويشية . ويرسل الكتاب في الغالب ، من منزلة القطرانة . ويحمل كتاب آخرون الرسائل الى حماه وحلب (٦٤) . أما الحجاج الاروام فانهم يرسلون المكاتيب الى استانبول لدى وصول القافلة الى منزل ظهر العقبة (٦٥) .

وتصل طلائع الحجاج العائدين الى دمشق خلال اسبوع من وصول الكتاب اليها، اي في النصف الأول من شهر صفر ، ويستبقون بذلك وصول المحمل وامير الحج بحوالي اسبوع ، وهي المدة نفسها تقريبا بين خروج المحمل من دمشق الى قبة الحج، في الطريق الى الحجاز ، ولحاق آخر الحجاج به . ويتوقف أمير الحج العائد في قبة الحج ، حيث يستقبله اعيان دمشق (٦٦) .

أما المدة التي استغرقتها قافلة الحج الشامي في الوصول الى مكة من دمشق ، فكانت حوالي خمسة وثلاثين يوما (٦٧) . واستغرقت المدة ذاتها تقريبا في طريق العودة (٦٨) . وقد قدر أحد الحجاج ساعات السفر التي اقتضاها الوصول الى مكة من دمشق بـ ٤٩٠ ساعة (٦٩) ، وقدر آخر ساعات العودة بـ ٤٥٠ ساعة (٧٠) . وهذا يعني ان القافلة كانت تسير بين ١٣ ــ ١٤ ساعة في اليوم .

أهمية قافلة الحج الشامي :

لعبت قافلة الحج الشامي ، في العهد العثماني ، دورا هاما ، سواء بالنسبة

لدمشق وبلاد الشام بخاصة ، أو العالم الاسلامي بعامة . وزاد من اهميتها ، آنذاك ، كونها واحدة من قافلتين رئيسيتين سمحت بهما ، وبالتالي تبنتهما ونظمتهما ، الدولة العثمانية ، في العالم الاسلامي . وتجلت اهمية قافلة الحج الشامي ، بالاضافة الى الناحية الدينية ، في النشاط الاقتصادي الذي رافقها ، وأهم من ذلك في التمازج السكاني والثقافي الذي سهلت تحقيقه الى حد كبير .

وكان سفر القافلة مناسبة هامة لانتقال البضائع ، سواء منها التي حملها الحجاج انفسهم ، أو تلك التي حملها التجار بكميات كبيرة (٧١) . وقد حرص التجار على مرافقة القافلة للافادة من الحماية العسكرية التي تمتعت بها . وانضمام التجار الى قافلة الحج زاد في اعدادها ، وفي المخاطر التي تعرضت لها ، لان كثرة البضائع أغرت القبائل الناقمة على مهاجمتها . وقد افادت دمشق ، وحوران بصورة خاصة ، وحلب الى حد ما ، من تقديم الخدمات للقافلة . ففي دمشق نشطت صناعة البكسماد السفري الذي تمونت به القافلة ، وانعكس ذلك على نشاط الطائفة الحرفية الخاصة بالبكسمادية . وبلغت مبيعاتها أثناء موسم الحج آلاف القناطير (٧٢) . ونشطت طائفة البكسمادية أيضا في حلب ، بمناسبة موسم الحج . وافادت كذلك طائفة العكامين ، الذين يقودون الجمال ، والمحايرية ، الذين يصنعون المحارة (الشقدوفة) . وسبقت الاشارة الى الفوائد التي جناها مشايخ قرى حوران ، وبدرجة أقل ، مشايخ البدو في منطقة حماه وحلب ،من تأجير الآلاف من جمالهم لنقل الحجاج والقوات والبضائع المرافقة للقافلة .

وقد اشارت المصادر الى أنواع البضائع وكمياتها التي حملها الحجاج معهم . وضمت البضائع ، بصورة رئيسية ، الاحجار الكريمة والقهوة والمنسوجات والتوابل وقد عبر البديري عن النشاط الاقتصادي الذي عم دمشق ، في اعقاب وصول الحجاج الاعجام اليها في عام ١١٦٤ / ١٧٥١ ، بقوله : « وصار جبر خاطر لعموم الناس في البيع والشراء وجاء مع العجم ربيات ذهب كل واحدة بثلاثة عشر قرشا ولؤلؤ كبير وصغير واحجار ومعادن وشال وغير ذلك » (٧٣) . وحمل الحجاج الاروام معهم ، الى الشام والحجاز ، أنواعا من السلع ، أشارت احدى الوثائق الشرعية الى بعضها ، في عام ١١١٩ / ١٧٠٧ ، بأنها عدة أحمال من الشال والزعفران ، بلغت قيمتها عدة آلاف من القروش . وقد جاء ذكرها بمناسبة هجوم قطاع الطريق ،في ناحية السويدية، التابعة لحاكم حماه ، عليها . وغرم هذا الحاكم بثمن المسروقات لأنه مسؤول قانونيا عن الأمن في منطقته (٧٤) .

وكانت قافلة الحج العائدة من الحجاز تحمل عدة سلع منها السنا (٧٥) ، وهو

نبات مليّن اشتهرت به منطقة مكة ، فعرف بالسنامكة . واشهر ما أتت به القافلة من منتجات الجزيرة العربية هو البن . ورغم أن اليمن هي التي اشتهرت بانتاج البن الا انه أشير اليه في المصادر المحلية بالبن الحجازي ، ربما لأنه شري في الحجاز (٧٦) . وبلغت كمية البن المستورد من الحجاز ، في عام ١٧٤٦ ، مثلا ، ستمائة كيس أدى طرحها في السوق الى هبوط سعر البن في بلاد الشام (٧٧) . ويدل هذا على شيوع شرب القهوة محليا (٧٨) . وحملت قافلة الحج، كذلك، المنسوجات والتوابل والعطور والاحجار الثمينة المستوردة من الهند عبر البحر الاحمر الى جدة ومنها نقلت الى مكة (٧٩) .

ويتبين لنا مدى مساهمة قافلة الحج الشامي في التجارة الدولية مما رافق القافلة ، التي عادت الى دمشق من الحجاز بتاريخ ٢٨ آذار ١٨٤٢ ، من بضائع . فقد ضمت ٢٢٥ حملا من الحناء زنتها ٢٢٥٠٠ رطلا (حوالي ١٤٥٠٠ كغ) ، سعرها ١٢٠,٠٠٠ قرش ، وأربعين حملا من البن الحجازي Moka coffee (٨٠)(كانت في الاساس تسعين حملا ، ولكن سرق منها خمسون حملا في الطريق تزن ٤٠٠٠ رطل قيمتها ١٤٠,٠٠٠ قرش) ، وعشرين حملا من نسيج هندي يصلح للعمائم ، يتألف كل حمل من بالتين ، تضم الواحدة منها مائة قطعة ، ثمن القطعة ٢٠٠ قرش ، ومجموع ثمنها ٨٠٠,٠٠٠ قرش . وقدرت قيمة المجوهرات التي حملتها تلك القافلة بـ ١٠٠,٠٠٠ قرش . واشتملت البضائع أيضا على ريش النعام ، وقيمته ١٧٠,٠٠٠ قرش ، وعطورات ثمنها ١٦٠,٠٠٠ قرش ، ومتفرقات قيمتها ٦٠,٠٠٠ قرش . وبلغ مجموع قيمة البضائع التي حملتها تلك القافلة ٣٨٧,٠٠٠ فرنك أو ما يعادل ١,٨٥٠,٢٠٠ قرش (٨١) .

وقد تأثرت تجارة قافلة الحج الشامي بازدياد استخدام الحجاج الاروام للطريق البحري الى الحجاز ، وبخاصة بعد افتتاح قناة السويس في عام ١٨٦٩ ، وذلك لاسباب أمنية واقتصادية . كما ان عددا متزايدا من الحجاج الاعجام بدأ يسافر بحرا من الخليج العربي الى جدة (٨٢) . وذكر القساطلي ، الذي عاصر هذه التطورات في دمشق ، في السبعينات من القرن التاسع عشر ، أن « أول نكبة دهمتها (أي دمشق) تسببت عن سير سفن البخار في البحار ... وعندما فتحت ترعة السويس حلت بلية عظمى وطامة كبرى على تجارة دمشق لانها سلبت كل ما بقي لها من التجارة البرية وفتحت بابا قريبا للحجاز فامتنع الحجاج من الاتيان اليها فخسرت جداول الذهب الغزيرة التي كانوا يسكبونها فيها ذهابا وايابا » (٨٣) .

وعلى صعيد آخر ادى التنوع في جنسية الحجاج الذين اموا دمشق للالتحاق

بقافلتها ، وبقاء بعضهم للعيش والعمل فيها ، الى تعدد الاقوام في دمشق . وكثيرا ما اقام هؤلاء في احياء خاصة مثل حي الخراب والسويقة بالنسبة للحجاج الاعجام ، او في زوايا تحمل اسمهم ، مثل زاوية المغاربة(٨٥) ، وزاوية الهنود ، القائمة ظاهر دمشق ، بمحلة السويقة ، والتي تولى امرها هنود(٨٦) . وذكرت زاوية السنود ، بمحلة الهنود بدمشق ، بمناسبة تعيين الشيخ محمد بن محمد السندي في وظيفة الامامة فيها(٨٧) . وربما كانت التسميتان (زاوية الهنود وزاوية السنود) ، اللتان ذكرتا بفاصل خمس سنوات تشيران الى زاوية واحدة ووجدت كذلك زاوية للموصليين بمحلة ميدان الحصى ، تعاقب على مشيختها اناس من اصل موصلي(٨٨) .

وقد رغب عدد من المسلمين الاغراب الاقامة في دمشق سواء منهم الذين قدموا اليها بمناسبة الحج ، او الذين قصدوها خصيصا بهدف المجاورة لبعض الوقت او للاقامة فيها كنزلاء . واجتذبت دمشق ، بصورة خاصة ، العلماء والمتصوفة بسبب شهرة ما ضمته من اماكن دينية . ونظرا لكثرة الاغراب الذين دفنوا فيها ، وبخاصة من الحجاج ، فقد خصص مكان لدفنهم ،عرف بمقابر الغرباء ، في تربة مرج الدحداح(٨٩) ، وقد جاء ، مثلا ، في احد سجلات القسام المدني (يشار اليه ايضا بالعربي) ، الذي نظر في مخلفات المتوفين في دمشق ، في الاعوام ١١٦٢ ــ ١١٦٦ هجرية ، ذكر خمسة وسبعين غريبا ، معظمهم من الحجاج الاروام ، دفنوا في دمشق ، اما العلماء الاغراب فقد دفنوا في الغالب حيث دفن علماء دمشق (٩٠) .

وقد اغنيت الحياة الثقافية في دمشق بتوافد العلماء اليها بمناسبة الحج ، واقامة بعضهم فيها . وكثيرا ما حدثت المناظرات بين العلماء الزائرين والعلماء المقيمين ، مثال ذلك زيارة عبد الله السويدي البغدادي لدمشق بين ٢٢ شعبان و ٢٠ شوال ١١٥٧/ ٣٠ ايلول و ٢٦ تشرين الثاني ١٧٤٤ ، بمناسبة سفره للحج ، ووصفه الجو الاجتماعي في دمشق ومناقشاته مع علمائها(٩١) .

وقد شغل عدد من نزلاء دمشق مراتب عليها فيها ، سواء في الامامة او في التدريس ، على اختلاف مستوياته(٩٢) ، بما في ذلك تدريس الحديث تحت قبة النسر في الجامع الاموي ، في اشهر رجب وشعبان ورمضان ، وهو من ارفع مراتب التدريس(٩٣) ، واقام النزيل ، او المجاور ، عادة ، في حجرة في مدرسة او في جامع(٩٤) واذا ما تزوج سكن في دار(٩٥) ، واذا لم يكن النزيل عربي اللسان امكنه تعلم العربية بدمشق(٩٦) ، واستغل العلماء المحليون وجود العلماء الاغراب في دمشق ، بمناسبة الحج ، فحصلوا منهم على الاجازات فيما اختصوا به من علم(٩٧) . وافاد العوام ، كذلك ، من العلماء النزلاء الذين كانوا بمستوى معرفتهم . وقد وصف احد هؤلاء

العلماء بأنه « يتكلم على الحقيقة ولا يعرف الشريعة وكان لكثير من الناس فيه كبير اعتقاد »(٩٨) .

ورغم ان مناسبة الحج كانت فرصة هامة لتبادل الآراء بين العلماء الاغراب والمحليين ، وللتعليم والتعلم في آن ، فقد ساعد ذلك أيضا على نشر التصوف والطرق الصوفية . ولعل خير مثال ، في هذا المجال ، هو نشر الطريقة النقشبندية في دمشق، في أواخر القرن السابع عشر ، على يد جد الاسرة المرادية ، السيد مراد المرادي ، الذي ام دمشق بمناسبة الحج ، واهتم بنشر هذه الطريقة في دمشق ، وتابع عمله من بعده ابنه السيد محمد . واصل الاسرة المرادية من بخارى ، ولكن الطريقة النقشبندية التي نشروها تنتسب الى الشيخ احمد الفاروقي ، الذي اقام في الهند ، واشتهر بالمجدد(٩٩) . ولو لم يكن المناخ مهيئا في دمشق لنشر هذه الطريقة وغيرها لما شاعت بين الناس ولما أم دمشق عدد من الهنود النقشبندية آنذاك(١٠٠) . وانتشرت طرق صوفية عدة في دمشق ، في العهد العثماني. وانتسب الناس الى اكثر من طريقة. وإفاد انتساب العلماء الى الطرق الصوفية بأن رفع من مستواها وازال منها كثيرا من تطرفها ، كما انه عزز الروابط بين افراد الطريقة الواحدة ، دون أن يوجد حساسيات قاتلة بين الطرق ، لانها لم تكن عقائدية متعمقة ، وانما ذات شعائر اجتماعية متقاربة .

ورغم انه لم يقم اي سلطان عثماني باداء فريضة الحج ، بما في ذلك السلطان عبد الحميد الثاني ، الذي اعلن نفسه خليفة المسلمين ، ربما لاسباب امنية ، فقد اهتم العثمانيون بتأمين سلامة قافلة الحج، بوصفهم حماة الحرمين الشريفين، طوال القرون الاربعة التي حكموا فيها بلاد الشام .

* * *

المراجع

(١) انظر : محمد بن عيسى بن كنان ، الحوادث اليومية من تاريخ احدى عشر الف ومئة ، جزءان مخطوطان في مجموعة برلين ، ارقامها : 9479, We. (II) 1114, 9480, We. (II) 11150 ج ٢ ، الاوراق ٧١ أ ، ٨٠ أ ، ١٢٥ ب ، ١٤٧ أ ، ١٦٢ أ ، ١٧١ ب ،د.صلاح الدين المنجد ، ولاة دمشق في العهد العثماني ، دمشق ١٩٤٧ ، حقق فيه : الباشات والقضاة ، لمحمد بن جمعة ، والوزراء الذين حكموا دمشق ، لرسلان القاري ، ص٢ ، ٥٣ ، أحمد البديري الحلاق ، حوادث دمشق اليومية ، ١١٥٤ — ١١٧٥/١٧٤١ — ١٧٦٢ ، تحقيق د . أحمدعزت عبد الكريم ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ١٠ ، ١١٥ ، ١٦١ ، ١٧١ .

(٢) سكن هذه المناطق ، قبل العثمانيين ، الروم البيزنطيون . وقد اشار العرب ، منذ الفتوحات الاولى ، الى البيزنطيين باسم الروم . وحين زال الحكم البيزنطي عن الاناضول ، وحل محلـــه حكم السلاجقة ، ثم العثمانيين ، فقد تعبير « روم » مدلوله السياسي ، ولكنه لصق بالمنطقة مـن ناحية جغرافية . لذلك اشار العرب الى سلاجقة قونية بانهم سلاجقة الروم ، والى العثمانيين بانهم روم ، والى سلطانهم بانه ملك ، ثم سلطان ، الروم .

(٣) البديري ، ص ١٧٦ .

(٤) ابن كنان ، ج ١ ، ١٤١ ب .

(٥) البديري ، ص ١٧١ .

(٦) البديري ، ص ١٠ .

(٧) المصدر السابق ، ص ١٦١ .

(٨) انظر :
C.F. Chasseboeuf Comte de Volney, **Voyage en Egypte et en Syrie, ed. J. Gaulmier, Paris, 1959, P. 253.**

(٩) انظر :
Public Rcord Office (P R O), London, State Papers (SP) 97/38: Istanbul (date of despatch) 3. 12. 1757.

(١٠) انظر : Volney, p. 322

(١١) انظر :
Lettres édifiantes... de la Compagnie de Jésus (Jesuits), 34 Vols., Paris, 1707- 73, P. 444.

(١٢) انظر كتابنا :
The Province of Damascus, 1723-1783, Khayats, Beirut, 2nd ed. 1970. P. 61,

(١٣) انظر :
Affaires Etrangères, Correspondance Commerciale (Quai d'Orsay), Damas 2, 16 Mars 1847.

(١٤) انظر :
AE. CC. Damas 5, 19 Janvier 1870.

(١٥) محمد بن طولون ، اعلام الورى بمن ولي نائبا من الاتراك بدمشق الشام الكبرى ، تحقيق محمد احمد دهمان دمشق ١٩٦٤ ، ص ٢٢٠ ، ٢٢٥ .

(١٦) انظر تفاصيل ومصادر هذه المعلومات في كتابنا : بلاد الشام ومصر (١٥١٦–١٧٩٨) ، دمشق ١٩٦٨ ، ص ١٥٧ ، ١٩٧ – ٢٠٠ .

(١٧) انظر تفاصيل ذلك في كتابنا : بلاد الشام ومصر ص ٢١٣ – ٢١٤ ، ٢٢٥ – ٢٣١ .

(١٨) محمد خليل المرادي ، مطمح الواجد في ترجمة الوالد الماجد ، مخطوطة في المتحف البريطاني بلندن ، رقم ٤٠٥٠ ، OR ، الاوراق ، ٢٦ ب – ٢٧ أ .

(١٩
R. Tresse, **Le Pélerinage Syrien aux Villes Saintes de l'Islam,** Paris, 1937, PP. 85, 88.

(٢٠) انظر تفاصيل اخرى عن الجردة في كتابنا :
The Province of Damascus, PP. 65-68.

(٢١) حيدر احمد شهاب ، تاريخ الامير حيدر احمد الشهابي ، نشر نعوم مغبغب ، القاهرة ، ١٩٠٠ – ١٩٠١ ، ص ٦٧٧ – ٦٧٩ – ٦٨٣ – ٦٨٤ ، الحسن بن محمد البوريني ، تراجم الاعيان من ابناء الزمان ، صدر منه جزءان ، تحقيق د. صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٥٩ – ١٩٦٦ ، ج ١ ، ٢٠٥ .

(٢٢) البديري ، ص ٤٢ – ٤٦ .

(٢٣) المرادي ، مطمح الواجد ، الاوراق ، ٤٢أ – ٤٢ب .

(٢٤) المرادي ، سلك الدرر ، ج٢ ، ص ٣٢ ، ج ٣ ، ص ٤٧ .

(٢٥) سجل دمشق ، رقم ٣٣ ، ص ٩٦ ، ١٢ شوال ١١١٩/ (٢٥ كانون الاول ١٧٠٨) .

(٢٦) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٤٧٥٣ ، محرم ١٠٤٥/ (٢٠ حزيران ١٦٣٥).

(٢٧) انظر بحثنا : غزة ، دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية من خلال الوثائق الشرعية ، ١٢٧٣– ١٢٧٧/١٨٥٧ – ١٨٦١ ، بحث قدم للمؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام ، عمان ، نيسان ١٩٨٠، ص ٨٠ – ٨١ .

(٢٨) سجل دمشق ، رقم ١٦٩ ، ص ٢٩١ ، ٢٠ جمادى الاولى ١١٧٤/(٢٨ كانون الاول ١٧٦٠) .

(٢٩) سجل دمشق ، رقم ١٧٤ ، ص ٦٠ ، ختام شعبان ١١٧٥/(٢٥ اذار ١٧٦٢) ، ص ٦١ ، ٦ رمضان ١١٧٥ (٣١ اذار ١٧٦٢) .

(٣٠) انظر وصفا دقيقا لهذا الهجوم في كتابنا :
The Province of Damascus, Pp, 213-222.

(٣١) Ibid., pp - 72 - 73

(٣٢) سجل دمشق رقم ١٧٤ ، ص ٦٠ ، ختام شعبان ١١٧٥/(٢٥ اذار ١٧٦٢) ، ص ٦١ ، ٦رمضان ١١٧٥/ (٣١ اذار١٧٦٢).

(٣٣) انظر حول هذه الطائفة في دمشق ، فيالقرنين التاسع عشر والعشرين ، قاموس الصناعات الشامية ، في جزأين ، الجزء الاول ، تاليف محمد سعيد القاسمي ، والثاني تاليف جمال الدين القاسمي وخليل العظم ، تحقيق ظافر القاسمي ، نشر موتون وشركاه ، باريس — لاهاي ، ١٩٦٠ ، جـ ٢ ، ص ٤٦٥ — ٤٦٦.

(٣٤) انظر حول المحايري الذي يصنعها ، المصدر السابق ، جـ ٢ ، ص ٤٢٠ — ٤٢١ .

(٣٥) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٧٨١ ، ١٦ شعبان ١٠٤٥ / (٢٥ تشرين الثاني ١٦٣٦) ، سجل دمشق ، رقم ١٢١ ، ص ٢٦٣ ، ١١ شوال ١١٥٨ / (٦ تشرين الثاني ١٧٤٦) .

(٣٦) سجل حلب رقم ٢٢٢ ص ١٢٥ ، ٤ شوال ١٠٥٠/(١٧ كانون الثاني ١٦٤١) .

(٣٧) المصدر السابق .

(٣٨) سجل دمشق ، رقم ١٧٤ ، ص ٥٠ ، ١٩ شعبان ١١٧٥/ (١٥ اذار ١٧٦٢) .

(٣٩) انظر حول تعريفه : قاموس الصناعات الشامية ، جـ ٢ ، ص ٣١٨ — ٣١٩ .

(٤٠) سجل دمشق ، رقم ١٢١ ، ص ٦٣ ، ١١ شوال ١١٥٨/ (٦ تشرين الثاني ١٧٤٥) .

(٤١) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٨٠٩ ، ١٧ صفر ١٠٤٦/ (٢١تموز ١٦٣٦) .

(٤٢) انظر ، مثلا ، سجل حلب ، رقم ١١ ، ص ١٤٨ ، ٢٩ ربيع الاول ١٠٢٧/ (٢٦ آذار ١٦١٨).

(٤٣) سجل دمشق ، رقم ٣٣ ، ص ٩٦ ، ١٣ شوال ١١١٩/(٧ كانون الثاني ١٧٠٨).

(٤٤) سجل حلب رقم ١٥ ، ص ٧٨١ ، ٦ اشعبان ١٠٤٥/ (٢٥ كانون الثاني ١٦٣٦) .

(٤٥) سجل حلب ، رقم ١٥ ، ص ٧٨٨ ، ٢٢رمضان ١٠٤٥/(٢٩شباط ١٦٣٦) .

(٤٦) سجل دمشق ، رقم ١٢١ ، ص ٦٣ ، ١١ شوال ١١٥٨/ (٦ تشرين الثاني ١٧٤٥) .

(٤٧) سجل دمشق ، رقم ١٢٢ ، ص ١٥٠ ، ٦ صفر ١١٥٩/ (٢٨ شباط ١٧٤٦) .

(٤٨) انظر مثلا ، سجل دمشق رقم ١٢٤ ، ص ٢ ، ٥ صفر ١١٥٩ / (٢٧ شباط ١٧٤٦) .

(٤٩) قدر البديري (ص ٨١ — ٨٢) ان رطل الخبز الجيد في عام ١١٥٩ هـ ، بيع بسبع مصاري ، والرديء بخمسة مصاري، ورطل الارز بعشرة مصاري، ورطل اللحم بنصف قرش، ورطل العسل بقرش ونصف ، ورطل الباذنجان بثمانية مصاري ، واذا اعتبرنا ان الرطل الدمشقي انذاك قدر بـ ١٫٨٥٠كغ (انظر : فالتر هنتس ، المكاييل والاوزان الاسلامية ، ترجمة د. كامل العسلي ، منشورات الجامعة الاردنية عمان ، ١٩٧٠ ، ص٣٣) وان القرش يعادل اربعين مصرية ، لتبين لنا مقدار القيمة الشرائية لكلفة السفر الى الحج انذاك ، وهيمائة قرش .

(٥٠) بيعت دار في عام ١١٥٩ هـ بدمشق بمحلة باب السريجة بزقاق العلواني تابع زقاق الوسطاني، تشتمل على ساحة سماوية ،وبركة ماء ، يجري اليها من نهر قنوات ، وايوان ومربع ، وقبة تعلوها طبقة ومطبخ ، ومشرقة ، بـ ١٧٥ قرشا (سجلدمشق ، رقم١١٥ ، ص٨٦-٨٧ ربيع اول١١٥٩ (٣١ اذار ١٧٤٦).

وبيعت دار اخرى ، ظاهر دمشق ، بمحلة الشاغور البراني ، بزقاق الجوزة تشتمل على ساحة سماوية ، ومربع ، ومرتفق بـ٧٠ قرشاً (سجل دمشق ، رقم ١١٨ ، ص ١٢٥ ،٥ ربيع الاول ١١٦٠ (١٧ اذار ١٧٤٧). وكانت اجرة حمام الورد ، بسوق ساروجا ، ستة عشر قرشا في الشهر (سجل دمشق رقم ١١٨ ، ص ٥٦، ٢٠ ذي الحجة ١١٥٩) / ٣ كانون الثاني ١٧٤٧ .

(٥١) ذكر ان سمانا ، ينفق على عياله ، لم يستطع دفع مبلغ ٤٠٠ قرش من الديون بذمته ، واعلن اعساره في المحكمة (سجل دمشق ، رقم ١٤٢، ص٣٣، ١٠ ربيع الاول ١١٦٤/٦ شباط ١٧٥١) . وبلغ ما تقاضاه السيد حسن بن السيد علي البرهاني عن وظيفة الامامة والتعليم وقراءة جزء شريف بمسجد المرحوم محمد الجلبي القرماني، بالقرب من تحت القلعة بدمشق ، عشرة دراهم عثمانية في اليوم (سجل دمشق ، رقم ١١٥ ، ص١٥٢ ، ٢٦ شعبان ١١٥٩/١٣ ايلول ١٧٤٦) أي ما يعادل ثلاث مصريات وثلث في اليوم وغالبا ما قام العالم بعدد من هذه الوظائف في اليوم . وكانت نفقة الوالد ، انذاك ، مصريتين في اليوم.

(٥٢) نجم الدين الغزي ، لطف السمر وقطف الثمر من تراجم اعيان الطبقة الاولى من القرن الحادي عشر ، (وهو ذيل الكواكب السائرة) ، مخطوط في الظاهرية رقم ٤١ ، الاوراق ، ١٩٩ب-٢٠٠آ وقد روى هذه الواقعة : محمد الامين المحبي ، خلاصة الاثر في أعيان القرن الحادي عشر ، ٤ اجزاء ، القاهرة ١٢٨٤/١٨٦٩ جـ ٢ ، ص ٣٧٨ .

(٥٣) هناك وصف لموكب الحج في دمشق في كتاب محمد بن عيسى بن كنان الصالحي ، المواكب الاسلامية في الممالك والمحاسن الشامية ، مخطوط في برلين ، برقم : 6088. We. 1166 وتوجد عنه نسخة مصورة في مجمع اللغة العربية بدمشق . ونشر صفحات منه: محمد أحمد دهمان، اعلام الورى، ص٢٩٨ .

(٥٤) انظر : ابن كنان ، الحوادث اليومية ، جـ ٢ ، ١٢٥ ب ، ١٦٩ ب ، البديري ، ١٠ ، ٣١ .

(٥٥) المحبي ، جـ ١ ، ١٣ ، جـ ٢ ، ١٠٣ ، جـ ٤ ، ٦٢ ، المرادي ، سلك الدرر ، جـ ١ ، ٢٣ .

(٥٦) اسماء هذه المنازل مبنية على المصادر التالية : ابراهيم الخياري ، تحفة الادباء وسلوة الغرباء، مخطوط في مجموعة برلين برقم 6135, We. (I) 125 (وصف طريق الحج في ١٠٨٠ هـ) ، عبد الغني النابلسي ، كتاب الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز ، مخطوط في جامعة كيمبردج برقم Q q. 30 (وصف طريق الحج في ١١٠٥-١١٠٦هـ)،مرتضى بن علوان، (وصف طريق الحج في عام ١١٢١هـ) مخطوط في مجموعة برلين برقم 6137. We. (II) 1860 عبد الله السويدي ، النفحة المسكية في الرحلة المكية ، مخطوط في المتحف البريطاني ، برقم Add. 23, 385 (وصف طريق الحج في ١١٥٧) . عثمان(؟) (وصف طريق الحج في عام ١١٥٦هـ) ، مخطوط في مجموعة برلين 6147. Pm (II) 105. ووصف محمد اديب باللغة التركية ، طريق الحج في عام ١١٩٣ هـ ، بين استانبول ومكة ونشرت اجزاء من مؤلفه باللغة الفرنسية ، انظر :

M. Bianchi, **Itinéraire de Constantinople à la Mecque** (Extrait de l'ouvrage Turk intitulé Kitab Menassik El-Hadj), for Muhammad Adib b. Muhammad Darwish, Paris, 1825.

(٥٧) ابن جمعة ، تحقيق المنجد ، ص ١١ - ١٢ ، الغزي ، الكواكب السائرة ، جـ ٣ ، ١٥٣ .

(٥٨) المرادي ، سلك الدرر جـ ٣ ، ١٦١ ، مطمع الواجد ، ٢٦٢ ، القاري ، تحقيق المنجد ، ٩٣ ، محمد اديب ، مناسك ، ص ٥١ ، ٥٤ ، ٥٧ ، ٥٨ .

(٥٩) الغزي ، الكواكب السائرة ، جـ٣ ، ١٥٧ .

(٦٠) انظر كتابنا : The Province of Damascus, 32:

(٦١) ابن جمعة ، تحقيق المنجد ، ص ١١ ـ ١٢ .

(٦٢) الكلمة فارسية الاصل واشار بعض الاخباريين الدمشقيين الى الجوخدار باسم نجاب ، انظر مثلا ، ابن كنان ، الحوادث اليومية ، جـ ٢، الاوراق ، ١ب ، ١٨أ ، البديري ١٦، ٣٦، ١٢٤، ١٥١، ١٦٤، ١٧٣ ، ١٨٨ ، ١٩١ .

(٦٣) ابن كنان ، جـ ٢ ، الاوراق ١ ب ، ٨ أ ، البديري ١٦ ، ٣٦ ، ١٢٤ ، ١٥١ ، ١٦٤ ، ١٧٣، ١٨٨ ، ١٩١ .

(٦٤) البديري ، ١٩١ .

(٦٥) محمد اديب ، ٤٨ .

(٦٦) ابن كنان ، الحوادث اليومية ، جـ٢، الاوراق ، ١٦٧ب، ١٧٤ب ، النابلسي، الحقيقة والمجاز، ٣٨٥ أ ، حسن الشهير بابن الصديق ، غرايب البدايع وعجايب الوقائع ، مخطوط في مجموعة برلين رقم 8163. We. (II) 202 ، الورقة ٤٠ أ .

(٦٧) السويدي ١١٤ أ ، ١٢٩ أ ، محمد اديب ، ٣٩ ـ ٨٦ ، وقدر Volney, 322 المدة باربعين يوما .

(٦٨) النابلسي ، الحقيقة والمجاز ، ٣٤٤ب ، ٣٧٣ ب ، ٣٨٥ أ .

(٦٩) محمد اديب ، ٧٧ .

(٧٠) عثمان ، ٢٨٤ ب .

(٧١) انظر ، مثلا ، البديري ، ٣٦، ٣٧، ١٦١ .

(٧٢) انظر مثلا ، سجل دمشق ، رقم ٣٣ ، ص٩٦ ، ١٢ شوال١١١٩/(٦ كانون الثاني١٧٠٨) ، ورقم ٤٥ ، ص ١٤٩ ، ٢٠ ربيع الاول ١١٤٠ / (٥ تشرين الثاني ١٧٢٧) .

(٧٣) البديري ، ص ١٦١ .

(٧٤) سجل دمشق ، رقم ٣٣، ص ٨٢ ، ٣شعبان ١١١٩ (٣ تشرين الاول ١٧٠٧) .

(٧٥) سجل دمشق ، رقم ١٧١ ، ص ٣٧٩ ، ١٢ صفر ١١٧٦ (٢ ايلول ١٧٦٢) .

(٧٦) سجل دمشق ، رقم ١٣٦ ، ص ٣٧ ، ١٧ محرم ١١٦٣ (٢٧ كانون الاول ١٧٤٩) ، ورقم ١٤٢، ص ١٩٤، ١٦ شعبان ١١٦٤ (١٠ تموز ١٧٥١) .

(٧٧) انظر : PRO. SP. 110/25, Pt, II : Aleppo, 19,10,1726; volney, P. 323.

(٧٨) يذكر ان مبتكر شرب القهوة في اليمن هو ابو بكر الشاذلي العيدروسي (المتوفى أوائل ٩٠٣هـ/ اواسط ١٤٩٧) الذي مر بشجرها هناك واقتات من ثمرها فوجد فيه تخفيفا للدماغ واجتلابا للسهر وتنشيطا للعبادة (الغزي ، الكواكب السائرة ، جـ ١، ص ١٣٣ ـ ١٣٤) . وقد ادخل شرب القهوة الى دمشق في صفر ٩٤٧/ حزيران تموز ١٥٤٠ (الغزي ، الكواكب السائرة جـ٢ ، ١٩٨) . ثم نودي بابطالها في ٧ ربيع الاول ٨/٩٥٣ أيار ١٥٤٦ (الغزي ، الكواكب السائرة ، جـ ٢ ، ٣٩) . وقد شاع شرب القهوة في بيوت القهوة (المقاهي) بدمشق في الربع الاخير من القرن العاشر اي القرن السادس عشر(الغزي، الكواكب السائرة جـ٣ ، ٢٢، ٣٦، ٢٠٥، المحبي ، جـ ١ ، ١٦٦، ٣٠٢، ٤٢٠ .

(٧٩) PRO. SP. 97/39: Istanbul, 23,12 1757; AE. B' 1040. Seyde, 11.10.1783

(٨٠) كلمة Moka تشير الى مخافي اليمن .

(٨١) انظر : AE. CC. Damas I, 30 mars 1842.

(٨٢) انظر بحثنا التالي الذي القيناه في المؤتمرالدولي الثاني للتاريخ الاقتصادي الاجتماعي لتركيا ، المنعقد في جامعة ستراسبورغ ، (١ - ٥ تموز ١٩٨٠ .
«The impact of Europe on a traditional economy : the case of Damascus, 1840 - 1870 », a paper sumbitted to the IIe Congrès international d'Histoir Economique et Sociale de la Turquie , Economie et Sociétés dans l'empire Ottoman, fin du XVIIIe - début du XXe siècle » Strasbourg, Ier - 5 Juillet - 980.

(٨٣) نعمان القساطلي ، الروضة الغناء في دمشق الفيحاء ، بيروت ١٨٧٩ ، ص ١٢٤ .

(٨٤) ابن كنان، الحوادث اليومية ، جـ١ ، ١٠٢ ، المرادي ، مطمح الواجد ، ٤٣ أ . انظر ايضا البديري ، ص ١٧١ ، الذي ذكر السويقة الى جانب حي الخراب .

(٨٥) بنيت في عام ١٣٩٩/٨٠٢ - ١٤٠٠ ، وهي شمالي جامع الجراح في باب الصغير ، عرفت ايضا بزاوية الوطية نسبة الى علي الشهير بابن وطية الذي انشاها (ابن طولون ، اعلام الورى ، تحقيق الدهمان ، ص ١٠٢ ، المنجد ، ولاة دمشق ، ص ٤١) .

(٨٦) سجل دمشق رقم ١٢٤ ، ص ١٩٢ ، ١٦ رمضان ١١٥٩ (٢ تشرين الاول ١٧٤٦) .

(٨٧) سجل دمشق ، رقم ١١٠ ، ص ٢٠ ، ١٠ مادي الاول ١١٥٤ (٢٤ تموز ١٧٤١) .

(٨٨) المحبي ، جـ ٢ ، ص ٣٤٦ .

(٨٩) المرادي ، سلك الدرر ، جـ٢ ، ٢ .

(٩٠) انظر مثلا : المرادي ، سلك الدرر ، جـ١ ، ٢٥٨ .

(٩١) النفحة المسكية ، ٩٤ أ ، ٩٤ ب .

(٩٢) انظر مثلا : المرادي سلك الدرر ، جـ ٣ ، ٩ .

(٩٣) انظر مثلا : المصدر السابق ، جـ ٣ ، ٢١٥ ، جـ ٤ ، ٢٦٥ .

(٩٤) المحبي ، جـ ٢ ، ٧٦ ، المرادي ، سلك الدرر ، جـ٢ ، ٣٣ ، جـ ٣ ، ٢١٣ ، عبد الرزاق البيطار ، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ، ٣ اجزاء ، تحقيق محمد بهجت البيطار ، دمشق ، ١٩٦١ - ١٩٦٣ ، جـ١ ، ١٠٣ .

(٩٥) المرادي ، سلك الدرر ، جـ٣ ، ٩ .

(٩٦) انظر مثلا : المحبي ، جـ ٢ ، ١١٨ .

(٩٧) انظر مثلا : الغزي ، لطف السمر ، ٢٠٩ ب .

(٩٨) المصدر السابق ١٧٩ أ ، المحبي ، جـ٤ ، ٢٨٧ .

(٩٩) المرادي ، سلك الدرر ، جـ ٤ ، ١١٤ ، ١٢٩ .

(١٠٠) انظر مثلا المصدر السابق ، جـ٢ ، ٢ ، جـ٣ ، ٢٦٠ .

مروان بن الحكم والخلافة

د. صالح الحمارنة

كليـــة الاداب ـ الجامعة الاردنية

اود في هذا البحث ان اعود الى بدايات مساعي مروان بن الحكم للوصول الـى الخلافة ، مبينا ان مروان قد سعى الى السلطة منذ وقت مبكر ، وليس صحيحا الرأي ان مروان لم يكن يفكر بالخلافة ، وانه شجع في ظروف خاصة انتهزها ليصبح خليفة المسلمين . وقد رأيت من المناسب أن اورد نصوصا قد تكون طويلة وكثيرة ، ولكن لها أهمية في توضيح الموضوع .

لقد كان مروان بن الحكم ـــ كما يرد في المصادر الاولى ـــ في عهد ابن عمه عثمان بن عفان رضي الله عنه جليس الخليفة وكاتم سره وكاتب الدولة الذي يكاد الخليفة ـ خاصة في السنوات الاخيرة من حكمه ـ لايخرج في شؤون الدولة عن امره في شيء حتى قيل ان من الاسباب التي أدت الى نقمة الناس على الخليفة تقريبه مروان وطاعته له(١)، ويرون ان كثيرا مما ينسب الى عثمان لم يأمر به ، وان ذلك عن رأي مروان دون عثمان . تذكر المصادر ان مروان كان قد اشترى خمس غنائم الحملة على افريقيه من عثمان اذ قدم عليه مبشرا فوهبها له .. وقالوا اشترى مروان خمس غنائم افريقية وقيمته اربعمائة الف دينار بمائة الف دينار من عبد الله بن ابي السرح ، فلما قدم المدينة ادى بعضه ووهب له عثمان الباقي(٢) وكذلك تذكر المصادر ان مروان اخذ غنائم خمس ارمينية(٣) . ومع ان هذه الروايات لا تخلو من مبالغة فانها تشعر بأن مروان قد اكتسب خبرة واسعة في تصريف شؤون الدولة في خلافة عثمان .

معلوم ان مروان عاش بعد وفاة ابيه الحكم بن ابي العاص في كنف ابن عمه الخليفة «وكان عثمان يكرمه ويعظمه» فلما حوصر الخليفة عثمان كان مروان يقاتل دونه اشد القتال .. وحين اجتمع المهاجرون على باب دار الخليفة، «وقد ركب بعضهم

بعضا قام مروان وبأمر من الخليفة نفسه فكلمهم واغلظ لهم في القول ،ومما قاله : ـ **جئتم لتنزع ملكنا من أيدينا** والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم ولا تحمدوا غب رأيكم ، ارجعوا الى منازلكم فانا والله ما نحن مغلوبون على ما في ايدينا »(٤) .

وحين وقعت المأساة وقتل الخليفة الشيخ كان مروان قد جرح جرحا عميقا وهو يذود عنه «وقد ضرب يومئذ كعبه مايظن الا انه قدمات مما به من الجراح .. ووقع على وجهه فأرادوا أن يبضعوا عليه فقيل تبضعون اللحم فترك »(٥). والذي يهمنا ان نؤكده هنا هو شعور مروان بن الحكم العميق ان الملك أصبح ملك بني امية وفي ايديهم . وذلك منذ ان تمكن اقرباء الخليفة الورع عثمان منه واخذوا يوجهون امور الدولة الوجهة التي فيها صالحهم وصالح من يمثلون من الامة .

وبعد وفاة الخليفة عثمان ووقوع الفتنة الكبرى في الاسلام احس مروان ان الاحداث قد تجاوزته ، اذ قام معاوية بن ابي سفيان ومن موقعه المميز في الشام يطالب بدم الخليفة المقتول فأصبح هو المتكلم بأسم بني امية خاصة والغاضبين لقتل عثمان عامة فلم يكن لمروان دور خاص ، ولكنه لم ينزو بل نراه فعالا نشطا في كل الاحداث التي تبعت ذلك ، فكان من المعارضين للامام علي ومن ابرز خصومه في معركة الجمل .

ان بروز مروان في معركة الجمل بالذات ورميه لطلحة بن عبيد بسهم كان سبب وفاته ينبىء بما في نفس الرجل من طموح للخلافة وتطلع للوصول الى الحكم . فهو حاقد على طلحة منذ زمن بعيد ، وحين رماه التفت الى أبان بن عثمان وقال له : « قد كفيناك بعض قتلة أبيك » . وشارك مروان في معركة صفين وفي التحكيم(٦) .

وحين تسلم معاوية بن ابي سفيان الخلافة ولى مروان بن الحكم البحرين ثم ولاه المدينة المنورة اكثر من مرة ، واسناد امارة المدينة لاموى أمر تفرضه ظروف معاوية ولكن لخوف معاوية بن ابي سفيان من تقوية نفوذ مروان كان يلجأ الى ابداله بأموي اخر(٧) . ولكن ، اين مكانة مروان كأمير على المدينة ايام معاوية من مكانته ايام الخليفة عثمان ، حين كان كاتبا للدولة والرجل المتنفذ في شؤونها ، فلا عجب ان ينظر مروان الى ابن عمه الخليفة في دمشق بعين غير عين الرضا ، سيما حين اخذ معاوية بابراز ولده يزيد وتقريب زياد بن ابيه وادعائه انه اخوه عندها أحس مروان بعمق أن معاوية عازم على تقوية بيت ال حرب على حساب الاسرة الاموية كلها . وقد شاركه هذا الاحساس بقية بني امية من سكان المدينة خاصة .

وقد جاء في كتاب الموفقيات حديث شيق ولكنه طويل يكشف عن مخاوف

بني امية هذه وعن جزعهم الجزع كله حينما ادعى معاوية زيادا وأثر عمرو بن العاص على اهل بيته وقربهما دونهم ، يقول الزبير بن بكار « فاجتمعوا (بنو امية) في ذلك فأتوا مروان بن الحكم في بيته ، وقد كتب له معاوية عهده على المدينة فقال القوم : يامروان ، انك شيخنا وكبيرنا وقد ترى ما ركبنامعاويةمن امر ليس لنا عليه صبر ولاقرار ولاينام على مثله الاحرار ادخاله فينا من ليس منا يريد ان يدخله على حرمنا ونسائنا . وقد اجتمع رأينا على ان تأتيهفتعاتبه فان رجع قبلنا وانابى اعتزلنا. فقال مروان : قد والله كلمته في هذا الامر غير مرة فلم يجبني الى شيء مما احب بل يظهر لي التعتب والتغضب ويزعم اني في هذا الامر اوحد . فقال له سعيد بن العاص : يامروان ، بل والله تحامي على عهدك . فقال مروان : والله لصلاحكم في فساد عهدي أحب الي من فسادكم في صلاح عهدي فأتوه فانه رجل له أرب ونظر فكلموه بملء افواهكم » .

قال : فانطلق القوم فأستأذنوا على معاوية ، فأذن لهم ، فسلموا فاحسن الرد وكان فيما قال : اهلا وسهلا ، قرب الله الديار وادنى المزار ، أزيارة فتحظى؟ أم حاجة فتقضى ؟ أم سخطة فترضى ؟ فقالوا : كلا يا أمير المؤمنين . قال : هاتوا فجلس القوم ومثل عبد الرحمن بن الحكم (اخو مروان الشاعر المشهور) بين يديه فقال ، واكثر القول من فصيح الكلام وبليغه ، ومما قاله : «يا أمير المؤمنين ، جاءتك عصابة من رهطك واحرار من اسرتك ، كلهم عارف بفضلك راع لحقك ، تابع لامرك ، رافع لذكرك ،في امر ستره خير من نشره ، وتركه خير من ذكره لعظم البلية والخطيئة واللأواء والبلوى والآفات والعاهات ، واعلم أنا لم نأتك تجنيا ولا تجرما ولا تعتبا ، بل جئناك في امر قد عجزت عن حمله الجنوب وضاقت به القلوب وكرهنا ان نطويه عنك فيثبت ذلك في قلوبنا ما لا يحصد لابانه ولا يبيد لزمانه، فان تأذن قبلنا وان تأب صمتنا مع انك ان رجعت الى مانحب حمدناوشكرنا وان تأب ذلك سمعنا واطعنا ، فقال معاوية: هات لله أبوك . قال : يا أمير المؤمنين ان امية بن عبد شمس ولد عشرة ذكور، ولد حربا وأبا حرب وسفيان وأبا سفيان ، وعمرو وأبا عمرو والعاص وأبا العاص ، والعيص وأبا العيص ، لم يلد عبيدا عبد ثقيف ، ولا العاص بن وائل ، وقد جعلتهما شعارك دون دثارك بل سربالك دون ازارك ، بل نفسك بين جنبيك . ثم لم ترض لابن عبيد حتى جعلته ابن ابي سفيان عضيهة لابيك ، وازدراء ببنيك ، مع ان في ذلك السخطة من ربك، والمخالفة لنبيك (صلعم) اذ قضى بالولد بالفراش وللعاهر الحجر. واسترسل هكذا . ثم تكلم عن عمرو بن العاص ومما قاله « فانك الزمت نفسك الحاجة اليه فألزم نفسه الغنى عنك وايم الله لنحن انصح جيوبا وأقل عيوبا ، وامس رحما واوجب حقا منه . . ثم قام سعيد ابن العاص وتكلم بنفس الروح واللهجة ومما قاله في زياد . . «وانظر ما الذي اقدمت عليه

من انك عمدت الى امرىء لارحم بينك وبينه ولاهوادة ، وانما عهدك بهبالامس وهو عامل علي بن ابي طالب يلعنك ويلعن اباك واهل بيتك على المنبر يتأول فينا القران والبهتان ، وقد كنت تختزي من ذلك اذا عظمته ان تجعله وزيرا . فلم ترض حتى نسبته الى ابي سفيان الى نسب . . وايم الله لكأني انظر الى ولده من بعده قد تفخذوا نساء بني عبد شمس بنسب ابي سفيان ، فهذا ماوصلت به كرائمك من بعدك . واما عمرو بن العاص فقد أثرته علينا وادنيتهدوننا ونحن في حال وعمرو في اخرى ، اما نحن فنعامل الناس بالوفاء والحياءوعمرو يعامل الناس بالمكر والخداع ، ومن كان كذلك فلا وفاء له ، وقد تبين لامير المؤمنين غشه اياه . . ثم دخل مروان عند جلوس القوم ، فقال معاوية : هيه يا مروان ، اعن رايك صدر هؤلاء حتى اسمعوني ما اكره ؟فردمروان على معاوية ردا يكشف جوهر القضية وهو الخلاف بين بيت ابي العاص وبيت ال حرب . ومما قاله مروان . . « أعلم انا غير متعرضين لشيء من معاتبتك فان ترجع قبلنا وان تأب سخطنا مع انك والله ياامير المؤمنين **لو قدرت ان تنكثر بالذبح على ال ابي العاص لفعلت توحشا منك لعددهم وتكرها منك لجمعهم وتبرما منك بهم** . وايم الله ماذاك جزائهم منك ، لقد اثروك واكرموك فما كافيت ولا جازيت ولا اسيت» . ثم جلس مروان وقام معاوية فدخل المنزل واطال المكث — ويبدو لي انه اجتمع مع عمرو بن العاص الذي كان حاضرا وتبادل معه الراي واتفقا على الرد على القوم وتقاسم الدور بينهما — ثم خرج معاوية قاطبا مابين عينيه يمسح عارضيه ، ثم جلس على سريره واستقبل القوم وكان رده يتركز على امرين هامين بالنسبة لنا ، الاول قوله : « وايم الله . . ما لي نظرتم ، بل ادرككم الحسد القديم لبني حرب بن امية » . والامر الثاني : « انكم ذكرتم اني اصبت السلطات والملك بحقكم ونسبكم فوالله انكم لتعلمون يا آل ابي العاص ان عثمان ابن عفان — رحمة الله عليه — قتل وانتم حضور وأنا غائب ، فوالله ماكان فيكم من مد باعا ولابسط ذراعا ، بل اسلمتموه للحتوف . . حتى كنت انا الطالب بالتراث ، ولقد مشيت في الطلب بدمه بحرب امرىء لاتخوقناته ولاتنصدع صفاته . . فلم ازل لــه ولاصحابه صابرا حتى قضى الله من ذلك ما أحب . . . فأدركت في الثأر اذ لم تدركوا . . وصبرت اذ لم تصبروا فأينا احق بالشكر انا لكم اما انتم لي ؟

وأما عمرو بن العاص فهاهو حاضر فان شاء ان يجيب عن نفسه فليفعل ، ثم سكت ، فقام عمرو بن العاص فرد ردا ذاد به عن نفسه وابرز دوره . ثم وقف وطلب من امير المؤمنين : «انا اسألك يا أمير المؤمنين ان تعفوا للقوم ما قالوا ان هم آلو لاستتمام نعمتك عليهم واياديك عندهم ، فليسوا راجعين الى ما تكرهه ان شاء الله . فقال معاوية : قد فعلت يا أبا عبد الله ، ودخل وامر القوم فانصرفوا »(٨) .

هذا الموقف لبني امية جميعا يدل بوضوح انهم يرون ان الملك انما هو ملك اموي

ويجب ان يبقى كذلك ، وانهم لايريدون اشراك شخصيات بارزة من خارج البيت الاموي في السلطة ، ومع هذا كله هم لا يريدون لمعاوية أن يقوي بيت ابي سفيان على حساب البيت الاموي الكبير وان يبقي الزعامة فيه. لذا نرى ان التنافس بين البيوتات الاموية الكبرى شديد ما بين ال ابي العاص ، ويمثلهم مروان بن الحكم ، وبيت ال ابي سفيان ويمثلهم معاوية وال العاص ويمثلهم سعيد بن العاص . وكثيرا ماكان معاوية يحذر بني امية مغبة هذا الخلاف وهذا التنافس ويود ان يجمعهم تحت جناحه خوفا ان يبرح هذا الامر — الخلافة — عنهم ، « لأخبرنكم عني يا بني امية ، لن يبرح هذا الامر فيكم ، ما عظمتم ملوككم فاذا تمناها كل امرىء منكم لنفسه وثب بنو عبد المطلب في اقطارها وقال الناس : ال رسول الله فكانت فيكم كحجر المنجنيق يذهب امامه ولا يرجع وراءه »(٩) .

لم يرتح معاوية الى وجود التفاهم بين بيتي ابي العاص والعاص الذين غالبيتهم كانوا يعيشون حتى ذاك الوقت في المدينة المنورة . لهذا لم يرق له هذا اللقاء بينهم فقد حاول ان يثير التناحر بين فروع الاسرة الاموية لكي يضعف بذلك قوتهم واجتماعهم وبالتالي يمنع وحدتهم ضده . فيذكر البلاذري ان معاوية كان يغرى بين سعيد بن العاص ومروان بن الحكم بن ابي العاص فكتب مرة الى سعيد بن العاص وهو انذاك عامله على المدينة، يأمره بهدم دار مروان ولكن سعيدا لم يفعل بما أمر به ، فأعاد الامر عليه فلم يفعل . في حين لما ولي مروان بن الحكم المدينة كتب اليه معاوية بهدم دار سعيد فارسل مروان الفعلة وركب ليهدمها ، فقال له سعيد : يا أبا عبد الملك : اتهدم داري ؟ قال : كتب امير المؤمنين الي في هدمها ، فبعث سعيد فجاء بكتاب معاوية اليه في هدم دار مروان فقال مروان : يا أبا عثمان كتب اليك بهذه الكتب فلم تعلمني ؟ قال ما كنت لامرر عليك عيشك وانما اراد ان يغرى بيننا ، فقال مروان : فداك ابي وامي فانك اكرمنا ريشا وعقبا ، وامسك عن هدم داره(١٠) . وقد جاءت هذه الرواية عند الطبري ان معاوية كان يغري بين مروان وسعيد بن العاص وانه طلب من سعيد زيادة على هدم دار مروان ان يقبض اموال مروان كلها فيجعلها صوافي ، وان يقبض فدك منه — وكان وهبها له — فلما عزل سعيد عن المدينة ووليها مروان بعده امره معاوية « ان يقبض اموال سعيد بن العاص بالحجاز » وحين هم مروان بتنفيذ امر الخليفة يأتيه سعيد بالكتب المرسلة اليه من معاوية — وكان قد حفظها كما يذكر الطبري عند جارية له — وينكشف الامر لمروان فيقول : « كان سعيد اوصل لنا منا له » . أما سعيد فقد كتب لمعاوية بن ابي سفيان معاتبا : العجب مما صنع امير المؤمنين بنا في قرابتنا ان يضغن بعضنا على بعض .. فأمير المؤمنين في حلمه وصبره على ما يكره الاجنبيين وعفوه وادخاله القطيعة بيننا والشحناء وتوارث

الاولاد ذلك ، فوالله لو لم نكن من بني اب واحد الا بما جمعنا الله عليه من نصر الخليفة المظلوم ، واجتماع كلمتنا لكان حقا علينا ان نرعى ذلك ، والذي ادركنا به خير » ، فكتب اليه معاوية يتنصل من ذلك ، وانه عائد الى احسن ما يعهده(١١) .

من هذه الروايات نتحسس صدق وصفاء سعيد بن العاص في حين يتبين لنا واقعية مروان . ونعجب أكثر لصفاء طوية سعيد من حديث جاء في البيان والتبيين كان دار بين سعيد بن العاص ومعاوية بن ابي سفيان . قال الجاحظ : قدم سعيد بن العاص على معاوية فقال معاوية : كيف تركت ابا عبد الملك ؟ فقال : منفذا لامرك ضابطا لعملك فقال له معاوية : انما هو كصاحب الخبزة كفى انضاجها فأكلها . فقال سعيد : كلا انه بين قوم يتهادون فيما بينهم كلاما كوقع النبل ، سهما لك وسهما عليك . قال : فما باعد بينه وبينك ؟ فقال : خفته على شرفي وخافني على مثله ، قال فأي شيء كان له عندك في ذلك ؟ فقال : اسوءه حاضرا واسره غائبا . قال : يا ابا عثمان ، تركتنا في هذه الحروب ، قال : نعم تحملت الثقل وكفيت الحزم ، وكنت قريبا لو دعيت لاجبت ولو امرت لاطعت . فقال معاوية : يا اهل الشام هؤلاء قومي وهذا كلامهم(١٢) . من هنا نرى ان معاوية بن ابي سفيان كان مدركا لوضع مروان بن الحكم المميز في المدينة المنورة فهو يتخوف من نفوذه وقوته . وان هذه القوة ستزداد الى الدرجة التي تهدد مصلحته ومصلحة ولده يزيد ، فهو يوليه حيناويعزله اخر ، ويوقع بينه وبين قومه ويوغر بينهم الشحناء ، ومروان بدوره مدرك لهذا الذي يجري واع لما يخطط الخليفة في الشام ، فهو يستغل مكانته المميزة هذه وقرابته من الخليفة المغدور وبلائه في الفتح ، كل ذلك الى جانب شخصيته القوية ، حيث تذكر المصادر ان مروان كان لبقا فصيح اللسان سبابا ، يعالج الشعر ، وانه كان من خطباء قريش .. وقد لقب بخيط باطل لطول عنقه وقد بنى مروان في المدينة المنورة دارا واسعة اشتهر ذكرها كانت ملتقى الناس ووجوه القوم(١٣) . ويذكر ابن سعد في طبقاته ان مروان بن الحكم في ولايته على المدينة كان يجمع اصحاب رسول الله ويستشيرهم ويعمل بما يجمعون عليه(١٤) . وقد اتى مروان مسلم بن عقبة المري بعد قعة الحرة .. بعلي بن الحسين يطلب له الامان بعد ان استجار علي به وبولده عبد الملك(١٥) .

من هذه الاحداث وهذه الفعاليات تتكون لدينا صورة تكاد تكون واضحة عن مروان بن الحكم هذا الرجل القوى المتنفذ في بيته والذي يعمل بدقة وتؤده ضمن خطة واضحة يسعى لتنفيذها بكل ما اوتي من قوة وبراعة ، فهو ابن عم أمير المؤمنين عثمان ، وقد امر مرات ونزع مرات ، كل ذلك لا يسخط ولا يخالف ولا يعزل عن خيانة .

ومروان بدوره يكيل لمعاوية بن ابي سفيان بنفس الصاع الذي كان رجل بني حرب

يكيل له فيها فهو يغري ابناء عثمان ويحرضهم على معاوية ويقول لهم ان الرجل لم يأخذ الامر الا باسمكم واسم ابيكم . يذكر مصعب الزبيري في كتابه (نسب قريش) ان مروان بن الحكم قال لعمرو بن عثمان بن عفان وهو اكبر بني عثمان «ما اخذ هؤلاء ـ يعني بني حرب بن امية ـ الخلافة الا باسم ابيك ، فما يمنعك ان تنهض بحقك فنحن اكثر منهم رجالا » .. وعدد رجالهم ، ثم اضاف « ومنا فلان وهو فضل وفلان وهو فضل ، نعدد فضول رجال ابي العاص على رجال بني حرب »(١٧) .

وتكتمل الصورة حين نعلم ان احدى بنات معاوية بن ابي سفيان واسمها رملة كانت زوجا لعمرو بن عثمان وكان لها منه ولدان ، ومرة طلب معاوية من مروان حين رده اميرا على المدينة ان يرسل ابنته هذه كي تزوره ، ويظهر ان معاوية اراد عن طريق ابنته ان يتحسس ويستشف ما في نفوس القوم ، فحين جاءت ابنته لزيارته سألها : « يابنية كيف رضاك عن عمرو بن عثمان زوجك؟ قالت : والله ما يزال بنو العاص يتكثرون علينا بعددهم حتى لوددت ان ابني هذين منهم في البحر ، قال :يابنية ان هذا منك كبير ونحن كنا اشقى بمناوءة الرجل من ان تكوني رجلا »(١٨) .

ويبرز لنا ولد اخر من ابناء الخليفة عثمان لينافس بني حرب في الخلافة ، ــ هو سعيد بن عثمان الذي يصفه صاحب كتاب (الامامة) ، «بشيطان قريش ولسانها»(١٩) فبعد ان عهد معاوية لابنه يزيد بالخلافة كما هو معروف يغضب لذلك سعيد بن عثمان اشد الغضب ويأخذ ببث الدعاية لنفسه في المدينة المنورة حتى ان البلاذري يروي لنا ان صبيان اهل المدينة وعبيدهم ونسائهم اخذوا يهزجون .

والله لا ينالها يزيد ... حتى ينال رأسه الحديد

ان الامير بعده سعيد

ــ اي بعد معاوية ــ وحين قدم سعيد بن عثمان على معاوية قال له معاوية :يا ابن اخي ما شيء بلغني يقوله اهل المدينة ؟ قال : وما تنكر من ذلك يامعاوية ، والله ان ابي لخير من أبي يزيد وان امي لخير من امه *واني لخير منه ، ولقد استعملناك فما عزلناك ووصلناك فما قطعناك ، وصار امرنا في يدك فحلأتنا منه اجمع ، فقال معاوية : قد صدقت في قولك ان اباك خير مني ، وان امك خير من امه ، لان امك من قريش وامه امرأة من كلب . واما قولك انك خير منه فوالله ما يسرني ان بيني وبين العراق حبلا نظم

---

* ام سعيد هي فاطمة ام عبد الله بنت الوليد بن عبد شمس بن المغيرة المخزومي . البلاذري (انساب ج ٥ ص ٦١٥ ــ ٦١٦) .

فيه امثالك . ثم قال له الحق بعمك زياد فقد امرته ان يوليك خراسان(٢٠) . ويقال ان يزيد بن معاوية نفسه حث والده على اكرام سعيد لاسكاته ، وفعلا ولي سعيد خراسان وفتح سمرقند انذاك وقد اصيبت احدى عينيه اثناء الفتح .. ولكن معاوية خاف ان تقوى شوكته فيطلب الخلافة فعزله ، ورجع الى المدينة حيث مات فيها قتيلا . على يد غلمان له(٢١) .

لم يكتف مروان بتشجيع اولاد عثمان وحثهم للتحرك ضد معاوية وضد بيعته لولده يزيد ، بل اننا نتحسس بعمق ان الدعاية المروانية اخذت تروج لاحاديث تنسب للرسول عليه السلام ،احاديث على الارجح انها موضوعة وربما متأخرة، مفادها ان الخلافة سوف تؤول الى اولاد الحكم بن ابي العاص . ومن هذه الاحاديث ما جاء في كتاب (الامتاع والمؤانسة) للتوحيدي ، قال : « حدثني الحكم بن هشام الثقفي قال : مات عبيد الله بن جحش عن ام حبيبة بنت ابي سفيان ، وكانت بأرض الحبشة ، فخطبها النبي (صلعم) الى النجاشي فدعا بالقرشيين فقال : من أولاكم بأمر هذه المرأة ؟ فقال خالد بن سعيد بن العاص : أنا اولاهم بها ، قال : فزوج نبيكم ، قال : فزوجه ومهر عنه اربعمائة دينار ، فكانت اول امراة مهرت اربعمائة دينار ثم حملت الى النبي (صلعم) ومعها الحكم بن ابي العاص فجعل النبي يكثر النظر اليه ، فقيل له : يارسول الله ، انك لتكثر النظر الى هذا الشاب ، قال : اليس ابن المخزومية ، قالوا ، بلى ، قال : اذا بلغ بنو هذا اربعين رجلا كان الامر فيهم(٢٢) . وروى عن الرسول انه قال في الحكم « كأني ببنيه يصعدون منبري وينزلون »(٢٣) .

وكان مروان اذا جرى بينه وبين معاوية كلام ــ مشادة ــ قال لمعاوية : « والله اني (لابو) عشرة واخو عشرة وعم عشرة وما بقي الا عشرة حتى يكون الامر في ، فيقول معاوية بن أبي سفيان اخذها والله من عين صافية »(٢٤) .

ويذكر ابن عساكر رواية على لسان معاوية مفادها ان معاوية قد أجاب حين سئل لمن هذا الامر من بعدك يا امير المؤمنين ؟ فأجاب معاوية بعد ان استعرض اولاد الصحابة من اشراف قريش وحين يأتي الدور ليذكر مروان ابن الحكم يقول فيه: « اما القارىء لكتاب الله الفقيه في دين الله الشديد في حدود الله فمروان بن الحكم » ويذكر هذا المعنى الزبيري والبلاذري وغيرهما(٢٥) . ويزيد عليهم ابن كثير فيقول : « ان الحسن والحسين كانا يصليان خلف مروان(٢٦) » وليس في هذا غرابة اذ ان مروان كان امير المدينة .

نحن نعلم ان معاوية بن ابي سفيان قد سعى السعي كله لكي يعد ولده يزيد

ليتولى الخلافة من بعده ، انطلاقا من قناعته ان في هذا مصلحة بيته ومصلحة جميع المسلمين . وقد سلك كل طريق لتوصله الى هذه الغاية ....ونحن نعلم أيضا ان عددا من خلصاء معاوية ومعاونيه امثال المغيرة بن شعبة والضحاك بن قيس قد وقفوا الى جانب معاوية ينصرونه في هدفه هذا وقد ساعدوه كل المساعدة لتحقيقه. وكان طبيعيا ان يكون رد ابناء الصحابة الاولين وابناء الخلفاء السابقين ، امثال الحسين بن علي وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن ابي بكر ، أن يكون الرفض وعدم الموافقة ، وموقفهم هذا معروف جيداً ، تحدثت فيه كتب التاريخ قديمها وحديثها ، ولكن موضوع حديثنا هو : ترى ما هو موقف مروان بن الحكم بالذات من هذه القضية وكيف كانت ردة الفعل عنده ؟

لاشك ان مروان بن الحكم كان بينه وبين نفسه يقر لمعاوية بالخلافة وبأنه كان الرجل الكفؤ الذي قام بالامر بعد مقتل الخليفة عثمان وان الظروف الموضوعية التي احاطت بمعاوية من امرته في بلاد الشام لمدة طويلة اعطت الرجل الارض الصلدة التي استطاع الوقوف عليها بقوة وان ينطلق منها ليتصدى لرجل من اعظم رجال الاسلام وابرز القرشيين نسبا وشجاعة ، وكما يقول معاوية نفسه « ولقد منيت في الطلب بدمه (دم عثمان) بحرب امرىء (هو الامام علي) لا تخور قناته ولا تنصدع صفاته ، من ان فزعت لم يفزع وان اطمعت لم يطمع من لا ينطمع في قراره ، ولا ينام في حذاره، بليت — والله — بليث ثابتة انيابه ، قليل غلابه ، مصمم غضوب ، شثن مهيب(٢٧) » لذا فمروان يقر لمعاوية بالخلافة ويواليه نصحه ويضع نفسه في خدمة حكمه الذي يرى فيه مروان قبل كل شيء حكما امويا ، كل هذا يبدو منطقيا وصحيحا ولكن ، ان ينقل معاوية الخلافة من بعده لولده يزيد فهذا ما لا يقره مروان ولا ينصاع اليه ابن الحكم ، وخير صورة لردة الفعل عنده على بيعة يزيد نجدها في كتاب (الامامة والسياسة) اذ يذكر صاحب الكتاب ان مروان خاطب معاوية قائلا : « جئتم بها هرقلية ، تبايعون لابنائكم(٢٨) » ويرد تفصيل هذا في الكتاب نفسه (الامامة والسياسة) فيقول المؤلف « بايع معاوية ليزيد بعد وفاة الحسن رضي الله عنه في الشام وكتب ببيعته الى الافاق وكان عامله على المدينة مروان بن الحكم ، فكتب اليه يأمره بجمع من قبله من قريش وغيرهم من اهل المدينة ثم ليبايع يزيد بن معاوية قال : فلما قرأ مروان كتاب معاوية ابى من ذلك وابته قريش ، فكتب الى معاوية : ان قومك قد ابوا اجابتك الى بيعتك لابنك فرأيك . فلما بلغ معاوية كتاب مروان عرف ان ذلك من قبله . فكتب يأمره ان يعتزل عمله ويخبره ان قد ولى المدينة سعيد بن العاص(٢٩) . هذه ردة الفعل عند الرجلين مروان يرفض ومعاوية يعزل مروان عن ولاية المدينة وهذا الامر متوقع جدا ، فقد جاء في كتاب (الامامة

والسياسة) المنسوب لابن قتيبة شرح واف لردة الفعل هذه عند مروان بعد عزله هذه المرة ، فيقول : « لما بلغ مروان كتاب معاوية بعزله ، أقبل مغاضبا في أهل بيته وناس كثير من قومه حتى نزل باخواله من بني كنانة ، فشكا اليهم واخبرهم بالذي كان من راي معاوية ، في عزله واستخلافه من غير مشورة مبادرة له . فقالوا : نحن نبلك في قربك ، وسيفك في يدك ، فمن رميته بنا أصبناه ، ومن ضربته بنا قطعناه ، الراي رايك ونحن طوع يمينك . ثم أقبل مروان في وفد منهم كثير ومن كان معه من قومه واهل بيته حتى نزل دمشق ، فخرج فيهم حتى اتى سدة معاوية وقد اذن للناس ، فلما نظر الحاجب الى مروان ، والى كثرة من معه من قومه واهل بيته منعه من الدخول فوثبوا اليه فضربوا وجهه حتى خلى عن الباب ، ثم دخل مروان ودخلوا معه حتى اذا كان من معاوية بحيث تناله يده ، قال بعد التسليم عليه بالخلافة ، « اقم الامر يا ابن أبي سفيان واهدىء من تاميرك الصبيان ، واعلم ان لك في قومك نظرا وان لهم على مناوءتك وزرا » فغضب معاوية من كلامه غضبا شديدا ثم كظم غيظه بحلمه ، واخذ بيد مروان ثم قال : ان الله قد جعل لكل شيء اصلا وجعل لكل خير اهلا ثم جعلك في الكرم مني محتدا ، والعزيز مني والدا ... فانت ابن ينابيع الكرم فمرحبا بك واهلا ابن عم .. وقد أصبحنا في امور مستحيرة ذات وجوه مستديرة ، وبك والله يا ابن العم نرجوا استقامة اودها ... فانت نظير امير المؤمنين بعده ، وفي كل شدة عضده ، واليك عهد عهده ، فقد وليتك قومك واعظمنا في الخراج سهمك وانا مجيز وفدك ، وعلى امير المؤمنين عناك والنزول عند رضاك . « فكان اول من رزق الف دينار في كل هلال . وفرض له في اهل بيته مئة مئة »(٣٠) .

ويلخص لنا المقدسي في كتاب البدء والتاريخ موقف مروان هذا بسطور قليلة اذ يقول « بعد اخذ البيعة ليزيد ، كتب (معاوية) الى مروان بن الحكم بأخذ بيعة اهل المدينة ليزيد ــ عليه اللعنة ــ ، فغضب مروان اذ لم يجعل اليه الامر ، فسار الى الشام فكلمه ، وجعله ولي عهد يزيد بعده ورده الى المدينة(٣١) . يظهر ان مروان قد قبل الامر الواقع وقبل بهذه الترضية ، اذ ادرك بحنكته السياسية ان المصاعب التي سوف يواجهها يزيد كثيرة ومعقدة وصعبة ، واحس ان اي تحرك من جانبه وجانب الامويين في المدينة سوف يربكه وان نتائجه لن تكون في صالح البيت الأموي عموما ولا في صالحه خصوصا ، بل يبدو أن الامر ربما سيخرج من ايديهم ، لذا نرى مروان مرة ثانية يقف موقف الناصح لبيت آل حرب . صحيح ان علاقة مروان بن الحكم مع والي يزيد على المدينة المنورة الوليد بن عتبة السفياني كانت قد تميزت بالجفاء وعدم الود ، وكان مروان لا يأتي الا « معذرا متكارها » حتى ان الوليد شتمه

في مجلسه ، وذلك مرده الظاهر هو اختلاف وجهات النظر بين الرجلين خاصة بالنسبة لمعاملة الحسين بن علي ، اذ تميزت علاقة الوليد بالحسين بالتسامح ، ولكن يبدو لنا ان التنافس والتنافر بين الرجلين هو بالحقيقة انعكاس للتنافس بين البيتين الامويين اللذين يمثلاهما(٣٢) .

وعند انتفاضة أهل المدينة ضد يزيد واخراج بني امية قسرا منها واخذ الوعد منهم الا يعودوا اليها مع جيش الشام القادم اليهم ، نجد مروان لا يلتفت الى العهد الذي قطع لاهل المدينة بل يقف مع يزيد ومع قائده مسلم بن عقبة يساعده ويرشده ، ويرجع مع جيش الشام ويصيح قائلا : « انا والله ماض مع مسلم الى المدينة فمدرك ثأري من عدوي وممن اخرجني من بيتي وفرق بيني وبين اهلي(٣٣) » وقد شكر مسلم بن عقبة لمروان موقفه هذا برسالة بعث بها ليزيد بن معاوية جاء فيها «فرجع معنا ... مروان بن الحكم فكان لنا عونا على عدونا ، وكان اكرم الله امير المؤمنين من محمود مقام مروان وجميل مشهده وشديد بأسه وعظيم نكايته لعدو أمير المؤمنين ما لا اخال ذلك ضائعا عند امام المسلمين »(٣٤) . يتميز سلوك مروان بن الحكم بعد معركة الحرة بانه كان شفيعا لكثير من وجوه اهل المدينة لدى مسلم بن عقبة ، الذي اطلق عليه البعض لقب مسرف بسبب قسوته على اهل المدينة ، ولكن هذا لم يمنع اخراج مروان ثانية من المدينة ، والمصادر هنا تختلف والاخبار تضطرب ، في سبب خروج مروان من المدينة وزمانه ، فبعضها يقول ان يزيد بن ابي سفيان طلبه الى الشام وبعضها يذهب في ان ابن الزبير طلب الى عامله على المدينة عبد الله بن حنظلة الغسيل ان يخرجه مع بقية بني امية الى الشام . المهم ان مروان ابن الحكم يخرج الى الشام ويرى كثير من المؤرخين القدامى وتبعهم في ذلك المحدثون ان اخراج مروان هذا الى الشام كان السبب البعيد في وصوله الى الخلافة . اذ لو بقي في الحجاز لما عرفه الشوام ولما بايعوه . « انما بعثت عليك – ابن الزبير – افاعي لا يبل سليمها أمثل مروان وبني امية يشخصون الى الشام .. »(٣٥).

توفي يزيد بن معاوية في قرية حوارين من اعمال حمص سنة ٦٤ هـ / ٦٨٣ م وذلك يوم الاثنين لاربع عشر ليلة خلت من ربيع الاول ونقل ودفن في دمشق حيث صلى عليه ابنه معاوية ، وكان يزيد قد لجأ الى المبايعة المبكرة لاكبر ابنائه معاوية ابن يزيد(٣٦) .

لا شك ان موت يزيد قد خلق موقفا صعبا جدا للخلافة الاموية اذ قد ظفر ابن الزبير بمبايعة اهل الحجاز والعراق واليمن ومصر وولى عليها عمالا من قبله ،مع ان

نفوذه لم يكن يتعدى مكة طيلة حياة يزيد ، لذلك نرى ان ابن الزبير قد دعا لنفسه بالخلافة واتخذ لقب امير المؤمنين وكان قبل ذلك يدعو الى الشورى(٣٧) ، وزاد الامر صعوبة ان معاوية بن يزيد الذي تولى الخلافة بعد ابيه توفي هو الاخر بعد حكم قصير جدا ، وقيل انه تنازل عن الخلافة قبل موته(٣٨) .

وهنا يجدر بنا ان نقف وقفة طويلة ندرس فيها شخصية معاوية بن يزيد وما احاط بموته المبكر من أحداث ، ولنتأمل في امر تنازله المشكوك فيه عن الخلافة ، ومن ثم نسأل انفسنا اين يقف مروان من كل هذا ؟ بكل بساطة نرى ان المروانيين الذين اخرجوا السفيانيين عن الخلافة ظلما وعدوانا هم الذين روجوا لدعايات اذاعوها بين الناس لتبرير وصولهم الى الحكم والى الخلافة .

ان أهم النقاط التي تصر عليها الدعاية المروانية وتذكرها مختلف الروايات في المصادرالتي وصلتنا هي :

أولا : ان معاوية الثاني كان رجلا ضعيفا « قد نظرت في أمركم فضعفت عنه »(٣٩) . يقف مروان بن الحكم نفسه على قبر معاوية ويقول : « اتدرون من دفنتم ؟ قالوا : نعم معاوية بن يزيد ، قال : بل دفنتم أبا ليلى ، يستضعفه » .

ثانيا : انه تنازل عن الخلافة بسبب هذا الضعف « فانتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم » ، و « مات يزيد بن معاوية وبويع لابنه معاوية وهو أبو ليلى ، فنادى الصلاة جامعة ثم تبرأ من الخلافة وجلس في بيته » . هكذا بكل بساطة يضع البلاذري القضية(٤٠) .

ويقول المسعودي : « مات ابن يزيد ويكنى أبا عبد الرحمن وانما كني أبا ليلى تقريعا له لعجزه عن القيام بالامر ، وكانت العرب تفعل ذلك بالعاجز من الرجال»(٤١) .

ثالثا : ان معاوية الثاني لم يكتف بالتنازل عن الخلافة بل انه أصر أن لا يوصي لاحد بعده ، وان بني سفيان قد نالهم نصيبهم منها ، « فلما ادركته الوفاة قيل له أوص واستخلف قال : والله ما ذقت حلاوتها واصلى بمرارتها .. ان يكن خيرا فقد أستكثر منه آل سفيان — لم يقل أمية — وان لم يكن غير ذلك فوالله ما أحب أن أزودهم الدنيا وأذهب بوزرها الى الآخرة(٤٢) » .

ويذكر الذهبي « قالوا له الا تستخلف فامتنع ، فلما احتضر معاوية قيل له لو بايعت لاخيك خالد بن يزيد فانه اخيك لابيك وأمك فقال : سبحان الله كفيتها حياتي وأتقلدها بعد موتي(٤٣) » .

هذا مضمون الروايات التي وردت بأكثر المصادر ـ وقد تعرضنا لمجمل منها فيما سبق من الكلام ـ والتي تناقلها كثير من العلماء والمؤرخين المحدثين ، والتي كما قلنا تبرر ازالة المروانيين للفرع السفياني عن الخلافة واخذها بالسيف والعدد والجبروت :

وللرد على الدعاية المروانية ومرتكزاتها السابقة نقول : **ان معاوية بن يزيد لم يكن بالرجل الضعيف** وليس صحيحا انه لايستطيع القيام بواجبات الخلافة والمسؤوليات المترتبة عليه ، والحقيقة عكس ذلك . ان ترشيح معاوية الثاني لولاية العهد وان يخلف والده جاء بعد امعان النظر والدرس من قبل والده وبعد أن استشار الخليفة يزيد في هذا الامر الكبير كثيرا من خلصائه . . .

ثم أن يزيد بعد اختياره معاوية خلفا له أخذ يهيء ولده لهذا الامر ويعده له اعدادا سليما ، وقد اذاع أمر ولايته للعهد في الافاق وبين المسلمين قبيل وفاته ، ويذكر ابن سعد في طبقاته « كان (يزيد) عقد لابنه معاوية للعهد بعده ، فبايع له الناس واتته بيعة الافاق ، الا ماكان من ابن الزبير » ، « لما استخلف معاوية بن يزيد وجمع عمال أبيه وبويع له بدمشق »(٤٤) .

قال الشاعر علي بن الغدير الغنوي ، يحث يزيدا على مبايعة ولده معاوية :

يزيد يا ابن أبي سفيان هل لكم
الى سناء ومجد غير منصرم
اعزم عزيمة أمر غبه رشد
قبل الوفاة وقطع قالة الكم
ان الخلافة ان تثبت لثالثكم
تثبت اواخيها فيكم فلا ترم(٤٥)

فلم تزل في نفس يزيد حتى بايع لابنه معاوية ، « **فكان أصلح فتيان بني امية** ، وكان يزيد لما عقد لابنه معاوية ، الزمه الفقهاء والرواة وصرف اليه وفود العرب(٤٦) » ويؤكد البلاذري أن يزيد ولى معاوية عهده في صحته(٤٧) . ونفهم من كتاب « الامامة والسياسة » **أن يزيد بن معاوية كان يجتمع مع ولده معاوية ويشاوره في أمور الدولة الكبيرة** فيذكر لنا صاحب كتاب « الامامة » عن جلسة اجتمع فيها معاوية مع أبيه يزيد بعد وقوع معركة الحرة ، وينقل تعليقات لمعاوية على الاحداث المؤثرة فيقول : « انما قتلنا بهم ـ قتلى المدينة ـ انفسنا » فيرد يزيد : « هو ذاك قتلت بهم نفسي وشفيتها(٤٨) » وتمضي المصادر في تعداد صفات معاوية بن يزيد الحميدة والتي في

مجملها لايمكن بأية حال تفسيرها بانه رجل ضعيف وشاب خامل واه ، يتنازل عن حقه الذي ورثه عن أبيه وجده في الخلافة وفي قيادة المسلمين . « وكان (معاوية) شابا مليحا ابيض فيه خير وصلاح »(٤٩) . وجاء في النقائض « ما رأينا شابا أصح وجها ولا أفصح لسانا ولا أحد قامة من معاوية بن يزيد بن معاوية »(٥٠) . وهكذا يعتلي عرش الخلافة شاب هو من اصلح فتيان بني امية ، لسنا فصيحا قد لزم الفقهاء والرواة ويتم في بلاطه كل مراسم الخلافة ومظاهرها ، فقد كتب له زمل بن عمرو العذري وسليمان بن سعيد الخشني وسرجون بن منصور النصراني وكان نقش خاتمه « بالله ثقة معاوية ، وقاضيه ابو ادريس الخولاني وحاجبه صفوان مولاه »(٥١) .

وتذكر بعض المصادر اكثر من ذلك ، تذكر ميزة خاصة في معاوية الثاني عن غيزه فتقول : « ان معاوية بن يزيد كان له مذهب جميل »(٥٢) ويفصح لنا ابن العبري عن مذهب معاوية هذا فيقول : « لما مات يزيد صار الامر الى ولده معاوية ، وكان قدريا » ويذكر ابن العبري في نفس الرواية اسم معلمه لهذا المذهب فيقول : « لان عمر المقصوص كان علمه ذلك فدان به وتحققه »(٥٣) . ومما يدل على فاعلية معاوية بن يزيد وقوة شخصيته انه جاء الخلافة وفي ذهنه برنامج واسع للاصلاح ، فما ان تولى الامر حتى أسقط ثلث الخراج عن جميع امصار مملكته(٥٤) . اذن نحن امام شاب قوي سوي جاء الخلافة وفي ذهنه برنامج يود تطبيقه ويصدر عن مذهب جميل في حكمه ، ولكن قصر مدة خلافته لاتسمح لنا بالحكم عليه حكما موضوعيا واضحا ، ولاشك أن الخليفة معاوية بن يزيد قد واجه صعوبات جمة ودسائس كثيرة منذ اللحظة التي تسلم فيها أمور الخلافة ، وكان هو نفسه بالتالي ضحية لها !.

ان أقصى مدة لخلافة معاوية الثاني تذكرها المصادر أربعة اشهر والغالبية العظمى منها تقول بثلاثة اشهر ، توفي بعدها معاوية بن يزيد(٥٥) . ولكن السؤال هو كيف كان موته ؟ تختلف الروايات هنا اختلافا شديداً ، فالطبري يذكر « بعد تنازله – الذي نشك فيه – لزم بيته وتغيب حتى مات » وفي مكان آخر يقول : « دس اليه فسقى سما »(٥٦) . ويذكر ابن الاثير : يقال انه سقي سما(٥٧) . وجاء في « البداية والنهاية » انه عزم ان يبايع لابن الزبير (كذا) وانه سقى سما .. ويقال انه طعن(٥٨) . وفي انساب الاشراف جاء انه بعد أن تنازل في خطبته .. اغلق بابه وتمارض فلم ينظر في شيء حتى مات ، وصلى حسان بن بحدل بالناس وهم منكرون لامرهم »(٥٩) .

ويجمل المسعودي الروايات السابقة فيذكر في مروج الذهب « وقد تنوزع في سبب وفاته فمنهم من رأى أنه سقي شربة ومنهم من رأى انه مات حتف انفه ومنهم

من رأى انهطعن وقبض،وهو ابن اثنين وعشرين سنة* ،ودفن بدمشق بالباب الصغير . ويستمر المسعودي ويذكر امورا هامة جدا فيقول : « وصلى عليه الوليد ابن عتبة بن ابي سفيان ، **ليكون الامر له من بعده** ،** فلما كبر الثانية طعن فسقط ميتا قبل تمام الصلاة ، فقدم عثمان بن عتبة بن ابي سفيان فقالوا : نبايعك ، قال : على الا احارب ولا اباشر قتالا ، فأبوا ذلك عليه ، فصار الى مكة ودخل في جملة ابن الزبير — وهو خاله — ويختم المسعودي وزال الامر عن آل حرب(٦٠) .

لاشك أن موت معاوية بن يزيد المبكر جاء فجأة وعلى حين غرة ، فان كان سببه المباشر الطاعون ، فالطاعون تذكره المصادر ولكن على الارجح انه وقع في وقت لاحق في العراق والشام ، وبعد موت معاوية بن يزيد . فقد جاء في حوادث سنة ٦٥ هـ عند الطبري « انه وقع في البصرة الطاعون الذي يقال له الطاعون الجارف ، فهلك به خلق كثير »(٦١) وفي كتاب « العنوان » جاء أنه في أيام عبد الملك سنة ٦٥ هـ ، « لحق الناس في هذه السنة جوع شديد ووباء »(٦٢) وذكره الاعشى أيضا في هذه السنة(٦٣) .

اما اذا صحت الروايات الكثيرة والتي تذهب الى القول ان معاوية الثاني قد سم ، فنحن عندها أمام سؤالين : —

الاول : من صاحب المصلحة في سم معاوية بن يزيد ؟

والثاني : اذا كان قد سم فلماذا كان التنازل عن الخلافة ؟

بل نستطيع عكس هذا السؤال فنقول : اذا كان قد تنازل عن الخلافة فلماذا اذن قد سم(٦٣م) قد يذهب بنا الشك الى أن معاوية قد تألب عليه قومه ولربما ارادوا التخلص منه ، حتى انهم طمروا معلمه عمر المقصوص ودفنوه حيا(٦٤) ، وان صح

---

* تذكر المصادر اختلافا متباينا في عمر معاوية الثاني وتعمد بعضها الى تصغيره : ابن قتيبة يذكر انه حينما استخلف معاوية الثاني كان عمره سبعة عشرة سنة (معارف ص ١٧٩) وجاء في الكامل ان عمره احدى وعشرون سنة (الكامل ج٤ ص ١٣٠) ، اليعقوبي بتاريخه يذكر أن عمره ثلاث وعشرون سنة مثل المسعودي (يعقوبي ٢ ص ٢٥٣) وفي احدى الروايات عند الطبري انه توفي وهو ابن ثلاث عشرة سنة (طبري ٥ ص ٣٠٣) .

** يذكر المدائني « وقد اراد الناس الوليد بن عتبة بن ابي سفيان ان يتولى عليهم فابى وهلك في تلك الليلة » . . (ابن كثير البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٤٠) .

القول ان معاوية الثاني قد اسقط ثلث الخراج وانه كان صاحب مذهب جديد يخالف ماصار عليه بنو أمية عموما مخالفة شديدة وانهم خافوا أن يضر الخليفة الجديد بمصالحهم ويذهب بمكتسباتهم حتى أن هناك قول يبدو ضعيفا مفاده « أن معاوية بن يزيد قد عزم أن يبايع لابن الزبير »(٦٥) ، كل هذا بجانب طموح مروان بن الحكم العتيق والفعال للوصول الى الحكم ، هذا الطموح الذي لايناسبه ابدا ان يتسلم الخلافة خليفة **ثالث على التوالي** من آل ابي سفيان ، فاذ ما تم الامر لهذا الشاب معاوية ، عندها تثبت الخلافة فيهم . يذكر البلاذري أن مروان بن الحكم دخل على معاوية بن يزيد فقال له : « لقد أعطيت من نفسك ما يعطي الذليل المهين ثم رفع صوته فقال: من اراد أن ينظر في خالفة آل حرب بن أمية فلينظر الى هذا ، فقال له معاوية : يا ابن الزرقاء اخرج عني لا قبل الله لك عذراً »(٦٦) .

لذا نرى ان معاوية الثاني لم يتنازل عن الخلافة وان موته جاء في ظروف غامضة قد تصح معها رواية سمه . اذ أن شخصية معاوية بن يزيد القوية وتطلعاته السياسية اصبحت لا تروق أصحاب الشأن في البيت الاموي وفي الشام(٦٧) ، وبموت معاوية أصبح الطريق ممهداً لمروان بن الحكم الذي بات هو المرشح الاول — ولا نقول الوحيد في هذه المرحلة — لبني أمية وأهل الشام فكيف سارت الامور واتجهت الاحداث آنئذ ؟

بعد موت معاوية بن يزيد ارتبك الامر عند اهل الشام ارتباكا كبيرا وكادت تتم البيعة لابن الزبير الذي سبق أن بايعته جل الامصار الاسلامية حتى أن المدن الشامية خاصة ذات الزعامة القيسية اخذت بدورها الواحدة تلو الاخرى في البيعة له ، ولم يبق الا جند الاردن وفلسطين حيث كان كان اميرها حسان بن بحدل الذي يهوى هوى بني أمية ويدعو الى ولد اخته الى خالد بن يزيد .

وما الناس الا بحدلي عن الهوى   والا زبيري عصى فتزيدا*

وقد راى ابن بحدل ان من الحكمة أن ينتقل من فلسطين الى جند الاردن ليكون قريباً من دمشق ومن الاحداث فخلف مكانه على جند فلسطين روح بن زنباع الجذامي، الذي ما لبث أن وثب عليه ابن عمومته ناتل بن قيس الجذامي — الذي يقال انه كان

---

* يروى ان هذا الشعر لعبد الرحمن بن الحكم أخي مروان (البلاذري ، انساب الاشراف ، ٤ : ٣٥٦ ، ابو تمام نقائض ص ١٦) .

عند ابن الزبير بمكة وطلب منه ابن الزبير أن يكفيه قومه ـ فاستولى ناتل على بيت المال في جند فلسطين واخرج روح وبايع لابن الزبير(٦٨) .

في هذا الوضع الجديد الصعب تجتمع بني امية مع كبار زعماء الشام ـ خاصة اليمانية منهم ـ الذين خافوا أن ينتقل مركز الحكم من الشام الى الحجاز ثانية ، ومن بني امية الى بني أسد ـ أي لان الزبير ـ ، « فلما رأى ذلك رجال بني امية وناس من اشراف أهل الشام ووجوههم ... قال بعضهم لبعض : ان الملك كان بيننا اهل الشام فانتقل عنا الى الحجاز . لانرضى بذلك ، هل لكم أن تأخذوا رجلا منا فينظر في هذا الامر »(٦٩) .

هنا تبرز ظاهرة جديدة لها دلالتها العميقة الا وهي تكوين « **مجلس الملأ** » في دمشق (٧٠) .... وحسب معرفتي هذه المرة الاولى التي يتكون فيها مثل هذا المجلس في الاسلام ، هذا المجلس الذي ضم في صفوفه زعماء بني أمية وزعماء اليمانية ، وكانت مهمته فيما نرى ملء الفراغ بعد موت الخليفة معاوية الثاني والعمل على انتخاب من يخلفه . وكان من أكبر رجال هذا المجلس حسان بن بحدل الكلبي ، ومالك بن هبيرة السكوني ، والحصين بن نمير السكوني وروح بن زنباع الجذامي ، وعبيد الله بن زياد ، وعمرو بن سعيد الاموي وعبد الله بن عضاضة الاشعري وأبو كبشه جيويل بن يسار السكسكي ، وسعيد بن حمزة الهمذاني وشرحبيل بن ذي الكلاع الحميري وغيرهم(٧١) .

ولا شك أن هم هؤلاء الرجال عموما كان ابقاء الخلافة في الشام وتلقائيا ابقائها في بني امية ، رغم أن الروايات تذكر ان الضحاك بين قيس وكذلك حسان بن مالك بن بحدل رشحا نفسيهما للخلافة(٧٢) .

قلنا ان هم مجلس الملأ كان ابقاء الخلافة في الشام وانتخاب خليفة جديد بعد موت معاوية بن يزيد المفاجيء والفامض ، وكان ابن بحدل ومالك بن هبيرة يمثلان التيار الذي يريد البيعة لخالد بن يزيد ، أخي الخليفة المتوفي وحفيد الخليفة معاوية مؤسس الدولة الاموية وناقل مركز الخلافة الى دمشق ، والتيار الثاني يريد البيعة لمروان بن الحكم شيخ قريش وجدم بني أمية وابن عم الخليفة المغدور عثمان بن عفان .

من الاعياص أو من آل حرب
أغر كغرة الفرس الجواد(٧٣)

ولكن كان هناك الضحاك بن قيس وغيره من القيسية الذين يهوون هوى ابن الزبير والذين كانوا حنقين على ماكان لكلب من شأن بسبب يزيد وابنه معاوية .... وما كان لحسان بن مالك الكلبي خال يزيد من مركز قوي في الدولة فكان كالمالك للامر وكان العماد الاكبر لمعاوية الثاني حتى أن أخاه سعيد الكلبي كان أميرا على قنسرين مدينة القيسية ، فرات قيس أن اسناد الامارة عليهم وفي مدينتهم الى رجل من كلب أمر الايطاق(٧٤) .

هنا يلعب مروان بن الحكم دورا فذا داخل مجلس الملأ وخارجه لتتم البيعة له وقد ساعده في هذا الامر رجال عظام ودهاة كبار أمثال عبيد الله بن زياد وروح بن زنباع والحصين بن نمير . فحجة ابن بحدل في ترشيح ابن اخته واضحة ، أنه يفضل ذلك ليبقى الامر بيده « فمروان ابو عشرة وابن عشرة » ونفس الرأي كان عند مالك ابن هبيرة شيخ اليمانية ، فلنسمع حديثا له مع الحصين بن نمير في تفضيل ترشيح خالد على مروان الذي يميل اليه الحصين « ... ويلك انك انسان تايه (تائه) قد ذهب عقلك ان آل مروان أهل بيت من قيس .. قد قاسوا قوت الحجاز وشدته والله لئن ملكوا ليحسدنك نقاء ثوبيك وجلاء صوتك وظل شجرة تستظل تحتها .. هلم فلنبايع هذا الغلام (يعني خالدا) الذي نحن ولدنا أباه وهو ابن اختنا فقد عرفت منزلتنا كانت من أبيه ... فانه يحملنا على رقاب العرب غدا »(٧٥) .

اما الذين يرشحون مروان بدلا من خالد بن يزيد الفتى الحدث السن ، فحجتهم هي أن مروان شيخ بني أمية يستطيع الوقوف أمام ابن الزبير « ونحن نكره أن يأتينا الناس بشيخ ونأتيهم بصبي(٧٦) » أجل ان بعض المصادر تذكر أن مروان نفسه رأى أن ينطلق الى ابن الزبير لمبايعته ... ويأخذ بهذا الرأي مؤرخون محدثون(٧٧) . ولكن هذا القول ماهو الا من قبيل ذر الرماد في العيون . فمروان طامع في الخلافة منذ زمن بعيد ، وهو في هذه المرحلة بالذات أخذ يسعى السعي الحثيث الذكي ، لا داخل مجلس الملأ فحسب بل خارجه ايضا ، فهو يتقرب من أهل الشام الذين لم يكونوا على صلة قوية سابقة به . واستطاع أن يجذب الى جانبه شخصيات بارزة فذة ربطت بينهم المصالح المشتركة ، وقد مناهم مروان بالاماني ووعدهم بالكثير ـ كما سيأتي ـ فتذكر المصادر أن مروان وليس غيره كتب الى الحصين بن نمير وهو في محاربة ابن الزبير : « لايهولنك ماحدث وامض لشأنك » وما حدث هو موت يزيد بن معاوية(٧٨) . ولما قدم الحصين بن نمير ومن معه الى الشام اخبر مروان ماكان بينه وبين ابن الزبير، ثم خاطب الحصين مروان قائلا : « نراكم ـ بني امية ـ في اختلاط فاقيموا أميركم » وحدثه للبيعة لنفسه(٧٩) . واشترط الحصين على مروان أن ينزل البلقاء من كان

بالشام من كندة وان يجعلها لهم مأكلة(٨٠) . فأعطاه ذلك ، وجاء في كتاب التهذيب ان كلاما كان يجري بين مروان بن الحكم وروح بن زنباع عندما طلب مروان الخلافة(٨١) .

جاء في كتاب « النقائض » أن مروان أخذ يتصنع فلزم سارية في المسجد يصلي اليها ولا يجلس مع القوم ، ثم أخذ يتدارس الوضع « فيلقي الكلام الى الرجل ويضرب الامثال ويخبر بحلم آل أبي سفيان وعقولهم وجودهم ويقول : « وبنوا أبيهم منهم .. ويذكر الحاد ابن الزبير واستحلاله الحرم مع جمعه الاموال وبخله وقلة بذله(٨٢) .

وعن دور مروان وهو جالس الى سارية في المسجد نقرأ في النقائض ما يرويه روح بن زنباع مساعده الكبير في تلك الفترة الحاسمة فيقول : « فمررت بمروان وهو يصلي الى تلك السارية فسبح بي ، فملت اليه فسلم علي ثم اقبل علي فقال : يا أبا زرعة انك من هذا الامر بصدد واني لا اعلمك من أمري الا ماقد علمت ، انا ابن عم امير المؤمنين وخليفته في الدار والذي أوصى به بعده ، فلا تدع من ذكرنا ما أنت أهله ومهما نسيت من شيء فلا تنسين أن تذكر سني ونظري وتجربتي وقرابتي لامير المؤمنين عثمان مع الشدة في الحدود والعفاف في الاسلام وبذل ذات اليد مع قصب ابن الزبير وجمعه ومنعه . قال روح : أمرت بمعروف وأوصيت كافيا . قال روح : فجئت مجلس الملأ فقلت : ما يمنعكم من هذا الشيخ من قريش واشرت الى مروان ، وهو ابن عم أمير المؤمنين عثمان وقد أمر عشر مرات ونزع عشر مرات ، كل ذلك لا يسخط ولا يخالف ولا يعزل عن خيانة . قالوا : ابن الزبير اصلب منه وابن عمر افقه منه ، قال روح : اما ابن عمر فرجل قد شغلته عبادته واما ابن الزبير فمن أكثر منه غلظة وتهجما وبخلا وبني أمية اسمح اخلاقا واعطى لهذا المال(٨٣) . وتأتي خطبة روح بن زنباع عند الطبري على هذه الصورة « أيها الناس انكم تذكرون عبد الله بن عمر بن الخطاب وصحبته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدمه في الاسلام وهو كما تذكرون ، ولكن ابن عمر رجل ضعيف وليس بصاحب امة محمد الضعيف ، وأما مايذكر الناس من عبد الله بن الزبير ويدعون اليه من أمره فهو والله كما يذكرون بأنه لابن الزبير حواري رسول الله وابن اسماء ابنة ابي بكر الصديق ذات النطاقين وهو بعد كما تذكرون في قدمه وفضله ، ولكن ابن الزبير منافق ، قد خلع خليفتين يزيد وابنه معاوية بن يزيد وسفك الدماء وشق عصا المسلمين وليس صاحب أمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم المنافق ، واما مروان بن الحكم فوالله ماكان في الاسلام صدع قط الا كان مروان ممن يشعب ذلك الصدع ، وهو الذي قاتل عن امير المؤمنين عثمان بن عفان يوم الدار ، والذي قاتل علي بن ابي طالب يوم الجمل »(٨٤) .

كانت هذه الخطب وتلك الحجج تقال في مجلس الملأ ولكن يبدو لنا انه بجانب

مجلس الملأ الموسع كانت تعقد جلسات مصغرة تضم انصار البيعة لمروان ، الذين اصبحوا معروفين لدينا والذين يعملون لاثبات الخلافة لبني امية ، وفي الشام ، ولنقلها الى مروان بن الحكم وابعاد خالد بن يزيد أو غيره . فيذكر ابن عبد ربه أن هذه الجماعة « بعد ان قلبوا الرأي في خالد وغيره واذا خالد حدث ، خرجوا من عنده فأتوا مروان بن الحكم فاذا عنده مصباح واذا هم يسمعون صوته بالقران فاستأذنوا فدخلوا عليه فقالوا : يا ابا عبد الملك ارفع رأسك لهذا الامر فقال لهم : استخيروا الله وأسألوه أن يختار لامة محمد صلى الله عليه وسلم خيرها واعدلها » ويكشف لنا صاحب العقد الفريد عن واحدة من الاساليب التي اتبعوها في الوصول الى هدفهم فيقول : « ان القوم جاؤوا مروان بن الحكم فقال روح بن زنباع : « ان معي اربعمائة من جذام فأنا آمرهم ان يتقدموا في المسجد غداً ، ومر انت ابنك عبد العزيز ان يخطب الناس ويدعوهم اليك ، فاذا فعل ذلك تنادوا من جانب المسجد .. صدقت .. صدقت .. فيظن الناس أن امرهم واحد . فلما اجتمع الناس ، قام عبد العزيز بن مروان فحمد الله واثنى عليه ، ثم قال : ما أحد أولى لهذا الامر من مروان كبير قريش وسيدها ، والذي نفسي بيده لقد شابت ذراعاه من الكبر . وقال الجذاميون : صدقت .. صدقت .. فقال خالد : الذي أدرك بعمق ما يجري من حوله « امر دبر بليل(٨٥) » .

وحتى يتم حسم الموقف نهائيا اتخذ قرار بالذهاب الى ابن بحدل للتفاهم معه ، وكان الهدف الاول هو القضاء على التردد في موقف الضحاك بن قيس ثم حمل ابن بحدل على البيعة لمروان ، ولايخفى أن في ذهاب الجماعة بأنفسهم الى ابن بحدل أمر فيه تبجيل للرجل واقرار بمكانته ، فأبن الكثير يذكر « ان حسان بن مالك لما قدم عليه مروان أرض الجابية اعجبه اتيانه اليه(٨٦) » . فقال حسان : مخاطبا مروان — اتيتني بنفسك اذا ابيت أن آتيك ، والله لاجالدن عنك في قبائل اليمن او اسلمها اليك(٨٧) » .

ولتحقيق هذا الفرض تم ما يعرف بمؤتمر « **الجابية** » الذي سبقه تحضيرات كثيرة وتمهيدات واسعة ، وكان من المقرر أن يحضر الضحاك بن قيس هذا المؤتمر ولكن تحت ضغط القيسية يضطر الرجل الى التخلف عن الحضور « فصرف الضحاك الرايات الى مرج راهط واظهر بيعة ابن الزبير(٨٨) » وفي الجابية يتم اختيار مروان بن الحكم على أن لايبايع مروان الا لخالد بن يزيد وله أمرة حمص ولعمرو بن سعيد وله امرة دمشق ، وكانت بيعة مروان بالجابية يوم الاثنين للنصف من ذي القعدة سنة ٦٤ هـ(٨٩) . وتتم البيعة له بعد أخذ ورد شديدين ، وبعد أن استرضى حسان بن مالك الذي خاطب الجماعة قائلا : « رأيي لرأيكم انما كرهت أن تعدل الخلافة الى ابن

الزبير وتخرج من اهل هذا البيت(٩٠) » ، وهكذا صارت البحدلية مروانية . ثم يضع حسان بدوره شروطه لمروان « يشترط حسان بن مالك — وكان رئيس قحطان وسيدها بالشام—على مروان ما كان لهم من شروط على معاوية وابنه يزيد وابنه معاوية بن يزيد منها : أن يفرض لهم لالفي رجل الفين الفين — وان مات قام ابنه وابن عمه مكانه — على أن يكون لهم الامر والنهي ، وصدر المجلس وكل ما كان من حل وعقد ، فعن رأي منهم ومشورة . فرضي مروان ذلك ، فانقاد اليه » ، عندها يقف حسان بالقوم خطيبا ومبايعا لمروان بن الحكم الذي « التفت اليه بنو امية فقالوا : الحمد لله الذي لم يخرجها منا »(٩١) .

وهكذا يقف أكبر مناصر لخالد بن يزيد ولبيت ابي سفيان الى جانب البيعة لمروان . ويقول ابن سعد : « فدعا حسان بن مالك خالدا بن يزيد فقال : « يا ابن اختي هواي فيك وقد اباك الناس للحداثة ومروان أحب اليهم منك ومن ابن الزبير ، قال : بل عجزت ، قال : كلا(٩٢) » .

ثم جاء دور معارض كبير آخر هو مالك بن هبيرة اليشكري الذي بات أمر استمالته لجانب مروان أكثر سهولة بعد موافقة حسان بن بحدل ، فابن هبيرة يواجه مروان صراحة ويقول له : « ... ليست في أعناقنا بيعة ، وليس نقاتل الا عن عرض الدنيا ، فان تكن لنا على ماكان لنا معاوية ويزيد نصرناك ، وان تكن الاخرى فواليه ما قريش عندنا الا سواء . فأجابه مروان الى ما سأل(٩٣) » .

ينفرد صاحب كتاب « العنوان » بقصة طريفة لايمكن أن تحمل محمل الجد مفادها : ان مروان بن الحكم اقترح على المجتمعين القرعة ....بأن قال : اعمدوا الى ثلثة اسهم فأثبتوا فيها أسماء ثلثة رجال منكم وتدفع السهام الى رجل لتحريكها ... فأثبتوا أسماءهم على ثلثة اسهم ودفعت الى الحسن (حسان) ابن مالك ، فأخذها بيده وحركها تحريكا شديدا ثم أخذ منها سهما فألقاه في وسط الجماعة فتؤمل ، فاذا عليه اسم مروان بن الحكم فسلموا اليك الملك(٩٤) » .

بعد أن اجتمعت كلمة القوم على مروان في الجابية صار مروان الى مرج راهط —

وراهط رجل من قضاعة سمي المرج باسمه(٩٥) ـ وكان مع مروان رجال بني كلب والسكاسك وغسان وغيرهم(٩٦)* ٠

وقد التقى هذا الجمع بالضحاك بن قيس الذي جاءه مدد من النعمان بن بشير أمير حمص ومن زفر بن الحارث الكلابي زعيم القيسية في قنسرين ، ومن ناتل بن قيس في فلسطين وتقابل الجيشان ودارت المعركة والقتال بين الطرفين اياما وفي اثناء هذه المعركة جاء الخبر من دمشق أن رجلا من غسان ، كان مختبئا بدمشق ولم يشهد الجابية واسمه يزيد بن ابي النمس ثار وغلب عليها واخرج عامل الضحاك منها واستولى على بيت المال واعلن بيعته لمروان ، وأمد مروان بالاموال والسلاح والرجال ، « فكان أول فتح على بني أمية »(٩٧) ويبدو منطقيا أن ثورة الغساني هذه كانت مدبرة ومخطط لها اذ كان الرجل على علاقة سابقة بجماعة مروان (٩٨)٠

وانتهى القتال بين الضحاك ومن معه من القيسية ومروان ومن معه من كلب واليمنية بنصر مروان وكلب ، وجيء له برأس الضحاك ، فقال وهو مغتم : « الآن حين كبرت سني ودق عظمي ، وصرت الى مثل ظمء الحمار اقبلت بالكتائب اضرب بعضها ببعض(٩٩) » ٠

كانت معركة مرج راهط سببا في رد ملك بني أمية « وقد زال عنهم الى بني أسد بن عبد العزي ـ ابن الزبير ـ ولذلك رأى قوم أن مروان أول من أخذ الخلافة بالسيف» يقول المسعودي : « وهذه الواقعة من الوقائع المشهورة والايام المذكورة واليمانية تفتخر بها على النزارية ، وقد أكثرت شعراؤها الافتخار بذلك .

قال عمرو بن مخلاة الكلبي :

رددنا لمروان الخلافة بعدما ... جرى للزبيريين كل بريد
فالا يكن منا الخليفة نفسه ... فما نالها الا ونحن شهود(١٠٠)

---

* اذا ما دققنا النظر في المصادر والروايات التي بين ايدينا ، وجدنا ان جل القبائل اليمنية في بلاد الشام كانت بجانب مروان والامويين : الجذاميون (ابن عبد ربه ٤ : ٣٩٦) ، ثم قضاعة وجل الناس (ابو تمام نقائض ص ٥) القين وتنوخ (من شعر لمروان جاء في الطبري ٥ : ص ٥٣٧) الاشعريون وعذره واشراف اهل الشام (بلاذرى ٥ : ١٢٨ طبعة المثنى) وكانت تغلب بجانب مروان ايضا وقد افتخر الاخطل بذلك :

وقد كان يوما راهط من ضلالكم ... فناء لاقوام وخطبا من الخطب
(النقائض ، ٩٨)

من هذه الابيات نرى أن بني كلب كان يعزيهم عن اخفاقهم في الوصول الى الحكم ان مروان لم يظفر بالخلافة الا على سواعدهم(١٠١) .

بعدها ينتقل مروان بانصاره الى دمشق ويأخذ البيعة العامة ، ويبدأ حكمه بالعمل للقضاء على ابن الزبير . فهل بعد هذا يصح القول أن مروان وصل الى الخلافة بفضل اخراجه من المدينة ... ؟ دون فضل اختص به ، وانه لم يكن يطمع في الخلافة(١٠٢) . يبدو لنا أن هذا الراي ضعيف ، فان مروان لم ينجح في أن يصبح خليفة للمسلمين فحسب بل نجح في جعل الخلافة في بيته ، فرغم قصر مدة حكمه استطاع الرجل أن ينقل ولاية العهد لولديه من بعده ـ عبد الملك وعبد العزيز ـ وان يبعد خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد عما وعدا به يوم الجابية ، ولم يعارض حتى ابن بحدل نفسه في هذا النكث بالعهد ، بل تبرع حسان قائلا لمروان : «انا اكفيك امرهما» . ثم جمع حسان الناس وقام خطيبا فقال : « يبلغ أمير المؤمنين ويبلغنا ان رجالا يتمنون الاماني ويدعون الاباطيل ويحدثون انفسهم بما لم يجعله الله لهم ، وما اولئك بالراشدين ولا المسودين فقوموا أيها الناس فبايعوا لعبد الملك ابن امير المؤمنين ولعبد العزيز من بعده . فقام الناس فبايعوا مسارعين ، غير مثقلين من عند آخرهم حتى لم يبق منهم أحد(١٠٣) » وقد علق الناس على هذا « هو أعلم بابن اخته وما دعا الى بيعة عبد الملك الا لما يعرف من ابن اخته(١٠٤) » .

مات الخليفة مروان بن الحكم في ١٧ رمضان سنة ٦٥ هـ / ٦٨٥ م بعد أن ضمن ان الخلافة قد انتقلت الى ولده القدير عبد الملك الذي استطاع بدوره أن يقضي على خصومه وان يوحد العرب ويعيد الهدوء والاستقرار الى أمصار الامبراطورية العربية ، هذا الاستقرار الذي ظهرت نتائجه في اصلاحاته الكبرى واهمها تعريب الدواوين وصك النقود بالعربية .. وفيما بعد بموجة من الفتوحات الواسعة والاعمال العمرانية التي شهدتها خلافة ولده الوليد بن عبد الملك بن مروان .



المصادر والمراجع :

(١) ابن سعد ، محمد (ت ٢٣٠ هـ/٨٤٥م) كتاب الطبقات ج ٥ص ٢٤ - ٢٥ ، مكتبة المثنى - بغداد .

(٢) العسكري ، ابو هلال الحسن (ت ٣٩٥ هـ/١٠٠٤ م) الاوائل ج ١ ص ٢٦٩ ، تحقيق محمد المصري ووليد قصاب - دمشق .

ابن قتيبة ، عبيد الله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م) كتاب المعارف ص ١٩٥ تحقيق ثروت عكاشة . دار المعارف بمصر .

(٣) العسكري ، الاوائل ج ١ ص ٢٩٦ .

(٤) ابن كثير ، اسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤ هـ/١٣٧٣ م) البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٥٧ ، مطبعة السعادة - مصر بلا تاريخ .

ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٤٠ هـ / ١٤٠٦ م) العبر ج ٢ ص ١٠٤٦ ، القسم الاول ، المجلد الثاني ، بيروت ، دار الكتاب .

(٥) ابن سعد ، الطبقات ج ٥ ص ٢٥ - ٢٦ .

(٦) خياط ، شباب (ت٢٤٠ هـ / ٨٥٤م) ، كتاب التاريخ ص ١٨٥ ، تحقيق اكرم ضياء العمري - بيروت ١٩٧٧ .

ابن قتيبة ، المعارف ص ٢٢٩ .

(٧) البلاذري ، احمد بن يحيى ، (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م) انســـاب الاشراف ج ٥ص١٢٦ ، مكتبة المثنى - بغداد .

(٨) الزبير بن بكار ، (ت ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٣ م) الاخبار الوفقيات ص ١٧٥-١٨٦ ، تحقيق سامي العاني - بغداد ١٩٧٢ .

(٩) العسكري ، الاوائل ج ١ ص ٣٤٦ .

(١٠) البلاذري ، انساب الاشراف ج ٤ ص ٣٣ ، تحقيق احسان عباس - بيروت ١٩٧٨ .

(١١) الطبري ، (ت ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م) ، تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ص ٢٩٣ - ٢٩٤ ، تحقيق ابو الفضل ابراهيم - دار المعارف بمصر - الطبعة الثانية .

(١٢) الجاحظ ، ابو عثمان عمرو بن بحر ، (ت ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م) البيان والتبيين ج ٢ ص ٨٣ - ٨٤ ، تحقيق عبد السلام هارون - بيروت .

(١٣) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج ١ ص ٣٥٣ .

ابن الابار ، ابو بكر القضاعي ، (ت ٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م) ، الحلية السراء ج ١ ص ٢٧ - ٢٨ ، تحقيق حسين مؤنس القاهرة - ١٩٦٣ .

البلاذري ، انساب ج ٤ ص ٥١٥ تحقيق احسان عباس .

الذهبي ، محمد بن احمد الحافظ ، (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م) العبر في خبر من عبر ، ج ١ ص ٧١ ، ٨٢ ، تحقيق صلاح الدين المنجد ـ الكويت ١٩٦٠ .

مجهول ، (ينسب لابن قتيبة)، الامامة والسياسة ج ٢ ص ١٧ ، القاهرة ـ ١٩٥١ .
ابن سعد ، الطبقات ج ٥ ص ٤٥ .

(١٤) ابن سعد ، الطبقات ج ٥ ص ٣٠ .

ابن عساكر ، علي بن الحسن ، (ت٥٧١ هـ/١١٦٧ م) تاريخ دمشق ، مخطوط في مكتبة الظاهرية بدمشق ، رقم ٥٣١ وعلم وادب ، ٢٥ ورقة ١٧٩ .

(١٥) البلاذري ، انساب ج ٤ ص ٣٢٩ ، تحقيق احسان عباس .

(١٦) ابو تمام ، حبيب ابن اوس ، (ت ٢٣١ هـ / ٨٤٥ م) نقائض جرير والاخطل ص ١٢ ، ١٣ ، دار المشرق ـ بيروت ١٩٢٢ ، تحقيق الاب انطون صالحاني .

(١٧) الزبيري ، ابو عبد الله المصعب ، (ت٢٣٦ هـ / ٨٥١م) ، كتاب نسب قريش ص ١٠٩ ، ١١٠ تحقيق ليفي بروفنسال ـ الطبعة الثانية ، دار المعارف ـ القاهرة .
عدد ٥ـ٦ ص ٢٠ ـ ٢١ ، عمان ١٩٧٩ .

الدوري ، عبد العزيز ، كتاب الانساب وتاريخ الجزيرة ـ مجلة مجمع اللغة العربية الاردني عدد ٥ ـ ٦ ص ٢٠ ـ ٢١ عمان ١٩٧٩ .

(١٨) البلاذري ، انساب الاشراف ج ٤ ص ٦٥ ـ ٦٦ ، تحقيق احسان عباس .
الزبيري ، نسب قريش ص ١١٠ .

(١٩) مجهول ، (مؤلف من القرن الثالث الهجري) ، الامامة والسياسة ج ١ ص ١٩٨ ـ ١٩٩ ، تحقيق سعيد صالح خليل ، اطروحة ماجستير الجامعة الاردنية عمان ١٩٧٨ .

(٢٠) البلاذري ، انساب الاشراف ج ٤ ص ٦١٥ ـ ٦١٦ ، تحقيق احسان عباس .

(٢١) البلاذري ، ن . م ج ٤ ص ٦١٥ ـ ٦١٦ .

(٢٢) التوحيدي ، ابوحيان ، (ت ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م) الامتاع والمؤانسة ج ٢ ص ٧٤ ، اشراف : احمد امين واحمد الزين ، دار الحياة ـ بيروت .

(٢٣) البلاذري ، انساب ج ٥ ص ١٢٥ ، مطبعة المثنى ـ بغداد .

(٢٤) التوحيدي ، الامتاع ج ٢ ص ٧٤ .

(٢٥) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ج ١٧ ورقة ١٧٠ ـ ١٨١ مخطوط .

ـ الزبيري ، نسب قريش ص ١٠٩ ـ ١١٠ .

ـ البلاذري ، انساب ج ٥ ص ١٢٦ ، مطبعة المثنى ـ بغداد .

(٢٦) ابن كثير ، البداية ج ٨ ص ٢٥٨ .

(٢٧) الزبير بن بكار ، الموفقيات ص ١٨٣ .

(٢٨) مجهول ، الامامة والسياسة تحقيق سعيد صالح ج ١ ص ٢٧٧ .

الدوري ، عبد العزيز ، النظم الاسلامية ج ١ ص ٣٨ ، مطبعة النيل ، بغداد ١٩٥٠ .

(٢٩) مجهول ، الامامة والسياسة ج ١ ص ١٨٣ ، طبعة القاهرة ١٩٥٧ .

(٣٠) مجهول ، الامامة والسياسة ج ١ ص ٢٧٧ وما بعدها ، تحقيق سعيد صالح .

(٣١) المقدسي ، مطهر بن طاهر ، البدء والتاريخ ج ٦ ص ٦ ، تحقيق ك. هوار باريز .

(٣٢) البلاذري ، انساب ، ج ٤ ص ٣٠٢ ، تحقيق عباس .

(٣٣) مجهول ، الامامة والسياسة ج ١ ص ٢١٩ — ٢٢٠ ، تحقيق سعيد صالح .

(٣٤) الامامة والسياسة ج ١ ص ٢١٧ — ٢١٨ ، طبعة القاهرة ، سعيد صالح ج ١ ص ٢٢٨ .

(٣٥) عاقل ، نبيه ، خلافة بني امية ، ص ١٣٣ — ١٩٧٢ — دمشق .

— ماجد ، عبد المنعم ، التاريخ السياسي للدولة العربية ، عصر الخلفاء الامويين ، القاهرة سنة ١٩٦٠ ، ص ٩١ — ٩٢ .

— البلاذري ، انساب ج ٤ ص ٣٠٢ ، تحقيق عباس .

— مجهول ، الامامة والسياسة ، ج ١ ص ٢١٥ .

(٣٦) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٤ ص ٣١٦ ، طبعة بيروت ١٩٦٥ .

— البلاذري ، انساب الاشراف ، تح. عباس ٤ : ٣٤٤ ، ٣٥٤ .

— طبري ، تاريخ ، ج ٥ ص ٤٩٩ .

(٣٧) ابن العبري ، هبرايوس المالطي ابو الفرج ، (ت ٦٨١ / ١٢٦٨) ، تاريخ مختصر الدول ص ١٩١ ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت — ١٩٥٨ م .

— البلاذري ، انساب ج ٤ ص ٣٢ ، تحقيق احسان عباس .

— ابن قتيبة ، المعارف ١٨١ ، تحقيق عكاشة .

— ماجد عبد المنعم ، التاريخ السياسي للدولة العربية ص ٩١ — ٩٢ ، عصر الخلفاء الامويين ، القاهرة — ١٩٦٠ .

(٣٨) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٣٢١ ، بيروت — ١٩٥٧ .

(٣٩) الطبري ، تاريخ ج ٥ ص ٥٣٠ — ٥٣١ .

(٤٠) البلاذري ، انساب ج ٤ ص ٣٥٦ ، تحقيق احسان عباس .

— البلاذري ، فتوح البلدان ص ٣٢١ .

(٤١) المسعودي ، علي بن الحسين ، (ت ٣٤٥ هـ / ٩٥٦ م) التنبيه والاشراف ص ٣٠٦ ، مكتبة الخياط — بيروت (عن الطبعة الاوروبية).

(٤٢) ابو تمام ، نقائض ص ٥ — ٦ .

— المقدسي ، البدء والتاريخ ج ٦ ص ١٧ .

(٤٣) الذهبي الحافظ ، العبر في خبر من عبر ، ج ١ ص ١٩ . — ١٩٦٠ .

— البلاذري ، انساب ج ٤ ص ٣٥٩ ، تحقيق احسان عباس .

(٤٤) ابن سعد ، الطبقات ج ٥ ص ٢٧

— الطبري ، تاريخ ج٥ص٥٠٣

(٤٥) أبو تمام ، نقائض ص ٤

(٤٦) أبو تمام ، ن.م ص ٥—٦

(٤٧) البلاذري ، انساب ج ٤ ص ٣٥٦ ، تحقيق احسان عباس

(٤٨) مجهول ، الامامة والسياسة ج ١ ص ٢٢٨—٢٢٩ ، تحقيق سعيد صالح

(٤٩) الذهبي ، العبر في خبر من عبر ج ١ ص ٦٩

(٥٠) أبو تمام ، نقائض ص ٥—٦

(٥١) المسعودي ، التنبيه والاشراف ص ٣٠٧ ، مكتبة الخياط

(٥٢) اليعقوبي ، احمد (ت ٢٨٤ هـ/٨٩٧ م) تاريخ اليعقوبي ، ج ٢ ص ٢٣٤ دار صادر — بيروت ١٩٦٠ .

(٥٣) ابن العبري ، مختصر ص ١١١ ، بيروت ١٩٥٨

(٥٤) فلهاوزن ، يوليوس تاريخ الدولة العربيـة ص ١١٦ ترجمة محمد عبـد الهادي ابو ريده القاهرة ١٩٦٨ (عن مصدر بيزنطي)

(٥٥) ابن كثير ، البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٦ ، يعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ٢٥٣ ، الطبري ، تاريخ ج ٥ ص ٥٠٣ وما بعدها

(٥٦) الطبري ، تاريخ ، ج٥ص٤٦٨،٤٧٨ .

(٥٧) ابن الاثير ، عز الدين علي، (ت ١٢٣٤م) الكامل ج ٤ ص ١٣٠ (بيروت ١٩٦٠)

(٥٨) ابن كثير ، البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٧ — ٢٣٨

(٥٩) البلاذري ، انساب ج ٤ ص ٣٥٦ ، تحقيق عباس

(٦٠) المسعودي ، : مروج الذهب ج٢ ص٥٧ ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ١٩٦٧ .

(٦١) الطبري ، تاريخ ج ٥ ص ٦١٢

(٦٢ المنبجي ، اغابيوس بن قسطنطين ، كتاب العنوان ص ٣٥٥ مطبعة الاباء اليسوعيين ، بيروت ١٩٠٧

(٦٣) القلقشندي ، احمد بن عبد الله (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) صبح الاعشى ج ٣ ص ٢٥٦ ، القاهرة ١٩١٣ — ١٩١٧

(٦٣م) يذكر الحصيني ، وهو من كتاب مطلع القرن العشرين ، ان زوجة معاوية الثاني قتلته . ولكن الحصيني لا يذكر لقوله هذا مصدرا ، مما يحملنا على الشك فيه ، سيما وانه يغالط فيذكر ان مروان بن الحكم قبل البيعة مكرها استرسالا مع ميل بني امية (منتخبات ، ص ٨٩ ، ٩١) .

ـ الحصيني ، محمد أديب ، منتخبات التواريخ لدمشق ، تقديم كمال الصليبي ، ج ١ ـ ٣ ، بيروت ١٩٧٩ .

(٦٤) ابن العبري ، مختصر ص ١١١

(٦٥) ابن كثير ، البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٣٩ ، مطبعة الصادر ـ القاهرة (بلا تاريخ) .

(٦٦) البلاذري ، انساب ج ٤ ص ٣٥٨ تحقيق عباس

(٦٧) عاقل ، نبيه ، خلافة بني امية ص ١٢١ ، دمشق ١٩٧٢ .

(٦٨) البلاذري ، انساب ج ٥ ص ١٢٧ ـ ١٢٨ ، مطبعة المثنى ـ بغداد

(٦٩) ابن عبد ربه ، احمد بن محمد (ت ٣٢٨هـ / ٩٤٠ م) العقد الفريد ج ٣ ص ١٤٤ ـ ١٤٥ مطبعة الازهر ـ الطبعة الثانية القاهرة ١٩٢٨

(٧٠) ابو تمام ، نقائض ص ١٢ـ١٣

(٧١) ابو تمام ، نقائض ص ١ ، ٧ ، البلاذري ، انساب ج ٥ ص ١٢٨ـ١٢٩ ، مكتبة المثنى ـ بغداد

(٧٢) الطبري ، تاريخ ج ٥ ص ٥٣٥ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٤١ ، ابن سعد ، الطبقات ج ٥ ص ٢٨

(٧٣) ابو تمام ، نقائض ص ١٤

(٧٤) الطبري ، تاريخ ج ٥ ص ٥٣٠ ، ٥٣٢

(٧٥) ابو تمام نقائض ص ١٦ ، الطبري ، تاريخ ج ٥ ص ٥٣٦

(٧٦) الطبري ، تاريخ ج ٥ ص ٥٣٢

(٧٧) ابو تمام ، نقائض ص ٦ تحقيق ج. فراتاج ، اشعار الحماسة ، ص ٢١٨ ، بون ١٨٢٨ ، الطبري ، تاريخ ج ٥ ص ٥٣٠ ، ٥٤٠ ، ابن سعد ، طبقات ج ٥ ص ٢٧ ، ابن كثير ، البداية ج ٨ ص ٢٣٩ ـ ٢٤١ ، عاقل ، تاريخ بني امية ، ص١٢٨.

(٧٨) يعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ٢٥٣

(٧٩) ابن الاثير ، الكامل ج ٤ ص ٣٤٤ بيروت ١٩٦٥

(٨٠) الطبري ، تاريخ ج ٥ ص ٥٤٤

(٨١) العسقلاني ، ابن حجر ، (ت ٨٥٢ هـ/١٤٤٨م) تهذيب ج١٠ ص١٢ حيدر اباد ، الدكن١٣٢٧هـ

(٨٢) ابو تمام ، نقائض ص ١٢ ، ١٣ .

(٨٣) ابو تمام ، نقائض ١٣

(٨٤) الطبري ، تاريخ ج ٥ ص ٥٣٦ـ٥٣٧

(٨٥) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ج ٣ ص ١٤٤–١٤٥

مجهول ، الامامة والسياسة ج ١ ص ٢٤٦–٢٤٧ ، سعيد صالح

(٨٦) ابن كثير ، البداية والنهاية ج ٨ ص ٢٥٩

(٨٧) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، ورقة ١٧٦– ١٧٧ (مخطوط) .

(٨٨) ابو تمام ، نقائض ص ١٥ ، الطبري تاريخ ج ٥ ص ٥٣٦–٥٣٧ ، ابن كثير ، البداية ج ٨ ص ٢٤٠ ، مطبعة السعادة .

(٨٩) ابن سعد ، طبقات ج ٥ ص ٢٨ ، ٢٩

– الطبري ، تاريخ ج ٥ ص ٥٣٧

(٩٠) البلاذري ، انساب ج ٥ ص ١٢٨ ، ١٢٩ ، مطبعة المثنى – بغداد

(٩١) المسعودي ، مروج الذهب ج ٢ ص ٦٦–٦٧ القاهرة ١٩٣٨

– البلاذري ، انساب ج ٥ ص ١٢٨–١٢٩ ، مطبعة المثنى – بغداد

(٩٢) ابن سعد ، الطبقات ج ٥ ص ٢٨–٢٩ ، الطبري ، تاريخ ج ٥ ص ٥٣٧

(٩٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٦٦ – ٦٧ .

(٩٤) المنبجي ، العنوان ص ٣٥٤

(٩٥) ابو تمام ، نقائض ص ١٧

– اشعار الحماسة ص ٣١٧ ، تحقيق فرنتاج ، بون ١٨٢٨م

(٩٦) الطبري ، تاريخ ج ٥ ص ٥٣٧

(٩٧) الطبري ، ن.م.ج٥ص ٥٣٢ – ٥٣٧ .

(٩٨) الطبري ، ن.م ج ٥ ص ٥٣٧

(٩٩) الطبري ، ن.م ج ٥ ص ٥٣٨

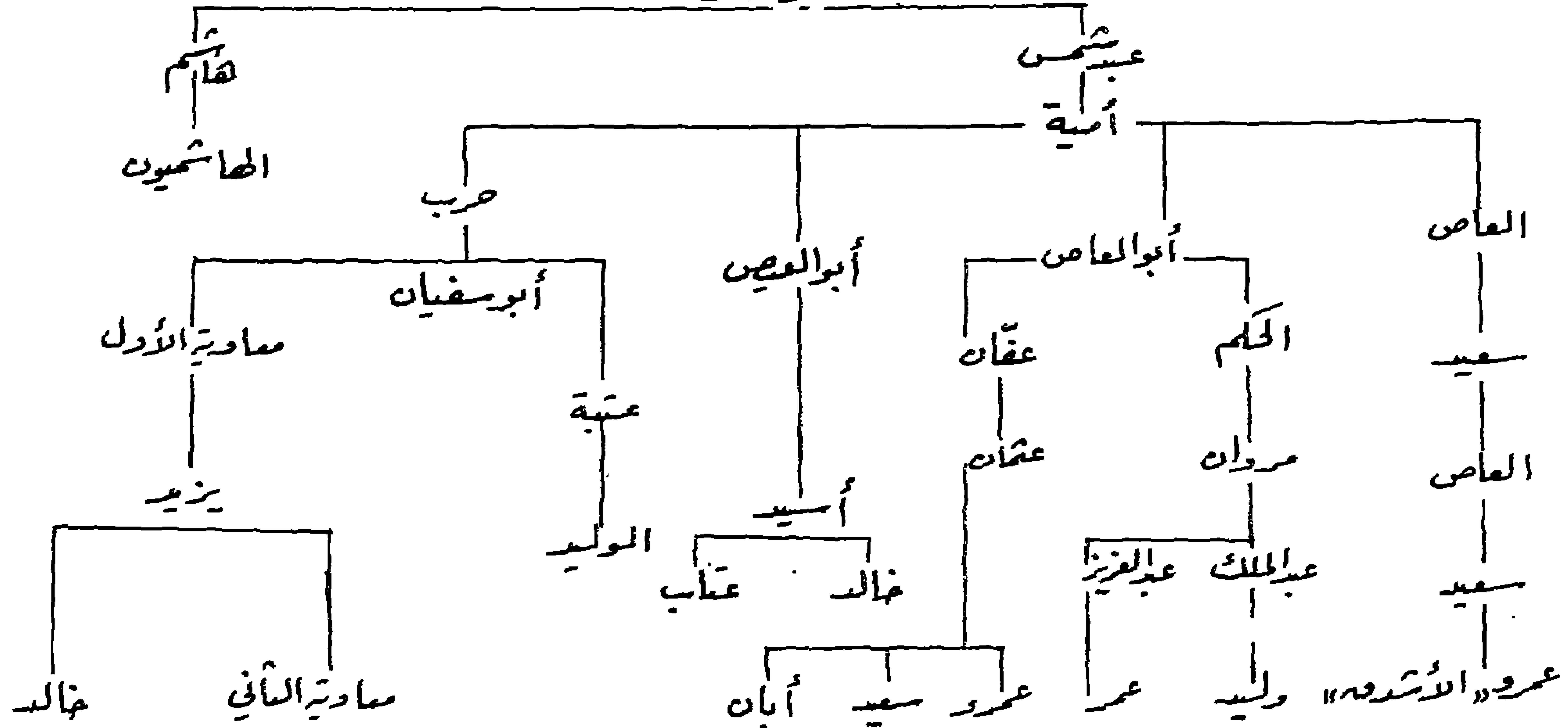
(١٠٠) المسعودي ، التنبيه والاشراف ص٣٠٩ ، البلاذري ، انساب ، ج٥ص١٣٥ مطبعة المثنى – بغداد

(١٠١) النص ، احسان ، العصبية القبلية واثرها في الشعر الاسلامي ص ٢٧٦ ، بيروت ١٩٦٤

(١٠٢) الطبري ، تاريخ ج٥ص ٥٣٠–٥٣٥ ، فلهاوزن ، تاريخ الدولة ص ١٧٨ ، ابو ريده ، مترجم ((تاريخ الدولة)) لفلهاوزن هامش ١٧٨

(١٠٣) البلاذري ، انساب ج ٤ ص ٤٤٢ ، تحقيق احسان عباس

(١٠٤) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، مخطوط ورقة ١٨٧



ملاحظة: هذه شجرة تمثل بني أمية، خاصة الشخصيات التي ورد ذكرها في البحث.

انظر: ١- الزبيري - نسب قريش ص ١١٧

٢- البلاذري - أنساب الأشراف تحقيق: احسان عباس - بيروت ١٩٧٩ - القسم الرابع

٣- كاسكل - جمهرة النسب لهشام بن محمد الكلبي ليدن - ١٩٦٦ - ١٤٠ لوائح ٨ - ١٠

في أصول الكتابة العربية

محمد محفل
كلية الاداب ـ جامعة دمشق

نحاول في دراستنا هذه القاء اضواء جديدة على اصول الكتابة العربية ، لا سيما علاقة القلم العربي القديم بالنبطي المتاخر ، الذي راح يتطور ، اعتبارا من منتصف القرن الثاني (ميلادي) ، مبتعدا بذلك تدريجيا عن أرومته الاولى (الكتابة الآرامية) ليقترب من كتابات القلم المسند وفروعه (لا سيما الثمودي والصفوي) .

ونلفت انتباه القارىء الى اننا لجأنا الى تقسيم دراستنا الى أربعة اقسام :

١ ـ نص البحث
٢ ـ مجموعة جداول نقوش (آ ـ ب ـ ج)
٣ ـ سبعة ملاحق نقوش مع دراسة تحليلية للملاحق الثلاثة الاولى
٤ ـ الحواشي

★ ★ ★

تعتبر الكتابة العربية حصيلة تطور مديد ومستمر ، انطلاقا من الكتابة المسمارية المقطعية الرافدية (حوالي ٣٥٠٠ ق.م) والهيروغليفية الصورية المصرية ، التي ظهرت مع المسمارية في منتصف الألف الرابع (ق.م .) ومرورا بالكتابة المسمارية الابجدية (اجرت=رأس الشمرة (*) حوالي ١٥٠٠ (ق.م) فانتهاء بالابجدية الكنعانية

القي ملخص هذا البحث في المؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، دمشق ١٦ ـ ٢٢ جمادي الآخرة ١٤٠١ هـ / ٢٠ ـ ٢٦ نيسان ١٩٨١ م .

(*) اسم الموقع الاثري يذكر في النصوص « أجرت » وليس أوغاريت ، كما هو شائع .

المتطورة ، التي أطلق عليها الاغريق اسم « الفينيقية » حوالي القرن الحادي عشر (ق٠م٠) (*) ٠

وعندما تمكن الكنعانيون « الفينيقيون » من تجريد الصور الهيروغليفية المصرية والمقاطع المسمارية الرافدية ، وأبدعوا رموزا ، كل منها يمثل « وحدة صوتية =فونم » تكون الانسانية قد قطعت بذلك مرحلة بالغة التعقيد وبلغت شأوا عظيما ، كانت له نتائج ما زال يشار اليها بالبنان ، تلك النتائج التي عادت بالنفع والخير العميم على مختلف بني البشر ، في مختلف أصقاعهم وأمصارهم ٠

نحن لا نرغب في مناقشة مختلف النظريات والآراء المتعلقة بنشوء أول قلم أبجدي وأيهما كان له التأثير الأكبر في هذا النطاق : وادى النيل أم بلاد الرافدين ٠ فهذا ليس مجال بحثنا ، علما بأن بعضهم أعطى للكتابات الكريتية دورا في نشوء الابجدية الكنعانية. لقد اكتفينا بايراد جدول لايضاح «النظرية السينائية» التي تعكس بشكل أو بآخر(**) مكانة الكتابة المصرية الصورية لاسيما في نهاية عصر الملكية الوسطى (٢٠٥٢ — ١٧٧٠ ق٠م٠) عندما استعمل المصريون أربعين صورة من صور كتابتهم كرموز لقيم صوتية أو كوحدات هجائية ٠ **ولكن الكتابة هي سبيل الى المعرفة ، ويبدو ان الطبقة الحاكمة المحافظة في مصر القديمة لم تشجع على الخطوة التالية في جعل هذه الرموز حروف هجاء دون اللجوء الى صور أخرى في كتابة الكلمات** ، فظلت الكتابة المصرية « الهيروغليفية » مزيجا معقدا من صور ورموز وحروف هجاء ، وبذلك ظلت امتيازا لفئة من الكتبة المختارين الذين يدرسون في البلاط الملكي قبل ان ينخرطوا في سلك الجهاز الاداري لمختلف دواوين الدولة ٠

اما الكنعانيون ، فلقد خطوا الخطوة الحاسمة ، انطلاقا من مبدأ « الاكروفونيا » (***) ، فاتخذوا الرموز الصورية وأعطوها قيما صوتية تلائم الأصوات اللغوية في لسانهم ، فاتخذوا مثلا الرمز الذي يشير الى البيت وسموه

(*) من أقدم النقوش المعروفة حتى يومنا هذا نقش ملك جبيل « آحيرام » والرأي السائد اليوم ان تاريخه يرجع الى نهاية القرن الحادي عشر (ق٠م) ٠

(**) انظر الجدول في آخر البحث مع الملاحق (ملحق رقم ٦) ٠

(***) كلمة يونانية مركبة وتعني الصوت اللغوي في أول الكلمة ٠ فصورة«كف»لا تمثل كفا بل الصوت اللغوي الاول في الكلمة وهو حرف « ك » وصورة « راس » مثلا لا تمثل الرأس بل حرف « ر » وهكذا ومن المعلوم انه لكل حرف أبجدي مدلول يشير الى رمز صوري ٠

« بت » ، وأصبحت صورة البيت لا تمثل ولا تلفظ بيت ، بل الصوت اللغوي (فونم) الأول في الكلمة وهو حرف « ب » وصورة العين لا تمثلها بل الوحدة الصوتية « ع » و « اليود » لا تمثل اليد رمزا ولفظا بل الحرف الاول « ياء » وهكذا دواليك . . وتتابعت هكذا حروف الابجدية الكنعانية « الفينيقية » وعددها ٢٢ حرفا جميعها حروف صحيحة بترتيب : أبجد ـ هوز ـ حطي ـ كلمن ـ سعفص ـ قرشت .

وكان كنعانيو (اجرت = رأس الشمرة) قد سبقوا ابناء عشيرتهم الجنوبيين وجردوا المقاطع المسمارية الرافدية بطريقة قريبة من أبجدية جبيل ، ولكن سقوط العاصمة الشمالية للعالم الكنعاني ، في نهاية القرن الثالث عشر ، اوقف عملية التطور هذه .

ونود أن نشير هنا اننا عندما نقول « الاقوام السامية »(*) أو « اللغات السامية» وكذلك عندما نقول « الفينيقيين » **فان هذا لا يعني مطلقا اننا نسلم بهذه التسميات الخاطئة علميا . فكلمة** « فينيقي » لم تذكر في أي نص كنعاني ، كما ان اسفار التوارة التي كتبت في أرض كنعان الجنوبية لم تذكر البتة كلمة « فينيقي » ، والتسمية كما نعلم يونانية ، وظهرت للمرة الأولى في رائعة « الاوديسيا » المنسوبة للشاعر الملحمي هومروس قبل أن يشيع استعمالها لدى الكتاب الكلاسيكيين الاغريق واللاتين .

وعن أبناء عمومتهم الكنعانيين نقل الآراميون أبجديتهم وكتبوا بأحرفها نصوصهم الأولى ، وكتابة ولغة تلك النصوص (من القرن العاشر الى القرن السابع ق.م.) تشبه والى درجة كبيرة محتويات النصوص الكنعانية المعاصرة لها . ولا شك في ان الآراميين الذين نقلوا عن جيرانهم الكنعانيين اللبنانيين قلمهم ، أخذوا يطورون اعتبارا

(*) اسم « السامييين » مصطلح اطلقه للمرة الاولى عام ١٧٨١ العالم النمساوي « شلوتسر » معتمدا على ما جاء في « الاصحاح العاشر الفقرة الاولى) من « سفر التكوين » : « وهؤلاء مواليد بني نوح سام وحام ويافث ومن ولد لهم بعد الطوفان » . وشاعت هذه التسمية مذ ذاك عند المستشرقين وسرت الينا اقتباسا وتقليدا ، علما ان هذه التسمية لا تستند الى اسس علمية ، اضافة الى كونها صادرة عن أصل توراتي . وبعضهم يطلق عليهم اسم « الاقوام العربية » (انظر جواد علي » تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج ٢ ص٢٨٧ ـ ٢٨٨) . وبعض علمائنا العرب يترددون في اطلاق اسم « العرب » على مختلف اقوام الشرق الادنى القديم الذين نطقوا بلغات او بلهجات تمت بصلات الى بعضها البعض . وعلى الباحثين العرب أن يقترحوا ويتفقوا على تسمية تكون أكثر مطابقة للواقع التاريخي واللغوي وعلم الانساب .

من (القرن السادس ق.م.) كتابة خاصة بهم ، قبل أن يتفرع منها منذ (القرن الثالث ق.م.) كتابات آرامية محلية في مناطق شتى من الشرق الادنى القديم .

ان كان آراميو سورية قد استعملوا الأبجدية الكنعانية الجنوبية(*) في البدء، فان آراميي بلاد الرافدين قد استعاروا الكتابة المسمارية قبل أن يسود استعمال كتابة آرامية موحدة في مختلف الدويلات الآرامية .

ومن المنطقي ان تتأثر اللغة الآرامية بلغات مختلف الأقوام المحيطة بالآراميين وكما ان آراميي سورية قد تأثروا باللغة الكنعانية ، فان آراميي بلاد ما بين النهرين قد تأثروا باللغتين الآشورية ــ الاكدية والبابلية ــ الاكدية . وقولنا هذا لا يعني البتة ، كما يزعم بعضهم ، ان اللغة الآرامية لم تتطور في القرنين التاسع والثامن (ق.م.) . وتؤكد مختلف النصوص المكتشفة في سورية الوسطى والشمالية تجانس وتماسك لغتها ، ونقرأ في نص احدى المسلات ان اللغة المستعملة هي سائدة في « جميع آرام » ، أي في مختلف الدويلات الآرامية .(١) .

اشتهر الآراميون بتجارتهم النشيطة داخليا وخارجيا . وكما ان اقرباءهم الكنعانيين قد ذاع صيتهم في مجال التجارة البحرية ونقلوا السلع المستوردةومنتجاتهم الى مختلف أرجاء البحر الأبيض المتوسط ، فان الآراميين اشتهروا بتجارتهم البرية وأصبحوا المتحكمين بالقوافل التجارية بين الشاطىء الكنعاني وبلاد الرافدين والأناضول وفارس . وكما انتقلت لغة الكنعانيين وكتابتهم مع تجارتهم غربا ، فكذلك انتشرت لغة الآراميين وكتابتهم شرقا مع القوافل التجارية الآرامية في أصقاع عديدة من الشرق الأدنى القديم وساهمت في تكوين بعض كتابات فارس والهند وآسية الوسطى . وأما تأثير الآراميين السياسي الذي لم يستمر سوى أربعة قرون تقريبا في بلاد الشام وفي شمال بلاد الرافدين (من القرن العاشر وحتى القرن السادس قم) فانه يبدو ضئيلا اذا ما قيس بتاريخ مختلف الأقوام والدول التي عاصرتهم أو سبقتهم، **ولكن دورهم الثقافي ، لاسيما في نطاقي اللغة والكتابة كان كبيرا وأساسيا في تاريخ الشرق الأدنى القديم ، في العصرين الفارسي الأخميني والهلنستي** ، ففي العصر الفارسي الأخميني أصبحت الآرامية لغة دبلوماسية دولية وكانت لغة الادارة والحكم بجانب الفارسية في مختلف أرجاء الامبراطورية الفارسية الأخمينية وتلك هي « الآرامية الامبراطورية » Reichsaramaisch

(*) حول القلم الكنعاني الجنوبي المتطور « الفينيقي » انظر (مجموعة الجداول (أ) رقم ٢ و (ب) رقم ٢) .

عندما انهارت الامبراطورية الفارسية الاخمينية تحت ضربات الاسكندر المقدوني (٣٣٣ ـ ٣٣١ ق.م.) فقدت الآرامية السند الذي جعل منها لغة رسمية متجانسة، ذات لهجة واحدة في مختلف ولايات الامبراطورية وبدأت تفقد نقاوتها نسبيا، وتراجعت قليلا أمام اللغة اليونانية، لا سيما في نطاقي الحكم والادارة، **وبذلك أخذت تظهر عدة لهجات وكتابات آرامية محلية مشتقة من الآرامية الأم**. ويمكننا اعتبارا من (القرن الاول ق.م.) تصنيف مختلف اللهجات والكتابات الآرامية في سورية وبلاد الرافدين كالآتي، وذلك بتوزيعها على مجموعتين اساسيتين: الشرقية والغربية:

(آ) المجموعة الشرقية وتشتمل على: السريانية (٢)، لهجة تلمود بابل، المنداعية، لهجة مدينة حران.

١ ـ السريانية(*): وهي اللهجة الآرامية لمدينة أورهي(**) الواقعة بين ماردين وعنتاب. ووقوع هذه الحاضرة بين فارس والامبراطورية البيزنطية وسورية واتصالها بطريق الهند، طريق الحرير والتوابل، كل ذلك أعطاها أهمية كبرى. وعندما نقول ان السريانية هي لهجة أورهي الآرامية، فليس ذلك الا من باب المجاز، حيث كانت لهجتها أهم اللهجات الآرامية الشرقية واكثرها انتشارا. والسريان أسم أطلقه اليونان على آراميي المنطقة الشمالية لسورية ولبلاد الرافدين، لا سيما بعد اعتناق أولئك المسيحية كدين لهم ونبذوا الوثنية وأخذت هذه التسمية فيما بعد تدل على جميع الآراميين المسيحيين القاطنين شمالي بلاد الرافدين وفي بلاد الشام، لا سيما المناطق الشمالية والوسطى منها، وكانت تحكم المدينة اعتبارا من النصف الثاني للقرن الثاني (ق.م.) اسرة عربية يحمل معظم ملوكها اسم «أبجر». وازداد دور «أورهي» الديني واللغوي بانتشار المسيحية وانتشرت معها السريانية شرقا وغربا.

حدث في القرن الخامس الخلاف الشهير بين اليعاقبة والنساطرة بشأن شخص السيد المسيح: ونادى اليعاقبة الذين كانوا يخضعون للبيزنطيين بطبيعة المسيح الواحدة، اما النساطرة الذين بثوا مذهبهم

(*) حول الكتابة السريانية اليعقوبية انظر مجموعة الجداول (ب) رقم ١١.

(**) وهي الرها عند العرب واديسا عند اليونان واورفا اليوم، وتقع جنوبي تركية شرقي نهر الفرات.

في العراق وفارس والهند ، الخ .. فقد اعتنقوا مبدأ الطبيعتين : الالهية والبشريـــة .

وما حدث من انقسام بين السريان الى يعاقبة ونساطرة واستقرار كل جماعة منهم في أصقاع معينة قد ترك آثاره في اللهجتين وفي الكتابتين ويبدو ذلك جليا في المفردات وفي نطق بعض الحروف وكذلك في ضبط مفردات الجمل الخ ..

وستلعب الكتابة السريانية دورا ملحوظا في تطور القلم العربي ، لا سيما في وضع الحركـات .

٢ ــ **لهجة تلمود(*) بابل :** وهي لهجة آرامية شرقية دوّن بها أحبار اليهود بالخط المربع تلمودهم البابلي اعتبارا من القرن الرابع (ميلادي) وحتى القرن السادس .

٣ ــ **اللهجة المنداعية :** وهي لهجة جماعات من أتباع ماني ، كانوا قليلي العدد وسكنوا في جنوب بلاد الرافدين ، تتراءى في كتاباتهم الدينية تعاليم زرادشتية وبوذية ومسيحية . والمنداعيون (أي أهل المعرفة) هم الصابئة الذين صادفهم المسلمون بعد فتح العراق .

٤ ــ **اللهجة الحرانية :** نسبة الى حران شمالي بلاد الرافدين . سكنها منذ عهد الاسكندر المقدوني جماعة من الاغريق حيث انتشر فيما بينهم مذهب ديني متأثر بالعقائد البابلية واليونانية . اطلق المسيحيون على المدينة اسم Hellenpolis (مدينة الهلين) حيث رفض اهلها اعتناق المسيحية وظلوا على أمرهم حتى ظهور الاسلام وتسامح معهم الخليفة المأمون واصبحت حران في العهد العباسي مركز اشعاع علمي وفلســـفي .

ب ــ **المجموعة الغربية :** وتضم : اليهودية ــ الآرامية ، الفلسطينية ــ المسيحية ، النبطية والتدمرية .

(*) تعني كلمة ((تلمود)) تعليم وهو عبارة عن مجموعة الشرائع اليهودية التي نقلها احبار اليهود شرحا وتفسيرا للتوراة واستنباطا من أصولها . وترك لنا أخبار اليهود تلمودين :، البابلي ، والاورشليمي . ومن اجل تفاصيل اوفى ، انظر كتابنا : المدخل الى اللغة الارامية ص ٢٢ ــ ٢٤ .

١ ـ **اليهودية ـ الآرامية** : ويطلق بعضهم على تلك اللهجة اسم « العبرية ـ الآرامية » ، لان لتلك اللهجة صلة وثيقة بالدين اليهودي بعد السبي . ويقول بعضهم « التلمودية » لان ما خلفته هي كتابات « تلمود اورشليم »(*) وهي بالخط المربع (**) .

٢ ـ **الارامية المسيحية ـ الفلسطينية** : وهي لهجة مسيحيي فلسطين وفي مكتبة الفاتكان في روما يوجد مختصر لانجيل مكتوب بتلك اللهجة .

٣ ـ **النبطية** : وهي لهجة الانباط وكانوا في الاصل من القبائل العربية التي تقيم في « تيماء » و « مدائن صالح » شمالي غربي الجزيرة العربية . وظهر اسمهم للمرة الاولى في قائمة آشورية من القرن السابع (ق.م) .

كانت المنطقة التي انتشروا فيها من أهم مناطق الشرق الادنى القديم ، تلك المناطق التي كانت تتحكم بالطرق التجارية التي كانت تسلكها القوافل وهي تنقل منتجات الهند وشرقي إفريقية واليمن عبر البحر الاحمر والحجاز فسورية من جهة والخليج العربي والعراق فبادية الشام من جهة اخرى .

وبتعاظم سطوة الانباط مدوا نفوذهم شمالا واحتلوا المنطقة التي كان يسكنها الآدوميون ، بجبل سعير . ومن اشهر المواقع الآدومية مدينة « سلاع = البتراء » وتعني الصخرة في الآرامية واليونانية ولقد شاع لدى الانباط كما هو معلوم ، طراز جديد لفن الريازة اشتمل على مستودعات ومعابد وقبور وغيرها من الاوابد والصروح منقورة في الصخر ، مازالت رسومها جلية واضحة في « مدائن صالح » و «البتراء» .

كان الانباط على صلات وثيقة مع بعض مناطق الجزيرة العربية ، بل كانوا أصلا من العرب الصرحاء ، رغم تأثرهم بالآرامية ، لغة وكتابة .

ازدهرت مملكة الانباط بمركزيها البتراء وبصرى من القرن الثالث

(*) عندما يذكر التلمود بدون اية اشارة فيقصدون بذلك التلمود البابلي ، فهو اكثر تكاملا من التلمود الاورشليمي .

(**) بالنسبة للخط المربع انظر مجموعة الجداول (أ) رقم ٤ و (ب) رقم ٣ وفي نفس المجموعة القلم النبطي رقم ٥ والتدمري رقم ٤ .

(ق . م) وحتى مطلع القرن الثاني (ميلادي) قبل أن يحتل الرومان مناطقهم الشامية في عهد الامبراطور « تريانوس » .

لم يندثر الانباط كشعب بعد سقوط البتراء ، بل ان فريقا منهم واصل سيرته الاولى بشكل او بآخر في أرجاء « مدائن صالح وتيماء » وأقام علاقات جديدة مع مراكز التجارة في الحجاز واليمن وكذلك مع تدمر ومصر .

أما بالنسبة لموضوعنا ، فلقد تطور القلم النبطي من القرن الثالث (ميلادي) وحتى نهاية القرن الخامس ولعب دورا ملحوظا في ميلاد الكتابة العربية ، لا سيما الخط النسخي ، ولنا عودة الى تلك النقطة .

٤ ــ **التدمرية** : وتمثلها نقوش مدينة تدمر وكذلك بعض النقوش في مختلف انحاء بلاد الشام وفارس وبلاد الرافدين وفي مواقع اخرى تواجد فيها التجار والجنود التدمريون . وتاريخ أقدم نقش تدمري يعود لعام (٨ ق.م)(*) أما تاريخ اخر نقش تدمري معروف فهو ٢٧٢ (ميلادي)، أي بعد سقوط تدمر نهائيا بيد قوات الامبراطور «اورليانوس» حيث اعتبرت الكتابة التدمرية مظهرا من مظاهر استقلال حاضرة الصحراء ، فمنعوا كتابتها .

ولقد تأثرت مختلف مظاهر الحياة التدمرية بعدة تيارات كما يبدو جليا واضحا من حضارتها المركبة . أما النفوذ العربي فيبدو واضحا في المجال اللغوي نتيجة لوجود عدد كبير من العرب في تدمر وفي عدادهم حكام المدينة ، اضافة للقبائل العربية المتواجدة في مختلف اطراف بادية الشام .

وقبل ان ننهي شرحنا عن مختلف اللهجات والكتابات الآرامية ، نود أن نلقي نظرة خاطفة على بعض اللهجات الآرامية الحديثة .

فما زال قسم من السكان القاطنين بين بحيرة (وان) الواقعة جنوب شرقي تركية وبحيرة (اورميا) في اذربيجان الايرانية ينطقون بلهجات آرامية ويعتنق سواد سكان تلك المناطق المذهب النسطوري . ويحتفظ كذلك السريان اليعاقبة الذين يقيمون في (طور عابدين) ، بين

(*) يوجد نقش تدمري اقدم من ذلك ويعود تاريخه الى (٣٣ ق.م) وعثر عليه في تل الصالحية (دورا اوربوس) .

نصيبين وديار بكر بلهجة آرامية . وكذلك لغة الكلدانيين المقيمين شمالي الموصل ، فهي ضرب من الآرامية .

لتلك اللهجات الثلاث صلة بالسريانية القديمة . ويطلق عليها البعض اسم « الآرامية الشرقية الحديثة » . وفي الواقع ، بعدت هذه اللهجات عن اللغة الآرامية القديمة ، اذ دخلتها مفردات عربية وفارسية وأرمنية وتركية وكردية .

أما في سورية ، فما زالت لهجة آرامية هي اللغة المحكية لسكان ثلاث قرى موزعة شمالي دمشق في منطقة القلمون وهي معلولا وبخعا وجب عدين . ولدى سماع نطق سكان تلك المناطق ، نلاحظ أن المفردات العربية قد دخلتها بغزارة ، ولكن الملاحظ أيضا أن تركيب الجملة والنطق هما أقرب الى الآرامية من العربية .

الكتابة العربية بين الاقلام الآرامية والخط المسند(٣)

من المعلوم انه قد ازدهرت ، منذ نهاية الالف الثاني (ق.م) حضارة عربية قديمة في جنوب الجزيرة العربية ، ولقد طور اقوامها كتابات قريبة من بعضها البعض ، ويطلق على قلم تلك الكتابات اسم « الخط المسند » **وهو أقدم الخطوط المعروفة في شبه الجزيرة العربية . ويسميه البعض بالخط « الحميري »** ، حيث ان الحميريين هم اخر من كتب به علما أنه قد سبقهم في ابداعه وتطويره أقوام عربية أخرى من سبئيين ومعينيين وقتبانيين .

ونقرأ كتابات « المسند = الحميري » من اليمين الى اليسار كما هو مألوف في الكنعانية والآرامية والعربية ، كما أننا نقرأه من اليسار الى اليمين على طريقة الكتابات اليونانية واللاتينية والكتابات المتفرعة عن هذه وتلك .

ومنذ نهاية القرن الماضي وحتى يومنا هذا يتزايد عدد النقوش المكتشفة في أواسط شبه الجزيرة العربية وشمالها وفي شرقي الاردن وحوران ، مكتشفات أزاحت النقاب عن ثلاث مجموعات متشابهة من النقوش المنقورة في الصخر ، كتاباتها شديدة الصلة بقلم النقوش العربية اليمنية القديمة . **ولكن مما يلفت الانتباه قرابة لهجات تلك النقوش بما عهدناه في عربية معلقات الشعر الجاهلي والقرآن الكريم** ويمكن تصنيف مجموع النقوش(٤) هذه كالتالي :

أ ـ **النقوش الثمودية** : وقد تم اكتشافها في أماكن مختلفة من وسط شبه الجزيرة وشمالها . ووزعت هذه النقوش على عدة طوائف تتراوح في تاريخها بين القرن الرابع (ق.م) والقرن الخامس (ميلادي) .

ب ـ **النقوش اللحيانية** : وعثر عليها غالبا في منطقة العلا شمالي الحجاز . وتقسم هذه النقوش بدورها الى مجموعتين : القديمة منها والمتأخرة . ويتراوح تاريخ هذه وتلك بين القرنين الخامس والثالث (ق.م) .

جـ ـ **النقوش الصفوية** : نسبة الى تلول الصفا البركانية الواقعة شرقي اللجاة في منطقة حوران . ويمتد تاريخها من القرن الاول (ق.م) الى منتصف القرن الرابع (ميلادي) .

وكما نلاحظ ، تشمل النقوش الثمودية واللحيانية والصفوية فترة من الزمن تقارب تسعة قرون ، ولغة تلك النقوش شديدة القرابة الى العربية الصريحة ، التي انتشرت مع الاسلام ، رغم وجود بعض وجوه خلاف من أهمها أداة التعريف . فهذه الطوائف الثلاث (ثمودية ، لحيانية ، صفوية) تستعمل « الهاء » أداة للتعريف(*) في حين ان العربية الفصحى لجأت الى « أل » ، بينما نجد الـ « ن »في اخر الكلمة للتعريف في الكتابات الجنوبية (معينية ، سبئية ، قتبانية ، حميرية) .

ان السؤال الذي لم يخطر على بال الكثيرين ونود طرحه هو التالي : هل ساهم القلم المسند ومشتقاته في ميلاد قلمنا العربي الصريح(**) ؟ . لاسيما ان المشابهة قائمة في عديد من حروف المسند ومشتقاته من جهة والحروف الكوفية والنسخية من جهة أخرى فيما اذا اجري تعديل او تسوية في وضع الصور المتقاربة فيما بينها . وللايضاح نورد مجموعتين من الجداول المقارنة : (أ) و (ب) .

وقبل ان نجري مقارنة بين نقوش بعض الجداول في المجموعتين ، نود ان نلخص أهم الاراء حول أصول الكتابة العربة الشمالية .

(*) نجد هاء التعريف في الكنعاني وفي العبرية القديمة وهي احدى اللهجات الكنعانية اصلا : نقرا في (سفر اشعيا) الاصحاح (التاسع عشر ، الفقرة ١٧) : « في ذلك اليوم تكون خمس مدن في ارض مصر تتكلم بلغة وتحلف لرب الجنود يقال لاحداها مدينة الشمس » .

(**) حول القلم المسند ومشتقاته انظر (مجموعة الجداول (أ) رقم ٣،٥) ٦،٧،٠ (انظر مجموعات الجداول في اخر البحث قبل اللاحق) .

لا نود ان نسهب الكلام في روايات الاخباريين والكتاب العرب القدماء حول أصول الكتابة العربية الشمالية ، نظرا لان مختلف الآراء حـول هـذا الموضوع لا تشفي غليلنا وذلك لاضطرابها وتناقضها من جهة وللطابع الاسطوري الذي يغلب عليهـا من جهة اخرى .

نلاحظ أولا أن سوادهم الاعظم يرى ان القلم العربي نشأ في الحيرة ويطلق عليه اسم ((الجزم)) . جاء في ((**القاموس المحيط**)) للفيروز آبادي ، في مادة جزم : « والجزم في الخط تسوية الحروف والقلم لا حرف له وهذا الخط المؤلف مـن حروف المعجم لانه جزم أي قطع عن خط حمير ... » ويذكـر **ابن خلكان(٥)** : « ... انتقل الخط الحميري الى الحيرة في عهد المناذرة » . ويضيف ابن خلدون(٦) في روايته عن اصل الكتابة العربية الشمالية بأن « ... أهل الحجاز انما لقنوها من الحيرة ولقنها الحيرة من التبابعة وحمير من اليمن ... » .

وجاء في ((**مصور الخط العربي**)) حول أصول الخط العربي وتسميته بالجزم : « ... لان الخط الكوفي كان أولا يسمى « الجزم » قبل وجود الكوفة لانه جزم أي اقتطع وولد من المسند الحميري ومرامر هو الذي اقتطعه ولعله وضع صوره »(٧) .

وجاء في نفس الصفحة : « والخط الكوفي قديم الوضـع ، وضعـه سيدنا اسماعيـل ... » .

« ومما يدعم هذه الاقوال في الجزم ، مطابقة عدد حروفه الكاملة لما جـاء في الحديث النبوي المروى عن ابي ذر الغفاري قول النبي : يا اباذر ، والذي بعثني بالحق نبيا : ما انزل الله تعالى على آدم الا تسعة وعشرين حرفا » .

أما الحرف التاسع والعشرون فنلاحظه في مجموعة الجداول رقم ب (١ ، ٦ ، ٧ ، ٨) وهو « لا » .

ونلاحظ ان روايات الاخباريين العرب تتضافر على أن الكتابة كانت شائعة بين عرب الحيرة قبيل الاسلام وان بعض الحجازيين عرفوا تلك الكتابة وتعلموها قبل ان يعلموها في ديارهم فيما بعد .

ولكن كما نعلم ، ليس بحوزتنا حتى يومنا هـذا من وثائق لغوية تاريخية ، عربيتها قريبة من عربية المعلقات والقرآن الكريم ، وقلمها يختلف عما وجدناه في المسند ومشتقاته ، سوى بعض الكتابات التي تعد على أصابع اليد تلك الوثائق التي

عثر عليها في المنطقةالنبطية أو في تلك التي تمت بصلة الى الانباط أصلا ، وهي بلاد الشام .

واقدم هذه الوثائق هو نقش ((**ام الجمال**))(*) الاولى وقد وجد منقورا بلغة نبطية وبقلم نبطي على شاهد قبر فهر بن شلي (سلي) مربي جذيمة ملك تنوخ(**) . ويرجع تاريخه الى حوالي (٢٥٠ م) وهو تاريخ بدء استعمال القلم النبطي عند ملوك العرب (٨) . (انظر مجموعة الجداول ب رقم ٥) . ويرى جواد علي أن لهذه الكتابة على قصرها أهمية كبرى وذلك لاشارتها للصلة التاريخية بين الاسر الحاكمة لعرب العراق وعرب الشام(٩) .

والوثيقة الثانية هي كتابة **النمارة**(***) وهي عبارة عن نقش على قبر الملك امرىء القيس(****) ويرجع تاريخه الى سنة ٢٢٣ من سقوط البتراء(سلاع)المصادفة لسنة ٣٢٩ (ميلادي)(*****) .والنقش يتألف من خمسة سطور نقشت على بناء مربع والنص مكتوب بالقلم النبطي وبلغة آرامية ولكن بتراكيب عربية . وتكمن اهميته بانه أقدم نص مكتوب بلهجة قوم لسانهم قريب من لغة أهل الحجاز . وقد اختلف

(*) قرية جنوبي بصرى على حدود جبل العرب ، فيها انقاض بيزنطية ونبطية وعربية .

(**) – هو جذيمة بن مالك احد اوائل ملوك الحيرة التنوخيين والملقب بالابرش وبالوضاح وينسبه الاخباريون العرب الى العاربة الاولى (راجع الطبري ج ٢ ، ص ٦١٣) .

(***) – موقع في حوران في حرّى الصفا على اكمة في الوادي الممتد بين جبل العرب وسهل الرحبة عند التقائه بوادي السلط ، حيث اكتشففي مطلع القرن ، العالم الفرنسي (دوسو) نقش ((امرىء القيس بين عمرو ملك العرب كلهم ...)) مكتوب بالقلم النبطي المتاخر المتطور الى الخط العربي المبكر . (راجع مجموعة الجداول ب رقم ٥،٦،٨) .

انظر صورة مطابقة للاصل لنقش ((ام الجمال الاولى)) في الملحق (١) ولكتابة النمارة في الملحق (٢) ، وذلك في اخر البحث ، مع دراسة تحليلية .

(****) هو امرؤ القيس البدء او الاول منملوك المناذرة على الحيرة . وجاء في الطبري انه كان من عمال الفرس)) على فرج العرب من ربيعة ومضر وسائر ببادية العراق والحجاز والجزيرة يومئذ (انظر الطبري ج ٢ ، ص ٥٣ وما بعدها) .

(*****) سقطت منطقة الانباط بيد الرومان سنة١٠٦(ميلادي)وباضافة هذا التاريخ الىعام الوفاة الواردة في النص وهو ٢٢٣ ، نحصل بالميلادي على عام وفاة امرىء القيس وهو ٣٢٩ (ميلادي) و (١٠٦ م) هو بدء تقويم بصرى النبطي .

« ولفنسون » و « دوسو » و ((لدزبارسكي)) في ترجمة هذا النص . ويمكن قراءة النص ، آخذين بعين الاعتبار أوجه الخلاف في الترجمة ، كما يلي :

آ ــ « هذا قبر امرىء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي فاز بالتاج » .

ب ــ « وقهر الاسديين ونزارا وملوكهم ، وهزم مذحجا بقوته (*) وقاد » .

جـ ــ « الظفر الى اسوار نجران مدينة شمر واخضع معدا واستعمل » .

د ــ « بنيه على القبائل وانا بهم عنه لدى الفرس والروم ، (**) فلم يبلغ ملك مبلغه » .

هـ ــ « في القوة مات سنة ٢٢٣ يوم ٧ من كسلول(***) وفق بنوه للسعادة » .

والنص الثالث هو نقش « زبد » وهي خربة تقع جنوب شرقي حلب ، بين قنسرين ونهر الفرات ويرجع تاريخه الى ٥١٢ (ميلادي) . والنص عبارة عن كتابات بثلاث لفات : يونانية ، سريانية وعربية قديمة ، سليلة النبطيــة المتأخرة . (انظر مجموعة الجداول (ب) رقم ٨٠٧٦٥) ونقشت تلك الكتابات على حجر مثبت في بناية كنيسة . ولكن هذه الكتابات لا تحتوي سوى على اسمــاء بعض المحسنين الذيــن أسهموا في بناء الكنيسة . وبعض تلك الاسماء عربية صريحة ، مثل : « مر القس = امرىء القيس ، سعدو = سعد . . . الخ . » .

واما النص الرابع فهو الشهير بـ«كتابة حران(****)ويرجع تاريخه الى سنة ٥٦٨ (ميلادي) ووجد منقوشا على حجر فوق باب مزار . ويرى بعضهم انه يعود لاحد أمراء كندة أمر بوضعه بمناسبة تدشين مزار أقيم للقديس يوحنا المعمدان . وتمتاز هذه الوثيقة بكونها مكتوبة بلغة عربية قريبة جدا من عربية الحجاز ، لا سيما لهجة قريش والخط يقترب كثيرا من النسخي القديم . واعتبارا من هذا النص نلاحظ بدايات استقلال الكتابة العربية عن القلم النبطي . (انظر مجموعة الجداول «ب» رقم ٨٠٧) .

(*) بعضهم يترجم عوضا عن « بقوته » « الى اليوم » .

(**) ترجم بعضهم « كلهم فرسانا للروم » عوضا عن « لدى الفرس والروم » .

(***) كسلول وهو شهر « كانون الاول » في التقويم الارامي المتاخر ، لا سيما لدى الانباط واهل تدمر .

(****) حران في اللجاه شمالي جبل العرب .

ولدينا اخيرا نقش « ام الجمال الثانية » وهي الوثيقة الثانية التي عثر عليها في ذاك الموضع. لايحمل تاريخا والرأي السائد انه يعود لنهاية القرن السادس (ميلادي)، حيث ان اللغة تقترب أكثر فأكثر من العربية القرآنية ، مبتعدة في ذلك عن النبطية ، لغـة وكتابـة .

من دراستنا لهذه الوثائق الخمس ، نلاحظ انها وجدت في منطقة الانباط او في تلك التي تأثرت بثقافتهم بشكل او بآخر . وهذا ما دعا الكثيرين الى القول ان الخط النبطي هو أصل الكتابة العربية الشمالية بينما يرى البعض الآخر انه كان للكتابة السريانية دور ملحوظ في تطور القلم العربي الشمالي .

وهكذا ما زال النقاش محصورا اليوم حـول اثر كل من الكتابتين : النبطية والسريانية على نشوء وتطور القلم العربي الشمالـي بشكليه : النسخـي والكوفي (الحيري) . ومن المعلوم ان الكتابتين النبطية والسريانية صدرتا اصلا عـن القلم الارامي ، كما اوضحناعلاه . وكنا قد لخصنا رأينا حول هذه « المشكلة » كما يلي : « لا شك انه كان للقلم النبطي الاثر الاكبر في ميلاد الحروف العربية الشمالية ، ولقد تم ذلك خاصة في المنطقة النبطية ، أي تلك المنطقة التي خضعت فيما بعد في قسمها الاعظم للغساسنة . ولقد بدأ الانتقال تدريجيا من القلم النبطي الى الكتابة العربية الشمالية اعتبارا من القرن الثالث (ميلادي) . اما القلم السرياني فلقد جاء أثره متأخرا ، أياعتبارامن القرن الخامس (ميلادي) وسيظهر هذا الاثر خاصة في كيفية استعمال علامات الوقف (النقطة،الشدة،الهمزة،الخ. . .) وفي الحركات ايضا(١٠) ».

بالنسبة لما جاء أعلاه ، نعتقد بحسب رأينا ، ان ما قلناه منذ عدة سنوات ما زال صحيحا باجمال . **امـا ملاحظاتنا الجديدة فتتعلق بالخط المسند وبالاقلام المتفرعة منه . أي اننا نعتقد ، نتيجة لدراسات مقارنة اكثر اتساعا ، متخطية الراي السائد الى وجهة نظر جديدة ، نعتقد انه ينبغي لنا ان نعيد النظر بما جاء في دراستنا السابقة ،** حيث قلنا : « على كـل حال ، لا الكتابات اليمنية القديمة ولا الكتابات الشمالية (من لحيانية وثمودية وصفوية) قد لعبت دورا جوهريا في ميلاد قلمنا العربي هذا ، بل ان تطور الكتابات الارامية ، هو الذي افسح المجال لنشوء الخط النسخي والخط الكوفي ، نقول بعض الكتابات الارامية ، لان بعضهم يرى ان القلم السرياني قد كان لهنصيبفي ميلاد قلمنا العربي هذا (١١) » .

- وقبل ان نبين وجهة نظرنا الجديدة ، نود اجراء دراسة مقارنة لاقلام ونقوش جداول المجموعات الثلاث (انظر الجداول في اخر البحث) :

١ ــ مختلف أقلام جداول المجموعتين (آوجـ) تتبع ترتيب : أبجد ــ هوز ــ حطي ــ كلمن ــ سعفص ــ قرشت . وهو ترتيب الابجدية الكنعانية المتطورة ،المعروفة بأبجديــة « جبيــل » .

٢ ــ لدينا ستة حروف في الارامي القديم وفي بعض الكتابات المتأخرة المشتقة منه تلفظ قاسية تارة ولينة تارة اخرى بمقتضى قواعد ملزمة وهي:(ب ــ ج ــ د ــ ك ــ ف ــ ت) ، فعندما تكون قاسية نلفظها كالاتي : « ب ــ ج «المصرية» دــكــب (آ p اللاتينية) ــ ت » واما لينة فتلفظ كما يلي : ف V الفرنسية والانكليزية ــ غـذـحـفـث » . وبذلك يكون عـدد حروف الابجدية الآرامية وبعض الاقلام المتفرعة منها «٢٢« حرفا وستة حروف روادف .

٣ ــ ذكرنا للمقارنة ترتيب مختلف جداول المجموعة «ب» كما عهدناه فيالابجدية العربية المتطورة ، بينما ترتيبها الاصلي هو ما جاء معنا سابقا وكمــا هو مذكور في جداول المجموعتين (آ و جـ) .

٤ ــ من اللاحظ عدم وجود حرفي الضاد (ض) والظاء (ظ) في الابجدية الكنعانية المتطورة وفي الابجدية الآرامية ، وكذلك في مختلف الكتابات المشتقة منها ، بينما نجد هذين الحرفين في كتابات الخط المسند وفي اغلب الاقلام المتولدة منــه (لحيانية ، ثمودية ، صفوية) .

وقالوا ان العربية هي لغة الضاد .

اما بالنسبة لحرف الظاء (ظ) ، فلقد جاء في **لسان العرب** لابن منظور في باب (الظاء = ظ) « ... ان الخليل قــال : الظاء حرف عربي خص بــه لسانالعرب لايشاركهم فيه أحد من سائر الامم ... ولا يوجد في كلام النبط ، فاذا وقعت فيــه قلبوها طاء . » .

وقولنا هذا لايعني مطلقا أن مختلف أقوام بلاد الشام والرافدين وغيرهم في عالمنا العربي القديم ليسوا عربا أولا يمتون بصلة الى العرب ، بل مرادنا هو طرح سؤال

لم يخطر على بال الكثيرين وعنينا به : **هل كان للقلم المسند وفروعه دور في ميلاد قلمنا العربي الشمالي الذي بسط أسبابه مع العرب المسلمين .**

٥ ـ نلاحظ التقارب التدريجي ثم تشابه اغلب حروف جداول المجموعة « ب » ذات الارقام (٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨) التي تبين تتابعا الاقلام التالية : « النبطي ـ النمارة ـ زبد وحران ، عربي قديم » وسيلعب هذا الاخير دورا ملحوظا في تطور الخط النسخي اللين .

٦ ـ نشاهد تقارب بعض حروف الخط العربي القديم وبعض حروف الاقلام السريانية الثلاثة : الاسطر الانجيلي وهو اقدمها ثم السرياني الشرقي « نسطوري »(*) فالسرياني الغربي « يعقوبي » . (انظر جداول المجموعتين « ب » و (جـ » لاسيما في الحروف التالية :

((ا)) ـ مقارنة العربي القديم مع الجدول (١١) من المجموعة « ب » والجداول (٥ ، ٦ ، ٧) من المجموعة « جـ » .

((ج)) ـ مقارنة العربي القديم مع الجدول (٩) من المجموعة « ب » والجداول (٤ ، ٥) من المجموعة « جـ » .

((د)) ـ مقارنة العربي القديم مع الجداول (٤ ، ٥) من المجموعة « جـ » .

((ص)) ـ مقارنة العربي القديم مع الجداول (٩ ، ١١) من المجموعة « ب » .

((ع)) ـ مقارنة العربي القديم مع الجداول (٩ ، ١١) من المجموعة « ب » .

((ف)) ـ مقارنة العربي القديم مع الجداول (٤ ، ٥ ، ٦) من المجموعة « جـ » .

((ق)) ـ مقارنة العربي القديم مع الجداول (٤ ، ٥ ، ٦) من المجموعة « جـ » .

((ل)) ـ مقارنة العربي القديم مع الجداول (٩، ١١) من المجموعة «ب» والجداول (٤ ، ٥ ، ٦) من المجموعة « جـ » .

((م)) ـ مقارنة العربي القديم مع الجدول (١١) من المجموعة « ب » .

(*) بعضهم يطلق على هذا الخط اسم « الكلداني » وكما نلاحظ من جداول المجموعة « جـ » فانه اقرب الى الاسطرنجيلي من الخط الغربي « يعقوبي » المعروف بالسرطو .

((ن)) ــ مقارنة العربي القديم مع الجدول (١١) من المجموعة « ب » .

((و)) ــ مقارنة العربي القديم مع الجدول (٤) من المجموعة « جـ » .

((ي)) ــ مقارنة العربي القديم مع الجدول (١١) من المجموعة « ب » .

عندما نقول « عربي قديم » فنعني بذلك الجدول (٨) من المجموعة « ب »وجدول (٢) من المجموعة « جـ » . ما الذي يمكننا استنتاجه من المقارنة السابقة ؟! نقول انه مــع وجود تشابه جزئي لبعض حروف العربي القديم والاقلام السريانية الثلاثــة (أسطرنجيلي ، شرقي ، غربي) ، فان هذا التشابه يبدو ضئيلا محدودا لدى المقارنةمع ماشاهدناه من تقارب تدريجي ثم تشابه اغلب حروف جداول نقوش : النبطي ــــ النمارة ــــ زبد وحران ــــ عربي قديم ، كما جاء معنا في الملاحظة السابقة (رقم ٥). **وبتعبير آخر ، لم تلعب الكتابة السريانية بمختلف خطوطها دورا ذا شان في نشــوء وتطور القلم العربي ، لاسيما النسخي منه ، بل كان للكتابات النبطية النصيب الاوفى في هذا النطاق** . وقد انتبه الى هذا الامر عديد من الباحثين الغربيين والعرب ، وذلك منذ عشرات السنين(١٢) .

٧ ــ يقول المرحوم (اغناطيوس يعقوب الثالث) « بطريــرك انطاكية وسائر المشرق » :

« ... بل اثر النحو السرياني في النحو العربي بالذات : ذلك أن ابا الاسود الدؤلي المتوفي سنة ٦٩ هـ استعان في وضع نحوه ببعض علماء اللغة السريانية في الكوفة ، ثم اقتبس النقاط التي تتميز بها الكلمات ، فالحركات التي كان قد استنبطها مار يعقوب الرهاوي الانف الذكر قبيل ذلك الزمان . هذا فضلا عن الخط العربي الكوفي الذي اقتبسه العرب في القرن الاول قبل الاسلام من الخط السرياني الاسطرنجيلي ، فاستعمل بعدئذ لكتابة القرآن الكريم شأن الاسطرنجيلي عند السريان بالنسبة الى الانجيل الشريف ... »(١٣)

لاندري هل نوافق كليا على ما جاء في السطور القليلة السابقة ؟! ... اي هل نذهب مذهب المدافعين عن نظرية : آرامي ← اسطرنجيلي ← حيري ← كوفي .

وبذلك نهمل دور الخط المسند والكتابات المتفرعة منه في تطور قلمنا العربي

بشكليه : الكوفي والنسخي • اننا لن نقطع بالامر قطعا قبل عرض وجهة نظرنا نتيجة للدراسة مقارنة لمختلف جداول النقوش (انظر المجموعات والملاحق في آخر البحث) • ويجب أن لايغيب عن ذهننا أمر آخر ، الا وهو التسلسل الزمني لمختلف النقوش والكتابات ، **ومن المنطقي أن يقتدي التابع بالسابق وليس بالعكس • ولذلك عندما نجد تشابها او تقاربا بين نقشين او حرفين ، علينا أن نطلب الاصل** • وتلكم بعض الملاحظات على مختلف الجداول والنقوش :

١ ـ في (الصفحة « أ » من الملحق (١)) يذكرنا حرف الـ « هاء » **بالارامي اليدوي والثمودي والصفوي** ، ولا علاقة لهذا الحرف بتة بالخط الاسطرنجيلي والكتابات المتفرعة عنه « السريانية » •

وكما هو معروف : **ورث السطرنجيلي والسرياني الكتابات السابقة** •

٢ ـ في (الصفحة « ب » من الملحق (١)) حرف الـ « ش » **يقترب من الآرامي اليدوي والثمودي والصفوي** ، ولا علاقة لهذا الحرف بتة بالخط الآسطرنجيلي اي هذا الشكل صدر عن الارامي (يدوي وتدمري) أو عن الثمودي . ومن الجائز أن يكون الطرفان قد لعبا دورا في ذلك •

٣ ـ في (الصفحة « ب/ج » من الملحق(١)) حرف الـ « و » في السرياني (شرقي وغربي) شبيه بما هو عليه **في المسند واللحياني والثمودي والصفوي** •

٤ ـ في (الصفحة «ج» من اللحق (١)) نجد حرف الـ «ب» مماثلا لنظيره **في الارامي اليدوي وفي الثمودي والصفوي وهو مخالف لما هو عليه في الاسطرنجيلي والسرياني بفرعيه** •

٥ ـ في (الصفحة « ج » من اللحق (١)) : حرف الـ « ر » **ناتج من المسند وفروعه** وشبهه محدود مع الاسطرنجيلي ولا علاقة لشكله بالسرياني بفرعيه (شرقي ، غربي) •

٦ ـ في (الصفحة « د » من الملحق (١)) حرف الـ « ل » **ياخذ عن الصفوي وعن هذا الشكل المتطور ياخذ السرياني الغربي** •

٧ ــ في (الصفحة « و » من الملحق(١)) : حرف الـ « خ » مأخوذ عن الصفوي مع تعديل طفيف.

٨ ــ في (الصفحة « ب » من الملحق(٢)) حرف الـ « ق » **يقترب من المسند واللحياني والثمودي والصفوي** وكذلك من الكنعاني المتطور ولا نرى هذا في القلم الارامي وفروعه أي أن **صانع النقش نقل عن المسند وفروعه** .

٩ ــ في (الصفحة « د » من الملحق(٢)) **نجد تشابها بين شكل حرف الـ « ك » ونظيريه : الآرامي المربع والصفوي** . وفيما بعد في الاسطرنجيلي والسرياني الشرقي والحيري الكوفي .

١٠ ــ في (الصفحة « هـ/و » من الملحق(٢)) نجد دراسة وافية لشكلي الـ « د » والـ « ذ » **ونجد أثر الثمودي والصفوي في نشوء الشكل** .

١١ ــ في (الصفحة « و » من الملحق(٢)) نجد شكلا لحرف الـ « لام » **لانفرقه مطلقا عما هو عليه في النقوش الثمودية والصفوية** . بينما لا أثر لهذا الشكل في الاسطرنجيلي والسرياني بفرعيه . **وجاءت الكتابات الثمودية والصفوية قبل نقش « النمارة »** .

ماهي النتائج المنطقية التي يمكن استخلاصها من مختلف الملاحظات التي اوردناها، نتيجة للدراسة المقارنة :

أولا ــ لاحظنا تقارب بعض حروف القلمين « التدمري المتأخر » و « النبطي القديم » .

وهذه الحروف هي : ت ــ ح ــ د ــ ر ــ ز ــ ش ــ ص ــ غ ــ ف ــ ك ــ ل ــ م .

والامر منطقي ، اذ تنتسب اشكال هذه الحروف الى أرومة واحدة الا وهي الكتابة الارامية الاولى . (انظر مجموعة ب ، جداول ٣ ، ٤ ، ٥) . وعندما نقول

« تدمري متأخر » ، فنعني بذلك تلك النقوش التي تعود بتاريخها الى مطلع (القـرن الثاني ميلادي وحتى سقوط تدمر عام ٢٧٢ ميلادي) حيث يتوقف أهل تدمر عـن الكتابة بقلمهم ، كما المحنا سابقا .

اما بالنسبة للقلم النبطي ، فلقد رأينا أن دولتهم سقطت بيد الرومان عـام (١٠٦ ميلادي) ، وبسقوط البتراء ، تراجع الانباط الى مراكزهم الاصلية وهـي مناطق تبوك ، وتيماء ومدائن صالح . **وبذلك ضعفت علاقاتهم مع بلاد الشام حيث اللغة والكتابة الارامية ، وأخذوا يخضعون التأثيرات جديدة من جيرانهم العرب في شمال الحجاز ، ونخص بذلك الثموديين** . ومن هنا دور الكتابة الثمودية في تطـور القلم النبطي ، **الذي اخذ يبتعد تدريجيا عن أرومته الاولى « الآرامية » ويقترب اكثر فاكثر من القلم المسند وفروعه (الحياني ، ثمودي ، صفوي)** مما يقودنا الـى النتيجة الثانية .

ثانيا ـ من المعلوم ان الانباط قد اشتهروا بنشاطهم التجاري . وقلنا سابقا أن الانباط لم يندثروا كشعب بعد سقوط البتراء عام (١٠٦ ميلادي) بيد الامبراطورية الرومانية ، بل ان فريقا منهم واصل سيرته الاولى وأقام علاقات تجارية جديـدة مع مختلف مراكز التجارة في الجزيرة العربية ، **ومنها اليمن ، وكذلك مع تدمـر ومصـر** .

ومن الممكن أن يكون الرومان قد ضيقوا على الانباط في الفترة الاولى ، بعد الاستيلاء على مناطقهم الشامية ، ثم أخذت الحياة مجراها الطبيعي من جديـد ، فسمحوا لهم باقامة علاقات تجارية مع المناطق الجنوبية لبلاد الشام ، حيث الكتابات الصفوية ، **ومن هنا كان التأثير المتبادل بيـن القلميـن : « النبطي المتاخر » و « الصفوي »** .

وبضعف علاقاتهم القديمة مـع بلاد الشام ، بعد سقوط دولتهم عام (١٠٦ ميلادي) ، **راح الانباط يخضعون لمختلف مظاهر الحياة والثقافة القائمة في الجزيرة العربية ، ومنها الخط المسند ، في نهاية الدور الحميري الاول وخلال الدور الحميري الثاني** . (٢٥٠ ـ ٤٠٠ ميلادي) ، أي خلال « دولة التبابعة » ، وفي تلك الحقبة نلاحظ ابتعاد القلم النبطي تدريجيا عن أصله الارامي واقترابه من القلم الحميري « المسند » بفروعه وخطوطه المختلفة . ونقول جازمين انه كان للانباط قسط وافر في نشر القلم المسند ، بمختلف كتاباته في مختلف اطراف الجزيرة العربية ، لا سيما

الشمالية الغربية منها والشرقية . ففي الاطراف الشرقية ، كانت الحيرة والانبار من جهة العراق وفي البقاع الغربية وجدت الوثائق التي تعطينا فكرة عن تطور الخط النبطي ، وابتعاده تدريجيا عن الارومة الارامية ليقترب من مختلف خطوط المسند . بل اكثر من ذلك ، يمكننا القول أن الخط المسند وفروعه ، لاسيما الثمودي والصفوي ، **ان مختلف تلك الكتابات قد لعبت دورا ملحوظا في تطور الاسطرنجيلي والسرياني بفرعيه . وهذا يقودنا الى النتيجة الثالثة .**

ثالثا — نقول أن كتابات الخط المسند وفروعه (صفوي وثمودي) قد لعبت دورا معينا في تطور الاسطرنجيلي والسرياني بفرعيه . قد يتساءل البعض مدعيا أن هذا مغاير لكل ماهو متعارف عليه حتى يومنا هذا . **وجوابنا على ذلك ان الخط المسند بفروعه المختلفة ، قد وجد قبل القلم السرياني الشرقي والغربي بقرون عديدة .** وكما رأينا ، لعبت خطوط المسند والصفوي والثمودي دورا ملحوظا في تطور القلم النبطي ، ولذلك كان تأثير المسند بمختلف خطوطه على القلم السرياني **مباشرة أو بواسطة القلم النبطي** ، ولنذكر بعض الامثلة :

١ — تأثير المسند ... وفروعه على الاسطرنجيلي :

حرف ال ((ب)) الاسطرنجيلي نجده في الثمودي والصفوي .
حرف ال ((أ)) نجد أصله مع تعديل طفيف في الثمودي والصفوي .
حرف ال ((و)) نجد أصله مع تعديل طفيف في المسند وفروعه المختلفة .
حرف ال ((ي)) نجد أصله مع تعديل طفيف في المسند وفروعه المختلفة .
حرف ال ((ك)) نجد أصله مع تعديل طفيف في الصفوي .

٢ — مسند وفروعه ← على السرياني الشرقي :

حرف ال ((ب)) نجد قريبا من شكله في الصفوي .
حرف ال ((و)) نجد قريبا من شكله في المسند وفروعه .
حرف ال ((ك)) نجد قريبا من شكله في الصفوي .
حرف ال ((م)) نجد قريبا من شكله في الثمودي والصفوي .

٣ — مسند وفروعه ← على السرياني الغربي :

حرف ال ((ب)) تأثير مباشر وعن طريق القلم النبطي .

حرف الـ ((و)) مسند ← **نبطي** ← نمارة ← سرياني غربي .
حرف الـ ((ح)) نجد الشكل مقلوبا في الثمودي والصفوي .
حرف الـ ((ل)) نجد الشكل مع تسوية بسيطة في الثمودي .

وعندما نقارن « الحيري ــ الكوفي » بالاسطرنجيلي والعربي القديم المتطور عن النبطي المتأخر والنمارة و « زبد وحران » **نجد أن الكوفي أقرب الى العربي القديم من الاسطرنجيلي** . (انظر مثلا ملحق رقم ٧) .

قلنا ان الانباط لعبوا دورا في نشر القلم المسند في مختلف أطراف الجزيرة العربية ، لاسيما الاطراف الشمالية : الغربية منها والشرقية وكذلك في المناطق العراقية والشامية المتاخمة للجزيرة العربية . ولكن هناك عاملا ثانيا كان له دور في هذا المضمار ، ونعني بذلك نسب أغلبية القبائل التي حلت بالمناطق الشمالية الغربية والشرقية من الجزيرة والمتاخمة للعراق وبلاد الشام ، وذلك اعتبارا من القرن الثاني (ميلادي) **وعنينا بذلك الغساسنة والمناذرة وبني كندة ... الخ . فجميع هؤلاء يعودون باصولهم الى اليمن ، حيث موطن القلم المسند الاول ، الذي اخذ يتطور اعتبارا من القرن السابع (ق.م)** . ولقد اقترن مجيء هؤلاء بتراجع الانباط الى موطنهم الاول . فكان التأثير المتبادل بين الطرفين . **ولا نعتقد أن كبار** القوم من مناذرة وغساسنة ومن بني كندة ، كانوا على جهل تام بالقلم المسند ، **قلم موطنهم الاصلي** ، ومن هنا يمكننا أن نفهم سر استعمال خطوط الوثائق التي هي مجال دراستنا . **فالنقوش المستعملة ليست بالآرامية الصرفة ، بل هي قلم نبطي متطور ، ابتعد بتطوره عن أرومته الاولى واقترب من قلم الملوك والامراء وكبار القوم ، أي أخذ يهجر القلم الارامي لصالح المسند وفروعه ، وعن هذا التطور المعقد سينمو قلمنا العربي ، تدريجيا ، اعتبارا من القرن الثالث (ميلادي) وحتى فجر الفترة العربية الاسلامية** ، في فترة كانت الكتابة الرسمية للدولة الحاكمة في سورية (بيزنطية) القلم اليوناني ، مع أن الكتابة السريانية كانت كتابة السكان المحليين ، ولكن تطورها كان بطيئا حتى القرن السادس (ميلادي) ، اذ أن البيزنطيين نظروا اليها نظرة حذر وريبة ، لما كان من خلاف بينهم وبين السكان المحليين وفي مقدمتهم الكنيسة السورية . وهذا هو السبب الذي جعل عدد الكتابات السريانية في بلاد الشام يعد على الاصابع ، في فترة كانت السريانية الشرقية تنمو وتزدهر في المنطقة الشرقية ، حيث تسامح مع أهلها الساسانيون ، الذين كانوا يزاحمون البيزنطيين في السيطرة على سورية .

جداول رقم ٩

الترتيب العربي الكامل للحروف بحسب تسلسل (أبجد - هوز - حطي - كلمن - سعفص - قرشت) وما يقابله في بعض الخطوط القديمة

عربي	كنعاني مطور	مسند سبئي حميري	آرامي مربع	لحياني	ثمودي	صفوي
أ						
ب						
ج						
د						
ذ						
هـ						
و						
ز						
ح						
خ						
ط						
ظ	لا يوجد		لا يوجد			
ي						
ك						
ل						
م						
ن						
س						
ع						
غ						
ف						
ص						
ض	لا يوجد		لا يوجد			
ق						
ر						
ش						
ت						
ث						
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧

جداول رقم ب

١ الحروف	٢ فينيقي	٣ آرامي مربع (أ)	٣ آرامي تدمري (ب)	٤ تدمري متأخر	٥ نبطي قديم (أ)	٥ نبطي متأخر (ب)	٦ نقش النمارة	٧ نقش زبد وحران	٨ عربي قديم	٩ الطرطوسي	١٠ الحيري الكوفي	١١ سرياني غربي: منفردة (أ)	١١ اتصال نحو اليمين (ب)	١١ اتصال نحو اليسار (ج)	١١ نحو الوسط (د)
ا														—	—
ب															
ت														—	—
ث	—		—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
ج															
ح															
خ	—		—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—	—
د														—	—
ذ	—		—	—	—	—		—	—	—	—	—	—	—	—
ر														—	—
ز														—	—
س															
ش															
ص														—	—
ض	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد		لا يوجد		لا يوجد			
ط															
ظ	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد	لا يوجد		لا يوجد		لا يوجد			
ع															
غ	—		—	—	—	—	—	—		—		—	—	—	—
ف															
ق															
ك															
ل															
م															
ن															
هـ														—	—
و														—	—
ي															
لا	—	—	—	—	—	—				—	—	—	—	—	—

جداول رقم ج

عربي	عربي قديم	تدمري متأخر	اسطرنجيلي	سرياني شرقي	سرياني غربي	حميري كوفي
أ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ب	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ج	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
د	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
هـ	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
و	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ز	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ح	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ط	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ي	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ك	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ل	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
م	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ن	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
س	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ع	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ف	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ص	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ق	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ر	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ش	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
ت	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]	[illegible]
١	٢	٣	٤	٥ نسطوري	٦ يعقوبي	٧

شكل ١ - نقش «أم الجمال الأولى» بكتابة نبطية (انظر الجدول رقم ٥ من المجموعة ب) ومفردات آرامية وعربية. وهذا نصه مع الترجمة العربية:

« دنه	نفشو	فهرو
هذا	قبر	فهر
①	②	③

« بر	شلي	ربو	جذيمة
بن	سلى	مربي	جذيمة
④ (أ)	④ (ب)	⑤	⑥

« ملك	تنوخ »
ملك	تنوخ
⑦	⑧

دراسة تحليلية للنقش: «٦» (د) «ل» (ن) «T» (هـ) = حرف (٦) نبطي متأخر (مجموعة ب، جدول ٥) - حرف (ل) نبطي متأخر - حرف (T) هو أقرب الى الآرامي البدوي (ﮩ) (مجموعة ب جدول ٣) ويذكرنا مع تعديل بسيط بالثمودي والصفوي (مجموعة أ جداول ٦ - ٧) وهو كالتالي (٢ ٢) وكذلك بالمسند (٢ ٢).
①

«ل» (ن) «و» (ف) «ﮩ» (ش) «9» (و) = حرف (ل) نبطي قديم (مجموعة ب، جدول ٥) - و (ف) حرف نبطي قديم (مجموعة
②

ب، جدول ٥)، وستظهر مسحة من شكل هذا الحرف في القلم السرياني بمختلف خطوطه (مجموعة جـ، جداول ٤، ٥، ٦) وكذلك في الخط الحيري «الكوفي» (مجموعة جـ، جدول ٧) - حرف (ب) نبطي قديم (مجموعة ب، جدول ٥)، وأقرب نقش الى شكل هذا الحرف نجده في القلم الثمودي (مجموعة أ، جدول ٦) وهو كالتالي (٢)-(٩) حرف (د)، نبطي متأخر (مجموعة ب، جدول ٥) وقد يكون متأثراً بسابقه، الآرامي المربع (٦) (*) وسوى شكل الحرف النبطي المتأخر (**) في مختلف كتابات «النمارة، زبد وحران، عربي قديم نسخي، اسطرنجيلي وحيري كوفي». ومما يلفت الانتباه الى شكل حرف «الواو» في الكتابات السريانية الشرقية

(*) حينما أهمل الآراميون القلم الكنعاني المتطور «فينيقي»، كما قال الغربيون (مجموعة ب، جدول ٣) طوروا كتابة خاصة بهم كان الخط اليدوي (السريع) الذي ساد حتى نهاية القرن الثالث (ق.م.)، حيث أخذت كتابات ولهجات آرامية مختلفة، استثنينا البعض أعلاه، تظهر لتتطور وسط الخط المربع (مجموعة ب، جدول ٣ «أ - ب»).

(**) النقوش النبطية القديمة ترجع الى القرن الأول (ق.م.) والمتأخرة الى القرن الثالث (م)، ثم تطور هذا الخط ليعطي العربي القديم ومنه النسخي

منظر الغربية «٥٥» انه قريب من شكل لهذا الحرف في كتابة القلم المسند وفروعه، مع اجراء تسوية طفيفة «٥٥» (مجموعة م. جداول ٣، ٥، ٦، ٧). ومن المستحيل أن تكون كتابات المسند وفروعه قد اقتبست الشكل من الكتابات السريانية، لأن الأولى سبقت الثانية بعدة قرون.

«ف» (ف) = «٩»، «٦» (ه)، «٦» (ر) = «٦»، «٩» (و)

(٣) ف (ف) انظر أعلاه - (ل) اما أن نعتبرها (ألف) وعندئذ نقرأ الاسم «فالهرو» عوضاً عن «فرهرو»، أو نعتبرها خط فاصل بين حرفين، وهذا أمر مألوف في الكتابات القديمة وعندئذ يكون الاسم «فرهرو». «٦» (ه) نبطي قديم والحرف مائل قليلاً (مجموعة ب، جدول ٥) وهذا الشكل هو أقرب ما يكون الى الآرامي المربع (مجموعة ب، جدول ٣) «٦» (ر) نبطي قديم متصل بحرف الراء قبله «٩» (و) نبطي متأخر مع تسوية بسيطة بسبب النقر في الصخر.

«ل» (ب) «٢» (ر) = وتعني كلمة (بَرْ) في

(٤) (أ) الآرامية القديمة وفي اللهجات المتفرعة منها من نبطية ومندائية وتدمرية وسريانية وكذلك في السبئية

الجنوبية ، تعني هذه الكلمة «ابن»، «ل» (ب) نبطي متأخر (مجموعة ب ، جدول ٥)، وسيترائى شكل هذا الحرف في كتابات «النمارة ، زبد وحرّان ، عربي قديم ، حيري (كوفي)، نسخي» (مجموعة ب ، جداول ٦ ، ٧ ، ٨ ، ١٠). ونجد شكلاً قريباً لهذا الحرف في النقوش الصفوية (مجموعة ٩ ، جدول ٧)، بينما له أشكاله في القلم السرياني بمختلف خطوطه «ـلا» (ر) نبطي متأخر (مجموعة ب ، جدول ٥ ، ٦ ، ٧).

(٤) (ب) «ي» (ي) «ـ∩» (ل) «ل» ، «مش» (مش) ، «ـلا» = «ـلا» (مش) نبطي قديم (مجموعة ب ، جدول ٥)، وأقرب شكل لهذا الحرف ما نجده في كتابات «الآرامي اليدوي والتدمري المتأخر» (مجموعة ب ، جداول ٣ ، ٤) ـ «ل» (ل) نبطي متأخر (مجموعة ب ، جدول ٥)، ونجد صوراً قريبة من هذا الشكل في كتابات «النمارة ، زبد وحرّان ، عربي قديم ، حيري كوفي ، عربي نسخي ، مختلف الكتابات السريانية» (مجموعة ب ، جداول ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، ١١) وكذلك في النقوش الثمودية والصفوية (مجموعة ٩ ، جداول ٦ ، ٧) ـ «∩» (ي) نقش النمارة (مجموعة ب ، جدول ٦) وكذلك في كتابات «زبد وحرّان (جدول ٧)

ملاحق (١) « ك »

«٦» (ر) ، «ل» (ب) «٩» (و) = «٦» (ر) نبطي قديم

(جدول ٥ من المجموعة ب) – «ل» (ب) و «٩» (و) انظر أعلاه.

ونقول في العربية « رتّب رتباً القوم : رتبهم مراتب ».

«لا» (ج) «٦» (ت = ذ) ، «ك» (ي) ، «ک» (م) «ک» (ك) –

«ا» (ج) نبطي متأخر (مجموعة ب ، جدول ٥) – «٦» (ت = ذ) ، عندما أشرنا الى حرف « ذ » في جدول الآرامي المربع جئنا بحرف « ت = ٦ » خالية من النقطة (الشدة الخفيفة) «٦ = ذ» وقلنا ان حرف « ذ » هو من الحروف الستة الروادف –

«ک» (ي) نبطي قديم (مجموعة ب ، جدول ٥) – «ک» (م) نقش النمارة (مجموعة ب ، جدول ٦) وسنجد شكل هذا الحرف في الاسطرنجيلي (ܟ) وفي السرياني الشرقي (ܟ ܟ) مع بعض التعديل – «ك» (ه عوضاً عن ة) نبطي قديم (مجموعة ب ، جدول ٥) ، ونجد (ـه) عوضاً عن (ـة) مربوطة في عديد من الاسماء الآرامية القديمة.

«ک» (م) «ـك» (ل) ، «S» (ك) = حرف « ک »

(م) انظر آنفاً – حرف « ـك » انظر سابقاً – «S» (ك)

نبطي متأخر (مجموعة ب، جدول ٥)، ونجد شبيهاً لهذا الشكل في كتابات «النمارة، عربي قديم، اسطرنجيلي، سرياني شرقي، حبري كوفي» بينما هذا الشكل لا يتطابق مع كتابات السرياني الغربي. ويكلس ذلك يقترب، مع تعديل طفيف، من نقوش الخط الصفوي (مجموعة م، جدول ٧).

«ط» (ت) «ك» (ن) ٩ (و)، «ح» (ح نبطية أم خ صفوية)

«ط» (ت) نبطي قديم مع اهمال جزء من شكل الحرف (مجموعة ب، جدول ٥). فعوضاً أن يكون «ط» أصبح «ك» - حرفا «ك» (ن) و«٩» (و)؛ انظر أعلاه - «ح» (ح) هل نقرأ هذا الحرف (حاء) وتكون النتيجة «تنوح» عوضاً عن «تنوخ» أي هل نقرأه «حاء» آرامية - نبطية؟! ونتساءل عن سبب عدم لجوء كاتب النص أو بالأحرى صانعه الى حرف «الكاف» المهملة، أي بدون نقطة (شدة خفيفة) ونلفظها حينئذٍ «خاء» أم أن شكل هذا الحرف «ح» ليس سوى أحد أشكال «الخاء» الصفوية «خ» مع تسوية طفيفة (مجموعة م، جدول ٥).

نحن لا نتردد فصانع النقش أراد أن يقول (تنوخ) وبذلك لجأ الى الـ«خ» الصفوية؛ نقول ذلك لأن بعضهم تردد بين «تنوخ» و(تنوح» (انظر مثلاً: جواد علي، ج ٧، ص ٢٧٢).

ملحق (٢) «أ»

(*)

① ② ③ ④ ⑤ ⑥ ⑦ ⑧ ⑨ ⑩ ⑪ ⑫

دنا نفش مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو اسر التاج

شكل ٢ - السطر الأول من نقش «النمارة» (انظر اشارتنا أعلاه الى الوثائق الخمس).

دراسة تحليلية للنقش: نلاحظ اتصال الحروف في الكلمة أكثر مما رأيناه في نقش «أم الجمال الأولى»، في الملحق (١) «أ». واليكم تحليل النقش. ولم نأخذ من الوثيقة سوى السطر الأول. وسنفتش دراسة عن السطور الأربعة الباقية، في دراسة لاحقة.

الحروف الثلاثة (أ) «م» (ن) «ب» (د) «ح» نجدها في جدول كتابات «النمارة»، (مجموعة ب، جدول ٦)(١). ولجأنا أعلاه الى تجزئة كلمة (م = دنا = هنا) الى حروفها (د ن أ). ولاحظنا في النقش السابق «أم الجمال الأولى» ان اسم الاشارة اقترن بحرف «الراء» عوضاً عن الألف كما هو عليه في نقشنا هذا: دنا.

(*) ترجمة النقش: (دنا = هذا) (نفش = نفس، بمعنى قبر) (مر = امرئ) القيس (بر = ابن، بن) عمرو ملك العرب (كله = كلهم) (ذو = الذي) (اسر = نال، قبض على) التاج.

الحقيقة يجوز الشكلان. وجاء في باب اسم الاشارة في دراستنا «المدخل الى اللغة الآرامية»: «واسماء الاشارة التي تدل على القرب هي: הָדֵין (وأحياناً דְּנָא) للمفرد المذكر. والشكلان بمعنى «هذا» والشكل الأول يبتدىء بـ«الهاء» والثاني بـ«الألف».

«ل» (ن)، «٩» (ف)، «𐡔» (ش) / (س) ② = ؟ نقول في الآرامية «نَفَشْ»، وفي العربية «نَفَس». والملاحظ ان صانع النقش يلجأ الى هذا الشكل «𐡔» ليعبّر عن حرفي «الشين» و«السين» علماً انه توجد في الكتابات الآرامية ومنها (التدمرية والنبطية والسريانية بمختلف خطوطها) صور حروف لتعبر عن حرف «السين». ونعتقد انه صانع النص أراد أن يقول (نفس)، أي انه أهمل اللهجة الآرامية «نَفَشْ»، ودليلنا على ذلك حذف حرف «الواو»، وهي علامة الرفع في النبطية، كما جاء معنا في نقش «أم الجمال الأولى»، أي اننا أخذنا «ناحي» لهجة الحجاز وقريش.

«ص» (م) «٩» (ر) ③ = نجد الحرفين في جدول «النمارة».

«(ا)» «ل» (ل) «ق» (ق) «ي» (ي) «𐡔» (س) ④ = (ا) ل (ل) ـ ق (ق) انظر جدول النمارة، ونجد اشكالاً قريبة

ملحق (٢) «جـ»

في كتابات المسند والمتفرعة منه (مجموعة أ، جداول ٢، ٥، ٦، ٧).
بينما الشبه غير وارد في مختلف الخطوط السريانية وبعكس ذلك
نجد تشابهاً مع تعديل بسيط في العربي القديم» وفي «الحيري الكوفي»،
«ـعـ» انظر جدول النمارة وكذلك العربي القديم والسرياني الغربي،
«ـطـ» (ـسـ). انظر أعلاه. كما نرى، تبدأ أداة التعريف «أل»
بالظهور في الكتابات، وهذه الأداة خاصة بعربية قريش القرآنية
بينما يستعمل الكنعانيون «الهاء» كأداة تعريف وهذا الأمر معروف
في الكنعانية وفروعها ومنها «العبرية»، بينما تظهر «النون» في
آخر الكلمة كأداة تعريف لدى اليمنيين القدماء.

«لـ» (ب) «لا» (ر) = «لـ» (ب) «لا» (ر) «بن»، وتعني
كلمة (بر) كما رأينا ابن[5]. انظر أعلاه وكذلك جدول (نقش
النمارة من المجموعة ب).

«لا» (ع) «ﻫ» (م) «لا» (ر) «٩» = «لا» (ع) يذكرنا هذا
الشكل بالتدمري المربع[6] (مجموعة ب، جدول ٣) ولا يحاكي إلا قليلاً
حرف الكتابة السريانية بمختلف خطوطها (مجموعة جـ، جداول ٤،
٥، ٦) ، بينما نجد تشابهاً في النقوش التالية: «تدمري، نبطي،
نمارة، زبد وحران، عربي قديم، حيري لوقي» (انظر المجموعة ب)

ملحق (٢) «ح»

ونلاحظ التشابه في الكتابات التالية: «لحياني، مسند، مطور، لثماني ثمودي، صفوي) (مجموعة ٩ - جداول ٢، ٣، ٥، ٦، ٧).

«ه» (م) «٦» (ر) «٩» : انظر شرحنا أعلاه.

«ه» (م) «ل» (ل) «ى» (ك) انظر أعلاه (ملحق ١، صفحة ك، فقرة ٧).

⑦

«ى» (٩) «ل» (ل) «ع» (غ) «٦» (ر) «س» (ب) = انظر أعلاه (ملحق ٢، صفحة ب، ج، وفقرة ٤، ٦).

⑧

«ل» (ك) «ك» (ل) «α» (ه) = نجد هذا الشكل لحرف «الكاف» في نقش صفوي (مجموعة ٩، جدول ٧)، «ك» انظر أعلاه، «α» (ثمارة)، ونقل هذا الشكل القلم السرياني الغربي (مجموعة ه، جدول ٦) ونجد مشابهاً له في الخط الحيري «الكوفي» ◀. وتأتي «كلمه» عوضاً عن طرحم.

⑨

«٧» (ذ) - «٩» (د) = «٧» (ذ) «٩» (د). من المعلوم ان حرف الـ «ذ» هو من الروادف في الآرامية، أي عندما نود لفظ هذا الحرف نأتي بحرف «د = ٦» ونضيف النقطة (الشدة الخفيفة) فنلفظه حينئذ «ذ = ٦». ومن الملاحظ عدم وجود شكل

⑩

ملحق (٣) « لهـ »

خواص بحرف الـ « ذ » في مختلف الخطوط الآرامية والسبب هو أن هذا :

الشكل « ד » يلفظه قياسياً « ד = د » ولينا « ד = ذ » . انظر

قواعد الشدة الخفيفة ولفظ الحروف الروادف الستة في كتابنا

(المدخل الى اللغة الآرامية ، ص ٥٢ ،) . والملاحظ ان اسم

الموصول « ذو » الذي استعمله صانع النقش هو « ذو الطائية »

وعند المعلوم ان اسم الموصول هذا هو بلفظ واحد للمفرد والمثنى

والجمع والمذكر والمؤنث . وقبيلة « طي » تعود بأصولها كما نعلم ،

الى اليمن . وهذا يقودنا الى التفتيش عن هذا الشكل « ٦ » في

نقوش المسند وفروعه . وفي الحقيقة « د » في المسند هي

على هذا الشكل « ◻ » أما الـ « ذ » فهي « ◻ » ، أي انتقلوا من

لفظ « د = ◻ » الى الـ « ذ = ◻ » باضافة خط عمودي الى الشكل

الأول . ونجد في الكتابات الثمودية نفس الأمر . فلدينا هذا

الشكل للدلالة على الـ « د = ٦ » و لنلفظ الـ « ذ » نضيف خطاً

موازياً فنحصل على هذا الشكل « ذ = ٦ » . لا ندري ، هل أراد

صانع النقش أن يقول « د ٩٦ » ، علماً اننا نسمع في لهجات

عربية معاصرة « دا = هذا » ، « دي ، ده » هذه الخ . لا غرابة

ملحق (٣) «و»

الى الشك ان صانع النقش متأثر بالقلم الثمودي وبالقلم الصفوي (انظر مجموعة أ، جداول ٣، ٥، ٦، ٧). وأمر آخر، نرى أن حرف «الدال» في التدمرية قريبة بشكلها «٦» مع بعض الثمودية مما نجده في «د» النمارة «هذا إنها» وكذلك إنها تشبه مع «الدال» الثمودية. وتدمر تقع في قلب بادية الشام سيطر بأغلبيتهم الساحقة من العرب.

«ن» «أ» «ط» «س» «٩» «ر» انظر شرح لهذه الحروف أعلاه. «أسر» بمعنى: قبض على، أخذ، نال. (١١)

«ن» «أ» «/» «ك» «لا» «ت» «ح» «ج» انظر شرح لهذه الحروف أعلاه (١٢) وكذلك فان أشكال حرف «الج» في جداول المجموعات الثلاث (أ، ب، ج). ونلفت الانتباه ان شكل «اللام» (/) هذا لانجده سوى في الثمودي والصفوي.

ملحق (٣) «أ»

انا سرحير بركلمو سدا ⊕ الصركول
① ② ③ ④ ⑤ ⑥ ⑦

شكل ٣ - السطر الأول من كتابة «حران». وتاريخ النقش هو سنة ٤٦٣ حسب تقويم بصرى النبطي، حيث أصبحت بصرى عوضاً عن البتراء عاصمة العالم النبطي، بعد أن قضى الامبراطور الروماني «تريانوس»، على يد حاكم سورية الروماني A.C. PALMA على مملكة الأنباط، وألحق أراضيها بالامبراطورية الرومانية عام (١٠٦ ميلادي) باسم «الولاية العربية» PROVINCIA ARABIA وإذا أضفنا رقم (١٠٦) على (٤٦٣) نحصل على تاريخ النقش بالميلادي وهو (٥٦٩)، أي قبل بدء التاريخ الهجري بـ ٥٢ عام. ووجد هذا النقش، كما ذكرنا سابقاً، على حجر نصب فوق باب مزار أقيم للقديس يوحنا المعمدان في حران «اللجاة» شمالي جبل العرب. وهو مكتوب بالعربية واليونانية.*

دراسة تحليلية للنقش: ارا = أنا - سرحيل = شرحبيل
① ②

بر = بر (بن) - طلمو = {طالمو / ظالمو} ؟ - سدا = بنيت
③ ④ ⑤

ملحق (٣) «ب»

دال - ذا - ال - م - ر - ط - و - (الزبد وحران؟) أم (الحيانية صفوية)
⑥

إذاً ترجمة النقش تكون كالتالي: « ⑦ أنا شرحبيل بن ظلمو ؟ طامو

بنت ذا المرطور ؟ المرطول » وبعضهم ترجم « المرطول » ونعتقد

ان الترجمة الأخيرة غير صائبة، للأسباب سنذكرها عما قليل.

« شرحبيل »: قلنا سابقاً أن بعضهم يرى أن شرحبيل

هذا هو أحد أمراء بني كندة. وفي الحقيقة، جاء في روايات

الاخباريين العرب اسم « شُرَحْبيل بن الحارث » وهو أمير

كندي تزعم بكر بن وائل وقتل في أحد أيام العرب، وهو « يوم الكُلاب ».

وعاش في عصر قريب من تاريخ النقش.

{« ظلمو » طامو ؟}: قرأنا الطاء « ظاء » معتمدين على ما جاء أعلاه من

تعليق لابن منظور في « لسان العرب » على حرف الظاء. فهل

نترجم « ظالم » كما فعل بعضهم أم نقول « ظلم » كصفة ولقب.

وفي الحالة الأولى، نذكر « هند بنت ظالم » الشهيرة بهند

الهنود وهي إحدى زوجات الملك الكندي « حجر بن عمرو » المعروف

بـ « آكل المرار ». ونجد الاسم أيضاً في القرن السادس ميلادي

كما جاء في روايات الاخباريين العرب وشعرهم وذلك في قصة

امرئ القيس بن حجر والسموأل حيث قيل ان امرأ القيس مات بأنقرة وهو عائد من القسطنطينية . ولما بلغ المنذر بن ماء السماء النبأ وجه « الحارث بن ظالم » الى تيماء حيث « الأبلق » حصن السموأل . ودارت الدائرة وقتل ابن السموأل ، كما قيل . وجاء في القصيدة المنسوبة اليه :

وفيت بأدرع الكندي إني ... إذا ما خان أقوام وفيت .

وفي الحالة الثانية ، نقرأ « ظلم (و) » وفي هذه الحالة لا نرى صلة ما بين كلمة (ظلم) العربية وموضوع نقشنا هذا ، إذ تفيد كلمة ظلم « الثلج ، رقة الأسنان وشدة بياضها ، والظلم ضرب من الشجر واحدتها ظلمة » (انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، مادة ظلم)

والمعلوم ان (ليتمان LITTMANN) هو الذي قرأ (طلمو ظلمو) = ظالم . ولكن لدينا اقتراح آخر لقراءة هذا النقش ، منطلقين من أن (ط) هي ط وليست ظ) وعندئذ نلفظ « طلمو » وليس « ظلمو » ، فربما توجد هذه الكلمة في الآرامية بلهجاتها المختلفة ، علماً ان لغة نصنا هذا هي عربية مع بعض الكلمات الآرامية النبطية .

ووزن « فعلو » ليس بغريب على النبطية ولقد وجدناه ثلاث مرات في نقش « أم الجمال الأولى » : نفشو ، قبرو

ملحق (٣) «د»

رثو. (ملحق (١) «ب»). وكذلك في نقش «النمارة» حيث قلنا «عمرو» (ملحق (٢) «ب»). وفي نقش «زبد» نجد الأسماء التالية: «شرحو، قيمو، سعدو، سترو»، ونسمع حتى يومنا هذا أسماء كـ «رحمو، برهو، الخ...».

ماذا تفيد «طلمو = طلمو» في الآرامية. نقرأ في (قاموس الكتاب المقدس، الصادر عن مجمع الكنائس في الشرق الأدنى، الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧١، ص ٥٧٨) في مادة «طلمون»: بواب لاوي والبيت الذي أسسه (١ أخبار ٩: ١٧). أعضاء من أسرته عادوا من السبي مع زربابل (عز(*) ٢: ٤٠ و ٤٢ ونح(**) ٧: ٤٥) وكانوا بوابين في الهيكل الجديد (نح(**) ١١: ١٩ و ١٢: ٢٥)».

بالنسبة لما جاء في «قاموس الكتاب المقدس» من شرح كلمة «طلمون» لدينا ملاحظتان: أولاً اللفظ خاطئ، فعوضاً عن

(*) عز: سفر عزرا.
(**) نح: سفر نحميا.
كان هذان السفران سفراً واحداً في الأصل. لقد كتبا في القرن الرابع (ق.م.) بعد العودة من سبي بابل في أواخر أيام «الامبراطورية الفارسية الأخمينية»، حيث أصبحت الآرامية، كما ذكرنا سابقاً، اللغة الدبلوماسية للشرق الأدنى. وكتبت بعض أجزاء سفر عزرا بالآرامية الصرفة.

« طَلْمُون » كان عليهم أن يقولوا « طَلَمُون » . ثانياً : ذُكِرَت الكلمة مرة واحدة على وزن « طَلْمُون » بينما نجدها عدة مرات على وزن « طَلْمُن » ، أي نجد كلمة قريبة من تلك المذكورة في التوراة جاء في معجم :

<u>A Hebrew and English Lexicon of the Old Testament, with an appendix containing the Biblical Aramaic, based on the Lexicon</u> of William Gesenius, Oxford, 1962, p. 379

« טַלְמֹן, once טַלְמוֹן n. pr. m., name of porters (*) ---- »

وفي الصفحة السابقة، أي 378 نقرأ في مادة טלם :

« √ of foll; perh. cf. Ar. ظَلَمَ ; Aram. טְלַם, ܛܠܡ ; Eth. ጠለመ: all oppress, injure; in this case טַלְמֹן, טֶלֶם will be Aramaic names. (**) ... »

(*) الترجمة : طَلْمُن ، مرة واحدة طَلْمُون اسم مذكر ، اسم « البوابين »

(**) جذر √ الكلمة التالية ، من المحتمل المقارنة مع العربية ظَلَمَ ؛ آرامي طِلَم حبشي طلم بمعنى اضطهد ، ألحق الأذى ؛ وفي هذه الحالة طِلَم ، طَلْمُون ، من المحتمل أن تكون أسماء آرامية .... »

ولدينا في السريانية «ܛܥܝܢܐ = طامنا» بمعنى: فطن، حكيم
وفي هذه الحالة، هل تعني كلمة «ܛܠܘ» «بوابين» أو معنى
قريباً منه.
رأينا أعلاه ان اللقب يشير الى «بواب للوي»، أي
مقدس، وكان هؤلاء «بوابين» في الهيكل الجديد، أي كانوا حراساً
مقدسين.
ونطرح الآن سؤالنا: هل اللقب في النقش يشير الى
الحارث أم الى «شرحبيل»، وعوضاً أن نقول الحارث، نفترض ان
صانع النقش أراد أن يقول الحارس بدلاً من الحارث، أي جعل
حرف (س) مكان الـ (ث). على كل حال، نحن نميل الى قراءة الكلمة
«طامو»، أي اعتبرناها آرامية على وزن «فَعُّلو».

المطول أم المرطول أم المرطوب ؟!

⑦ في الترجمة المنسوبة الى «ليتمان LITTMANN»
والمنشورة في «مصور الخط العربي» لناجي زين الدين، دار القلم،
الطبعة الثالثة، بيروت ١٩٨٠، ص ٣٠٥»، نرى كلمة «المرطول»
في سياق ترجمة النقش.
قلنا ان «المرطول» في الترجمة غير صائبة. ويجب

ملحق (٣) «ز»

القول ان الكلمة ليست بآرامية. ثم ليست بعربية الأصل، ولو كان الأمر كذلك، لكان جذرها «رَطَلَ» بمعنى «راز الشيء يعرف وزنه». ونقول رَطَلَ الرجل أي عدا؛ ورَطَّلَ الشعر: لينه بالدهن وأرخاه ومشّطه وأرسله.» ومرطول على وزن «مفعول».

وفي الحقيقة، الكلمة «مرطور» ذات أصل يوناني ولم نجد ذكراً لها «مرطول أو مرطور» في مختلف المعاجم العربية.

وقلنا أيضاً بشطيرها ليست بآرامية، وفي الواقع، قلنا أعلاه ان الكلمة جاءت في نقش وُجِدَ على حجر مزار (أو كما نقول مشهد) أقيم تكريماً للقديس (يوحنا المعمدان)*.

قلنا ان الكلمة هي «مرطور» وذات أصل يوناني. ويفيد فعل (ῶ) μαρτυρέω فيما يفيده: «شهد» أدّى الشهادة بـ... أو على، استشهد في سبيل الله». أما كلمة μαρτύριον, οι (ونلفظها مارتوريون وفي العربية قد نقول (مارطوريون) لأنه لا وجود لحرف الـ«ط» في القلم اليوناني) فانها تعني «مشهد».

(*) هو الشهيد (يوحنا المعمدان) الذي قطع رأسه الملك هيرودوس على طلب سالومة.

ملحق (٣) «ع»

برهان، مزار، مشهد أقيم تكريماً لشهيد). ونقول في اللاتينية

وفي المعنى نفسه MARTYRIUM وننطقها (مارتوريوم أو مارطوريوم)

لفقدان حرف «ط» في الأبجدية اللاتينية وفي الأبجديات المتفرعة

منها كالايطالية والفرنسية والانكليزية والألمانية الخ... وقلنا في

الفرنسية martyr وكذلك في الانكليزية بمعنى «شهيد»

وكلنا عوضاً أن نلفظ الأوبسيلون (γ) «ع» اليونانية (ou U)

كالفرنسية، لفظناها في الفرنسية والانكليزية (ي I) الفرنسية

أما اللفظ اليوناني واللاتيني لحرف (ὖ ψ λ ό ν) فهو (ou و U)

الفرنسية، وقد حافظت على هذا اللفظ اللغة الألمانية، فمثلاً عندما

يكتبون اسم «سورية» فهو SYRIEN وينطقونه «ZURIEN»..

وفي هذه الحالة حرف (ل) في آخر الكلمة هو (ر) وليس

«لاماً». ونجد شكل الـ «راء ل» هذه في النقوش اللحيانية

والصفوية. (انظر مجموعة ٩، جدول ٥٠٧)..

ملحق (٤) « م »

٣	٢	١
عمر	اصبح	امسى و

٦	٥	٤
بو بكر		وابو

١٠	٩	٨	٧
كل	من	بالله	الى

١٢	١١
بكره	ما

شكل ٤ – المقطع الأول من ثلاثة مقاطع منقورة في صخر جبل سلع بالقرب من المدينة المنورة من عهد الخلفاء الراشدين. وبعض حروف النقش قد عفا عليها الزمن، وتضيف لها بين قوسين ونقرأ كالتالي:

⑧	⑦	⑥	⑤	④	③	②	①
الله	الى	يتور (عا) ن	أبو بكر	و	عمر	و أصبح	أمسى

⑫	⑪	⑩	⑨
يكرَه	ما	كل	من

يمكن مقارنة الحروف مع مختلف جداول « المجموعة ب »

ملحق (٥) « أ »

١- الطرىو .....
٢- عىدالله عىدالملك
٣- امر المومىں رحمه الله

شكل ٥ - من كتابة كوفية منقورة في حجر طريق يعود لأيام عبد الملك بن مروان، وعثر على الحجر في فلسطين.
ونقرأ كالتالي:
١- الطريق .... (بقية السطر غير واضحة).
٢- عبد الله عبد الملك
٣- أمير المؤمنين رحمه الله.

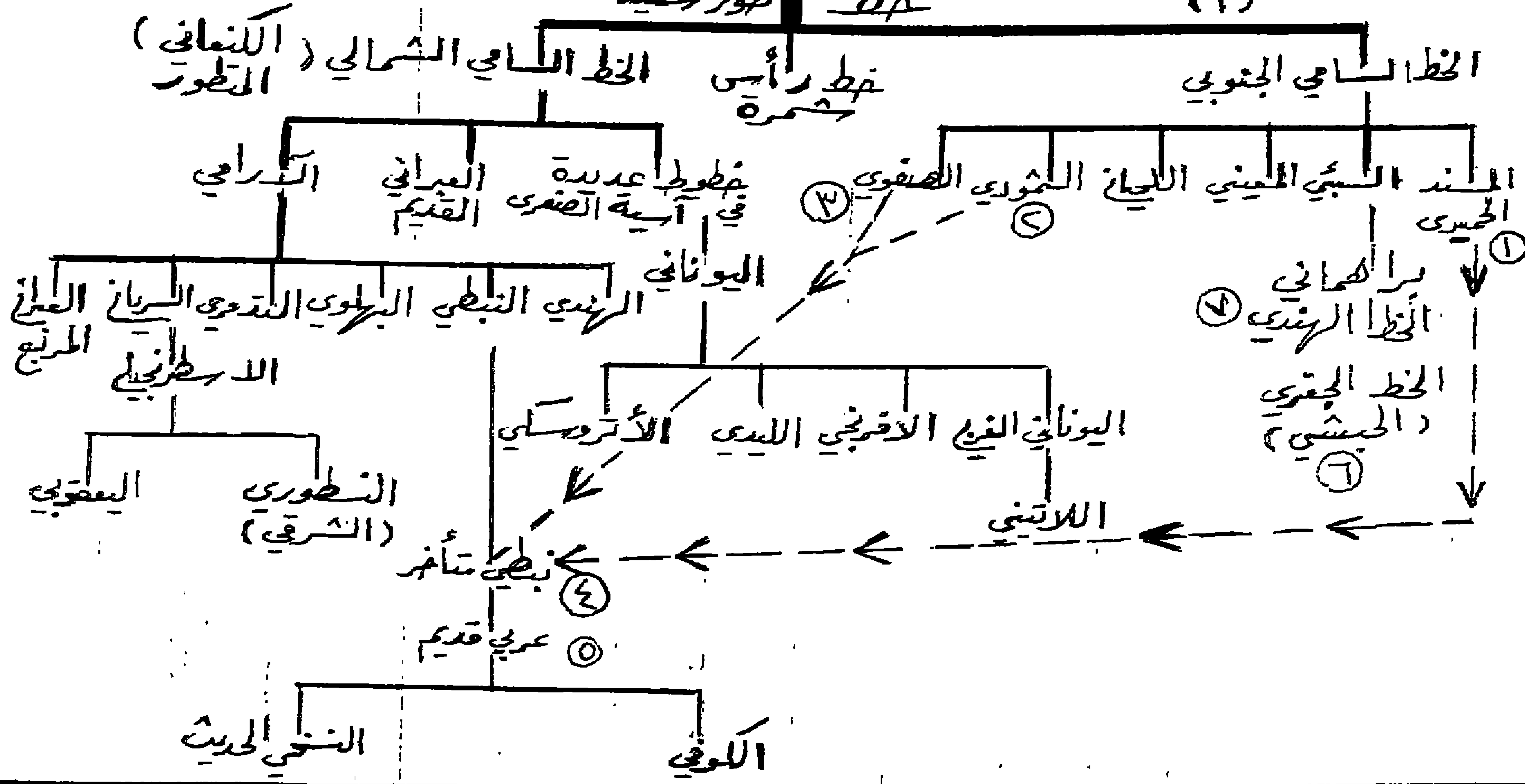
شكل ٦ -
١- وكىں هدا الكىٮ
٢- سوال مں سنه اربع و
٣- سٮىں

الأسطر الثلاثة الأخيرة من كتابة كوفية على حجر قبر ثابت بن يزيد الأشعري، عثر عليه في وادي الأبيض بلواء كربلاء، وتاريخ الكتابة سنة (٦٤ هـ)، وهي كالتالي:

١- وكتب هذا الكتب في
٢- شوال من سنة أربع و
ستين

ملحق (٦) سلسلة تفرع الكتابات السامية الشمالية والجنوبية

(م)



مع ان النظرية السينائية، يرتقي عهدها الى مطلع هذا القرن فانها رائجة في الأوساط العلمية الكثير غيرها، ومن الأوائل الذين اعتمدوها نذكر:

PETRIE, F., The Formation of the Alphabet, London 1912.

ملحق (٦)
(ب)

GARDINER, A. H. « The Egyptian Origin of the Semitic Alphabet », in JOURNAL OF EGYPTIAN ARCHAEOLOGY, III, 1 ff., 1916.

SPRENGLING, M., The Alphabet: its Rise and Development from the Sinai Inscriptions, The Universal Jewish Enc., I, P. 198.

نعتقد أن شجرة خطوط « طور سيناء » ما زالت، بالإجمال، صحيحة حتى يومنا هذا، على أن نجري عليها بعض التعديل. فمن ناحية، نلاحظ أن العربي القديم يتفرع مباشرة من النبطي المتأخر، دون أن يكون للخطوط السريانية المختلفة أي دور في ذلك. ونحن نعلم أن بعضهم يعتمد رأياً مغايراً. أما نحن فلقد أوضحنا وجهة نظرنا، عندما قلنا انه لم يكن للسريانية بكتاباتها المختلفة، دور يذكر في نشوء القلم العربي، بل ان ما اقتبسته جاء فيما بعد من طريق علامات الوقف والحركات، ونحن نبحث في الأصول.

أما التعديل الذي يجب اجراؤه، بحسب رأينا، وبموجب النتائج التي توصلنا عليها، نتيجةً لدراستنا المقارنة لنقوش

ملحق (٦)

(جـ)

بعض الجداول، فينحصر في دور المسند ① والثمودي ②
والصفوي ③ في تطور أشكال النبطي المتأخر ④ الذي أعطانا
العربي القديم ⑤. وقد أضفنا الى المخطط الأصلي، خطين
منفصلين، للايضاح.

وأمر آخر، لا نعتقد ان الخط الجبزي
«الحبشي» ⑥ ناتج من الخط الهندي «البراهماني» ⑦، بل ان ذلك
قد تم مباشرة بين المسند الجنوبي والجبزي «الحبشي».
ونلاحظ أيضاً انهم يقولون «سامية»
وهذا أمر غير صحيح، كما أوضحنا أعلاه.

بسم الله الر حمن الرحيم والسما ذا ت البروج واليوم المو
السطر: ① ② ③ ④ ⑤
عود و
⑥

كتابة بخط كوفي على رق الغزال من المصحف الكريم المنسوب للخليفة علي ابن أبي طالب (من ودائع خزانة الروضة الحيدرية في النجف).

ملحق ٧

(١) حول اللغة الارامية وكتاباتها ولهجاتها ، انظر كتابنا ، المدخل الى اللغة الارامية ، مكتبةاطلس دمشق ١٩٧٩ ، ص ١٦ وما بعدها .

(٢) حول اللغة السريانية بالعربية ، انظر : الدكتور احمد ارحيم هبو ،، المدخل الى اللغـــة السريانيةوادابها، منشوراتمديرية الكتب والمطبوعاتالجامعية في حلب ١٩٧٥ — ١٩٧٦ .

(٣) اضافة للمصادر العربية القديمة المذكورةفي سياق البحث نذكر بعضالمراجع العربية والاجنبية الحديثة التي تبحث في تاريخالكتابات العربية وغيرهاومنها : اصل الخط العربي وتاريخ تطوره (مـــن محاضرات لبتمان في الجامعة المصرية ، نشر مجلةكليةالاداب ، سنة ١٣٥٤ هـ) ، احمد يوسف ، الخـط الكوفي ، طبع القاهرة سنة ١٣٥٢ هـ ، صلاح الدين المنجد ، الكتاب العربي المخطوط ، طبـع القاهرة سنة ١٩٦٠ ، انيس فريحة ، الخط العربي ، نشاته مشكلته ، طبع بيروت ١٩٦١ م ؛ أحمد فخري،احدث الاكتشافات الاثرية في اليمن ، مجموعة ابحاث المؤتمـرالثالث للاثار في البلاد العربية ، فاس ١٩٥٩ م . (مطبوعات الادارة الثقافية بجامعة الدول العربية ،سنة ١٩٦٠م) ، خليل يحيى نامي ، اصل الخـط العربي وتاريخ تطوره الى ما قبل الاسلام ، (مجلـةكلية الاداب ، الجامعة المصرية ، مجـ ٢ ، جـ ، مايو ١٩٣٥ ، ص ١٠٤-١٠٦) ، جواد علي ، المفصلفيتاريخ العرب قبل الاسلام طبع بيروت ١٩٦٨ ، جـ ٧، ص ٣٥ وما بعدها ،

ومن المراجع الاجنبية نذكر :

Hoftijzer J.C., **Dictionnaire des inscriptions sémitiques de l'Ouest**, Leiden 1963; Cross F.M.Jr., **« The evolution of the proto-Canaanite Alphabet », American School of Oriental Research Bulletin, 134**: 15-24 (April 1954); Driver G. R., **Semitic Writing from Pictograph to Alphabet** London 1954; Dhorme R.P.R., **Un nouvel alphabet sémitique, Revue Biblique** 4, 1930; **Rev. 1, 1931;** Abbott Nabiha, **the Rise of the North Arabic Script**, Chicago 1939.

(٤) نذكر من الكتب العربية والمترجمة الى العربية التي تبحث في الموضوع : محمد عطيـــة الابراشي الاداب السامية القاهرة ١٩٤٦ ، عبد العزيز سالم،تاريخ العرب في العصر الجاهلي ، دار النهضةالعربية بيروت ١٩٧٠ ، تيودورنولدكه ،، اللغات السامية ،دارالنهضة العربية ، القاهرة ١٩٦٣ ، يفغيني بليايف، العرب والاسلام والخلافة العربيةفيالقرونالوسطى، الطبعة العربية، الدار المتحدة للنشر ، بيروت ١٩٧٣ ترجمة د . انيس فريحة ، مراجعة وتقديم د . محمود زايد

ومن المراجع الاجنبة نذكر :

Winnett, F. V., **A Study of the Lihyanite and Thamudic Inscriptions**, Toronto 1937; Lammens, H., **L'Arabie occidentale avant l'hégire**, Beyrouth, Imprimerie catholique, 1928; van den Branden, A., **Inscriptions thamoudéennes**, Louvain, 1950 (Bibliothèque du Muséon, 25); Littmann, E., **Thamud und Safâ,**

Leipzig, 1940 (Abhandlungen für die Kunde des Morgenlandes, XXV, 1) ; Caskel, W., **Lihyan und Lihyanisch,** Köln-Opladen, 1954. (Arbeitsgemeinschaft für Forschung des Landes Nordrhein-Westfalen, IV).

(٥) وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، ط .مصر ١٩٤٨ ، ج ١، ص ٣٤٦.

(٦) المقدمة ،.ط.القاهرة ١٩٥٧ (تحقيق علي عبد الواحد وافي .

(٧) ناجي زين الدين ، مصور الخط العربي ،دار القلم ، الطبعة الثالثة ، بيروت ١٩٨٠ ، ص٢٩٨

(8) Harding, G. L., **An Index and Concordance of pre-Islamic Arabian names and inscriptions,** Toronto 1971, **passim;** Kammerer, A. **Pétra et la Nabatène , l'Arabie Pétrée et les Arabes du Nord dans leurs rapports avec la Palestine jusqu'a l'Islam,** 2 vol., Paris 1930.

(٩) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، ج٧ ، ص ٢٧٢ .

(١٠) المدخل الى اللغة الارامية ، ص ٢٩ .

(١١) نفس المرجع ، ص ٢٧ .

(١٢) انظر على سبيل المثال لا الحصر : خليـل يحيى نامي ،، أصل الخط العربي وتاريخ تطوره الى ما قبل الاسلام ، ومن الباحثين الغربيين : أصل الخط العربي وتاريخ تطوره (من محاضرات ليتمان في الجامعة المصرية) .

(١٣) الحقائق الجلية في الابحاث التاريخية ، الادبية والفلسفية ، نشر تباعا في المجلة البطريركية بدمشق ، ١٩٧٢ ، ص ٢١ .

كتابة تاريخ العرب

من اهداف المشروع :

ان اعادة كتابة تاريخ العرب تنبع من حاجة قومية قائمة وملحة لتحرير الارادة القومية المبدعة في انطلاقها لصنع التاريخ الجديد . ولذلك ليس المطلوب مجرد اضافة كتاب الى الكتب الموجودة ، بل المطلوب من كتابة التاريخ العربي من جديد أن يبرز خصائصه الكبرى ..

من مبادىء العمل :

تجري كتابة (تاريخ العرب) ضمن منظورات ثلاثة هي :

المنطلق الوحدوي ، والفهم الحضاري للتاريخ ، والتقيد باسلوب البحث العلمي .

الصورة التاريخية والحضارية
للقطر العربي السوري
في العصور الشرقية القديمة

قاسم طوير

المديرية العامة للآثار والمتاحف ـ دمشق

يعتبر التنقيب الاثري في تلال العصور الشرقية القديمة المنتشرة في منطقة الجمهورية العربية السورية حديث العهد بالنسبة للعراق ومصر . ففي حين أن النشاط الاثري قد بدأ في مصر مع حملة نابليون في القرن الثامن عشر ، وأخذ يخطو في العراق منذ القرن التاسع عشر ، نجد أن أول عملية تنقيب أثرية في تل من العصور الشرقية القديمة في قطرنا قد باشرت بها بعثة المانية في عام ١٩١٠ .

وبالرغم من أن قطرنا هو واحد من أعرق مناطق الشرق أثريا بما كان وما يزال يتمتع به من موقع جغرافي يتحكم بطرق المواصلات بين الشرق والغرب والشمال والجنوب ، الا أن تاريخه كان حتى عهد قريب يكتب من وجهات نظر النصوص المسمارية الرافدية والنصوص المصرية القديمة والنصوص الحثية . وقاد هذا الامر الى اعتبار بلاد الشام تابعا للممالك المجاورة في الرافدين ومصروالاناضول. وربما كانت هذه النظرة أحد الاسباب التي صرفت في الماضي اهتمام علماء الاثار عن تركيز نشاطهم في قطرنا ، كما انه لا يستبعد أن تكون التنقيبات الاثرية التي جرت بين الحربين العالميتين في بعض من تلال محافظة الجزيرة قد استهدفت بالدرجة الاولى استكمال بعض حلقات التاريخ الرافدي .

في الثلاثينات من هذا القرن حظيت المناطق الداخلية والساحلية باهتمام الاثريين الاجانب الا أن التنقيبات التي جرت في خان شيخون وتل رفعت وتل المشرفة وتل النبي مند قد اقتصرت على مساحات صغيرة وأعماق محدودة ، بالرغم من أن مكتشفات بعض منها قد عرفتنا على مملكة قطنه الامورية في تل

المشرفة وعلى مملكة قادش الشهيرة في تل النبي مند قرب حمص . بيد أن أهم نشاط أثري واسع النطاق وطويل الاجل كان في تل مدينة حماه وتل عطشانة في سهل العمق (الالاخ القديمة) وتل الحريري (ماري) على الفرات وتل راس الشمرة (اوغاريت) على الساحل .

توقف النشاط الاثري في قطرنا عقب اندلاع الحرب العالمية الثانية ، لكنه استؤنف في الخمسينات بعودة البعثتين الاثريتين الافرنسيتين الى مواصلة التنقيب في كل من تل الحريري وراس الشمرة . وكان لاكتشافات السجلات الملكية والمدنية (الرقم المسمارية) في تل الحريري والعثور على الابجدية الكتابية في راس الشمرة أثر كبير على أوساط الاثريين في العالم . ولقد قاد هذا الامر الى توافد عدد من البعثات الاثرية الجديدة الى القطر خلال الستينات . ووصل النشاط الاثري في قطرنا الى ذروته في أعقاب النداء الدولي الذي أصدرتهالجمهورية العربية السورية في عام ١٩٦٩ لحث المؤسسات الاثرية العالمية للمساهمة في انقاذ التلال والاوابد الاثرية التي ستغمرها مياه سد الفرات . وبكل فخر يسجل قطرنا في الوقت الحاضر رقما قياسيا في عدد البعثات الوطنية والاجنبية العاملة في مختلف بقاعه .

وهكذا بدات الصورة التاريخية والحضارية للقطر العربي السوري وماتزال ترتسم تدريجيا وكأنها لوحة فسيفسائية ترصف بمكعبات صغيرة ، فكل عملية تنقيب في موقع جديد وكل اكتشاف فريد في المواقع التي يجري التنقيب فيها يضيف مكعبا أو عدة مكعبات الى لوحة الفسيفساء تلك . وقبل الدخول في تفاصيل الشواهد المادية على تاريخ وحضارة قطرنا خلال العصور الشرقية القديمة نود التنويه الى أن عددا من التلال التي جرى التنقيب فيها قد زودنا بشواهد مادية حضارية ترقى الي الالف الاول والثاني والثالث قبل الميلاد ولكنها لم تزودنا الا بنصوص كتابية تغطي الالفين الاول والثاني . وبقي الظلام يكتنف تاريخ القطر السياسي والاجتماعي وأوجه كثيرة من تاريخه الحضاري في الالف الثالث حتى عامي ١٩٧٤ و ١٩٧٥ عندما سعدت البعثة الايطالية العاملة في تل مرديخ القريب من بلدة سراقب بالعثور على أعداد كبيرة من الرقم المسمارية التي تسطر أحداث القطر خلال النصف الثاني من الالف الثالث .

يعتبر الالف الرابع بالنسبة للقطر العربي السوري أشد غموضا من الالف السابق لان الكتابة لم تكن بعد معروفة في تلك الفترة ، وكانت بوادر الكتابة في نهاية الالف الرابع تقتصر على رموز حسابية تطورت في جنوب الرافدين . بيد أن حضارة متطورة قد نشأت في مدينة اوروك ـ الوركاء ـ دلت نتائج التنقيب والمسح الاثريين على انتشارها في معظم بقاع الرافدين بما فيها منطقة الجزيرة في القطر العربي السوري لكن التنقيبات الاثرية الجارية في قطرنا لم تكشف دلائل هامة على هذا العصر الى الغرب من نهر الفرات حتى بضع سنين خلت ، وذلك

عندما كشفت بعثة اثرية المانية واخرى بلجيكية وثالثة هولندية عن مدينتين ازدهرتا على الشاطيء الشامي من نهر الفرات في أواخر الالف الرابع .

والان دعونا نستعرض مواقع التنقيب الاثري التي ننهل منها جل معرفتنا بالنسبة لكل عصر من العصور الشرقية القديمة .

نهاية الالف الرابــع أو عصر أوروك

يتمثل هذا العصر في موقعين رئيسيين على الشاطيء الايمن من نهر الفرات هما حبوبة الجنوبية وجبل عارودة .

١ ــ **حبوبة الجنوبية :** تقع حبوبة الجنوبية على الشاطيء الايمن من نهرالفرات الاعلى وهي تابعة من الناحية الادارية الى ناحية الخفسة من منطقة منبج بمحافظة حلب ، ولما كان هذا الموقع من جملة المواقع التي ستغمرها مياه بحير سد الفرات فقد سارعت بعثة المانية اتحادية للتنقيب فيه منذ عام ١٩٦٩ الى جانب تل حبوبة المجاور له في الشمال . ويمتد هذا الموقع مسافة حوالي الكيلو مترين على هضبـة وادي الفرات وهو محصور بين تل حبوبة في الشمال وتل قناص في الجنوب . ولقد اسفرت التنقيبات الجارية فيه بين ١٩٦٩ د ١٩٧٥ عن كشف أقدم مدينـة متطورة في تاريخ قطرنا . كما اكدت نتائج التنقيب أن تل قناص الذي تعمل فيـه بعثة اثرية بلجيكية على أساس أنه تل مستقل ، هو جزء من مدينة حبوبة الجنوبية، بل هو مركز معابدها ويمكننا تلخيص نتائج التنقيب بالنقاط التالية :

آ ــ ترقى حبوبة الجنوبية الى نهاية الالف الرابع قبل الميلاد واكدت نماذج العمارة واللقي الفخارية والحجرية والطينية والنحاسية المكتشفة فيها على انتمائها لحضارة اوروك في جنوب الرافدين .

ب ــ تتمتع المدينة بتخطيط عمراني متطور ، فالشوارع المعبدة بالحصى تربط بين الاحياء وقساطل المياه المصنوعة من الفخار والمدفونة في الارض تتسلل في كافة البيوت وتلتقي في الشوارع وتصب خارج حدود المدينة .

ج ــ تتميز البيوت السكنية بتخطيط متقن فالغرف ترتصف حول باحـة متوسطة أو صالة كبرى ولعل من أبرزها هو البيت الكبير الذي تتوسطه صالة كبرى على شكل حرف (تي) اللاتيني ، وتزدان جدرانه بمحاريب غائرة .

د ـ يحيط بالمدينة من كافة جهاتها باستثناء الجهة المطلة على الفرات ، سور مزدوج ، الامامي منه صغير والخلفي هو الرئيسي ، ويتميز بسماكته وبابراجه المربعة التي تعززه بمسافات منتظمة ، وتخترق السور بوابتان ضخمتان . وخلافا للاسوار الدفاعية الخالية من أي تفصيل يتمتع سور مدينة حبوبة الجنوبية بمحاريب منتظمة تضفي الحيوية والرشاقة على سطوح الجدران الصماء . لعل هذا السور هو أبرز وأعظم كشف أثري تحقق حتى الان اذا علمنا ان التنقيبات الاثرية في موقع اوروك لم تكشف حتى الان عن السوية الترابية التي تغيب في باطنها سور أوروك الذي تحدثنا عنه اسطورة جلجامش الشهيرة . وبذلك سيفخر قطرنا بأنه قدم أول نموذج ملموس لعمارة الاسوار في نهاية الالف الرابع قبل الميلاد .

هـ ـ كانت البعثة الاثرية البلجيكية العاملة في موقع تل قناص المجاور تعتقد أنها كشفت في هذا التل عن معالم مدينة من العهد البابلي ومن عصر اوروك وكانت فخورة بكشفها عن معبدين من طراز معابد اوروك لكن البعثة الالمانية في حبوبة الجنوبية فوجئت باستمرار سور حبوبة نحو الجنوب وتخطيه حدود تل قناص بمسافة بعيدة . وهكذا تأكد أن تل قناص الذي يضم معبدين رئيسيين من عصر اوروك هو جزء من مدينة حبوبة .

و ـ الى جانب الاواني الفخارية المتنوعة والمميزة لعصر اوروك عثرت البعثة الالمانية على عدد كبير من الكتل البيضوية الشكل والمثقوبة من طرفيها وتحتفظ كافة هذه الكتل بطبعة ختم اسطواني زاخر بالاشكال الحيوانية والانسانية المحفورة حفرا دقيقا وماهرا . وكانت هذه الكتل تستخدم لاغلاق فوهات الاواني المعبأة بالبضائع السائلة والجامدة وكان يجري مهر تلك الكتل بخاتم صاحب البضاعة كما هو الحال في يومنا هذا بالنسبة للشمع الاحمر .

ز ـ ان المكان لايتسع لذكر كافة الشواهد المادية المكتشفة في حبوبة والتي تعرفنا على أوجه عديدة من أوجه حياة وفعالية تلك المدينة السحيقة في القدم .

٢ ـ جبل عارودة : تقوم بعثة اثرية هولندية منذ عام ١٩٧٣ بالمساهمة في حملة انقاذ اثار الفرات في موقع جبل عارودة الذي يقع على بعد بضعة كيلو مترات الى الشمال من موقع حبوبة الجنوبية . وكشفت هذه البعثة عن مبان دينية ومدنية وأدوات فخارية وحجرية ورقم طينية (أرقام عددية) مميزة لعصر اوروك . بيد أن التنقيبات في هذا الموقع ما تزال حديثة العهد . ونتوقع مزيدا من الاكتشافات التي توضح لنا صورة هذا الموقع والدور الذي كان يلعبه على مرتفع عال وصعب المسالك مثل جبل عارودة الذي يهيمن على وادي الفرات في تلك المنطقة .

النصف الاول من الالف الثالث أو عصر السلالات الاولى

ان الشواهد المادية والكتابية على هذه الفترة بالنسبة لقطرنا ماتزال ضعيفة وتقتصر على بقايا معمارية ونماج فخارية باستثناء مكتشفات البعثة الاثرية الالمانية في تل خويرة في الجزيرة العليا والبعثة الفرنسية في تل الحريري (ماري) على الفرات الاوسط . ومن أهم المواقع التي أبان التنقيب الاثري عنها شواهد مادية على هذه الفترة نذكر :

آ ـ تل براك :

يقع هذا التل على أطراف نهر الجغجغ زافد نهر الخابور في الجزيرة ويبعد حوالي ٣٠ كم الى الجنوب من بلدة القامشلي . قامت بعثة اثرية بريطانية برئاسة العالم مالاوان بالتنقيب فيه بين ١٩٣٦ و ١٩٣٩ وكشفت عن بقايا معبد يرقى الى عصر جمدة نصر (حوالي ٢٧٠٠ ق.م) وعثرت فيه على عدد كبير من الدمى الفخارية والحجرية المميزة لهذا العصر . كما تم الكشف عن معالم قصر يرجح أن يكون للملك الاكادي نارام ـ سين .

ب ـ تل شغربازر :

يقع الى الجنوب من بلدة عامودة في الجزيرة . وقامت بالتنقيب فيه البعثة السابقة التي نقبت في تل براك ولقد كشفت الاسبار العميقة فيه عن طبقة تعود الى عصر جمدة نصر ايضا .

ج ـ حماه :

قامت بعثة اثرية دانماركية بين ١٩٣١ و ١٩٣٨ بالتنقيب المنهجي الواسع في تل مدينة حماه وكشفت عن شواهد اثرية تتعاقب من الالف الرابع حتى الالف الاول قبل الميلاد وتضم عينات فخارية من عصر جمدة نصر ايضا .

د ـ تل الحريري ـ ماري :

يقع هذا التل على الجانب الشامي من نهر الفرات الاوسط وهو قريب من بلدة البوكمال الواقعة على الحدود السورية العراقية ، وقامت بعثة اثرية فرنسية برئاسة الاستاذ بارو بالتنقيب فيه عام ١٩٣٣ وتوقف العمل فيه اثر الحرب العالمية

الثانية واستأنفت البعثة اعمالها في مطلع الخمسينات ومازال مستمرة حتى يومنا هـذا .

ابانت التنقيبات في منطقة القصر الذي اندثر في الالف الثاني قبل الميلاد ، ان القصر نفسه قد اقيم فوق نفس اساسات قصر اقدم منه يرقى الى عهد السلالات الاولى او عصر ما قبل الصارغوني ، بيد أن التنقيب لم يكشف عن وثائق كتابية يمكن ان تحدثنا عن طبيعة الدور الذي كانت تلعبه ماري في ذلك العصر الذي ازدهرت فيه دويلات المدن السومرية في جنوب الرافدين .

هـ ـ تل خويرة :

يقع هذا التل بين تل ابيض وراس العين وهو قريب من الحدود السورية التركية . وتقوم بالتنقيب فيه منذ ١٩٥٨ بعثة أثرية المانية برئاسة الاستاذ انطون مورتغارت ومن أبرز اكتشافاتها نذكر نماذج معابد واوابد وتماثيل حجرية ترق إلى عصر السلالات الاولى في الرافدين .

النصف الثاني للالف الثالث ، او العهد الاكادي وعهد سلالة اور الثالثة

بقيت الشواهد الاثرية على العصر الاكادي وعصر سلالة اور الثالثة في القطر العربي السوري مقتصرة على بعض المكتشفات المعمارية والقليل من القطع الفنية والاستعمالية في عدد من تلال الجزيرة حتى عام ١٩٧٤ ، عندما عثرت البعثة الاثرية الايطالية في تل مرديخ قرب سراقب على ارشيف الرقم المسمارية في قصر ملك تل مرديخ المعاصر لملوك آكاد في الرافدين وفيما يلي نستعرض المواقع الاثرية التي كشفت اعمال التنقيب عن شواهد مادية على هذه الفترة .

آ ـ تل براك :

كشفت البعثة البريطانية السابقة الذكر عن قصر كبير يعود لعهد الملك الاكادي نارام سين .

ب ـ تل خويرة :

كشفت البعثة الالمانية الانفة الذكر عن معابد ومساكن ترقى الى العهد الاكادي بيد ان نموذج المعبد المكتشف في هذا الموقع ينفرد بخصائص تميزه عن المعابد الاكادية الرافدية ويتجلى ذلك في الرواق الامامي الذي يتقدم هيكل المعبد المستطيل .

ج - تل مرديخ :

تقوم بعثة أثرية برئاسة الاستاذ باولو ماتييه من جامعة روما بالتنقيب في تل مرديخ القريب من بلدة سراقب منذ عام ١٩٦٤ وكشفت أعمال البعثة عن معالم معمارية هامة ترقى الى العهد البابلي (النصف الاول من الالف الثاني قبل الميلاد) نتعرض لها في حينها . وعثرت في السنوات الاخيرة على جزء تمثال من حجر البازلت عليه كتابه أكادية كان من جملة ما تتضمنه اسم مدينة ايبلا التي جاء ذكرها كثيرا في النصوص الاكادية الرافدية . وكان هذا النص الوثيقة الكتابية الوحيدة التي كشفت عنها اعمال التنقيب انذاك . ولقد دعى هذا الاكتشاف الى الاعتقاد بأن تل مرديخ هو مدينة ايبلا الشهيرة . وظلت البعثة تعيش في امل العثور على مزيد من الوثائق المكشوفة للتأكد من هوية هذه المدينة والتعرف على تاريخها وحضارتها في عصور ما قبل العهد البابلي ، وعندما وصلت أعمال التنقيب الاثري الى الطبقات التي تلي طبقة العهد البابلي خلال موسم ١٩٧٤ سعدت البعثة بالعثور على اربعين لوحة طينية كتابية (رقم مسمارية) أكدت القراءة الاولية لسطورها على انتمائها للعصر الاكادي . وكانت الضجة التي احدثها هذا الاكتشاف اكبر عندما عثرت البعثة في موسم العام التالي (١٩٧٥) على حوالي اثني عشر الف لوحة اخرى في حجرة مجاورة لقاعة عرش القصر الملكي .

وتعتبر هذه اللوحات اولى الوثائق المكتوبة في المناطق الداخلية من قطرنا في العهد الاكادي . ان المكان لايتسع الا لسرد مقتضب للنتائج الباهرة لهذا الاكتشاف الذي قلب الصورة التاريخية للمناطق الداخلية للقطر العربي السوري في النصف الثاني للالف الثالث قبل الميلاد راسا على عقب . وبالرغم من أن قراءة اللوحات الكتابية لاتخرج عن نطاق رؤوس الاقلام الا اننا نستطيع أن نعرض بعض الافكار الاولية .

آ - اكد محتوى النصوص الكتابية على هوية ايبلا في تل مرديخ بشكل قطعي ووضع حد للفرضيات السابقة التي كانت ترجع موقع ايبلا الى الشمال من حلب .

ب - اكدت آثار الدمار والحريق في بقايا القصر المكتشف على صحة ماجاء في الوثائق الرافدية التي تذكر ايبلا من جملة المدن والممالك التي دمرها الملك الاكادي نارام سين أثناء توسعه باتجاه البحر الكبير (البحر المتوسط) .

ج - خلافا لما جاء على لسان ملوك ماري (تل الحريري) أو ملوك أكاد واشور بأن ملوك ايبلا كانوا يدفعون الجزية لهم وكانوا بالتالي يخضعون لنفوذهم فقد

ابانت نصوص تل مرديخ ان هؤلاء الملوك كانوا يدفعون الجزية بدورهم الى ملوك ايبلا .

د ـ كانت ايبلا (تل مرديخ) مركزا مرموقا لصناعة النسيج الموشى بخيوط الذهب والفضة (البروكار الدمشقي) وكانت اكاد واشور من جملة الممالك التي تستورده .

هـ ـ تذكر النصوص المسمارية الرافدية أن ملوك الرافدين كانوا يجلبون الخشب من ايبلا ولقد أكدت نصوص تل مرديخ الحالية على أن كرسي عرش ماري (تل الحريري) كان يصنع في ايبلا ويستدل ذلك من وصل توريد مثل هذا الكرسي الى ملك ماري . كما عثرت البعثة في قاعة عرش قصر تل مرديخ على بقايا خشبية محروقة ومحفورة بأشكال حيوانية تزيينية لعلها كانت جزءا من قطعة اثاث منزلي .

و ـ كانت بعض اللوحات الكتابية المكتشفة في تل مرديخ عبارة عن تقارير مرسلة من قادة جيوش ملك ايبلا وتسرد للملك تفاصيل الوقائع الحربية ونتائجها. ولقد تبين منها أن مملكة ايبلا قد مدت نفوذها العسكري والسياسي الى مناطق واسعة .

ز ـ كان للمرأة شأن كبير في حياة مملكة ايبلا السياسية والاجتماعية . ففي حين لا ياتي ذكر لزوجات ملوك الرافدين في النصوص التي يتحدثون فيها عن احوالهم نجد أن اسم الملكة يسبق ذكر اسم الملك في نصوص تل مرديخ ، وكذلك عرفتنا نصوص تل مرديخ لاول مرة على اسماء زوجات الملوك الآكاديين والآشوريين المعاصرين .

ح ـ تكمن المفاجأة الكبرى بالنسبة لهذا الاكتشاف في التعرف على اللغة المتداولة في المناطق الداخلية من قطرنا خلال النصف الثاني للالف الثالث قبل الميلاد ، فخلافا للتكهنات التي كانت تفترض بأن اللغتين السومرية والاكادية كانتا سائدتين في بلاد الشام ايضا ، فقد ابانت نصوص تل مرديخ ان المفردات المستخدمة بعيدة عن الاكادية وقريبة من الكنعانية .

وتبرز أهمية هذه الحقيقة في انها تؤكد على امتداد جذور الكنعانيين الى اكثر من الالف الثاني والى أبعد من الساحل السوري واللبناني والفلسطيني .

ط ـ كانت حركة التعليم مزدهرة في ايبلا ويستدل ذلك من الكتابات المدرسية واسماء التلاميذ ومدرسيهم المسطرة في اللوحات المكتشفة . كذلك زودتنا نصوص

تل مرديخ باول قاموس يقابل المفردات السومرية بمعانيها الايبلائية المتداولة في ايبلا .

ما من شك أن نتائج الدراسة المقبلة لهذا الكنز الوثائقي الهائل ستلقى أضواء باهرة على تاريخ قطرنا في تلك الحقبة المظلمة .

وفيما يتعلق بعصر سلالة اور الثالثة في نهاية الالف الثالث فان التنقيبات الاثرية في الاونة الاخيرة كشفت عن المزيد من شواهدها المادية ولكنها ما تزال بخيلة جدا بالشواهد الكتابية التي قد تمكننا من تأكيد أو نفي صحة المعلومات الواردة في النصوص الكتابية الرافدية . وتشير الشواهد المادية المكتشفة في تل الحريري (ماري) وفي بعض تلال منطقة غمر السد مثل تل العبد وتل ممباقة وتل حبوبة وتل سلنكحية وتل السويحات وفي بعض المواقع المنتشرة في سهل العمق وفي تل مدينة حماه ان نفوذ سلالة اور الثالثة قد امتد بعيدا نحو الغرب . بيد أن هذه الشواهد الحضارية لاتكفي لرسم نوعية العلاقة السياسية والحضارية رسما دقيقا وواضحا بين هذه المواقع ومملكة اور .

النصف الاول للالف الثاني قبل الميلاد او العهد البابلي القديم

يعتبر الالف الثاني قبل الميلاد اقل غموضا بكثير من الالف السابق له ، فالتنقيبات الاثرية الجارية في مواقع متفرقة من ارجاء قطرنا قد كشفت عن مساحات كبيرة نسبيا من السويات الاثرية التي كانت تغيب في باطنها معالم معمارية هامة وشواهد فنية متنوعة ووثائق كتابية وافرة . ومن أبرز هذه المواقع نذكر :

١ ـ تل الحريري ـ ماري

كشفت البعثة الفرنسية انفة الذكر عن اكبر قصر ملكي في العصور القديمة وكان هذا القصر يتجدد منذ عصر السلالات الاولى حتى عهد الملك زيميرليم ، اخر ملوك مدينة ماري الذي عاصر الملك البابلي حمورابي (منتصف القرن الثامن عشر قبل الميلاد) .

ويتميز هذا القصر بقاعة العرش الفخمة وبباحاته الرحبة وغرفه وصالاته التي بلغت الثلاثمائة . والى جانب التماثيل الحجرية العديدة واللقى الكثيرة من الادوات والاواني الفخارية والحجرية والمعدنية المختلفة ، عثرت البعثة على اضخم ارشيف ملكي من الوثائق المكتوبة بالمسمارية على الرقم الطينية التي تخطى عددها خمسة وعشرين الف رقيم .

لقد عرفتنا محتويات هذا الكنز الوثائقي على مختلف جوانب الحياة اليومية والسياسية واجتماعية والاقتصادية في مملكة ماري وفي الممالك الصغرى والكبرى المجاورة لها خلال النصف الاول من الالف الثاني قبل الميلاد ، كما أصبحنا نعرف الكثير عن مملكة حلب أو يمحاض وعدد من الممالك الاخرى مثل ترقا (تل عشارة) وتولول (تل البيعة قرب الرقة) والمشرفة (قطنة قرب حمص) وايمار (مسكنة على الفرات) .

وتفيدنا وثائق ماري الكتابية وشواهدها الحضارية انه رغم الاستقلال الذاتي الذي كان يتمتع به ملوك هذه المدينة الا أن حضارتهم وثقافتهم كانت رافدية ، فلغتهم هي الإكادية والسومرية وفنونهم التشكيلية مشابهة للفنون الرافدية المعاصرة.

٢ ـ تل مرديخ ـ ايبلا

كشفت البعثة الايطالية التي سبق ذكرها ، عن معالم قصر ومعبدين واحدى البوابات الرئيسية في سور المدينة ، فضلا عن حوضين حجريين تتمتع وجوههما بمشاهد دينية منحوتة . ويستدل من الكتابة التي تزين ظهر جزء من تمثال بازلتي لرجل أن التمثال المذكور هو تقدمة لمعبد الزبة عشتار في ايبلا . بيد أن التنقيبات في هذه السوية لم تكشف حتى الان عن شواهد كتابية قد تزودنا بمعلومات عن الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في ايبلا خلال النصف الاول من الالف الثاني قبل الميلاد .

٣ ـ تل عطشانة ـ الالاخ :

يقع هذا التل على نهر العاصي في سهل العمق (منطقة انطاكية ـ لواءاسكندرون حاليـا) وقامت بالتنقيب فيه من عام ١٩٣٦ حتى ١٩٤٩ بعثة اثرية بريطانيـة برئاسة وولي وكشفت عن سبع عشرة طبقة اثرية تمتد من الالف الرابع حتى القرن الثاني عشر قبل الميلاد . وعرفتنا المكتشفات على مملكة الالاخ التي كانت قائمـة في هذا المكان . وفيما يتعلق بالنصف الاول للالف الثاني قبل الميلاد قد زودتنـا نتائج التنقيب في هذا التل بوثائق كتابية هامة وبنموذج معبد وقصر يرقى الـى منتصف القرن الثامن عشر قبل الميلاد ووصلت ابعاد القصر من عهد الملك ياريليم الى ١٥ × ٩٠ مترا ويذكرنا مخطط القصر بالقصر الملكي في كنوسوس في جزيرة كريت .

كانت الالاخ عاصمة لمملكة موكش التي تضم منطقة سهل العمق وأول ملـك تعرفنا عليه النصوص المسمارية التي عثرت عليها البعثة البريطانية هو ياريليـم

الذي كان تابعا سياسيا لملك حلب . ويبدو أن الالاخ قد حظيت بمكانة هامة لوقوعها على طرق التجارة بين حلب والاناضول والبحر المتوسط . وتعتبر النصوص المسمارية المكتشفة في الالاخ المصدر الرئيسي الثاني بعد نصوص تل الحريري لمعلوماتنا عن مملكة حلب ـ يمحاض .

النصف الثاني للالف الثاني قبل الميلاد

لعل هذه الفترة من افضل الفترات التاريخية الموثقة بالشواهد الحضارية والكتابية الوافرة . ولقد شهد القطر العربي السوري خلالها احداثا مثيرة حولته الى حلبة صراع بين الدول الكبيرة المجاورة له كالصراع الحثي ـ المصري والحثي ـ الاشوري ، كما عرف قطرنا اعنف مأساة حضارية وسياسية تجلت في غزو شعوب البحر للبلاد في حوالي عام ١٢٠٠ قبل الميلاد . ولقد سبب هذا الغزو دمار ونهاية معظم الممالك والامصار التي ازدهرت على الساحل وفي المناطق الداخلية مثل اوغاريت والالاخ وقطنة وقادش .

ومن ابرز المواقع التي زودتنا اعمال التنقيب الاثري الجارية فيها بشواهد مادية وكتابية على هذه الفترة نذكر :

١ ـ راس الشمرة ـ اوغاريت :

يقع تل راس الشمرة على بعد حوالي ٧ كليو مترات الى الشمال من اللاذقية ، وتقوم بالتنقيب الاثري فيه منذ عام ١٩٢٩ بعثة أثرية فرنسية برئاسة الاستاذ كلود شيفر (حاليا برئاسة جان مارغرون) . ولقد حققت هذه البعثة اكتشافات أذهلت الاوساط الاثرية والتاريخية في العالم .

ومن ابرز تلك المكتشفات نذكر : الابجدية الاوغاريتية التي تعتبر الاولى من نوعها في تاريخ البشرية (القرن الرابع عشر قبل الميلاد) بالاضافة الى العديد من الرقم المسمارية التي تدون الاحداث السياسية وتسرد الحياة اليومية وتسلط الاضواء على الممارسة الدينية وتسجل المعاملات الاقتصادية والعقود التجارية . كذلك فقد كشفت أعمال التنقيب عن القص الملكي الكبير البالغة مساحته حوالي الهكتار وعن عدة معابد دينية بالاضافة الى احياء بكاملها . وفي ضوء المكتشفات المتنوعة اصبحنا نعرف أن مدينة اوغاريت كانت عاصمة لمملكة صغيرة على الساحل ولقد عمها الازدهار الاقتصادي بفضل علاقاتها التجارية مع الجزر الايجية وبلاد

الاناضول ومع مصر وبلاد الرافدين وكانت غالبية اهاليها من الساميين الغربيين الذين نعرفهم باسم الكنعانيين .

هذا وتعتبر النصوص الكتابية المكتشفة في راس الشمرة من جملة المصادر الرئيسية التي نستقي منها معلوماتنا عن مملكة حلب ـ يمحاض المعاصرة لها .

٢ ـ تل النبي مند ـ قادش القديمة

يقع هذا التل على بعد حوالي عشرين كيلو مترا الى الجنوب الغربي من حمص وهو يطل على نهر العاصي بالقرب من بحيرة قطينة . ولقد قامت بعثة اثرية فرنسية برئاسة الاستاذ بيزار بالتنقيب فيه خلال عام ١٩٢١ وكشفت عن منشات معمارية ولقى اثرية ترقى الى النصف الثاني من الالف الثاني قبل الميلاد ، كما عثرت البعثة على رقم مسمارية أكدت محتوياتها على أن هذا التل يضم في ثناياه مدينة قادش التي ذكرتها النصوص الحثية والمصرية القديمة في صدد المعركة العسكرية الفاصلة بين المصريين والحثيين .

وكان من جملة المكتشفات العثور على شاهدة حجرية منحوتة للملك المصري سيت الاول .

وعلى الرغم من الاهمية البالغة التي يتمتع بها هذا التل فقد توقف التنقيب فيه بعد عام ١٩٢١ وبقي الموقع في طي النسيان الى ان تقدمت في عام ١٩٧٥ بعثة اثرية بريطانية لاستئناف التنقيب في هذا المكان الذي يبشر بالعطاء الاثري والفيض التاريخي .

٣ ـ تل عطشانة ـ الالاخ

كشفت البعثة الاثرية البريطانية التي سبق ذكرها عن طبقة اثرية ترجع الى النصف الثاني من الالف الثاني قبل الميلاد . ولقد بينت النتائج آنذاك أن الالاخ قد احتلت مكانة بارزة خلال هذه الحقبة . ومن ابرز المكتشفات نذكر : القصر الملكي الذي بناه الملك نقميبا في منتصف القرن الخامس عشر وتمثال الملك ادريمي ثم العديد من الرقم المسمارية ذات الاهمية التاريخية البالغة .

٤ ـ تل المشرفة (قطنة)

يقع هذا التل على بعد حوالي ١٨ كيلو مترا الى الشمال الشرقي من حمص

وقامت بعثة أثرية فرنسية برئاسة الكونت دو بويسون بالتنقيب فيه خلال سنوات ١٩٢٤ و ١٩٢٧ وكشفت عن سور مدينة من الالف الثاني قبل الميلاد كما أظهرت معالم معبد الربة الرافدية نينكال وعثرت على عدد قليل من الرقم المسمارية التي اكدت محتوياتها على أن هذا التل يحتضن مدينة قطنة التي ذكرتها النصوص المسمارية الرافدية والمصرية والحثية .

وبالرغم من النتائج الطيبة التي خرجت بها البعثة في هذا الموقع الا أن التنقيب فيه قد توقف منذ ١٩٢٧ ونحن لانزال نستغرب تردد الاثريين لاستئناف التنقيب في عاصمة مملكة شغلت مكانة مرموقة في أحداث العالم القديم وبخاصة خلال النصف الثاني للالف الثاني قبل الميلاد .

النصف الاول من الالف الاول قبل الميلاد

لقد اندثرت معظم الممالك المذكورة آنفا في أعقاب غزو شعوب البحر في القرن الثاني عشر قبل الميلاد ولايزال قطرنا يعاني من صمت المصادر التاريخية وخلو الطبقات الاثرية من الدلائل والعينات المادية التي قد تمكننا من رسم الصورة التاريخية والحضارية التي آل اليها القطر بعد ذلك التاريخ الحاسم ، فشعوب البحر لم يخلفوا لنا في المواقع التي جرى التنقيب فيها الا طبقات من الرماد الملفح باتربة القرون الطويلة .

بيد أن ممالك جديدة تكونت وازدهرت منذ القرن التاسع قبل الميلاد ولقد أعانتنا نتائج التنقيب في المواقع التي سنتحدث عنها على التعرف على بعض أوجه التاريخ السياسي والحضاري لقطرنا بعد ذلك الصمت الذي دام لعدة قرون .

لقد خلف الفينيقيون أجدادهم الكنعانين في الساحل واستطاع الآراميون القادمون من الجزيرة العربية تأسيس ممالك عديدة في المناطق الداخلية من قطرنا وفي بعض مناطق الجزيرة ، وانبعثت امارات حثية من جديد في المناطق الشمالية من القطر .

١ ــ تل رفعت

يقع هذا التل على بعد حوالي ٣٥ كم الى الشمال من حلب وقامت بالتنقيب فيه عام ١٩٦٠ بعثة اثرية بريطانية وأكدت نتائج التنقيب على أن هذا الموقع يغيب

في باطنه مدينة ارباد عاصمة مملكة بيت عجوزي الآرامية كما عرفتنا الشاهدة الحجرية التي جلبها تجار الاثار من قرية السفيرة في جنوب حلب والمشفوعة بكتابة ارامية قديمة ، على معاهدة سياسية عقدها ملك ارباد في منتصف القرن الثامن قبل الميلاد مع الملك بارغاياه .

وتعتبر محتويات هذه المعاهدة مصدرا هاما لتاريخ القطر في عهد الملك تيغلات فيلصر الثالث (•)

٢ ــ تل حماه

عرفتنا التنقيبات الدانمركية التي جرت في حماه على شواهد مادية وكتابية تسلط الاضواء على المكانة التي شغلتها حماه في ظل الامارات الحثية الجديدة والدور البارز الذي لعبته المدينة عندما اصبحت أحد أكبر الممالك الارامية منذ القرن التاسع الى أن تحولت الى ولاية اشورية سنة ٧٢٠ قبل الميلاد ، وتجدر الاشارة الى ان اسم مدينة حماه معروف في الوثائق الكتابية منذ الالف الثاني قبل الميلاد (•)

٣ ــ تل حلف ــ غوزانة

يقع هذا التل عند منابع نهر الخابور ويبعد حوالي خمسة كيلو مترات الى الجنوب الغربي من بلدة رأس العين . وقامت بالتنقيب فيه بعثة أثرية ألمانية برئاسة ماكس فون اوبنهايم . وتعتبر هذه العملية أقدم عملية تنقيب أثري في القطر (•)

لقد أسفرت التنقيبات عن كشف قصر فخم من العهد الارامي ، وعرفتنا المكتشفات على اسم الملك كبارة كما اكدت الكتابات المكتشفة على أن تل حلف ماهو الا مدينة غوزانة التي كانت مركزا لولاية اشورية في سنة ٨٠٨ قبل الميلاد . بيد أن أعمال التنقيب لم تكشف الا عن القليل من الشواهد الاشورية .

نقلت البعثة الاثرية الالمانية معظم التماثيل والمنحوتات الحجرية الضخمة التي كانت تزين القصر الملكي الى برلين ، وخصصت لها قاعة كبرى في متحف الدولة ببرلين ، بيد أن قنابل الحرب العالمية الثانية لم ترحم المباني الثقافية وشاءت أحد القنابل التي سقطت في قلب القاعة أن تحول التماثيل البازلتية الضخمة الى شظايا صغيرة متناثرة . ولحسن الحظ أن البعثة نفسها قد تركت

في حلب قوالب جصية لكافة التماثيل التي نقلتها الى برلين ، وبفضل هذه القوالب تمكنت المديرية العامة للآثار والمتاحف من صب التماثيل لتزين بهـا مدخل متحف حلب الجديد .

٤ ـ اسلان طاش :

يقع هذا التل الى الشرق من طرابلس ولقد قامت بعثة اثرية فرنسية برئاسة تورود دانفان بالتنقيب فيه عام ١٩٢٨ ، واسفرت النتائج عن كشف مدينة مسورة وعن قصر للملك الاشوري تغلات بيلصر الثالث (٧٤٥ ـ ٧٢٧ قبل الميلاد) وعن معبد تابع للقصر نفسه ، كما أكدت التنقيبات على أن هذا التل يضم مدينة حداتو القديمة . ومن جملة المكتشفات نذكر بقايا زخرفية مصنوعة من مادة العاج ومنفذة باسلوب فينيقي .

٥ ـ تل برسيب :

يقع هذا التل على الشاطىء الايسر من نهر الفرات والى الجنوب من جرابلس ولقد قامت بعثة اثرية فرنسية برئاسة كل من توردو دانفان ودونان بالتنقيب فيه عام ١٩٢٩ حتى ١٩٣١ ـ وكشفت اعمال التنقيب عن قصر اشوري يرجع تاريخه الى منتصف القرن الثامن قبل الميلاد ، وعثرت البعثة فيه على رسوم جدارية ملونة تمثل مشاهد ملكية اشورية وعلى انصاب منقوشة بكتابات حثية هيروغليفية .

كان تل برسيب في مطلع القرن التاسع قبل الميلاد عاصمة لمملكة بيت عديني الارامية ثم اصبحت في ظل الحكم الاشورى منـذ ان فتحها الملـك شلمانصر الثالث (٨٥٨ ـ ٨٢٤ ق.م) . ولقد عثرت البعثة على نصب حجري باسم الملك اسرحدون (٧٨٢ ـ ٧٧٢) وعلى نصب اخر باسم والي شلمانصر الرابع (٧٨٢ ـ ٧٧٢ق.م) .

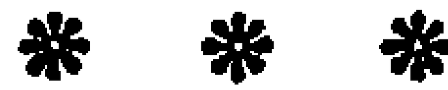
لقد شبهنا فيمطلع مقالتنا هذه نشوء الصورة التاريخية .والحضارية لقطرنا بلوحة فسيفسائية ونود أن نختتم هذه العرض بالاشارة الى أن مدارس البحث التاريخي والحضاري كانت في الماضي تكتفي بابطال الاحداث السياسية او العسكرية او الدينية لملء الصورة التاريخية والحضارية لمنطقة ما .

فنحن في اكثر الاحيان لا نعرف الا تاريخ الملوك والقادة والولاة والحكام ولكننا لا نعرف الا النذر اليسير عن تاريخ الرعية .

كما اننا احيانا لا نعرف شيئا عن مظاهر الحياة اليومية للعامة مـن الناس أو تركيبهم الاجتماعي او طرق معيشتهم او ماهية مصادر رزقهم .

ان صورة من هذا النوع تشبه الى حد كبير مشهد الفسفساء الـذي يمثل الامبراطور البيزنطي جوستينيان والامبراطورة تيودورا أمام خلفية ذهبية خرساء . اننا نريد صورة يتقدم فيها الخاصة والعامة على السواء امام خلفية ذاهية أو عاتمة للبيئة التي عاشوا فيها ولمظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التـي خلقتها فعاليتهم .

بيد ان التنقيب الاثري في قطرنا وفي اقطار اخرى من العالم لم ينج من مثل هـذه الاساليب القديمة في البحث العلمي ونحن لا نزال نملك امثلة على منقبين اثريين اكتفوا بالكشف عن القصر والمعبد وتركوا المنازل والبيوت والاكواخ والشوارع والازقة مغيبة.



ذاكرتهم في تسجيل احداث عصرهم والاحداث التي سبقتها وبالتالي عدم اعتمادهم على الكتابة . سادسا : اقتصار التاريخ العربي القديم على روايات وضعها الوضاعون في الجاهلية أم في الاسلام لمآرب اقتضتها عواطف أو مؤثرات خاصة ، فدخل التاريخ في الاسطورة ولم يعد بالامكان التفريق الا بصعوبة بين التاريخ كأسطورة نصدقها وبين الاسطورة كتاريخ لا نصدقه .

وكأي من التواريخ القديمة الاخرى تقسم المصادر عن تاريخ العرب القديم الى قسمين ، أولهما : المصادر الكتابية وهي متعددة ، وثانيهما : الآثار والنقوش .

أولا ــ المصادر الكتابية :

ويمكن تقسيم المصادر الكتابية بدورها الى اقسام ثلاثة ، تأتي في مقدمتها الكتابات المقدسة ، وتليها في الاهمية اشعار العرب القدامى أو اشعار الجاهلية ، وتأتي ثالثا الكتابات القديمة .

١ ــ الكتابات المقدسة: وأهمها القرآن الكريم والتوراة ويتصل بهما الحديث الشريف والتلمود .

والقرآن الكريم ، كلام الله الذي يتصف بصفتين فريدتين متميزتين عن أي مصدر تاريخي آخر ، فهو رغم قدمه لم يتطرق اليه تحريف أو تبديل على مر العصور ، ومن جهة أخرى هو كلام الله المنزل الذي لا يرقى اليه شك . ويبدي بعض المؤرخين (الغربيين على وجه الخصوص) اعتراضا على قيمة الحادثة التاريخية التي يرويها القرآن الكريم من الناحية التفصيلية ، على أساس ان القرآن الكريم لايستهدف أعطاء معلومات تاريخية بقدر ما يهدف الى عرض امثلة يستفاد منها العبرة والموعظة ، ويستدلون على هذا بأن معظم اشارات القرآن الكريم التاريخية مقتضبة وعابرة يختلط فيها الحدث بالعرض التربوي له . ويرد بعض الباحثين(٢) على اتهام المؤرخين السابقين بأن اشارات القرآن العابرة لا يمكن ان ينتقص من أهميتها لسببين، الثاني منهما يتعلق بالمضمون ، والاول شكلي ، وهو ان مصادر اي تاريخ تعتبر وحدة متكاملة تساعد على استكمال الحقيقة التاريخية ، وقد يحصل احيانا ان ينير لنا سطر واحد او حتى عدة كلمات من سطر طريقنا الى نقطة غامضة في تاريخ ما ، أو يقدم لنا تصورا جديدا ، او يستكمل لنا معلومة ناقصة .. الخ . ويمكن ان يضاف الى ذلك انه ليس من الضروري أبدا ان يكون اي مصدر سجلا مباشرا للاحداث والمواقف ، حتى انه في هذه الحالات قد يكون عرضة للتردي في الخطأ . وفي بعض الحالات يكون

الاستنتاج غير المباشر السبيل الوحيد أمام الباحث ، الذي يكمن دوره (وبخاصة في مجالات التاريخ القديم) في استخلاص اقرب ما يكون الى الحقيقة التاريخية ضمن الاطار المعروض له أو الصورة التي وصلته .

ولا ينتقص من اهمية اشارات القرآن الكريم من ناحية المضمون ، اذ أن هذه الاشارات اضافة الى قدسيتها تطلعنا — ولو بشكل مختصر — على عدد كبير من الاحداث والمواقف الخاصة بالمجتمع العربي قبل الاسلام أو المعاصرة لبدء انتشاره او السابقة لها . وهكذا يقدم لنا القرآن الكريم انفعال هذا المجتمع بهذه الاحداث والمواقف . وكذلك يعطينا القرآن الكريم في محاولته تصحيح هذه المواقف فكرة عن الاوضاع والممارسات والدوافع التي من أجلها تمسك ذلك المجتمع بعاداته وتقاليده ، ومن ثم يحصل المؤرخ من واقع اشارات القرآن على صورة الصراع الذي شهده المجتمع العربي في نهاية الجاهلية بين اسلوبين من اساليب الحياة العربية ، الاسلوب الجاهلي والاسلوب الاسلامي الباكر .

وواقع الامر فقد تعرض القرآن الكريم لاحوال كثيرة من الجماعات التي عاشت في الجزيرة العربية قبل الاسلام مثل عاد وثمود وسبأ وقريش (٣) ، بشكل مكن بالاستعانة ببعض المصنفات الكلاسيكية وأشهرها كتابات (بطلميوس وبلينيوس واسترابون (٤) من تحديد أماكن اقامتها بشكل دقيق . وهذا ما ينطبق اكثر ما يكون على عاد وثمود (٥) وبشكل أقل على سبأ (٦) التي يحدثنا القرآن الكريم عن سدها العظيم الذي سمي على اسم عاصمتها (مأرب) والذي تحطم اثر تصدعات متعاقبة وبنتيجة سيل عظيم(٧) . كما يخبرنا القرآن الكريم بعض المعلومات السياسية ، مثل زيارة المجاملة الخارجية التي قامت بها ملكة سبأ (والمعتقد بأنها سبأ الشمالية) بلقيس للملك سليمان (ملك يهوذا في القرن العاشر (٨) لتأكيد حسن الجوار وخشية قيام ملك يهوذا بتدبير اقتصادي يحرم سبأ عوائد تجارة الترانزيت التي اشتهرت بها وقتذاك على حد تفسير معظم المؤرخين المعاصرين .

ومن خلال تعرض القرآن الكريم لاحوال الجماعات العربية القديمة يعرفنا بكثير من جوانب الحياة الاجتماعية وبشكل خاص العلاقات بين سكان المدن التجارية وسكان البوادي . ويؤكد مثلا أن مكة كانت احدى أهم المدن ذات الصبغة الدينية الى جانب التجارية ، وان هذه المدينة زهت أيام مجدها بأن قاطنها كان يتمتع بنوع من الامن نظرا للصفتين السابقتين(٩) ، واللتين كانتا تكرسان باستمرار عن طريق الايلافات (الاتفاقات) التي كانت تعقدها قريش اشهر قبائل المدينة المكرمة مع قبائل اخرى(١٠) .

ويرد في القرآن الكريم استعراض شبه تفصيلي للوضع الاجتماعي في (يثرب) والصراعات التي دارت قبل وصول النبي الكريم اليها وطبقاتها الاجتماعية واصول سكانها . وفى الحديث عن الاعراب الذين يقطنون البوادى (١١) أو بالقرب من

لاحاديث صحيحة مئة بالمئة واردا ولكن مع امكانية ابطال العمل بها زمن الرسول بموجب حديث آخر لم يذكر ضمن هذه الاحاديث لسبب ما . فاذا أضفنا الى ذلك ان فترة القرنين الاولين للهجرة ــ وهي الفترة التي لم تسجل فيها الاحاديث وانما رويت فقط ــ قد شهدت بروز أبرز التيارات والنزعات السياسية التي بررت وجودها بدعاوى دينية ، فان ذلك يدفعنا الى الحذر في الاعتماد على مرويات الحديث التاريخية ، وتأييد بعض كبار مؤرخينا فيما ذهبوا اليه وهو اننا لا نستطيع الاعتماد على الحديث تاريخيا الا في حالة كونه موافقا لما ورد في القرآن الكريم(١٥) .

وتعتبر التوراة والتلمود بعد القرآن الكريم والحديث الشريف ، أهم مصدرين مقدسين عن تاريخ العرب القديم . والتوراة كما هو معروف كتاب اليهود المقدس ، وهو عبارة عن مجموعة من الاسفار كتب معظمها في فلسطين جماعة من انبياء اليهود في أوقات مختلفة . وكتب بعضها الآخر جماعة اخرى في العراق أيام سبي بابل . وتختلف التوراة في قيمتها التاريخية عن القرآن الكريم في انها مرت بفترة رواية شفهية طويلة تصل احيانا الى ثلاثة قرون قبل البدء بكتابتها لدرجة حفزت بعض المذاهب اليهودية والمسيحية الى عدم الاعتراف ببعض الاسفار . والتلمود ، هو مجموعة من الشروح والاحكام التطبيقية المكملة للتوراة ، وقيمة المصدرين بعد الاخذ بعين الاعتبار تأخر تدوينهما هي انهما يعطياننا فكرة عن علاقة العبرانيين بالعرب المجاورين في الحجاز أم في سورية ، اضافة الى معاصرة احداثهما فترة الجاهلية الباكرة . ورغم ان معلوماتهما عن العرب تبدو في كثير من الاحيان موجزة لدرجة لا يتمكن معها الباحث الا الاعتماد على المصادر الاخرى كالاثار والنقوش والكتابات الكلاسيكية لاستخلاص شواهد تاريخية مكتملة ، الا انهما يعطيان فكرة معقولة عن عقائد العرب وعاداتهم من التي لانجد لها ذكرا في مصادر اخرى .

٢ ــ **اشعار العرب القدامى** : ورغم العلاقة الوثيقة بين التاريخ وكل أنواع الادب التي يؤكدها عدد كبير من المؤرخين ، يطرح مؤرخون آخرون سؤالا مفاده : كيف يمكن للمؤرخ ان يعتمد على الشعر كمصدر تاريخي(١٦) وهو الذي تدخل فيه بالضرورة كل مقومات العواطف والمغالاة والتصورات والانطباعات الفردية التي قد تصل فيها درجة الخلاف بين شاعر وآخر الى حد التناقض ، وهذه حقيقة لا يمكن نكرانها اطلاقا . ولكن مع ذلك يمكن القول ، ان المفهوم المعاصر لدراسة التاريخ لم يعد يهدف فقط الى التعرف على حياة الافراد ، اذ لا يمكن تصور افراد معينين بمعزل عن مجتمعاتهم ، ومهما أوتي هؤلاء الافراد من كفايات وامكانيات خارقة لا يستطيع هؤلاء دون تجاوبهم مع ظروف مجتمعاتهم زمنا وامكانات، تعديل او تغيير هذه المجتمعات . ولما كان من واجب المؤرخ تناول ظروف اي مجتمع يقوم على درسه

من النواحي الاقتصادية والاجتماعية لا يجوز بالتالي ان تقتصر دراسة اي مؤرخ لاية حقبة زمنية على الوثائق الرسمية او المعلومات التي يدونها كبار القوم عن مسار حيواتهم . ولما كان الشعراء جزءا من مجتمعاتهم ، ولما كانت تعابيرهم الشعرية تعكس المعاناة الذاتية أو الانطباعات الشخصية لكل واحد منهم وتتم هذه في اطار تجاربهم ، فان من باب المستحيل الاعتقاد أن الشعر لا يتضمن شواهد تاريخية حقيقية فعلا . واذا كان معظم ان لم يكن كل الشعراء يبالغون أو يتخيلون في تقديم هذه الصور، فان من بدهيات عمل المؤرخ الا يسلم الا بما لا يتعارض مع المنطق السليم للامور وعليه ان يستنبط من اشعارهم ما لم يكتمل عنده من معلومات تاريخية بعد تجاوز اي مبالغة او تخيل او انفعال .

ويمكن ملاحظة ما سبق ذكره في بعض التوجهات العامة للمجتمع التي يمكن استخلاصها من واقع الشعر الجاهلي وبخاصة القيم التي تحكم هذا المجتمع وطبيعة تصوره لها . ولعلنا لا نستطيع أن ندرك كثيرا من علاقات المجتمع الجاهلي القبلية ان لم تكن نعرف تصور هذا المجتمع لعديد من القيم قد لا تكون مستساغة في مجتمعاتنا المعاصرة مثل معنى الشرف ورابطة العصبية وممارسة الثأر ، وكذلك بعض الدوافع التي تساعدنا على تبرير تصرفات معينة ، ويظهر هذا في شعر البكاء على الاطلال الذي ابتكره عدد من العشاق العرب والذي يرينا مقدار الضغط الاقتصادي الذي يضطر احيانا الشاعر الى التضحية بجوار الحبيبة ــ وهو أمر يقرب الى الموت في تصوره ــ لقاء تأمين لقمة العيش لنفسه والكلأ لقطعانه(١٧) . ومن خلال هذه الاشعار يعرفنا الشعراء ببعض الامور التي لا دخل للمبالغة أو التخيل فيها نظرا لكونها جزءا من الحياة اليومية ، مثل الحيوانات وانواعها وأشكالها وافضلها ، والملابس وافخرها واحسنها والبيوت والخيام وأكبرها ومواصفاتها والآلهة واعظمها واجلها والطقوس وطرق ممارساتها ، والاماكن واكثرها شهرة والطرق واطوالها واكثرها أمنا والاسواق والمواقع وغير ذلك من تفاصيل الحياة اليومية .

٣ ــ **الكتابات القديمة** : وهي كثيرة وان كانت كثرتها لا تتناسب طردا مع المعلومات عن جاهلية العرب أو تاريخهم القديم . وتقسم هذه المصادر الى مجموعتين الاولى : كتبها كتاب الاغريق والرومان الذين عاصروا العرب في جاهليتهم وتدعى بالمصادر الكلاسيكية ، والثانية : كتبها كتاب العصور الاسلامية المختلفة ، وهذه بالضرورة تعتمد اما على المصادر الكلاسيكية ذاتها أو على ما تخلف في ذاكرة النسابين من معلومات تاريخية .

آ ــ الكتابات الكلاسيكية : ويقصد بالكلاسيكية كل الكتابات التي كتبت قبل

الاسلام باحدي اللغتين اليونانية القديمة او اللاتينية ، وهي على ما احتوته من اخطاء ذات قيمة تاريخية كبيرة لانها تضمنت معلومات تاريخية وجغرافية وعن بعض القبائل لا نعلم عنها شيئا من مصادر أخرى .

ويعتقد بأن أول اشارة الى مجتمع شبه الجزيرة العربية وردت في (أوديسة هومروس) (القرن التاسع ق.م) ، وقد تتابعت الاشارات المقتضبة بعد ذلك في شعر (هسيود) (القرن الثامن ق.م) وبعد ذلك في بعض مسرحيات (ايسخولوس ؛ (القرن الخامس ق.م) . وتعطي هذه الاشارات المقتضبة دلالة تاريخية مفادها أنه لم يكن بين العرب وبلاد الاغريق اتصال مباشر . بيد ان اول ذكر مفصل عن بلاد وتاريخ العرب القديم في المصنفات الكلاسيكية ورد عند (هرودتوس) (القرن الخامس ق.م) الذي عرف كلمة (ارابيا) على انها اقصى البلاد المأهولة في العالم من ناحية الجنوب (١٨) ، وضمنها اضافة الى شبه الجزيرة العربية كلا من بادية الشام وسيناء وصحراء مصر الشرقية . وباستثناء بعض المبالغات التي وردت في كتابات هرودتوس والتي يمكن تبريرها بأن مؤرخنا الكبير قد اعتمد فيها على الرواية ، وانه رغم حرصه على نقد رواياته ومحاكمتها لم يتمكن ان يكون في نجوة من الافكار الساذجة التي سادت عصره ، فان معظم ما أورده هرودتوس من معلومات تعتبر نموذجية ــ في تقديرنا ــ لفترة روايتها . ويتحدث فيها كما اسلفنا عن الموقع والتربة والمنتجات والعادات والتقاليد والعقائد والالبسة العربية ، وقليلا عن تاريخ العرب وعلاقاتهم بجيرانهم(١٩) .

ورغم الاهمية التي يعلقها المؤرخون على معلومات هرودتوس ، تبقى بدون شك معلومات موسوعية تعنى بالقضايا العامة على حساب المعلومات التفصيلية . ولم يظهر الاهتمام بهذه النواحي حتى العقد الثالث من القرن الرابع ق.م في نهاية حملة الاسكندر الشرقية . حيث تخبرنا مصادرنا ان الاسكندر الذي قضى عام (٣٢٣ق.م) كان قبل وفاته مباشرة يضع الخطط العسكرية لغزو بلاد العرب ، وكان قد ارسل بعض ضباطه للتعرف على مساحة هذه البلاد وسكانها وأمور اخرى كان يجهلها ، ولكن القدر أنكر عليه تحقيق هذه الامنية ومات دون تحقيقها . وقد دون هذه المعلومات اثنان من مرافقيه القائد بطلميوس (Ptolemy) (ملك مصر لاحقا) واريستوبولوس (Aristobulos) (مؤرخ حملة الاسكندر) اللذين خلفاهما بدورهما الى كاتبين هما استرابون (Strabon) (٢٠) (٦٤ ــ ١٢ ق.م) . وأريانوس (Arrianus (٢١) (القرن الثاني ميلادي) وكاتب ثالث من فترة اقدم اهتم بالتاريخ الطبيعي اكثر هو ثيوفراستوس (Theophrastos) (٣٧١ ــ ٢٨٧ ق.م)(٢٢) .

ويبدو انه مع استقرار الامور السياسية في العصر الهلنستي (٣٢٣ – ٣١ ق.م) وارتباط المصالح الاقتصادية ـ التجارية منها على وجه الخصوص ـ لاقوى دولتين معاصرتين دولة السلوقيين في سورية ودولة البطالمة في مصر مع شبه الجزيرة العربية بدا اهتمام تفصيلي ملحوظ بالجزيرة العربية وسكانها واحوالهم . وبرز في هذا المجال ثلاثة كتاب رئيسيين : اراتوسثنس (Eratosthenes) (٢٧٥ – ١٩٤ ق.م) واجاثارخيدس (Agatharchides) (نهاية القرن الثاني وبداية الاول ق.م) وأرتميدوروس (Artemidoros) (نهاية القرن الثاني وبداية الاول ق.م) . وتعتبر كتابات اراتوسثنس اول كتابات علمية عن الامور الاقتصادية للمنطقة العربية ، وفيها قسم المنطقة الى قسمين صحراوي وزراعي ، وسكانها الى بدو وفلاحين واقوامها الى معنيين (Minaioi) وسبأيين (Sabaioi) وقتبانيين (Katabaneis) وحضارمة (Chatramotitae) ، وذكر ان أهم مدنها التجارية كانت (ايله) على خليج العقبة و (جرها) على الخليج العربي ، وغير ذلك من المعلومات الاقتصادية(٢٣) .

ويصف اجاثار خيدس وهو اغريقي من الاسكندرية في كتابه « الطواف حول البحر الارتيري (الاحمر) » سواحل الجزيرة العربية الغربية . وقد اعتبر كتابه في عرف ذلك العصر دليلا للتجارة والتجار ، اذ تعرض الى أهم مواصفات السواحل وخطورتها واهم مدنها والتخصصات التجارية لكل مدينة . ويسهب في ذكر ما يتعلق بمنطقة سبأ ومواردها وحياتها الاجتماعية الباذخة(٢٤) . ويعطي ظهور هذا الكتاب دلالة مفادها توطد النشاط التجاري بين دول العالم الهلنستي والمنطقة العربية لدرجة اصبح مألوفا أو بالاحرى مطلوبا توافر مثل هذه الكتب الثقافية والعلمية في الوقت نفسه .

وتعتبر كتب ارتميدوروس الجغرافية الاحد عشر من أبرز الكتب المعاصرة التي تعرضت الى شؤون الجزيرة العربية ، ورغم انه اعتمد على منجزات من سبقه بصورة رئيسة الا انه اضاف اليها معلومات وتفاصيل جديدة عن مناطق البحر الاحمر ومراكز التجارة العربية في الرافدين والبتراء وطرق انتقال التجارة والعلاقات بين القبائل التي عملت في التجارة في المنطقة العربية(٢٥) .

ومع بداية الفترة الرومانية وبخاصة العصر الامبراطوري (٢٧/٣١ ق.م) تزايد الاهتمام بشؤون الجزيرة العربية ، ويعزو المؤرخون(٢٦) هذا الاهتمام المتزايد لاسباب ثلاثة أولها : مجاورة الحدود الشرقية للامبراطورية بلاد العرب ، وثانيها : رغبة الرومان في تأمين الخط البحري للتجارة الشرقية بعد تهديد البارثيين (Parthians) لمعظم الخطوط البرية التي كانت تتجمع في بابل وتنطلق نحو الغرب ،

وعلى مستوى التخصص ظهر نوع جديد من الكتابات العلمية بداها الرياضي والفلكي والجغرافي كلوديوس بطلميوس (C. Ptolemy) المعروف عند العرب باسم بطلميوس القلوذي (١٢١ ـ ١٥١ م) وقد خلف لنا بحثا بعنوان (الدليل الجغرافي) ارفقه بخارطة . وتعتبر محاولة بطلميوس لضبط الحدود والتقسيمات والاماكن في بلاد العرب عن طريق اعتماد خطوط طول وعرض وهمية اهم ما يسترعي الانتباه في الدراسة والخارطة . ومع ان خطوط عرض وطول خارطته لا تشابه الخطوط المعتمدة في الخرائط المعاصرة بسبب تحريف وقع فيه النساخ المتعاقبون كما يعتقد بعض المؤرخين المعاصرين ، ومع ان خارطة بطلميوس اغفلت المنطقة الشمالية الشرقية من بلاد العرب بين خطي عرض (٣٣ ـ ٣٥,٥) شمالا ولم تسجل فيها اية احداثيات في حين كدست في القسم الجنوبي من الخارطة عددا من المواقع بعضها لا تمت الى

البرابرة ، وثالثها : نشر الديانة المسيحية . واصبح الكلام عن العرب ينحصر في نطاق التعرف على العرب المقربين من الامبراطورية الرومانية الشرقية وهم (الغساسنة) ومن يلوذ بهم وعلى العرب المناوئين لهم في حماية الفرس وهم (المناذرة) ومن يؤيدهم . وضمن هذه الرؤية الجديدة ظهر عدد من الكتاب منهم يوسبيوس (Eusebios) من قيسارية في فلسطين (بداية القرن الرابع الميلادي) . الذي تحدث عن بلاد العرب وكان يعني بها المنطقة المجاورة لسورية القديمة ، وان كان قد صب جل اهتماماته حول أمور انتشار المسيحية بين الاعراب ومدى تأثرهم بها أو معاداتهم لها(٣٤) .

على ان أفضل كتاب هذه الفترة اميانوس ماركلينوس (A. Marcellinus) الانطاكي السوري (القرن الرابع) الذي كتب كتابا من واحد وثلاثين فصلا بعنوان (التواريخ) غطى فيها الفترة من (٩٦ ــ ٣٨٧ م) ولكن لم يصلنا من هذه الفصول الا ثمانية عشر فصلا تغطي الفترة من (٣٥٣ ــ ٣٧٨ م) وهي فترة قصيرة نسبيا ولكنها تعتبر في نظر المؤرخين قيمة جدا لسببين أولهما : ان كاتب احداثها عاصرها وشارك في صنع بعض احداثها نظرا لكونه واحدا من قادة الحملات العسكرية التي وجهت ضد الفرس ، وثانيهما : طريقة ماركلينوس الموضوعية في كتابة الاحداث المعاصرة . وان كانت موضوعيته هذه لم تحل دون وقوعه في بعض الاخطاء او التعميمات أو المبالغات التي منها ان العرب كانوا يشربون من دماء اعدائهم ، او ان العرب يعطون نساءهم حرية المفارقة بعد فترة زمنية محددة من الزواج ، أو انه كان يوجد في الجزيرة العربية عدد كبير من الانهار والجداول ، وربما التبس على مؤرخنا أمر الوديان التي كانت تمتلىء بالمياه في مواسم الامطار(٣٥) .

ويعتبر بروكوبيوس (Prokopius) آخر أشهر المؤرخين الكلاسيكيين ، وهو من مواليد فلسطين ، واحد المقربين من الامبراطور يوستنيانوس الاول ، وكان قد عين في عام (٥٢٧ م) مساعداً لاحد القادة ، وتدرج بعدها في مناصب الدولة العسكرية والمدنية حتى اصبح امينا (محافظا) لمدينة القسطنطينية عام (٥٦٢ م) . وقد أفاد من خبراته في كتابة مؤلفه الاشهر (بشأن الحروب) الذي خصص الجزء الاول والثاني منه للحديث عن الحروب بين بيزنطة وفارس ، وفيهما يمدنا بمعلومات ممتازة عن العرب في مجال حديثه عن امارتي الغساسنة والمناذرة . وفي هذا المجال يورد بروكوبيوس حديثين عن العرب أولهما : يتناول الاوضاع السياسية بين امارتي الغساسنة والمناذرة وفيها ذكر لاقامة الامبراطور يوستنيانوس الحارث (Arethas) الثاني بن جبلة ملكا على بني غسان وتشجيعه على مناهضة المنذر (Alemoundaras)

ملك الحيرة ، واشتراك الحارث في بعض معارك البيزنطيين . كما يذكر بروكوبيوس بعض المعلومات عن (المنذر بن ماء السماء) وصراعه مع الحارث بن جبلة(٣٦) . وترد الاحداث العربية هذه عند بروكوبيوس في اطارها التاريخي ، أي في اطار الصراع الفارسي البيزنطي ، ويبدو سرده لها سرد عارف خبير ببواطن الامور ، فلا يقصر سرده للحدث على ذكر ما له من صبغة عسكرية بل يتحدث عن القرار السياسي الذي ادى اليه الحدث بحكم صفة المؤرخ العسكرية وقربه من الامبراطور .

وفي حديثه الثاني عن العرب يذكر بروكوبيوس بعض احوالهم وبخاصة أماكن استقرارهم الرئيسة وأشهر اعيادهم وقدراتهم العسكرية ، وفي هذا المجال يتحامل بروكوبيوس ، ويعكس وجهة النظر البيزنطية عامة اليهم حين يذكر مثلا بأنهم (اي العرب) يجيدون السلب والنهب ولا يجيدون حصار المدن ، ولا يكفون عن التنازع فيما بينهم وانهم برابرة ومن اكلة لحوم البشر(٣٧) . وفات بروكوبيوس أن سلب ونهب معسكرات الخصوم كانت احدى قواعد وضرورات الحروب في التاريخ القديم ، وان الفرس والبيزنطيين مثلهم مثل العرب كانوا يمارسون هذه العادة رغبة في اضعاف الخصم اقتصاديا وعسكريا بعد خسارته الجولة الاولى من الحرب ، وان كثيرا من خطط المعارك القديمة بنيت على اساس استدراج الخصم الى المعسكر الفني ثم الحاق الضربة القاصمة به وهو يحاول سلب المعسكر . كما اخطأ في حكمه بأن العرب لا يجيدون اقتحام المدن ، ففي خلال اقل من قرن من الزمن قامت الجيوش العربية الاسلامية بافتتاح أعتى مدن المنطقة واشهرها دمشق والاسكندرية . في حين يبدو بروكوبيوس محقا في ذكره نزاعات العرب المتكررة ، ويبدو في هذا أنه تأثر في حكمه بالنزاع بين امارتي الغساسنة والمناذرة .

ومن الجدير بالذكر ان كل هذه المصادر الكلاسيكية كتبت باحدى اللغتين اليونانية القديمة أو اللاتينية . ونظرا لندرة عدد الفاقهين لهاتين اللغتين فقد قامت مع نهايات القرن الماضي مجموعات من العلماء بترجمة عدد من هذه المصنفات الى اللغات الاوروبية الحديثة ، فساعدوا بعملهم هذا على ظهور مجموعة لا بأس بها من الدراسات حول تواريخ متعددة تعرضت لها هذه المصادر .

ب ـ الكتابات العربية الاسلامية : وتعتبر المصادر العربية الاسلامية آخر المصادر الكتابية التي يمكن الاعتماد عليها في الكتابة عن تاريخ العرب القديم ولكن مع بعض الحذر ، وذلك لاسباب اهمها : عدم معاصرة كتابها للاحداث التي كتبوا عنها ، ومن الطبيعي ان الحديث عن العرب القدامى الذي يمتد منذ القرن العاشر قبل الميلاد حتى بداية انتشار الاسلام في القرن السابع الميلادي ، وتغطية هذه الفترة الكبيرة في

كتابات المؤرخين المسلمين أمر يضعف بالضرورة من قيمة هذه الكتابات كمصادر ، وبخاصة بعض الكتابات التي توغل في التاريخ وتمد حديثها الى بدء الخليقة وآدم عليه السلام(٣٨) . وكلما أوغلت هذه الكتابات قدما في التاريخ كلما ازداد اعتمادها على الطريقة الاسطورية في رواية التواريخ لدرجة دفعت اصحاب هذه الكتابات الى الاعتراف بأسطورية كتاباتهم ، وهذا ما ذكره عبيد بن شريه – وهو أول الاخباريين العرب – بأنه كان يختار من أحاديثه التي كان يرويها لمعاوية بن ابي سفيان عن أخبار العرب وايامها واخبار العجم وملوكها وسياستها لرعيتها أعجبها ، ورغم ذلك كان معاوية يطلب اليه تدعيم تواريخه الاسطورية بأشعار .. وقد لوحظت هذه الطريقة في رواية التواريخ عند بعض المتاخرين من الكتاب المسلمين دون ان يتمكنوا من تجنبها ، وهذا ما عبر عنه الطبري(٣٩) وابن خلدون(٤٠) صراحة في كتاباتهما .

ويؤخذ على المصادر الاسلامية فيما يتعلق باسناد رواياتها عن تاريخ العرب القديم انها اما لا تذكر مصادرها اطلاقا أو انها تذكر بعض المصادر الفارسية او البيزنطية ولكن فقط في مجال الحديث عن ملوك فارس وبيزنطة مثلما فعل حمزة الاصفهاني(٤١) . او انها تعود بمصادرها الى اوائل الاخباريين المسلمين كعبيد بن شريه وابن الكلبي من الذين لم يعاصروا الاحداث التي كتبوا عنها ، وهذا ما فعله كل من الطبري(٤٢) والمسعودي(٤٣) .

ورغم المأخذ السابق يمكن لبعض المصادر الاسلامية عن تاريخ العرب القديم أن ترقى الى مستوى المصادر الموثوقة وبخاصة فيما يتعلق بفترات قريبة من ظهور الاسلام ، وهذا ما يلاحظ في تأريخ عبيد بن شريه لبعض ملوك المناذرة والغساسنة ، والحملة الحبشية على مكة المكرمة ، وكذلك كتابات ابن الكلبي (نهاية القرن الثاني الهجري) عن عيادات الجاهلية وأماكنها المقدسة(٤٤) ، واخيرا كتابات الهمذاني عن آثار اليمن ومدنها وقصورها(٤٥) .

ثانيا : الاثار والنقوش :

وتعتبر الاثار بقسميها الظاهرعلى سطح الارض او المدفون في باطنها ، ومن ضمنها النقوش طبعا رغم صفة بعضها الرسمية اصدق مصادرنا عن تاريخ العرب القديم واكثرها مدعاة لثقة المؤرخ وهي بالتأكيد طليعة مصادر التاريخ الجاهلي وذلك لانها تعكس صورة معاصرة فعلا من ناحيةالشكل والمضمون للاحداث المنوي تأريخها، وتترك المجال مفتوحا امام الاثاري والمؤرخ لتخيل او توقع شكل ونوعية المجتمعالعربي

القديم عن طريق دراسة ماصنع هذا المجتمع بأيدي ابنائه لاعن طريق ماقاله ابناء هذا المجتمع عن انفسهم او ما قاله غيرهم عنهم .

وتقسم الاثار التي خلفها العرب القدامى الى اقسام ، منها المخلفات الشخصية ومنها بقايا المنازل والمعابد والاضرحة والحصون والسدود ، ومنها تماثيل الالهة او رموزها او تماثيل الاشخاص ، ومنها الرسوم والفخاريات والمسكوكات . والنقوش العربية القديمة كثيرة ايضا كتبت بلهجات متعددة ، وهي عبارة عن كتابات تذكارية نقشها أو امر بنقشها افراد أو حكام تخليدا لحادث معين .

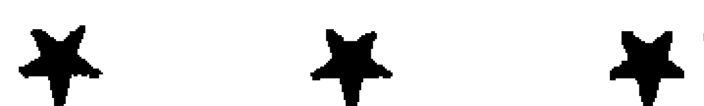
ومن واقع الاثار العربية القديمة يتمكن الاثاريون والمؤرخون من استنتاج عدد كبير من الشواهد التاريخية السياسية والحضارية التي لاترد عادة في المصادر الكتابية . فمن بقايا الاسوار مثلا يستطيع المؤرخ ان يحدد أهمية المنطقة التي وجد فيها السور وحاجتها الى اداة دفاعية ويمكنه تكهن تعرضها لاخطار مجتمعات مجاورة. وقد تدلل نوعية وكمية وأحجام الاحجار المستخدمة في بناء السور على طراز البناء المستخدم ومدى أهمية الموقع وقدرة العناصر البشرية على تذليل الصعوبات الهندسية او الفنية ومستوياتهم الاقتصادية وغير ذلك من الامور . ومن المنحوتات الجدارية او الكاملة او النصفية يقدر الاثاري أو المؤرخ ان يحدد معالم بعض العادات والتقاليد الاجتماعية والمعتقدات الدينية . وعن طريق المسكوكات يمكن تبين أو التأكد من بعض المعلومات السياسية وسني حكم الملوك او الامراء ونوعية المعاملات التجارية وكميتها وامتدادها والوضع الاقتصادي عامة وبعض مظاهر الحياة الدينية ، وغير ذلك من الامور التي يمكن استخدامها من هذه الاثار .

والنقوش التي تمدنا بمعلومات عن تاريخ العرب كثيرة ، منها ماكتب بلغة عربية وبلهجاتها المختلفة ومنها بغير ذلك ، ومنها ماعثر عليه في بلاد العرب من اليمن الى الشام ومن الرافدين الى مصر ، ومنها ماعثر عليه في بعض مناطق بلاد الاغريق او الحبشة . ومع انه يغلب على معظم هذه النقوش الصفة الشخصية فلا تمدنا الا بمعلومات عن اشادة منزل او معبد أو اقامة سور او شفاء مريض ، فان بعضها القى اضواء مناسبة وقدم معلومات سياسية واجتماعية واقتصادية واضحة لم نكن نعلم عنها شيئا من المصادر الاخرى .

ويبدو أن آثار العرب القدامى ونقوشهم لم تكن تغري كثيرا من الباحثين ، ومع ذلك فقد أرسل ملك الدانمرك عام (١٧٦١م) اول بعثة اثرية عملت حتى عام (١٧٧٢) للكشف عن اثار اليمن وعدن التي ورد ذكرها في المصنفات المقدسة . وقدتتالت

اهتمامات الاثاريين بمنطقة اليمن على حساب المناطق الاخرى في شبه الجزيرة العربية لاسباب اولها : قسوة مناخ المنطقة قياسا على مناخ اليمن ، وثانيها : قدسية الحجاز وتحريمه على الاجانب ،وثالثها : اهمية اليمن الاستراتيجية وقربها من عدن التي ورد ذكرها في المرويات المقدسة .

ومنذ ذلك التاريخ تتابعت البعثات الاثرية التي نفذتها معاهد وجامعات ومتاحف متعددة من العالم العربي ومن انحاء العالم ، أسفرت عن اكتشاف عدد غير قليل من الآثار والنقوش المختلفة التي نشر بعضها في موسوعة النقوش السامية Corpus Inscriptionum Semiticarum) وبعضها الاخر في تقارير حفريات جامعات القاهرة والرياض وتورنتو الكندية وكنتكي الامريكية ولندن ومعاهد اخرى ، وبعضها الثالث في مجموعات عرفت باسماء مكتشفيها مثل دوسو (Dussaud) وجلازر (Glazer) وهاليفي (Halévy) وجام (Jamme) وفيلبي (Philby) وغيرهم ، وبعضها الرابع في المجلات الاثرية التي تصدرها ادارات الاثار في المملكة العربية السعودية والمملكة الاردنية الهاشمية والجمهورية العراقية والجمهورية العربية السورية ،ونقوش اخرى أقل اهمية اكتشفت ولم تنشر بعد(٤٦).



١- لمزيد من التفاصيل انظر : جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام (بيروت ١٩٦٨) ج١ ص ٣٧ ومابعدها .

٢- لطفي عبد الوهاب يحيى ، العرب في العصور القديمة (بيروت١٩٧٩)ص١٦٠ -١٦١

٣- انظر : سورة النجم، الاية (٥٠) وارتباط اسم عاد على وجه الخصوص بالاحقاف ، وقارن مع حاشية رقم (١) (٢) في لطفي عبد الوهاب يحيى ، المرجع السابق ، ص ١٦٢

4) Pliny.,Natural History, VI, 2, 16; cf. Strabo., XVI, 4,21;4,5, 18-19.

٥: انظر سورة الشعراء ، الايات (١٤٧-١٤٨)، سورة الحجر ، الايات(٨٠-٨٢) ، سورة التوبة ، الاية (٧٠) ، الفرقان الاية (٣) ، النجم الاية (٥١) وقارن مع مايذكره استرابون XVI, 4, 2 ، وبلينيوس N. H, VI, 32, 157

٦ - يرجح المؤرخون المعاصرون وجود مملكتين باسم سبأ احداهما في اليمن وهي الاقدم والثانية شمال غرب الجزيرة العربية . انظر : لطفي عبد الوهاب يحيى ، المرجع السابق ص ١٧٠

٧- سورة سبأ ، الايات (١٥-١٦) .

٨- نجيب ميخائيل ابراهيم ، مصر والشرق الادنى القديم ، سورية (القاهرة -١٩٥٩) ج٣ ص ٢٣٤

٩- سورة ال عمران ، الاية (٩٦) ، سورة التين الاية (٣)

١٠- سورة قريش ، الايات (١-٤)

١١- سورة الاحزاب ، الاية (٢٠)

١٢- سورة التوبة ،الايات (١٠١- ١٢٠)

١٣- سورة التوبة ، الاية (٩٧) ، سورة الفتح ،الاية (١١) ، سورة الحجرات، الاية (١٤)

١٤- سورة الفتح ، الاية (١٦)

١٥- عمر فروخ ، تاريخ الجاهلية (بيروت ١٩٦٤) ص ١٦

١٦ - ينفي بعض المستشرقين واخصهم(مارجوليوث) وبعض الادباء العرب

المعاصرين وعلى رأسهم (طه حسين) وجود شعر جاهلي ، ويدللون على نفيهم بدعاوى بعضها منطقي والاخر غير ذلك ، ولكن رغم ذلك فان ادلة معظم المستشرقين والادباء العرب المعاصرين تؤكد وجود هذا الشعر وعكسه لاساليب الحياة في العصر الجاهلي .
انظر :

Margoliouth, D.S. «The Origins of Arabic Poetry» J. R. A. S July 1925.

وكذلك طه حسين ، في الادب الجاهلي (القاهرة — بدون تاريخ) الطبعة الرابعة ص ٧٠ .

١٧ — لطفي عبد الوهاب يحيى ، المرجع السابق ، ص ٢٤٠ — ٢٤١

18) Herodotos., III, 107-113.

19) Herodotos., 1, 131; 199, II, 12, 141; III, 8; 13; 97; 107-113;VII,69;86

20) Strabon., XVI

21) Arrianos., Anabasis of Alexander, VII

22) Theophrastos., Peri Phyton Historias, IX

23) Strabon., XVI, 4

24) Oxford Classical Dictionary. S.V, Agatharchides, P. 20

25) Strabo., XVI, 4, 18-19; Oxford Classical Dictionary, S.V, Artemidoros

٢٦ — لطفي عبد الوهاب يحيى ، المرجع السابق ، ص ٢٠٦ .

٢٧ — يشكك كثير من المؤرخين المعاصرين في صحة مرافقة استرابون للحملة انظر ، المرجع السابق ص ٢٠٨ حاشية (٢٤) .

28) Strabon., XVI, 4, 21-24.

29) Pliny., Natural History, VI, 147-162; XII, 51-99; Oxford Classical Dictionary, S.V, Pliny, pp. 703-4. Oxford Classi-

30) Cambridge Ancient History, vol. 10, pp. 80-3

31) Ptolemaeos. Mathematicos., Geographia. V. 14, 5; 18-19; Oxbord Classical Dictionary, S. V Ptolemy, pp. 746.

32) Josephus., Against Apion, I, 50; Antiquities, pp. XIV-XV

33) ., Antiquities XIV, 14, 2, Jewish Wars, 1, 1-3

34) Eusebios., Ekklesiastikes Historias, VI, 19-41

35) Ammianus Marcellinus. Historiae, XIII; XIV; XXXI.

36) Procopius., I, 17-18; II, 1; 13; 16; 19; 28.

37) ., I. 18; 19; II, 16-19; 27-28.

٣٨ ــ انظر : ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدا والخبر (القاهرة ــ ١٩٦٥) ج ٢ ص ٣ ، ٤ ، ٨ ، ٤٩ ، ٣٠٤ وقارن مع لطفي عبد الوهاب ، المرجع نفسه ص ٢٢٩ ــ ٢٣٠.

٣٩ــ الطبري ، الرسل والملوك ، (القاهرة ــ١٩٦٠) ج١ ص ٨ .

٤٠ــ ابن خلدون ، المصدر نفسه ، ج٢ ص ٨

٤١ــ سعد زغلول عبد الحميد ، في تاريخ العرب قبل الاسلام (بيروت ١٩٧٥)ص ٤٧ــ٤٨

٤٢ــ الطبري ، المصــدر نفســه

٤٣ــ المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر (القاهرة ــ ١٩٥٨)

٤٤ــ طبقة بولاق ، (١٣٣٢ هـ) تصوير الدار القومية بالقاهرة (١٩٦٥)

٤٥ ــ الهمداني ، الاكليل ، تحقيق نبيه أمين فارس (برينستون ١٩٤٠) .

٤٦ــ عن تفصيلات الرحلات الاثرية في المنطقة العربية راجع :

R. Dussaud, **La Penetration des Arabes en Syrie avant l'Islam** (Paris 1945); A. Fakhry, **An Archactogical Journey to Yemen** (Cairo 1952) 3vols, Z. Freeth and v. Winstone, **Explorers of Arabia** (London 1978); A. Musil, **Northern Negd** (N. Y. 1928);M. Niebuhr, **Travels Through Arabia** (Edinburgh 1972); W. Phillips, **Qataban and Sheba** (London 1955).

الآشورية اياها، اختلفت في تحديد بدايته بسبب فقدان الوثائق التي تحددها، أو تعين على تحديدها، فمنهم من قال انها بدأت في القرن العاشر أو في النصف الثاني منه، ومنهم من قال بأنها بدأت مع مطلع القرن التاسع أو خلاله . هذا بالاضافة الى ان الاراء قد تباينت في أمر تحديد بداية النفوذ الاشوري الفعلي هناك . ففريق اعتقد بأن اخماد ثورتها عام ٨٠٨ ق.م وضع حدا لاستقلالها أو ادارتها الذاتية، أما نفوذ الآشوريين فيها وتبعية المدينة [illegible] فكان قبل ذلك بكثير ، وفريق اخر عارض هذا الراي واعتقد أن ضم دولة جوزان للامبراطورية الاشورية قد بدأ مع اول غزو على تلك المدينة عام ٨٩٤ ق.م . والسبب في ذلك ان مافي الوثائق الاشورية والارامية من معلومات حول تاريخ بيت بحياني أوقع الباحثين في هذا الغموض الذي يبدده الآن اكتشاف تمثال الملك (هدد يسعي) الذي يقدم لنا نصا يساعد على الاجابة على العديد من التساؤلات حول تاريخ تلك الدولة [illegible]

تقع عاصمة مملكة بيت بحياني على بعد ثلاثة كيلومترات الى الغرب من بلدة راس العين على منابع الخابور، وتتمثل أطلالها الآن بتل حلف، وقد امتدت شمالا حتى جبال طور عابدين الى الجنوب من ديار بكر، وشرقا حتى حدود دولة نصيبين الارامية أما المدى التي وصلت اليه حدودها الجنوبية والغربية فغير معلوم، والمعلومات المتوفرة لدينا حتى الان تشير الى عدم قيام اية دولة ارامية بين منابع الخابور في الشرق ونهر الفرات في الغرب . وبما أن نفوذ دولة بيت عديني الارامية قد امتد من الفرات الى البليخ او الى الشرق منه . فاننا لا نستبعد ان تكون الدولة بيت بحياني وبيت عديني حدود مشتركة على حوض البليخ .

* * *

نقب البارون ماكس فون اوبنهايم وبعثته في موقع تل حلف خلال الاعوام ١٩١١ - ١٩١٣ و ١٩٢٧ و ١٩٢٩ ، وكشف على اطلال المدينة الارامية وذخائر الوثائق الآشورية التي ثبت منها ان تل حلف هو مدينة جوزان، وتساءل العلماء اذا كان [illegible] جوزان هو الاسم الآشوري للمدينة، أم أنه اسمها الآرامي ؟ اذ من المعلوم أن النصوص الارامية التي وجدت بها لم تذكر اسم المدينة . والذي يطرح هذا السؤال بقوة الان فالنص الارامي المنقوش على تمثال الملك هدد يسعي يقول بأن هذا الملك هو ملك جوزان [illegible]

[illegible] خلال القرن العاشر [illegible] فقط وعثر عليها بين أطلال المدينة .

[illegible] وردت اول اشارة الى جوزان في حوليات الملك الاشوري ادد نيراري الثاني

(٩١١-٨٩١ ق.م) الذي وصل المنابع الخابور خلال حملته الخامسة ضد بلاد الخاني جلبانات عام ٨٩ وقال: « نهرا خبور لعبر أن آل جوزان شا أبي سلامو مار يحيالي أو كلوثي لالك = نهر الخابور لاعبر الى مدينة جوزان التي يكلؤها (أي يرعاها، يحفظها) ابي سلامو لادخل » فقد دخلها وأخذ الجزية من اميرها ابي سلامو .

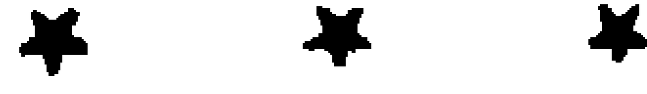
ومنذ ذلك الحين ، وعلى مدى قرن من الزمن ، ظل الملوك الاشوريون يشنون غاراتهم على الآراميين في الجزيرة ، حتى اخضعوهم وحولوا بلادهم وممالكهم الى ولايات اشورية ، يديرها ولاة اشوريون . واشتهر من بينهم اشور ناصر بال الثاني (٨٨٣-٨٥٩ ق.م) بالقسوة والوحشية . وخلال حملته الثانية على بلاد خاني جلبات ذكر انه تقبل الجزية من شيوخ تلك البلاد ومن بينهم كان شيخ بيت بحياني الذي فقد اسمه . وبعد ذلك بخمس سنوات ذكر نفس الملك أن شيخ بيت بحياني الذي لم يذكر اسمه ايضا قد دفع له الجزية . ونظن ان عدم ذكر اسم هذا الشيخ يعود الى قلة اهميته ، وخضوعه له .

وبعد ذلك بثمانين حولا تقريبا نشبت في تلك المدينة ثورة ضد الاشوريين وكانت خلال السنة الاولى لتولي الملك الاشوري ادد نيراري الثالث (٨٠٩-٧٨٢ ق.م) السلطة أي في عام ٨٠٨ حيث قضى عليها ، واصبحت ولاية اشورية يديرها وال اشوري يعينه الملك . ومنذ ذلك الحين انتهى والى الابد حكم الشيوخ الاراميين على المدينة والمملكة وتعاقب عليها ولاة آشوريون ذكرت الوثائق اسماءهم ولا حاجة لذكرهم لان بحثي هذا مقتصر على المملكة الارامية .

وهكذا لانجد في الوثائق الاشورية سوى اسم ابي سلامو ابن بحياني الذي كان في الحكم عام ٨٩٤ ق.م . ولايجب ان نعتقد بأن أبي سلامو هو ابن بحياني بل هو من نسله ولاننسى ان اشور ناصر بال الثاني قد قال بأنه استلم الجزية من شيخ بيت بحياني وان كتابة آرامية عثر عليها في جوزان ورد فيها اسم زدنت ذو بحياني (اي زدنت ال بحياني) وهذا يكفي للتدليل على ان بحيان هو شيخ القبيلة الارامية التي انتشرت حول منابع الخابور واليه نسبت ، واليه انتسب شيوخها . هذا بالاضافة الى ان ملوك اشور قد اعتادوا ذكر اسم اي شيخ ارامي مقرونا باسم القبيلة في كثير من الاحيان دون ان يكون ابنه .

بعد هذا العرض للمعلومات التي وجدناها في النصوص الاشورية حول مملكة بيت بحياني ، ومعرفة اسم حاكمها عند مطلع القرن التاسع ق.م واستخلاص بعض المؤشرات التي توضح بأن حكم السلالة الارامية فيها قد انتهى قبيل نهاية القرن

التاسع ، وان حكامها قد دفعوا الجزية للملوك الاشوريين خلال تلك الفترة ،وانهم كانوا تابعين لهم يحكمون باسمهم ، لابد لنا ان ننتقل لنناقش نتائج التنقيبات الاثرية وماكشفت عليه واستعراض النصوص المحلية .



كشفت التنقيبات الاثرية على الحي الملكي الارامي في المدينة الذي يقع في الجزء الشمالي منها ، ويحيط به سور فيه بوابة جنوبية تؤدي الى احياء المدينة الاخرى، وبوابة شمالية تؤدى الى النهر ونبع المـاء .

يضم الحي قصر السكن في الزاوية الشمالية الشرقية ، ويقابله في الزاوية الشمالية الغربية المعبد ــ القصر . وتنتشر الى الجنوب منهما مدافن ارضية ومصاطب .

ودلت الدراسات على ان المباني قد شيدت خلال دورين متعاقبين ، الدور القديم ودور كباره الذي وسع الحي الملكي ومبانيه بما يزيد على الضعف . ويـرجع السبب في هذه الحركة العمرانية الواسعة التي شهدتها مدينة جوزان ، ليس فقط الى ولع كباره بالعمران ، بل الى المباني التي شيدها اسلافه اوسلفه وكانت من اللبن الذي يحتاج الى الترميم والتجديد باستمرار ، لذا عمد الى هدمها وترحيل انقاضها وتشييد ابنية حديثة فوقها . توسعت وتجددت هي الاخرى حتى دمرت عام ٨٠٨ ق.م

ويظهر ان المعبد ــ القصر هو درة مباني جوزان . وقد اعتنى به كباره، فكسيت قواعد جدرانه من الخارج بلوحات حجرية سوداء بازلتية ، وبيضاء كلسية ، رسمـت عليها اشكال بشرية وحيوانية ، وروعي عند صفها تناوب اللونين الابيض والاسود ، وتخللها في بعض الاحيان لوحات من الحجر الرملي الاحمر وبينت الدراسات أن اللوحات من عصرين مختلفين ، مجموعة منها قديمة واخرى حديثة متقنة . وقد استخدمت المجموعة القديمة في كسوة قواعد الجدران الجانبية والخلفية ، اما الحديثة فزينت الواجهة الامامية وجانبي المدخل . ويحمل ساكف باب القصر ثلاثة اعمدة ، اثنـان منها على شكل رجل والثالث على شكل امراة. أما قواعدها فالوسطى على شكل ثور والجانبيتان على شكل اسد ، وكان سقف القصر من الخشب والطين وجدرانه من اللبن .

ويفتخر كباره بانجازه بناء القصر في مجموعة من النصوص القصيرة التـي نقشت على المنحوتات وهي متشابهة ونورد فيما يلي نصين اثنين منها :

أ ـ النص رقم (١)

النص بالاشورية	الترجمة
١ ـ ايكالي كباره آبل خدياني	هيكل كباره بن خديان
٢ ـ شاأبي اب أبي بلطوني	الذي ابي وابو إبي (جدي) بحياتهم
٣ ـ لاعفشوني اناكو عتفش	لم يعملوا أنا عملت
٤ ـ من شاشمي افشطوني شمه	من الذي اسمي يمحي ، اسمه
٥ ـ اشكنوني ٧ ماريشو فان ادد	ينزلن سبعة من أبنائه امام هدد
٦ ـ لتشرفوا ٧ ماراتيشو	ليحترقن . سبع من بناته
٧ ـ آن اشتار خاريما تولرام	الى عشتار خادمات ليرومن
٨ ـ أبدى ايليمو أمان اشطر	عبدي ايليموا المعلم سطر (كتب)

النص رقم (٢)

النص بالاشورية	الترجمة
١ ـ ايكالي كباره آبل خديان	هيكل كباره بن خديان
٢ ـ شارمات ختي (أوبالي) شا أبي اب أبـي	ملك بلاد ختي (بالي) الذي أبي وابو أبي (جدي)
٣ ـ لاعفشوني أنا كو عتفش من شاشمي افشطوني	لم يعملوا أنا عملت ، من الذي اسمي يمحين
٤ ـ شمشهو اشكنوني ٧ ماريشو فان اذد	أسمه ينزلن . سبعة من اولاده امام هدد
٥ ـ لشربوا .ابدى ايليموا امان إشطر	ليحرقن . عبدي ايليمو المعلم سطر (كتب)

ليس في هذين النصين دليل على تأريخهم وبالتالي تأريخ القصر ، ولا يشيران الى

علاقة كباره ووالده خديانو ببحياني او بيت بحياني ، ويخلو ان كذلك من ذكر اسم جوزان . لقد عودنا الملوك الاراميون على الاكتفاء بذكر اسم ابيهم دونما حاجة الى ذكر اسم الجد ، الا في قليل من المواضع . ويريد كباره التأكيد على ان الهيكل هو قصره لذا لم تكن به حاجة للذكر انه هو ملك جوزان او بيت بحياني .

يدعي كباره ان ما فعله هو ، لم يفعله أبوه ولا جده . وحتى لو كانت هذه العبارة من قبيل التفاخر والاعتزاز فان بها جزءا من الحقيقة . فكما اشرت اعلاه عمد كباره الى توسيع الحي الملكي ، وتجديد ابنيته ، ليكون أشد فخامة وجمالا ووقعا في النفس من حاله السابقة .

لم يكن في مقدور البعثة الكشف على الطبقة التي تقع مباشرة تحت الطبقة الارامية ولكنها اثبتت ان المباني الارامية (اي الحي الملكي) قد شيدت فوق مصاطب ولم تشيد فوق ابنية اقدم . لذلك فقدنا الدليل الأثري الذي كان من الممكن أن يساعدنا على تحديد بداية حكم الاراميين .

ويدل كل ذلك على ان كباره ووالده وجده وسلفهم ، قد وطئوا جوزان ، واستقروا بها، وبنوا الحي الملكي بما فيه السور والقصور والمعابد والابواب فوق انقاض المدينة القديمة . ويبقى السؤال المطروح متى تم ذلك ؟ ومن هم الملوك الذين بنوا الحي الملكي في جوزان .

عرفنا حتى الآن اسم الملك ابي سلامو من النصوص الاشورية ، واسم خديانو وولده كباره من وثائق كباره نفسه . ونضيف اليهم اسم زدنت او زدمة الذي ذكر اسمه في جملة نقشت على قاعدة لتمثال حجري وهي زدن شخت بعل ا ... ب ح ي ن — وترجمتها زدنت بعل (سيد) بحيان . وبنتيجة دراسات عديدة لغوية ، معمارية ، وفنية وسياسية ... الخ جعل بعض العلماء عصر كباره ووالده خديانو قبل ابي سلامو ، وجعله البعض الآخر بعده . وانفرد الاستاذ اولبرايت بايراد قائمة لملوك جوزان رتبها زمنيا وتتألف من :

١ — خديانو الذي حكم عند منتصف القرن العاشر قبل الميلاد .

٢ — كباره ابنه وحكم عند نهاية القرن العاشر .

٣ ـ ابن [illegible] سلامو الذي خضع للاشوريين عام ٨٩٠ [illegible]

٤ ـ ا[illegible] غير معروف دفع الجزية عام ٨٨١ لآشور ناصر بال الثاني .

٥ ـ [illegible] غير معروف دفع الجزية بعد عام ٨٧٦ أيضا لاشور ناصر بال الثاني .

٦ ـ [illegible] ربما حكم عند منتصف القرن التاسع .

ليس من السهل تحديد زمن حكم هؤلاء الملوك [illegible] فلا نعرف عنهم سوى أسمائهم ولا نعرف من عاصرهم من الملوك الاشوريين [illegible] حتى ابي سلامو الذي عاصر حدد [illegible] الثاني لانعرف متى اعتلى العرش ومتى انتهى حكمه .

★ ★ ★

في شهر شباط من عام ١٩٧٩ قامت احدى اليات بلدية رأس العين بتجريف الطرف الجنوبي الغربي لتل الفخيرية ، فعثرت بين الانقاض على تمثال من الحجر البازلتي بالحجم الطبيعي للانسان ، وهو تام ، غير ان الرأس كان مفصولا عن الجسم فاعيد [illegible] في المتحف الوطني بدمشق حيث يحفظ الان . وتعود اهمية هذا التمثال لكونه [illegible] عليه نصان اشوري وارامي ، وقد نقش النص الاشوري على سطح الساقين الامامي ويتألف من ٣٨ سطرا تاما ، في حين نقش النص الارامي على سطحهما الخلفي ويتألف من ٢٣ سطرا تاما . والنصان متطابقان ويختلفان فقط في لقب صاحب التمثال الذي يصفه النص الاشوري بانه ((شاكن ال جوزان)) اي حاكم جوزان والارامي بانه ملك جوزان وصاحب التمثال هو ((هدد يسعي)) بن شمش نوري .

[illegible] اكتشاف اسمين جديدين لقائمة حكام جوزان التي اوردناها اعلاه [illegible] النظر في التسلسل الزمني لهم وعلاقتهم بالامبراطورية الاشورية [illegible] نقدم [illegible] ترجمة شبه حرفية له مع مراعاة اسـ[illegible] فيما اذا كانت معروفة في اللغة العربية (مرتبة حسب السـ[illegible]

١ ـ دمية هديسعي نصبت امام هدد سكن (اي هدد السيكاني) .
٢ ـ جوجل (سيد) السماء والارض، منزل الخيرات ، ومعطي الرعي .



٣ ـ ومسقي الاقطار كلها، ومعطي السلوة، والشراب

٤ ـ الارباب كلها اخوته ، جوجل (سيد الانهار جميعا ، منعم على

٥ ـ الاقطار كلها، اله رحمان الذي دعواته طيبة ، يسكن

٦ ـ سكن (اي سيكاني) السيد رب السيد هديسعي ملك جوزان بن

٧ ـ سسنوري (شمش نوري) ملك جوزان لتحيا نفسه ولتطول أيامه ،

٨ ـ ولتكثر سنوه، وليسلم بيته، وليسلم زرعه (ذريته) وليسلم

٩ ـ اناسه ، وليخرج المرض منه وليسمع ابتهالاته ، و لـ

١٠ ـ يقبل دعاءه دائما ، فأعطاه . ومن بعد ذلك يكون (المقصود من يأتي بعده) -

١١ ـ ينقلها لمكان جديد ، واسماء ليضع بها (المقصود التمثال)، والذي يمحي اسمي منها ،

١٢ ـ ويضع اسمه بها هدد الجبار ليكون قبيله (خصمه) صنم . هديسعي

١٣ ـ ملك جوزان وسيكاني وازران لترتفع مودة عرشه

١٤ ـ ولتطول حياته ، ولتستجاب دعواته يا الهة ويا ناس

تمثال الملك هديسعي
(المتحف الوطني بدمشق)

١٥ ـ كرموا الدمية هذه ،التي وضعها قدام الباقي ، قدام هدد .

١٦ ـ ساكن مدينة سيكاني ، سيد الخابور وضعت صنمه هناك ، من يمحي اسمي من الاناء

١٧ ـ الذي في بيت هدد ـ سيدي (هدد) لحمه (طعامه) وماءه لتأخذه من

١٨ ـ يده . شول(شالة زوجة هدد) سيدتي لحمه وماءه لتأخذه من يده . ولو

١٩ ـ زرع لا يحصد ، والف (مكيال) شعير لو زرع حفنة يأخذمنه .

٢٠ ـ ومئة ضأن ليرضعن فطيما ولا يرتوي ، ومئة بقرة ليرضعن

٢١ ـ عجلا ولا يرتوي ، ومئةمن النساء ليرضعن غلاما ولا يرتوي

٢٢ ـ ومئة من النسوة ليخبزن بالتنورخبزا ولا يملانه . ومن القلة ليلتقط شعبهشعيرا حتى يأكلوا .

٢٣ ـ ووباء شباط ، وباء نرجال لا يغادر بلاده .

ان هذا النص يضعنا امام لون من الدعاء والابتهال الى الرب هدد ، كما نجده عند بعض الملوك الآراميين الآخرين مثل برخيه ملك كتك ومتي ايل ملك ارفاد ، وهو لايحوي سوى امور شخصية، وليس فيه فائدة لتاريخ مملكة بيت بحياني ، اذ اننا لا نجد فيه اي حديث عن اعماله العمرانية او المعارك التي خاضها كالذي نجده في حوليات ملوك آشور ، بل نجد تلميحات واشارات الى بعض الامور المتعلقة بتاريخ هذه المملكة وعلاقتها بالامبراطورية الآشورية .

الامر الاول الذي يسترعي الانتباه هو ان النص الآشوري قد نقش على سطح التمثال الامامي في حين نقش النص الآرامي على سطحه الخلفي ، وبالاضافة الى هذه الحقيقة نرى ان هديسعي قد لقب والده ولقب نفسه ملك جوزان فيالنص الآرامي ، وشاكن جوزان ، اي والي جوزان ، في النص الآشوري . وواضح من ذلك ان هديسعي هو ملك بالنسبة الى مواطنيه الآراميين ، ووال بالنسبة الى الآشوريين الذين لقبوا ولاتهم على المقاطعات بكلمة (شاكن) . واذا ما علمنا ان كباره قد لقب نفسه فيالنص الآشوري اياه (ملك بلاد بحياني) ادركنا صحة استنتاجنا . وهذا يعني دونما شك ان هديسعي ووالده شمش نوري كانا ولاة للاشوريين . بينما كان كباره غير ذلك . ويتبين هذا الذي ذكرناه بشكل اكثر وضوحا اذا ما قارنا تمثال الملك هديسعي مع تماثيل الملوك الآشوريين . ففي حين يرتدي الملوك الآشوريون الملابس المزركشة ويتزينون بالحلي ويمسكون بالصولجان في يدهم اليمنى ، يرتدي هديسعي ابسط

الملابس ولا يحمل اية شارات او زينات ملكية ، تماما كتماثيل كبار رجال الدولة الآشوريين من ولاة وقادة عسكريين ، وعلى العكس من الملوك الآراميين الاخرين .

والامر الثاني الذي يرتبط بالامر الاول ويوضحه هو أن هديسعي قد لقب نفسه في السطر السادس من النص (ملك جوزان) وفي السطر الثالث عشر ملك جوزان وسيكاني وازران . فما هو الدافع يا ترى ؟

تجاور مدينة سيكاني بلدة راس العين من الجنوب وتعرف اطلالها باسم تل الفخيرية الذي يبعد حوالي (٣) كيلو مترات الى الشرق من تل حلف (اي مدينة جوزان) . اما مدينة أزران (أو زراني كما وردت في النص الآشوري) فلا نعرف اين تقع . ولابد أنها تجاور كل من جوزان وازران . ووردت أول اشارة الى مدينة سيكاني في حوليات الملك الآشوري أدد نيراري الثاني خلال حملته على منطقة الخابور عام ٨٩٤ . اذ دخلها واخذ الجزية من اهلها . بعد ان كان قد حل في جوزان ، واخذ الجزية من شيخها أبي سلامو . وتشير هذه الحادثة بوضوح الى ان سيكاني كانت آنذاك مستقلة ، ولم تكن تابعة لجوزان . وبعد هذا التاريخ لم يعد يرد ذكر لسيكاني في الحوليات الآشورية ، الا وكانها مدينة تابعة غير مستقلة . ونستنتج من هذا أن المدينة كانت قد فقدت استقلاليتها ، واتبعت لجوزان مقر الوالي الآشوري . وبما انه علينا ان نرى في النص المنقوش على التمثال مذكرات تروي قصة حياة هديسعي ، نفترض ان سيكاني قد الحقت بجوزان في عهد هذا الملك ، بعد ان كان والده ملكا على جوزان فقط ، ثم ضمت الية سيكاني وازران . اذ كان من عادة الملوك الآراميين ان لا يلقبوا انفسهم ملوك اكثر من مدينة او مقاطعة الا اذا ضموها الى مملكتهم ، كما فعل ملك حماة (ذكير) الذي ضم اليه لعش ، ولقب نفسه (ملك حماة ولعش) . ونظن ان هذا ينطبق على هديسعي . وقد حدث ذلك بعد عام ٨٩٤ ق م ، حيث كانت سيكاني لاتزال مستقلة كما ذكرت أعلاه . ولا يمكن ان تكون قد ضمت بعد هذا التاريخ مباشرة ، لان النص يفيد بأن ذلك قد حدث في زمن حكم هديسعي الذي حكم والده قبله . ولابد والحالة هذه من أن تكون قد مرت سنوات على تلك الترتيبات الجديدة فمتى تم ذلك ؟

اذا عدنا ثانية الى وثائق الملوك الآشوريين نرى أن جوزان قد تحولت الى مقاطعة آشورية عام ٨٠٨ ق . م ، وعين لادارتها وال آشوري اسمه مانيكو آشور . ومنذ ذلك الحين والملوك الآشوريون يعينون ولاتهم على جوزان من رعاياهم وليس من بين الآراميين المحليين . . وطبيعي والحالة هذه ان يكون كل من هديسعي ووالده شمش نوري قد حكما قبل ذلك التاريخ او قبله ذكرت اعلاه ان السيكاني كانت عام ٨٩٤ مستقلة ،



رأس تمثال الملك هديسعي
المتحف الوطني بدمشق)

وانها ضمت الى جوزان في عهد هديسعي . فمن المؤكد اذن أن تبدأ فترة حكمهما بعد هذا التاريخ . واذا كان الامر كذلك فمن الجائز ان يكون شمش نوري هو خليفة ابي سلامو ، الذي كان يحكم جوزان عام ٨٩٤ ق.م

وبعد فان هذه الملاحظات والافتراضات التي اوردتها قد مكنتنا من تحديد فترة حكم هديسعي ووالده شمش نوري في القرن التاسع ق.م. ، ويبقى علينا الان تعيينها بشكل أدق .

في ٢٢-١١-١٩٧٩ بعث لي الزميل ميلارد من جامعة ليفربول بانكلترا برسالة يقول فيها أن احد معاصري آشور ناصربال كان اسمه شمش نوري وورد اسمه في قائمة الولاة والمعاصرين لعام ٨٦٦ ق.م. غير ان لقبه مع الاسف غير واضح . ومع ذلك فهو يستطيع الجزم بأن لقبه كان (حاكم جوزان) وبما أن السيد ميلارد يعد بحثا حول رجال الدولة الاشوريين ومن عاصرهم من الملوك الاجانب ، (لم ينشر بعد) ، اكتفي بهذه الاشارة الى ما بعثه لي .

وتأسيسا على ذلك يجوز لنا أن نفترض بأن والد هديسعي (شمش نوري) كان ملكا على جوزان في عام ٨٦٦ ق.م . ومن المحتمل انه عين في هذا المنصب قبل هذا التاريخ ، واستمر في الحكم لمدة لا نستطيع تحديدها .

والنص الذي بين أيدينا يثبت أن هديسعي قد خلف أباه ولا ندري عدد السنوات التي قضاها في الحكم ..

ولو استعرضنا مرة أخرى قائمة ملوك بيت بحياني التي وضعها إولبرايت ، وهي:

١ - خديانو الذي حكم عند منتصف القرن العاشر ق.م .

٢ - كبارة ابنه وحكم عند نهاية القرن العاشر ق.م .

٣ - ابي سلامو خضع للاشوريين ودفع الجزية لهم عام ٨٩٤ ق.م .

٤ - أمير غير معروف دفع الجزية عام ٨٨١ ق.م. لآشور ناصر بال الثاني .

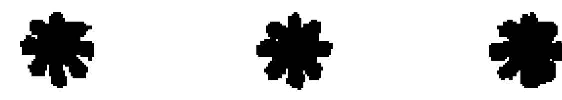
٥ - أمير غير معروف دفع الجزية بعد عام ٨٧٦ أيضا لآشور ناصر بال الثاني .

٦ - زدنت ربما حكم عند منتصف القرن التاسع ق.م .

لوجدنا أن أفضل مكان يحتله شمش نوري وولده هديسعي الترتيبين الرابع والخامس . ومما لاشك فيه أن ابي سلامو وشمش نوري قد حكما في النصف الاول من القرن التاسع ق.م من حيث أن أبي سلامو دفع الجزية لادد نيراري الثاني عام ٨٩٤ ق.م. وأن شمش نوري كان حاكما على جوزان عام ٨٦٦ ق.م . وبما ان الفرق بين التاريخين هو ٢٨عامافقط، فاننا لانستبعد ان يكون شمش نوري هو خليفة ابي سلامو الذي امتد حكمه لسنوات بعد عام ٨٩٤ ، بينما امتد حكم شمش نوري الى ما قبل عام ٨٦٦ ق.م.

وهكذا يكون حكم الملك هديسعي قبيل وبعد منتصف القرن التاسع ق.م. ويعقبه زدنت الذي بقي في الحكم على ما نقدر حتى تحولت جوزان الى ولاية آشورية.

أما كباره ووالده خديانو فتقع مدة حكمهما في القرن العاشر ق.م. وكذلك بحياني الذي نسبت اليه القبيلة والمملكة .



دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية

تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب

تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

العدد السابع : ربيع الاول ١٤٠٢ هـ / كانون الثاني - يناير ١٩٨٢م

ثمن العــدد

سورية	۳۰۰ ق.س
لبنــان	۳۰۰ ق.ل
الاردن	۳۰۰ فلس
العراق	٦۰۰ فلس
الكويت	٤۰۰ فلس
عــدن	٦۰۰ فلس
البحرين	٦۰۰ فلس
قطــر	٦ ريالات
السعودية	٦ ريالات
الامارات العربية	٧ر٥ دراهم
مصر العربية	٤٥۰ مليما
ليبيــا	٤٥۰ مليما
تــونس	٦۰۰ مليم
الجزائــر	٦ دنانير
المغرب	٦ دراهم
السودان	٧٥۰ مليما

الاشتراكات ـ يرسل طلب الاشتراك الى ادارة المجلة

المراسلات : لجنة كتابة تاريخ العرب
جامعة دمشق ـ الجمهورية العربية السورية

في هـذا العـدد

تنويـه

- الاراء الواردة في المجلة تعبر عن وجهة نظر صاحبها .
- ترتيب البحوث يخضع لضرورات فنية .

تقديم

يسعد مجلة « دراسات تاريخية » أن تخطو خطوة جديدة على طريق رسالتها في كتابة التاريخ العربي ، بانتهاجها أسلوب (الملف) ، الذي تطرح من خلاله موضوعا عاما تتعدد جوانبه ، ويقوم باحثون متخصصون بالكتابة في أي من هذه الجوانب ، بأمل أن تشكل أبحاثهم دراسة متكاملة لهذا الموضوع المطروح . وستنشر هذه الملفات مع باقي مواد المجلة الاخرى .

وحتى يؤتي هذا المشروع ثماره وينسجم مع خطة المجلة والهدف من انشائها ، كما حددته اللجنة المشرفة على مشروع (كتابة التاريخ العربي) ، والذي ينص على أن تكون هذه المجلة : « محكا للافكار وميدانا لعرض الآراء الجديدة كيما يثبت الصحيح منها بعد مناقشته » ، فان لجنة الاشراف تود أن تذكر ببعض المنطلقات التي ترجو أن يأخذها الباحثون الاكارم بعين الاعتبار حين اعداد بحوثهم :

١ ــ ان مجلة « دراسات تاريخية » ليست مجلة تاريخية بالمعنى المتعارف عليه في الدوريات العلمية المتخصصة ، بل هي خطوة اولى على درب استكمال مشروع كتابة التاريخ العربي ، المشروع الام ، تحاول طرح الجديد في ميادين البحث التاريخي العربي ، وتسليط الاضواء على التيارات العامة التي حركت تاريخ أمتنا ، وما نجم عن ذلك من اتخاذ هذا التاريخ خط سير ، له مواصفاته النابعة من طبيعة الاحداث والبيئة المحلية والظروف التاريخية الدولية التي واكبت قيام الحادث ومسيرته .

٢ ــ الهدف من لجوء المجلة الى اسلوب الملف ، وتناول الموضوع الواحد من جوانبه المتعددة وبأقلام باحثين متخصصين ، كما أشرنا في المقدمة ، ليس تجميع المعروف والمتداول فحسب ، بل تصحيح ما شوه منه وكشف الزيف ان وقع ، واستكمال ما لم يستكمل ، وايضاح ما كان يلفه الغموض أو لم ينل عناية الباحثين من قبل . بالاضافة الى كل ما يمكن ان يثير جدلا علميا واعيا ، لابد وأن ينتهي بالتقاء

الآراء عند الحقائق العلمية الموضوعية التي تعرض على معايير النقد والمنهجية العلمية التاريخية ، التي هي السبيل الامثل للوصول الى الحقيقة التاريخية الاصيلة .

٣ ــ تظل المجلة في مشروعها هذا ، وفي كل ما تقبله للنشر ، ملتزمة بمبادىء العمل التي أعلنتها في عددها التمهيدي ، والتي نصت على أن كتابة التاريخ العربي يجب ان تتم من خلال منظورات ثلاثة ، هي : **المنطلق الوحدوي ، والفهم الحضاري للتاريخ ، والتقيد بأسلوب البحث العلمي .**

أيها القارىء الكريم :

بهذه التذكرة السريعة بأهداف مجلتنا ومنطلقاتها في العمل التاريخي ، نتوجه اليك راجين أن تلقى دعوتنا للاسهام في مشروعنا الجديد ، ما تستحق من غيرتك القومية ، وما عرف عنك من التزام جاد بالمنهجية العلمية ، وما لك من مساهمات جادة ومشكورة في خدمة تاريخ أمتنا العربية الماجدة .

معالم الحضارة العربية الإسلامية في إفريقية

د . محي الدين صابر

المدير العام للمنظمة العربية للتربيـة والثقافة والعلوم

١ ــ تمهيــد :*

يستدير قرن من الزمان ، شهدت فيه الانسانية وقائع غير مسبوقة في تاريــخ البشرية ، لا كما ولا كيفا ، فالتطور الاجتماعي والطفرة العلمية والتكنولوجية ، والآثار المترتبة على هذا كله في مختلف مجالات الحياة ، وما يترتب عليه من نتائج ، كلها امور هي فوق قدرة التنبؤ الانساني . وقد شهدت افريقيا ، في هذا القرن أحداثا ، أفضت الى تغيير نوع الحياة فيها تغييرا اساسيا . فافريقيا شهدت في هذا القرن ، الاستعباد الكامل ، ثم عاشت الصراع والنضال وادركت الحرية ، وفقدت الكثير ، واكتسبت الكثير ، ولسنا هنا بصدد تقويم ما حدث ، فما الذي يمكن أن نفعل في هذه المناسبة اذن ؟ . . ان التاريخ من حيث هو عمل انساني ليس ظاهرة مجانية ، وليس صدفة ولكنه واقع اجتماعي له منطقه ، ومهما يكن من أمر فان قيمة التاريخ هي في قدرته على توجيه صناعة التاريخ في المستقبل .

ومن هنا رأيت انه خير من الخير ، ان نتجه في هذا العرض الى مناقشة بعض المفاهيم المتصلة بموضوع : « الحضارة العربية الاسلامية في افريقيا » الى التاريــخ المستقبلي لهذه الحضارة في افريقيا والى القضايا والمشكلات التي تحيط بالموضوع .

٢ ــ الحضارة العربية :

الحضارة العربية ، كانت ابدا حضارة متنوعة ، عضويا ، ومنفتحة على حضارات

---

* القي ملخص هذا البحث في المؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، دمشق ١٦/١ ــ ٢٢ جمادي الاخرة ١٤٠١ هـ / ٢٠ ــ ٢٦ نيسان ١٩٨١ م .

العالم وظيفيا متفاعلة معها ، مانحة ومتقبلة ، فقد عرف العرب في جنوب الجزيرة الحضارة الزراعية المتقدمة وحياة الاستقرار ، وفي الشمال مارسوا الرعي ، والفـوا حياة البداوة . وتقاسمت حضارة العرب وسائل النقل ، فللعرب في البحر خبرة ، ولهم بالصحراء بصر ، فكانت سفنهم في البحر وقوافلهم في الصحراء تصلهم بمن حولهم ، وهكذا عادت الموانع الطبيعية بالنسبة اليهم وسائل اتصال ، فاحتكروا وسائل المواصلات ، وسيطروا على التجارة الدولية ، فكانوا على علاقة خارجية دائمة ،وكان لهم دورهم السياسي في ميزان القوتين الكبيرتين آنذاك ، الفرس والروم .

وقد ظلت اللغة العربية ، المظهر الحضاري المشترك بينهم . ولما كرمها الله ، فأنزل بها كتابه القديم ، القرآن الكريم اجتمعت به لهجاتهم وتوحدت به عقيدتهم فكان ذلك منعطفا تاريخيا في الحضارة العربية ، والانسانية معا ، ذلك أن اللغة العربية أصبحت وعاء الدين الاسلامي ، وتحمل العرب مسؤولية الدعوة اليه ، ومسؤولية الجهاد في سبيل نشره في الخافقين . وقد افضى هذا الى تبدل أساسي في الحضارة العربية ، في مضمونها الجديد ، مما ادى الى تغييرات جوهرية في البناء الاجتماعـي العربي الجديد ، من حيث التوزيع السكاني ، وتقسيم العمل ، والعلاقات الاجتماعية وفي الدور والمكانة الاجتماعيين ، وبهذا لم تعد اللغة العربية ، هي لغة العرب وحدهم، بل أصبحت لغة المسلمين ، كل المسلمين ، فالاسلام أنزل للناس كافة ، والقرآن نزل بلسان عربي مبين ، وهكذا التقى المسلمون والعرب لقاء متكافئا ، فاتسع بذلك نطاق الحضارة العربية اجتماعيا اتساعا كبيرا ، واستقبلت روافد جديدة .

٣ ـ الحضارة العربية الاسلامية :

وهكذا نشأت الحضارة العربية الاسلامية ، في صورتها الجديدة في ظل الاسلام الذي هو نظام حضاري متكامل وشامل ، انزله الله هدى للناس ورحمة ، وهو آخر الرسالات السماوية التي أتم بها الله نعمته على الانسان خليفته في الارض ، وحمله بها المسؤولية الانسانية ، وبلغ رسوله الكريم محمد بن عبد الله صلوات الله عليه الرسالة فأداها أمينا ، وانشأ مجتمعا انسانيا ، تسوده العدالة والمساواة ، وفي ظل الحضارة العربية الاسلامية انتقلت البشرية نقلة حضارية نوعيـة ، فتحت طريق التقدم البشري .

ومهما يكن من أمر ، فان الحضارة العربية الاسلامية وان كانت هي سعي المجتمع الاسلامي ، من كل عرق، فانها حضارة يجمعها بالعروبة نسب عضوي ، من حيث أن اللغة العربية هي وعاء الفكر الاسلامي ، وبها تتم الواجبـات الدينية الاسلامية

الفردية والجماعية ، وفي ظل الاسلام نمت الثقافة العربية وأصبحت لغة العالم المتقدم في العصر الوسيط ، وعلى الرغم من الاوضاع السياسية للشعوب الاسلامية ، فان التراث العربي الاسلامي يعتبر تراثا لا مثيل له في أمة من الامم التاريخية ولقد أغنى الثقافة العربية غنى لا فقر بعده .

٤ ـ الحضارة العربية الاسلامية والافريقية :

ظلت افريقيا ذات صلة قديمة بالحضارة العربية قبل الاسلام بقرون ، فهي جغرافيا ، موصولة برا وبحرا بالامة العربية؛ فكان البحر الاحمر ممرا دائما يصل بين جنوب الجزيرة وشرق افريقيا ، كما كانت الرياح الموسمية بين الخليج العربي وشرق افريقيا وسيلة طبيعية ومثالية لسيولة التعامل التجاري على ان العرب قد وجدوا طريقهم الى شمال افريقيا ، واستقروا في واحاتها وبواديها منذ وقت مبكر .

ان هجرة اوائل المسلمين من مكة نجاة من أذى مشركي قريش الى الحبشة ، تعبير عن التبادل الاجتماعي بين العرب والافارقة ، الذين كانوا قد اختلطوا من قبل تجاريا وسياسيا وفكريا ، وتعاونوا ، وتنافسوا وتصارعوا ، وتسالموا وتحالفوا ، فافريقيا ، كانت اكثر المناطق تعاملا مع المجتمعات العربية ، ولم تتصل افريقيا في كل أجزائها بالعالم الخارجي أكثر مما فعلت مع العرب، ولم تتوحد افريقيا في تاريخها الى اليوم حول عقيدة واحدة ولغة واحدة ، الا تحت الثقافة العربية الاسلامية .

فقد كان العرب سادة البحار حول افريقيا ، حتى ان المكتشف البرتغالي الشهير فاسكودى غاما ، اتخذ البحار العربي ، وعالم البحار احمد بن ماجد دليلا له ، فاعانه على الابحار في شواطىء افريقيا . وهكذا فان الافارقة لم يتأثروا في حياتهم ، كما تأثروا بالحضارة العربية الاسلامية ، ولقد كانت افريقيا حتى مطلع القرن العشرين ، تعتبر نفسها ، قطعة من العالم العربي الاسلامي ، سياسيا وثقافيا ، فقد ظلت مركزا هاما من مراكز الثقافة العربية الاسلامية . ففي تومبكتو وحدها ، فيما يعرف الان بجمهورية مالي ، كان في القرن السادس عشر ، اربع جامعات عربية اسلامية ، وخرجت العلماء الاجلاء الذين اغنوا الفكر الاسلامي ، واللغة العربية ، بمخلفاتهم التي تزخر بمخطوطاتها المكتبات العالمية، مثل أحمد باباالمعروف بعالم التكرور وصاحب كتاب « نيل الابتهاج بتطريز الديباج » ومثل الحاج عثمان دان فوديو ، في كانو . وما يزال فيها الى اليوم علماء اجلاء ، في شمال نيجيريا بصفة خاصة ، في العلوم الاسلامية والعربية .

وقد ظلت الصلة الحميمة بين المؤسسات العلمية في أقصى القارة الافريقية وبين علمائها ، وبين المؤسسات العلمية والعلماء المسلمين في المغرب ، وفي مصروفي الحجاز ، متصلة وقوية ، فكانوا يتبادلون الرسائل والفتاوى والزيارات مع كثير من علمائها أمثال الامام الشيخ جلال الدين السيوطي والشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي المغربي .

كذلك ، فلقد تأثر فن العمارة في غرب افريقيا ، بالنمط العربي الاندلسي في بناء قصور الملوك والجوامع والمساجد ، وفي شرق افريقيا بالنمط الخليجي الذي جاء من عمان ، والذي يقوم دليلا حيا ، حتى الان ، في الصومال وتنزانيا ، وكينيا ، في الاثار الكثيرة القائمة هناك .

وعلى نفس المستوى من العلاقة فان اللغات الافريقية عرفت الكتابة لاول مرة عن طريق الحرف العربي ، وهناك نحو من ثلاثين لغة افريقية، لها تاريخفي هذاالحرف.

هذا وقد تأثر الافارقة في مذهبهم الديني بالمغرب والمشرق العربيين معا ، فهم جميعا يكادون يكونون سنيين ـ مالكيين الا عددا من الاباضيين في شمال افريقيا ، وفي غربها ، كذلك فان هناك بعض الذين يتبعون المذهب الشافعي في شرق افريقيا وهم في ذلك متأثرون ببعض جهات اليمن ، وكلهم سنيون . وقد تبنى الافارقة كذلك الطرق الصوفية المنتشرة في المشرق العربي مثل القادرية والاحمدية والشاذلية ،على ان بعض هذه الطرق نشأت في افريقيا ، مثل التيجانية والسنوسية والميرغنية . وكان لهذه الطرق ، دور كبير في نشر الاسلام ،وقد تصدى بعضها لمقاومة الاستعمارالاوروبي في القرن التاسع عشر ، ومطلع القرن العشرين ، وما يزال دورها كبيرا ، بين الجماهير الافريقية ، حتى اليوم ، فهي الرابطة الشعبية القومية بين المجتمعات الاسلامية هناك، فأتباع الطريق الواحد ، يعيشون في اخوة وثيقة ، ويكونون مجتمعا واحدا .

ولقد اهتم المؤرخون العرب منذ وقت مبكر بافريقيا ، وكتبوا عنها كتابات وثيقة، مثل المسعودي وابن حوقل ، وياقوت ، والبكري ، وابن بطوطة ، والحسن بن محمد الوزان المعروف بليون الافريقي ، والقلقشندي ، وابن خلدون ، وعبد الرحمن السعدي ، وغيرهم كثيرون . ومنهم من تجول فيها وعاش بين مجتمعاتها ، فكانت معلوماتهم مباشرة ، وميدانية .

وهنا ينبغي ان نسجل ظاهرة بارزة ، وخصوصية حضارية ، هي انه لم تظهر في افريقيا منذ تلقت الرسالة الاسلامية والثقافة العربية ، اتجاهات عنصرية ، ولا

محلية ، بل كان هناك توحيد مطلق ، وتكامل حقيقي ، وتفاعل عضوي بين الحضارة الاسلامية ، والحضارات الافريقية ، بل ان الافريقيين وحدوا بين الفكر الاسلامي والثقافة العربية ، وكانوا يرون انه من تمام الاسلام ، الانتساب الى العروبة ولهذا فاننا نجد كثيرا من الجماعات والافراد منهم يصلون انسابهم بالعرب ، ونجد من كبار العلماء والقادة وبخاصة في نيجيريا ، وفي غرب افريقيا من ينتسب الى السلالة النبوية ، وهذا يدل على الاعتزاز بهذه الحضارة التي وجدوا فيها حقيقتهم ، وانه من العسير ان يقوم مثل هذا الاتجاه ، بين المسيحيين الافريقيين ، مهما بلغت درجة ثقافتهم الاوروبية ، او تدينهم ، فليس بينهم ، من يدعي انه جزء من التكوين البشري الاوروبي ، واذا فعل ، فلن يجد من يصدقه ،وانما يجد من يسخر منه ، فيقول : انكليزي اسود ، أو فرنسي اسود . أما في ظل الاسلام ، فقد كان يقبل انتسابه الى العرب ، يقبله الافريقيون ويقبله العرب اجتماعيا ، وبصورة طبيعية . بل ما هو وضع الافريقي الذي يولد من أم افريقية وأب اوروبي اليوم ، فهو وان كان يحمل الجنسية السياسية الاوروبية ، الا ان له اسما خاصا هو « الهجين » ، وهو لقب اقرب الى السخرية ، فهو فوق الافريقي قليلا ودون الاوروبي كثيرا ، فوضعه الاجتماعي غير محدد ، وقد تكونت من هؤلاء طبقة جديدة ، في مختلف القارات ، لا نكاد نجد لها انتماء اجتماعيا واضحا .

٥- افريقيا الاسلامية والعربية :

ان افريقيا ، كانت تطلق في الكتابات العربية القديمة على تونس اما القارة الافريقية كما تعرف ، الان ، فانها أصبحت وطنا تاريخيا وجغرافيا للكثرة الكاثرة من شعوب الامة العربية دولة ، ودينا ولغة ، فهناك تسع دول من اعضاء جامعة الدول العربية في افريقيا ، ويناهز السكان العرب ثلث سكان القارة ، ففيها حوالي ٨٠٪ من سكان الوطن المغرب العربي ، واللغة العربية هي أكبر اللغات القومية في القارة التي تتكلم بها مجموعة ثقافية واحدة ، بما في ذلك اللغات الاوروبية . وقد جاء في ميثاق منظمة الوحدة الافريقية ، ان اللغات الرسمية للعمل في المنظمة هي اللغات الافريقية والانكليزية والفرنسية ، وحين اقترح احد الزعماء الافارقة ، تخصيص اللغة العربية والنص عليها باعتبارها اكبر لغة قومية في افريقيا ، راى احد الزعماء العرب الاكتفاء بالنص المقترح اصلا ، على اعتبار ان اللغة العربية انما هي لغة افريقية

وهكذا كان .. فثبت بذلك حقيقة تاريخية وحضارية ، بوعي وادراك عميق لحقيقة العلاقات العربية الافريقية(١).

وافريقيا التي نتحدث عنها في هذا السياق ، انما هي الدول الوطنية التي تقوم في غرب ووسط وجنوب افريقيا من السكان الافريقيين ... والتي ينتشر الاسلام فيها انتشارا واسعا .

ان رابطة الدين بين الافارقة المسلمين ، وبين العرب ، رابطة عميقة وهي بطبيعتها رابطة تمتد الى العروبة ، فاللغة العربية هي اداة العبادة الدينية والقرآن الكريم هو كتابهم ، وما تزال مكاتب تحفيظه قائمة في كل القرى ، وفي كل المدن في المناطق الاسلامية ، يحفظونه ويكتبونه ، وان كانوا لا يفهمونه لتجهيلهم المخطط باللغة العربية .

هذا ،وقد ظل الافارقة ، وخاصة المسلمين منهم ، يقفون مع القضايا العربية دوليا وفي مقدمتها قضية فلسطين .

فهذه الرابطة الروحية لها على العرب حقوق ينبغي ان تؤدى ، والى جانب ذلك ينبغي ان تنمى عن طريق العون الثقافي والاقتصادي والتعاون السياسي ، وينبغي كذلك ان تدرس القضايا المتصلة بذلك ، دراسة موضوعية ، وان يتصدى لها ، بالحلول من خلال استراتيجية عربية اسلامية .

٦ ـ القضايا الافريقية :

اصبحت افريقيا اذن في ظل الاسلام امتدادا جغرافيا ، وتاريخيا ، وثقافيا للوجود العربي الاسلامي ، بصورة غير مسبوقة في حياتها ، لا حجما ولا نوعا ، وقامت في كل انحائها ، غربها وشرقها ، ووسطها ، وشمالها ، الدول الاسلامية والمدن التاريخية والجامعات والمراكز الثقافية العربية الاسلامية ، واصبحت اللغة العربية هي لغة السياسة والفكر والتجارة واصبح الدين الاسلامي هو الدين السائد ، وكان هناك ستة وثلاثون طريقا بريا عبر الصحراء الكبرى ، تربطها بالوطن العربي في انحائه

---

(١) الزعيم العربي هو : الرئيس جمال عبد الناصر ، وكان الرئيس أحمد سيكوتوري ، اقترح افراد اللغة العربية والنص عليها اشادة بالدور العربي في نضال الشعوب الافريقية ، وفي انشاء المنظمة. (محمد فائق) عبد الناصر وافريقيا .

المختلفة ، ولم تكن هناك مؤسسة تجارية كبرى في المغرب ولا من مدن الصحـــراء العربية ، الا وكان لها فروع في قلب افريقيا ، وذلك فوق الطرق البحرية على شاطىء البحر الاحمر والملاحة الموسمية عن طريق الخليج العربي والبحر الهندي من عمـــان والعراق على شواطىء شرق افريقيا ، وقامت المستقرات العربية الثقافية والتجارية في شرق افريقيا وفي وسطها .

وحين بدأ الاوربيون منذ القرن الخامس عشر يقتربون من الشواطىء الافريقية قاومهم العرب ، وصمد العمانيون بوصف خاص ، في وجههم ، قرونا ينازلونهم ، وقد أوقع الاسطول العربي بهم أكثر من هزيمة ، وطردهم من شرق افريقيا واجلاهم عن مواقعهم مرات ، وكان للعروبة والاسلام وجود افريقي قادر في كل بقعة من افريقيا ، حتى القرن التاسع عشر ، في سلسلة من الممالك التي أقامهـا الافريقيـون ، وكان للعمانيين وجود امتد من شواطىء كينيا وتنزانيا حتى قلب افريقيا ، وفي كل مكـان وصل اليـه الاوربيون آنذاك ، كانوا يجدون المستقرات العربية ، فالبلجيكيون حين وصلوا الى الكونغو وجدوا المستقرات العربية المنتشرة حول البحيرات الكبرى ، في صلة مع النظم العربية الافريقية في زنجبار ، ولم يتيسر لهم اخضاع المنطقة الا بعد الغدر بزعماء العرب وعلى رأسهم الحاج البهبهاني ، وامتد النفوذ العربي الى الجزر الافريقية خارج القارة ، فكان للعرب المسلمين مستقرات في جزر القمر ، تستمد وجودها الشرعي من السلطان العربي في زنجبار ، وقد ظل النفوذ العربي هناك حتى الستينات من هذا القرن حتى تم الاتحاد بين هذه الجزيرة ، التي لعبت لقرون دورا هاما في مسيرة العلاقات العربية الاسلامية الافريقية ، وبين تنغانيقا بعد استقلالها ليقوم اتحاد جمهورية تنزانيا . فالتأثير العربي الاسلامي ، شمل كل نظام الحياة الافريقية في العقيدة وفي الاقتصاد وفي نمط الحياة الاجتماعية وفي التقاليد والعادات ، وما يزال المسلمون حتى اليوم يعرفون بملابسهم العربية ، والقارىء لرحلة ابن بطوطـة ، في القرن الرابع عشر الميلادي يدرك في وضوح ان البيئة الافريقية ، تأثرت بالبيئة العربية الاسلامية وعاشت حضارة نمت نموا طبيعيا في مناخ ايجابي تلقاها برضى وتكامل معها .

ففي ظـل اللقـاء العربي الاسلامـي الشامـل ، حققت افريقيـا وجودهـا الحضاري الكامل والمتميز ، وحملت اضافتها الى الحضارة العالمية عن طريق اللغة العربية والفكر الاسلامي ، وأقامت الاسس التاريخية للدول الافريقية ، بعد ان عاشت حضارة قبلية ضيقة ، ومعزولة قبل تلقي التأثير العربي الافريقي .

ومن الظواهر المعبرة أن الدول الافريقية الحديثة حين استقلت من الاستعمار الاوروبي عادت الى احياء أسماء الدول الاسلامية كغانا ، ومالي اعتزازا بالتراث

الافريقي ، ذلك التراث الذي يشكل وحده،الشخصية الافريقية،والحضارة الافريقية الشاملة التي صنعها الافريقيون على اساس انساني ، وفي صورة جماعية وفي صلة مع حضارة من اعظم الحضارات العالمية ، هي الحضارة الاسلامية العربية . وقد حدث هذا الاتجاه الى الاعتزاز بالماضي على اساس حضاري ، وليس على اساس ديني « فنكروما » الذي غير اسم ساحل الذهب ، الى غانا ، كان مسيحيا ،معتزا بالتراث الافريقي .

٧ ــ افريقيا والاستعمار والمقاومة :

وفي عهد الاكتشافات البحرية ، وعصر البارود الاوروبي وعصر التجارة الشرقية، ونمو الطبقة البرجوازية ، وامتداد الكنيسة الكاثوليكية ، كانت افريقيا الهدف القريب لاوروبا ، فاصابها من الاستغلال الاوروبي الكثير من النكبات ، فكان الاوربيون يطوفون حول شواطئها دون التجرؤ الى التوغل فيها ، وبدأ الاستنزاف البشري الذي لا مثيل له في التاريخ عن طريق الخطف والصيد البشري ، حين ابتدع الاوروبيون ونظموا تجارة الرقيق التي أصبحت التجارة الاوروبية الاولى ، خلال اكثر من قرنين من الزمان ، نقلوا في خلالهما من افريقيا الى مزارع القارة الجديدة في امريكا الشمالية والجنوبية ، ما يزيد عن مائة مليون افريقي في ظروف غير انسانية ، حتى ان بعض هؤلاء الضحايا كانوا يؤثرون الموت غرقا ، يقذفون بانفسهم في عرض المحيط ، نجاة من العذاب الذي كانوا يلقونه ، وهم مقيدون كالحيوانات في سفن القراصنة . وفي كتب الغربيين انفسهم ، وبشهادتهم تقوم الادلة على هذه الجريمة الانسانية البشعة(1).

وحين كسدت هذه التجارة، ليس لاسباب انسانية كما يدعون ، وليس لان رجال الكنيسة أو السياسيين والمفكرين الاحرار في أوربا وامريكا ، كان لهم دور مؤثر في هذا كما يزعمون ، ولكن لاسباب متصلة بالتكوين الاقتصادي الاوربي نفسه ، وذلك بنشوء الصناعات في شمال امريكا ،واحتياج تلك الصناعات الى عمال لا يقاضونهم أجرا عاليا ، اتجهوا الى الرصيد البشري الذي يعمل في مزارع الجنوب من العبيد الضحايا فكانت معركة بين نظام الانتاج الزراعي ، والانتاج الصناعي .

حينئذ اتخذت عملية تحرير العبيد صورة سياسية عنيفة ، واحيطت باعتبارات انسانية ، وبقيم اخلاقية ، لا ينكر أحد فضلها وأهميتها ، ولكن ينبغي أن يكون في اعتبار الدراسة الجادة لهذه الحركة ، ان هناك عاملا اقتصاديا ثابتا ، هو الصراع بين

---

(1) S. Mintz, **Esclave, facteur de production,** Bordas, Paris 1981

نوعين من الانتاج الاقتصادي ، الانتاج الزراعي ، والصناعي ، وان قضية اليد العاملة الرخيصة التي تتمثل في العبيد الافريقيين ، كانت من محاور ذلك الصراع .

وحين كسدت تجارة الرقيق فكر الاوروبيون في اقتحام القارة ، والاستيلاء على ثرواتها الطبيعية مباشرة ، بعد ان استنفدوا استغلال الثروة البشرية ، أو كادوا، وبدأت المقاومة الافريقية منذ القرن الثامن عشر وبلغت مداها في القرن التاسع عشر وفي النصف الاخير منه واستمرت في مطالع القرن العشرين . وهنا يبرز دور الحضارة العربية الاسلامية في الصور الرائعة من النضال والجهاد ، فقد قاد الافريقيون الدفاع عن وجودهم الحضاري ، سياسة وعقيدة وثقافة . وقائمة المجاهدين والمقاتلين طويلة، ونكتفي هنا بنماذج معروفة عالميا فالامير عبد القادر في الجزائـر ، والحاج عمر تالي في غرب افريقيا والحاج عثمان دان فوديو ، في وسط افريقيا والشيـخ عبـد الله الحسن في شرق افريقيا الصومال ، كلهم نماذج من الفداء والعطاء ، تصدوا تحت رايـة الاسلام والعروبة لاسلحة الدمار الاوروبية الحديثة وكلفوا المعتدين ثمنا غاليا من الضحايا ، هذا الى جانب ما قامت به ثورة المهدي في سودان وادي النيل ،والتي وصلت الى اعماق افريقيا ، ونضال رابح الزبير ، ضد الاستعمار الفرنسي في الكمرون وتشاد دفاعا عن الاسلام والعروبة ، وما قامت به الحركات السنوسية التي كانت مراكزها الدينية ، وزواياها العربية الاسلامية تمتد على طول الصحراء الكبـرى ، والسودان الاوسط والتي كانت مراكز مقاومة للاستعمار حتى مطلع القرن العشرين ، والشهيد عمر المختار في ليبيا والامير عبد الكريم بطل الريف في المغرب الى آخـر القائمة المشرفة ..

فالدفاع عن الحقيقة الافريقية ، وعن الاصالة الافريقية تم تحت راية الاسلام والعروبة ، واصبـح السعي الافريقي جزءا من الحضارة العربية الاسلامية ، ورافدا حيا من روافدها الكبيرة .

٨ ـ افريقيا واوروبـا :

تم تقسيم افريقيا ، في مؤتمر برلين الشهير عام ١٨٨٥ واصبحت كلها تحت النفوذ السياسي والحربي المباشر .

وهنا وجد الاستعمار نفسه وجها لوجه امام القوة العربية الاسلامية ، وهي القوة الاجتماعية المتقدمة التي قاومت الاستعمار الاوروبي في كل انحاء القارة ، وقادت الثورات ضد وجوده .وقد تمثلت المشكلة اولا في العقيدة الاسلامية التي

ظلت عقبة حقيقية في وجه النشاط التبشيري المسيحي ،وتمثلت ثانيا في الثقافة العربية التي حالت دون الانتشار الثقافي الاوروبي ، فقد كانت معاهد التعليم كلها عربية دون استثناء ، وذلك بعد ان حسم الاستعمار بالقوة الحربية مسألة السيادة الوطنية ، لكن السيادة الاجتماعية لم تكن ميسورة امام عقبتي العقيدة والثقافة ، وادرك الاستعمار ان القضية قضية أجيال ، ومع ان لكل نظام استعماري اسلوبه الخاص في التعامل مع الحضارات المغلوبة ، فالطريقة اللاتينية هي افناء الشخصية الحضارية المغلوبة في الشخصية الحضارية الغالبة عن طريق الهضم والتمثيل والاحتواء والاستيعاب Assimilation والطريقة الانغلوسكسونية هي طريقة التعايش والتكيف والاسلوب غير المباشر Indirect rule مع هذا ، فلم يكن هناك وسيلة عملية امام الاصرار الجماعي الا اللجوء الى سياسة النفس الطويل والاعتماد على الاجيال القادمة.

وهكذا فعلوا ، فأقاموا المدارس لتكون مؤسسات للتجنيد الديني والثقافي ، حتى ان بعض النظم الاستعمارية كالنظام البلجيكي اسند امر التعليم كله ، الى الكنيسة الكاثوليكية تتولاه بعثات التبشير ، وبعضها قسم هذا التعليم بين الطوائف المسيحية ، واعطى لكل طائفة منطقة نفوذ كما فعل النظام الانكليزي ، وذلك لاحداث صراع بين هذه الطوائف ، يصرفها عن التدخل في الشؤون الادارية .

ومهما يكن من امر فان هذه المدارس كانت تقوم بتعليم لغة المستعمر ، التي هي نفسها لغة التعليم ، وفي الوقت نفسه تقوم بتنصيرهم ، وتعميدهم وتغيير اسمائهم باسماء مسيحية . وأمسك المسلمون عن ارسال ابنائهم الى تلك المدارس خوفا على عقيدتهم ، فعمدوا الى الفئات الضعيفة ، والمرتبطة مع النظام بصورة من صور النشاط ، وكان كل النشاط الاجتماعي في يد المستعمر . وكان من نتيجة ذلك انه غداة استقلال هذه البلاد ، لم تكد تكون هناك طبقة من المتعلمين تعليما مدنيا من بين المسلمين ، الا من تعلم في البلاد العربية او الاسلامية ، فكان معظم رجال السياسة والادارة والتعليم والاقتصاد والتنظيم والحرب كلهم من المسيحيين الافريقيين ، الذين تعلموا في المدارس الاوروبية ، ونتج عن هذا ان الحكومات الوطنية التي خلفت الاستعمار قامت في غالبيتها العظمى على هذه الفئة ، حتى أن بعض البلاد التي تبلغ نسبة السكان المسلمين فيها اكثر من ٩٠٪ يقوم عليها رؤساء مسيحيون ، ولم ينفتح المسلمون على هذه المدارس الا بعد الاستقلال .

وهنا ينبغي ان نلاحظ ان هذه المدارس نفسها تحمل في ذاتها مشكلة حضارية كبرى ، لانها أصبحت مصدر الاغتراب الثقافي والاستلاب الحضاري ، والى جانب محاربة اللغة العربية والثقافة العربية الاسلامية ، واحلال اللغات الاوروبية والديانة

المسيحية مكانهما ، كانت هناك جهود موصولة لفصم عرى الثقافة العربية الاسلامية في افريقيا ، فعكف الاوربيون على دراسة اللغات المحلية ،ووضع قواميسرا فريقية أوروبية وتم التخطيط لتغيير الحرف العربي ، الذي وعى كل النشاط الفكري العلمي والثقافي الافريقي خلال قرون طويلة ، واستبدلت الحروف اللاتينية بالحروف العربية ، وقد نجحوا في ذلك رسميا ، وواقعيا ، وقد تم ذلك في الثلاثينيات بالنسبة للغات الكبرى ذات التراث الثقافي الضخم في الحرف العربي مثل الهوسا في غرب افريقيا ، والسواحيلي في شرقها .

لقد نجح الاستعمار في احلال لغته محل العربية في افريقيا ، التي يقسمونها اليوم الى قسمين : المتحدثين بالفرنسية (الفرانكفونيين) من ناحية والمتحدثين بالانكليزية (انغلوفونيين) من ناحية اخرى ، وكأن المتحدثين باللغات الافريقية ليسوا أفارقة ، أو كأن تلك اللغات الافريقية ليست لغات وليس لها وجود ثقافي او اجتماعي عند الافارقة ، بحيث يعرفون بها ، وكأن المتحدثين باللغة العربية ، من العرب في افريقيا ، ليسوا افارقة ، وكأن اللغة العربية ليست اوسع انتشارا من أي لغة اوروبية منفردة ، وبخاصة على المستوى الجماهيري، وكأنها ليست حتى الان ، ما زالت في هذا المستوى ، فهي لغة التخاطب ، بين القبائل ، وبخاصة في غرب افريقيا .

وان الوضع الثقافي الخطير حقا في هذا الشأن هو أن اللغات الاوروبية التي شاعت في ظل الاستعمار ، هي اليوم اكثر انتشارا ، منها عشية خروج الاستعمار ، وانها تزداد انتشارا بين الاجيال الجديدة ، ذلك لان سبيل تعليم اللغة الاوروبية كانت هي المدرسة ، ولم تكن المدارس كثيرة العدد في ايام الاستعمار ، ولم يكن ذلك مرغوبا ، لان الاستعمار لا يريد بصفة عامة تأهيل المستعمرين ، وتسليحهم بالمهارات الا في حدود معينة ، ومستويات محددة ، كمساعدين له ، ثم لاحجام المسلمين عن تلك المدارس خوفا على عقيدة ابنائهم .

اما بعد الاستقلال فان التعليم أصبح حقا ، وصار الطلب عليه ، كما هو الحال في كل البلاد النامية ، عاليا ، لانه طريق الحراك الاجتماعي من ناحية ، ثم لارتفاع الحرج الذي كان يلاقيه المسلمون من التعليم المرتبط بالكنائس من ناحية اخرى ، اما لغة التعليم فقد ظلت هي اللغات الاوروبية في كل المستويات ، اذا استثنينا ، بلدا كتنزانيا ، حيث تقوم السواحلية بدور ملحوظ في التعليم العام ، في المواد الاجتماعية، اما التعليم العالي فانه يكاد يكون وقفا على اللغات الاوروبية ، ومعنى هذا ان الافريقيين هم الذين ينفقون من مواردهم القليلة ، على نشر اللغات الاجنبية ، وتأصيلها

في افريقيا ، على حساب اللغات الافريقية ، وبهذا يسهمون ايجابيا في عمليات الاستلاب الثقافي .

وارضاء لدعوات بعض الافارقة المستنيرين للعودة الى الاصالة الافريقية ،بدأت فكرة « اعادة » كتابة اللغات بالحرف اللاتيني ، واستعمال تلك اللغات في المراحل الاولى من التعليم العام ، ويتم تعليم اللغة الاجنبية الاولى جنبا الى جنب مع اللغات الافريقية التي تتوقف عند مستوى معين ، ليستمر التعليم بعد ذلك في مراحل التكوين الاساسية باللغات الاجنبية .

هذا ، وقد ظلت المناهج التعليمية في اطارها العام ، وخاصة فيما يتعلق بافكار الثقافة الاسلامية والعربية ومحاربتها ، وبالنظرة العدوانية للعلاقات الافريقية كما هي. وهي مناهج مضللة وبخاصة المناهج الاجتماعية وهي تقوم في كل النظم التعليمية في افريقيا ، على الاتفاق في مهاجمة الحضارة العربية الافريقية ، وتشويه الصلات العربية الافريقية وتصويرها على انها صلة قائمة على الاستغلال ، وان العرب لم تكن لهم رسالة في افريقيا ، الا بيع الافارقة والمتاجرة فيهم . بحيث اصبحت هذه الاساطير احدى حقائق التاريخ الافريقي عند المثقفين الافريقيين ، ذلك الى جانب التهجم المفضوح والكاذب على الاسلام ، وعلى تعاليمه السمحة ، والتعرض لسيرة الرسول العظيم بالافتراء المشين ، وذلك امعانا في توهين الصلات الافريقية العربية الاسلامية ، لانهم يعلمون انه ليس هناك بديل مجذر واصيل ، في افريقيا ، لثقافتهم الا الثقافة العربية الاسلامية ، التي يجعلون همهم الاكبر ، النيل منها ، وصرف الافارقة عنها ، وتكوين اتجاه معاد لها ، ثم تنمية ذلك الاتجاه بكل الوسائل . ولقد وجد الاوروبيون انه لا يمكن ان يدعوا، اذا ارادوا ذلك وهم لا يريدونه، عزة وكبرا ، أنهم والافريقيين سواء ، حضارتهم افريقية ، أو ان الحضارة الافريقية هي حضارة اوروبية متقدمة ، والا فلماذا جاؤوا لتمدينهم وتحضيرهم ؟ فعمدوا حينئذ الى خلق اسطورة الزنوجة Megritude .وهي فكرة بدأت في نطاق الادب وسطا بين الرومانتيكية والسيريالية وانتشرت في أعقاب الحرب العالمية الاولى مستمدة اصولها البعيدة من كتابات الادباء الامريكيين السود ذات الجذور الاجتماعية والسياسية ، وهي تقوم على الدعوة الى تقديس الماضي الذهبي الافريقي المتمثل في الفنون وبخاصة الفن التشكيلي والنغمي وفي الفولكلور والمواريث الشعبية ، وقد استفاد منها في ذلك الوقت بعض المناضلين الافريقيين على اساس ان ذلك يبرز التناقض بين الثقافة الافريقية كيفما فهمت ، او افهمت ، وبين الحضارة الاوربية . ولكن سرعان ما انجرفت الفكرة وبدا الامر وكأن مفهوم الحضارة الافريقية منحصر ،في الرأي العام العالمي، في التماثيل

الخشبية ، في الاقنعة،وقبعات الشعر ، والموسيقى الصاخبة، وقلائد الخرزوالنحاس، وهي ابداع انساني ، وتعبير فني ما في ذلك شك ، ولكن ليست هي وحدهاافريقيا.

افريقيا فيها فكر وفيها تنظيم اجتماعي وفيها قيم رفيعة وفيها حكم وتجارب . ومما يثير الريبة ان الاستعمار وبعض المثقفين الافريقيين المغتربين حضاريا ، والذين يماثلونهم بدأوا يستعملون الاصالة الافريقية ، التي يدعونها ، في اتجاه واحد ، حجة ضد الفكر العربي الاسلامي الافريقي ، جاهلين ومتجاهلين كل هذا التراث الافريقي ، الرفيع في مستواه ، والضخم في حجمه وتنوعه ، منكرين أنه انتاج افريقي صميم ، معبر عن الحضارة التي شارك في صنعها الافريقيون انفسهم مشاركة الاصيل المبدع ، لا مشاركة التابع أو المقلد ، سواء فيما اضافوه الى الفكر العربي الاسلامي ، أو فيما كتبوه في لغاتهم بالحرف العربي ، وهي مخطوطات تعتبر مفخرة لمكتبات العالم الكبرى، وان ظلت محجوبة عن اعين المثقفين الافريقيين ، الذين احكم المستعمرون قطع الصلة بينهم وبينها ، بصرفهم عن الكتابة العربية .

٩ ـ معالم الحضارة العربية الاسلامية في افريقيا اليوم :

بعد هذه الاشارات الموجزة ، الى بعض الحقائق ، عبر اتصال تاريخي وجغرافي ممدود بين افريقيا وبين العروبة والاسلام ، تعرض في مسيرته الطويلة ، لاحداث جسام صنعها الاستعمار ، فخلفت وقائع جديدة ، نتساءل بحق ما الذي بقي من معالم الحضارة العربية الاسلامية في افريقيا ، وقد اهتزت القيم وتبدل الفكر وتغير اللسان واختلفت الحياة ونشأت مصالح واستحدثت علاقات ؟.

وهذا السؤال المشروع والمنطقي ، لا يرد على افريقيا وحدها ، بل يكاد يرد في بعض جوانبه على الامة العربية الاسلامية ، في كل مكان ، لان التغيير في حقيقته جزء من الطبيعة العضوية للحضارة البشرية التي تستمر وتعيش في الجدلية الدائمة. فحتمية التغير هي قانونها الاول، ولكن الحضارة المعاصرة مع ذلك تتميز عن الحضارات التاريخية بسرعة هذا التغيير وبكثافته كذلك .

ومع هذا فان الاجابة ليست سلبية ، ففيها جوانب ايجابية كثيرة ، ونقاط بدايات صلبة ومتعددة ، لو سلك الناس في اعادة بناء الجسور بين الوطن العربي ، وبين العالم الافريقي ، المنهجية السليمة القائمة على الفهم الموضوعي للقضايا والمشكلات الافريقية في اطار الواقع الجديد ، واستعانوا على ذلك بالتخطيط المرن والصبر المشترك ، في صورة مؤسسية دائمة وقادرة ، على أن يكون التعاون الثنائي

والجهود الفردية ، وهي أساسية وجوهريـة ، روافد لتلك الخطـة المؤسسية الشـاملة .

وفي هذا الاطار من وضع الوقائع في سياقها ، يمكن القول انه بقي من معالم الحضارة العربية الاسلامية في افريقيا الكثير ..

بقي الدين فيالقلوب ، وبقي القرآن في الصدور . مكاتب حفظه في كل مكان تمتلىء بمتعلميه وقارئيه ، بقي نسيج الحياة المتصل بالعقيدة في السلوك الاجتماعي الروحي ، بقي الانتماء العرقي الذي تمازجت فيه الدماء العربية ، بقي التراثالضخم من الانتاج الفكري والعلمي والثقافي الذي انتجته العقول والمواهب الافريقية المكتوب في الحرف العربي . ينتظر البحث والبعث ، والنشر والاعلام .

بقيت الفنون العربية الاسلامية قائمة في المساجد ، والجوامع ، ومعاهد العلم والقصور .. بقي الحرف العربي ، وعاء خالدا ، في ظل القرآن ، للفكر الافريقي . بقي كل ذلك بجهد الافريقيين انفسهم وبايمانهم ، وباصرارهم وبانتمائهم على الرغم مما تعرضوا له من قهر واكراه ، ومن تأثير غلاب ، يمس وجودهم وحياتهم اليومية .

وهنا ينبغي أن نذكر أن كل شيء في الحياة الاجتماعية جمع بين العربوالافارقة، في وجودهم المشترك فالاسلام لم يدخل افريقيا غازيا الى جانب انه لم تكن هناك فوارق عرقية واضحة بين العرب والافارقة في اللون ، فالعرب سمر ، والخضرة الوان العرب ، كما يقولون ، هذا الى جانب تقارب نمط الحياة والمضمون الاخلاقي بين العرب والافارقة الذين تلاقوا سالمين حول نشاط اجتماعي مشترك يتبادلـون المنافع ، يأخذون ويعطون ، فأنتشر الاسلام بين الافارقة بسماحة مبادئه وبالقدوة الحسنة للمسلمين .

وهناك موضوع اساسي في هذا التلاقي الروحي والفكري والاجتماعي ، وهو المشاركة الايجابية للمسلمين والافارقة في المجتمع الاسلامي العربي في تكافؤ ومساواة وسماحة مكنتهم من السيولة في التعامل الاجتماعي ولم يلبث الافريقيون أن اصبحوا هم انفسهم مصدر اشعاع عربي وثقافي ، واصحاب قضية وحملة رسالة . في القارة وفي خارج القارة .

كل هذه جوانب أيجابية ومنطلق صلب لاستعادة هذه الصلة الروحية والثقافية، وهما الاساس الذي تعتمد عليه سائر العلاقات الاخرى وتقوم عليهما .

من أين نستأنف المسيرة الحضارية المشتركة ؟

انه من الموضوعية ، ومن الحزم ، وحسن الرأي ، أن يبدأ ذلك من فهم الواقع الافريقي فهما عادلا بقضاياه ومشكلاته ، ثم تقدير المداخل المنهجية ، وطرح البدائل الايجابية في رسم سياسة التعاون المشترك لمواجهة تلك القضايا والمشكلات وحلها .

١٠ ـ الواقع الافريقي الجديد :

الواقع الافريقي لدول افريقيا حديثة الاستقلال يحمل كل اعراض واقع البلاد النامية ومظاهره وكل آثار المعاناة في سبيل التنمية الاقتصادية والاجتماعية قياما بوظائف الدولة الحديثة نحو مواطنيها ، ويحمل كل ضغوط السياسة العالمية وايديولوجياتها المتصارعة ، حفاظا على سيادتها ، واسهاما في سلام العالم . ولقد بدأت الدول الافريقية ، من نقطة الصفر ، حتى ان بعض تلك الدول لم تكن لديها غداة الاستقلال شيء من المقومات الاساسية لتنظيم الدولة وخاصة بعد ان سحبت بعض الدول الاستعمارية الغاصبة ، العناصر البشرية الاوربية التي كانت تقوم على كل الاجزة الفنية ، في الوقت الذي لم تؤهل فيه طوال فترة استعمارها افريقيين . ثم ان هناك بلادا افريقية ، تقع في منطقة بعيدة عن البحر ، وعن طرق النقل الاقتصادي، وبعضها تقع في منطقة يهددها الجفاف لسنوات متتالية ، تتعرض فيها الثروة القومية الزراعية والحيوانية لاخطار محققة مثل دول الساحل ، وذلك الى جانب الحاجة القصوى الى البنى الاساسية كالطرق والمواصلات ، وأكثريتها الساحقة تعاني مشكلة الطاقة ونقص السيولة المالية داخليا وشح العملات وعجز موازنات المدفوعات وعدم الاستثمار في مجالات الصناعة والزراعة .الخ..

وفي الجانب الاجتماعي هناك الطلب المتزايد على التعليم كحق ديمقراطي ، مع قصور الموارد الوطنية عن الوفاء به،وازمة السكان وتفاقم الهجرة الى المدن ، ومشكلة البطالة بانواعها ونقص الخدمات الضرورية في مجال الاسكان والكهرباء ، والمياه النقية والخدمات الصحية في جانبيها الوقائي والصحي ، الى جانب تخلف المجتمعات القروية، وتدهور الانتاج الزراعي .

والى جانب هذا يعاني الافريقيون، قضية قومية خاصة، هي شخصيتهم الافريقية وهويتهم الخاصة ، فهم لم يبق لهم من افريقيا الا اللون ، فلغاتهم سلبت وتراثهم الفكري احتجب ، وكأنهم ظهروا الى الوجود مع دخول الحضارة الاوربية الى افريقيا دون تاريخ حضاري .

واصبحت مشكلة اللغات الوطنية احدى المشكلات الكبرى امام الدول الافريقية، كيف يمكن أن تكون لهم لغة رسمية ، ولغة تعليم وثقافة .؟. ولما كانت اللغات الاوروبية اصبحت حقيقة مجذرة كان لابـد من وجود مكان لهذه اللغات الافريقية متواضع الى جانب تلك اللغات المتحضرة .. فكان الحل هو ان تكتب اللغات المحلية وبعبارة اخرى تعاد كتابتها بالحروف اللاتينية ، ومهما كانت الاسباب الفنية والمبررات التي ذكرت في هذا المجال ، فان السبب الحقيقي هو هدم الجسور الثقافية العربية المرتبطة بالدين الاسلامي . ثم تصبح لغة تعليم في المراحـل الابتدائية ، الى جانب اللغـات الاوروبية ، ويتم التدرج في ذلك حتى تتمكن من ان تقوم بكفاية للتدريس بها فيالمواد الادبية والاجتماعية ، في مراحل معينة دون العلوم والرياضيات . أما اللغات الاجنبية فتحتفظ بمستواها في مجال التعليم ، في كل المراحل ، ثم هى تصبح اللغة الرسمية للدولة . وذلك تحت شعار ان اللغات المحلية هي لغة الوحدة الوطنية ، واللغات الاوربية هي لغة التفتح الثقافي على العالم ، اللغات الافريقية هي اذن أداة الوحدة ، واللغة الاوربية هي أداة التفتح ، بهذه الصبغة حل الخبراء موضوع اللغات الافريقية، وبدات الهيئات الدولية العالمية ، تعين على تأليفالكتب على هذا النمط الجديد . اما اللغة العربية ، فانها غير واردة في مناهج التعليم الحكومي الا في بعض البلاد ذات الكثرة الاسلامية ، وهي هناك تبدأ لغة اختيارية في المرحلة الثانوية ، بمستوى متواضع جدا في المادة ، والاستعداد التربوي ، معلما ومادة تعليمية ، وهي تنافس اللغـات الحية ، ففي بلد اسلامي كبير،مثل نيجيريا يخير الطلبة بين اللغة الفرنسية أو العربية، في المرحلةالثانوية الى جانب الانجليزية التي هي لغة التعليم . وتدل الدراسات التي أجريت في هذا الصدد أن الطلبة يختارون الفرنسية ، للتفوق الفني في دراستهابطريقة تربوية حديثة عن طريق الوسائل السمعية البصريـة المتقدمة ، والمـواد التعليمية المدروسة والمدرسين المؤهلين ، بينما انعدمت كل هذه الامكانات بالنسبة للغة العربية. وفي بلاد اخرى ، مثل السنغال مثلا ، يخير الطالب فيالمرحلة الثانوية، الى جانب اللغة الفرنسية التي هي لغة التعليم ، بين العربية واللاتينية !! فضلا عـن قلة الوقت المرصود لها في الخطة التعليمية ، فان ذلك الوقت الى جانب هامشيته ، يختار عادة ، في اخر اليوم الدراسي ، وفي أواخر الاسبوع ، حتى يكون الملل قد بلغ من الطلبة غايته ، مما يحملهم على الانصراف عن تلقي أي مادة مهما بلغت رغبتهم فيها .

والواقع ان هذا الطرح لا يحل مشكلة بل يخلق مشكلات لانها تزيد الفرقـة بدل الوحدة ذلك انه لا تكاد نجد بلدا افريقيا واحدا يتكلم اهله جميعا لغة وطنية واحدة اذا استثنينا بلدا كالصومال . ومن هنا فان مقولة ان اللغة الافريقية هي لغة الوحدة الوطنية مقولة غير صحيحة ومحرفة تماما .

أما لغة التفتح فسوف تظل وقفا على الذين يتكلمونها في المدارس ، وستظل القاعدة الشعبية لا تعرف عنها شيئا ذا بال ، على انه اذا لم يتم تعليم الناس بالقدر الكافي ، فان اللغات الاوروبية ستكون هي وحدها لغة التفتح ولغة الوحدة ايضا ، وهي تكسب في الحالين ، وتخسر اللغات الافريقية والثقافة الافريقية في الحالتين .

وهنالك مسألة هامة جدا في هذا المجال ذلك ان المثقفين الافريقيين لم ينتجوا في لغاتهم الاصلية شيئا بل ان كل الذي كتبوه ، هو باللغات الاوروبية ، وهو محسوب في رصيد ادب تلك اللغات التي كتبت بها وليس في رصيد الثقافات الافريقية .

١١ ــ التعاون العربي الافريقي :

حاجات المجتمع الافريقي الجديد ، هي مثل حاجات غيرها من الامم النامية ، كثيرة ، وتعجز مواردها ان تقوم لها بالاشباع ، وهذه الحاجات ، هي اما حاجات متصلة بالتنمية الاقتصادية والاجتماعية ، واما حاجات متصلة بتحقيق الذاتية وتحديد الهوية الحضــارية .

وافريقيا ، وهي تسعى الى تحقيق اهدافها دولا وشعوبا ، تتعاون كغيرها على المستوى الدولي والقاري والاقليمي ، والثنائي ، ومع ارتباطها بالدول الاوربيــة المستعمرة لها قديما ، اقتصاديا ، وثقافيا ، فان الدول العربية تبقى ادنى الــدول اليها رحما ، واقربها اليها موقعا ، وهذه الدول في مجموعها اكثر تجردا في عونهــا لافريقيا على المستوى الجماعي والثنائي .

وانطلاقا من معطيات العلائق التاريخية ، والمستقبلية . اعطت الدول العربية اهمية قصوى للتعاون العربي الافريقي الذي اصبح جزءا من صلب السياسة القومية الرسمية وهكذا تقرر في اجتماع القمة العربي الافريقي المشترك الاول عام ١٩٧٧ في القاهرة ، تقديم معونات كبيرة ومتنوعة الى الدول الافريقية ، تقاسمتها الدول القادرة ، وصناديق التنمية العربية والمؤسسات المالية العربية ، ويبدأ التعاون من خلال المصرف العربي للتنمية الاقتصادية في افريقيا ، ومن خلال الصناديق الوطنية العربية ، وهذا التعاون الجماعي يأتي ليدعم التعاون الثنائي ، وهو تعاون نشيــط ونافع من الدول العربية والدول الافريقية ، ويؤدي دورا كبيرا مــن الناحيتين السياسية والاقتصادية ، فهو من ناحية مثل مشرق لتعاون الدول النامية بينها وبين بعضها بعضا ، وهو ايضا تعاون غير مشروط لا يحمل وراءه تبعية ولا نفوذا وانمــا هو تأكيد للصلات التاريخية ونتيجة للعلاقات الحضارية المشتركة . على ان هذا ،

من ناحية اخرى وعلى المدى الطويل ، خاصة في مجال الامن الغذائي العربي ، وفي المجال الصناعي والتعديني، يمثل مجالا واسعا للاستثمارات العربية في كل المستويات.

وعلى صعيد اخر في المجال الثقافي يقوم التعاون بين العرب وافريقيا ، على المستويين الجماعي والثنائي . والجامعة العربية ومنظماتها المتخصصة تمد جسورا ثقافية مع افريقيا ، وتتعامل مع المؤسسات والهيئات العلمية والثقافية ، سواء مع اتحاد الجامعات الافريقية ، او مع مراكز البحوث التربوية ، او مراكز الدراسات الثقافية ، وبخاصة مع المؤسسات العاملة في ميدان الثقافة العربية الاسلامية ، كما تعمل منظمة المؤتمر الاسلامي ، والهيئات الاسلامية العربية في هذا النطاق .

والى جانت هذا فان لبعض الدول العربية نشاطا واسعا في مجال هذا التعاون الثقافي ، وهي تقدم العون الكريم للمؤسسات القائمة ، وتنشىء المؤسسات التي تطلبها الحكومات والهيئات الثقافية العامة . وتزود المكتبات العامة ، ومكتبات الجامعات والمدارس بالمصادر والمراجع والكتب العربية .

ويأتي هذا التعاون كله مكملا للدعم السياسي الذي قدمته وتقدمه الدول العربية ، في تحرير افريقيا من الاستعمار ، والوقوف الى جانب قضاياها ، ولا سيما في قضايا التعصب العنصري . وفي الواقع ان هذا الدعم السياسي متبادل ، فللدول الافريقية ايضا مواقف ايجابية وثابتة ، في دعم القضايا العربية ، وفي مقدمتها قضية العرب المركزية ، وهي قضية فلسطين ، والاستعمار الصهيوني العنصري فيها ، الى جانب تعاونها ثنائيا ، وعلى نطاق الهيئات الدولية في قضايا العالم الثالث ، فيما يتصل بالتنمية ، واقرار نظام عالمي جديد للاقتصاد وللاعلام ، مع الدول العربية ، على انه اذا كانت الحاجات التنموية ، هي في الواقع ، حاجات عامة ومتقاسمة بين كل الدول النامية ، فان تبادل العون على مواجهتها مدخل موضوعي ، ومرتكز عملي في اوجه التعاون الاخرى ، وفي النظام العالمي القائم يتم هذا التبادل من خلال قنوات كثيرة في المجتمع الدولي وتتلقى افريقيا منها عونا كبيرا من المنظمات الدولية ومن الدول الاوربية وغير الاوربية ، ومع هذا سوف يظل التعاون العربي الافريقي محتفظا بخصوصيته ، وبأولويته بالنسبة الى العرب ، وبالنسبة الى افريقيا ، ولهذا فانه ينبغي ان يتوسع من خلال استراتيجية مدروسة ومحددة في مختلف المجالات ، خدمة للمصالح التاريخية والمصيرية المشتركة .

وعلى الرغم من تعدد وسائل العون على الحاجات الافريقية ، فان الحاجة الافريقية التي لا يستطيع احد العون المباشر عليها ، الا العرب وحدهم ، هي الحاجة

الى تأكيد الذاتية الثقافية ، وابراز الهوية الحضارية . ذلك ان اتصال الافارقة بتراثهم الاسلامي ، وهو رأس مالهم الفكري في التاريخ ، ومستودع اضافتهم المبدعة الى الحضارة الانسانية ، رهن بتعلم اللغة العربية وبمعرفة الثقافة العربية ، وباعادة الحرف العربي الى مكانه التاريخي والثقافي ، في اللغات الافريقية ، مساعدة للافريقيين على الاتصال بانتاجهم الفكري ، وفي مصادره الافريقية العربية والتعريف بها ، ثم تصحيح العلاقات التاريخية العربية الافريقية التي شوهها المغرضون وتنقيتها من البهتان ، الذي لقن باصرار لاجيال المتعلمين في المدارس التبشيرية من اتهام العرب بتجارة الرقيق ، ومن التهجم الظالم على الاسلام وتعاليمه السمحة . وما تزال هذه الافكار المسمومة باقية في المناهج المدرسية الافريقية حتى يوم الناس هذا ..

والى جانب ذلك فانه يجب ابراز دور الجامعات الافريقية ، وجهود العلماء والادباء والمؤرخين والشعراء الافارقة ، وتوضيح اوجه التكامل والتعاون بين الدول العربية الافريقية الاسلامية على مدى التاريخ المشترك .

١٢ ـ سياسة التعاون العربي الافريقي الاسلامي :

في الاشارات ، التي سبقت ، عرض لمجالات هذا التعاون المعاصر الذي يقوم على ركيزتين : ركيزة مادية وركيزة فكرية .

وهنا ينبغي ان نقرر ان التعاون في مجالات التنمية الاقتصادية ،تعاون عالمي يمكن ان يكون له بديل من اي مصدر خارجي آخر غير عربي ، في اطار التعاون الدولي الثنائي والجماعي .

أما التعاون الثقافي العربي فليس له بالضرورة ، بديل خارج النطاق العربي بالنسبة الى الافارقة ، فهو لابد ان يجيء العون فيه من الامة العربية الاسلامية .

ومن هنا ، فان التعاون ينبغي ان تحكمه معايير ، ويقوم على اسبقيات ، فحين نتحدث عن العون المادي لمتطلبات التنمة ، فاننا نعتقد انه جوهري واساسي لبناء قاعدة من المصالح المشتركة مع الشعوب الافريقية ، ومع هذا فينبغي ان يكون من شأن ذلك العون ان يساعد على تنمية الشخصية الثقافية الافريقية ، فيكون نافعا للافريقيين في حاجاتهم الموجبة ، وهذا يعني ان يدعم المال العربي ، كلما امكن

ذلك ، بالخبرة العربية وذلك ليتحقق التفاعل الاجتماعي ، ويتم التبادل الثقافي ، فالمال اي مال هو قوة مطلقة لا هوية لها ، ويمكن ان يكون من اي جهة ، ولكن الثقافة هي على عكس ذلك تماما وان كان خلق العلاقات الانسانية ورعايتها بين العرب والافارقة هدفا اساسيا لكل تعاون بينهما مهما كان شكله أو ميدانه فان العون الثقافي يأخذ اسبقية عالية ، لانه العون الذي يحمل الهوية العربية الاسلامية ، والذي يزداد عطاؤه مع مرور الزمن أكثر من الاستثمار في المصانع ، فالالة تستهلك كلما مر عليها الوقت ، اما الانسان فان عطاءه يزيد كلما امتد به العمر ، وعن طريق الانسان تنشأ العلاقات ، ويسود التفاهم وينشر السلام ، وتقوى روح الاخاء بين الشعوب .

صحيح أن الحاجة الى المال ، والى العون المادي حاجة ملحة ، وهي التي تعطيها الدول الافريقية وكل الدول ، وبحق ، الاولوية في مشروعات التنمية . وعلى التعاون العربي الاسلامي ، ان يستجيب لهذا المنطق الذي تدعو اليه الالتزامات الدستورية والسياسية والاجتماعية لهذه الدول نحو مواطنيها سدا لمتطلباتهم الحيوية وايفاء لحقوقهم الاجتماعية ، فالعون الفكري والثقافي ، ليس بديلا عن العون المادي ، ولكنه مؤسس ، وداعم .

وفي هذا الاطار فان العون الثقافي ، بقدر ما هو مطلوب من الدول الافريقية في بناء تنميتها الشاملة ، وتأصيل شخصيتها الحضارية فانه يمثل بالنسبة الى العرب واجبا مستحق الاداء ، باعتباره جزءا من التزاماتهم المعنوية ، ذلك ان على المسلمين العرب مسؤولية انسانية في ان يمكنوا اخوانهم في العقيدة من تفهم دينهم على الوجه السليم وتلقيه من مصادره الشرعية ، وذلك بعونهم على تعلم لغة القرآن ، ولغة الشريعة الاسلامية .

وهكذا نجد ان العون الثقافي يستمد اولويته من جانب طرفي التعاون : العرب من ناحية ، والافارقة المسلمين من ناحية اخرى .

وانه من الامور الاساسية في هذا المجال ان يكون هدف هذا العون واضحا وهو تمكين الافارقة من تحقيق ذاتيتهم الثقافية ، وتثبيت هويتهم الحضارية ، وذلك انما يتم عن طريق وصلهم بتراثهم الفكري وبانتاجهم العلمي ، وهو انتاج قائم في الذي كتبه العلماء الافارقة ، في اللغة العربية وفيما اضافه المثقفون وابدعه الشعراء منهم في الجامعات الافريقية ، ومعاهد العلم ، وعلى الاجيال الافريقية المعاصرة ان تتعرف على تراثها الافريقي العربي هذا ، ويكون ذلك بالتعريف بهذا التراث العظيم

افريقيا فكريا ، في نسق معرفي ، وبنيان علمي ، وفلسفية متكاملة . بل انها محليات ثقافية .

أما الفكر الاسلامي العربي وما انتجه الافارقة فيه باسهامهم الفعال وبعطائهم المنجز ، فهو قدر مشترك بين الافارقة جميعا ، وهو محدد بخصائصه ومقوماته ، في اطار الفكر العربي الاسلامي نفسه ، بما اضافته العبقرية الافريقية وبخاصة في مجال الفنون القولية ، وفي مجال العلوم الاجتماعية .

فهو انتاج متميز يمثل التراث الافريقي الاسلامي ، الذي يتخذ طابعه الخاص ، في نطاق التراث الاسلامي العربي الذي انتج في مناطق اخرى من البلاد الاسلامية . ومن هنا ينبغي ان يكون هنا حوار موصول بين المثقفين الافريقيين والعرب حول هذه القضايا حتى يتحدد الموقف من هذا التراث بصورة اكثر وضوحا ، والسعي لرسم خطة مشتركة لاستئناف مسيرة التعاون الثقافي الافريقي العربي .

١٣ ــ مجالات التعاون الثقافي العربي الافريقي :

ان المجالات التي يمكن ان تتحقق فيها سياسة التعاون الثقافي العربي الافريقي الاسلامي كثيرة ، ويأتي في مقدمة هذه المجالات التي تهدف الى تحقيق الهوية الحضارية والذاتية الثقافية ، اعطاء اسبقية للمخطوطات العربية وهي مقسمة على المكتبات العالمية ، وبعضها في ملكية الافراد وكثير منها معرض للضياع وللتلف .

ومن هنا ، فان العناية بجمعها وتصويرها وفهرستها والتعرف بها على نطاق عالمي ، وتحقيق بعض المخطوطات ، ونشرها وترجمتها الى اللغات الافريقية الكبرى ، والى اللغات الاجنبية السائدة في افريقيا ، تأخذ اولوية قصوى .

كذلك فان العناية بالحرف العربي وتطويره توسيعا لوعائه لاستيعاب كل الاصوات وتحسين رموزه وتبسيطها ليتمكن من مواصلة دوره في تسجيل العطاء الثقافي الافريقي ، وذلك ربطا للماضي بالمستقبل ، وتوظيفا لذلك التراث في بناء الشخصية الافريقية ، أمر له اهميته التاريخية والثقافية ، حتى لا يغترب ذلك التراث الضخم عن الافريقيين ، ويضيع من تاريخهم ومن التاريخ العربي ومن التاريخ العالمي .

وفي هذا الاطار فان وضع القواميس العربية الافريقية والافريقية العربية وبالحرف العربي وبالمداخل العربية من الوسائل الجوهرية والضرورية .

ويدخل في هذا الباب تقويم المناهج الدراسية في المدارس العربية والافريقية معا ووضعها على اسس موضوعية تبرز الصلات بين العرب والافارقة وتوضح مقومات تلك الصلات وطبيعتها واهميتها .

كذلك فانه من الامور الاساسية في هذا المقام ، اصدار موسوعات عربية افريقية تعالج في عملية موضوعية مختلف المجالات المشتركة ، وتمين بحق على تصحيح التاريخ العربي الافريقي . ومن ذلك انشاء اقسام للدراسات الافريقية في الجامعات والمعاهد ومراكز البحوث العربية تقوم على دراسة اللغات الافريقية والحضارة الافريقية العربية الاسلامية ، وتشجيع انشاء أقسام للدراسات العربية في الجامعات والمعاهد ، ومراكز البحوث الافريقية ، لتقوم على الاهداف نفسها ، الى جانب اجراء بحوث ودراسات مشتركة ، حول القضايا الافريقية العربية .

ومن البرامج الاساسية المطلوبة تخصيص المنح الدراسية السخية ، والبعثات العلمية المتنوعة للدراسات الافريقية وللدراسات العربية على السواء،وتبادل الاساتذة والبحوث وتشجيع النشر المشترك ، والعمل على تزويد الدول الافريقية بالمطابع العربية ، والعمل على اعانة المدارس والمعاهد التي تقوم على تعليم اللغة العربية،وتزويد المكتبات العامة والمكتبات الجامعية والمدرسية بالمراجع والمصادر والكتب العربية والمواد التعليمية المختلفة ، بما في ذلك المسجلات الثقافية والتعليمية .

ذلك الى ان هناك عشرات من الموضوعات المحددة التي يمكن ان تتم في هذا المجال ، وليس من همنا ان نعدد ذلك حصرا ، ولكننا نشير بصفة خاصة الى المجالات الكبرى الممكنة ، وانه هناك كما سبق القول ، نشاط عربي مستمر وقائم ، في كل هذه المجالات ، سواء عن طريق المنظمات القومية او عن طريق التعاون الثنائي ، ولكن المدعو اليه هنا هو التكثيف والتسريع في اطار خطة عامة تقوم على تنسيق الجهود المختلفة . وفي هذا المقام ، فان بعض الخطوات الجادة ، قد بدأ ، في أطار الجامعة العربية ، ومنظمة الوحدةالافريقية ، وهناك مشروعات كبيرة في طريقها الى التنفيذ ، ومنها ، المعهد العربي الافريقي ، الذي تقرر انشاؤه بتمويل مشترك في نطاق المنظمتين العربية والافريقية ليقوم على تنمية العلاقات العربية الافريقية في مجالات التربية والتعليم ، وفي مجالات الثقافة ، وفي أهدافه متسع لانشطة متنوعة ومتجددة ، وقد قامت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم باعداد الدراسات المتصلة بهذا الامر ، بتكليف من لجنة التنسيق بين المنظمتين ، الجامعة العربية ومنظمة الوحدة الافريقية. وقيام هذا المركز سيكون خطوة متقدمة في هذا المجال ومنطلقا لمؤسسات وبرامج مشتركة .

وفي كل هذه الفترة ، كان العرب جزءا من المجتمع الافريقي المسلم . ولم يكونوا ليمثلوا عنصرا دخيلا ، وكان الافريقيون كذلك جزءا عضويا في النسيج العربي الاسلامي . ولم يكن أمام الاستعمار من قوة حقيقية لمقاومة نفوذه الفكري والاجتماعي بعد مقاومته العسكرية ، الا القوة العربية الاسلامية . واعتمد الاستعمار على فرض لغته وثقافته ودينه ، على حساب الفكر الاسلامي والثقافة العربية : وأنشأ لذلك مؤسسات المدارس التبشيرية ، التي كانت تعلم اللغات الاوربية ، وتتعهد الاطفال الافارقة فتنصرهم ، وتغير اسماءهم باسماء مسيحية ، وكان لابد للاستعمار من الانتظار فترة طويلة حتى تتكون اجال جديدة وهكذا فعل .

هذا وقد حجب معظم المسلمين ابناءهم عن تلك المدارس ، خوفا على عقيدتهم، فلما جاء الاستقلال في الستينات ، وجد المسلمون انفسهم متخلفين ، وكان ان جاء على رأس تلك الحكومات الوطنية ، في البلاد الاسلامية ، حكام من الافارقة المسيحيين الذين تعلموا في المدارس الاوربية والذين كانوا يعاونون المستعمرين في الادارة الحديثة، وفي التنظيم الفني والتقني للمجتمع على النمط الاوربي .

هـــذا وقد ظل الهم الاكبر للاستعمار ، هو ، العمل المنتظم المدروس ، عـلى قطع صلة الاجيال الافريقية بالتراث العربي الاسلامي ، فغير كتابة اللغات الافريقية من الحرف العربي ، الذي كتبت به ، من قبل ، ثلاثون لغة افريقية لمدة قرون، الى الحروف اللاتينية وهذا يعني القطيعة مع التراث الافريقي الذي تراكم خلال قرون طويلة من انتاج العلماء الافارقة ، واهمال ذلك التراث وحجبه عن الافريقيين .

وانه من حق الافريقيين اليوم ان تعاد الصلة الفكرية والثقافية بيـــن العرب والافارقة ، ليتعرفوا على تراثهم وانتاجهم الفكري ، ومسؤولية العرب في هـــذا كبيـــرة .

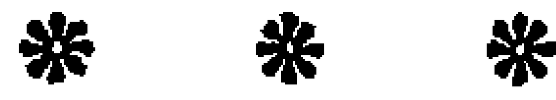
وامتدادا للتضامن بين قوى التحرر العربية والافريقية من اجل الاستقلال نشأ تعاون وثيق بين العرب والافارقة ، في المجالات الاقتصادية والسياسية في اطـار المنظمات الاقليمية والدولية وفي النطاق الثنائي وهو تعاون ينمو يوما بعد يوم ، ومع هذا فان العون الثقافي وهو الذي يزيد مع الزمن ، لانه الاستثمار في الانسان ، وينبغي ان يعطى اولوية خاصة في نطاق خطة التعاون العربي الافريقي ذلك ان العون الثقافي هو عون له هوية وشخصية وتعبير انساني ، اما العون المادي فمع اهميته فانه يمكن أن يأتي من أي مصدر عالمي ، آخر . وحتى في مجال العون المادي العربي الافريقي ينبغي ان يكون هناك مجال للتفاعل الاجتماعي والانساني ، وذلك بجعـل الخبرة

العربية الفنية والمعونة الثقافية موصولتين ، بقدر الامكان ، بوجوه التعاون المادي أو جزء من ذلك التعـاون .

كذلك فانه ينبغي ان تكون هناك توعية للافارقة وللعرب معا ، بالدور الايجابي وبالاضافة التي قدمها العلماء والافارقة الى الفكر العربي الاسلامي .

ومن وسائل ذلك ، نشر المخطوطات الافريقية العربية والمكتوبة في اللغـات الافريقية بالحرف العربي ، ووضع القواميس ، واجراء البحوث حـول العلاقات الافريقية العربية وتصحيح التاريخ المشترك الذي شوهه الاجانب واعادة النظر في المناهج الدراسية ، وتوسيع المنح الدراسية والبعثات العلمية المشتركة ، وانشاء اقسام للدراسات الافريقية في الجامعات ، وفي الجامعات الافريقية للدراسـات العربية وانشاء مركز افريقي عربي ،- للقيام على هذه المجالات .

وبهذا نكون قد بدانا خطوة صالحة في مطلع القرن الخامس عشر لتحرك اسلامي في تجديد العلاقات مع رقعة هي جزء غال على الامة العربية الاسلامية .



مساهمة المغرب العربي
في ازدهار الحضارة العربية الإسلامية

د . عبد الحميد حاجيات

معهد العلوم الاجتماعية ــ جامعة الجزائر

لا يوجد ، من بين الباحثين المنصفين ، من لا يعترف بالمكانة السامية التي تحتلها الحضارة الاسلامية ضمن الحضارة الانسانية ، والدور الحاسم الذي لعبه المسلمون ، في عصر عزهم ، من أجل تقدم الانسانية ورقيها . وليس هناك من ينكر فضل العلماء المسلمين ومنزلتهم العليا بين قادة الفكر الانساني ، وأثرهم العميق في تطور الانسانية الفكري والاجتماعي والاقتصادي ، وغير ذلك .

ولقد انكب كثير من الباحثين ، من مسلمين ومستشرقين ، على دراسة الحضارة الاسلامية ، من نشأتها الى نموها ونضجها ، ثم الى ركودها وانحطاطها ، واخيرا الى عهد انبعاثها من جديد خلال القرن الرابع عشر الهجري ، فاوضحوا كثيرا من الغموض الذي كان سائدا في الاذهان ، وبددوا العديد من الاتهامات الباطلة ، وفندوا الاكاذيب والاحكام المسبقة التي كانت تحط من شأن المسلمين وحضارتهم ، وتنقص من قيمتهم ، ومن مدى الاثر الذي كان لهم في ازدهار الحضارة الانسانية .

غير أن أغلب هؤلاء الباحثين لم يولوا اهتماما كبيرا لبلاد المغرب العربي ، التي لم تحظ ، في جل الدراسات حول الحضارة الاسلامية ، الا بنصيب ضئيل ، لا يتناسب في شيء مع الدور الهام الذي لعبه هذا القطر في ازدهار الفكر والحضارة الاسلاميين .

على أن جهودا صادقة بدأت ، منذ عهد قريب ، تبذل من اجل ازاحة الستار

اعد هذا البحث للمؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، دمشق ١٦ ــ ٢٢ جمادي الآخرة ١٤٠١ هـ / ٢٠ ــ ٢٦ نيسان ١٩٨١ م .

المسدول على تراثنا الثقافي . فكانت نتائجها مشجعة ، اذ أنهـا أدت الى اثـراء المكتبة العربية الاسلامية ، وابراز بعض النفائس ، التي تبرهن بوضوح وجلاء على أهمية المساهمة التي قدمها المغرب العربي من أجل ازدهار الحضارة الاسلامية .



لا شك أن أهم عامل في نشأة ونمو حضارة عربية اسلامية في بلاد المغرب يكمن في الصلات الوثيقة التي كانت تربطها بالمشرق العربي ، وتأثرها العميق بمقوماته الحضاريـة .

ومما يفسر أهمية هذه العلاقات واستمرارها ، ما كان يوجد بين أهالي المغرب والمشرق من تقارب وتجانس في مختلف المجالات ، من عادات وتقاليد وغير ذلك . كما يمكن تفسير ضآلة تأثير الرومان والوندال والبيزنطيين في بلاد المغرب باختلافهم عن الاهالي في مجال الانتماء الحضاري والتقاليد وغير ذلك ، بالاضافة الى ما امتازت به سياستهم من استغلال للثروات وازدراء للسكان ، واحتقار لكل مالم يكن نابعا من حضارتهم .

ويؤيد هذا التفسير ما حدث ايام الفتح الاسلامي من انحصار المقاومة فـي الجيش البيزنطي وحلفائه من البربر في منطقة افريقية ، بينما جنح معظم الاهالي الى مسالمة الفاتحين المسلمين ، والاقبال على دينهم الداعي الى العدل والمساواة .

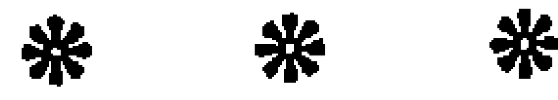
وأهم نتيجة للفتح الاسلامي ، في المجال الحضاري ، أنه فصل بلاد المغرب عن العالم المسيحي لمدة قرون عديدة ، وجعل هذا القطر يستمد مقوماته الفكرية من المشرق العربي ، ويعول عليه في كل مظاهر حياته الحضارية .

والجدير بالملاحظة أن الارتباط الوثيق الذي نشأ واستمر بين المغرب والمشرق العربيين ، كان يرتكز على دعائم قوية ، أهمها :

آ ــ **الدين** ، وذلك أن أهالي المغرب اعتنقوا الاسلام بسرعة منقطعة النظير ، الا أقلية لا يعتد بها ، بقيت على دين النصرانية أو اليهودية . وأصبح مسلمو المغرب يتوجهون الى الحجاز لقضاء فريضة الحج ، فيتأثرون بما يجدونه هناك من حضارة وعلوم . وكان تعلق المغاربة الشديد بالاسلام يبعثهم الى طلب العلم ، والتفقه فـي المسائل الدينية ، كما كان الكثير من طلبة العلم يرحلون الى المشرق ويدرسون عـلى

وأبدعوا في شتى المجالات . فكانت الحضارة العربية الاسلامية ، سواء في المشرق أو في المغرب ، تحمل طابعها الخاص ، وتتسم بميزات تعبر عن أصالتها .

وقد ترك المفكرون والادباء العرب آثارا قيمة لا تحصى ، مما يدل على طول باعهم في شتى المجالات ، وكان للمغاربة حظ لا يستهان به في ذلك الانتاج .



ففي مجال العلوم الدينية نبغ كثير من العلماء ، وتفرغوا لتدريسها وتدوينها والتأليف فيها ، وأولوها عناية خاصة لما لها من أهمية في حياة الانسان كلها ، من معتقدات وعبادات ومعاملات .

فمنهم من عني بعلم التفسير وألف فيه كتبا مشهورة ، كان لها أثر هام في تطور هذا العلم ، ومكانة مرموقة بين ما أنتجه المسلمون في هذا المجال ، مثل ابن سلام التميمي وابن عطية . كما اهتم بعضهم بالحديث ، فنبغ فيه محدثون مشهورون ، مثل الداودي والقابسي والمازري والقاضي عياض ، وغيرهم .

وكذلك اعتنى علماء المغرب بالناحية الاعتقادية ، فخاضوا غمار الحركة الفكرية التي نتجت عن الصراع المذهبي حول ما أشاعه المعتزلة من آراء اعتقادية ، وخاصة مسألة خلق القرآن . فوجد منهم من اعتنق مذهب الاعتزال ، مثل القاضي ابن أبي الجواد ، والقاضي محمد ابن اسود الصديني ، وغيرهما . بينما قاوم آخرون هذا الاتجاه بشدة ، وهم معظم علماء المذهب المالكي(1) أما ابن تومرت فانه انتصر الى مذهب الاشعري في مسائل عديدة ، وساهم في ادخال آرائه الى بلاد المغرب ، فنمت بعده وازدهرت بقدر ما انتشرت كتب الاشاعرة فيه ، وخاصة كتب الجويني والغزالي، في الاعتقاد وأصول الدين .

غير أن علماء المغرب أولوا عناية خاصة للعلوم التشريعية ، فخصصوا لها العديد من المصنفات ، ودونوا المسائل الفقهية ، وتناولوها بالاختصار أو الشرح أو التعليق .

ومن أشهر العلماء المغاربة الذين نبغوا في العلوم الدينية :

1 - **يحيى بن سلام التميمي** البصري الافريقي (المتوفى سنة ٢٠٠ هـ) . نشأ

بالبصرة ، ورحل الى افريقية ، وبها ألف كتابا في تفسير القرآن ، يعد أول تفسير استعمل فيه المنهج النقدي . قال عنه أبو عمرو الداني : « ليس لاحد من المتقدمين مثل تفسير ابن سلام »(٢) وقد انتهج هذه الطريقة بعده ابن جرير الطبري .

٢ - **أسد بن الفرات** (١٤٢ - ٢١٣ هـ) . نشأ بالقيروان ثم بتونس، حيث درس ثم رحل الى الحجاز ، فأخذ عن الامام مالك ، وروى عنه الموطأ . ثم توجه الى العراق، حيث لقي تلامذة أبي حنيفة ، ثم وفد على ابن القاسم بمصر فأخذ عنه علما غزيرا ، ودون كل ذلك في كتا بسماه الاسدية . وكان لاسد بن الفرات الفضل الاكبر في نشر المذهب المالكي بافريقية . وتولى القضاء سنة ٢٠٤ هـ بالقيروان . ثم قاد الجيش الذي أرسله الاغالبة لغزو صقلية ، فقتل في حصار سرقوسة ، سنة ٢١٣ هـ . ويمتاز أسد بن الفرات بسعة اطلاعه على أقوال أئمة عصره ، وعدم تقيده ، في كثير من المسائل ، بمذهب مالك . ويمكن اعتباره من رواد رجال التشريع الاسلامي ، الذين عبدوا الطريق لمن خلفهم من العلماء وأوضحوا لهم السبيل(٣) .

٣ - **سحنون** ، أبو سعيد بن حبيب التنوخي (١٦٠ - ٢٤٠ هـ) . نشأ أيضا بالقيروان ثم بتونس . وأخذ عن أسد بن الفرات كتاب الاسدية . ثم رحل الى المشرق ولازم ابن القاسم ، ودون فتاواه وروايته عن مالك في كتاب ضخم سماه المدونة . ثم عاد الى افريقية سنة ١٩١ هـ ، وتفرغ لنشر المذهب المالكي ومحاربة البدع . وعين في الافتاء ، ثم في القضاء (سنة ٢٣٣ هـ) . وكانت شهرته قد اخترقت الافاق ، فكان الطلبة يأتون من المغرب كله والاندلس لسماعه ، حتى أنهم كانوا يبلغون أحيانا ٧٠٠ طالب . أما كتاب المدونة ، الذي حل محل الاسدية بافريقية ، فقد كان المرجع الرئيسي لفقهاء المالكية مدة قرون عديدة ، وتناوله الكثير منهم بالاختصار أو التعليق(٤) .

٤ - **محمد بن سحنون** (المتوفى سنة ٢٥٦ هـ) . اشتهر بغزارة تأليفه ، والدفاع عن مذهب أهل السنة ، والرد على الفرق الاخرى . ومن تآليفه الهامة : المسند ، في الحديث ، وكتاب الجامع ، في علوم مختلفة ، وكتاب تفسير الموطأ ، في أربعة أجزاء ، وكتاب الرد على أهل البدع ، وكتاب الحجة على القدرية ، ورسالة في السنة ، وكتاب الامامة ، وكتاب آداب المعلمين ، الخ ..(٥)

٥ - **ابن أبي زيد القيرواني** ، أبو محمد عبد الله النفزي (٣١٨-٣٨٦ هـ) . وهو من أشهر علماء المذهب المالكي ، وقد سمي مالكا الصغير . ومن أهم تآليفه : الرسالة ومختصر المدونة ، وكتاب النوادر ، ورسالة النهي عن الجدل ، وكتاب

البيان في اعجاز القرآن ، ورسالة الرد على القدرية ، ومناقضة رسالة البغدادي المعتزلي ، ورسالة في أصول التوحيد ، الخ ..

٦ ـ **الداودي** ، أبو جعفر أحمد بن نصر التلمساني (المتوفى سنة ٤٠٢ هـ) . أصله من المسيلة ، ورحل الى طرابلس . ثم غادرها واستقر بتلمسان ، حيث توفي سنة ٤٠٢ هـ . وقد اشتهر الداودي بموقفه ضد العبيديين وخلفائهم بني زيري ، وبرأيه في وجوب مغادرة افريقية ، حيث كان يضطهد أهل السنة ، والهجرة الى بلاد أخرى . وألف كتبا جليلة ، منها كتاب الواعي ، في الفقه ، وشرح الموطأ ، وكتاب النصيحة ، وهو اول شرح لصحيح البخاري في الاسلام ، والايضاح في الرد على القدرية .

٧ ـ **القابسي** ، أبو الحسن علي بن محمد (٣٢٤ ـ ٤٠٣ هـ) . هو من كبار علماء القيروان . ألف كتاب المهد ، في الفقه ، والمنقذ من شبه التأويل ، والرسالة المفصلة لاحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين(٦) .

٨ ـ **البراذعي** ، أبو القاسم خلف بن أبي القاسم الازدي (المتوفى في أوائل القرن الخامس هـ) . كان من أصحاب ابن أبي زيد القيرواني ، واستقر بصقلية ، حيث الف كتبه . وقد اشتهر شهرة كبرى بكتابه التهذيب في اختصار المدونة ، الذي انكب الناس على دراسته وحفظه قرونا عديدة ، في سائر انحاء المغرب . والف أيضا كتاب اختصار الواضحة ، وكتاب التمهيد لمسائل المدونة ، الخ ....

٩ ـ **ابو عمران الفاسي** (٣٦٣ ـ ٤٣٠ هـ) . أصله من فاس ، واستقر بالقيروان ، ثم رحل الى الاندلس والمشرق ، ونبغ في الفقه والحديث . وعلى يده تخرج عبد الله بن ياسين صاحب الدعوة التي أدت الى تأسيس دولة المرابطين .

١٠ ـ **البوني** ، ابو عبد الملك مروان بن علي (المتوفى قبل ٤٤٠ هـ) . كان اندلسي الاصل ، وسكن بونة (أي عنابة) ، وأخذ عن علماء مشهورين كأبي الحسن القابسي واحمد بن نصر الداودي ، فبرع في الفقه والحديث . ومن تآليفه شرح الموطأ .

١١ ـ **أبو القاسم البسكري** ، يوسف بن علي بن جبارة (٤٠٣ ـ ٤٦٥ هـ) . نبغ في علم القراءات وفاق فيه معاصريه . وقد استدعاه نظام الملك سنة ٤٥٨ هـ ، وعينه للتدريس بمدينة نيسابور ، فأقرأ بها ، وتوفي بها سنة ٤٦٥ هـ . واشتهر بكتابه الكامل في القراءات .

١٢ ــ أبو الحسن اللخمي (المتوفى سنة ٤٧٨ هـ .) . هو صاحب كتاب التبصرة على المدونة ، وهو أيضا من امهات كتب المذهب المالكي . ومن تلاميذه الامام المازري .

١٣ ــ المازري ، محمد بن علي بن عمر (المتوفى سنة ٥٣٦ هـ .) . ونسبته الى مازر ، بجزيرة صقلية . من تصانيفه كتاب ايضاح المحصول من برهان الاصول وهو شرح لكتاب البرهان للجويني ، في الاصول ، وله أيضا المعلم في شرح مسلم وهو شرح على صحيح مسلم ، ونظم الفرائد في علم العقائد ، الخ ...

١٤ ــ عبد الحق بن عطية الغرناطي (٤٨١ ــ ٥٤٢ هـ .) . ويعتبر تفسيره للقرآن أحسن مثال للطريقة العلمية الادبية ، التي انتهجها الاشاعرة في التفسير . وقد اعتمد ابن عطية كثيرا على تفسير المهدوي ، من علماء افريقية(٧) .

١٥ ــ القاضي عياض السبتي (٤٧٦ ــ ٥٤٤ هـ .) . ولي قضاء غرناطة سنة ٥٣٢ هـ ، ثم اعيد الى سبتة ، ومنها أشخص الى مراكش ، وبها توفي . وقد اشتهر بكتاب الشفا في التعريف بحقوق المصطفى . وله أيضا كتاب مشارق الانوار ، في تفسير غريب حديث الموطأ والبخاري ومسلم ، وترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة اعلام مذهب الامام مالك ، ضمنه تراجم اشهر علماء المذهب المالكي ، والاكمال ، وهو شرح لصحيح مسلم ، وغير ذلك(٨) .

١٦ ــ ابن ابي قنون ، ابو الحسن علي بن ابي القاسم (المتوفى سنة ٥٥٧ هـ .) . رحل الى الاندلس وجال في أقطار المغرب ، ثم استقر بتلمسان ، حيث تولى منصب القضاء .

ومن تاليفه : المقتضب الاشفى في اختصار المستصفى .

١٧ ــ يوسف الورجلاني ، أبو يعقوب بن ابراهيم (٥٠٠ ــ ٥٧٠ هـ .) . أصله من وارجلة ورحل الى الاندلس ، فأخذ عن أشهر علمائها ، ثم المشرق ، ثم عاد الى بلاده حيث ألف كتبا قيمة ، منها تفسير القرآن ، وترتيب الربيع بن حبيب، في الحديث ، وكتاب العدل والانصاف ، في اصول الفقة ، الخ ...

١٨ ــ أبو الحسن الغساني الوادي آشي (٥٤٧ ــ ٦٠٩ هـ .) . كان فقيها محدثا أديبا ، وألف كتاب الوسيلة لاصابة المعنى في شرح اسماء الله الحسنى ، وكتاب التصنيع في تأصيل مسائل التفريع ، وكتاب اقتباس السراج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج ، وكتاب نهج المسالك للتفقه في مذهب مالك ، وهو شرح الموطأ .

١٩ ـ ابو اسحاق التلمساني (٦٠٩ ـ ٦٩٠ هـ .) . ولد بتلمسان ونشأ بها ، ثم رحل لطلب العلم ، واستوطن مدينة سبتة ، وبها توفي . وهو ناظم الارجوزة المشهورة ، في الفرائض ، التي ألفها سنة ٦٣٠ هـ ، وعمره ٢١ سنة .

٢٠ ـ أبو الحسن الصغير (المتوفى سنة ٧١٩ هـ .) ، كان أشهر فقهاء عصره بالمغرب الاقصى . عين قاضيا بتازا ، في عهد ابي يعقوب المريني . ومن تآليفه مجموعة الدر النثير .

٢١ ـ ابن عبد السلام التونسي (المتوفى سنة ٧٤٩ هـ .) كان عالما فقيها اصوليا خطيبا ، ولي القضاء بتونس ، ودرس بها ، فتخرج عليه كثير من العلماء ، أمثال ابن عرفة وعبد الرحمن بن خلدون وغيرهما . وألف شرحا على مختصر ابن الحاجب الفرعي .

٢٢ ـ ابو عبد الله الشريف التلمساني (٧١٠ ـ ٧٧١ هـ .) . ولد بتلمسان ونشأ بها ، وأخذ عن علمائها ، ثم رحل الى فاس ، فأخذ عن الآبلي ، ثم عاد الى موطنه ، ومارس مدة مهنة التعليم ، ثم رحل الى تونس سنة ٧٤٠ هـ ، ولازم ابن عبد السلام ، ثم رجع الى تلمسان . ولما استولى ابو عنان المريني عليها ألحقه بمجلسه العلمي ، وأخذه معه الى فاس . ولم يعد أبو عبد الله الشريف الى مسقط رأسه الا بعد سنوات ، في بداية امارة ابي حمو الثاني الزياني ، فانقطع للتعليم الى أن توفي سنة ٧٧١ هـ . ومن تآليفه : مفتاح الوصول في علم الاصول (٩) .

٢٣ ـ ابن عرفة الورغمي التونسي (٧١٦ ـ ٨٠٣ هـ .) ، نشطت على يده حركة التفسير في بلاد المغرب ، وكذلك العلوم التشريعية . وكان يعتمد على تفسير ابن عطية ، وينتهج طريقة التحليل والاملاء ، التي تتطلب الاكثار من ايراد أقوال العلماء في كل مسألة تعرض في التفسير ، مع فسح المجال للسؤال والبحث ، وقد قام تلامذته بكتابة تفسيره المتضمن لما أملاه عليهم أثناء دروسه(١٠) .

٢٤ ـ سعيد العقباني (٧٢٠ ـ ٨١١ هـ) . نبغ في علوم كثيرة من معقول ومنقول ، وعين قاضيا ببجاية ، ثم بمراكش وسلا ، ثم بوهران وهنين وتلمسان . وكان ، الى ذلك ، يمارس التعليم والتأليف ، من تصانيفه : تفسير سورتي الفتح والانعام ، وكتاب الوسيلة بذات الله وصفاته الى حاجب خليقته في مخلوقاته ، وشرح العقيدة البرهانية ، ولباب اللباب في مناظرة القباب ، وشرح على مختصر ابن الحاجب الاصلي ،

وشرح على الحوفي في الفرائض ، وشرح البردة ، وشرح قصيدة ابن الياسمين في الجبر(١١) .

٢٥ ــ **ابن مرزوق الحفيد** (٧٦٦ ــ ٨٤٢ هـ .) . ولد بتلمسان ونشأ بها . ثم رحل الى اقطار المغرب والمشرق ، وأخذ عن أشهر علماء عصره ، فتضلع في سائر العلوم النقلية والعقلية ، وذاع صيته ، فقصده الطلبة من مختلف الانحاء ، مثل عبد الرحمن الثعالبي ، والقاضي عمر القلشاني ، وغيرهما . ومن تآليفه : تفسير سورة الاخلاص (على طريقة الحكماء) ، ونور اليقين في شرح حديث اولياء الله المتقين ، وارجوزة الروضة (في الحديث) ، واغتنام الفرصة في محادثة عالم قفصة (ابن عقيبة) ، والمعراج في استمطار فوائد الاستاذ السراج ، والنصح الخالص في الرد على مدّعي رتبة الكامل الناقص ، ومختصر الحاوي في الفتاوي (لابن عبد النور التونسي) ، والروض البهيج في مسائل الخليج ، وأنوار الدراري في مكررات البخاري، وثلاثة شروح على البردة : الاكبر والاوسط والاصغر ، والمفاتيح القرطاسية في شرح الشقراطيسية ، والمفاتيح المرزوقية في استخراج رموز الخزرجية ، ونهاية الامل في شرح كتاب الجمل (للخونجي) ، الخ ...

٢٦ ــ **ابو القاسم البرزلي** (المتوفى سنة ٨٤٣ هـ .) ، نزيل تونس ، واصله من القيروان محدث فقيه ، اشتهر بنوازله ، وهي مجموعة فتاوى متداولة ، في مجلدين .

٢٧ ــ **ابو العباس ابن زاغو** المغراوي التلمساني (المتوفى سنة ٨٤٥ هـ .) . أخذ عن سعيد العقباني وغيره ، وانقطع لتدريس العلوم الدينية واللغة والبلاغة والرياضيات . ومن أشهر تلاميذه أبو زكريا المازوني ، صاحب النوازل ، وأبو الحسن القلصادي ، والحافظ التنسي ، وابن زكري . ومن آثاره تفسير الفاتحة ، وشرح التلمسانية ، في الفرائض ، وفتاوى عديدة أوردها ابو العباس الونشريسي في المعيار .

٢٨ ــ **محمد بن احمد بن قاسم العقباني** (المتوفى سنة ٨٧١ هـ .) . اخذ عن جده قاسم وغيره . وكان فقيها عارفا بالنوازل . وولي قضاء الجماعة بتلمسان .

ومن أهم ما الف كتاب تحفة الناظر وغنية الذاكر ، في الحسبة(١٢) .

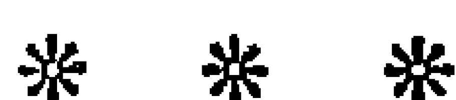
٢٩ ــ **عبد الرحمن الثعالبي** (المتوفى سنة ٨٧٥ هـ بالجزائر) . ومن أشهر تاليفه العديدة كتاب الجواهر الحسان في تفسير القرآن .

٣٠ ـ **محمد بن يوسف السنوسي** (المتوفى سنة ٨٩٥ هـ .) . من أكابر علماء عصره . ولد ونشأ بتلمسان . واخذ بها عن أشهر علمائها ، وتفوق في مختلف العلوم من معقول ومنقول . وبرع بشكل خاص في المجال الاعتقادي ، فألف فيه كتبا عديدة، اشتهرت في سائر انحاء العالم الاسلامي . ومن أهم تصانيفه : عقيدة التوجيه الكبرى، وشرحها ، والعقيدة الوسطى ، وشرحها ، والعقيدة الصغرى وشرحها ، والعقيدة المختصرة ، وشرحها ، والمقدمات المبينة للعقيدة الصغرى ، وشرح جواهر العلوم للعَضُد ، ومختصر حاشية التفتازاني على الكشاف ، وتفسير صورة ص وما بعدها من السور . وشرح صحيح البخاري ، ومختصر في القراءات السبع . ومختصر علي الخونجي ، وشرح ايساغوجي ، وشرح قصيدة الحباك في الاسطرلاب ، وشرح مقدمات الجبر والمقابلة لابن الياسمين ، الخ . .

٣١ ـ **ابن زكري التلمساني** ، أبو العباس احمد بن محمد (المتوفى سنة ٩٠٠ هـ .) . الحافظ المفتي الاصولي المتكلم ، الف كتاب مسائل القضاء والفتيا ، وكتاب بغية الطالب في شرح عقيدة ابن الحاجب ، وكتاب غاية المرام في شرح مقدمة الامام (وهو شرح الورقات لامام الحرمين الجويني ، في الاصول) ، وغيرها .

٣٢ ـ **محمد بن عبد الكريم المغيلي** التلمساني (المتوفى سنة ٩٠٩ هـ .) . نشأ بتلمسان ، ودرس بها ، ثم غادرها ، واستقر مدة بناحية توات . واشتهر بفتواه في قضية يهود توات ، وما اتسم به موقفه فيها من صرامة وشدة وتمسك بالدفاع عن الاسلام . والف كتبا عديدة ، منها : تفسير الفاتحة ، والبدر المنير في علوم التفسير، ومفتاح النظر (في علم الحديث) ، ومغني النبيل (شرح مختصر خليل) ، وشرح جمل الخونجي ، وتنبيه الغافلين عن مكر الملبسين ، ومصباح الارواح في اصول الفلاح (وهي رسالته حول قضية يهود توات) ، الخ . . (١٣) .

٣٣ ـ **أبو العباس الونشريسي** (المتوفى سنة ٩١٤ هـ) . نشأ بتلمسان ودرس بها ، وغادرها سنة ٨٧٤ ، فاستقر بفاس . وكان فقيها عالما . الف كتاب المعيار المغرب والجامع المعرب عن فتاوي علماء افريقية والاندلس والمغرب جمع فيه فتاوى المتأخرين . وله أيضا ايضاح المسالك الى قواعد الامام مالك ، وغنية المعاصر والتالي في شرح وثائق الفشتالي ، والفائق في أحكام الوثائق ، الخ . .



اما في مجال العلوم اللسانية ، فقد لقيت الدراسات اللغوية ، وما يتفرع عنها

من العلوم ، اقبالا كبيرا لدى طلبة العلم في المغرب ، وخاصة في افريقية ، حيث نبغ كثير من اللغويين والنحاة والادباء . ومما يدل على هذا الاعتناء ماظهر في هذا القطر من انتاج ادبي لا يخلو من أهمية . وقد حفظت لنا الكتب الادبية نماذج قيمة لما لم يندثر من آثار الشعراء والكتاب المغاربة ، ومنهم من بلغ مستوى أرقى درجة في الادب العربي .

وقد انجبت بلاد المغرب نخبة صالحة من الادباء واللغويين والنحاة والخطباء، الذين ساهموا في تطوير اللغة العربية واثراء تراثها الادبي ، ونشر علومها في مختلف الانحاء . ويمتاز الادب المغربي ، في كل عصر ، بخصائص تختلف حسب الذوق السائد ، والاوضاع الاجتماعية والسياسية وغير ذلك ،مما له أثر هام في مجالي المبنى والمعنى .

ومن أشهر من نبغ ، في مختلف العلوم اللسانية ، من علماء المغرب وادبائه :

١ ــ **بكر بن حماد التاهرتي** (٢٠٠ ــ ٢٩٦ هـ .) . ولد بتاهرت ، وأخذ عن علمائها . ثم رحل الى القيروان سنة ٢١٧ هـ ، ثم الى المشرق ، حيث مكث مدة طويلة ، حصل فيها على علوم غزيرة ، ونبغ في نظم الشعر ، ثم عاد الى موطنه . وتوفي بتاهرت في شوال سنة ٢٩٦ هـ . هذا ولم يصل الينا الا النذر القليل من شعره الذي يتسم بالسهولة والرقة والوضوح والعفة(١٤) . فمن شعره ، قوله في وصف الطقس بتاهرت في فصل الشتاء :

ما أخشن البرد وريعانه ... وأطرف الشمس بتاهرت
تبدو من الغيم اذا ما بدت ... كانها تنشر من تخت
نحن في بحر بلا لجة ... تجري بنا الريح على السمت
نفرح بالشمس اذا ما بدت ... كفرحة الذمي بالسبت

وقوله يرثي مدينة تاهرت بعد انخربها العبيديون سنة ٢٩٦ هـ :

زرنا منازل قوم لم يزورونا ... انا لفي غفلة عما يقاسونا
لو ينطقون لقالوا : الزاد ويحكم ... حل الرحيل فما يرجو المقيمونا
الموت أجحف بالدنيا فخربها ... وفعلنا فعل قوم لايموتونا
فالان فابكوا فقدحق البكاء لكم ... فالحاملون لعرش الله باكونا
ماذا عسى تنفع الدنيا مجمعها ... لو كان جمع فيها كنز قارونا

٢ ـ **ابن هانيء** الاندلسي المغربي (المتوفى سنة ٣٦٢ هـ .) . نشأ باشبيلية . ونبغ فيعلوم شتى ، وخاصة في الشعر . وقد نقم عليه أهل اشبيلية انهماكه على اللذات ، واتهموه باتباع مذهب الفلاسفة ، فاضطر الى مغادرتها والاتجاه الى المغرب ، حوالي سنة ٣٤٧ هـ . فلقي القائد جوهر ، ثم اتجه الى المسيلة ، ومدح اميرها جعفر بن علي بن غلبون . وفي سنة ٣٥٨ هـ استقدمه المعز الفاطمي . فالتحق ببلاطه ومدحه ونال من اكرامه عطاء جزيلا . ولما انتقل المعز الى مصر ، سنة ٣٦٢ ، غادر ابن هانيء افريقية للالتحاق بممدوحه ، الا انه مات في برقة ، في ظروف غامضة . ويعتبر ابن هانيء أشعر شعراء المغرب على الاطلاق ، وهو عندهم كالمتنبي عند المشارقة .(١٥) ومن اشهر ماقاله ابن هانيء قصيدته في مدح المعز الفاطمي ، وقد بالغ في تعظيمه ، جاريا في ذلك مجرى الشيعة الاسماعيلية في نظريتهم للامامة :

ما شئت لا ما شاءت الاقدار ... فاحكم فأنت الواحد القهار
وكانما انت النبي محمد ... وكأنما انصارك الانصار
انت الذي كانت تبشرنا به ... في كتبها الاحبار والاخبار
هذا امام المتقين ومن به ... قد دوخ الطغيان والكفار
هذا الذي ترجى النجاة بحبه ... وبه يُحط الاصر والاوزار
هذا الذي تجدي شفاعته غدا ... حقا وتخمد ان تراه النار
من آل احمد كل فخر لم يكن ... ينمى اليهم ليس فيه فخار

وقال في الحكمة :

طلب المجد من طريق السيوف ... شرف مؤنس لنفس الشريف
ان ذل العزيز افظع مرأى ... بين عينيه من لقاء الحتوف
أنا من صارم وطرف جواد ... لست من قبة وقصر منيف
ليس للمجد من يبيت على المجد بسعي وانٍ ونفس عزوف

وقال أيضا يرثي ابنا لابن حمدون ،أمير المسيلة ، ويذم الزمان :

وهب الدهر نفيسا فاسترد ... ربما جاد لئيم فحسد
خاب من يرجو زمانا دائما ... تعرف البأساء منه والنكد
فاذا ما كدر العيش نما ... واذا ما طيّب الزاد نفد
فلقد ذكر من كان سها ... ولقد نبه من كان رقد

٣ ــ **النهشلي** ، أبو محمد عبد الكريم بن ابراهيم التميمي (المتوفى سنة ٤٠٥ هـ) . ولد بالمسيلة ، واتصل بالامراء الزيريين ، فمــدح المنصور وابنــه باديس ، ونظم شعره على منوال شعراء العرب القدماء ، فنال شهرة واسعة .

اعجاب معاصريهم واحترامهم . وشعره يمتاز بالرصانة والخفة ، والطرافة والتنوع . ولم يصل الينا منه الا بعض القصائد ، في اغراض مختلفة . ومن تصانيفه المشهورة مسائل الانتقاد ، وهو كتاب في نقد الشعر والشعراء ، على نمط المقامات(١٩) .

٧ - **ابن رشيق القيرواني المسيلي** ، أبو علي الحسن (٣٩٠ - ٤٦٣ هـ) . ولد بالمسيلة ، وبها ظهرت مواهبه الادبية ، ثم رحل الى القيروان سنة ٤٠٦ هـ ، وأخذ عن القزاز والحصري وغيرهما . وفي سنة ٤١٠ هـ ، اتصل بابن أبي الرجال ، الذي عينه كاتبا ، فاشتهر في بلاط المعز بن باديس ، وحظي عند الامير الزيري ، وعلت منزلته لديه ، رغم ما لقي من منافسة شديدة من طرف شعراء البلاط وخاصة ابن شرف . وفي سنة ٤٤٩ هـ ، غادر القيروان ، اثر خرابها ، مع المعز ، متجها الى المهدية ، ثم ارتحل الى صقلية ، وتوفي فيها بمازر ، سنة ٤٦٣ هـ ، وقيل سنة ٤٥٦ هـ . وقد عرف ابن رشيق شهرة كبرى في عصره ، لما نال شعره من اقبال لدى معاصريه ، وخصوصا رثاؤه للمعز ، وقصيدته حول خراب القيروان . ومن تصانيفه القيمة كتاب العمدة في صناعة الشعر ونقده ، الذي يعد بحق من أمهات كتب قواعد صناعة الشعر العربي والبلاغة والعروض ، الخ .. وله أيضا كتاب قراضة الذهب في نقد أشعار العرب ، وكتاب أنموذج الزمان في شعراء القيروان ، الذي ضمنه تراجم شعراء القيروان وكان من أهم المصادر لكتب التراجم ، وكتاب الروضة الموشية في شعراء المهدية(٢٠) .

٨ - **الشقراطسي** ، عبد الله بن يحيى (المتوفى سنة ٤٦٦ هـ) . ولد بتوزر ، ورحل الى القيروان في طلب العلم ، من فقه وحديث وأدب ولغة ، وتوجه الى المشرق لقضاء فريضة الحج ، ثم عاد الى توزر حيث تفرغ للتعليم والافتاء . وألف كتاب الاعلام في معجزات خير الانام ، الذي ختمه بقصيدة في مدح الرسول وذكر معجزاته : تدعى الشقراطسية . وقد نالت هذه القصيدة شهرة عظيمة في العالم الاسلامي ، وخاصة في المغرب . وتناولها العلماء والادباء بالشرح ، ونظموا على منوالها ، وحفظها الطلبة ودرسوها مدة قرون عديدة . ومطلعها :

الحمد لله منا باعث الرسل   هدى بأحمد منا أحمد السبل

٩ - **ابن النحوي التوزري** : أبو الفضل يوسف بن محمد بن يوسف (٤٣٤ - ٥١٣ هـ) . ولد بتوزر ، وأتم دراسته في القيروان وفي مدن أخرى من المغرب . ثم استقر بقلعة بني حماد ، حيث توفي سنة ٥١٣ هـ . وقد كرس حياته لتدريس

علم الكلام والاصول . وله شعر يمتاز بالجزالة والخفة ، في الوصف والزهد ، منه قصيدته الشهيرة ، التي تسمى المنفرجة ، ومطلعها :

اشتدي أزمة تنفرجي   قد آذن ليلك بالبلج(٢١)

١٠ ــ **ابن حمديس الصقلي** السرقوسي (٤٤٦ ــ ٥٢٧ هـ) . ولد بسرقوسة ونشأ فيها ولما غزا النورمان صقلية حاربهم بسلاحه ولسانه ، ثم غادر الجزيرة سنة ٤٧١ ورحل الى افريقية ثم الى الاندلس ، والتحق ببلاط المعتمد بن عباد ، الى أن استولى يوسف بن تاشفين على اشبيلية . وعندئذ توجه ابن حمديس الى أغمات ، بالمغرب الاقصى ، حيث كان ابن عباد يقاسي آلام الاسر ، فرافقه مدة بها ، ثم اتصل بتميم بن المعز ، بالمهدية ، فمدحه ، وبالمنصور بن الناصر بن علناس ، ببجاية . وبقي يتردد بين هاتين العاصمتين وميورقة وعنابة ، ويمدح الامراء بها ، الى ان توفي سنة ٥٢٧ هـ ، في بجاية . ويعد ابن حمديس أكبر شاعر لصقلية الاسلامية ، الا انه لم يقض بالجزيرة الا أربعا وعشرين سنة ، بينما امتدت اقامته بافريقية الى مايزيد على نصف عمره . فكان معظم شعره يشمل مدح أمراء افريقية ، ووصف حياة البلاط بها . ويمتاز نظمه بصفاء القريحة وطول النفس ، وبراعة التصوير ، والحيوية الناتجة عن عمق الشعور وصدقه ، وخاصة عندما يتذكر موطنه وأقاربه ولذا ، فهو يحتل مكانة سامية في الشعر العربي(٢٢) . فمن نظمه ، قوله يستحث قومه على البقاء في صقلية والدفاع عن وطنهم ، ويعرب عن مرارة الاغتراب والهجرة الى بلد آخر :

ولله ارض ان عدمتم هواءها   فأهواؤكم في الارض منثورة النظم
وعزكم يفضي الى الذل والنوى   من البين ، ترمي الشمل منكم بماترمي
فان بلاد الناس ليست بلادكم   ولا جارها والخلم كالجار والخلم
أعن ارضكم يغنيكم ارض غيركم   وكم خالة جداء لم تغن عن ام
أخلِّي الذي ودي بود وصلته   لدي كما نيط الولي الى الوسمي
تقيّد من القطر العزيز بموطن   ومت عند ربع من ربوعك او رسم
واياك يوما أن تجرب غربة   فلن يستجيز العقل تجربة السم

وقال ايضا يعرب عن حزنه وخيبة أمله في استرجاع الاراضي التي احتلها الغزاة بصقلية :

أعاذل دعني اطلق العبر التي   عدمت لها من أجمل الصبر حابسا

لقدّرت أرضي أن تعود لقومها فساءت ظنوني ثم أصبحت يائسا
وعزيت فيها النفس لما رأيتها تكابد داء قاتل السم ناحسا
وكيف وقد سيمت هوانا وصيرت مساجدها أيدي النصارى كنائسا

١٤ ـ ابن محرز الوهراني ، محمد بن محمد (المتوفى سنة ٥٧٥ هـ .) ولد ونشأ بوهران ، في اخر عهد المرابطين ، وغادرها عندما استولى عليها الموحدون سنة ٥٣٩ هـ ، فرحل الى صقلية ، ثم الى الشام ، وسكن دمشق . ثم زار العراق ومصر ، وتوفى سنة ٥٧٥ هـ . وقد الف الوهراني المنامات ، سلك فيها مسالك ابي العلاء في رسالة الغفران ،وابن شهيد في رسالة التوابع والزوابع ، فاجاد فن المقامة ، وامتاز أنتاجه بخصائص قلما توجد في النثر العربي القديم ، ((من حيوية وذكاء ولمحات تعبر عن شخصية الكاتب))(٢٣) . وللوهراني أيضا رسائل ، في نفس الاسلوب الفكاهي ، لا تخلو من قيمة ادبية وفنية .

١٥ ـ ابن الفكون القسنطيني ، حسن بن علي (توفي بعد سنة ٦٠٢ هـ .) .كان غزير النظم والنثر ، بارعا فيهما . رحل الى مراكش ، ومدح الخليفة الموحدي ، ونال جائزة سنية . وله رحلة كتبها حول سفره من قسنطينة الى مراكش . وهو من فحول شعراء المغرب . فمن قوله في القصيده التي نظمها حول رحلته الى مراكش ووجهها الى أبي البدر بن مردنيش :

الا قل للسري بن السري ... أبي البدر الجواد الاريحي
أيا معنى السيادة والمعالي ... ويا بحر الندى بدر الندي
أما وبحقك المبدي جلالا ... وما قد حزت من حسب علي
وما بيني وبينك من ذمام ... وما أوتيت من خلق رضي
لقد رمت العيون سهام غنج ... وليس سوى فؤادي من رمي

وفيها يقول :

فها أنا قد تخذت الغرب دارا ... وأدعي اليوم بالمراكشي
على أن اشتياقي نحو زيد ... كشوقي نحو عمرو بالسوي
يقاسمني الهوى شرقا وغربا ... فيا للمشرقي المغربي
فلي قلب بأرض الشرق عان ... وجسم حل بالغرب القصي
فهذا بالغدو يهيم غربا ... وذاك يهيم شرقا بالعشي
ولولا الله مت هوى وشوقا ... وكم لله من لطف خفي

١٦ ـ مالك بن المرحل السبتي (٦٠٤ ـ ٦٩٩ هـ) . ولد بمالقة ، ثم انتقل الى سبتة ، فأقام فيها طويلا ، ثم رحل الى فاس ، وبها توفي سنة ٦٩٩هـ.

درس العلوم الدينية واللسانية ، ونبغ فيها ، فكان يجيد الكتابة ، الا انه اشتهر بشعره الذي يشمل مدح أمراء بني مرين ، كما يشمل نظما كثيرا في الزهديات والمولديات ، وقد ألف كتبا عديدة في علوم مختلفة ، اغلبها منظومة . وله ديوان يسمى الجوالات (أي المختارات)، وكتاب الوسيلة الكبرى المرجو نفعها في الدنيا والاخرى (وهي مجموعة امداح نبوية) ، والمعشرات النبوية ، والعشريات الزهدية ، الخ .. ويمتاز مالك بن المرحل بطـول النفس ، وسهولة النظم وخفته .

١٧ ـ **ابن خميس التلمساني** ، أبو عبد الله محمد بن عمر (٦٥٠ ـ ٧٠٨ هـ) . ولد بتلمسان ونشأ بها ودرس على علمائها ، ثم أشرف مدة على ديوان الانشاء ، أيام السلطان الزياني أبي سعيد الاول، ثم غادر تلمسان أثناء الحصار الطويل ، ونزل سبتة، ثم رحل الى غرناطة ، في أواخر سنة ٧٠٣ هـ ، فأقام بها في خدمة الوزير ابن حكيم ،وتوفي بها سنة ٧٠٨ هـ . وابن خميس شاعر مطبوع ، فاق شعراء عصره . وقد اثنى عليه العبدري في رحلته ، وذكر بعض قصائده ، وكذلك يحيى بن خلدون في بغية الرواد ، ووصفه هذا الاخير بأنه (شاعر المائة السابعة)(٢٤) . وقد تحدث في شعره عـن اعتنائه بالفلسفة وميله الى التصوف ، فقال :

انا مـن بقية معشر عركتهم — هذي النوى عرك الرحى بثفالها
اكرم بها فئة اريـق نجيعها — بغيا فراق العين حسن مآلها
حلت مدامة وصلها وحلت لهم — فان انتشوا فبحلوها وحلالها
بلغت بهرمس غاية مـا نالها — احد ، وناء لها لبعـد منالهـا
وعدت على سقراط سورة كانها — فهريق مافي الدن من جريالها
وسرت الى فاراب منها نفحة — قدسية جاءت بنخبـة آلهـا
ليصوغ من الحانه في حانهـا — ما سوغ القسيس من أرمالها
وتغلغلت في سهرورد فأسهرت — عينـا يؤرقها طروق خيالهـا
فخبا شهاب الدين لما اشرقت — وخوى فلم يثبت لنور جلالها
ما جن مثل جنونه أحـد ولا — سمحت يد بيضا بمثل نوالها
وبدت على الشوذي منها نشوة — ما لاح منهـا غيـر لمعـة آلهـا
بطلت حقيقتها وحالت حالـه — فيما يعبر عـن حقيقة حالها
هذي صبابتهم ترق صبابـة — فيروق شاربها صفاء زلالهـا

١٨ ـ **أبو العباس العزفي** (المتوفى في آخر سنة ٧٠٨) ، ينتمي الى اسرة العزفيين

التي حكمت سبتة منذ سنة ٦٤٧ هـ الى سنة ٧٠٥ هـ ، حيث استولى عليها محمد الثالث بن الاحمر ملك غرناطة ، فنشأ ابو العباس العزفي في بيت امارة ، ونبغ في الادب ، ونظم الشعر . ولما نقل ، مع اسرته ، الى غرناطة ، استعطف ابن الاحمر بقصيدة بديعة مدحه فيها ، فنال اعجابه ، وبقي في بلاط غرناطة الى خلع السلطان ، فأصيب أبو العباس بجراح بالغة مات بعدها بقليل ، في سنة ٧٠٨ هـ . وشعر أبي العباس العزفي من اعلى طراز ، متقن الفن ، جميل السبك ، حسن التصوير ، زاخر المعاني الدقيقة ، والاخيلة المستحسنة . وقد طرق اغراضا شتى ، وخاصة المدح والغزل والخمريات .



وفيما يخص العلوم الاجتماعية ، أي الفلسفة والاخلاق والتاريخ والجغرافيا ، فقد عرف بعضها تطورا نسبيا ، نظرا لظروف خاصة ، بينما حظي البعض الاخر باهتمام كبيـــر .

أما الفلسفة ، فلم تحظ بأي تشجيع من طرف الحكام ، بل واجهت مقـاومـة شديدة من الفقهاء ورجال الدين . فلم يشتغل بالفلسفة الا القليل من العلماء . وامـا التصوف ، فانه تعرض أيضا ، في القرون الاولى ، لنوع من الازدراء والحذر من طرف الفقهاء ، لما كان يحمل في طياته من افكار لاتتفق مع عقيدة أهل السنة ، الا أن الاتجاه نحو الاعتدال ، الذي أحدثته كتب الغزالي ، عند الصوفية ، وكذلك عند أهل السنة ، ابتداء من القرن السادس هـ ، قد سمح بالوصول الى تعايش بين الفريقين ، ممـا ادى الى انتشار التصوف في سائر الانحاء .

ولاشك أن هذه الاوضاع جعلت الحضارة الاسلامية ، سواء في المشرق او في المغرب ، تحافظ ، في تطورها ، على اهمية طابعها الديني ، وعلى مقوماتهاالدينية ، كما انها جعلت الفلسفة والعلوم المتصلة بها منحصرة في أوساط محدودة جدا .

هذا وقد عرف التاريخ ازدهارا كبيرا ، وكذلك الجغرافية والرحلات ، لمـا لذلك من اتصال وثيق بالحياة الاقتصادية والثقافية وقد خطا ابن خلدون بهـــذه العلوم خطى حاسمة ، فجدد التفكير فيعلم التاريخ ومنهجيته ، ووضع اسس علم الاجتماع . ورغم ضياع كثير من المؤلفات التاريخية والجغرافية ، فان ما وصل الينا من انتاج علماء المغرب الاسلامي يمثل تراثا حافلا يحق بنا ان نفخر به ، ويجب علينا او نوليه كل عنايتنا . ومن اشهر العلماء المغاربة في مجال العلوم الاجتماعية :

١ ــ الوراق القيرواني ، أبو عبد الله محمد بن يوسف (المتوفى سنة ٣٦٣ هـ) . صاحب كتاب في مسالك افريقية وممالكها ، يعد اهم مصدر اعتمد عليه البكري وقد ضاع مثلما ضاعت تآليف أخرى له أيضا .

٢ ــ الرقيق القيرواني ، ابو اسحاق ابراهيم بن القاسم (المتوفى بعد سنة ٤١٨ هـ) هو مؤلف كتاب تاريخ افريقية والمغرب . وقد ضاع ايضا هذا المصدر الهام لتاريخ بلاد شمال افريقية ، غير ان كثيرا من المؤرخين اعتمدوا عليه ورووا بعض اخباره ، مثل ابن عذاري وابن خلدون والنويري وغيرهم .

٣ ــ ابن باجه ، أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ (المتوفي سنة ٥٣٣ هـ) ولد بسر قسطة ، ولما استولى عليها النصارى (سنة ٥١٢ هـ) رحل الى اشبيلية ، واشتغل بالطب ، ثم استقر بغرناطة مدة ، ثم توجه الى فاس ، حيث حظي برعاية الامير المرابطي أبي بكر يحيى بن تاشفين . ونبغ في الفلسفة وفي علوم عديدة كالطب والهندسة والموسيقى والفلك (ونقد نظام بطليموس الفلكي) . ومن مؤلفاته : رسالة الوداع ، وكتاب تدبير المتوحد ، في الفلسفة . هذا وقد أثر ابن باجه تأثيرا كبيرا في نظريات كثير من الفلاسفة المسلمين (وخاصة ابن طفيل وابن رشد) والمسيحيين (مثل البرت الكبير) . وعرفه الاوربيون باسم Avempace . وتوفي سنة ٥٣٣ هـ بفاس ، قيل انه مات مسموما بتدبير من بعض الفقهاء .

٤ ــ البيذق ، أبو بكر بن علي الصنهاجي (المتوفى بعد ٥٥٠ هـ) رافق ابن تومرت اثناء عودته من المشرق ، والف كتابا وصف فيه هذه الرحلة ، وضمنه بعض اخبار المهدي ابن تومرت وعبد المؤمن . وهذا الكتاب اقدم مصدر وصل الينا في تاريخ دولة الموحدين(٢٥) .

٥ ــ الشريف الادريسي ، ابو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن ادريس (٤٩٣ ــ ٥٦٠ هـ) ولد بسبتة ونشأ فيها ، ودرس في قرطبة . وفي سنة ٥١٠ هـ رحل الى المشرق ، فتجول في اقطاره ، ثم عاد الى المغرب . ثم رحل الى صقلية حوالي سنة ٥٣٠ هـ ، ومدح روجار الثاني ، واقام مدة طويلة في بلاطه ، اشتغل اثناءها بتأليف كتابه : نزهة المشتاق في اختراق الافاق . ويعد الادريسي اكبر جغرافي في المغرب الاسلامي(٢٦) .

٦ ــ ابن ظفر الصقلي ، محمد بن عبد الله بن محمد ((٤٩٧ ــ ٥٦٥ هـ) . ولد بصقلية ، ونشأ بمكة ، ورحل منها صغيرا الى مصر لطلب العلم . ثم توجه الى

افريقية ، فأخذ عن علمائها ، واقام بها الى ان استولى النورمان على المهدية ، سنة ٥٤٣ هـ وهو فيها . فانتقل الى صقلية ، وفيها الف كتابه الشهير سلوان المطاع ، سنة ٥٥٤هـ . ثم غادر صقلية ، ورحل الى مصر ، ثم الى الشام ،حيث توفي سنة ٥٦٥ هـ بحماة . وكتاب سلوان المطاع من كتب اخلاق الملوك،وقد تناول ابن ظفر هذا الموضوع في قالب رمزي ، محتذيا في ذلك كتاب كليلة ودمنة، ومستعينا بالقصص ، وخاصة قصص الحيوانات ، ومؤيدا ذلك بنصوص من القرآن والحديث واقوال الصحابة والحكماء العرب والعجم ، وغير ذلك . وقد بلغت شهرة هذا الكتاب مبلغا عظيما في القرن السابع وبعده في الشام وغيرها من الاقطار العربية .

٧ـ **ابوبكر بن طفيل** ، محمد بن عبد الملك بن محمد (المتوفي سنة ٥٨١هـ)ولد حوالي سنة ٥٠٦ هـ في وادي آش بالاندلس ، ونبغ في الطب والفلسفة والرياضيات والفلك والادب . وشغل منصب كاتب لدى حاكم غرناطة . وفي سنة ٥٤٥ هـ عين كاتبا لحاكم سبتة وطنجة ، وهو احد ابناء عبد المؤمن ، وبعد وفاة عبد المؤمن ، سنة ٥٥٨ ؛ ذاع صيت ابن طفيل ، فعينه يوسف بن عبد المؤمن طبيبا له ، وكاتبا ، ومكث فيمنصبه هذا الى سنة ٥٧٨ هـ ، حيث انقطع للعبادة وزهد في الدنيا . وتوفي بمراكش سنة ٥٨١ هـ .

ومن مؤلفاته كتاب في الطب ، وشرح كتاب لارسطو . غير ان اهم تصانيفه قصة حي بن يقظان ، وقد ضمنها اراءه الفلسفية في قالب رمزي ، وتعد هذه القصة من روائع الفكر العربي (٢٧).

٨ ـ **أبو مدين شعيب** بن الحسين الانصاري (المتوفى سنة ٥٩٤ هـ) ، الولي الصالح المشهور . ولد في قرية تدعى قطنيانة ، قرب اشبيلية ، ورحل الى المغرب ، فأخذ بفاس عن بعض العلماء والصلحاء ، مثل ابن حرزهم وابي يعزى وغيرهما ، ثم رحل الى بلاد افريقية ، واستقر ببجاية مدة طويلة ، فتخرج عليه كثير من الطلبة ، وفي سنة ٥٩٤هـ ، استدعاه الخليفة الموحدي يعقوب المنصور الى مراكش ، فتوجه اليها . ولكنه مرض في طريقه ، وتوفي ودفن بقرية العباد ، خارج تلمسان . ولأبي مدين شعيب مكانة سامية في التصوف المغربي ، يشهد عليها العديد من الطرق الصوفية التي تنتسب اليه والى ارائه . وينسب اليه ديوان في الزهديات ، وحكم في التصوف(٢٨) .

٩ ـ **أبو الوليد بن رشد** ، محمد بن احمد بن محمد (المتوفى سنة ٥٩٥ هـ) . ولد بقرطبة ، في اسرة علمية مشهورة ، كان يشغل افرادها منصب القضاء . ونبغ ابو

الوليد في العلوم الدينية والطب والفلسفة . ووفد على يوسف بن عبد المؤمن ، فقدمه ابن طفيل للخليفة الوحدي ، الذي اعجب به ، وعينه قاضيا باشبيلية ، سنة ٥٦٥هـ، ثم قاضيا بقرطبة . وفي سنة ٥٧٨هـ ، استدعاه يوسف بن عبد المؤمن الى مراكش ليحل محل ابن طفيل ، فحظي عنده ، ثم عند خلفه يعقوب المنصور . ولكنه نكب في آخر حياته ، ونفي الى بلدة قرب قرطبة ، ثم عاد الى حظوته سنة ٥٩٥ هـ ، وقدم الى مراكش باستدعاء من المنصور ، ولكنه مرض بها وتوفي في صفر ٥٩٥ هـ ، ودفن بقرطبة . وابن رشد أشهر فلاسفة العرب على الاطلاق . وقد اخترقت شهرته الآفاق ، وانتشرت آراؤه في العالم المسيحي ، فكان لهـا أثر كبير في النهضة الاوربية . ومـن اشهـر تآليفه كتاب الكليات في الطب ، وشروح على كتب ارسطو ، وكتاب مناهج الادلة في عقائد الملة ، وكتاب فصل المقال ، وتهافت التهافت ،الخ..(٢٩).

١٠ ـ **ابن جبير الكناني** الاندلسي ، ابو الحسن محمد بن احمد (٥٤٠ ـ ٦١٤هـ). ولد ببلنسية ، في الاندلس ، ودرس العلوم الدينية واللسانية ، ونبغ في الادب والشعر ، فعينه سعيد بن عبد المؤمن ، حاكم غرناطة ، كاتبا له . وفي سنة ٥٧٨ هـ ، رحل ابن جبير الى مصر ، ثم الى الحجاز ، فادى فريضة الحج ، ثم قصد الى العراق فالشام ، ثم عاد الى موطنه عبر البحر ، مجتازا بصقلية ، وذلك سنة ٥٨١ هـ . وقد الف ابن جبير رحلته الشهيرة ، تحدث فيها عما شاهده أثناء سفره هـذا ثم قام برحلة ثانية ، من سنة ٥٨٥ الى سنة ٥٨٧ هـ ، ورحلة ثالثـة ، سنة ٦١٤ هـ ، الى الحجاز ، ثم الى مصر ، وتوفي في هذه الاثناء بالاسكندرية ، وقـد لقيت رحلة ابن جبير رواجا عظيما لدى القراء لما تمتاز به من سهولة في التعبير ، ودقة في الوصف ، وصراحة في الاخبار(٣٠).

١١ ـ **محيي الدين بن العربي** ، محمد بن علي بن محمد الحاتمي (٥٦٠ـ٦٣٨هـ). ولد بمرسية ، في الاندلس ، ونشأ باشبيلية ، فأخذ عن بعض علمائها ، ثم غادرها سنة ٥٩٨ هـ ، ورحـل الى المشرق ، فزار مختلف اقطاره ، وتوفي سـنة ٦٣٨ هـ بدمشـق . ومحيي الدين بن العربي من أشـهر علماء التصـوف . ولـه تآليف عديدة ، أشهرها الفتوحات المكية وفصوص الحكم (٣١) .

١٢ ـ **ابن الابار القضـاعي** ، ابو عبـد الله محمد بن عبد الله بن ابي بكـر (٥٩٥ ـ ٦٥٨ هـ) ، ولد ببلنسية ، واخذ بها عن اشهر علمائهـا ، ثم عين فيوظيفة كاتب لاحد أفراد اسرة بني مردنيش ، المسيطر آنذاك على الحـكم في بلنسية . وفي سنة ٦٣٦ هـ ، استولى النصارى على هذه المدينة ، فغادرها معظم اهاليها المسلمين ، ومن بينهم ابن الابار ، الذي توجـه الى افريقية ، ومكث فيها الى وفاته سنة٦٥٨هـ.

وكان محدثا واديبا ومؤرخا . ومن اهم تآليفه كتاب التكملة ، والمعجم في اصحاب ابي علي الصدفي ، والحلة السيراء ، وكلها في التراجم .

١٣ ـ ابو العباس الغبريني ، احمد بن احمد بن عبد الله بن محمد (٦٤٤ ـ ٧٠٤ هـ) . أخذ العلم ببجاية ، ثم بتونس ، وعين قاضيا في مدن عديدة، ثم في بجاية . وارسله الامير الحفصي ابو البقاء في سفارة الى السلطان الحفصي بتونس ،فلما عاد من سفارته امر ابو البقاء بالقبض عليه ، بايعاز من بعض الوشاة ، والقي في السجن ، ثم قتل سنة ٧٠٤هـ . وللغبريني كتاب عنوان الدراية فيمن عرف من علماء المائة السابعة في بجاية ، ضمنه تراجم علماء بجاية فهو مصدر هام لتاريخ الحياة الفكرية في الشرق الجزائري ، في القرن السابع الهجري .

١٤ ـ ابن عذاري المراكشي ، ابو عبد الله محمد (المتوفى بعد سنة ٧٠٦ هـ) . ولد وعاش بمراكش . والف كتابا في تاريخ المغرب يدعى البيان المغرب في اخبار المغرب ، اعتمد فيه على مصدر هامة ، ضاع بعضها ، وقد استفاد من تاليفه هذا كثير من المؤرخين الذين عاشوا بعده ، ومن بينهم عبد الرحمن بن خلدون .

١٥ ـ ابن رشيد السبتي ، ابو عبد الله محمد بن عمر (٦٥٧ ـ ٧٢١هـ)، ولد بسبتة ، ودرس بها وبالاندلس . وفي سنة ٦٨٣ ، رحل الى افريقية والمشرق ، وكان رجوعه الى سبتة سنة ٦٨٦هـ . ونبغ في الحديث والفقه والاصول والادب . ثم انتقل الى غرناطة بدعوة من صديقه الوزير ابن الحكيم ، فمكث فيها مكرما الى ان قتل الوزير ، فغادر الاندلس ، والتحق ببلاط بني مرين بفاس ، وتوفي في هذه المدينة في محرم سنة ٧٢١ هـ . ولابن رشيد مصنفات عديدة وهامة ، منها رحلته ملء العيبة فيما جمع بطول الغيبة في الوجهتين الكريمتين الى مكة وطيبة . وتشمل هذه الرحلة معلومات قيمة في شتى المجالات والعلوم ، وفوائد عظيمة ، مما يجعلها من اهم الرحلات عند العرب (٣٢).

١٦ ـ ابن ابي زرع الفاسي (المتوفى بعد سنة ٧٢٦ هـ) . هو مؤلف كتاب الانيس المطرب بروض القرطاس في اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، وهو من اهم المؤلفات في تاريخ المغرب الاقصى ، لما جمعه من اخبار عديدة ، اخذها عن مصادر، ضاع الكثير منها .

١٤ ـ لسان الدين بن الخطيب السلماني (المتوفى سنة ٧٧٦ هـ) . ولد سنة ٧١٣ هـ ، بلوشة ، قرب غرناطة ، ونشأ في غرناطة ودرس بها على اكبر علمائها . ولما

توفي ابوه قتيلا في معركة طريف (سنــة ٧٤١ هـ) ، عين مكان ابيه كاتبــا في ديــوان الانشاء ، تحت اشراف الوزير ابن الجياب ، ثم توفي ابن الجياب سنة ٧٤٩ هـ ، فعين لسان الدين مكانه ، وتقلد ديوان الانشاء ، وفي سنة ٧٥٥ هـ ، توفي السلطان ابو الحجاج يوسف ابن احمر ، وخلفه ابنه الغني بالله . وكانت بينه وبين لسان الدين صداقة ومودة ، فاعلى منزلته ، وارسله سفيراً الى المغرب الاقصى ،يستنجد بابي عنان المريني ، واسند اليه الكتابة والوزارة ، وسماه ذا الوزارتين . ولما خلع الغني بالله ، والتجأ الى المغرب الاقصى ، في محرم ٧٦١ هـ ، صحبه لسان الدين ، وكثر اتصال ادباء وفقهاء المغرب بهذا الاخير ، ومكث لسان الدين بالمغرب الى جمادي الثانية ٧٦٣هـ ، حيث عاد الى غرناطة بعد أن استرجع الغني بالله عرشه . وبقي لسان الدين في الوزارة الى ان ساءت الاحوال بينه وبين السلطان ، بسعاية ابن زمرك وغيره. فالتجأ لسان الدين الى المغرب الاقصى ، في اخر ٧٧٢ هـ ، واستقر به الى ان توفي في أوائل ٧٧٦ هـ . وقد ترك ابن الخطيب مؤلفات عديدة ، تشهد على براعته في الرسائل والشعر ، وتضلعه في التاريخ والادب وغير ذلك من العلوم ، ومن اشهرها الاحاطة في أخبار غرناطة ، واعمال الاعلام ، واللمحة البدرية ، ونفاظة الجراب ، وكناسة الدكان ، وريحانة الكتاب . الخ...

١٨ ــ **ابن بطوطة الطنجي** (٧٠٣ ــ ٧٧٧هـ) . ولد بطنجــة ، وبــدأ اولى رحلاته سنة ٧٢٥ هـ ، حيث رحل الى مصر ثم الى الشام والحجاز وسائر بلاد المشرق الادنى والهند والصين ، ثم عاد الى موطنه مارا بالحجاز ومصر وشمــال افريقيــة (سنة ٧٥٠ هـ). ثم قام برحلة ثانية الى اندلس ، وثالثة الى السودان (خلال الفترة ما بين ٧٥٣ و ٧٥٥ هـ) . ثم عاد الى فاس ، حيث قضى آخر ايامه . وفد عند وصوله الى فاس على السلطان ابي عنان المريني ، الذي اعجب بحديثه عن عجائب اسفاره ، فأمر كاتبه ابن جزي بكتابة اخبار ابن بطوطة ، وسميت الرحلة تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار . وقد جاءت هذه الرحلة في اسلوب شيق ، ثم انها تتضمن اخبارا عن احوال البلاد التي زارها ابن بطوطة وحياتهم الدينية وعاداتهم وغير ذلك . ويعد ابن بطوطة اعظم رحالة عربي (٣٣).

١٩ ــ **يحيى بن خلدون** (المتوفى سنة ٧٨٠ هـ) . وهو اخو المؤرخ الشهير . ولد بتونس سنة ٧٣٤ هـ ، ونشأ بها ، ودرس على علمائها . ثم التحق ببلاط السلطان ابي عنان بفاس ، وفي آخر ٧٦١ هـ ، رافق الامير الحفصي أبا عبد الله ، الذي غادر مدينة فاس ، متوجها نحو بجاية قصد استرجاع امارتها ، فلن يحقق رغبته الا في ٧٦٥ هـ ، وعين يحيى بن خلدون في منصب الحجابة . وفي سنة ٧٦٦ هـ ، اسندت

الحجابة لعبد الرحمن بن خلدون ، الذي قدم آنذاك من الاندلس ، ومكث اخوه يحيى ببجاية ، الى ان استولى عليها الامير ابو العباس الحفصي ، سنة ٧٦٧ هـ . واستقر الاخوان بعد ذلك عند ابن مزني ، في ناحية بسكرة ، وفي رجب ٧٦٩هـ، التحق يحيى بن خلدون ببلاد ابي حمو الثاني الزياني ، بتلمسان ، حيث عين كاتبا للسلطان . وشغل ذلك المنصب الى سنة ٧٧٢ هـ ، ثم من ٧٧٦ الى رمضان ٧٨٠ هـ ، حيث توفي قتيلا ، وهو يزال في بداية كهولته . وكان قد الف كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، ضمنه تاريخ الدولة الزيانية من تأسيسها الى ذلك العهد ، ويحيى بن خلدون من طبقة الكتاب المبرزين ، يمتاز بثقافة أدبية واسعة ، واسلوب يزخر بالمحسنات البديعية والسجع المستظرف ، مما كان يعجب به ادباء عصره ، بالاضافة الى نبوغه في الشعر ، واهتمامه بالتاريخ(٣٤) .

٢٠ — **ابن مرزوق الخطيب** ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد (٧١٠ — ٧٨١) . ولد بتلمسان ونشأ بها، ورحل الى المشرق سنة ٧١٨ هـ ، فأخذ على كثير من العلماء ، ثم عاد الى موطنه سنة ٧٣٣ هـ ، فوجد السلطان ابا الحسن المريني محاصرا تلمسان فالحق ببلاطه ، وحظي عنده ، وصحبه في سائر تنقلاته . وفي سنة ٧٥٢ هـ ، اجاز الى الاندلس ، واسندت اليه الخطابة في جامع الحمراء بغرناطة الى سنة ٧٥٤هـ ، ثم عاد الى موطنه ، واتصل بالسلطان أبي عنان المريني ، ومكثفي بلاطه. وفي أيام ابي سالم المريني ، عظم نفوذ ابن مرزوق الخطيب ، واصبح زمام الامر ، في الدولة المرينية ، بيده ، مما احقد عليه كثيرا من رجالة الدولة . ولما ثار الوزير عمر بن عبد الله ضد ابي سالم ، واطاح بملكه وقتله ، امر بسجن ابن مرزوق ، اخر سنة ٧٦٢ هـ ، وسعى حساده من كبار الدولة في قتله ، فلم يسعفهم عمر بن عبد الله في ذلك ، واطلق سراحه ، وبعد ذلك ، توجه ابن مرزوق الى تونس ، واستقر بها سنة ٧٦٦ هـ ، فولاه السلطان أبو اسحاق الحفصي الخطابة بجامع الموحدين ، والتدريس ببعض المدارس ، واقام هناك الى عهد ابي العباس الحفصي (سنة ٧٧٢ هـ) ، وكانت بينه وبين ابن مرزوق وحشة يرجع سببها الى اقبال هذا الاخير ، في عهد ابي سالم ، على منافسه ابي عبد الله الحفصي ، وتفضيله عليه ، فأقصاه عن بلاطه ، وسمح له بالرحلة الى المشرق . فحل بالاسكندرية ، ثم القاهرة ، واتصل بالسلطان الاشرف ، فأكرم مثواه والحقه بمجلسه ، وولاه التدريس وقضاء المالكية ، واقام ابن مرزوق بالقاهرة الى ان توفي بها في ربيع الاول سنة٧٨١هـ. واشتهر من مؤلفاته كتاب المسند الصحيح الحسن في اخبار المولى ابي الحسن ، الذي يشتمل على عرض مفصل لحياة ابي الحسن المريني ، وانجازاته العمرانية ، وتشجيعه للعلماء والادباء وغير ذلك . وله ايضا شرح البردة ، وشرح على الاحكام

الصغرى لعبد الحق الاشبيلي وشرح على ابن الحاجب الفرعي ، عنوانه ازالة الحاجب على فروع ابن الحاجب ، وشرح على عمدة الاحكام . الخ(٣٥) .

٢١ ــ **ابو حمو موسى العبد الوادي** (المتوفى سنة ٧٩١ هـ) . هو السلطان الزياني أبو حمو موسى الثاني ، الذي أحيا الدولة الزيانية وأعاد لها رونقها ومجدها ، وكان بلاطه ملتقى العلماء والادباء ، وقد الف ابو حمو الثاني كتاب واسطة السلوك في سياسة الملوك وهو تأليف هام في اخلاق الملوك ، ضمنه نظريته في الحكم و السياسة، معتمدا على ما الفه العلماء السابقون في هذا الموضوع ، وعلى تجربته الخاصة(٣٦) .

٢٢ ــ **عبد الرحمن بن خلدون** (٧٣٢ ــ ٨٠٨ هـ) . ولد ونشأ بتونس ، ودرس على اشهر علماء المغرب في ذلك العصر ، وجال في مختلف اقطار المغرب والاندلس ، متصلا بملوكها ، وراغبا في الحصول على المناصب العليا . ثم عاد الى الاشتغال بالعلم والتدريس والتأليف ، ورحل الى المشرق سنة ٧٨٤ ، ومارس التعليم والقضاء بالقاهرة ، الى ان توفي بها سنة ٨٠٨هـ . وعبد الرحمن بن خلدون غني عن التعريف . فهو باعث المنهج العلمي لدراسة التاريخ وواضع اسس علم الاجتماع . وتأليفه ، كتاب العبر ، أشهر كتاب تاريخي عند العرب ، وخصوصا الجزء الاول منه ، الذي يدعى المقدمة (٣٧) .

٢٣ ــ **ابن قنفذ القسنطيني** ، أبو العباس احمد بن حسن بن علي (المتوفى سنة ٨١٠هـ) . ولد بقسنطينة حوالي سنة ٧٤٠ هـ . ونشأ بها ، وفي سنة ٧٥٦ هـ ، رحل الى فاس ، وأخذ بها عن علماء جلة ، امثال القباب ، والشريف التلمساني ، وابن مرزوق الخطيب، وعين في القضاء سنة ٧٦٩ هـ، ثم عاد الى مسقط راسه سنة ٧٨٦هـ ، فتولى منصب القضاء ، ومارس التدريس والتأليف والافتاء والخطابة ، وتوفي بقسنطينة سنة ٨١٠هـ، وكان ابن قنفذ بارعا في علوم شتى ، من حديث وفقه وحساب وفلك وتاريخ وغير ذلك ، وقد الف كتبا قيمة ، اشهرها : الفارسية في مبادىء الدولة الحفصية ، وطبقات علماء قسنطينة ، وانس الفقير وعز الحقير (في اخبار الولي الصالح ابن مدين شعيب واصحابه) ، وكتاب الوفيات ، ووسيلة الاسلام بالنبي عليه الصلاة والسلام (مختصر لسيرة الرسول) ، والمسافة السنية في الرحلة العبدرية (وهو مختصر لرحلة العبدري) ، وشرف الطالب في انس المطالب (في الحديث) وشرح التلمسانية (في الفرائض) ، وتسهيل المطالب في تعديل الكواكب (في الفلك)، الخ ..(٣٨) .

٢٤ ــ **الهواري** ، ابو عبد الله محمد بن عمر (٧٥١ ــ ٨٤٣ هـ) . الولي الصالح

الشهير ، أخذ عن علماء بجاية وفاس ، ثم رحل الى المشرق ، فلقي كثيرا من العلماء والصلحاء ، وعاد الى موطنه ، واستقر بوهران ، الى ان توفي بها سنة ٨٤٣ هـ . ومن تآليفه : التسهيل ، وتبصرة السائل ، والتبيان ، والسهو والتنبيه .

٢٥ — **احمد زروق البرنسي الفاسي** ، أبو العباس بن احمد بن عيسى (٨٤٦ — ٨٩٩ هـ) ، الولي الصالح . أخذ العلم بفاس وتلمسان ، ثم اتصل بعدد كبير من العلماء والصلحاء في المغرب والمشرق . وكان له ميل الى التصوف ، فاشتغل به والف كتبا عديدة ، منها شرح حكم ابن عطاءالله ، وشرح العقيدة القدسية للغزالي ، والنصيحة الكافية لمن خصه الله بالعافية ، ومختصره ، وشرح الحقائق للمقري ، وشرح حزب البحر ، وشرح الحزب الكبير لابي الحسن الشاذلي ، وشرح الارشاد لابن عسكر ، وشرح الوغليسية ، وشرح القرطبية ، وشرح مختصر خليل الخ ..(٣٩).

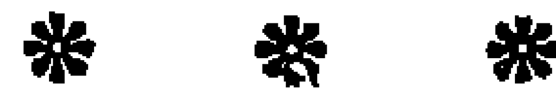
٢٦ — **الحافظ التنسي** ، ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التلمساني (المتوفى سنة ٨٩٩ هـ) . ولد ونشأ بتلمسان ودرس على علمائها ، وعني بالفقه والحديث والتاريخ والادب . وله كتاب نظم الدر والعقيان في دولة آل زيان جمع فيه اخبار بني زيان ، واضاف اليه نصوصا مختارة في السياسة والادب والحكم والاخلاق(٤٠).

٢٦ — **ابن صعد التلمساني** ، محمد بن احمد بن ابي الفضل بن سعيد (المتوفى سنة ٩٠١هـ) . ولد ونشأ بتلمسان ، واخذ عن اشهر علمائها . وتوفي بمصر في رجب ٩٠١ هـ ، والف كتاب النجم الثاقب فيما لاولياء الله من مفاخر المناقب ، جمع فيه اخبار الصوفية من مشارقة ومغاربة .

٢٨ — **ابن غازي المكناسي** ، ابو عبد الله محمد بن احمد (٨٤١ — ٩١٩ هـ). ولد ونشأ بمكناسة ، ثم رحل الى فاس لطلب العلم ، سنة ٨٥٨ هـ ، ثم عاد الى مسقط راسه . وفي سنة ٨٩١ هـ ، غادر مكناسة واستقر بفاس ، حيث ولي الخطابة والامامة ، الى ان توفي سنة ٩١٩هـ . وكان ابن غازي عالما بارعا في الفقه والحديث والادب والتاريخ ، وله تآليف عديدة ، منها الروض الهتون في اخبار مكناسة الزيتون (وهو اهم تصانيفه) ، والفهرسة ، والمسائل الحسان المرفوعة الى حبر فاس والجزائر وتلمسان ، وارشاد اللبيب الى مقاصد حديث الحبيب ، ومنية الحسّاب في علم الحساب ، والجامع المستوفي بجداول الحوفي ، الخ ..(٤١)

٢٩ — **ابو العباس المقري** ، احمد بن محمد (٩٨٦ — ١٠٤١هـ). ولد بتلمسان

ونشأ بها . وفي سنة ١٠٠٩ هـ ، رحل الى فاس ، ثم الى مراكش ، وعاد الى تلمسان في آخر سنة ١٠١٠ هـ . ثم غادرها في أوائل سنة ١٠١٣ هـ ، متوجها الى فاس ، واستقر بها وفي سنة ١٠٢٢ هـ عين في الخطابة والافتاء والامامة بجامع القرويين . وفي أواخر سنة ١٠٢٧هـ ، غادر مدينة فاس ، قاصدا المشرق ، فزار مصر والحجاز والشام ، وقضى ما بقي من حياته في هذه الاقطار ، وتوفي سنة ١٠٤١ بدمشق ، وقيل بالقاهرة ، وقد ألف المقري كتبا قيمة ، تنبىء عن غزارة علمه وسعة ثقافته ، واشهرها كتاب نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، وكتاب ازهار الرياض في اخبار القاضي عياض ، وله ايضا : روض الاس العاطر الانفاس في ذكر من اقيته من أعلام مراكش وفاس ، وانوار نيسان في انباء تلمسان ، والجمان في مختصر أخبار الزمان ، والدر المختار من نوادر الاخبار ، وعرف النشق في اخبار دمشق ، وغيرها . وكتب المقري مما لايستغنى عنه في البحث عن تطور الفكر الاسلامي في المغرب العربي(٤٢) .



واما العلوم الطبيعية والكونية ، فلم يكن حظها بالمغرب أقل من حظ غيرها من العلوم . فقد اشتغل علماء المغرب بالكيمياء والطب والفلك والرياضيات، وبرعوا فيها، والفوا فيها كتبا قيمة ، كان لها رواج كبير في سائر الانحاء ، وخصوصا في اوربة ،بعد أن ترجم الكثيرمنهاالى اللاتينية والعبرية وغيرهما من اللغات . فقد نبغ علماء مغاربة في هذه العلوم ، وساهموا في تطويرها مساهمة كبرى ، وابدعوا في مجالات عديدة ، مثل علم النباتات والفلاحة ، والمعادن ، والكيمياء ، والطب ، والفلك وغير ذلك . ومن اشهر العلماء في هذه العلوم :

١ ــ **ابن الجزار** ، ابو جعفر احمد بن ابراهيم (المتوفي سنة ٣٦٩ هـ) . ولد بالقيروان حوالي سنة ٢٨٥ ، واخذ عن اسحاق بن سليمان الاسرائيلي ، الطبيب ، وغيره ، وبرع في الطب والفلسفة ، وعني كذلك بالتاريخ . ولم يغادر بلاد افريقية ، بل بقي يمارس الطب والتدريس والتأليف ، حتى وافته المنية سنة ٣٦٩ هـ، بالقيروان. وقد ترك ابن الجزار مصنفات عديدة في علوم مختلفة ، أهمها : زاد المسافر وقوت الحاضر ، في علاج الامراض ، ترجم الى اللاتينية واليونانية والعبرية ، وكانت له شهرة كبرى في العصر الوسيط بالمغرب وأوربة . وله أيضا كتاب الاعتماد (وقد ترجم الى اللاتينية والعبرية) ، وطب الفقراء والمساكين (ترجم الى العبرية) ، وطب المشايخ، وسياسة الصبيان وتدبيرهم . وكتاب التعريف بصحيح التاريخ (فيه اخبار علماء

زمانه) ، وتاريخ الدولة الفاطمية ، ومغازي افريقية ، وطبقات القضـاة ، وعجائب البلدان ، وكتاب الاحجار الكريمة ومعادنها ومنافعها وخواصها ، .. الخ (٤٣) .

٢ ـ **ابن جلجل** ، ابو داود سليمان بن حسان (المتوفى بعد سنة ٣٧٢ هـ .) .عاش في قرطبة ، وكان طبيبا للخليفة الاندلسي هشام الثاني المؤيد بالله (٣٦٦-٣٩٩ هـ .) . وقد ألف كتاب طبقات الاطباء والفلاسفة . وله أيضا : كتاب الحشائش ، وكتاب في أدوية الترياق ، وكتاب امتزاج النفوس .

٣ ـ **أعين بن اعين** (المتوفى سنة ٣٨٥ هـ) . كان يحترف الطب بالقيروان ، وخاصة طب العيون ، في عهد المعز الفاطمي (٣٤١ ـ ٣٦٥هـ) ، وانتقل معه الى مصر واستقر بها الى أن توفي سنة ٣٨٥ ، وله كتاب امراض العين ومداواتها .

٤ ـ **ابو القاسم الزهراوي** ، خلف بن عباس القرطبي (المتوفى سنة ٤٠٤ هـ .) عاش في قرطبة ، وكان ماهرا في الطب والجراحة ، وله كتاب : يعد موسوعة طبية ، يدعى كتاب التصريف لمـن عجز عن التأليـف . وقد نال هذا الكتاب ، وخصوصا القسم الخاص بالجراحة منه ، شهرة واسعة في أوربة المسيحية ، بعد أن ترجم الى اللاتينية . كما اشتهر ابو القاسم الزهراوي عندهم باسم Abulcassis ويعتبر هذا العالم اشهر الجراحين العرب .

٥ ـ **ابن ابي الرجال** ، أبو الحسن علي الشيباني الكاتب القيرواني (المتوفى سنة ٤٢٦ هـ .) . اصله من تاهرت ، ونشأ بالقيروان ، ونبغ في علم الفلك وفي الادب . وفي سنة ٣٧٨هـ ، توجه الى بغداد ، وشارك في الارصاد الفلكية التي قام بها ابو سهل ويجان بن رستم الكوهي بأمر من شرف الدولة البويهي ، وعينه باديس الزيري رئيس ديوان الانشاء ، ومؤدب ولده المعز ، فنشطت الحركة الادبية لما اسداه ابن ابي الرجال من تشجيع للشعراء والكتاب ، أمثال ابن رشيق وابن شرف وغيرهما . ولما آلت الامارة للمعز بن باديس ، عينه وزيرا له ، وتوفي ابن ابي الرجال بالقيروان سنـة ٤٢٦ هـ . واشتهر بتصانيفه في الفلك ، التي خلدت ذكره في العالم الاسلامي وفي اوربة المسيحية ، حيث عرف باسم Abenragel او Albohazen . واهمها كتاب البارع في أحكام النجوم ، الذي ترجم الى اللاتينية ، وطبع مرارا في اوربة . ولـه ايضا ارجوزة في التنجيم ، شرحها ابن قنفذ القسنطيني (٤٤).

٦ ـ **ابن عمرون الوهراني** ، ابو محمد عبد اللـه بن يوسف بن طلحة (المتوفى بعد سنة (٤٢٩ هـ .). اصلـه من وهـران . ونبغ في علوم الحديث والفقه والطب

والحساب ، ورحل الى الاندلس سنة ٤٢٩ هـ ، فاستقر باشبيلية ، واشتغل بالطب والتدريس .

٧ ــ **ابو الصلت امية** بن عبد العزيز بن ابي الصلت الاندلسي (المتوفى سنة ٥٢٩ هـ) . ولد في دانية بالاندلس ، حوالي سنة ٤٦٩ هـ ، ونشأ باشبيلية ثم غادر جزيرة الاندلس متوجها الى المهدية ، حيث التحق ببلاط بني زيري ، وبعث برسالة الى مصر ، فسجن في القاهرة ، في خزانة البنود ، وكانت تحتوي على كتب عديدة ، فمكث هناك عشرين سنة ، قضاها في المطالعة والدرس . وغادر مصر سنة ٥٠٦ هـ ، عائدا الى المهدية ، فذاع صيته ، واشتغل بالطب والفلك والرياضيات ، ونبه ذكره في الفلسفة والادب ، والف كتبا قيمة في مجالات عديدة ، وتوفي بالمهدية سنة ٥٢٩ هـ ومن تصانيفه : كتاب الادوية المفردة ، وكتاب في الصيدلة (ترجم الى اللاتينية والعبرية) ، وكتاب تقويم الذهن (في المنطق) ، وكتاب الحديقة (في فضلاء عصره) ، والرسالة المصرية ، ورسالة في العمل بالاسطرلاب ، الخ(٤٥) .

٨ ــ **ابن زهر الاشبيلي** ، ابو مروان عبد الملك (المتوفى في سنة ٥٥٧ هـ .) . ولد باشبيلية ، وعاش في عهد المرابطين ثم الموحدين ، مشتغلا بالطب ، وتوفي سنة ٥٥٧ هـ باشبيلية . ومن تاليفه : كتاب الاغذية (وهو اهمها) ، وكتاب التيسير في المداواة والتدبير (وقد ترجم الى اللاتينية والعبرية) ، وكتاب الاقتصاد في اصلاح الانفس والاجساد . ويعد ابن زهر اعظم طبيب عملي عربي بعد الرازي ، وهو أول طبيب عربي ربط دراسة الطب بالجراحة والصيدلة .

٩ ــ **ابن البذوخ** ، ابو جعفر عمر بن علي القلعي (المتوفى سنة ٥٧٥ هـ) . اصله من قلعة بني حماد ، وسكن دمشق ، واقام بها مدة طويلة ، وتوفي بها سنة ٥٧٥ هـ ، وقيل سنة ٥٧٦ هـ . وكان ابن البذوخ خبيرا في معرفة الادوية المركبة والمفردة ، وكان له دكان عطر يجلس فيها يبيع ويداوي الناس ، وكانت له عناية كبيرة بالكتب الطبية ، والنظر فيما قاله القدماء ، وله تاليفه في الطب ، منها : حواش على كتاب القانون لابن سينا ، ولطائف الانوار . والارجوزة في شرح الفصول لابقراط . وارجوزة في شرح كتاب تقدمة المعرفة .

١٠ ــ **ابن العوام الاشبيلي** ، ابو زكريا يحيى بن محمد بن احمد (المتوفى في اواسط القرن السادس هـ) . هو طبيب اندلسي ، تبحر في علم الطبيعة ، ونظر في الكتب اليونانية ، ثم انه اعتمد ايضا على المعارف العملية العميقة التي استفادها من التجارب المباشرة ، والف كتاب الفلاحة ، ضمنه وصفا دقيقا لعدد كبير من النباتات .

ويعد هذا التأليف احسن الكتب العربية في العلوم الطبيعية ، وعلى الاخص في علم النباتات . وقد نشر هذا الكتاب في مدريد سنة ١٨٠٢م ، مع ترجمة اسبانية ، كما انه ترجم الى الفرنسية (٤٦).

١١ ــ **ابن الياسمين** ، أبو محمد عبد الله بن محمد بن حجاج (المتوفى سنة ٦٠١هـ). من اهل فاس ، وينتمي الى بني حجاج ، اهل قلعة فندلاوة ، بالمغرب الاقصى . والتحق ببلاط الخليفة الموحدي يعقوب المنصور ، بمراكش ، ثم ابنه الناصر . وكان قد نبغ في علوم شتى ، من منطق وفلك ورياضيات وغير ذلك ، وألف أرجوزة في الجبر ، كانت من أشهر التآليف في الرياضيات في سائر انحاء المغرب ، وقد تناولها كثير من العلماء بالشرح . وله ايضا ارجوزة اخرى في اعمال الجذور . وتوفي ذبيحا في منزله بمراكش ، سنة ٦٠١هـ ، وقيل في اخر سنة ٦٠٠ هـ .

١٢ ــ **ابن الرومية** ، ابو العباس احمد بن محمد بن مفرج الاشبيلي النباتي (٥٦٧ ــ ٦٣٧ هـ) . كان فقيها محدثا عارفا بعلم النبات، ومن تاليفه : جامع الادوية المفردة ، وكتاب الصيدلة ، وتفسير الادوية المفردة من كتاب ديسقوريدس ، وكتاب الرحلة (وصف فيه رحلته الى الشرق ، وبالأخص ما وجد في طريقه من نباتات) ، ومقالة في تركيب الأدوية ، وكتاب الانساب ، وكنز الاخبار في الحديث . . الخ.

١٣ ــ **ابن البيطار** ، ضياء الدين ابو محمد عبد الله بن احمد المالقي (المتوفى سنة ٦٤٦ هـ) . ولد بمالقة ، ونبغ في الطب ، ورحل الى المشرق ، ثم استقر بدمشق، وتوفي بها سنة ٦٤٦هـ ، وابن البيطار من اشهر الاطباء وعلماء الطبيعة . وقد الف كتبا عديدة في الطب والصيدلة والنبات ، فاشتهرت شهرة عظيمة في سائر العالم الاسلامي ، ومن اهمها : كتاب جامع الادوية والاغذية المفردة (المشهور بمفردات ابن البيطار) ، وكتاب المغني في الادوية المفردة . وقد اهدى ابن البيطار هذين الكتابين الى الملك الصالح ، سلطان مصر والشام . وله ايضا : شرح كتاب ديسقوريدس ، وكاشف الويل في معرفة امراض الخيل ، الخ(٤٧).

١٤ ــ **التيفاشي** ، شرف الدين ابو العباس احمد بن يوسف القفصي (المتوفى سنة ٦٥١هـ) . الطبيب الاديب القاضي ، رحل الى مصر لطلب العلم ، ثم الى دمشق ، وبرع في علم الطبيعة ، وخاصة في الاحجار الكريمة ، وفي الادب والف كتاب أزهار الافكار في جواهر الاحجار (وهو اشهر كتاب بالمغرب في هذا المجال) ،وكتاب

سرور النفس بمدارك الحواس الخمس ، وكتاب الشفا في الطب المسند عن المصطفى، والدرة الفائقة في محاسن الافارقة ، وغير ذلك (٤٨).

١٥ - **ابو العباس بن البناء** ، احمد بن محمد بن عثمان الازدي المراكشي العددي (٦٥٤ - ٧٢١ هـ) . ولد بمراكش ونشأ بها ، واخذ عن علمائها . ثم رحل الى فاس لطلب العلم ، وعاد الى مراكش ، ونبغ في الرياضيات والفلك ، فاشتغل بالتدريس ، وتخرج عليه كثير من العلماء الجلة ، امثال الابلي ، وابني الامام ، وابن النجار ، والبلفيقي وتوفي بمراكش سنة ٧٢١ هـ ، وله تآليف هامة ، وخصوصا في الحساب والفلك ، اشهرها : تلخيص اعمال الحساب ، وقد شرحه ابن البناء في كتاب سماه رفع الحجاب عن علم الحساب ، كما شرحه القلصادي وغيره . وله أيضا : رسالة في المساحات ، وكتاب التعديل والتيسير في قواعد التكسير ، ومسائل في العدد التام والناقص ، وكتاب منهاج الطالب في تعديل الكواكب ، وكتاب السيادة في تعديل الكواكب السيارة ، ورسالة في الانواء ، وكتاب الكليات في المنطق ، وكتاب الروض المريع في صناعة البديع ، وكتاب التقريب للطالب اللبيب (في علم الكلام)، الخ .. ويعد ابن البناء اعظم عالم في عصره في الرياضيات (٤٩).

١٦ - **ابن النجار التلمساني** ، أبو عبد الله محمد بن علي (المتوفى سنة ٧٤٩ هـ) . اصله من مراكش . وولد بتلمسان ، ونشأ بها ، واخذ عن الابلي . ثم رحل الى المغرب الاقصى ، فدرس على ابي عبد الله محمد بن هلال ، شارح المجسطي ، بسبتة ، وعن ابي العباس بن البناء ، بمراكش ، فنبغ في التعاليم ، وخصوصا في علم الفلك ، وعاد الى تلمسان ، فاشتغل بالتدريس ، ثم التحق ببلاط ابي الحسن المريني، ايام استيلائه على المغرب الاوسط ، ثم صحبه الى افريقية ، وتوفي بتونس سنة ٧٤٩هـ . بالطاعون . ومن تلامذته ابو عبد الله الشريف ، والمقري الكبير ، وابو الحسن بن الفحام ، صاحب المنجانة .

١٧ - **ابو علي المراكشي** ، الحسن بن علي بن عمر (المتوفى بعد ٧٥٠ هـ). من اشهر العلماء في الرياضيات والفلك ، في عصره ، له كتاب قيم يدعى جامع المبادىء والغايات في علم الميقات ، جمع فيه كل ما ورد عند من سبقه من الفلكيين .

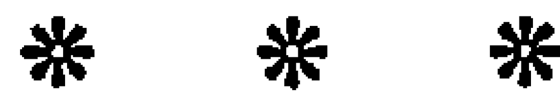
١٨ - **الآبلي** ، أبو عبد الله محمد بن ابراهيم التلمساني (٦٨١ - ٧٥٧ هـ). أصل أجداده من مدينة ابلة بالاندلس ، ولد بتلمسان ، ونشأ بها في كفالة جده القاضي ابن غلبون ، فشب على حب العلم ، ودرس على أبي الحسن التنسي ، فحذق التعاليم . ثم كان الحصار الطويل فغادر المدينة اثناء ذلك ، قاصدا المشرق

حيث ادى فريضة الحج ، ولقي كثيرا من العلماء الجلة ، ثم عاد الى بلاده ، واخذ عن ابي موسى بن الامام علما غزيرا . ثم استعمله السلطان ابو حمو الاول الزياني في ضبط الجباية . ولم يستطب الابلي هذه الوظيفة ، فغادر تلمسان ، ورحل الى المغرب الاقصى ، فاتصل بابي العباس بن البناء بمراكش ، واخذ عنه ، ثم التحق بشيخ قبيلة هسكورة ، علي بن محمد بن ترومييت ، واقام عنده مدة . ثم استقر معه بفاس ، واتصل بابي الحسن المريني ، فألحقه بمجلس العلماء ببلاطه . وصحبه في حركتهالى الاندلس ، وحضر معركة طريف ، ثم انتقل معه الى افريقية ، سنة ٧٤٨ هـ ، ومكث بتونس الى ان استدعاه ابو عنان المريني ، بعد استيلائه على المغرب الاوسط ، سنة ٧٥٣ هـ . فغادرها ، ووفد على ابن عنان بتلمسان ، ونال عنده حظوة كبرى ، ثم صحبه الى فاس ، حيث اشتغل بالتدريس الى ان توفي بها سنة ٧٥٧ هـ .
ويعد الآبلي من انبغ رجال عصره في التعاليم ، وقد ساهم مساهمة كبرى في تكوين جيل من العلماء الكبار في المغرب . فمن اشهر تلامذته عبد الرحمن بن خلدون ، وأخوه يحيى ، والمقري الكبير ، وابو عبد الله الشريف وابن مرزوق الجد ، وسعيد العقباني، وابن الصباغ المكناسي ، وغيرهم (٥٠) .

١٩ ــ **ابو عبد الله الحباك** ، محمد بن احمد (المتوفى سنة ٨٦٧ هـ .) ، التلمساني ، الفرضي العددي ، نبغ في علم الفلك وفي الرياضيات ، واشتغل بالتدريس وتوفي سنة ٨٦٧ هـ. الف شرحا على تلخيص ابن البناء ، وشرحا على التلمسانية (في الفرائض). ونظم ارجوزة في الفلك ، سماها بغية الطالب في علم الاسطولاب ، كما نظم ايضا رسالة الصفار في الاسطرلاب . ومن تلاميذه في هذه العلوم الامام محمد بن يوسف السنوسي .

٢٠ ــ **ابو الحسن القلصادي** ، علي بن محمدالقرشي البسطي (المتوفى سنة ٨٩١ هـ) . ولد في بسطة بالاندلس، وانتقل الى غرناطة ، فأخذ عن اشهر علمائها. ثم غادر الاندلس ، ونزل تلمسان ، فأخذ عن ابن مرزوق الكفيف واحمد بن زاغو، وقاسم العقباني وغيرهم ، وواصل رحلته هذه الى تونس ، فأخذ عن ابن عقاب وابي العباس القلشاني وحلولو ، ثم الى المشرق ، فأخذ عن الحافظ ابن حجر وغيره، ثم عاد الى غرناطة ، فوجد مملكة بني نصر مهددة أشد التهديد من طرف النصارى ، فساهم في مقاومتهم ، ثم نزح الى افريقية ، وتوفي بباجة في أواخر سنة ٨٩١هـ .
ويعد القلصادي أخر العلماء المنتجين من علماء الاندلس ، وقد اعطى نفسا جديدا لعلم الحساب ، واضاف اضافات هامة على من سبقه من العلماء . ومن تآليفه : كشف الحجاب عن قانون الحساب ، وكتاب كشف الاستار عن علم حروف الغبار ،

وشرح تلخيص ابن البناء ، وشرح ابن ياسمين في الجبر والمقابلة ، ومختره ، وشرح فرائض مختصر خليل ، وشرحان على التلمسانية ، الاكبر والاصغر ، والغنية (في الفرائض) وشرح الحوفي ، كما الف في علم الفلك . شرحا على رمز ابي مقرع ، وعلى رجز ابي اسحاق بن فتوح ، وفي المنطق . شرح ايساغوجي . وله ايضا رحلته المسماة : تمهيد الطالب ومنتهى الراغب الى اعلى المنازل والمناقب . وتشهد اهمية تصانيف القلصادي وغزارتها على نبوغه وازدهار العلوم الطبيعية في عصره(٥١).



وبعد ، فان تقييم ما أنتجه الفكر العربي بالمغرب يتطلب تناول ذلك الانتاج بالدراسة ، بعد تحقيقه ونشره . وقد اتضح لنا ، من خلال استعراضنا لاثار علماء المغرب ، ان هذه العملية لاتزال في بدايتها ، اذ ان مهمة استكشاف المؤلفات في شتى المجالات ، وجعلها في متناول جمهور القراء والباحثين لم تمس الا عددا قليلا من الاثار التي يشملها التراث الفكري العربي بالمغرب ، ولاشك ان ما يبذل حاليا من جهود في سبيل احياء هذا التراث سيسمح ، عن قريب ، بالقاء اضواء جديدة في هذا المجال .

غير ان ما انجز من اعمال ، في هذا الاطار ، رغم ضآلته ، يشهد على ان للمغرب العربي اصالة قد طبعت الفكر الاسلامي بطابعها ، وعبقرية قد اثرته وزادته تفتحا وسعة ، الامر الذي جعل هذه المنطقة تلعب دورا هاما في ازدهار الفكر الاسلامي، وتساهم مساهمة كبرى في ترقية المجتمع في شتى المجالات ، وتوجيهه نحو سلوك اخلاقي وديني يتماشى مع مستوى التطور الحضاري .

هذا ويبدو ان تطور الحياة الفكرية الاسلامية بالمغرب قد مر باربع مراحل :

فالاولى هي مرحلة النشأة (من القرن الثاني الى القرن الرابع هـ) ، وهي فترة اقتباس واخذ عن بلاد المشرق العربي ، واستيعاب لعلومه ، ومسايرة لركب حضارته ، ومحاكاة لاساليبه . فكان علماء المغرب اثناءها ينهلون من معين المشرق ، ويستمدون منه مادة علومهم ، وينسجون على منوالها . فيعكس انتاجهم نفس الاتجاهات والتيارات الفكرية والادبية . وفي هذه الفترة ، كانت القيروان تلعب دورا رئيسيا ، وخصوصا في مجال العلوم الدينية واللسانية ، حيث نبغ فيها كثير من الفقهاء والكتاب والشعراء . ولاشك ان التطور الهام الذي سجل انذاك في المجال اللغوي ، قد ادى الى صوغ لغة كفيلة بالتعبير على كل المفاهيم والمصطلحات العلمية ، وتقبل الدخيل من المفردات عند الاقتضاء . وفي نهاية هذه الفترة ، اصبحت الحضارة

الاسلامية ، في المغرب ، تملك اسسها الفكرية واللغوية ، التي انطلقت منها نحو تحقيق تطورها العلمي .

والمرحلة الثانية هي مرحلة النضج والازدهار (من القرن الرابع الى اخر القرن الثامن هـ .). وقد شملت فيها الملكة العلمية سائر المجالات واصبح العلماء المغاربة يتحكمون في كل العلوم ، ويقبلون على ترقيتها وتصحيحها والابداع فيها . فنبغ أيضا اطباء وفلكيون ونباتيون ومؤرخون وجغرافيون ، ممن تركوا بصماتهم في صفحات تاريخ الحضارة الانسانية ، وكانوا اساتذة جلة لاوربة المسيحية مدة قرون عديدة . وهكذا ، انتقل الفكر العربي المغربي ، اثناء هذه الفترة ، من طور النقل والاخذ الى طور الابداع والعطاء محققا تقدما باهرا في سائر المجالات الحضارية . غير ان هذه المسيرة تعرضت ، في اماكن عديدة ، الى عراقل من جراء ما منيت به من كوارث ومحن ، وذلك مثل فتنة قرطبة ، سنة ٤٠٠ هـ وخراب القيروان ، سنة ٤٤٩هـ ، واستيلاء الاسبان على طيطلة ، سنة ٤٧٨ثم سرقسطة، سنة ٥١٢هـ ، واحتلال النورمان لجزيرة صقلية ، في اواخر القرن الخامس هـ ، ثم غاراتهم على سواحل افريقية وقد تفاقم الوضع بعد هزيمة العقاب ، سنة ٦٠٩هـ ، التي مهدت لسقوط قرطبة واشبيلية وغيرهامن امصار الاندلس بين ايدي النصارى، ولم يبق بالمغرب من مراكز الاشعاع الفكري الهامة الا عواصم الدول التي خلفت الموحدين . وهي غرناطة ومراكش وفاس وتلمسان وبجاية وتونس ، ثم كان الطاعون سنة ٧٤٩هـ . الذي اجتاح سائر العالم الاسلامي واباد كثيرا من الناس ،ومن بينهم عدد كبير من العلماء ، اثر عميق في تعثر المسيرة نحو التقدم والابداع .

فتلا ذلك مرحلة فتور وركود (من اوائل القرن التاسع الى اواخر القرن العاشر هـ) ، تمتاز بتراجع الابداع الفكري وتناقصه . واقتصار الجهود . غالبا، على ماتركه القدماء من الانتاج الفكري . وقد انتشرت في هذه الفترة ، طريقة تأليف المختصرات ، والاعتماد عليها في المناهج التربوية ، مع ماتتطلبه من شروح وحواش . واصبح التعليم عبارة عن حشو الادمغة بالمعلومات في مختلف العلوم عن طريق استظهار المتون المصنفة . فزادت بذلك دائرة المعارف اتساعا ، ولكنها نقصت تعمقا ، وقل التخصص في مجال علمي محدود ،بقدر ما قل الالتجاء الى التجربة وتطبيق المعلومات .

واخيرا كانت مرحلة التدهور ، (من القرن الحادي عشر الى الثالث عشرهـ). نتيجة حتمية لاستمرارية العوائق الناجمة عن الاوضاع السياسية والاقتصادية ، وكان موقف اوربة المسيحية العدائي اثناء الحروب الصليبية ، والغارات المتتالية

التي شنتها على سواحل البلاد العربية ، قد ادى الى رد فعل اسلامي يتسم بالرفض والتصدي ، مما جعل حدا للتفتح والمسالمة . فعاش العالم العربي في جو انزواء واكتفاء ذاتي ، منعه من مسايرة الركب الحضاري الاوربي ، ابان النهضة الحديثة ، وجعله ينغمس شيئا فشيئا في بيئة التزمت والتوكل والشعوذة والخرافات وفي هذه المرحلة ، قل الانتاج الفكري ، وانعدم الابداع ، وركن رجال العلم الى النقل والتقليد في التأليف .

ثم كان القرن الرابع عشر الهجري عهد نهضة وانبعاث ، مكن شعوب المغرب العربي من الاستيقاظ من سباتها ، والعمل على استرجاع ما فاتها من اسباب الحضارة والرقي ، والخروج من تخلفها الثقافي . وكان من الخطوات الاولى التي خطاها المغرب في مسيرته نحو التحرر والنمو ، ان قام بحركة دينية اصلاحية سمحت بوضع اسس سليمة لتطوره السياسي والاقتصادي والثقافي . واصبحت همم ابنائه تتطلع نحو مستقبل مشرق ، وتتوق الى العمل لتحقيق طموحها في بعث امجاد الحضارة الاسلامية العربية والتحلي بقيمها السامية .

(١) راجع : عبد العزيز المجدوب ، الصراع المذهبي بافريقية الى قيام الدولة الزيرية ، تونس، ١٩٧٥ ، ص ٩٢ — ١٠٣ .

(٢) راجع : محمد الفاضل ابن عاشور ، التفسير ورجاله ، تونس ١٩٦٦ ، ص ٢٣ — ٢٨ .

(٣) راجع : عبد العزيز المجدوب ، المرجع المذكور ، ص ٤٩ — ٥٨ . القاضي عياض ، تراجم اغلبية مستخرجة من مدارك القاضي عياض ، تحقيق محمد الطالبي ، تونس ، ١٩٦٨ ، ص ٥٢—٧٠ .

(٤) راجع : عبد العزيز المجدوب ، المرجع المذكور ، ص ٦٥ — ٧٠ . عياض ، المرجع المذكور ، ص ٨٦ — ١٣٦ .

(٥) راجع : عياض ، المرجع المذكور ، ص ١٧٠—١٨٨ — محمد بن سحنون،كتاب اداب المعلمين ، تحقيق محمود عبد المولى ، الجزائر ، ١٩٦٩ ، ص ٣٧ — ٦٦ .

(٦) راجع : احمد فؤاد الاهواني ، التربية في الاسلام او التعليم في رأي القابسي ، القاهرة ، ١٩٥٥

Chedly Bouyahia, La vie littéraire en ifriqiya sous les Zirides, Tunis, 1972, pp. 54 - 57.

(٧) راجع : محمد الفاضل بن عاشور ، المرجع المذكور ، ص ٦٣ — ٦٦ .

(٨) راجع : عياض ، تراجم اغلبية ، مقدمة المحقق (باللغة الفرنسية) ، ص ٥ — ٤٢ .

(٩) راجع : أحمد جلول البدوي ، الشريف ابو عبد الله التلمساني ، في مجلة الاصالة (الجزائر)، العدد ٤ ، ص ٤٨ — ٥٥ .

(١٠) راجع : محمد الفاضل بن عاشور ، المرجع المذكور ، ص ١١١ — ١١٥ .

(١١) راجع : رابح بونار ، القاضي سعيد العقباني التلمساني ، في مجلة الاصالة (الجزائر) ، العدد ٦ ، ص ٦٥ — ٧٢ .

(١٢) راجع ، محمد بن احمد بن قاسم العقباني ، تحفة الناظر وغنية الذاكر ، تحقيق علي الشنوفي في مجلة الدراسات الشرقية ، المعهد الفرنسي بدمشق ، ج ١٩ ، سنة ١٩٦٥ — ١٩٦٦ ، ص ١٣٣ — ٣٤٤ .

(١٣) راجع : محمد بن عبد الكريم المغيلي ، مصباح الارواح في اصول الفلاح ، تقديم وتحقيق رابح بونار ، الجزائر ، ١٩٦٨ ، ص ٧ — ٢٥ .

(١٤) راجع : محمد بن رمضان شاوش ، الدر الوقاد من شعر بكر بن حماد التاهرتي ، مستغانم ، ١٩٦٦ ، ص ٤٣ — ٥٧.

(١٥) راجع : الصفدي ، الوافي بالوفيات ، ج١ ، ص ٣٥٢ — ابو القاسم محمد كرو ، ابن هانىء المغربي ، تونس ١٩٦٧ ، ص ٥ — ٥٧ احمد خالد ، ابن هانىء ، تونس ، ١٩٧٦ ، ص ٩ — ٦٠ .

(١٦) راجع : Chedly Bouyahia, op. cit., pp. 52-54

(١٧) راجع : المنجي الكعبي القزاز القيرواني ، حياته واثاره ، تونس ، ١٩٦٨ ، ص ٥—٨١ .

(١٨) راجع : Chedly Bouyahia, ou. cit., pp. 20-25

(١٩) راجـع : Chedly Bouyahia, op. cit., pp. 116-124

(٢٠) راجع : عبد الرؤوف مخلوف : ابن رشيق الناقد الشاعر ، القاهرة ، ١٩٦٥ — عبد الرحمن ياغي ، حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها ، بيروت ، ١٩٦١ ،
Ch. Bouyahia, op. cit., pp. 104-115

(٢١) راجع : Ch. Bouyahia, op. cit., pp. 197-199 .

(٢٢) راجع : احسان عباس ، العرب في صقلية ، بيروت ، ١٩٧٥ ، ص ٢٣٣ — ٢٦٢ .
Ch. Bouyahia, op. cit., pp. 190-192.

(٢٣) عبد العزيز الاهواني ، تصدير كتاب منامات الوهراني ، تحقيق ابراهيم شعلان ومحمد نغش، القاهرة ١٩٦٨ ، راجع ايضا : محمد نغش ، منامات الوهراني ومقاماته ورسائله ، في مجلة الثقافة ، الجزائر ، العدد ٢٤ ، ص ٦٣ — ٦٦ .

(٢٤) راجع : عبد الوهاب بن منصور ، المنتخب النفيس من شعر ابي عبد الله بن خميس ، تلمسان ، ١٣٦٥ هـ ، ص ٨ — ٤٢ .

(٢٥) راجع : البيذق ، أخبار المهدي ابن تومرت ، تقديم وتحقيق عبد الحميد حاجيات ، الجزائر ، ١٩٧٤ ، ص ٧ — ٢٦ .

(٢٦) راجع : حسين مؤنس ، الجغرافيا والجغرافيون في الاندلس ، الشريف الادريسي قمة علم الجغرافيا عند المسلمين ، في مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمادريد ، ١٩٦١ — ١٩٦٢ ، ص ٢٥٧—٣٧٢.

(٢٧) راجع : محيي الدين عزوز ، التطور المذهبي بالمغرب ودراسة قصة حي بن يقظـان ، تونس ، ١٩٧٦ ، ص٥١ — ٦٩ .

(٢٨) راجع : ديوان الشيخ سيدي شعيب ابن مدين ، جمعه وقدم له الشيخ العربي مصطفى الشوار دمشق ، ١٩٣٨ ، ص ٦ — ٤٥ — عبد القادر الخلادي ، ابو مدين الغوث ، في مجلة الاصالة ، الجزائر ، العدد ٢٦ ، ص ٢٨٤ — ٢٩٥ .

(٢٩) راجع : محمود قاسم ، ابن رشد وفلسفته الدينية : القاهرة ، ١٩٦٤ . محمود قاسم ، نظرية المعرفة عند ابن رشد ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ابن رشد ، مناهج الادلة في عقائد الملة ، تحقيق محمود قاسم ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٣ — ١٢٦ . ابن رشد ، فصل المقال ، تقديم وتحقيق أبو عمران الشيخ وجلول البدوي ، الجزائر ١٩٧٧ ، ص ٥ — ٢١ .

(٣٠) راجع : شوقي ضيف وغيره ، الرحلات (سلسلة فنون الادب العربي ، الفن القصصي ، ٤) مصر ، ١٩٥٦ ، ص ٧٠ — ٩٤ .

(٣١) راجع : عبد الحفيظ فرغلي علي القرنـي ، محيي الدين بن العربي سلطان العارفين ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

(٣٢) راجع : عبد الله كنون ، ابن رشيد (سلسلة: ذكريات مشاهير رجال المغرب ، ١٨) ، بيروت ، بدون تاريخ .

(٣٣) راجع : شوقي ضيف وغيره ، المرجع المذكور ،ص ٩٥ — ١٢٢ ، عبد الله كنون ، ابن بطوطـة (سلسلة : ذكريات مشاهير رجال المغرب ، ٢٥)، بيروت ، بدون تاريخ .

(٣٤) راجع : يحيى بن خلدون ، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، تقديم وتحقيق عبد الحميد حاجيات ، ج ١ ، الجزائر ، ١٩٨٠ ، ص ٧ — ٧٦ .

(٣٥) راجع : محمد بن شقرون ، مظاهر الثقافة المغربية ، الرباط ، ١٩٧٠ ، ص ١٢٣ — ١٢٩ .

(٣٦) راجع : وداد القاضي ، النظرية السياسية للسلطان ابي حمو الزياني الثاني ، في مجلة الاصالة الجزائر ، العدد ٢٧ ، ص ٧ — ١٠٠ ، عبدالحميد جاحيات ، ابو حمو موسى الزياني ، حياته واثارة ، الجزائر ، ١٩٧٤ ، ص ٦٧ — ٢٣٠ .

(٣٧) راجع : محمد عبد الله عنان ، ابن خلدون ،حياته وتراثه الفكري ، القاهرة ، ١٩٣٣ — ساطع الحصري ، دراسات عن مقدمة ابن خلدون ، جزآن ، القاهرة ، ١٩٥٣ — عبد الرحن بدوي ، مؤلفات ابن خلدون ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

M. Talbi, art. Ibn Khaldun, dans E. I[2] III. pp. 849-53,

(٣٨) راجع : عادل نويهض ، معجم اعلام الجزائر ،بيروت ، ١٩٧١ ، ص ٢٠ — ٢٢ — ابن قنفذ ، انس الفقير وعز الحقير ، تحقيق محمد الفاسي وادولف فور ، الرباط ، ١٩٦٥ ، ص ب — ل . ابن قنفذ ، الفارسية ، تقديم وتحقيق محمـد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي ، تونس ، ١٩٦٨ ، ص ٢٢ — ٩٥ — ابن قنفذ ، كتـاب الوفيات ، تحقيق عادلنويهض، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ٥ — ١٩ .

(٣٩) راجع : عبد اللل كنون ، احمد زروق ، (سلسلة : ذكريات مشاهير رجال المغرب ، ٢٣) ، بيروت ، بدون تاريخ

(٤٠) راجع : عبد الحميد حاجيات ، تاريخ دولةالادارسة من خلال كتاب نظم الدر والعقيان لابـي عبد الله التنسي ، في مجلة التاريخ (للمركزالوطني للدراسات التاريخية ، الجزائر) العدد ٩ ، ص ٥ — ٢٥ .

(٤١) راجع ، عبد الله كنون ، ابن غازي (سلسلة :ذكريات مشاهير رجال المغرب ، ١٢) ، بيروت ، بدون تاريخ .

(٤٢) راجع : الحفناوي ، تعريف الخلف ، ج١ ،ص ٤٤ ، عادل نويهض ، معجم اعلام الجزائر ، ص ٤٢ — ٤٤ .

(٤٣) راجع حسن حسني عبد الوهاب ، ورقات من الحضارة العربية بافريقية ، تونس ، ١٩٧٢ ، ج١ ، ص ٣٠٦ — ٣٢٢ .

(٤٤) راجع : Ch. Bouyahia, op. cit., pp. 83-88.

(٤٥) راجع : Ch. Bouyahia, ou cit., pp. 165-75.

(٤٦) راجع : الدو ميبلي ، العلم عند العرب واثره في تطور العلم العالمي ، ترجمة محمد يوسف موسى وعبد الحليم النجار ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ٤٠١ .

(٤٧) راجع : الدو ميبلي ، المرجع المذكور ، ص ٤١٤ — ٤١٥ .

(٤٨) راجع : محمد الشاذلي النيفر ، علماء قفصة(ملتقى ابن منظور الافريقي ، تونس ، ١٩٧٢) ، ص ١١٩ — ١٢٠ .

(٤٩) راجع : ابن البناء ، تلخيص اعمال الحساب ، تحقيق محمد سويسي ، تونس ، ١٩٦٩ ، ص ١٥ — ٢٧ .

(٥٠) راجع : ابن مريم ، البستان في ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان ، الجزائر ، ١٩٠٨ ، ص ٢١٤ — ٢١٩ .

N. Nassar, Le Maître d'Ibn Khaldun,al-Abili, dans Studia Islamica, XX,1964, pp. 103-115.

(٥١) راجع : ابو الحسن القلصادي ، رحلة القلصادي ، دراسة وتحقيق محمد ابو الاجفان، تونس، ١٩٧٨، ص ١٧ — ٧٤ .

محاولات الفاطميين الاستيلاء على مصر
الأبعاد الدولية والاستراتيجية

د. عمر السعيدي

كلية الاداب والعلوم الانسانية ــ الجامعة التونسية

كثيرا ما تساءل المؤرخون ورجال البحث حول خطة الفاطميين للاستئثار بالحكم، وعن مدى أبعاد هذه الخطة وأهدافها المرحلية . وتبوأت الفترة المغربية من تاريخ الفاطميين مكانة كبيرة في هذه القضية ، وجرى النقاش حول دور المغرب في خطة الفاطميين : هل كان يمثل مرحلة وقتية ..؟ هل كان الفاطميون يقصدون من قدومهم الى المغرب اتخاذ قاعدة ينطلقون منها الى المشرق لانهم يعتبرونه الهدف الاساسي ... وداخلت هذا النقاش كثير من الاعتبارات الانطباعية وحتى النفسانية الاقليمية ، مما من شانه أن عقد الرؤية الصحيحة للمشكل والتصور الموضوعي للممارسة الفاطمية .

وهدفنا من المشاركة البسيطة التي نقدمها هنا هو محاولة طرق القضية من الجوانب (الاستراتيجية ــ العسكرية) بالنظر الى الاوضاع العامة والعلاقات الدولية آنذاك ، أي في الربع الاخير من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، باعتبار مثلث جغرافي ــ سياسي (الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط ــ مصر ــ مركز الخلافة) ذي ابعاد استراتيجية دولية .

* * *

آ ـ الاوضاع والمعطيات العامة

١ ــ في المناطق المركزية للخلافة :

لعل من أهم ما يتعين التذكير به من الناحية العقائدية والمذهبية ان النصف الاول من القرن الثالث الهجري يمتاز بحدثين هامين ، يتمثلان في اختفاء محمد بن الحسن العسكري ، الامام الثاني عشر ، سنة ٢٦٥ للهجرة ، وظهور فرقة القرامطة خاصة، وفي تبلور معارضات من نوع جديد تعتمد الاصناف والطبقات الاجتماعية المتواضعة الحال كقاعدة ، ووسائل العنف المختلفة كطريقة لتحقيق اهدافها .

الى جانب هذا التعميق المذهبي والتصعيد في المعارضـــات ، يجدر بنا التذكير بظاهرة النزعات الاستقلاليـــة التي كانت تغذي في كثير من الاحيان حركات المعارضة، التي تعددت وتنوعت في وجه الخلافة العباسية ، والتي ، رغم تقلصـها وقتيا ، كانت تمثل حركات متغلغلة في الجهات التي ظهرت فيها .

لكن رغم هـــذه المعطيات الجديدة شهدت الخلافة العباسية اثناء النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة فترة انتعاش نسبي ، مهدت لها جهود الموفق ، وتبلورت في ظل حكم الخليفة المعتضد والخليفة المكتفي ، وتواصلت ردحا من الزمـــن في خلافـــة المقتدر . وتمتاز هذه الفترة من بين ما تمتاز به بالسيطرة على المؤسسة العسكرية ، ثم توحّد هذه المؤسسة تحت قيادة مؤنس الخادم المظفر ، مما أكسبها فاعلية كبيرة حتى نهاية العشرية الثانية من القرن الرابـع الهجري على الاقل .

٢ ـ في مصر :

سيطر الطولونيون على مصر قرابة نصف قرن (٢٥٤ ــ ٢٩٢/٨٦٨ــ٩٠٥م) ثم استرجعتها الخلافة العباسية في آخر القرن الثالث الهجري (٢٩٢ هـ) على يد محمد ابن سليمان الكاتب ، قائد جيوش الخلافة ، الذي اشتهر بما قام به بعـد انتصاره من القمع الشرس والنهب الفظيع(١) . وعلى اثر هذه العمليات شهدت مصر فترة امتازت بعدم الاستقرار والانتفاضات ، وبتداول الولاة عليها . ومن أهم الحركات التي تذكر حركة ابن الخليج الذي اختلفت المصادر في صيغة اسمه(٢) .

وابن الخليج هذا ضابط من ضباط الجيش الطولوني المهزوم ، والذي ضمت بعض فلوله الى جيش محمد بن سليمان الكاتب . واستمرت حركة ابن الخليج هذا ضد والي مصر الجديد ، عيسى النوشري ، اكثر من سبعة اشهر . وعلى ذكر هذا الوالي تشير المصادر الى وجود شيعيين بين حاشيته مما يؤكد ان حركة الدعــوة الشيعية الفاطمية كانت ناشطة في مصر(٣) . وما ان توفي عيسى النوشري سنة٢٩٧هـ/ ٩١٠م)، حتى اتضح خطر الفاطميين بالنسبة لولاة مصر ، سيما في اقليم برقة الراجع بالنظر الى والي مصر ، واصبح هذا الاقليم شبه جبهة سياسية ــ عسكرية جعل منها فاطميو افريقية ساحة جس نبض للقوات المصرية وساحة مناورات سياسيـــة وعمل دعائي نشيط يهيء للعمليات العسكرية المستقبلة(٤) . وكان المنفد لهذه السياسة القائد حباسة بن يوسف .

٣ ـ في افريقية والمغرب :

ان الوضع في افريقية والمغرب لم يكن سهلا ابدا بالنسبة للفاطميين . ويكفي ان نستعرض بعض الاحداث ليتضح لنا ان الفاطميين لم يستتب لهم الامر رغم ان الحركة الاسماعيلية تظهر منسقة ، اذ اندلعت العمليات التي كان الاسماعيليون المحرك الاساسي لها في نفس الفترة على ساحات مختلفة منها سورية والعراق وافريقية . وكذلك رغم طول مدة نشاط دعاة الفاطميين بافريقية (٢٨٠ ـ ٢٩٦ هـ) ، فماانتصرت شيعة الفاطميين على الاغالبية بالاربس واقبل المهدي من سجلماسة الى رقادة سنة ٢٩٧ هـ ، حتى اندلع الخلاف بينه وبين الداعي ابي عبد الله ، وقتل هذا الاخير واخوه ابو العباس سنة٢٩٨هـ(٥) . وعلى اثر هذه الازمة خرجت كتامة على المهدي سنة ٢٩٩ هـ ، واتخذت مهديا جديدا واجبر ابو القاسم على محاربتهم دفعتين .

وفي الجانب الشرقي من افريقية قامت كذلك في نفس الفترة (سنة ٣٠٠هـ) اضطرابات خطيرة ، يظهر ان بقايا تاثير الاغالبة كان سببا من اسبابها ، واجبر كذلك الفاطميون على محاربة اهل طرابلس واخضاعهم بطرق عنيفة جدا(٦) ،ومجابهة خلاف نفوسه سنة ٣٠٩ هـ.

وفي الجناح الغربي ، أي المغرب الاقصى ، قامت اضطرابات في نكور تزعمها صالح ابن منصور ، وارسل مصالة بن حبوس لمقاومة نكور فافتتحها سنة ٣٠٥ هـ وقتل سعيدا بن صالح ، ثم لم تهدأ الحركة واجبر الفاطميون على محاربة اهل المنطقة ثانية سنة ٣٠٨ هـ.

وفي سنة ٣٠٩ هـ فتح الفاطميون سجلماسة ونهبوها . وفي سنة ٣١٢ هـ خرج مصالة بن حبوس لحرب تيهرت وزناتة بتلك الناحية ، واخيرا في سنتي ٣١٥ ـ ٣١٦هـ خرج ابو القاسم الى المغرب لحرب الصفرية والاباضية وبلغ تيهرت(٧) .

٤ ـ في صقلية :

واخيرا في صقلية لم يستتب الامر للفاطميين الا بعد عناء شديد ، اذ التف أهل صقلية حول امير اغلبي ، هو محمد بن احمد بن زيادة الله بن قرهب ، امتاز وذويه باقدامهم وحركيتهم ضد الفاطميين طيلة سنين عديدة . وتمثل نشاطهم ضد الحكم الجديد في افريقية بتنظيم غارات متعددة ضد شواطىء افريقية وموانيها ، مثل لمطة(٨) وصفاقس وطرابلس (٩) وسوسة ، حيث قضوا على الاسطول الفاطمي باجمعه . ولم

يقهر قائد هذه العمليات ، احمد بـن محمد بـن أحمد بـن زيادة الله بـن قرهب الا سنـة ٣٠٣ هـ .



ب ـ العمليات العسكرية واهدافها

هكذا يتضح ان السنوات الاخيرة من القرن الثالث الهجري والاولى من الرابع الهجري كانت سنوات جهد كبير ، كان الفاطميون مضطرون الى القيام به لترسيخ حكمهم بافريقية وضمان عمق استراتيجي لهذا الحكم شرقا وغربا وبحرا .

١ ـ الجبهة الغربية :

فعلى الجبهة الغربية كان الفاطميون يهدفون الى السيطرة على طرق التجارة والذهب ، ولهذا السبب كان المغرب الاوسط من أهم الساحات بالنسبة للفاطميين . وكانت مدينتا تيهرت وسجلماسة من اكبر الاسواق ونقاط الوصول لطرق التجارة والذهب التي كانت تأتي من جنوب الصحراء ومن المشرق . وكانت المدينتان تراقبان محاور هذه الطرق وتسيطران عليها . وبما ان اموبي الاندلس كانت لهم نفس المصالح التجارية والمالية ، فمن الطبيعي أن نراهم يحاولون حماية الطرق الاتية من الجنوب والمارة باغمات وفاس وتلمسان والسيطرة عليها . وما حروب المغرب الاوسط بصـورة غير مباشرة في بعض الاحيان بين الفاطميين والامويين الا تعبيرا عن التنافس الاقتصادي والتجاري بين القوتين ، وما تلك التحالفات التي كانت تعقد وتفك الا مظهرا من مظاهر هذا التنافس القوي ، وليست مجرد احقاد بين المجموعات القبلية البربرية كما يدعي (غوتييه) .

ويظهر ان الممارسة الفاطمية على الجبهة الغربية كانت تهدف لا الى الاحتلال المستمر والمتمركز ، بل الى التمكن من السـيطرة على نقاط القوة لطـرق التجارة والذهب ومحاورها . وكان ذلك عن طريق اخضاع اهم المدن في هذه المحاور ، مثـل تيهرت وسجلماسه وفاس وتلمسان وموانى البحر الابيض المتوسط ، التي كانت نقاط الوصول للتجارات والذهب . وسلك الفاطميون طريقة التحالف صلحا او عنوة مع المجموعات الزناتية (مكناسة ، مغراوة ، وافران) البدوية التي كانت عنصرا اساسيا في السيطرة على طرق التجارة .

وهدف الفاطميين الاقتصادي هذا كان ملحا بالنسبة اليهم ، اذ كانوا محتاجين الى اموال طائلة في مستوى طموحاتهم السياسية في خصوص المشرق . ومما يؤكد هذه الظاهرة في سياسة الفاطميين ما قاله لنا الزميل الحبيب الجنجاني عن سياستهم المالية الرامية كذلك الى جمع اكثر ما يمكن من المال ، لان ذلك كان الشرط الاساسي لتحقيق سياستهم (العالمية) التي كان هدفها الاول مصر .

واذا تمعنا في سياسة ونشاط الفاطميين على الجبهة الغربية واستعنا بالمعطيات الاثرية رغم ضآلتها(١٠) ، نلاحظ ان الفاطميين كانوا يهدفون الى جمع المال والرجال ، وربما كان بين هؤلاء عدد لا يستهان به من السود ، وهذه السياسة لا نستطيع ان نجزم بانها تهدف الى احتلال البلاد وتنظيمها والاستقرار بها ، فالفاطميون كانوا يتصرفون فيها وكانهم لا ينتظرون منها سوى ان تكون قاعدة تمكنهم من المال والرجال .

٢ ــ الجبهة الشرقية :

رغم النشاط الفاطمي الحثيث الذي لاحظناه على الجبهة الغربية ، ورغم الحركات المناهضة للحكم الجديد في افريقية نفسها وفي صفوف كتامة سندهم الاساسي ،ورغم اضطرابات صقلية ، نلاحظ ان الفاطميين فتحوا الجبهة الشرقية مبكرا جدا وناصبوا ولاة مصر العداء وبدوا يشاغبونهم ، سيما في برقة ، منذ بداية القرن الرابع الهجري، في ولاية ابي منصور تكين بن عبد الله وولاية نائبه في برقة ابو النمر ــ او اليمن ــ أحمد بن صالح.

والعمليات العسكرية المتكررة على الجبهة الشرقية معروفة ومما تمتاز به الحاح الفاطميين ، رغم عدم نضج الوضع لفائدتهم ، على الاستمرار فيها ، معتمدين على العمليات الحربية البحتة ، وكذلك على الدعاية والدبلوماسية(١١) . وبدأت محاولات الفاطميين منذ سنة ٣٠١هـ(١٢) واستهدفت سرت وبرقة بقيادة حباسة ابن يوسف والامير ابي القاسم بن المهدي ، ثم كانت الهجمة المنسقة ضد الاسكندرية بريا وبحريا ، واحتل حباسة الاسكندرية بسرعة سنة ٣٠٢ هـ . لكن فشلت هذه الحملة للخلاف الذي جد بين الامير ابي القاسم والقائد حباسة بن يوسف والذي ادى الى قتل حباسة(١٣) . وفشلت كذلك للمجهود الكبير الذي قامت به الخلافة العباسية للتصدي للهجوم الفاطمي ، حيث بعث الخليفة المدد تلو المدد مع قواد شهيرين مثل القاسم بن سيما واحمد بن كيغلغ ، وتبعهم القائد الكبير مؤنس الخادم . والجدير بالاشارة ان اهل مصر شاركوا مشاركة ملحوظة في مقاومة جيوش الفاطميين . وفي

اعقاب انهزام الفاطميين حرص والي مصر الجديد ذكا الاعور الرومي في تتبع انصـار الفاطميين وعملائهم ، حيث ثبت انه كان هناك من يكاتب الفاطميين(١٤) لكن الفاطميين لم يلوهم هذا الفشل على اعادة الكرة حيث عاودوا الهجوم على برقة في السنة الموالية ٣٠٣ هـ ، بقوات قادها ابو مدين فروخ الذي فتحها سنة ٣٠٤هـ(١٥) . وفي نفس هذه السنة كمل سور المهدية واستتب الامر للفاطميين بصقلية فاصبحت وسائلهـم البحرية اقوى وانجع . وفي سنة ٣٠٦و٣٠٧ هـ كانت كرة الامير ابي القاسم الثانيةعلى مصر(١٦) مع القائد سليمان بن كافي . وكانت هذه الحملة مركزة اكثر من التي سبقتها واشتركت فيها الجيوش البرية والاسطول بقيادة سليمان الخادم ، وانتصرت فيهاقوات الخلافة لتفوقها في استعمال النفط ، ولكن هذا الانتصار لم يتم الا بعد عناء شديد وبعد قدوم امداد متعددة برية وبحرية ، وبمشاركة مؤنس الخادم في العمليات . ولقب مؤنس على اثر هذا الانتصار بالمظفر .

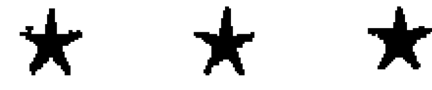
ومما يلفت النظر ان مؤنس اكتشف(١٧) ان للفاطميين عملاء كثيرين بمصر ، ومن ضمنهم خادم له ، ووقع اتهام صاحب الخراج ، ابو زنبور الحسين بن احمـد الماذرائي نفسـه ، وكذلك ابن أخيه ، محمد بن علي بن احمد(١٨) .

وتجدر الاشارة كذلك الى الاضطرابات والشغب الذي حصل في صفوف جند مصر اذ يظهر ان قدوم الجيوش من بغداد كل ما هجم الفاطميون على مصر كان له اسوء الاثر على البلاد ، لما كان يحدث من تصرفات الجنود القادمين وما ينجم عن ذلك من الاوبئة وغلاء الاسعار .

واخيرا تجدر الاشارة الى ان موقف المصريين من المنهزمين تمثل في قتل كتامة وزويلة . اما الاسرى من اهل القيروان وطرابلس وبرقة وصقيلة فانهم اطلقوا . وعلى اثر هذه الاحداث ستشهد مصر فترة مضطربة توالى فيها (هلال بن بدرواحمد بن كفيلغ وتكين ومحمد بن تكين ..) وتعددت الخلافات سيما بعد مقتل المقتدر ٣٢٠ وصار من وتكين ومحمد بن تكين ..) وتعددت الخلافات سيما بعد مقتل المقتدر سنة ٣٢٠، وصار من تسميهم المصادر المصرية بالمغاربة طرفا فياحداث مصر(١٩) .

وواصل الفاطميون محاولاتهم في عشرينات القرن الرابع الهجري في ظروف ملائمة لهم اكثر من قبل ،واخذ الوضع ينضج لفائدتهم نتيجة مجهوداتهم المتنوعة ، العسكرية والدبلوماسية(٢٠) والدعائية ، التي ادت الى ان كافورا مثلا صار يسلك سياسة توازن بين العباسيين من جهة والفاطميين من جهة اخرى . وبعـد وفـاة الاخشيد اصبحت مصر هدفا سهل المنال سيماودعم الخلافة لهاقد تقلص منذ زمن طويل،لتخبط

بني العباس في ازمات ادت الى استيلاء المتغلبين على اقاليم مملكتهم وافضت بهم الى وضعية الموصى عليهم .



الخاتمـة :

كخاتمة لهذا العرض الذي تناول العمليات العسكرية في اهم ادوارها نلاحظ ان الفاطميين واصلوا محاولاتهم ضد مصر رغم ظروف غير ملائمة ،من ناحيةوضعهم الذاتي ومن ناحية الوضع (الدولي) . فمن ناحة الوضع الداخلي للفاطميين لاحظنا كم كانوا مضطرين الى القيام بمجهودات مطردة ، مسترسلة لتركيز سلطتهم في افريقية والمغرب الاوسط وصقلية لاسباب اقتصادية ومالية وبحرية وقد واجه الفاطميون جميع انواع المقاومة في تلك الساحات :

المقاومة (السياسية ـ العقائدية) من طرف كتامة نفسهم ، والمقاومة الامويـة بسبب التنافس الاقتصادي (الامبريالي) ومقاومات الجماعات القبلية البدوية في المغرب الاوسط التي كان الوجود الفاطمي يهدد مصالحها الاقتصادية المكتسبة من مراقبة طرق التجارة الصحراوية ، ومقاومة الاهالي السلبية وسيما الاوساط المالكية في القيروان ، ومقاومة الخوارج في جميع انحاء المغرب، من نفوسة بناحية طرابلس الى نكور بالمغرب التي بلغت ذروتها في ثورة ابي يزيد ، صاحب الحمار . رغم كل هذه المقاومات واصل الفاطميون جهودهم لاكتساب قاعدة صلبة تمكنهم من المال والرجال ومن كل وسائل طموحاتهم السياسية العريضة ، وحاولوا توسيع هذهالقاعدة واعطاءها عمقا استراتيجيا ربما امتد الى افريقية جنوب الصحراء .

ومن ناحية الوضع (الدولي) يظهر بوضوح ان الظروف لم تكن ملائمةللفاطميين، فطيلة عشرات السنين كان على الفاطميين مجابهـة خلافة عباسيـة استرجعت في فترة المجابهة هذه قوة فعالة ومدهشة في بعض الاحيان ، وامتازت تلك الفترة بوحدة المؤسسة العسكرية بقيادة مؤنس الخادم وباكتساب هذه المؤسسة فعاليات تقنيـة هائلة جعلت منها اداة ناجعة رغم تعدد الحركات الناهضة والانفصالات عن الخلافة سيما حركات القرامطة والديلم . ولم تتقلص فعاليات الخلافة العباسية الا في اواخر العشرينات من القرن الرابع الهجري ، حيث ظهرت خطة امرة الامراء واصبح الخليفة شخصية صورية يتراوح بين القواد والولاة .

رغم هذا الوضع لم ينفك الفاطميون يحاولون الاستيلاء على مصر باستعمال القوة العسكرية والدعاية والطرق الدبلوماسية ، حريصين في هذه المحاولات على

المثابرة . هذا رغم الفراغ السياسي الذي كانت تمتاز به الساحة المغربية بالمعنى الواسع ؛ مما يجعلنا نستغرب عدم تركيز الفاطميين على هذه الساحة وتنظيمها والاستقرار بها وجعلها امبراطورية ((مغربية افريقية)) ذات وحدة اقتصادية تجعل منها منطقة ذات قوة وحيوية كبيرتين .

لا نستطيع تفهم هذه السياسة الفاطمية الا اذا افترضنا ، من طرف الفاطميين ؛ اختيارا استراتيجيا مغايرا . ونلاحظ في هذا الميدان ان الفاطميين حال انتصابهم بافريقية جعلوا ينظمون قاعدة انطلاق ؛ وذلك بضمان اطراف آمنة مركزة غربا في المغرب الاوسط وشرقا في طرابلس وبرقة وبحرا في صقلية .

وانطلاقا من هذا التنظيم القاعدي نستطيع الافتراض ان الفاطميين كان يهمهم؛ الى جانب القاعدة الانطلاقية المغربية ؛ بلوغ هدفين استراتجيين هامين ،يتمثلان :

أولا : في السيطرة الكاملة على الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط . ويظهر ذلك جليا في بناء المهدية واعادة بناء اسطول سوسة والحرص على التمكن من طرابلس وبرقة .

ثانيا : في السيطرة على مصر نفسها لفتح الحوض الشرقي للبحر الابيض المتوسط من جهة ، والتمركز في موقع وسطي يعطي الفاطميين امكانية مجابهة الخلافة العباسية ومزاحمتها في ظروف اضمن للنجاح ،وامكانية التدخل مباشرة عن طريق البحر الاحمر واليمن في تجارات المحيط الهندي والشرق الاقصى ؛ ولعل ما ظهر من بعد مما اسماه الاستاذ ماريوس كانار Marius Canard بالامبريالية الفاطمية يعطي بعض الصحة لافتراضنا ان الفاطميين كان لهم اختيار استراتيجي شرقي وانهم لم يكونوا يعتقدون بأن المغرب يصلح لتحقيق هذا الاختيار الاستراتيجي . فاذا اضفنا بان استرجاع مصر من طرف الخلافة لاشك وانه أحدث امتعاضا واستياء في صفوف المصريين لما نجم عنه من الاستغلال وسوء التصرف ؛ مما كان من شأنه ان يجعل مصر هدفا سهل المنال بطول المدة ، رغم الصعوبات الاولية سيما والفاطميون بذلوا مجهودا عظيما سياسيا ودعائيا لكسب المصريين الى جانبهم . ولعل تسامحهم بعد انتقالهم الى مصر يؤكد ما نقوله .

بقي سؤال يطرح نفسه في خاتمة هذا البحث المتواضع ، وهو : هل كان الفاطميون يعتقدن او يحسبون في حسابهم ان المغرب يبقى تحت سيطرتهم .. وهل كانوا يريدون ذلك ويعيرونه أهمية كبرى .. أم هل كانوا يفكرون انه يكفي ان يكون المغرب مصادقا لهم ..؟. هذه مسألة اخرى تستدعي بحثا على حدة نرجو ان ننصرف اليه في فرصة قادمة .

الحواشي :

(١) انظر النجوم الزاهرة ، ٣،١٣٩ ، ١٤٦ – ١٤٧.

(٢) انظر الكندي ، ٢٥٨ وما بعدها ، والطبري ٣، ٢٢٥٨ ، والمقريزي ، الخطط ، بولاق ١٢٧٠ هـ ، جزءان الجزء الاول ، ٣٢٧ ، والنجوم الزاهرة ، ١٤٧ .

(٣) انظر مثلا : كتاب العيون نشر عمر السعيدي ، دمشق ١٩٧٢ – ١٩٧٣ ، القسم الاول ، ٢٠٨ في حوادث ٢٥٨ هـ .

(٤) انظر الكندي ، ٢٦٨ ، والبيان ، ١ ، ١٧٠

(٥) انظر ابن الاثير ، ٨، ٥٠، طبعة دار صادر ودار بيروت . وانظر كذلك مقال الاستاذ محمد الطالبي في ملتقى القاضي النعمان لاول ، وزارة الشؤون الثقافية تونس ، ١٩٧٧ ، ص٨٥ وما بعدها .

(٦) انظر البيان ، ١، ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٧) انظر كتاب العيون ، ١، ٢٤٢، والبيان ، ١، ١٩١ .

(٨) انظر كتاب العيون ، ١، ١٧٧ .

(٩) انظر ابن الاثير ، ٨، ٧١ .

(١٠) انظر مقال جان ديفيس Jean Devisse عن البعد الصحراوي للسياسة الفاطمية .

(١١) انظر الكندي ، ٢٦٨.

(١٢) انظر البيان ، ١، ١٧٠

(١٣) انظر الطبري ، ٣، ٢٢٩٢ في حوادث سنة ٣٠٢ هـ (ويعتري نص الطبري اضطراب وتناقض).

(١٤) انظر الكندي ، ٢٧٠ ، ٢٧٤

(١٥) انظر البيان ، ١، ١٧٤ – ١٧٥ .

(١٦) انظر البيان ، ١، ٨١ وما بعدها . الكندي ، ٢٧٥.

(١٧) انظر كتاب العيون ، ١، ٢٠٨ . والكندي ، ٢٩٥ . والنجوم ، ٣، ١٩٦ .

(١٨) انظر البيان ، ١، ١٨٢ .

(١٩) انظر الكندي ٢٨٧ ، وابن سعيد نشر Talgvist ، ليدن ١٨٩٩ ، الجزء الاول ، ص ١٣.

(٢٠) انظر ابن سعيد ، ٢٦.

الأسباب الاقتصادية والاجتماعية
لمعارضة قريش الدعوة إلى الإسلام

د . نبيه عاقل
كلية الاداب ــ جامعة دمشق

تحاول هذه الدراسة أن تتناول بالبحث والتحليل بعض الاحداث والظروف التي وجدت في مجتمع مكة قبل الاسلام، وموقف الاسلام ورسوله منها، وما طرأ على هذا المجتمع من تغيرات في ظل الدولة التي أقامها الاسلام على أساس من تعاليمه ، حيث شاعت عدالة اقتصادية واجتماعية كانت مثلا تطلعت اليه أجيال المسلمين على مــر عصورهم ودولهم .

وطبيعي ان لا تستوعب الصفحات القليلة المخصصة لهذه الدراسة كل التفاصيل التي لابد منها لتتكامل جوانب البحث وتتضح الصورة على وجه مثالي، لذا أراني مضطرا لان ارسم الخطوط العريضة فقط، وأن أترك لفطنة القارىء ما لا يتسع له المجال أو ما هو معاد ومكرور .

ولن أعود بالذاكرة الى فترات سحيقة في القدم ، بل سأبدأ مع القرن السابــق لبعثة الرسول الكريم وأحاول أن أوجه العناية الى بعض مواصفات المجتمع المكي قبل الاسلام ومظاهر الحياة واوجه النشاط فيه .



كانت قريش هي القبيلة التي تسكن مكة بعد جرهم وخزاعة ، كما تحدثنــا المصادر العربية . وكان قصي بن كلاب اول بان لمجد قريش وموطد لنفوذها ، وكانت التجارة شغل القرشيين الشاغل وليس بدعــا ان نقول ان مكــة منذ ان ظهرت الى الوجــود كانت مركزا تجاريا هامــا ؛ وان ازدهارهــا كمركــز تجاري مرتبط الى أبعد الحدود بوجود الحرم فيها ، وهو المنطقة التي تحرم فيها كل أنــواع العنف والقتل . يضاف الى هذا أن موقعها الجغرافي ووجودها على مفترق الطرق التي تحمل

التجارة من اليمن الى سورية ومن الحبشة الى العراق قد ساعد على اضفاء الاهمية التجارية عليها . وهكذا فقد كانت مكة مقصد البدو الذين يرتادونها لشراء ما يحتاجون من البضائع التي تصلها من جميع الجهات بواسطة القوافل التجارية . ولم تأت نهاية القرن السادس الميلادي حتى وقعت معظم التجارة بين اليمن وسورية تحت ايديهم ومع مرور الزمن اخذت مكة تتحول من مركز تجاري فحسب الى مركز مالي هام تتم فيه عمليات مالية واسعة النطاق ، وساهم المكيون بانفسم في النشاط التجاري العالمي فتاجروا مع العراق وبصورة خاصة مع الحيرة ، كما تاجروا مع بلاد الشام ، فكانوا ياتون اليها حاملين بضائع الهند ويعودون منها ومعهم الحبوب والزيت والخمور والاسلحة والمنسوجات والجواري . وهكذا كانت رحلة الشتاء والصيف ، وهكذا شاعت في لغتهم الفاظ تجارية عديدة ك : حساب ، وميزان ، وقسط وذرة ، ومثقال ، وقرض ، وسواها مما يتردد في القرآن الكريم الذي كان يمثل لغة العرب ابان التنزيل. وقد أدى هذا النشاط التجاري عند المكيين الى نشوء اعمال مصرفية ، ووجود فئة من الصيارفة الذين يهتمون بشؤون عملات الدول التي يتعامل المكيون معها . كما وجد بينهم المرابون الذين يقرضون الاموال للناس ويفرضون الفوائد الفاحشة على المدينين. ولن أدخل في متاهة التفسيرات العديدة التي يقدمها لنا ابن عباس واليعقوبي والطبري وسواهم في سبب تسمية قبيلة قريش ب « قريش » وعندي ان الذي لا يجد المرء غيره مذهباً يرتضيه في تفسير السبب الذي لأجله سميت هذه القبيلة بهذا الاسم هو ان تكون قريش من « القَرْش » بمعنى الجمع ، لما كانوا يتعاطون من التجارة وجمع المال، اذ كانوا معروفين بذلك عند العرب عامة ، فسموهم به . كما أن ابن هشام يذكر ان التقرش : التجارة والاكتساب ، وأن القروش ايضا التجارة والاكتساب ويأتي على ذلك بشاهد من كلام العرب .

واذا أضفنا الى كل هذا أن القرشيين ابتدعوا النسيء (١) لتتطابق السنة الشمسية مع السنة القمرية فلا يخل برحلتي الشتاء والصيف التجاريتين اللتين تقعان في فصلين ثابتين بقطع النظر عن الاشهر الحرم ووقوعها في فصول تختلف من عام الى عام ، لوجدنا ما كان للتجارة من أهمية بالغة في حياة المكيين قبل الاسلام . ولم تعد التجارة وسيلة

---

(١) يقول المسعودي : ان العرب في الجاهلية : « كانت تكبس في كل ثلاث سنين شهرا وتسميه النسيء ». أي انه كان يضاف شهر في كل ثلاث سنوات لكي تتطابق السنة الشمسية مع السنة القمرية . وقد رفض الاسلام النسيء . قال تعالى : « انما النسيء زيادة في الكفر » . وفي حجة الوداع قال صلوات الله عليه : « فلاشهر ينسأ ولا عدة تخطأ ، وان الحج في ذي الحجة الى يوم القيامة » . (الازرقي، ج١ ، ص ١٢٨) .

ارتزاق ومورد عيش بالنسبة للمكيين فحسب ؛ بل غدت الناظم لعلاقاتهم السياسية الدولية ، والمحور الذي تدور حوله شؤون اقتصادهم وعلاقاتهم بالقبائل العربية المختلفة ، والاطار الذي ينتظم حياتهم داخل مدينتهم ، والمعيار الذي تتدرج على أساسه رتبهم في المجتمع وما قام بينهم من فوارق في المجالين الاقتصادي والاجتماعي.

كما غدت مصالحهم التجارية هي التي تحدد انتماءهم الى هذا الحلف أو ذاك من الاحلاف التي قامت في مدينتهم قبل الاسلام ، كحلف المطيبين وحلف لعقة الدم وحلف الفضول وسواها . وقد استمر تطور هذه التحالفات والتكتلات القبلية في مكة بين فروع قريش المختلفة حتى عصر الرسول ، حيث كان هناك عند بعثته ثلاث فئات قرشية متطاحنة هي كما يلي : فئة اولى وتضم بني هاشم والمطلب وزهرة وتيم والحارث بن فهر وعدي ، وفئة ثانية وتضم : بني عبد شمس ونوفل واسد وعامر ، وفئة ثالثة وتضم : بني مخزوم وجمح وعبد الدار . ويمكننا ان نلاحظ ان الفئة الاولى كانت تتضمن جماعة حلف الفضول باستثناء أسد التي حل محلها بنو عدي . كما انه كانت بين الفئتين الثانية والثالثة علاقات ود ومصلحة مشتركة ، ولا سيما في الميدان التجاري .

وأما الفئة الثالثة فواضح انها جماعة لعقة الدم القديمة ، باستثناء عدي التي انتقلت الى صف الفئة الاولى . واذا كانت الوحدة والتضامن القبلي أمرين ضروريين تقتضيهما طبيعة الحياة في المجتمعات الصحراوية،واذا كان الشعور القبلي هو الشعور الذي يجمع افراد القبيلة الواحدة برباط الصالح المشترك ، فان الحال في مجتمع كالمجتمع المكي الذي كانت التجارة فيه عماد الحياة ، سارت على منوال مغاير لهذا الناموس الذي ينطبق على المجتمع الصحراوي خير انطباق .

فنمت في مكة فردية من نوع مختلف ، وذلك نتيجة الجو التجاري الذي كان يسيطر على حياتها ، اذ أنا نشاهد انه اذا اقتضت مصلحة الطبقة التاجرة في مناسبة من المناسبات أن ينفرد فرد أو جماعة من بينها بقرار يعود عليها بالفائدة ، كانت تضرب بمصلحة الجماعة وقضية التضامن القبلي عرض الحائط وترجح مصلحتها . وهكذا ظهر في مكة نوع جديد من التضامن المبني على اساس من المصلحة التجارية . فعلى أساس من المصالح التجارية قامت الاحلاف ، كما أنه على أساس من هذا الشعور التجاري وحدت قريش صفوفها بعد بدر وجمعت شتاتها ، على ماكان بينها من خلافات ، لتقف وقفة موحدة ضد المسلمين الذين يهددون تفوقها التجاري. وسيؤدي هذا التطور بالضرورة الى ضعف الروابط المبنية على اساس قرابة الدم ، والى نشوء روابط موحدة جديدة .

وتجدر الملاحظة هنا ان التطور في تنظيم العلاقات القبلية في هذه الفترة من تاريخ مكة ، قد رافقه تطور اقتصادي نقل أقتصاد هذه المدينة من الشكل البدوي الذي كان عليه في السابق ، الى الشكل التجاري الرأسمالي مما زاد في تعقيد العلاقات بين افراد المجتمع وظهور طبقات (مستغلة) وطبقات (مستغلة) ، والى ظهور صراع طبقي بين الاغنياء ذوي المصالح المتسلطين ، والفقراء المحرومين . وقد لعب هذا المناخ الاقتصادي الجديد دورا هاما في الصراع العقائدي الذي قام في مكة بعد نزول الوحي والدعوة للاسلام بين فريقين :

فريق المؤمنين وهم من الثائرين على هذه الاوضاع او من المستضعفين المستغلين ، وفريق المعارضين المشركين الذين كانت مصالهم المادية المهددة حافزهم الوحيد للمعارضة كما سنبين بعد قليل . وهكذا فانه قبل ان يتنزل الاسلام على قلب الرسول الكريم كان الناس يتفاضلون بما يتكدس في خزائنهم من أموال وبما لهم من قوافل تقطع البوادي والقفار ، وبما يترتب على ثرواتهم هذه من مكانة وجاه . وكان لهم في هذا الدين وهذه الالهة التي يعبدون خير حام وسند فقد انحرفوا بدين ابراهيم الحنيف عن اصوله وتعاليمه الموحدة ، وعبدوا الجبت والطاغوت وعظموا الاصنام والاوثان ، واستقسموا عندها بالازلام ، واخذوا « يعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله » . ويذكر الازرقي (صاحب اخبار مكة ج ١ ، ص ٧٥ ــ ٧٦) انه كان في الكعبة ثلاثمائة وستون صنما يوم دخلها الرسول بعد فتح مكة . وبالرغم من انه ليس من اهداف هذا البحث ان يتناول وثنية العرب ودياناتهم قبل الاسلام بالدراسة ، فانه لابد لنا ان نلاحظ ان رجال الاعمال المكيين قد استغلوا هذا الدين وشعائره ليربطوه ربطا محكما بما يعود بالخير على تجارتهم . فقد حددوا مواعيد عقد الاسواق التجارية وجميع مايتعلق بشؤون البيع والشراء وعمليات التبادل التجاري بما يتلاءم وموسم الحج ، فكانوا ، قبل ان يلغى النسيء ،اذا صادف الحج في شهر ذي الحجة خرجوا الى عكاظ (١) يوم هلال ذي القعدة فاقاموا هناك في بيع وشراء مدة عشرين يوما . وبعد انقضاء الايام العشرين يتركون عكاظ الى ذي المجنة (٢) فاقاموا به عشرا يبيعون ويشترون . فاذا رأوا هلال ذي الحجة انصرفوا الى ذي المجاز (٣) فاقاموا به ثمان ليال يفعلون فعلهم في عكاظ وذي المجنة . ثم

(١) عكاظ : وراء قرن المنازل بمرحلة على طريق صنعاء من عمل الطائف على بريد منها . وهي سوق لقيس بن عيلان وثقيف .

(٢) المجنة : سوق اسفل مكة على بريد منها ، وهي سوق لكنانة ، وارضها من ارض كنانة .

(٣) ذو المجاز : سوق لهذيل عن يمين الموقف من عرفة على فرسخ من عرفة .

يخرجون يوم التروية(١) من ذي المجاز الى عرفة . وكان يوم التروية ، كما يقول الازرقي،(٢) يحضر الى هذه الاسواق التجار ومن يريد التجارة والبيع .



في هذا الجو من الفوضى الاقتصادية والاجتماعية ، في هذا التيه من شريعة الغاب وحق القوي ومجد الغني ، في هذا الليل الداكن يلف حياة المستضعفين ويؤرق جفون الرافضين الثائرين ، يتنزل الاسلام على قلب محمد بن عبد الله ، رافعا رايات العدالة في الدارين شعارا وقولا وعملا فيهرع اليه الذين أمضهم طول الانتظار وكاد ياسهم أن يدفع بهم الى قنوط وخيبة ، فيجدون في ظله ما افتقدوه طويلا وما كانوا يتوقون اليه من احقاق حق وازهاق باطل .

كان محمد يدعو الى دين الله سرا اول الامر ، ثم جاءه الامر بعلنية الدعوة في الاية الكريمة : « فاصدع بما تؤمر ، واعرض عن المشركين » ، فما كان منه الا ان نقل دعوته من مرحلة السر الى مرحلة العلن . ولم تقدر قريش اول الامر خطورة دعوته عليها وعلى مصالحها الاقتصاديةومكانتها الاجتماعية، فلم تعره اهتماما كبيرا ولا قدرت المخاطر التي ستترتب على نجاحه فيما يدعو اليه ، حتى انه في رواية منقولة عن الزهري ، يقول ابن سعد ان كفار قريش كانوا في الايام الاولى للدعوة غير منكرين لما يقوله الرسول الكريم : « فكان اذا مر عليهم في مجالسهم يشيرون اليه أن غلام بني عبد المطلبنيكلم من السماء » ، (ابن سعد ، ج١،ص١٩٩) . مما يدل على عدم اخذهم لدعوته مأخذ الجد ، او تقدير ماسيكون لها من اثار . ولكن الامر لم يطل وسرعان ما أخذتتتكشف لهم ابعاد الامور والمبادىء التييدعو اليها محمدبنعبدالله وما سيكون لها من اثار وانعكاسات على أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . ويربط المؤرخون عادة بدء معارضة قريش للرسول الكريم بعيبه الهتهم التي يعبدونها دون الله ، وذكره هلاك ابائهم الذين ماتوا على الكفر ، الامر الذي جعل ثائرتهم تثور ويعلنوا العداء له (انظر رواية الزهري التي ينقلها ابن سعد في طبقاته جـ١،ص١٩٩). ولعل مايثير الانتباه في قضية ربط معارضة قريش لدعوة محمد بذمه الهتهم وعيبه ابائهم الذين ماتوا على الكفر هو ما يمكن ان يقوم من تساؤل عن مقدار ارتباط المكيين بآلهتهم ، وحرصهم عليها بحد ذاتها . وفي الاجابة عن هذا التساؤل ودون اللجوء الى

(١) سمي يوم التروية لترويتهم من الماء بذي المجاز ، فقد كان المنادي ينادي ترووا من الماء لانه لا ماء بعرفة .

(٢) الازرقي ، اخبار مكة ، ج١ ، ص ١٢٩ .

شرح وتفصيل لا مجال لهما في هذه الدراسة يمكننا ان نجزم ان قضية استهتار المكي بالهته قضية اكيدة ، كما ان ايمانه بها كان من الضعف والتفكك بحيث لم تجد حنيفة ضيرا من اكل ربها الذي صنعته من حيس وعبدته دهرا ، ثم اصابتهم مجاعة فاكلوه ، فقال شاعرهم :

اكلت حنيفة ربها زمن التقحم والمجاعة

وحيث كسر امرؤ القيس القداح ورماها في وجه الصنم حين جاءه جوابه ينصحه بعدم الاخذ بثائر ابيه . كان المكي يعرف أن هذه الالهة لاتسمن ولا تغني من جوع وانه انما يعبدها : لتقربهم من الله زلفى ، وأنها شفيعتهم عند الله وواسطتهم اليه فقط . كما ان مصادرنا تحدثنا عن اشخاص مكيين تنصروا او تهودوا او عادوا لاعتناق دين ابراهيم ورفضوا عبادة الاوثان (يورد ابن حبيب في المحبر قائمة باسماء الذين رفضوا عبادة الاوثان من المكيين ، انظر ص ١٧١ — ١٧٢) .

وفي كل هذا ، وفي مناسبات اخرى سنعود للتذكير بها بعد قليل ، مايجعلنا نرى بوضوح ان عيب محمد لالهتهم لم يكن الامر الذي اثارهم ضده ، بل ربما كان الذي اثار مخاوفهم وجعلهم يحسون بخطر دعوة محمد هو ما قد ينجم عن هذه الثورة الدينية من انقلاب في المفاهيم والقيم السائدة في مجتمعهم والتي قد يكون من اول نتائجها فقدانهم الزعامة التي يتفيأون ظلالها ، والتي تنبع الى حد بعيد من زعاماتهم الوثنية ووجود الكعبة ، رمز وحدة العرب ومحط انظارهم ، بين ظهرانيهم . فهم سدنة هذه الكعبة والمشرفون على خدمتها وحمايتها ، وهي التي اعطتهم ، بمناسك الحج اليها ، وبالالهة الموجودة داخلها ، ما يتمتعون به من مكانة وسيادة .

وكان اخشى مايخشون ان يأتي هذا الدين الجديد ليهدم هذه المقدسات، وبالتالي ليسلبهم ما لهم من سيادة وامتيازات . والى هذه القدسية الدينية لمدينتهم والى سيادتهم القبلية يعود الفضل في مكانتهم التجارية . فقد كانت اسواق التجارة ، كما ذكرنا ، تعقد في فصول تتلاءم ومواعيد الحج ، وكانت الدول العظمى صاحبة المصالح التجارية في العالم القديم تعرف لمكة وقريش هذه المكانة التجارية ، وتعرف ان الكعبة من أهم اسباب هذه المكانة . فكانت حين تريد التقليل من هذه المكانة توجه حملة ضد الكعبة (حملة ابرهة) لتضرب مركز عظمة قريش وسبب سيادتها . وهكذا فان عيب الالهة وذم الدين الوثني ومقدساته ، كان يمثل بالنسبة لقريش خطرا لا على سيادتها فحسب ، بل على تجارتها ، وبالتالي غناها وازدهارها . وفي هذا على مانعتقد ما يبرر ربط المؤرخين معارضة قريش لمحمد بعيبه الهتها وذم دينها . وتتضح اسباب هذه المعاضة وما تنطوي عليه من خوف كبار رجال المال والاعمال القرشيين على مصالحهم

الاقتصادية ، اذا استعرضنا ما يقوله عروة بن الزبير الراوية الذي لا ترقى الشبهات الى عدالته وضبطه ، في رسالة بعث بها الى عبد الملك بن مروان ، ردا على رسالة من عبد الملك يستفسر فيها منه عن امور تتعلـق بفترة صدر الاسـلام . يقول عروة في رسالته : « اما بعد ، فانه ـ يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ لما دعا قومه لما بعثه الله من الهدى والنور الذي انزل عليه لم يبعدوا منه اول ما دعاهم ، وكـادوا يسمعون له ، حتى **ذكر طواغيتهم . وقدم ناس من الطائف من قريش لهم امـوال** انكروا ذلك عليه ، واشتدوا عليه ، وكرهوا ما قال لهم ، واغروا به من اطاعهم فانصفق عنه عامة الناس ، فتركوه الا من حفظه الله منهم » . (انظر الطبري ، ج٢ ، ص٣٢٨).

فالذين قادوا المعارضة بعد ان ذكر الرسول طواغيت قريش ، هم اناس مـن الطائف من قريش لهم اموال ، وواضح ان خوفهم على أموالهم ، وما قد تؤدي اليـه دعوة محمد بن عبد الله من تغيير في هذا الدين الذي كان سبب ثروتهم وجاههم ، هو الذي حدا بهم الى اشعال نار النقمة ورفع لواء المعارضة ضد الدين الجديد .

وطبيعي الا تكون اوضاع مكة قبل الاسلام مقبولة من جميع الناس فيها ، لذا ما كاد الاسلام يتنزل على قلب الرسول الامين حتى استجاب له ، على ما يحدثنا الزهري، في رواية ينقلها عنه ابن سعد « من شاء من احداث الرجال وضعفاء الناس حتى كثر من آمن به » ، (ابن سعد ، ج ١ ، ص ١٩٩) . والذي يثير الانتباه في رواية الزهري قوله ان اول المستجيبين لدعوة الرسول كانوا فئتين : **احداث الرجال ، وضعفاء الناس .** ولابد ان نشير الى ان فئة احداث الرجـال من المؤمنين الاولين كانت تضم شـبابا ينتسبون الى اشهر واقوى الاسر المكية واكثرها نفوذا .

وخير من يمثل هذه الفئة خالد بن سعيد بن العاص الذي كان ابوه من مشاهير رجال المال والاعمال في مكة (انظر ابن هشام ، القسم الاول ، ص ٢٥٩) ونعيم بـن عبد الله بن اسيد النحام الذي كان سيد بني عدي ، والذي رغم انه كان من اوائل من اسلم فانه لم يترك مكة ويهاجر الى المدينة حتى السنة السادسة من الهجرة ، ولعل السبب في ذلك انه كان في منعة من قومه ولم تستطع قريش أن تناله باذى (انظر ابن هشام ، القسم الاول ، ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩) . ولم يكن خالد ونعيم الوحيدين بين رجالات هذه الفئة ، بل كان هناك عدة اخرون من الشباب الذين يتصل نسبهم باعظم الاسر المكية مركزا ونفوذا ، وكثيرا ماكانت اسرهم في الصف الاول المعارض للرسول ودعوته ، حتى انه حين جرت معركة بدر بين الرسول والمكيين ، كثيرا ما وقف الابن ضد ابيه والاخ ضد اخيه وابن العم ضد ابن عمه . كما تضم فئة (احداث الرجال) هذه رجالا أغلبهم من جيل الشباب ولكنهم من اسر اقل نفوذا من الاسر الاولى . ورغم ذلك فهم

في اسرهم وبطونهم من ذوى المكانة والنفوذ . وغالبيتهم كانوا دون الثلاثين حين اسلموا ماعدا واحد او اثنين كانوا في الخامسة والثلاثين .

أما فئة (ضعفاء الناس) التي يشير اليها الزهري في روايته ، فكانت تضم رجالا لاتربطهم صلات قرابة دموية بقبائل مكة او بطونها ، بل تربطهم صلة الولاء او التحالف ، او كانوا رجالا مستضعفين من قبائل مستضعفة لا يستطيعون حماية انفسهم ، أو لا تستطيع قبائلهم حمايتهم . ومن هذه الفئة عبيد بني تيم الذين اسلموا واعتقهم ابو بكر ، وهو من تيم ، ومفروض على قبيلته حمايته وحماية عبيده . ولكن تيم لم تقدم الحماية لابي بكر نفسه ولا لطلحة بن عبيد الله (وهو من تيم ايضا) حين آذتهما قريش وقيدتهما معا عقابا لهما على اسلامهما . ومن هذه الفئة ايضا الشخصان اللذان يتحدث عنهما ابن سعد ويصف استضعاف قريش لهما وهما : صهيب بن سنان وعمار بن ياسر ، اللذان كانا من احلاف تيم وعبد شمس معا . وفي هذا الموقف من تيم ما يذكرنا بما اوردناه انفا حول ظهور نوع جديد من التضامن في مكة هو التضامن المبني على اساس المصلحة التجارية والذي حل محل التضامن القبلي ، الذي كان عرف الصحراء قبل ان تغدو التجارة والمصلحة الاقتصادية محور حياة الناس .

وتجدر الملاحظة في هذا المجال ان كون الشخص له صفة الحليف لا يعني انه دون غيره من افراد القبيلة ، او لا حقوق له عليها ، وكثيرا ما كان الحليف يتمتع بمركز رفيع في القبيلة تفرضه همته وجده وصفاته عموما .

وهكذا فاننا نستنتج من كل ما تقدم ان الدين الجديد غدا بعد تنزله على قلب الرسول الامين دين الشباب الثائر على اوضاع مجتمعه المستعد للتضحية في سبيل تغيير هذا المجتمع وما يسوده من ظلم اجتماعي واقتصادي . كما ان الذين اعتنقوا هذا الدين لم يكونوا طرداء مجتمعهم او خلعاءه ،أو الفئة قليلة الشأن فيه، كما يحلو للبعض ان يصور ، بل كان غالبية المستجيبين له المستميتين في الدفاع عنه من افراد الاسر المتنفذة الذين لا يمكن اعتبارهم الطبقة الدنيا في المجتمع . واذا اردنا تقويما حقيقيا للغالبية العظمى من الاشخاص الذين تقبلوا دعوة الاسلام الاولى لوجدنا انهم كانوا في الاغلب الاعم من الذين ساءتهم احوال مجتمعهم والذين رأوا الامتيازات التي يعيشها رجالات الطبقة العليا في مدينتهم واستغلالهم لخيرات المجتمع واحتكارها لذواتهم . فحين نادى الاسلام نداء الحق والعدل والتوحيد وجدوا فيه ما يتجاوب وما في انفسهم فتقبلوه وناصروه وتفانوا في سبيله . فهذا الصراع الذي شهده المجتمع المكي بعد نزول الاسلام لم يكن صراعا بين اغنياء وفقراء ، كما يحلو للبعض ان يصوره ، بل كان صراعا بين مستغلين (بالكسر) ، وثائرين على الاستغلال رغم انهم قد لا يكونون من بين

المستغلين (بالفتح) . هذه الملامح العامة التي كانت تسم مجتمع مكة قبل الاسلام ، بما فيها من ظلم اقتصادي وطبقية مبنية على اساس من الثروة والجاه والفرصة المنتهزة ، وما ادى اليه كل ذلك من فقد وافتقاد للعدالة الاقتصادية والاجتماعية ، جعلت الاسلام بما رفعه من شعارات وما وضعه موضع التطبيق من مبادىء ، الموئل والملاذ لكل ثائر على الظلم محب للعدالة كاره للاستغلال . ولم تكن دروب الدعوة الى دين الله مفروشة بالورود ، بل كانت الطريق شاقة والمسيرة عسيرة ، وكان الامتحان قاسيا ، فصمد المؤمنون وصبروا على انواع المكاره والاذى ، مما يعرف الجميع خبره ولا اراني بحاجة للتذكير به . وجاء التطبيق العملي لشعار المساواة ، واخوة المؤمنين وتفاضلهم في التقوى فحسب، في الايام الاولى لقيام دولة الاسلام بعد الهجرة الى المدينة حين اوجد صلوات الله عليه (نظام المؤاخاة) . فقد كانت المشكلة الاولى التي واجهت الرسول بعد الهجرة مشكلة اقتصادية نبعت من واقع اصحابه المهاجرين الذين تركوا اموالهم في مكة وتركوها مملقين لا امل لهم في العودة او استرداد مايملكون . وكان في نفس الوقت يحاول ان يقيم رابطة متينة من الاخوة في الله بين الفئتين الاساسيتين اللتين يتشكل منهما المجتمع الجديد في المدينة ، وهما المهاجرون والانصار . لهذا كله وتوكيدا لوحدة المجتمع الاسلامي الاول اوجد الرسول نظام المؤاخاة . ويقول ابن سعد ان عملية المؤاخاة تمت على مرحلتين : مرحلة آخى فيها الرسول بين المهاجرين بعضهم والبعض الاخر ، ومرحلة اخى فيها بين المهاجرين والانصار .

وكانت المؤاخاة « على الحق والمؤاساة » . وقد نص نظام المؤاخاة هذا على حق التوارث بين المتآخين دون الارحام . (انظر ابن سعد ، ج۱ ص ۲۳۸) وكان المتآخون من المهاجرين والانصار تسعين رجلا ، خمسة واربعين من المهاجرين ، وخمسة واربعين من الانصار ، على ماتزعم احدى الروايات ، او مئة على رواية اخرى ، خمسين من المهاجرين وخمسين من الانصار (ابن سعد ، ج ۱ ، ۲۳۸) وقد جرت هذه العملية قبل غزوة بدر ، وكان مبررها كما يذكر السهيلي في (الروض الانف) ان الرسول اراد ان يذهب عن المسلمين المهاجرين وحشة الغربة ويؤنسهم من مفارقة الاهل والعشيرة، ويشد ازرهم بعضهم ببعض . وينقص تبرير السهيلي هذا ناحية هامة هي الناحية الاقتصادية ، او بشكل اوضح الوضع المادي المتردي الذي كان يعاني منه المهاجرون المسلمون الذين تركوا ديارهم وجاؤوا الى ديار غريبة ليس لهم فيها مايساعد على اقامة اودهم وأود اسرهم ، فجاء نظام المؤاخاة حلا مؤقتا لازمتهم . ودليل صدق ما نذهب اليه في تبرير نظام المؤاخاة ، ان العمل بهذا النظام وما استتبعه من تنظيم لعملية الميراث توقف بعد النصر الذي حققه المسلمون في غزوة بدر ، وما أفاء الله عليهم من غنائم واموال سدت عوز المحتاجين منهم ، فلم يعد له ما يبرره . ويؤكد ابن سعد في طبقاته هذا التفسير (انظر ابن سعد ج ۱ ص ۲۳۸) . كما ان الاية الكريمة التي تقول :

« وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ان الله بكل شيء عليم » . (الانفال ، ٧٥) تنزلت على أثر نصر بدر ، فنسخت ما كان قبلها وانقطعت المؤاخاة في الميراث ، ورجع كل انسان الى نسبه وورثه ذوو رحمه . ويؤكد هذه الحقيقة ابن حبيب في المحبر اذ يقول :

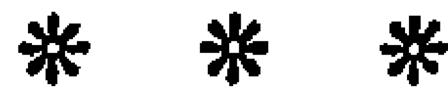
« فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة آخى بين المهاجرين والانصار على الحق والمؤاساة وان يتوارثوا بعد الممات دون ذوي الارحام . . . حتى نزلت سورة الانفال فصارت المواريث للرحم دون المؤاخاة . » (المحبر ، ص ٧١) .

وكان من جملة التدابير التي اتخذها الرسول لتفريج كرب الفقراء من المسلمين الذين هاجروا معه الى المدينة ان أذن للذين لا منازل ولا عشائر لهم ان يناموا في المسجد، وكان يطعم بعضهم معه ، ويطلب من اصحابه القادرين ان يطعموا الاخرين . وقد اطلق على هؤلاء اسم (أهل الصفة) لانهم كانو يأوون الى صفة المسجد. أي المكان المسقوف منه ، وكان أبو ذر الغفاري منهم (انظر ابن سعد ، ج ١ ، ص ٢٥٥ — ٢٥٦) .

وتتوضح صورة جانب من جوانب التغيير الذي طرأ على ما كان يسود مجتمع الجاهلية من سنن وقيم ونظم بعد قيام دولة الاسلام وتنزل ايات التشريع مما يورده لنا ابن حبيب حول قضية توريث المرأة . يقول ابن حبيب في الباب الذي يتحدث فيه عن « السنن التي كانت الجاهلية سنتها فبقى الاسلام بعضها واسقط بعضها » يقول ابن حبيب في (المحبر) :

« وكانوا لا يورثون البنات ولا النساء ولا الصبيان شيئا من الميراث . ولا يورثون الا من حاز الغنيمة وقاتل على ظهور الخيل » . وفي هذا ربط واضح بين حق الارث من جهة وبين القدرة على تحصيل لقمة العيش من جهة اخرى . ولكن الاسلام رفض هذا المبدأ ووضع الامور في مواضعها ، حين عرضت المشكلة للمرة الاولى بعد هجرة الرسول الى المدينة . فقد مات كما يذكر ابن حبيب : « رجل من الانصار قبل نزول اية المواريث ، يقال له أوس بن ثابت من بني خطمة ، وترك اربع بنات الى الدمامة ما هن فاخذ بنو عمه ماله كله . فجاءت امراة أوس الى النبي صلى الله عليه فقالت: يا رسول الله ، توفي اوس بن ثابت ، وترك مالا حسنا ، فجاء ابنا عمه قتادة وعرفطة ، فاخذا المال ولم يعطيا بناته شيئا ، وهن في حجري لا يطعمن ولا يسقين ، وليس في يدي ما يسعهن . فقال صلى الله عليه : ارجعي الى بيتك حتى انظر ما يحدث الله فيهن . فانزل الله عز وجل : للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون . ولم يبين ما هو فارسل صلى الله عليه الى قتادة وعرفطة:

لاتفرقا من المال شيئا ، فانه قد نزل لبنات اوس نصيب ، حتى انظركم هو . ثم نزلت اية الميراث : يوصيكم الله فيأولادكم للذكر مثل حظ الانثيين ... فاعطى رسول الله صلى الله عليه البنات الثلثين ، والمرأة الثمن » . وهذا المثال واحد من امثلة لاتحصى على ما احدثه الاسلام من تغيير في سنن الجاهلية التي لم ترع للعدالة الاقتصادية والاجتماعية حقا . ولم يكن توريث البنات والزوجات الذي حدثنا عنه ابن حبيب الا حلقة من سلسلة طويلة من التشريعات التي الزم الاسلام بها المؤمنين لاقامة مجتمع المساواة والعدالة . وليس المقصود من هذه الدراسة استقصاء جميع الحالات التي حرص فيها الاسلام على اشاعة عدالة السماء بين الذين امنوا به وربطوا مصيرهم بمصيره ، فهذا كما اشرنا في مطلع بحثنا مما يقصر عنه المجال المخصص لنا ، وسنتركه لنتابع الاطار العام للطريق الذي استنه الاسلام لاتباعه في امور دنياهم التي لاتستقيم الا اذا انسجمت مع ما أمر به الدين ، وأراده لمجتمع يأخذ فيه الله بزمام السلطة ويوجه فيه الاحكام .



ويقودنا كل ذلك الى الحديث عن التغيير الذي تم بعد أن قامت دولة الاسلام في ميدان الطبقية الاجتماعية . ومن اجل فهم هذا التغيير لابد ان نذكر ان الأساس الذي قامت عليه الطبقية الاجتماعية قبل الاسلام ، هو نبل الدم وصفاؤه وعراقة المحتد ، الذي فرضته طبيعة الحياة القبلية في مجتمع الجزيرة الصحراوي . كانت القبيلة هي الوحدة الاساسية ، يترأسها شيخ يتمتع الى جانب عراقة النسب بصفات اهمها : الشجاعة والكرم والعلم بامر الحرب وقوة الارادة والصمود امام الشدائد وسداد الرأي والحلم والتجربة وسواها . وهو فوق كل هذا صريح النسب غير دعي ولا مستلحق ولا مشكوك في صفاء دمه ، وقضية صفاء الدم كانت الشرط الاهم في الوصول الى الرئاسة والناس في القبيلة انما يتفاضلون بهذا الصفاء ، فاعلاهم سوية هو الصريح الذي ينحدر من ابوين من نفس القبيلة، ويليه الصريح الذي ينحدر من ام صريحة ولكنها من غير قبيلة الاب، ثم ياتي بعد ذلك الموالي والعبيد . وتقوم الرابطة القبلية بين هؤلاء الافراد على اساس من صلة القرابة الدموية التي تربط الفرد بالجد الاعلى للقبيلة الذي تحدر منه افراد القبيلة عموما . اما التحالف فكان يشكل الاساس الثاني من اسس الروابط القبلية . وضمن هذا الاطار ، يجب ان ننظر الى من كانت القبيلة تطلق عليهم اسم **الحليف** أو **المولى** ، وهم الذين كانوا يشكلون طبقة من المواطنين من الدرجة الثانية في المجتمع القبلي . وقد ادى هذا التنظيم الطبقي الذي يقوم على اساس رابطة الدم الى اهتمام عرب الجاهلية اهتماما فائقا بقضية الانساب ، ونشوء علم مستقل هو علم الانساب ، يتخصص فيه اناس منقطعون له هم النسابون ، الذين نقل عنهم النسابون

المتأخرون كل ماكتبوا من مؤلفات في ميدان علم الانساب . وهكذا فقد جاء الاسلام والناس طبقات ، وطبقاتهم هذه يتحكم فيها امران : صفاء دمهم ونبله وعراقة محتدهم من جهة ، وما لهم من مال وجاه ونفوذ وسلطان من جهة اخرى . وطبيعي ان يرفض الاسلام هذه الحال ويقيم معايير جديدة للنظام الاجتماعي تتفق والمبادىء التي اطلقها والاساس الذي قام عليه .

لقد كان الاساس الذي قام عليه المجتمع الجديد في ظل الاسلام هو المساواة ، والمؤمنون سواء عند الله الا فيما فضل الله به بعضهم على بعض من درجات التقوى . يقول الله تعالى : « يا ايها الناس ، انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم » . ويأتي المفسرون فيفسرون ذلك بقولهم : « فان التقوى تكمل بها النفوس وتتفاضل بها الاشخاص ، فمن اراد شرفا فليلتمسه » (البيضاوي،ج٢،٢٧٦) . وواضح من كل ذلك ان المبدأ الذي اطلقته هذه الاية الكريمة هو ان التمايز بين البشر امر غير مقرر لاي سبب كان . وجاءت احاديث الرسول صلوات الله عليه موضحة ومؤكدة لمبدأ المساواة هذا ، فهو الذي قال في خطبة الوداع : « كلكم لآدم وآدم من تراب » ، وقوله : « الناس سواسية كاسنان المشط » . ويؤكد ماذكرناه من أن التقوى هي المعيار الذي يتفاضل الناس على أساسه قوله صلوات الله عليه : « لا فضل لعربي على اعجمي الا بالتقوى » . ويعتبر طه حسين (الفتنة الكبرى ، ج ١ ص ١٠ وما بعدها) قضية المساواة هذه من اهم ما اثار حفيظة قريش ضد الرسول ، فيقول : « ان الاسلام انما جاء قبل كل شيء بقضيتين اثنتين : اولاهما التوحيد ، وثانيتهما المساواة بين الناس . وكان اغيظ ما غاظ قريشا من النبي ودعوته ، انه كان يدعوها الى هذه المساواة ، ولم يكن يفرق بين السيد والمسود ، ولا بين الحر والعبد ولا بين القوي والضعيف ولا بين الغني والفقير ، وانما كان يدعو الى ان يكون الناس جميعا سواء كأسنان المشط ، لا يمتاز بعضهم عن بعض ، ولا يستعلي بعضهم على بعض . وقد سخطت قريش اشد السخط واعنفه على النبي صلى الله عليه وسلم لما اظهر من ذلك حتى لأكاد اعتقد انه لو قد دعاها الى التوحيد دون أن يعرض للنظام الاقتصادي والاجتماعي ، ودون ان يسوي بين الحر والعبد وبين الغني والفقير ، وبين القوي والضعيف ، اقول : لو قد دعاهم النبي الى التوحيد وحده دون ان يمس نظامهم الاجتماعي والاقتصادي لأجابته كثرتهم في غير مشقة ولا جهد ، أو لأجابه من قريش من اجاب ، وامتنع عليه منها من امتنع دون ان يلقى في ذلك مشقة او عنتا . ومهما يكن من شيء . فقد سخطت قريش على النبي الكريم ، لانه عرض نظامها الاجتماعي ، وفرض عليها نوعا من العدل لا يلائم منافع ساداتها وكبرائها » .

وفي كلام طه حسين هذا تلخيص رائع الكثير من الافكار التي عرضناها حتى الآن .

على أن مبدأ المساواة هذا ، لم يحل دون قيام نظام تفصيلي للطبقات . فقد نشأت مع مرور الزمن وبمناسبة بعض الاحداث مجموعة جديدة من المعايير لتدريج الجماعة الاسلامية وتقسيمها الى طبقات . وكانت المساواة اول الامر هدفا بحد ذاتها وعامة في كل شيء ، فقد سئل الرسول صلوات الله عليه مرة ان يعفو عن سارقة لانها تنتمي الى اسرة نبيلة ، فاجاب بما معناه : « ان ما اهلك من كان قبلكم انهم كانوا اذا اذنب الضعيف فيهم عاقبوه واذا اذنب الشريف تركوه ، والله لو سرقت فاطمة بنت محمد ، لقطعت يدها » .

وجاء اول الخلفاء الراشدين من بعده ، فمضى على سنته في المساواة بين الناس ، اذ تحدثنا المصادر ان ابا بكر حين قسم غنائم الحرب بين المسلمين ، راعى مبدأ المساواة هذا اشد المراعاة فلم يفرق بين المستحقين سواء كان واحدهم كبيرا ام صغيرا ، عبدا ام حرا ، ذكرا ام انثى . (ابو يوسف ، الخراج ، ط بولاق ١٣٠٢ ، ص ٢٤) ولكن حين آلت الخلافة الى عمر بن الخطاب وضعت بعض المعايير الناظمة لهذه المساواة مع الحفاظ على جوهر الفكرة التي تسوي بين الناس بقطع النظر عن فوارق المولد . وكانت وجهة نظر عمر تنطلق من اعتقاد بان الناس لا يمكن ان يكونوا سواسية من حيث الايمان . ولما كان تقسيم الناس الى طبقات حسب عمق اخلاصهم للدين أمرا عسيرا يستحيل ضبطه ، لذا اوجد عمر أساسين جديدين لتقسيم الناس الى طبقات ، وهما : القرابة من الرسول ، والسابقة الى الاسلام . وغدا هذان المبدآن الحد الفاصل في تحديد مركز المؤمن ، وكانت النتيجة العملية التي ترتبت على هذا التقويم الجديد للمؤمنين هي الاختلاف في كمية العطاء السنوي الذي يتقاضاه المؤمن من بيت مال المسلمين . وهكذا قامت ارستقراطية جديدة مبنية على اساس التفاوت في الايمان ، واخذ الناس مراتبهم الاجتماعية على اساسين محددين ، كان المنبع الذي انبثقا منه هو انه لا يمكن ان تكون هناك مساواة بين من حارب لينشر الاسلام ، من حارب ليقضي عليه . وطبيعي ان تلقى تعليمات عمر التي ادت الى اقامة ارستقراطية دينية تحل محل الارستقراطية المبنية على نبل الدم كل اشكال المعارضة من الذين لم يكن ايمانهم عميقا او من الذين تضررت مصالحهم بنتيجة هذا التغيير . ولكن عمر اظهر تصميما لايعرف الهوادة في اصراره على تطبيق هذه المساواة وتفاضل الناس في التقوى ، وحديثه مع جبلة بن الايهم حين ضرب جبلة رجلا من فزارة وهشم له انفه خير مثال على اصرار عمر هذا ، فقد طلب عمر من جبلة ان يرتضي الفزاري والا فانه سيقيده منه . قال جبلة : ماتصنع بي ؟ فاجاب عمر : آمر بهشم أنفك كما فعلت . قال جبلة : وكيف ذاك يا امير المؤمنين ، وهو سوقة وانا ملك . فاجابه عمر : ان الاسلام جمعك واياه فلست تفضلهبشيء الا بالتقى والعافية . وكان ما هو معروف من هرب جبلة الى القسطنطينية وتنصره هو وقومه .

وهكذا فقد حرص الرسول الكريم ، ومن آلت اليهم مقاليد السلطة من بعده من صحابته ، ان يقيموا دولة المساواة والاخوة التي دعا اليها الاسلام اشد الحرص ، وان يحدثوا انقلابا جذريا في النظام الطبقي الذي كان يسود مجتمع الجاهلية . ولكن الامور مالبثت ان اخذت اتجاها جديدا بعد عصر الفتوح ، فرضه الواقع الجديد للدولة التي غدت تضم مئات الآلاف من المسلمين غير العرب، والذين كان لا بد لهم من مكان في هذا المجتمع الجديد . وقد ادى كل ذلك الى نشوء واقع جديد اخذت بوادره تظهر منذ خلافة عثمان وهو بروز العرب كطبقة متميزة على من سواها من المسلمين ، بحجة ان العرب هم قوام الاسلام وحملة رايته ، والذين كان لهم فضل هداية الاخرين . فنشأ بنتيجة ذلك ، ومنذ اخريات العهد الراشدي ، نوعان من العصبية ، بدلا عن العصبية القبلية القديمة :

١ ـ العصبية العربية : ومصدرها ان العرب ، بعد ان كانوا قبائل متفرقة ، غدوا امة متحدة في اللغة والدين والهدف والحكومة .

٢ ـ العصبية الدينية الاسلامية : وتضم جميع المسلمين عربا كانوا ام غير عرب .

ونشأ عن هاتين العصبيتين ان الناس اصبحوا اما مسلمين او غير مسلمين ، والمسلمون اما عربا او غير عرب . ورغم بوادر العصبية العربية التي اشرنا اليها ، فقد ظلت قضية الدين هي أقوى الفواصل التي تفرق بين أفراد المجتمع ، وظل هناك حاجز كبير بين المؤمن وغير المؤمن . ولعل الاساس في هذا انهم كانوا يؤمنون انه ليس هناك ولا يمكن ان تكون هناك مساواة بين مسلم وغير مسلم . فالاسلام في نظر المسلمين خاتم الاديان والطريق المستقيم والحقيقة النهائية والازلية . والمسلم بالتالي وبالضرورة اعلى مقاما من اولئك الذين يتبعون ديانات ادنى قدرا من الاسلام . وبفضل هذا التفوق اصبح للمسلمين حقوقا عليا في الحكم .

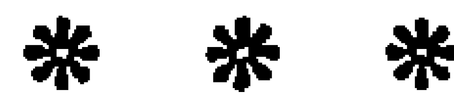
ليس من اهداف هذا البحث ان يتطرق للحديث عن الطبقات الاجتماعية في عصور الاسلام المختلفة ، وان ما اوردناه من حديث عن الانقلاب الذي احدثه الاسلام في اسس النظام الاجتماعي كان يهدف الى تبيان الاسباب التي دعت قريش لمعارضة دعوة محمد بن عبد الله ، وهو موضوع بحثنا . ولكن لابد لنا من ان نذكر ان عصبية النسب التي كانت عماد النظام الاجتماعي قبل الاسلام ، قد تحولت في عصر صدر الاسلام الى وجهة دينية ، فأصبح أشرف الانساب اقربها الى الرسول ، وبالتالي اصبحت قريش بشكل عام ، وهي قبيلة الرسول ، وآل هاشم ، وهم ال بيت الرسول ، في اعلى طبقات

الشرف . ويتبعهم اصحاب السابقة في الاسلام من العرب وسواهم . وبالرغم من أن الاسلام هاجم الاساس الذي بني عليه نظام الطبقات في الجاهلية وهو عراقة النسب، واعتباره النسب شيئا لاغنى فيه عند الله ، وتأكيده المساواة بين المؤمنين جميعا ، فقد نشأت منذ صدر الاسلام ارستقراطية مبنية على اساس شرف الدم ، ولكن شرف الدم هذا مرتبط بصاحب الدين الجديد ، محمد رسول الله .



وبعد ، فهذه بعض من ملامح التغيير الذي احدثته دعوة الاسلام التي اطلقها صادقة مخلصة محمد بن عبد الله ، فارتعدت لها فرائص من كانوا يتربعون على عروش المال والجاه من قرشي مكة ، وكانت لهم السيادة والجاه ، على من سواهم من مواطنيهم ، فقاتلوا قتال المستميت ليطفئوا نور الله ولكن الله بالغ امره .

وليس من شك في ان نصر الاسلام على من وقفوا في وجهه . كان حصيلة ايمان عميق وجهد صادق ، ما لبثت ان اينعت ثماره حضارة ومجدا ونورا عم افاق الارض من مشارقها الى مغاربها .



الدَّوْرُ التَّرْبَوِيُّ لِلْمَسْجِدِ الجَامِعِ بِدِمَشْق مِنَ الفَتْحِ حَتَّى عَامِ (٨٦هـ/٧٠٥م)

د. ملكة أبيض

كلية التربية — جامعة دمشق

اثار هذا الموضوع ملاحظتان تتعلق الاولى بتاريخ بناء مسجد دمشق ، والثانية بتاريخ بدء التعليم فيه .

فالملاحظة الاولى هي اغفال الدكتور حسين مؤنس ذكر جامع دمشق بين المساجد الجامعة الاولى في الاسلام ، في كتابه (المساجد) الذي صدر في كانون الثاني ١٩٨١ في الكويت ضمن سلسلة (عالم المعرفة) فهذه المساجد في رأيه هي : مسجد المدينة، ثم مسجد البصرة عام ١٤هـ / ٦٣٥م ، ومسجد الكوفة عام ١٥ او ١٧هـ/ ٦٣٦ أو ٦٣٨ م ، ومسجد الفسطاط عام ٢١ هـ / ٦٤٢ م ، ومسجد عقبة بن نافع في القيروان ٥٠ــ٥٥ هـ /٦٧٠ــ٦٧٥ م . وقد برر اغفال مسجد دمشق بان المسلمين لم يبنوا مسجدا جامعا في دمشق قبل عهد الوليد وانما انتفعوا خلال تلك الفترة بجزء من المعبد الروماني الذي كان مهجورا في معظم اجزائه ماعدا جزءا صغيرا اتخذه المسيحيون مصلى لهم ، وقد حول المسلمون المعبد الى مسجد باضافة اشياء خشبية كالمنبر المتنقل والمحراب والمقصورة والظلات التي كان المؤذنون يستظلون بها عندما يرفعون الاذان .

والملاحظة الثانية هي توكيد الدكتور احمد رمضان احمد في بحثه الذي قدمه للاحتفال بابن عساكر ، في ذكرى مرور تسعمائة سنة على ولادته ، والذي اقيم في دمشق بين ٢٣ــ٢٥ نيسان ١٩٧٩ ، أن دراسة السبع التي بدأت عام ٨٢هـ/٧٠٢م في خلافة عبد الملك بن مروان تعد بداية التدريس في جامع دمشق ، مستندا في ذلك الى الروايات التي تتحدث عن السبع وتقول ان هذه الدراسة محدثة ، احدثها هشام بن اسماعيل المخزومي في قدمته على عبد الملك .

لذلك انقسم بحثي الى قسمين .

الاول : وضع مسجد دمشق قبل اعادة بنائه وتوسيعه من قبل الوليد بن عبد الملك .

والثاني : وضع التربية او التعليم فيه .

وحين اتحدث عن التربية في هذا المقام انطلق من المفهوم الذي يضعه (جورج دوبي) لتاريخ التربية ، والذي يقول : ان تاريخ التربية يهتم بدراسة جميع الوسائل التي تنقل النماذج الثقافية الى الافراد .

ويعني ذلك ان تاريخ التربية يجب الا يقتصر على دراسة المؤسسات المدرسية ،بل ان عليه ان يعطي الاهمية لجميع الظروف التي يتم فيها الاتصال بين الفرد ومحيطه كالاجتماعات والاسواق والقوافل التجارية والحملات العسكرية وغيرها ، ولجميع أشكال الاتصال كالرواية والوعظ والمذاكرة والمناظرة والرسائل وتسجيل الملاحظات.



بداية الجامع :

يتفق المؤرخون على ان الوليد بن عبد الملك بنى مسجد دمشق عام ٨٦هـ/٧٠٥م على الشكل الذي نراه اليوم . الا انهم يختلفون حول وضع المسجد قبل ذلك التاريخ.

فبعضهم يرى ان المسلمين قاموا بعد الفتح ببناء مسجد خاص بهم الى جانب كنيسة القديس يوحنا ، دون ان يحددوا تاريخ البناء ، وبعضهم يقبل الفكرة القائلة ان المسلمين والمسيحيين اقتسموا مبنى الكنيسة واقاموا يمارسون شعائرهم الدينية في قاعة واحدة مدة سبعين عاما ، والبعض الاخر يقول ن المسلمين استخدموا الكنيسة خلال تلك الفترة دون ان يعنى بالترتيب الذي تم بشأن المسيحيين . ويرجع هذا الاختلاف في الرأي الى ان النصوص التي تتعلق بهذا الوضوع مجزاة وغامضة الى حد ما . وقد توافر لنا منها ما يلي : جاء في (تأريخ مدينة دمشق) لابن عساكر :

١ ـ « كان خالد بن اللجلاج على بناء مسجد دمشق سنة ١٤ هـ ، أي سنة فتح دمشق »(١) يشير هذا النص صراحة الى بناء المسجد وتاريخة .

٢ ـ « سمعت ابا رزعة يقول : مسجد دمشق خطه ابو عبيدة بن الجراح وكذلك

مسجد حمص»(٢) يتضمن هذا النص اشارة الى اقامة المسجد وتاريخها بصورة تقريبية ، فقد توفي أبو عبيدة عام ١٨ هـ / ٦٣٩ م ، وهو يتفق كل الاتفاق مع النص السابق .

٣ ــ « عن عوف بن مالك الاشجعي قال : بينما انا راقد في كنيسة يوحنا وهي يومئذ مسجد يصلى فيها »(٣) . وعوف بن مالك الاشجعي الغطفاني صحابي شهد فتح الشام وسكن دمشق وتوفي سنة ٧٣هـ /٦٩٢م(٤) . وان دل هذا النص على شيء فهو يدل على ان المسلمين اتخذو الكنيسة مصلى لهم في فترة ما لا نعرف مداها، ثم تبدل هذا الوضع فيما بعد .

٤ ــ قال ابو مشجعة بن ربعي الجهني : قدمعمر (ابن الخطاب)الجابية لفرض الخراج (سنة ١٦هـ) وذلك بعد وقعة اليرموك .. ثم ارتحل حتى اتى دمشق فشاطرهم منازلهم وكنائسهم ، وجعل يأخذ الحد القبلي من الكنيسة لمسجد المسلمين لانها انظف واطهر ، وجعل يأخذ هو بطرف الحبل ويأخذ النبطيبطرف الحبل حتى شاطرهم منازلهم(٥) .

يشير هذا النص الى التقسيم ، ولكنه لايذكر صراحة كنيسة القديس يوحنا .

٥ ــ قال تمام (ابن محمد الرازي) : وأنبأنا يحي بن عبد الله ، انبأ عبد الرحيم بن احمد المازني ، انبا احمد ابن المعلى اخبرني أحمد بن ابي العباس انا ضمره عن علي بن ابن حملة قال : كان موضع مسجد دمشق كنيسة من كنائس العجم . فكان المسلمون يصلون في ناحية منها والنصارى في ناحية منها . فلم يزالوا كذلك منذ فتحت حتى ولي الوليد بن عبد الملك فقال لهم : ارى ان نأخذ نصف هذه الكنيسة فنبني لكم كنيسة حيث شئتم من دمشق(٦) .

اثار هذا النص قدرا كبيرا من النقاش في العصر الحديث . لذلك حرصنا على تسجيل سلسلة رواته كاملة . والنقاش لم يتعرض في الحقيقة لموضوع تقسيم الكنيسة فهذه النقطة ثابتةلاجدال فيها ، فقد وردت في النصين السابقين وفي مواضع اخرى من (تاريخ مدينة دمشق)(٧) وانما تناول المعنى الذي يجب ان تفهم به كلمة الكنيسة في هــذه النصــوص .

فهذه الكلمة قد تؤخذ بالمعنى الضيق فتفيد القاعة التي تؤدي فيها شعائر الدين وقد تؤخذ بالمعنى الواسع فتفيد مبنى الكنيسة المسقوف مع الحرم المكشوف الذي يتصل به والذي يعد جزءا من الكنيسة وفي هذه الحال يعني تقسيم الكنيسةتركالقسم

المسقوف للمسيحيين واعطاء المسلمين الحق في بناء مسجدهم في الحرم المكشوف ، كما تتخذ المشاركة معنى الجوار . وفي (تاريخ مدينة دمشق) ذكر لترتيب مشابه يتعلق بقسمة المنازل . يقول ابن عساكر في ترجمة سمرة بن فاتك الاسدي :

« صحابي تولى قسمة المساكن بعد فتح دمشق . كان يترك الرومي في العلوي ويسكن المسلم في السفلي لئلا يضر المسلم بالذمي »(٨) .

والواقع اننا لم نعثر على دليل يؤيد فرضية اداء المسلمين والمسيحين شعائرهم الدينية في القاعة نفسها من كنيسة دمشق ، عدا النص رقم — ٥ — الذي سبق ذكره . فلو كان ذلك قد حدث بالفعل طوال مايقارب ثلاث ارباع القرن لكنا سمعنا عن ترتيبات لمنع احتكاك الطرفين وتشويش احدهما على الاخر ، او لكان الرواة قد نقلوا لنا بعض الحوادث التي كان من الطبيعي ان تحدث في مثل هذه الظروف .

لذلك يعرض الدكتور صفوح خير وضع الجامع والكنيسة في تلك الفترة بصورة توحي بتجاور المؤسستين يقول : « ولما كان عدد المسلمين قليلا في اول الامر فقد اكتفوا بمشاركة المسيحيين بمعبدهم القديم(كنيسة القديس يوحنا المعمدان) واصبح يضم كنيسة للنصارى في الجانب الغربي ، ومسجدا للمسلمين في الجانب الشرقي . وظلت هذه الحال من الجوار بينهما أكثر من نصف قرن الى ان شرع الوليد في بناء الجامع الاموي الكبير »(٩) .

اما الدكتور نيكيتا ايليسيف فهو يقول صراحة ان كلمة الكنيسة الواردة في نص ابن عساكر (الذي نقله عن ابن المعلى) يجب ان تفهم بالمعنى الواسع . وهكذا يكون الفاتحون قد تركوا مبنى الكنيسة المسقوف للمسيحين ، وابتنوا لانفسهم مسجدا صغيرا يستند الى القسم الشرقي من الحائط الجنوبي للسور في الحرم المكشوف . ويدعم قوله هذا بأن الاسقف الغالي (نسبة الى بلاد الغال) اركولف Arculf الذي مر بدمشق حوالي ٥٠هـ/٦٧٠م ، اشار الى وجود معبدين متميزين لكل من المسلمين والمسيحين ويرى أن عبد الملك بن مروان طالب النصارى بالكنيسة عندما توالى الدخول في الاسلام بين نصارى دمشق واصبح المسجد اصغر من ان يسع المسلمين ولكن المفاوضات فشلت في عهده ثم جاء الوليد فأتمها بالصورة المعروفة(١٠) .

وأما الدكتور حسين مؤنس فهو يغفل ذكر جامع دمشق بين المساجد الجامعة الاولى في الاسلام ، وهي حسبما ذكر بعد مسجد المدينة : مسجد البصرة عام ١٤هـ/٦٣٥م ، ومسجد الكوفة عام ١٥ أو ١٧هـ /٦٣٦ او ٦٣٨م ، ومسجد الفسطاط عام ٢١هـ/٦٤٢م ومسجد عقبة بن نافع في القيروان عام ٥٠—٥٥ هـ /٦٧٠ — ٦٧٥م ، مبررا ذلك بأن

المسلمين لم يبنوا مسجدا جامعا في دمشق قبل عهد الوليد بل انتفعوا خلال تلك الفترة بجزء من المعبد الروماني الذي كان مهجورا في معظم اجزائه ماعدا جزءا صغيرا اتخذه المسيحيون مصلى لهم . وقد حول المسلمون المعبد الى مسجد باضافة اشياء خشبية كالمنبر المتنقل.والمحراب والمقصورة والظلات التي كان يستظل بها المؤذنون عندما يرفعون الاذان(١١) .

هذا مجمل الفرضيات التي وضعت لتفسير بداية مسجد دمشق .

ولانستطيع في الحقيقة اتخاذ موقف جازم بشأنها في ضوء معلوماتنا الحالية الااننا نرجح الفرضية القائلة ان العرب المسلمين بنوا مسجدهم الخاص في الموضع الذي يذكره الدكتوران صفوح خير ونيكيتا اليليسيف من حرم الكنيسة على اساس من معرفتنا بوضع العلاقات التي قامت انذاك بين العرب الفاتحين واهل الشام الاصليين وبمكانة المسجد ولاسيما المسجد الجامع في حياة الجماعة الاسلامية .

فالعلاقات بين المسلمين والمسيحيين كانت طيبة بصورة عامة ولاسيما في الفترة التي نتحدث عنها ، مبنية على احترام كل فئة لحقوق الفئة الاخرى وعقائدها ومشاعرها . ولا يتحقق ذلك في ظروف اقتسام الفئتين قاعة واحدة لاداء الوظائف التي كان ينهض بها كل من المسجد والكنيسة انئذ .



وهذا ينقلنا الى النقطة الثانية وهي مكانة المسجد في حياة الجماعات الاسلامية الاولى . فقد كان المسجد يقوم بالنسبة لها مقام عدد كبير من مؤسساتنا الاجتماعية المعاصرة . كان المعبد الذي يؤدي المؤمنون فيه شعائرهم الدينية والمعهد الذي يتعلمون فيه أمور دينهم ودنياهم ، ودار القضاء التي يلجؤون اليها لحل خلافاتهم ، والمنتدى الذي يؤمونه ليتصل بعضهم ببعض ويتداولوا في شؤونهم الادارية والسياسية والعسكرية ويستمعوا الى قرارات امرائهم واخبار فتوحهم .. كان كل ذلك يتطلب مكانا مستقلا تنفرد فيه الجماعة الاسلامية .

ولم يكن وجود الكنيسة (بالمعنى الضيق) الى جانب المسجد ليضر كثيرا بسير هذه الامور نظرا لبنائها المغلق من كل الاطراف ماعدا شيئا من التشويش الناتج عن ارتفاع اصوات النواقيس ، اعتاد عليه المسلمون تدريجيا ، كما اعتاد المسيحيون على سماع الاذان وان كانوا قد تذمروا احيانا كما جاء في خبر معاوية مع ملك الروم (انظر حاشية ٧).

وهناك ميزات اخرى لهذه الفرضية وهي انها توفق بين النصين ١و٢ اللذين يتحدثان عن بناء الجامع ، والنصين ٤و٥ ، اللذين يتحدثان عن تقسيم الكنيسة . ويؤيدها قول البلاذري (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢): « ولما ولي معاويةبن ابي سفيان اراد ان يزيد كنيسة يوحنا في المسجد بدمشق » . وقول ابن الفقيه الهمداني (تبعد٢٩٠هـ/٩٠٣م) « ولما اراد الوليدبن عبد الملك بناءمسجد دمشق دعانصارى دمشق فقال :انا نريد ان نزيد في مسجدنا كنيستكم هذه ونعطيكم موضع كنيسة حيث شئتم(١٢) ولانستبعد مطلقا ان يكون المسلمون قد استخدموا الكنيسة (بالمعنى الضيق ايضا) ريثما اتموا انشاء المسجد وايصال الماء له تماما كما فعلوا في حمص(١٣) .

ولكن ذلك لم يكن ليتطلب اكثر من اشهر او سنة لبساطة المساجد التي بنيست في تلك الفتـرة .

وهكذا يبدو لنا ان دمشق حظيت بمسجدها الجامع خلال السنوات الاولى للفتح وسرعان ما اتخذ والي الشام معاوية بن ابي سفيان قصرا جنوبي الجامع لايفصله عنه الا جدار ترك فيه بابا يمر منه الى مقصورة الجامع ليشارك في النشـاط الديني والتربوي للجماعة ويعرض الامور الهامة عليها . وفي خلافة معاوية كان يوم الجمعة بدمشق يوما مشهودا . كان فضالة بن عبيد الانصاري يقف بالناس ويحدثهم قبل خروج الخليفة ثم يخرج الخليفة فيخطب ويصلي بالناس(١٤). وخلال الخطبة كان معاوية يذكر المسلمين الذين سكنوا اطراف دمشق بواجبهم في الحضور الى المدينة وشهود الصلاة الجامعة : « عن طلحة بن ابي قنان انه سمع معاوية يقول : يا اهل قردا يا اهل جولان ، الجمعة الجمعة فانا انما نحييها لئلا تفوتكم »(١٥) .

وعن مهاجر بن ابي مسلم ان معاوية كان يخطب في جامع دمشق ويقول : « يااهل قردا يااهل زاكية واقاصي الغوطة لاتدعن الجمعة تفوتكم بدمشق »(١٦) . وعنه ايضا ان معاوية كان يصلي يوم الجمعة بنهار طويل وكان اهل القريات من مرج الصفر يشهدونها معه ثم ينصرفون الى اهلهم فيأتونهم قبل غروب الشمس(١٧) وتضيف رواية يونس بن ميسرة بن حلبس الى هذه الاماكن البثنية(١٨) كما كان معاوية يحض المسلمين على التعلم ويروي لهم في خطبه على منبر جامع دمشق الحديث الشريف الذي يقول «ايها الناس انما العلم بالتعلم والفقه بالتفقه ومن يرد الله به خيرا يفقهه في الدين انما يخشى الله من عباده العلماء » (١٩) ويندب المعلمين لتعليم الناس القرآن وامور الدين في الجامع ، وكان يعلن من على المنبر القرارات الهامة ويطلع الجماعة على الانباء التي ترده من مختلف ارجاء الدولة (٢٠).

وقد استمرت هذه التقاليد في عهد عبد الملك بن مروان .

الدور التربوي للمسجد الجـامع في تلـك الفتـرة

تجلى الاهتمام بالتربية لدى تنظيم جيش الفتح نفسه.فعلى طريق الشام كان جيش اليرموك يضم قاضيا هو ابو الدرداء وقاصا هو ابو الدرداء نفسه في رواية وابو سفيـان ابن حرب في رواية وقارئا هو المقداد بن الاسود(٢١) ، كما كان يضم الفا من اصحاب الرسول (ص) بينهم مئة بدري(٢٢) .

وعندما استقر الفاتحون في الشام وولي يزيد بن ابي سفيان جند دمشق ، كتب الى الخليفة عمـر طالبا ارسال معلمين يعلمون اهـل الشام القرآن ويفقهونهم . فأرسل الخليفة ثلاثة من الصحابة الذين حفظوا القرآن على عهد الرسول (ص)وهم: معاذ بن جبل وعبادةبن الصامت وابو الدرداء واوصاهم ان يبدأوا بحمص فان رضـوا عنها فليخرج واحد الى دمشق واخر الى فلسطين . فأقام عبادة بحمص وخرج ابـو الدرداء الى دمشق ومعاذ الى فلسطين . ومات معاذ عام طاعون عمواس (١٨هـ/٦٣٩م) فصار عبادة بعدها الى فلسطين ومات بها عام (٣٤ هـ/٦٥٤م) ،ولم يزل ابو الدرداء بدمشق حتى مات عام (٣٢هـ/٦٥٣م) . وكان المكان الطبيعي لتعليمه مسجد دمشق . لذلك كانت عبارتـا مشيخة الجند ومشيخة المسجـد مترادفتين في تلك الفترة كما سنرى .

كان تعليم ابي الدرداء يتضمن على الصعيد الرسمي الاقراء والقصص فهو قارىء الجند وقاصهم بالاضافة الى كونه قاضيهم . ولكن الموضوعات التي تناولها تجاوزت ذلك الى الحديث والفقه والحكم والزهد . وقد تميز في جميع هذه الميادين بحيـث اصبح الاساتذة والطلبة يأتون اليه من مختلف الاقطار الاسلامية .وابرز مثال على كفاءته ذلك التنظيم الذي ابتـكره لتعليـم القـرآن لاكبر عدد من النـاس بأقصر وقت . قال ابو عبيد الله مسلـم بن مشـكم « قال لي ابـو الدرداء : اعدد من يقرأ عندنا يعني في مجلسنا هذا. فعددت الفا وستمائة ونيفا . فكانوا يقرأون ويتسابقون عشرة عشرة لكل عشرة منهم مقريء . وكان ابو الدرداء قائما يستفتونه في حروف القران يعني المقرئين ، فاذا احكم الرجل من العشرة القراءة تحول الى ابي الدرداء . وكان ابو الدرداء يبتدي في كل غداة اذا انفتل من الصلاة فيقرأ جزءا من القران واصحابه محدقون به يستمعون الفاظه ، فاذا فرغ من قراءته قام كل رجل منهم الى موضعه وجلس على العشرة الذين اضيفوا اليه . وكان ابن عامر (عبد الله بن عامر اليحصبي مقدما فيهم »(٢٣) . وقال يزيد بن ابي مالك « أن ابا الدرداء هو الذي سن هذا الحلق يقرأ فيها »(٢٤) وبعد الفراغ من الاقراء كان ابو الدرداء يجلس في احدى زوايا المسجد يحدث الناس ويفتيهم (٢٥)

ـ قال كثير بن قيس : كنت جالسا مع ابي الدرداء في مسجد دمشق فأتاه رجل من اهل المدينة لسماع حديث يحدث به ابو الدرداء عن الرسول (ص) فقال له ابـــو الدرداء : ماجئت لحاجة ؟ ولاجئت لتجارة ؟ وماجئت الا لسماع الحديث ؟ قال الرجل نعم فحدثه ابو الدرداء حديث (العلم) الذي اشتهر به(٢٦) . جاء في هذا الحديث: «من خرج يريد علما يتعلمه فتح له باب الى الجنة .. وللعالم من الفضل على العابد كفضل القمر ليلة البدر على اصغر كوكب في السماء . ان العلماء ورثة الانبياء ... ان الانبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما ولكنهم ورثوا العلم فمن اخذه اخذ بحظ وافر .. موت العالم مصيبة لاتجبر وثلمة لا تسد .. موت قبيلة ايسر من موت عالم »(٢٧) .

ـ دخل رجل مسجد دمشق فقال : اللهم آنس وحشتي وارحم غربتي وارزقني جليسا صالحا فسمعه ابو الدرداء فقال : لئن كنت صادقا لانا اسعد بما قلت منك وحدثـــه .(٢٨)

ـ قدم علقمة بن قيس النخعي وهو كوفي من اصحاب عبد الله بن مسعود دمشق والتقى بأبي الدرداء في مسجدها وتذاكرا بقراءة القران(٢٩) .

اما فيما يتعلق بالقصص فقد كان ابو الدرداء يقف في المسجـــد في اعلى الدرج الذي يقود الى مسجد المسلمين ومصلاهم ويقص . وقد اثر عنه في قصصه العديد من الحكم نذكر منها « من فقه الرجل رفقه في معيشته ومن فقه الرجل ان يعلم امزداد هو ام منتقص ، ومن فقه الرجل أن يتعاهد مابه وماتغير منه ، ومن فقه الرجل انتسره حسنته وتسوءه سيئته» (٣٠) .

وقبل ان تأتي ابا الدرداء الوفاة (٣٢هـ/٦٥٣م) اوصى معاوية بن ابي سفيان بتعيين فضالة بن عبيد الانصـــاري (صحابي ت٥٩هـ/٦٧٩ م) في المنصبين اللذين يشغلهما بعد وفاته وهما الاقراء والقصص فعمل معاوية بذلك(٣١) .

وفي خلافة معاوية اقترن لقب (قارىء الجند) باسم عطية ابن قيس الكلابي (٧هـ/٦٢٩ م ـ ١١٠ هـ/٧٢٩م) او (١٢١هـ/٧٣٩م) وكان الناس يصلحون مصاحفهم على قراءته وهو جالس على درج الكنيسة من مسجد دمشق قبل ان تهدم ، وكان يدخل مع مشيخة المسجد (وقيل الجند) على معاوية (٣٢) .

هذا ما كان من شأن التربية النظامية التي ندب لها اشخاص اكفياء يقومون بها . ولكن مسجد دمشق شهد منذ بداية انشائه بالإضافة الى ذلك الوانا من النشاط

التربوي قام بها افراد من الحكام والرعية من تلقاء انفسهم ، فقد قام معاوية بن ابي سفيان احيانا بدور المعلم فيما يتعلق بتعليم العبادات :

— يروي يونس بن ميسرة بن حلبس « ان معاوية توضأ للناس وضوء رسول الله ثلاثا ثلاثا »(٣٣).

— ويروى وراد ابو الدر كاتب المغيرة بن شعبة ومولاه ان معاوية كتب الى المغيرة ان اكتب الي بشيء سمعته من رسول الله . فكتب اليه المغيرة ان الرسول (ص) كان يقول بعد انصرافه من الصلاة (دعاء) ، وانه حين وفد على معاوية بعد ذلك سمعه على المنبر (منبر مسجد دمشق) يأمر الناس بذلك القول ويعلمهموه(٣٤) .

وهناك شواهد تبين استفادة طلبة العلم من شيوخ دمشق ومن الوافدين عليها في جامع دمشق نفسه :

— فقد كان يونس بن ميسرة بن حلبس يقرىء بجامع دمشق وهو تابعي ثقة قرأ على واثلة بن الاسقع وابي الدرداء وام الدرداء (٣٥) . ومعنى ذلك ان واثلة وام الدرداء اقرأ بجامع دمشق ايضا .

— وسمع ابو عامر الرحبي واثلة بن الاسقع بجامع دمشق وكان واثلة في حلقة يحدث القوم (٣٦) .

— ورأى معروف الخياط واثلة بن الاسقع يملي على الناس الاحاديث بدمشق وهم يكتبونها بين يديه (٣٧) .

— وقال شيخ يدعى ابو عمر : عهدت المسجد الجامع يعني بدمشق وان عند كل عمود شيخا وعليه الناس يكتبون العلم (٣٨) .

— ورأى الحارث بن معاوية الكندي بلالا مؤذن الرسول في مسجد دمشق فسأله سؤالا عن الوضوء(٣٩) .

— والتقى معدان بن طلحة اليعمري بأبي الدرداء وثوبان في مسجد دمشق (فسمع منهما) وحدث عنهما(٤٠) . وقدم ابو كبشه السلولي الى دمشق ودخل مسجدها فقام اليه مكحول وابن ابي زكريا وابو مخرمة فحدثهم عن عبد الله بن عمرو ابن العاص (٤١) .

— وكان بعضهم قعودا في مسجد دمشق فمر بهم بعض خدام الرسول (ابو سلمى

حريث) فقالوا : قوموا حتى نسأله عن حديث لم يتداوله الرجال بعد فسألوه فروى لهم حديثا (٤٢) .

ـ واقبل ابو هريرة الى دمشق . . . فجلس في المسجد في غربيه فتذاكر جماعة من اهل المجلس الصلاة الوسطى فاختلفوا فذكر لهم ابو هريرة ان النقاش نفسه دار في عهد الرسول (ص) فدخل احد الرجال على الرسول وسأله فأجابه انها صلاة العصر (٤٣) .

ـ وقدم عبد الله بن مسعود الى دمشق فدخل مسجدها ووقف على درج الكنيسة وراح يحدث الناس (٤٤) .

ـ وكان سهل بن الخنظلية (صحابي سكن دمشق) متواحدا لايخالط الناس فكان تلاميذ ابي الدرداء يأتون اليه في مسجد دمشق ويلتمسه ابو الدرداء ليحدثهم قائلا : كلمة تنفعنا ولا تضرك فيحدثهم (٤٥) .

وهناك امثلة اخرى عن هذا النشاط يحفل بها تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر. ومما يلفت النظر ، اننا لانعثر خلال هذه الفترة واثناء القرون الاسلامية الاولى على اية اشارة لتعليم الصبيان في مسجد دمشق . ويرجع ذلك على الارجح لعدم رغبة اوائل علماء الشام في ادخال الاولاد الى المساجد . فقد روي عن ابي الدرداءوواثلةبن الاسقع وابي امامة الباهلي انهمسمعوا رسول الله يقول:«جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم وسل سيوفكم واقامة حدودكم ورفع اصواتكم وخصوماتكم ،واجمروها في الجمع واجعلو على ابوابها المطاهر»(٤٦) . الا اننا نعثر على شاهد لمساهمة احدى النساء في التعليم فقد كانت هجيمة بنت حيي الحميرية (ام الدرداء) وهي فتاة يتيمة نشأت في حجر ابي الدرداء تختلف معه في برنس تصلي في صفوف الرجال وتجلس في جلق القراء تعلم القرآن . وحين بلغت مبلغ النساء تزوجها ابو الدرداء وقال لها : الحقي بصفوف النساء (٤٧) .

وفي عهد عبد الملك بن مروان بدات دراسة القرآن التي تسمى (السبع) . أحدث هذه الدراسة في دمشق هشام بن اسماعيل المخزومي (والي عبد الملك على المدينة) في قدمته على عبد الملك عام ٨٢ هـ/٧٠٢ م ، فقد حجبه عبد الملك فجلس بعد الصبح في مسجد دمشق .والخليفة في الخضراء . فاخبر ان الخليفة يقرأ القرآن فقرأ هشام بن اسماعيل ، فسمعه عبد الملك فجعل يقرأ بقراءته فقرأ بقراءته مولى لهشام يسمى رافع فاستحسن ذلك من يليه من اهل المسجد فقرأوا بقراءته (٤٨) .

وقد ساهم في هذه القراءة عدد كبير من اعلام ذلك العصر يذكر ابن عساكر منهم

ممن يوصف بالعلم والرئاسة اسماعيل بن عبيد الله بن ابي المهاجر وابناه ، ومن القضاةعائذ الله بن عبد الله ابا ادريس الخولاني ونمير بن اوس الاشعري ويزيد بن ابي مالك الهمداني وسالم بن عبد الله المحاربي ومحمد بن عبد الله بن لبيد الاسدي ، ومن الفقهاء والمحدثين والقراء مكحول وسليمان بن موسى وعبد الله بن العلاء بن زبر الربعي ويحي بن الحارث الذماري وعبد الرحمن بن عامر اليحصبي وسواهم(٤٩). كما استمرت هذه الدراسة طوال قرون عدة في نفس الموضع من الجهة الشرقية من مقصورة الصحابة، وفي نفس الوقت كل يوم اثر صلاة الصبح ، وكانت ماتزال مستمرة اثناء زيارة ابن جبير (ت٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) وابن بطوطة (ت٧٧٠ هـ / ١٣٦٨ – ١٣٦٩ م) لدمشق فقد ذكرها كل منهما في رحلته (٥٠) .

ان اطلاق كلمة الدراسة على هذه القراءة اوقع الباحثين الذين لم يطلعوا على مخطوط تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر في الخطأ فيما يتعلق ببداية التعليم في مسجد دمشق ، واخص بالذكر الدكتور احمد رمضان احمد الذي اكد في مقالة (المسجد الاموي بدمشق بين الحقيقة والاسطورة) ان دراسة السبع تعد بداية التدريس في مسجد دمشق(٥١) . وقد راينا ان التربية النظامية وغير النظامية بدات في مسجد دمشق منذ انشائه وان دراسة السبع ليست الا لونا من ألوان النشاط الديني والتربوي التي حفل بها هذا المسجد .

توزعت التربية النظامية في عهد عبد الملك بين عدد من المعلمين ، فقد قام بتعليم القرآن عطية بن قيس الكلابي واسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر ،(٥٢) وكلف ابو ادريس الخولاني القضاء والقصص في البداية ثم عزل عن القصص وابقي في القضاء فقال عزلتموني عن رغبتي ، وتركتموني في رهبتي(٥٣).

وقد توسع ابو ادريس الخولاني في مواد تدريسه فضم اليه الحديث والمغازي والفقه :

– عن يحي بن سعيد والوليد بن سليمان بن ابي السايب انهما رأيا اباادريس الخولاني يجلس بالعشيات (بعد العصر بهنيهة) على درج مسجد دمشق الذي يطلع منه الناس الى مسجد المسلمين ومصلاهم مقبل بوجهه على القبلة والناس تحته جلوس يسألونه فيقص عليهم ويحدثهم بالاحاديث ويستفتونه فيفتيهم (٥٤) .

– وروى خالد بن ابي مالك عن ابيه قال « كنا نجلس الى ابي ادريس الخولاني فيحدثنا في شيء من العلم لايقطعه بغيره حتى يقوم او تقام الصلاة حفظا لما سمع . فحدثنا يوما عن بعض مغازي الرسول حتى استوعب الغزاة فقال له رجل من ناحية

المسجد : أحضرت هذه الغزاة ؟ فقال : لا . فقال الرجل انا حضرتها مع الرسول (ص) ولأنت احفظ لها مني» (٥٥) .

ويبدو ان ابا ادريس ربط ، على نحو ما بين القصص ودراسة القرآن المسماة بالسبع كما يتبين من النصوص الآتية :

ـ عن مكحول قال : كانت حلقة من اصحاب النبي يدرسون جميعا فاذا بلغوا آية سجدة ، بعثوا الى ابي ادريس الخولاني فيقرؤها ثم يسجد فيسجد أهل المدراس.

ـ وعن يزيد بن عبيدة انه رأى ابا ادريس في زمان عبد الملك وان حلق المسجد بدمشق يقرأون القرآن يدرسون جميعا وابو ادريس جالس الى بعض العمد . فكلما مرت حلقة بآية سجدة بعثوا اليه يقرأ حتى اذا فرغوا من قراءتهم قام ابو ادريس يقص ثم قدموا القصص بعد ذلك واخروا القراءة . (٥٦) .

وهناك عدد كبير من الاشخاص ساهموا في النشاط التربوي الدائر آنذاك في مسجد دمشق بالاضافة الى عطية بن قيس وابي ادريس الخولاني واسماعيل بن عبيد الله بن ابي المهاجر نذكر منهم الخليفة عبد الملك بن مروان نفسه وهو من الفقهاء والمحدثين المتميزين . كان يحدث ويخطب على المنبر بجامع دمشق (٥٧) .

ـ بسر بن عبيد الله الحضرمي وهو تابعي من تلامذة واثلة بن الاسقع وابي ادريس الخولاني رحل وسمع الكثير وغدا من كبار اهل المسجد . حدث بجامع دمشق وسمع منه كثيرون (٥٨) .

ـ غضيف بن الحارث ابا اسماء السكوني . ويبدو ان عبد الملك كلفه القصص بعد اقصاء ابي ادريس عنه وسأله ان يقوم به بعد الصبح والظهر فرفض لانفي ذلك احداث بدعة واكتفى بالقصص يوم الجمعة . وكان اقصى المسجديسمع موعظته(٥٩).

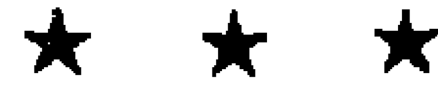
ـ عبد الرحمن بن عسيلة الصنابحي الحميري سمع سبعة من الصحابة منهم عبادة بن الصامت ومعاذ بن جبل . كان ثقة قليل الحديث (يحدث الواحد والاثنين فاذا نظر الى الثالث قال :« لا سبيل الى الحديث سائر اليوم » ومن تلاميذه مكحول (٦٠) .

ـ قبيصة بن ذؤيب الخزاعي وهو صحابي من الفقهاء الوجوه وكان على الخاتم في ايام عبد الملك . يروي محمد بن مسلم ابن شهاب الزهري انه عندما قدم دمشق وضع رحله ثم غدا الى المسجد واعتمد الى اعظم مجلس رآه في المسجد واكثر اهلا وكان هذا مجلس قبيصة بن ذؤيب فجاء رسول من عبد الملك الى المجلس يطلب

شخصا يعرف حديثا سمعه الخليفة من سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب في امهات الاولاد فذكر ابن شهاب للحاضرين انه يعرف الحديث فأخذه قبيصة معه وادخله على عبد الملك ليروي له الحديث . وكان هذا أول لقاء بين محدث الحجاز والخليفة (٦١) .

ـ المهاجر بن ابي المهاجر كان حافظا للقرآن وكان رأس المسجد الجامع بدمشق في زمن عبد الملك وبعده عبد الله بن عامر اليحصبي(٦٢) .

ـ مكحول بن كسرى فقيه اهل دمشق واحد اربعة فقهاء عصره وهم : سعيد بن المسيب بالمدينة وعامر الشعبي بالكوفة والحسن بن ابي الحسن بالبصرة ومكحول بالشام . كان له مجلس في جامع دمشق يعلم فيه الفقه والحديث والقرآن ويفتي الناس . وقد تخرج على يديه العديد من فقهاء دمشق . ومن حضر مجلسه يزيد بن عبد الملك بن مروان وهو فتى (٧١ هـ / ٦٩٠ م ـ ١٠٥ هـ / ٧٢٤ م) فلما رآه اصحاب مكحول هموا بالتوسعة له فقال لهم مكحول : مكانكم دعوه يجلس حيث ادرك يتعلم التواضع .



هذه هي المعلومات التي توافرت لي حاليا عن بداية مسجد دمشق والدور التربوي الذي اداه في تلك الفترة . وهي على قلتها ، تبين بوضوح ان هذا المسجد كان مسجدا جامعا بكل معنى الكلمة منذ بداية الفتح حتى اتخاذ الوليد بن عبد الملك قراره الحاسم باعادة بناء الجامع وتوسيعه لتلبية حاجات الجماعة المتزايدة ، وانه ادى دورا تربويا بارزا بالنسبة لاهل دمشق والشام والجماعة الاسلامية عامة .

أفلا يستحق ان يدرج ضمن المساجد الجامعة الاولى في الاسلام ؟

المراجـــع :

١ ـ ابن عساكر (علي بن الحسن) ، **تاريخ مدينةدمشق**، كتبه بين ٥٢٨هـ/١١٣٤م و ٥٥٩ هـ / ١١٦٤ م . واستمر يعمل فيه اضافة وتصحيحا حتى نهاية حياته ٥٧١ هـ / ١١٧٦ م . وهو في ١٩ مجلدة كبيرة . استعنت منه بما يلي :

ـ النسخة المخطوطة التي وقفها اسعد باشا العظم على مدرسة والده بالخياطين بدمشق وهي النسخة المقصودة في الحواشي حين لاترد اشارة الى ما يخالف ذلـــك .

ـ نسخة باريس بالنسبة للمجلدة الاخيرة من المخطوط . وهي تشكل في رايي ذيلا له كتبه ابن المؤلف القاسم وفيها ترجمات اضافية اشرت اليهــا في الحواشي بكلمة (باريس) .

ـ القسم المطبوع الذي حققه الاستاذ صلاح الدين المنجد وصدر عن المجمـــع العلمي العربي بدمشق عامي (١٩٥١ ـ ١٩٥٤) اشرت اليهما في الحواشــي بـ (منجد ١) و (منجد ٢) .

ـ القسم المطبوع الذي حققه الاستاذ محمد احمد دهمان وصدر عن المجمـــع العلمي العربي بدمشق عام ١٩٦٣ اشرت اليه بـ (دهمان) .

٢ ـ ابو زرعة الدمشقي(عبد الرحمن بن عمرو النصري)، **تاريخ ابي زرعة**، تحقيق شكر الله بن نعمة الله القوجاني مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشـــــق ١٩٨٠ . جزءان .

٣ ـ ابيض (ملكة) ، **الثقافة والتربية العربية الاسلامية في الشام والجزيرة خلال القرون الثلاثة الاولى للهجرة** ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٨٠ .

٤ ـ احمد (احمد رمضان) ، المسجد الاموي بدمشق بين الحقيقة والاسطورة كما جاء في تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر ، الكلمات والبحوث والقصائد الملقاة في الاحتفال بمؤرخ دمشق ابن عساكر في ذكرى مرور تسعمائة سنة على ولادته . دمشـــق ٢٦ ـ ١٣٩٩/٥/٢٨ هـ / ٢٣ ـ ١٩٧٩/٤/٢٥ م ، وزارة التعليم العالي ج.ع.س .

٥ ـ خير (صفوح) ، دمشق، وزارة الثقافة والارشاد القومي ج.ع.س ١٩٦٩ .

٦ ـ الطبري (محمد بن جرير) ، **تاريخ الرسل والملوك** ، القاهرة ، دار المعارف ١٩٦٠ – ١٩٦١ – ١٠ اجزاء .

٧ ـ المنجد (صلاح الدين) ،**مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالين المسلمين**، بيروت دار الكتاب الجديد ١٩٦٧ .

٨ ـ مؤنس (حسين) ،**المساجد** ، الكويت ، ١٩٨١ ، سلسلة عالم المعرفة .

الحواشي :

(١) ابن عساكر ،٥، ق ١٨٤ (١) ترجمة خالد بن اللجلاج .

(٢) المصدر نفسه ، منجد(ج٢) ص ١٤ .

(٣) المصدر نفسه ج ١٦ (٢) ق ١٢١ (١) ترجمة معاوية بن أبي سفيان .

(٤) المصدر نفسه ، ج١٣ ، ق ٢٥٩ (١) ترجمة عوف بن مالك الاشجعي .

(٥) المصدر نفسه ، ج١٩ ، ق ٢٥٣ /٢/ ترجمة :ابو مشجعة بن ربعي الجهني .

(٦) المصدر نفسه ، منجد (ج٢) ص ٢١ .

(٧) المصدر نفسه ،ج ١٣ ق ٢٩٣ (٢) ترجمة :عياض بن غنم الفهري جاء فيها : صحابي بعثه ابو عبيدة بن الجراح لفتح الجزيرة .. ففتحها سنة ١٨هـ وكتب كتابا لاهلها وقسم المنازل والكنائس علىغرار ما تم في دمشق .

ـ المصدر نفسه ج ١٩ ق ٣٠٩ (٢) ترجمة : رجل غساني من دمشق جاء فيها : بعثه معاوية الى ملك الروم وطلب منه ان يؤذن بصوت مرتفعفي مجلس الملك احتجاجا على ارتفاع اصواتنواقيس الكنائس في الليل .. فاجاز الملك الشـاب الغساني واعاده الى بلـده .. ذلك انه يعرف ان النصارى بالشام لهم انصاف منازلالمسلمينوانصاف مساجدهم وقد عاهدهم على ذلك عمر بن الخطاب ، فلم يستطع معاوية نقضه وخشي ان هو قتل الشاب الغساني ان يتخذ معاوية من ذلك ذريعة للقضاء على النصارى ومكاسبهم .

(٨) المصدر نفسه ج ٧ ق ٢٢ (٢) ترجمة : سمرة بن فاتك الاسدي .

(٩) صفوح خير دمشق وزارة الثقافة والارشاد القومي جعس ١٩٦٩ ، ص ١٥١.

(١٠) Nikita Elsséeff, Dimashk E I2 T II, pp. 286 - 299.

(١١) الدكتور حسين مؤنس ، المساجد ، الكويت١٩٨١ ، سلسلة عالم المعرفة ، ص ٦٦ ـ ٦٧ ـ ٨٠ ـ ٨٤ ـ ٩٣ ـ ١٤٨ .

(١٢) صلاح الدين المنجد ، مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالين المسلمين بيروت دار الكتاب الجديد ١٩٦٧ ـ ص ٤٤ ، ٢٦ .

(١٣) ابن عساكر ج ١٩ ق ١٩٠ (٢) ترجمة : ابو ثعلبة الخشني جاء فيها : قال حميد بن عبد الله المزني ان اول صلاة للمسلمين بحمص كانت في كنيسة (كنا) صلى بهم ابو ثعلبة الخشني .

(١٤ و ١٥) المصدر نفسه ١٩ ا(باريس ق٢٢٥) (٢)ترجمة ابو قنان .

(١٦) المصدر نفسه ج١٧ ق ٢١٧ (٢). ترجمة : المهاجر بن ابي مسلم .

(١٨) المصدر نفسه منجد ج١ ص ٣٥٣ . قردا : قرية فيالغوطة.جولان : جبل يبعد حوالي٥٠ كم جنوبي دمشق . زاكية : قرية في حوران . مرج الصفر : سهل شرقي دمشق يصب فيــه نهر بردى يبعد حوالي ٤٠ كم عن دمشق . البثنية : قرية بين دمشق واذرعات .

(١٩) المصدر نفسه ج٩ ق ١٤٦ (١) ترجمة عبد اللهبن عامر اليحصبي .

(٢٠) المصدر نفسه ج ١٩ (باريس) ق ٧١١ (٢) ترجمة ابو العيال بن ابي عنبر الهــــذلي جاءفيها: من شعر هذيل وفصحائها خرج الى غزو الروم مع يزيد بن معاوية وكتب الى معاوية قصيدة في المسلمين الذين استشهدوا في تلك الفترة قرات على الناس فبكى معاوية وبكى الناس جميعا .

(٢١) المصدر نفسه ج٨ ق ٧٨ (٢) ترجمة : صخربن حرب ــ الطبري ج٣ ، ٣٩٧ .

(٢٢) ابن عساكر منجد (ج١) ص ٥٢٩ .

(٢٣) المصدر نفسه منجد (ج١) ص ٣١٥ .

(٢٤) المصدر نفسه ج١٣ ق ٢٦٤ (١) ترجمة : خويمر بن يزأد ابو الدرداء .

(٢٥) المصدر نفسه ج١٠ ق ٥١١ (٢) ترجمة : عبدالواحد الدمشقي .

(٢٦) المصدر نفسه ج١٤ ق ٥١٦ (١) ترجمة : كثير بن قيس .

(٢٧) المصدر نفسه ج١١ ق ٢٤ (٢) ترجمة عثمان بن ايمن الدمشقي .

(٢٨) المصدر نفسه ج١٩ ق ٣٠٦ (١) ترجمة : رجلمن المدينة .

(٢٩) المصدر نفسهج١١ ق ٢٥١ (٢) ترجمة : علقمةبن قيس النخعي .

(٣٠) المصدر نفسه ج١٣ ق ٢٦٤ (١) ترجمة : عويمر بن زيد ابو الدرداء .

(٣١) المصدر نفسه ج١٤ ق٣٩٢ (١) ترجمة : فضالة بن عبيد الانصاري .

(٣٢) المصدر نفسه ج١١ ق ٢١٣ (٢) ترجمة : عطيةبن قيس الكلابي .

(٣٣) المصدر نفسه ج١٨ (باريس) ق ٧٠ (٢) ترجمة يونس بن ميسرة .

(٣٤ و ٣٦) المصدر نفسه ج١٨ (باريس) ق ٧٠ (٢)ترجمة يونس بن ميسرة .

(٣٥) المصدر نفسه ج١٧ ق ٤٢٢ (٢) ترجمة ورادابو الذر .

(٣٧) المصدر نفسه ج١٩ ق ٢٢٣ (٢) ترجمة ابو عامر الرحبي .

(٣٨) المصدر نفسه ج١٧ ق ٤٠٩ (١) ترجمة واثلة بن الاسقــع .

(٣٩) المصدر نفسه (منجد) ، ج١،ص١٥ ٣.

(٤٠) المصدر نفسه ج٤ ق ٤٨ (١) ترجمة : الحارث بن معاوية .

(٤١) المصدر نفسه ج١٧ ق ١٧٢ (٢) ترجمة : معدان بن طلحة .

(٤٢) المصدر نفسه ج١٩ (باريس) ق ٢٢٦ (١) ترجمة : ابو كبشة السلولي .

ـ المصدر نفسه ج١٩ ق٢١٢ (١) ترجمة ابو سلمى راعي النبي ويقال ان اسمه حريث .

(٤٣) المصدر نفسه ج١٤ ق ٥٦٠ (٢) ترجمة : كهيل بن حرملة النميري .

(٤٤) المصدر نفسه ج٨ ق ٢٧٨ (٢) ترجمة : العباس بن سالم اللخمي .

(٤٥) المصدر نفسه ج٧ (ابن منظور) دون ترقيم ترجمة : سهل بن الحنظلية .

(٤٦) المصدر نفسه ج١٣ ق ٢٨٦ (٢) ترجمة : العلاء بن كثير روى الحديث عن مكحول عن الصحابة الثلاثة .

(٤٧) المصدر نفسه ج١٩ ق ٤٠٨ (١) ترجمة : هجيمة بنت حيي ام الدرداء .

(٤٨) المصدر نفسه (منجد) (٢) ص ٤٩ .

(٤٩) المصدر نفسه منجد (٢) ص ٥٠ ــ ٥٢ .

(٥٠) صلاح الدين المنجد ، مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالين المسلمين ص ١٤٤ و ٢٥٧ .

(٥١) الكلمات والبحوث والقصائد الملقاة في الاحتفال بمؤرخ دمشق ابن عساكر في ذكرى مرور تسعمائة سنة على ولادته (٧٦ ــ ٢٨/٥/ ١٣٩٩ هـ /٢٣ ــ ١٩٧٩/٤/٢٥ م) . ص ١٩١ .

(٥٢) ابن عساكر ج١١ ق ٢١٣ (٢) ترجمة عطية بن قيس الكلابي .

(٥٣) المصدر نفسه ج٨ ق ٢٦١ (١) ترجمة عائذ الله بن عبد الله ابو ادريس الخولاني .

(٥٤) المصدر نفسه ج١٨ ق ٦١ (١) ترجمة يحيى بن سعيد الدمشقي .

(٥٥) المصدر نفسه ج١٩ ق ٣٠٣ (١) ترجمة رجل له صحبة .

(٥٦) المصدر نفسه ترجمة عائذ الله بن عبد الله ابي ادريس الخولاني .

(٥٧) المصدر نفسه ج١ ق ٤٨٥ (٢) ترجمة عبد الملك بن مروان .

(٥٨) المصدر نفسه ج٣ (دهمان) ص ١٥ ــ ٢٢ ترجمة بسر بن عبيد الله .

(٥٩) المصدر نفسه ج١٤ ق ٣٥٣ (٢) ترجمة غضيف بن الحارث .

(٦٠) المصدر نفسه ج١٠ ق ٣٤٢ (١) ترجمة عبد الرحمن بن عسيلة .

(٦١) المصدر نفسه ج١٥ ق ٣٠٧ (٢) ترجمة محمد بن مسلم بن شهاب الزهري .

(٦٢) المصدر نفسه ج١٧ ق ٣١٨ (٢) ترجمة المهاجر بن ابي المهاجر .

سورية في مخططات السياسة البريطانية
١٩٤٣ ـ ١٩٤٤

د . رؤوف عبّاس
كلية الاداب ـ جامعة القاهرة

بدأت الشواهد تشير الى قرب انتهاء الحرب العالمية الثانية لصالح الحلفاء منذ عام ١٩٤٣ . ومع مطلع ذلك العام بدأ انسحاب الالمان من روسية بعد أن تقهقروا من لينينجراد وكيرسك وروستوف ، وتلاه انسحابهم من خاركوف وسمولنسك ثم كييف مع حلول خريف ذلك العام . وفي نفس الوقت انحسر المد الالماني من شمال افريقية ، وحقق الحلفاء عليهم نصرا حاسما في العلمين ، ونزلت جيوش الحلفاءالى ايطالية التي خرجت من المحور وأعلنت الحرب على ألمانية (١٣ اكتوبر) ، وبدأت طائرات الحلفاء تشن غارات جوية مكثفة على برلين (نوفمبر) .

وهكذا بدأ الحلفاء يبحثون موضوع التسوية التي ستعقب الحرب في سلسلة من المؤتمرات ، عقدت في القاهرة وطهران على التوالي (نوفمبر) ، حضرها الرئيس الامريكي ورئيس الوزراء البريطاني وشيانج كاي شيك (مؤتمر القاهرة) ، وستالين (مؤتمر طهران) ، بينما كانت قوات الحلفاء تحارب معركتها الاخيرة ضد اليابان ، احدى القوى الكبرى المشتركة في كتلة المحور ، فيما عرف بمعركة الباسيفيك(١) .

ولما كانت تسويات ما بعد الحرب مطروحة على بساط البحث بين دول الحلفاء، فقد سارعت بريطانية ـ ممثلة في خبرائها بمنطقة الشرق الاوسط ورجال الخارجية البريطانية ـ الى وضع مخطط للسياسة البريطانية الشرق الاوسط في فترة ما بعد الحرب ، وضعوا فيه نصب أعينهم المصالح البريطانية في المنطقة ، وأهميتها كجسر يربط مابين بريطانية ومستعمراتها في الشرق . ويركز هذا البحث على نصيب سورية من تلك المخططات .

* * *

عقد مجلس الحرب بالشرق الاوسط The Middle East War Council جلساته بالقاهرة (١٠ ــ١٢ مايو ١٩٤٣) برئاسة وزير الدولة للشرق الاوسط R.G. Casey ، ووكيله Lord Moyns ، وعضوية سفراء بريطانية في كل من مصر والعراق واليونان ، والمندوب السامي البريطاني بفلسطين وشرق الاردن ، وحكام مالطا وقبرص وعدن ، والوزراء المفوضون في سورية ولبنان (الميجور جنرال Spears) وايران وأثيوبية ، والقائم بالاعمال بالسعودية ، والسكرتير المدني لحكومة السودان، وقائد القوات البريطانية بالليفانت ، وقائد عام قوات الشرق الاوسط ، وبعض كبار ضباط قيادته .وكان الموضوع الاساسي الذي بحثه المجلس هو وضع أسس السياسة البريطانية في الشرق الاوسط لفترة ما بعد الحرب(٢) .

ورأى المجلس ان اقرار الامن في الشرق الاوسط وتأمين مصالح بريطانية في المنطقة يحول دونهما أمران : أولهما ، وجود عنصرين مثيرين للمتاعب في المنطقة هما ، اليهود في فلسطين ، والفرنسيون في سورية . وثانيهما ، احتمال تدهور المنطقة اقتصاديا بعد الحرب . وقد يترتب على احد هذين الامرين أو كليهما اثارة الاضطرابات في المنطقة بعد الحرب ، أو فتح الطريق امام الدول الاخرى المهتمة بالمنطقة ــ مثل روسية ــ لمزاحمة المصالح البريطانية فيها .

ولمواجهة تلك المخاطر المحتملة نظر مجلس الحرب بالشرق الاوسط الى المشكلات السائدة في المنطقة زمن الحرب ، والتي قد تستمر بعد نهايتها من زاوية المصالح البريطانية ، في محاولة لوضع حلول لهذه المشكلات تضمن الوجود البريطاني وتؤمن المصالح البريطانية ، في شكل سياسة بريطانية عامة شرق أوسطية تقوم على محاور أربعة :

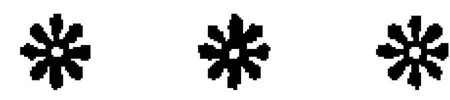
ا ــ ابقاء الاوضاع الراهنة في فلسطين على ما هي عليه دون تغيير ، مع عدم السماح للعرب أو اليهود بالاخلال بالتوازن القائم في فلسطين ، واصدار اعلان سياسي لتأكيد المبادىء الاساسية التي وردت بالكتاب الابيض (١٩٣٩) ، مع الحصول على تأييد الولايات المتحدة الامريكية لهذه الخطوة .

ب ــ الزام فرنسة الحرة بتوقيع معاهدتين مع سورية ولبنان مماثلتين للمعاهدة الانجليزية ــ العراقية ، تتمتع بمقتضاها الدولتان العربيتان بالاستقلال ، تمهيدا للتخلص من الوجود الفرنسي بالمنطقة نهائيا .

جـ ـ استمرار مهمة مركز تموين الشرق الاوسط Middle East Supply Centre فيما بعد الحرب ، على أن يتحول الى مجلس اقتصادي للشرق الاوسط Middle East Economic Centre في صورة منظمة اقتصادية اقليمية تعاون دول الشرق الاوسط على حل المشكلات المتصلة بالنواحي الاقتصادية والسياسية النقدية التي تعجز عن حلها بمفردها ، وذلك بالتعاون مع امريكة .

د ـ اقامة نوع من الاتحاد العربي على أن يكون اتحادا ضعيفا غير وثيق العرى ، يمتص التيارات القومية التي تشكل خطرا على المصالح البريطانية، ويوفر قدرا من التنسيق السياسي بين حكومات المنطقة في فترة ما بعد الحرب ، على حين تتولى بريطانية الاشراف على الجوانب الاقتصادية والثقافية للبلاد العربية . واذا تعذر ذلك تعمل بريطانية على اقامة اتحاد سورية الكبرى من سورية ولبنان وفلسطين وشرق الاردن .

ويهمنا هنا نصيب سورية في هذه المخططات البريطانية العريضة المتشعبة ، من حيث السبل التي اقترحت لتحقيقها ، والعقبات التي اعترضت طريقها ، واثرها على الاوضاع في المنطقة في اعقاب الحرب .



كانت بريطانية تعتبر الوجود الفرنسي في سورية مرهون بتنفيذ الوعود التي قطعتها حكومة فرنسة الحرة على نفسها بعد استرداد سورية من حكومة فيشي . وهي وعود اعتبرها الانجليز ملزمة لفرنسة،بحكم ما توصل اليه الجانبان البريطاني والفرنسي قبيل غزو الحلفاء لسورية . وتتمثل هذه الوعود فيما يلي :

أ ـ الاعلان الذي اذاعه الجنرال Catroux ممثل حكومة فرنسة الحرة في ٨ يونيو ١٩٤١ (وهو اليوم الذي عبرت فيه قوات الحلفاء الحدود السورية) ، والذي تضمن انهاء الانتداب على سورية ولبنان والاعتراف باستقلالهما وسيادتهما على اراضيهما ، وان للسكان مطلق الحرية في أن يعيشوا داخل دولتين مستقلتين ، او في دولة واحد مستقلة ذات سيادة ، وان قوات الحلفاء لاتستهدف سلب السكان حريتهم ،وانما جاءت لتأكيدها، وان الهدف من العمليات العسكرية طرد قوات هتلر من سورية حتى لا تصبح قاعدة يشن منها الالمان هجماتهم على الانجليز او على الفرنسيين انفسهم (٣) .

ب ـ تصريح تشرشل رئيس الوزراء البريطاني امام مجلس العموم (٩ سبتمبر ١٩٤١) الذي أكد فيه انه ليس للانجليز مطامع في سورية ، وانهم لا يسعون للحلول محل الفرنسيين ، أو اقامة مصالح بريطانية في أي جزء من سورية ، وان الوجود الانجليزي في سورية هدفه العمل على كسب الحرب واستطرد قائلا : « ولكن يجب ان أعلن بوضوح أن سياستنا التي تشاركنا فيها حليفتنا حكومة فرنسة الحرة ترمي الى اعادة سورية للسوريين الذين سينالون استقلالهم في أقرب فرصة ممكنة ، وكذلك كامل حقوق السيادة على اراضيهم . ولانرى ان يتأجل اقامة حكومة سورية مستقلة الى ما بعد الحرب.. ولكننا نرى ضرورة زيادة نصيب السوريين في الادارة ، ولا جدال في أن فرنسة سوف تحتفظ بنفس الوضع الذي كان لها في سورية قبل الحرب ، ولكن فرنسة ايقنت أن هذا الوضع لابد ان ينتهي . ومن ناحية اخرى نعترف لفرنسة بامتيازات خاصة في سورية تنفرد بها بين غيرها من كل دول اوربة ، فاذا احرزت أي من الدول الاوربية نفوذا في سورية ، فان نفوذ فرنسة يجب ان يكون له السبق »(٤) .

جـ ـ المراسلات التي تبودلت بين ليتلتون Lyttelton (وزير الدولة البريطاني بالشرق الاوسط) وديغول De Gaulle في ٢٥ ، ٢٧ يوليو ١٩٤١ والتي لا تخرج عما جاء في تصريح تشرشل سالف الذكر(٥) .

غير ان كلا الطرفين لم يلتزما بتعهداتهما ، فلا الفرنسيين كانوا على استعداد لمنح سورية ولبنان الاستقلال التام ، ولا الانجليز كانوا عند وعدهم بعدم منافسة الفرنسيين في المنطقة ، اذ وضعت بريطانية الميجور جنرال سيرادوارد سبيرز Edward Spears على رأس بعثتها الدبلوماسية في سورية ولبنان ، ولم يكن الاخير يخفي عداءه للفرنسيين ، كما لم يتوان عن تقديم العون للعرب لاحباط جهود الجنرال كاترو الذي كان يتفاوض مع السوريين واللبنانيين حول اقامة نظام حكم ديمقراطي في اطار الانتداب وتحت مظلته . ورغم اعلان استقلال سورية في سبتمبر ١٩٤١ ، ولبنان في ديسمبر من نفس العام ، الا أن فرنسة الحرة كانت مترددة في تصفية وجودها في البلدين ، وفي اطار هذا التردد سمحت فرنسة بتشكيل حكومة وطنية في كل من سورية ولبنان في مارس ١٩٤٣ . ولكن الوجود الفرنسي ظل قائما .

وقد بلغ ضيق فرنسة بالانجليز ، حد قيام ديغول بابلاغ مجلس فرنسة الحرة ، أن متاعب فرنسة في سورية ترجع الى نشاط مجموعة من الانكليز المتعنتين المتعاطفين

مع العرب ، والذين يحظون بتأييد رئيس الوزراء البريطاني ووزارة المستعمرات ، والذين يريدون اغتنام فرصة المسالة السورية لازاحة فرنسة من المنطقة(٦).



وكانت قرارات مجلس الحرب للشرق الاوسط (١٠-١٣ مايو ١٩٤٣) سالفة الذكر التجسيد الحي للاهداف البريطانية ، ولمحاولة ابعاد الفرنسيين عن المنطقة في اطار مخطط يهدف الى تكريس المصالح البريطانية في المنطقة بعد ان تضع الحرب اوزارها .

فقد اعتبر المجلس ان الوجود الفرنسي في سورية ولبنان يلحق الضرر بمصالح بريطانية في منطقة الشرق الاوسط ، كما يؤدي الى اعاقة « التطور السلمي للبلاد العربية ويحرمها من الرخاء الاقتصادي » . كما أن وجود قوة اجنبية غير متعاونة مع بريطانية ولا يمكن الاعتماد عليها من الخطورة بمكان ، لان ثمة احتمال قيام ثورة ضد فرنسة الضعيفة الواهنة بعد الحرب ، وخاصة عندما يتناقص حجم القوات البريطانية في سورية ولبنان .

كذلك يصبح تنفيذ أي مشروع لاقامة « اتحاد عربي » من الصعوبة بمكان مع استمرار الوجود الفرنسي ، سواء كان ذلك الاتحاد يجمع الدول العربية كلها ، او يقتصر على « سورية الكبرى » فيشمل الاردن وفلسطين الى جانب سورية ولبنان ،

ورأى المجلس أن من الممكن اخراج فرنسة من المنطقة بطريق التفاوض ، كان تمنحها بريطانية اراضي اخرى في اي مكان آخر كتعويض عن نفوذها في سورية ولبنان، غير ان تحقيق ذلك خلال الحرب من الصعوبة بمكان ، ولذلك ليس امام بريطانية الا اتباع ما يلي :

آ ـ تقوية الاتجاه نحو الاستقلال الذي يسود البلدين ، حتى يصبحا ذا صبغة وطنية مستقلة في اطار ميثاق الاطلنطي . على أن تنظم مصالح فرنسة من خلال معاهدة تبرم مع كل من البلدين ، سواء مع فرنسة الحرة أو غيرها من الحكومات الفرنسية التي تقام عقب انتهاء الحرب.

ب ـ تدعيم مركز بريطانية عن طريق توسيع صلاحيات قائد عام قوات الشرق الاوسط في كل ما يتصل بالنواحي العسكرية وادارة دفة الحرب .

جـ ـ مقاومة اي محاولة ترمي الى اخراج سورية ولبنان من كتلة الاسترليني . ورأى المجلس ضرورة قبول الفرنسيين لهذه السياسة اذا شاؤوا استمرار التعاون مع بريطانية ، اما اذا تمسكوا بالانتداب وتابعوا سياستهم في المنطقة فان ذلك سيؤدي الى اعاقة المجهود الحربي للحلفاء(٧) .

وفي مذكرة ايضاحية الحقها مجلس الحرب بالشرق الاوسط بهذه القرارات، واختص بها الاوضاع في سورية ولبنان ، بين الدوافع التي حدت به الى التوصل لهذه القرارات ، ويمكن تلخيصها فيما يلي : (٨)

آ ـ السياسة الفرنسية في سورية تثير سخط العرب في المنطقة على فرنسة ، خاصة وان الفرنسيين نكصوا بوعدهم بمنح الاستقلال التام ، مما يجعل البلاد العربية الاخرى ترفض الدخول في اتحاد مع سورية ولبنان مابقي الوجود الفرنسي قائماً .

ب ـ يجب الاحتفاظ بالشرق الاوسط كقاعدة للمصالح العسكرية البريطانية فيما بعد الحرب . ووجود الفرنسيين الذين ناصبوا الانجليز العداء ـ بدلا من التعاون معهم على تحرير فرنسة ـ لا يشجع على تسليم بريطانية ببقائهم في سورية لان ذلك يتعارض مع المصالح العسكرية البريطانية .

جـ ـ الاسس التي قامت عليها السياسة الانجلو ـ فرنسية الخاصة بسورية ولبنان خلال الحرب ، (تصريح رئيس الوزراء البريطاني امام مجلس العموم ، واتفاقية ليتلتون ـ ديجول) لا تخدم مصالح بريطانية في المنطقة لانها تنكر وجود مصلحة لها في الليفانت فيما عدا كسب الحرب، وتؤكد عدم رغبتها في مزاحمة فرنسة في المنطقة ، ولكن في مقابل ذلك يجب أن توافق فرنسة على استقلال سورية ولبنان استقلالا تاما ، على ان تتمتع بامتيازات خاصة في المنطقة تجعل لنفوذها القدح المعلى دون سائر دول اوربة ، وهذا ما يتعارض مع سياسة بريطانية ومصالحها عند انتهاء الحرب .

د ـ والبديل الوحيد الذي يمكن تقديمه لفرنسة عوضا عن هذه الامتيازات المعترف بها في التصريحات السابقة ، هو منحها طرابلس الغرب في مقابل الانسحاب نهائيا من سورية ولبنان ، ولكن ذلك امر مشكوك فيه لانهم سيعارضون هذه الفكرة او غيرها من الافكار لتشبثهم بالبقاء في المنطقة، وتمسكهم بما يسمونه « حقوقا تاريخية » فيها .

هـ ــ وفي مواجهة السياسة الفرنسية الحالية في سورية ولبنان يجب على بريطانية العمل على احباط محاولات فرنسة توقيع معاهــدات مع البلدين ، مثل تلك التي حاولت ان توقعها معها في عام ١٩٣٦ . فمن الناحية القانونية لاتؤثر اي معاهدة توقع خلال الحرب على أوضاع الانتداب ، خاصة وان السلطة الفرنسية القائمة لا تتمتع باعتراف الامم المتحدة ، كما انه لايمكن ان تصبح مثل هذه المعاهدات ملزمة لاي حكومة سورية او لبنانية لم تأت الى السلطة بانتخابات حرة، ولذلك يجب ان توجه بريطانية النصح الى حكومتي البلدين بعدم التفاوض على اي معاهدة مع فرنسة قبل ان تنتهي الحرب .

و ــ يجب ان تتمسك بريطانية بالمادة الاولى من اتفاقية ليتلتون ــ ديجول ، التي نصت على تخويل قائد عام قوات الشرق الاوســط كل الصلاحيات لمواجهة العدو المشترك تمسكا فعليا كمــا وردت في النص الرسمي ، والتأكيد على ان كل تصرفات القائد العام معترف بها في ضوء ماجاء بالفقرة الثانية من نفس المادة المشار اليها ، لان ذلك أمر ضروري من الناحية العسكرية ، في حالة اضطرار بريطانية لتخفيض قواتهــا في سورية ولبنان ، وحتى لا تحاول فرنسة نقل قيادة المنطقة اليها .

ز ــ كما انه من الاهمية بمكان ان تتمسك حكومة بريطانية بانتماء البلدين الى كتلة الاسترليني وفق تصريح سير مايلز لامبسون (٩ يونيو ١٩٤١) ، لان خروجهما من كتلة الاسترليني ستكون له عواقب سياسية واقتصادية خطيرة ليس في سورية ولبنان فحسب ، بل في البلاد العربية المجاورة ايضا ، فانسحاب البلدين من كتلة الاسترليني سوف يعوق الجهود التــي تبذل لاقامة اتحاد نقدي او جمركي بين بلاد « سورية الكبرى » والتي تعد ضرورية عند النظر في وضع نظام اقتصادي لهذه البلاد فيما بعد الحرب.

وكان الجانب الخاص بسورية في قرارات مجلس الحرب بالشرق الاوسط موضع انتقاد الخارجية البريطانية(٩)، التي اعتبرتها لا تتفق مع الخط الذي تسير عليه السياسية البريطانية في الشرق الاوسط ، وعللت دوائر الخارجية الخلاف بينها وبين السلطات المختصة بالشرق الاوسط الى تأثر الاخيرة باتجــاه سكان المنطقة نحو الوحدة القومية ، ورأت الخارجية ان الاخذ بمقترحات مجلس الحرب سوف يؤكد مخاوف الفرنسيين ، التي عبر عنها ديجول نفسه صراحة ، والتي تذهب الى ان بريطانية تحاول الاستفادة من هزيمة حليفتها فرنسة بالحلول محلها في الشرق الاوسط ، «ولابد

ان يؤثر ذلك على روح القتال عند الفرنسيين ، ونحن نأمل دائما أن يؤدي تعاونهم معنا الى نتائج ايجابية في شمال افريقية وفرنسة ذاتها ..» كما ان اتباع السياسة التي اقترحها مجلس الحرب يؤدي الى زيادة التوتر في شمال افريقية واماكن اخرى، ولذلك من مصلحة بريطانية كسب الفرنسيين الى جانبها لتحرير فرنسة ذاتها من المحور .

فاذا استمعت الخارجية الى نصيحة مجلس الحرب ووافقت على طرد الفرنسيين من سورية ، فان ذلك يضع بريطانية وجها لوجه أمام العرب ، الذين يتطلعون الى اقامة وحدة قومية ، فاذا تقاعست عن مساعدتهم على تحقيق ذلك ، اثاروا المتاعب في وجهها ، وهددوا مصالحها « .. ولكننا لا نعلق املا حقيقيا على اقامة نوع من الاتحاد العربي ، فمن المؤكد ان مثل هذا الاتحاد لن يدعم مجهودنا الحربي » . واعتبرت الخارجية أن اقامة « سورية الكبرى » ؛ التي تشمل فلسطين لن يكون في صالح بريطانية ، لان أي تغيير في السياسة البريطانية في فلسطين سوف يسبب المتاعب من جانب اليهود ، فاذا تدخلت بريطانية في فلسطين خلال الحرب كان ذلك يعني اثارة الاضطرابات في المنطقة الممتدة من عبدان الى حيفا ، ومن ثم يجب ابقاء فلسطين خارج مثل هذا الاتحاد والمحافظة على الاوضاع الراهنة فيها ، والبعد عن اتخاذ أي خطوة واسعة لتحقيق الوحدة العربية .

ولفتت الخارجية النظر الى احتمال ان يؤدي الاخذ بقرارات مجلس الحرب الى تحالف الفرنسيين مع الروس لمواجهة سيطرة الانجليز على الشرق الاوسط ، « فاذا أتيحت الفرصة أمام الروس للتدخل في المنطقة ، فسيقفون الى جانب العرب ، وحتى اذا خرج الفرنسيون من سورية ، دون ان نستطيع مواجهتهم » .

ومن ناحية أخرى ، ابدت الخارجية البريطانية موافقتها على تشجيع الحركة العربية المطالبة بالاستقلال في سورية ولبنان ، لان ذلك سيؤدي الى اقامة حكومات محلية قوية ، كما انه يتسق مع الاسس التي قامت عليها السياسة الانجلو ـ فرنسية الخاصة بسورية . ولكن الخارجية حذرت من ان يؤدي فشل الانجليز في تدعيم اتجاه سورية ولبنان نحو الاستقلال الى « تسميم » علاقة بريطانية بسلطات فرنسة الحرة . ورفضت دوائر الخارجية البريطانية الموافقة على مقترحات قائد عام قوات الشرق الاوسط التي تبرر حقه في التدخل في كل صغيرة وكبيرة في سورية لان ذلك يؤدي الى توتر في العلاقات الانجلو فرنسية ، والدخول مع الفرنسيين في صراع مرير . ولكنها رات ان من الممكن اخراج الفرنسيين من سورية بعد الحرب ، عندماتكون ثمة حكومة في فرنسة يمكن التفاوض معها . وان مايجب التركيز عليه هو تحرير فرنسة

من قوات المحور ، لان السلطة الفرنسية القائمة (فرنسة الحرة) تعتبر الحفاظ على المصالح الفرنسية واجب مقدس ، وتشك في نوايا البريطانيين والامريكان ، ولذلك من المتوقع ان تؤدي اي محاولة لاخراجهم من المنطقة الى ازمة حادة بين لندن والجزائر ، قد تقف حائلا دون تفاهم الطرفين عندما يحين الوقت للتشاور حول العملياتالعسكرية في فرنسة ذاتها(١٠) .

وفيما يتعلق براي الخارجية في الجانب الاقتصادي من قرارات مجلس الحرب الخاص بابقاء سورية داخل كتلة الاسترليني ، فقد نال هذا القرارتأييد الخارجية البريطانية ،التي اكدت ان بريطانية على استعداد للدخول في صراع مع فرنسةالحرةمن اجلبقاء المنطقة ضمن كتلة الاسترليني التي دخلتها في عام ١٩٤١، عقبطرد سلطات فيشي منها ، ولكن حكومة فرنسة الحرة بدات في اعادة تكوين كتلة الفرنك منذ ١٩٤٣، وكان من المتوقع ان يدخلوا سورية ولبنان فيها ، مما يترتب عليه ـ من وجهة النظر البريطانية ـ فقدان الثقة في العملة المحلية ، واقبال السكان على شراء الذهب والسلع لضمان قيمة اموالهم، وما ينتج عن ذلك من ازدياد حجم التضخم الذي تسعى بريطانية للحد من غلوائه في المنطقة ، لانه كان من المتوقع ان تنخفض قيمة الفرنك بالنسبة للجنيه الاسترليني من ١٧٦ الى ٢٠٠ فرنك للجنيه الواحد ، وذلك بعد اعادة بناء كتلة الفرنك .

وكان كاسى Casey وزير الدولة البريطاني للشرق الأوسط يرى ضرورة بقاء سورية داخل كتلة الاسترليني ، حتى يصبح باستطاعة بريطانية وضع نظام اقتصادي شامل للمنطقة كلها بعد الحرب ، واشار بضرورة توجيه الدعاية الى الشعبينالسوري واللبناني عند استقلالهما للبقاء داخل كتلة الاسترليني ، واكد ان السكان انفسهم يتوقعون ذلك .

وقد نوقشت مسألة بقاء سورية ولبنان داخل كتلة الاسترليني مع وزارة الخزانة البريطانية وبنك انجلترة ، ولكن ارجيء البت في هذا الموضوع حتى تستقر الحكومة البريطانية على راي بشأن مقترحات مجلس الحرب في الشرق الاوسط الخاصة بمستقبل الوجود الفرنسي في سورية ، وحتى يصبح الفرنسيون في وضع سياسي يمكنهم من مناقشة مسألة النقد بمختلف جوانبها . وقد شاركت وزارة الخزانة وبنك انكلترة في التاكيد على صعوبة ابقاء سورية داخل كتلة الاسترليني اذا رفض الفرنسيون التعاون مع الانجليز في تطبيق النظم النقدية المتبعة في منطقة الاسترليني ، ولفت النظر الى إن بنك سورية Banque De Syrie يعد جزءا لا يتجزأ من النظام المصرفي

الفرنسي ، وانه لا يمكن احكام الرقابة على النقد في الاقليم اذا ظل هذا البنك تحت سيطرة سلطات فرنسة الحرة .

ولذلك رات الخارجية البريطانية ان تظل هذه المسألة معلقة ، حتى يحين الوقت لقيام مفاوضات بين وزارة الخزانة البريطانية والسلطات الفرنسية ، وعندئذ يمكن معالجة مسألة بقاء سورية في كتلة الاسترليني باعتبارها مسألة فنية « .. اما اذا اثير الموضوع في محادثات سياسية ، فان الفرنسيين سوف يتخذونه دليلا على حرصنا على ابعادهم عن سورية » ، فاذا أصر الفرنسيون على ادماج المنطقة في كتلة الاسترليني يصعب العثور على حل لهذه المشكلة(١١) .

وازاء هذا التباين في وجهات النظر بين وزارة الخارجية البريطانية ومجلس الحرب في الشرق الاوسط حول المخططات السياسية الخاصة بسورية ، استدعى كاسي **Casey** وزير الدولة بالشرق الاوسط والجنرال **Spears** الوزير المفوض في سورية ولبنان الى لندن لمناقشة هذا الجانب من قرارات مجلس الحرب معهما، باعتبارهما اكثر الخبراء البريطانيين تحمسا لفكرة انهاء الوجود الفرنسي في سورية ولبنان ، بهدف الوصول الى تقارب في وجهات النظر حول هذا الموضوع حتى تستطيع الحكومة البريطانية أن تصل الى تحديد استراتيجيتها في المنطقة .

وقد عقد اجتماع في لندن(١٢) لهذه الغاية برئاسة وزير الحرب البريطاني ،حضره بالاضافة الى كاسي والجنرال سبيرز ، عدد من رجال وزارة الخارجية المعنيين بشؤون الشرق الاوسط ، وعرض كاسي في ذلك الاجتماع وجهات نظر مجلس الحرب في الشرق الاوسط ، وطلب تعليمات صريحة بشأن سياسة بريطانية في المنطقة ، ومدى حرصها على البقاء فيها . واشار الى ان الشرق الاوسط يقف حاجزا بين الد عدويين لبريطانية: المانية واليابان ، ويحتوى على المصالح البترولية البريطانية الحيوية ، وخطوط المواصلات ذات الاهمية الاستراتيجية لبريطانية ، ومن ثم تبرز اهميته الحيوية من الناحيتين الاقتصادية والاستراتيجية .

وقد اتفق الجميع على ضرورة المحافظة على النفوذ البريطاني في المنطقة ، كما وافقوا على اقتراح وزير الدولة للشرق الاوسط الخاص بضرورة قيام نوع من التنسيق بين بريطانية والولايات المتحدة الامريكية يحول دون تعرض الانجليز للمنافسة الامريكية التي تضر بالنفوذ البريطاني ، في مقابل تاييد بريطانية للمصالح الامريكية في منطقة الكاريبي ، فبريطانية تحتاج ــ في رايه ــ الى مساندة امريكة لها في الشرق

الاوسط ، وبدون ذلك لايمكن ضمان نجاح الاستراتيجية البريطانية في المنطقة ، بما في ذلك الجانب الخاص بسورية .

وفيما يتعلق بالمسألة السورية طالب الجنرال سبيرز بالتمسك بقرارات مجلس الحرب ، فمن الضروري ـ عنده ـ ان يكون مركز الفرنسيين في سورية مماثل لوضع الانجليز في العراق ، وان الصعوبة تكمن في البحث عن طريق لتحقيق ذلك ، والاتفاق على ما يجب اتخاذه لمنع الفرنسيين من معاملة سورية ولبنان كما لو كانتا مستعمرتين فرنسيتين ، وذكر انه رغم التزام فرنسة الحرة بتوقيع معاهدتين مع البلدين ، الاان الشواهد تشير الى أن فرنسة تسعى لاملاء الشروط التي تخدم نفوذها وتعمل على استمراره دون ان تأخذ في الاعتبار حق سورية ولبنان في الاستقلال التام .

واكد كاسي ان ترك الحبل للفرنسيين على غاربه، وعدم تدخل بريطانية لتحقيق استقلال سورية ولبنان سوف يضر بالنفوذ البريطاني في المنطقة ، ويؤدي الى زعزعة مكانة بريطانية بين السكان العرب . وبذلك كسب وزير الدولة الحاضرين الى صفه حين اتفقوا على ضرورة معارضة تصرفات السلطات الفرنسية في سورية اذا كانت تلك التصرفات تتناقض مع التزاماتهم السياسية ، وتتعارض بذلك مع المجهود الحربي في المنطقة ، ورأوا ان امتناع الفرنسيين عن تحديد علاقاتهم بسورية ولبنان على اساس تعاهدي يعرض المجهود الحربي للخطر . وأوصوا بضرورة توجيه احتجاج الى السلطات الفرنسية في الجزائر حول هذا الموقف .

ولكن عند اعادة بحث موضوع الاحتجاج في الاجتماع التالي (١٣)، رؤى الاكتفاء بتوجيه مذكرة الى حكومة فرنسة الحرة من خلال سفيرها في لندن على ان يكون الاحتجاج ذا طابع عام حتى لا يثير مخاوف الفرنسيين ، ويفتح الباب امام الدخول معهم في صراع يضر بقضية الحلفاء . غير أنهم اوصوا بضرورة بقاء سورية ولبنان داخل كتلة الاسترليني ، لما لذلك من اثار على المصالح البريطانية في المنطقة ، ولارتباطه بالسياسة الاقتصادية التي تعتزم بريطانية اتباعها في الشرق الاوسط بعد الحرب .

وفي ضوء الافكار التي طرحت على بساط البحث في تلك الاجتماعات تبلورت الخطوط العامة للسياسة البريطانية في الشرق الاوسط ، التي قامت على ضرورة الزام الفرنسيين بتنفيذ تعهداتهم السابقة ، ومنح سورية ولبنان الاستقلال التام ، وفتح الطريق بذلك أمام اقامة منظمة اقتصادية للشرق الاوسط باسم « المجلس الاقتصادي للشرق الاوسط » « MEEC » بالتعاون مع الولايات المتحدة الامريكية ودول المنطقة ، على أن يكون عمل هذه المنظمة امتدادا لنشاط مركز تموين الشرق الإوسط MESC ،

وفتح باب المباحثات مع الامريكان حول هذا الموضوع . وبدأت هذه السياسة تعرف طريقها الى التنفيذ ، بمصادقة مجلس الوزراء البريطاني عليها (١٤) فأرسل ايدن وزير الخارجية ، مذكرة مطولة الى اللورد هاليفاكس ـ السفير البريطاني في واشنطن ـ حول السياسة البريطانية في الشرق الاوسط تضمنت مطالبته بمفاتحة الحكومة الامريكية لتأييد هذه السياسة مع التركيز على الجوانب الاقتصادية كميدان للتعاون بين الطرفين في المنطقة (١٥) .

ولكن المسؤولين الانجليز في الشرق الاوسط ظلوا يضغطون على حكومتهم من أجل الحصول على تأييد الحكومة الامريكية للسياسة البريطانية الخاصة بسورية ، وكذلك المشروع الخاص باقامة اتحاد عربي في اطار مشروع سورية الكبرى . فقد أبرق وزير الدولة في الشرق الاوسط الى وزارة الخارجية ملفتا النظر الى احتمال قيام فرنسة بتوقيع معاهدة منفصلة مع كل من سورية ولبنان كل على حدة ، مع ربطهما بعجلة النفوذ الفرنسي ، مما يجعل اقامة « سورية الكبرى » من الصعوبة بمكان ، ورأى ضرورة أن تأخذ الخارجية هذا الموضوع بعين الاعتبار عند التفاوض مع الحكومة الامريكية بشأن الشرق الاوسط ، لان اقامة « سورية الكبرى » التي تضم سورية ولبنان وشرق الاردن وفلسطين ، يعد ـ من وجهة نظره ـ حجر الزاوية في بناء أي سياسة بريطانية للشرق الاوسط فيما بعد الحرب .

غير أن الخارجية البريطانية رأت أن الحكمة تقتضي عدم اثارة هذا الموضوع مع الحكومة الامريكية لاستحالة انضمام فلسطين الى « سورية الكبرى » بسبب وضعها الخاص ، وان مفاتحة الامريكان في هذا الموضوع قد ينسف الجهود التي تبذل لكسب تأييدهم للسياسة البريطانية في المنطقة (١٦) .

ومن ناحية أخرى قدم الكولونيل Colonel Glubb ـ قائد الفيلق العربي الاردني واحد الخبراء الذي كانت تستشيرهم الخارجية فيما يتصل بالشرق الاوسط ـ مذكرة مستفيضة الى الخارجية حول وجهة نظره فيما يجب أن تكون عليه الاوضاع في التسويات التي ستعقب الحرب ، فرأى ان مستقبل سورية وفلسطين سيمثل مشكلة كبرى بعد اعلان الهدنة ، وأن حل هذه المشكلة يجعل بريطانية في مأمن من مواجهة القلاقل والاضطرابات في العراق بسبب تحمس العراقيين وتعاطفهم مع سورية وفلسطين .

وفيما يتصل بسورية ذهب جلوب الى معارضة استقلال سورية استقلالا تاما ، بدعوى أن السوريين لا يستطيعون تحمل أعباء الحكم وحدهم لان الفرنسيين لم

يدربونهم على ذلك . ويقتضي ذلك أن تضع احدى الدول الاوربية يدها على سورية والا حلت الفوضى بالبلاد . كما أن فرنسة قد تنتهز فرصة انشغال العالم بازالة اثار الحرب، فتقوم بعمليات عسكرية فيسورية ولبنان وتضمهما في وحدةسياسية واحدة تديرها بصورة مباشرة على نحو ما فعلت في شمال افريقية . ويرى أن مصلحة بريطانية تقتضي اخراج الفرنسيين من سورية على أن تحل محلهم دولة أخرى تعمل على تهيئة السوريين للاستقلال ، ومثل هذه الدولة قد تكون الولايات المتحدة الامريكية او بريطانيـة .

واقترح جلوب أن تشمل المفاوضات مع الحكومة الامريكية اقتراح بريطانية أن تتولى الولايات المتحدة الامريكية مسؤولية سورية كلها بما فيها لبنان أو بدونه . ومثل هذا العرض يبرىء ساحة الانجليز من تهمة السعي لاخراج الفرنسيين من سورية ليحلوا محلهم ، كما انها قد تزود سورية بادارة « مستنيرة غنية متعاطفة تعاونها على الاستعداد لمرحلة الاستقلال ، كما قد تعطي امريكة خبرة ببعض الاعباء التي تقع على عاتق بريطانية » .

فاذا رفضت امريكة الانتداب على سورية كان من السهل على بريطانية قبوله ، وبذلك يصبح بالامكان تحقيق مشروع « سورية الكبرى » الذي يجب أن يكون تحت رعاية بريطانية . واقترح جلوب اخراج الفرنسيين من المنطقة عن طريق التفاوض وتعويضهم عن ذلك بمناطق أخرى خارج الشرق الاوسط ، أو أن يتم تحقيق ذلك عن طريق استفتاء عام للسكان (١٧) .

ولكن فكرة قبول بريطانية الانتداب على المنطقة من قبل الامم المتحدة كانت مرفوضة تماما فيدوائر الخارجية البريطانية . ولم تكن هذه الفكرة تعيش الا في اذهان بعض الخبراء البريطانيين الاستعماريين العاملين بالمنطقة من طراز جلوب وسبيرز ، الذين ربطوا بين المصالح الاستراتيجية البريطانية في الشرق الاوسط ، وبين ضرورة سيطرة بريطانية سياسيا على اتحاد عربي يضم بلاد الشام كلها بالمفهوم الجغرافي للكلمة ـ تحت اسم « سورية الكبرى » أو اتحاد عربي اوسع يضم جميع البلاد العربية يكون بمثابة هيئة للتنسيق السياسي بين البلاد العربية وبين السلطات البريطانية ، مع احتفاظ البلاد العربية بمظاهر الاستقلال وبحكومات وطنية من العناصر المعتدلة التي تقبل بالتنسيق مع بريطانية (١٨) .



ومهما كان الامر فقد بدأت المباحثات الانجليزية ـ الامريكية حول الشرق الاوسط

في ابريل ١٩٤٤ ، حيث تطرق البحث الى مصالح الدولتين في المنطقة كلها ، وفي حين ركز الامريكيون على مصالحهم البترولية في الخليج والمملكة العربية السعودية وحصلوا على تأييد الانجليز لتلك المصالح في اتفاق تم بين الجانبين وتناول تفاصيل هذا الجانب الذي يهم الولايات المتحدة بالدرجة الاولى ، ركز البريطانيون على انتزاع اعتراف أمريكا بالشرق الاوسط منطقة نفوذ بريطانية . غير أن الامريكان فضلوا أن تكون المنطقة مجالا للتعايش Modus vivendi بين الدولتين بعد الحرب ، مؤكدين على أن اهتماماتهم بالمنطقة اقتصادية وثقافية بالدرجة الاولى .

وفي الجلسة الثانية للمباحثات (١٢ ابريل) عرض الجانب البريطاني المسألة السورية ، بما في ذلك المفاوضات التي دارت على المستوى المحلي ، والاتفاقية الخاصة بنقل السلطة الى فرنسة الحرة ، والمفاوضات التي أجريت مع الجنرال كاترو . وأكد الجانب الامريكي أن الولايات المتحدة الامريكية تستعد للاعتراف باستقلال سورية ولبنان وتعيين وزير أمريكي مفوض فيهما بمجرد اعلان الاستقلال . واعترض على فكرة اخراج الفرنسيين من المنطقة التي عرضها الجانب البريطاني لسبرغور الامريكان، وذكر الجانب الامريكي خلال المباحثات انه من الضروري أن يحتفظ الفرنسيون بصلاحيات ادارية في البلدين حتى تضع الحرب أوزارها ، على أن يتحول القائد العام الفرنسي في بيروت الى سفير فوق العادة . ولكن الجانب البريطاني رأى ضرورة ان ينظم الفرنسيون علاقتهم بالبلدين في شكل معاهدة على نسق مافعلته بريطانية مع مصر والعراق ، وان يتخذ الفرنسيون موقفا محددا من مطالب الاستقلال في البلدين حرصا على مصالح الحلفاء في المنطقة ، وأنه يجب عقد اتفاقية تسوية اذا فشلت تجربة تعايش المصالح الانجلو ـ فرنسية .

ولم يعترض الجانب الامريكي على المقترحات البريطانية ، غير انه أعلن اعتراضه على ما تعهدت به بريطانية لفرنسة الحرة في اتفاقية ليتلتون ـ ديجول ، من أن يكون لفرنسة امتيازات خاصة في سورية ولبنان دون سائر الدول الكبرى الاخرى ، لان ذلك يتعارض في رأيهم مع « مبدأ التعايش » الذي طالبت به أمريكة (١٩) .

وتناولت المباحثات البريطانية ـ الامريكية موضوع التعاون بين البلدين لدعم اقتصاديات المنطقة في اطار « المجلس الاقتصادي للشرق الاوسط MEEC » . باعتباره امتدادا لنشاط مركز تموين الشرق الاوسط MESC الذي نجح في تحقيق قدر من الاكتفاء الذاتي لبلاد الشرق الاوسط خلال انقطاع الخطوط الملاحية في البحر المتوسط بسبب ظروف الحرب . على أن يكون المجلس المقترح بمثابة مؤسسة

انجلو ـ أمريكية تقوم بتقديم المشورة الفنية لدول المنطقة في النواحي الاقتصادية ، ويشمل نشاطه سورية ولبنان أيضا . وقد وافق الجانب الامريكي على الاقتراح البريطاني بهذا الصدد ، على ان يكون المجلس « منظمة اقليمية »، وليس مجرد جهاز انجلو ـ امريكي ، بحيث تساهم فيه جميع دول المنطقة . وكانت حجتهم في ذلك ان حكومات المنطقة لن تهتم بهذا المجلس اذا لم تساهم فيه مساهمتها في الامم المتحدة . وأصر المفاوضون الامريكان على أن يكون المجلس منظمة محلية تعتمد على جهود الكفايات المحلية ، وتموله دول المنطقة ، على أن يقتصر دور البريطانيين والامريكان على تقديم المشورة الفنية (٢٠) .

ولم يكن من المتوقع ان تعترف الولايات المتحدة الامريكية بالشرق العربي منطقة نفوذ بريطانية ، في الوقت الذي كان فيه الامريكان قد مهدوا الطريق لتوطيد نفوذهم في المنطقة ، مستفيدين في ذلك من ظروف الحرب . وكانت استراتيجية الامريكان تقوم على توسيع مصالحهم الاقتصادية عامة والبترولية خاصة (٢١) ، ومن ثم كان تركيزهم في تلك المباحثات على الجانب الاقتصادي ، وطرحهم لمبدأ « التعايش » بين الدول الكبرى بدلا من التسليم باعتبار المنطقة مرتعا للنفوذ البريطاني وحده . ولذلك لم يتحمسوا للاقتراح الخاص بتصفية الوجود الفرنسي في الشرق العربي على يد الانجليز ، وان كانوا لم يقبلوا الاعتراف لفرنسة بامتيازات خاصة في سورية ولبنان .

وفي ضوء تلك المباحثات بدأ الانجليز يخففون من ضغطهم على فرنسة الحرة من أجل المسألة السورية ، ولكن ذلك لم يتم طفرة ، فقد حرص الانجليز على اقامة سد منيع بين الفرنسيين والعرب . وعندما زار تشرشل فرنسة المحررة في نوفمبر ١٩٤٤ ، كان ديجول رئيسا لفرنسة ، وفتح ملف سورية في الاجتماع الذي عقد بين الرجلين بحضور ايدن وزير الخارجية البريطانية وبيدو Bidault وزير الخارجية الفرنسي ، ذكر ديجول انه منح سورية ولبنان استقلالهما بنفس الشروط التي منحت بها بريطانية الاستقلال لمصر والعراق . وأبدى تشرشل تفهمه لذلك وأكد مرة أخرى لديجول أن الحكومة البريطانية لا تفكر في أن تحل محل فرنسة في المنطقة .

وهنا استطرد ديجول قائلا : « ان ما نهدف اليه ان يكون لنا وجود في المنطقة على أن يتخذ ذلك شكل معاهدة تضمن امتيازاتنا » . فأجابه تشرشل بقوله : « ان هذين البلدين مستقلان ، واذا حاولتم ذلك فستعرضون أنفسكم للمتاعب » . فرد بيدو على الفور بحدة : « ان وجودنا في سورية ولبنان حيث سقط رجال فرنسيون صرعى ، يضع على عاتقنا ارث مقدس » .

ولم يملك رئيس الوزراء البريطاني سوى أن يعد بنقل وجهة نظر فرنسة الى مؤتمر السلام ، وأبدى استعداده للدفاع عن وجهة النظر الفرنسية مابقى الفرنسيون بعيدين عن اثارة الاضطرابات في سورية ولبنان (٢٢) .

وكانت اخر مهمة كلف بها الجنرال سبيرز الوزير البريطاني المفوض في سورية ولبنان ، قبل اقصائه من منصبه في ديسمبر ١٩٤٤ ، هي ابلاغ الحكومتين السورية واللبنانية نصيحة الحكومة البريطانية للتفاوض مع فرنسة حول عقد معاهدة منظمة للعلاقات السورية ـ الفرنسية ـ اللبنانية ، غير ان هذه النصيحة البريطانية قوبلت بالرفض التام من جانب البلدين (٢٣).

وفي طريق عودتهما من يالتا توقف تشرشل وايدن بالقاهرة في ١٧ فبراير ١٩٤٥ حيث اجتمعا بالرئيس السوري شكري القوتلي ، وأوضح تشرشل للقوتلي ان بريطانية بذلت كل الجهد لاقناع الفرنسيين بالاعتراف باستقلال سورية ولبنان ، ولكن يجب على السكان بدورهم الا يقذفوا بالفرنسيين خارجا (٢٤).

وعاد تشرشل الى تناول نفس المسألة في تصريح أدلى به أمام مجلس العموم في ٢٧ فبراير ١٩٤٥ ذكر فيه أن بريطانية قررت « احترام استقلال سورية ولبنان، وان تبذل أقصى الجهد للمحافظة على الوضع الخاص لفرنسة في ضوء الروابط التاريخية والثقافية التي ربطتها بالمنطقة منذ زمن بعيد .. ونأمل أن يستطيع الفرنسيون الاحتفاظ بوضعهم الخاص » . وأكد تشرشل على عدم استطاعة بريطانية الوصول الى حل لهذه المشكلة وحدها عندما قال : « يجب ان نلاحظ حقيقة أن روسية والولايات المتحدة اعترفتا باستقلال سورية ولبنان ، ولا تميلان الى تأييد أي وضع خاص لاي دولة أجنبية أخرى » (٢٥) .

وقد يبدو غريبا أن يتحول الموقف البريطاني من الوجود الفرنسي في سورية ولبنان من الرفض التام لذلك الوجود ، الى التمسك بضرورة المحافظة على ماسماه تشرشل « بالوضع الخاص » لفرنسة في المنطقة . ولكن هذا الموقف البريطاني كان موجها ـ في رأينا ـ ضد سياسة الرئيس روزفلت الذي تبنى مبدأ تصفية الوجود الاستعماري الصارخ في الشرق الاوسط ، على أن يستبدل به سياسة « التعايش » أو « الباب المفتوح » التي تتيح للمصالح الاقتصادية الامريكية فرصة النمو ، وتفتح الباب على مصراعيه أمام النفوذ الامريكي الذي كان يعد العدة للتغلغل في المنطقة فيما بعد الحرب . ولذلك كان الانجليز يرمون من وراء تمسكهم باقامة علاقة تعاهدية بين فرنسة وسورية ولبنان ، الدفاع عن الاساس الذي قامت عليه سياسة بريطانية في مصر والعراق في مواجهة الضغوط الامريكية ، والمحاولات الامريكية لتحقيق كسب سياسي في المنطقة على حساب بريطانية .

فقد حاول الانجليز حمل الامريكان على تغيير موقفهم ، عندما دارت مباحثات بين الجانبين (في٢٨سبتمبر ١٩٤٤) ذكر فيها الجانب البريطاني ان بريطانية لاتنوي البقاء في سورية وأن فرنسة تسترد قواها يوما بعد يوم ، فاذا لم تنتهز سورية ولبنان الفرصة الان وتوقع معاهدة مع فرنسة ، فقد لاتستطيع الحصول على الشروط المناسبة التي يمكن أن تحصل عليها الان ، ومن ثم كان على البيت الابيض أن يؤيد احتفاظ فرنسة بعلاقات مع البلدين على نسق العلاقات البريطانية ـ العراقية (٢٦).

ولكن الجانب الامريكي لم يستجب لوجهة النظر البريطانية ، فرفضت الخارجية الامريكية في مذكرة وجهتها الى السفارة البريطانية بواشنطن (٥ أكتوبر ١٩٤٤) فكرة التزام سورية ولبنان بتوقيع معاهدة مع فرنسة على النمط البريطاني . وفي لقاء تم بين رئيس قسم الشرق الادنى بالخارجية الامريكية Foy Kohler والممثل السياسي الفرنسي في واشنطن ، حذر الاول من ان حكومتي سورية ولبنان قد تلجآن الى طلب المساعدة من الاتحاد السوفيتي ، اذا تعرضتا لضغط شديد من جانب فرنسة ، وأصر كوهلر على ضرورة اقلاع الفرنسيين عن فرض شروط معاهدة ١٩٣٦ ، أو شروط شبيهة بتلك التي وردت في المعاهدة العراقية ـ البريطانية ، على أي من البلدين . وفي برقية ارسلها Hull وزير الخارجية الامريكي الى جودج وودزورث George Wadswarth الوزير الامريكي في بيروت (٤ أكتوبر) ، أشار الى أن الولايات المتحدة لا تعارض في ابرام أي معاهدة بين سورية ولبنان وفرنسة اذا قبلها الجانب العربي بمحض ارادته ، « ولكننا لا نعتزم حث الحكومتين على توقيع أو ابرام أي معاهدةكانت مع الفرنسيين ، كما اننا لن نوافق على اية معاهدة تعطي للفرنسيين امتيازات خاصة في البلدين » (٢٧) .

لقد كانت أمريكة ترمي بكل ثقلها في الشرق العربي ، متخذة من السعودية منطلقا لمصالحها الاقتصادية في المنطقة . وكانت تريد ـ على مايبدو ـ بالتضييق على الوجود الفرنسي في سورية ولبنان ، تنبيه الانجليز الى حقيقة أن انفرادهم بالمنطقة أمر لايمكن أن تقبل به الولايات المتحدة ، كما أنها لا تعترف بالامتيازات التي خلعتها فرنسة ، وبالتالي بريطانية ، على نفسها في المنطقة . فهي من باب أولى لا تعترف بالشرق الاوسط منطقة نفوذ بريطانية ، وهو مالم يدخله الانجليز في حسابهم عندما وضعوا مخططاتهم السياسية للمنطقة فيما بعد الحرب ، وظنوا ان باستطاعتهم احتواء الاطماع الامريكية بعد طرد الفرنسيين من المنطقة في اطار من التعاون الاقتصادي . وغاب عن أذهانهم أن الحرب العالمية الثانية نقلت لواء قيادة المعسكر الغربي الى أمريكة التي كانت لها مخططاتها الخاصة بها ، والتي لايمكن أن تتوافق مع ما رسمه الانجليز .

مصـــادر البحـث

أولا ـ وثائق غير منشورة :

Foreign Office, Political Correspondence, F O 371/34975, 39985.

ثانيا ـ وثائق منشـــورة :

House of Commons Debates, 5 th series, vol 374.

ثالثا ـ الكتــب :

Anton W . De Porte, **De Gaulle's Foreign Policy 1944 - 1946,** Cambridge, Mass. 1968.

Basil Liddell Hart, **History of the Second World War,** London 1970.

Davet, Michel - Christian, **La Double Affaire de Syrie,** Paris 1967.

De Gaulle, **Memoires de Guerre,** vol 1, Paris 1954.

Mark Arnold - Foster, **The World at War,** London 1973.

Sachar, Howard M. ,**Europe Leaves the Middle East 1936-1954,** London 1974.

Woodward, Sir E. Liewellyn, **British Foreign Policy in the Second World War,** 2 vols, London 1970 .

الحواشي :

(1) Basil Lidell Hart, **History of the Second World War**, London 1970 .
Mark Arnold-Foster, **The World at War,** London 1973.
Woodward, Sir E. Liewellyn, **British Foreign Policy in the Second World War**, 2 vols, London 1970.

(2) F. O. 371/34975/E3234 Casey to Eden, 20 May 1943.

(3) Woodward, **OP. cit.,** vol I, pp 584 - 85.

(4) House of Commons Debates, 5 th series, vol 374, col. 76.

(5) Woodward, **Op. cit.**, vol I pp 586 - 92. see also; Anton W. De Porte, **De Gaulle's Foreign Policy,** 1944 - 1946, Cambridge, Mass., 1968,p. 131.

(6) De Gaulle, **Memoires de Guerre,** vol I, Paris 1954, P 213.

(7) F. O. 371/34975/E 3234, Middle East War Councll Resolutions on the British Post-War Policy.

(8) F. O. 371/34975/E 3234 ME WC, Aide Memoire on Syria.

(9) F. O. 371/34975/E 3234, Minute by R.M.A. Hankey, 24 May 1943.

(10) Ibid.

(11) F.O. 371/34975/E 4081 Casey to Cadogan, 25 June 1943.

(12) F.O. 371/34975/E 3896 War Cabinet, Note of a Meeting Held in Sir Alexander Cadogan's Room at the Foreign Office on 28 June 1943.

(13) F.O. 371/34975/ E 3896, W. C. O., Note of a Meeting held in Sir Alexander Cadogan's room at the Foreign Office on 29 June 1943.

(14) F.O. 371/34975/ E 4265, Secret, Note by the Foreign Secretary Submitting Recommendations as Regards to British Policy in the Middle East, 15 July 1943.

(15) F.O. 371/34975/E 4462, Minute by Baxter, 31 July 1943.

(16) F.O. 371/34975/E 4833, Secret, Casey to Eden, 14 August 1943.

(17) F.O. 371/34975/E 5925, Secret, Further Note on Peace Terms in the Middle East, Memo by Colonel Glubb, 1 October 1543.

(18) Ibid.

(19) F.O. 371/39985/E 2319, Memorandum on Anglo-American Conversations Regarding Middle East, Second meeting, 12 April 1943.

(20) F.O. 371/39985/E 2455, Anglo-American Conversations Regarding Middle East, 4th meeting, 18 April 1944.

(21) F.O. 371/34975/E 4462, Eden to Lord Halifax, 31 July 1943.

(22) Davet, Michel - Christian, **La Double Affaire de Syrie**, Paris 1967, pp. 244 - 46.

(23) Sachard, Howard M., **Europe Leaves the Middle East 1936 - 1954**, London 1974, pp. 311 - 12.

(24) Woodward : **OP. Cit.**, P 275.

(25) Sachar : **OP, cit.**, P. 313 .

(26) Ibid, P 313 .

(27) **Ibid**, P. 314.

صفحات من تاريخ الجمعيات
في بلاد الشام ١٨٥٠-١٩٠٨
من الجمعيات العلمية ، إلى الجمعيات السياسية

د. سهيلة الريماوي

كلية الاداب ــ الجامعة الاردنيــة

ظهرت ((الصيغ التنظيمية)) في الامبراطورية العثمانية على شكل جمعيات خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

وقد كان نشوء هذه ((الجمعيات))(١) وليد حركة تطور طويلة المدى تمتد خلال القرن كلـه ، اذ يعتبر مرحلة تاريخية واحـدة بأحداثه السياسية والاقتصاديـة والعسكرية والفكرية ، تكون مرحلة خاصة ومتميزة من مراحل التاريخ العربي . يمكننا أن نسميها مرحلة ((التفتح)) الفكري ومرحلة النهضة في مجالاتها المختلفة .
ان القرن التاسع عشر بالنسبة للوطن العربي هو ــ بصورة عامة ــ مرحلة تفاعل ثلاث حركات تاريخية ضخمة هي : حركة اليقظة العربية الناشئة ، وحركة الراسمالية الاوربية الصاعدة ، وحركة اصلاح شؤون الدولة العثمانية وسيطرتها على البـلاد العربيــة .

ومن تفاعل هذه الحركات الرئيسية ، بدأت تظهر بوادر الوعي وحركات الاصلاح والتغيير في انحاء الوطن العربي ، كما بدأت تظهر وسائل نقل ونشر ذلك الوعي وهذه الحركات ، فكثرت المدارس ، وانتشرت المطابع والصحف فانتشر التعليم وازدهر ، كما نما وتطور بعد عودة طلاب البعثات العلمية التي توجهت الى اوربا ، وبعد تخرج طلاب مدارس الارساليات الاجنبية التي افتتحت في البلاد ، ولقد اسهم كل ذلك في نقل الافكار التحررية ــ التي سادت اوربا في القرن التاسع عشر ــ الى بـلاد الامبراطورية العثمانية ، فولد تيارات علمية وسياسية جديدة ، لعلماء ومفكرين سياسيين ، مجددين ومصلحين وثوار ، ظهروا في ارجاء الامبراطورية ــ ومنها الوطن العربي ــ بصورة متجددة ومتطورة .

ولقد تبلور هذا كله في الربع الاخير من القرن التاسع عشر في ظهور ((صيغ تنظيمية)) كانت في باديء الامر جمعيات علمية أو ثقافية ، ثم تطورت الى حلقات علمية

ذات مضمون سياسي ، ولم تلبث بعدها ان ظهرت الجمعيات السياسية مع مطلع القرن العشرين .

الجمعيات العلمية : بدأت تظهر الجمعيات العلمية في سورية الى جانب الجمعيات الادبية والخيرية ، وهي جمعيات اخذت زمام المبادرة في انشائها بعض الشخصيات والمؤسسات المحليـة او الاجنبيـة .

فقد تأسست « الجمعية السورية » في بيروت مثلا اواخر سنة ١٨٤٧ ، وهي جمعية علمية كان من مؤسسيها « بطرس البستاني » و « فان دبك » الاميركي - وهما اللذان عملا معا على تأسيس «مدرسة عبيه » في لبنان ، وكانا يتركان مدرستهما في وقت الفراغ ، ويتوجهان الى الجمعية لالقاء الابحاث والمحاضرات والخطب . .

لقد بقيت هذه الجمعية تعمل بنشاط حتى سنة ١٨٥١ ، وبقيت رائدة في نظمها « جرى عليها كثير من الجمعيات التي قامت بعدهـا » وكانت مكتبتها العظيمة قبلـة طلاب العلم ، وتحتوي العديد من امهات الكتب ، والكتب الحديثة .

وفي سنة ١٨٥٢ طبع المعلم « بطرس البستاني » قوانينها وبعض اعمالها ووزعها على اعضائها الخمسين ، ولكن هذه الجمعية فقدت مكانتها بعد هذا العام وتبعثرت كتب مكتبتها ، كما تبعثر اعضاؤها(٢) وقد تلت هذه الجمعية في لبنان عدة جمعيـات منها : الجمعية العلميـة والجمعية الادبية ، ثم عـدد من الجمعيات الطائفية ، كما تأسست جمعية زهرة الآداب سنة ١٨٧٣ برخصة من الدولة العلية . .

اما في دمشق فقد ازدهرت الجمعيات العلمية في عهد ولاية مدحت باشـا على سورية (١٨٧٨ ـ ١٨٨٠) الذي أسس جمعية المقاصد الخيرية في دمشق وغيرها من المدن السورية(٣) بعد ان حول اموال الاوقاف الى المجال العلمي ، فافتتح الفروع لمدارس وجمعية المقاصد الخيرية في الولاية ، وعندما صدرت الارادة السنية سنة ١٨٨٢ بتحويل المقاصد الخيرية الاسلامية الى مجلس معارف(٤) كان عدد الجمعيات قد ازداد في دمشق ازديادا ملموسا .

أما في القدس ، فقد كان هناك جمعيتان وطنيتان طائفيتان الاولى جمعية « سوسنة صهيون » ، وهي فرع جمعية اتحاد الشبان المسيحية بلندن انشئت سنة ١٨٧٧ ، والثانية جمعية الغيره المسيحية لطائفة الروم الارثوذكس(٥) هذا عدا عن الجمعيات التي كانت قائمة في طرابلس وغيرها من المدن السورية (٦) .

الجمعيات والحلقات العلمية ـ السياسية : ومنذ عام ١٨٧٥ أسس طلاب الجامعة الاميركية في بيروت جمعية اطلقوا عليها اسم « الجمعية السورية » وكان معظم اعضائها من الطلبة المسيحيين ، وبالرغم من انها علمية الطابع ، الا انها كانت ذات مضمون سياسي ، « اذ كان اعضاؤها يقاومون الدولة العثمانية من خلال مقاومتهم للنعرة العنصرية والنعرة الدينية »(٧) ثم انتسب الى هذه الجمعية عدد من الطلبة المسلمين وتغلب الهدف السياسي عند اعضائها على النعرات الطائفية، ووضع اعضاؤها برنامجا يوضح اهدافها السياسية ومنها :

« منح الاستقلال لسوريا مع لبنان ، والاعتراف باللغة العربية لغة رسمية للبلاد ،والغاء الرقابة والقيود الاخرى التي تحول دون حرية الراي وانتشار العلم ، واستخدام وحدات الجند المحلية في الخدمة العسكرية المحلية دون سواها »(٨).

اتهم مدحت باشا والي سورية ، بأنه سكت عن الجمعية ونشاطها بل وساعد على تشجيعها ، خصوصا بعد ان الصقت عدة مناشير ولافتات في دمشق وبيروت تحدت فيها الدولة العثمانية ، واتهمت الاتراك بالقضاء على اللغة العربية ، ولم توقف الجمعية نشاطها بعد ابعاد مدحت باشا عن سورية ، بل تابعت نشاطها في الصاق اللافتات والمناشير ، وعندما ازداد بطش عبد الحميد واستبداده ، كفت الجمعية عن العمل وهاجر اكثر اعضائها الى مصر (٩) .

اما في دمشق : فقد اسس السوريون حلقتين علميتين سياسيتين هما : حلقة دمشق الكبرى ، وحلقة دمشق الصغرى .

وتعرف حلقة دمشق الكبرى ، باسم حلقة الشيخ طاهر الجزائري (١٠) ايضا ، حيث أسسها وهو يشغل منصب « مفتش معارف » في عهد ولاية مدحت باشا على سورية ، كما ساهم في تأسيس جمعية المقاصد الخيرية التي انشأها مدحت باشا ، وعمل الشيخ طاهر على اصلاح نظم التعليم في سورية بشكل عام .

ومن هذا المنطلق العلمي الاصلاحي ،تمكن الشيخ طاهر من جمع رجال العلم والمعرفة في دمشق حوله في حلقة دمشق الكبرى داعيا الى تعليم العلوم العصرية بالاضافة الى العناية بتاريخ العرب وتراثهم العلمي ، وتضم هذه الحلقة بين اعضائها ، عددا كبيرا من مصلحي دمشق : الشيخ جمال الدين القاسمي ، والشيخ عبد الرزاق البيطار والشيخ سليم البخاري ، ثم التحق بالحلقة عدد كبير ممن كان دونهم في السن ، منهم رفيق العظم ومحمد كرد علي ، وفارس الخوري وعبد الحميد الزهراوي

وشكري العسلي وعبد الوهاب المويلحي « المعروف بالإنكليزي » وعبد الرحمن الشهبندر والضابط سليم الجزائري وغيرهم (١١) .

لقد شملت احاديث اعضاء هذه الحلقة ، الاوضاع الادارية والسياسية القائمة في الامبراطورية العثمانية ، فشملت سوءالادارة ،واستبدا دالحكام الاتراك . كما بدؤوا يناقشون في جلساتهم مفاهيم الحرية والعدل والنظام ، مما دعا بعض المغرضين الى اتهام الشيخ طاهر بالخيانة الوطنية والعمل على فصل البلاد السورية عن غيرها من اقطار الامبراطورية ، فالفت الحكومة منصبه الحكومي وعرقلت اعمال الجمعية الخيرية ، وبعد بضع سنوات عين الشيخ طاهر مفتشا لدور الكتب في ولاية سورية ، فالتف حوله عدد كبير من محبي العلم ، ولم ترق هذه النهضة العلمية في دمشق لاعضاء حكومة عبد الحميد . مما ادى الى عزل حسن رفيق باشا والي سورية لغفلته عما يجري فيها (١٢) وسلمت قيادة الجيش الخامس الى الميستر عبد الله باشا الشركسي الذي اخذ يضطهد احرار العرب ويفتش منازلهم ، وكان في مقدمة هؤلاء اعضاء حلقة دمشق الكبرى ، وقد زاد الامر سوءا عندما وقع بايدي السلطة نشرات جمعية« تركيا الفتاة » المناوئة للسلطان ، اذ اتهمت الحكومة العثمانية الشيخ طاهر الجزائري بالاشتراك في تشجيع وتوزيع هذه النشرات ، فاقتحموا منزله وهو غائب في جولة خارج دمشق ، وعندها بادر بالرحيل الى مصر (١٣) .

ويشير مصطفى الشهابي الى انه تولد من هذه الحلقة العلمية ، جمعية سرية سياسية في دمشق . تضم بين اعضائها العرب عددا من الاتراك اما هدفها فهو السعي للقضاء على استبداد السلطان عبد الحميد وحكمه المطلق ، كما كان يطالب اعضاؤها بتطبيق الشورى وعودة الدستور ، وقد اشترك في هذه الحلقة ضابطان عربيان هما سليم الجزائري واسعد درويش الطرابلسي ، وفيها من العرب المدنيين فارس الخوري وشكري العسلي وعبد الوهاب المويلحي وغيرهم ، ومن الاتراك أمير اللواء بدري بك ومدير المعارف حسين عوني ، ويضيف الشهابي الى انه استقى هذه المعلومات من احد اعضاء هذه الحلقة السياسية وهو فارس الخوري الذي كان النصراني الوحيد في هذه الحلقة(١٤) .

حلقة دمشق الصغرى : ربما كان مصطفى الشهابي ، يعني بهذه الجمعية السرية، حلقة دمشق الصغرى السرية ، اذ كان من بين اعضائها فارس الخوري وكان النصراني الوحيد فيها كما يقول صديقه لطفي الحفار (١٥) .

لقد بدأ التفكير بتأسيس هذه الحلقة بين بعض طلاب الفصول النهائية في المدرسة

الثانوية بدمشق المعروفة بـ « مكتب عنبر » وكان هؤلاء الطلاب يترددون على حلقة الشيخ طاهر الجزائري لحضور الاجتماعات والندوات فيها ، ورائد فكرة التأسيس هذه هو « محب الدين الخطيب » الذي كان يلازم الاجتماع في الحلقتين « ليكون الصلة بينهما (١٦) وعندما انتهت حلقة دمشق الكبرى ، اتفق هؤلاء الطلبة فيما بينهم على الانتظام في حلقتهم السياسية السرية سنة ١٩٠٣ ، واطلقوا عليها اسم حلقة دمشق الصغرى « اسوة بحلقة دمشق الكبرى » وتشير وثائق محب الدين الخطيب الى اسماء اعضاء هذه الحلقة وهم « زملاء المدرسة » صلاح الدين القاسمي وعارف الشهابي وصالح قنباز ، اما خارج المدرسة فكان من اعضائها لطفي الحفار ورشدي الحكيم ، وتضيف مذكرات محب الدين الخطيب اسماء ، زكي الخطيب ، وعثمان مردم وسيف الدين الخطيب (١٧) .

يشير مؤسس الحلقة « محب الدين الخطيب » الى الهدف الاول لتأسيس الحلقة بقوله : « كنا نتعلم في مكتب عنبر كل العلوم باللغة التركية ، حتى نحو العربية وصرفها ، من كتاب باللغة التركية اسمه « المشذب » كان مفروضا على مدارس الحكومة في الولايات العربية ، وكان معلم اللغة العربية شيخا تركيا مسنا لايكاد يعرف النطق باللغة العربية » (١٨) في هذا الجو نشأ مؤسسو حلقة دمشق الصغرى ، ومن هذا المنطلق تحدد هدف الحلقة وهو: « تعريف شباب العرب المثقف بعروبتهم ودعوتهم الى التعاون في اصلاح المجتمع العثماني الذي كان يتوقف على صلاحه صلاح المجتمع العربي من جبال طوروس الى باب المندب (١٩) .

وقد انتقل هؤلاء الطلبة بسرعة مذهلة من الكلام النظري الى التطبيق العملي ، فأسسوا غرفا للمطالعة ، وساهموا في التعليم في المدارس الاهلية بالمجان ، وتوسع انتشار هذه الحلقة عندما سافر عدد من اعضائها الى بيروت لتكملة الدراسة هناك واتصلوا بزملائهم في الكلية الاميريكية ، وكلية الشيخ عباس الازهري ، حيث انضم الى عضويتها عارف النكدي وعبد الغني العريسي ومحمد المحمصاني والامير عادل ارسلان وغيرهم (٢٠) .

وعندما انتقل عدد من اعضاء الحلقة المؤسسين الى استامبول للدراسة العالية ، وكان منهم محب الدين الخطيب ، وعارف الشهابي ، تحولت حلقة دمشق الصغرى الى جمعية سياسية هي جمعية النهضة العربية .

ـ من الجمعيات العلمية ـ الى الجمعيات السياسية : مما لا شك فيه ، ان

هذه الجمعيات ، العلمية والعلمية ـ السياسية ، ومنجزاتها ، اثرت تأثيرا فعالا في نشوء الجمعيات السياسية ، وذلك انها :

اثرت في تكوين الوعي العام العلمي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي ، من خلال الابحاث التي كانت تعرضها للمناقشة ، وما كان يترتب على هذا النقاش من تفاعل يساعد على انتشار الوعي بصورة عامة .

ومن ناحية اخرى ، فان الجمعيات الخيرية منها ، بصورة خاصة ، ساهمت في تكوين « المسؤولية الاجتماعية » تجاه المواطن الذي يحتاج الى الرعاية والعناية ولا يخفى الاثر الفعال الذي يتركه غرس ونمو معاني مسؤولية الافراد تجاه المجتمع بصورة عامة من خلق المسؤولية السياسية تجاهه ، وما تتبلور في هذه المسؤولية من تطلع لتأسيس الجمعيات السياسية كأداة لها .

ثم ان ممارسة عملية الانتساب والانتظام في الجمعيات ـ بقطع النظر عن اهدافها ـ وما تنطوي عليه هذه الممارسة من اعمال تنظيمية وتنفيذية ومن ممارسة حقوق العضوية واداء واجباتها ،كل ذلك ساعد على خلق الادراك لاهمية وفائدة « العمل الجماعي المنظم » كما ساعد على توفير الخبرة اللازمة لبناء « المنظمات » التي تؤدي هذا العمل الجماعي ، فساعدت بذلك على توفير الادراك والخبرة اللازمين لتكوين « الصيغ التنظيمية » في مجال العمل السياسي والجماعي .

لقد أسس السوريون المهاجرون الى مصر أول جمعية عثمانية سياسية هي جمعية « الشورى العثمانية » برئاسة الشيخ رشيد رضا .

كما أسس الطلبة السوريون الذين سافروا الى استامبول لتلقي التعليم العالي هناك ، جمعية النهضة العربية .

أما جمعية الشورى العثمانية : فقد تأسست في مدينة القاهرة مع مطلع القرن العشرين . فكانت بذلك من اوائل التنظيمات السياسية التي ظهرت في الدولة العثمانية من جهة ، ومن اوائل التنظيمات السياسية التي اسسها العرب السوريون من جهة أخرى (٢١) .

ولم تقتصر جمعية الشورى العثمانية على العرب فقط بل ضمت بين اعضائها عددا كبيرا من ابناء القوميات العثمانية الاخرى المقيمين في مصر ، ويقول الشيخ

رشيد رضا : « كان يصل الينا القليل من اخبار الاستبداد ووقائع الافساد ، وبعد وفاة الاستاذ الامام ــ يعني الامام محمد عبده ــ صرفنا وقت الفراغ والراحة الذي كنا نجالسه فيه الى مجالسة اخواننا العثمانيين المقيمين في القاهرة ، فازددنا علما بسوء الحال وخطر المآل ، فأسسنا جمعية الشورى العثمانية لاجل جمع كلمة العثمانيين ، فتألفت الجمعية من المسلمين : عربهم وتركهم والبانهم ..»(٢٢).

أما هيئتها الادارية الاولى فكانت على النحو التالي :

الشيخ رشيد رضا رئيس مجلس الادارة .
رفيق العظم امين الصندوق .
حقي العظم ــ السكرتير العربي .
الضابط صائب بك ــ مندوب جمعية الاتحاد والترقي بمصر .
عبد الله جودت بك ــ أحد مؤسسي جمعية الاتحاد والترقي(٢٣) .

لقد تأسس عدة فروع لهذه الجمعية في الاقطار المختلفة ، وكانت تطبع منشوراتها باللغتين العربية والتركية ، وترسلها الى فروعها في البلاد الاجنبية فيوزعونها في الولايات التي يقيمون فيها وفيما جاورها ، بل « كان يرسل بعض هذه المنشورات في البواخر الروسية مع بعض المسافرين والمستخدمين فيها الى ثغور البحر الاسود فيأخذها هناك منهم من يتولون ارسالها الى جميع بلاد الاناضول » .

وفي شهر شباط فبراير سنة ١٩٠٧ أصدرت جمعية الشورى العثمانية جريدة تحمل اسم الجمعية ، كان رفيق العظم يحرر القسم العربي منها وحقي العظم يحرر القسم التركي أما انشاء واما ترجمة لما يكتبه اعضاء الجمعية باللغة العربية ، كما كانت تنشر المجلة بعض المقالات باللغة الفرنسية(٢٤) .

ويمكننا ان نصل الى عدة نتائج ايجابية ، من أقوال رئيس الجمعية التي نشرها في عدة مناسبات ، وأهم هذه النتائج :

ان هذه الجمعية تأسست بعد وفاة الشيخ الامام محمد عبده ، « وبعد تأسيس جمعية تركيا الفتاة وتكوين حزب الاتحاد والترقي »(٢٥) أي بعد سنة ١٩٠٤ وانها أصبحت قبل سنة ١٩٠٧ جمعية قائمة ناشطة ذات فروع في مناطق مختلفة وانها امتلكت في مطلع هذه السنة صحيفة تحمل اسمها .

وان هذه الجمعية تأسست بتأثير عاملين اساسيين يلقيان لنا اضواء ساطعة على ادراك مبادئها وأهدافها وهذان العاملان هما :

أولا : أوضاع الدولة العثمانية التي تتسم « بسوء الحال وخطر المآل » والتي تنذر بالخطر ، حتى كان نفور المتحدين معها في الدين واللغة والجنس ـ أي الترك ـ أشد من نفور المتحدين معها في الدين فقط ، كالعرب والاكراد ، فلم يكن يجدي في مواجهة تلك الاوضاع الا العمل المنظم الذي يستهدف سوء الحال وتلافي خطر المآل بمكافحة الاستبداد والظلم المتمثلين في نظام تلك الدولة ليحل محلها نظام قائم على الشورى والعدل ، وهذه هي الطريقة المثلى لصيانة الدولة من التمزيق بالاختلاف الذي هو ظهير الاستبداد والتفرق الذي هو نصير الاستعباد »(٢٦) . وفي رأينا أن هذا العامل العام كانعاملا اساسيا في ظهور جميع الجمعيات في تلك المرحلة من حياة الدولة العثمانية .

ثانيا : قصور جمعية تركيا الفتاة وحزب الاتحاد والترقي ، عن تمثيل ارادة جميع الشعوب التي تتكون منها الدولة العثمانية ، اذ « لو أن مؤسسي جمعية تركيا الفتاة اهتدوا الى هذا التأليف بين الشعوب والملل في ابتداء العمل لما نزل ببلاد الارمن وكريت ومكدونيا ما نزل ولما تفاقم أمر الاستبداد واستفحل . »(٢٧) فقد اقتصرت جمعية تركيا الفتاة ـ نظريا ـ على المسلمين من هذه الشعوب ، وركزت ـ عمليا ـ على سيادة وكيان العنصر التركي من بين المسلمين انفسهم .

مباديء جمعية الشورى واهدافها : لئن كانت ظروف تأسيس جمعية الشورى العثمانية ـ كما أوضحها رشيد رضا ـ تكشف لنا عن مبادئها وأهدافها ، فاننا نجد هذه المباديء والاهداف محددة مصاغة في وثيقتين :

الوثيقة الاولى : وهي نص اللائحة الاساسية للجمعية التي أعلنها رشيد رضا على صفحات المنار ودعا العثمانيين على اساسها للمسارعة بدخول الجمعية أفواجا . ولتعضيدها بآرائهم وأموالهم ،وتقع هذه اللائحة في عشر مواد تضم المبادىء والاهداف، ومعالم النظام الداخلي كذلك على الشكل التالي :

القصد من تأسيس هذه الجمعية « هو جعل الحكومة العثمانية دستورية شورية بالفعل »(م١) وأن الجمعية ستبذل مافي وسعها للوصول الى غرضها هذا « بكل الوسائل المشروعة(م٢) أما من حيث التكوين العضوي للجمعية ، فتشير اللائحة الى أن جمعية الشورى العثمانية « تؤلف من العثمانيين من غير التفات الى الدين والجنسية »(م٣)

أما بالنسبة اوضع قوانين الجمعية فهناك : « لجنة مركزية اصلية تقوم بوضع نظامات الجمعية وقوانينها »(م٤) وان سير أعمال الجمعية يعين من قبل اللجنة المركزية(م٧) اذ ان « اللجنة المركزية تقوم بوضع القوانين وطبعها وتسمية الاشخاص اللازمين للوظائف التي ترد بالقوانين وتعيين وظائف كل فرد من الجمعية ومراقبة أعمال الموظفين »(م٩) كما تبين لنا اللائحة أن مركز الجمعية الان « هي مدينة القاهرة بمصر »(م٥) وان فروع الجمعية تكون كلها تابعة في أعمالها للجنة الكبرى المعروفة باسم اللجنة المركزية الاصلية(م٦) كما تشير اللائحة الى أن جمعية الشورى العثمانية هي جمعية علنية لان :، « مقصد الجمعية الساعية للحصول عليه ليس خفيا لذلك **يجوز من الان اعلان وجودها** »(م٨) على ان « **تطبع هذه اللائحة الاساسية باللغات** التركية والعربية والارمنية والفرنسية »(م١٠)(٢٨) .

أما الوثيقة الثانية : فهي نص القانون الاساسي للجمعية الذي يظهر انه وضع وأعلن بعد وضع اللائحة الاساسية الموجزة التي ذكرتها سابقا .

ويتألف هذا القانون من ست عشرة مادة مبوبة في خمسة فصول ، يحدد الفصل الاول منها مباديء الجمعية واهدافها وهويتها بينما تنصرف الفصول الاخرى الى تنظيم ادارتها الداخلية(٢٩) .

فاذا ما قمنا بدراسة مقارنة لمواد اللائحة الاساسية ــ الوثيقة الاولى ــ ومواد **القانون الاساسي ــ الوثيقة الثانية ــ نرى أنه ليس بينهما اية فروق ذات بال ، سوى ان** القانون الاساسي أكثر تفصيلا من اللائحة .

ويشير القانون الاساسي الى ان الهدف الاساسي لجمعية **الشورى العثمانية** هو : التوسل لاقامة قاعدة الشورى على وجهها القطعي في دولة آل عثمان(م٢) وأضافت هذه الجمعية الى مطلب الشورى الذي كان مطلبا ينادي به المصلحون كعلاج لاوضاع الاستبداد ، مطلبا جوهريا اخر هو : « نشر العدل والترقي في المملكة على مايقتضيه العصر »(تتمةم٢) .

ان هاتين الفقرتين اللتين تتكون منهما المادة الثانية ، تدلان دلالة واضحة على أن العرب العثمانيين كانوا يشعرون بالاستبداد الذي يقوم عليه الحكم في الدولة العثمانية ، ويدركون مقدار تخلف هذه الدولة عن ركب الحضارة ، ومدى الهوة السحيقة القائمة بين تقدم اوروبا وتأخر الامبراطورية العثمانية ، شعورا وادراكا

أخذا يدفعان الى تكوين الجمعيات السياسية بدلا من الاكتفاء بدعوات المصلحين الفردية ، او تكوين الجمعيات العلمية والخيرية فقط .

وفوق ذلك فان استعمال عبارة « على وجهها القطعي » في وصف اقامة قاعدة الشورى التي اعتبرتها الجمعية هدفها الاساسي تقدم — في رأينا — دليلا صارخا على الحالة العقلية والنفسية التي كان يعيشها مؤسسو هذه الجمعية — كغيرهم من قادة الرأي العرب في الدولة العثمانية — وهي الحالة العقلية المؤمنة ايمانا حاسما بضرورة حلول قاعدة الشورى محل قاعدة الحكم الاستبدادي الفردي، والحالة النفسية المتشككة في اخلاص السلطان العثماني وحاشيته لجوهر مبدأ الشورى ، والمتوجسة خيفة من احتمالات قبول هذا المبدأ قبولا لفظيا وشكليا يفرغه من محتواه ويحطم جوهره فجاءت الجمعية بتلك الحالة العقلية — النفسية لتؤكد أن هدفها هو اقامة قاعدة الشورى ولكن على **وجهها القطعي** .

واذا كان القانون الاساسي لجمعية الشورى العثمانية لم يحاول تحديد المباديء النظرية العامة التي يقوم عليها تكوينها واهدافها ، فمما لا شك فيه ان اهدافها المذكورة وطبيعة تكوينها تشير اشارة واضحة الى مبادئها النظرية العامة على الشكل التالي :

١ — ان هدف الشورى هو في الوقت ذاته مبدأ نظري عام ، هو مبدأ الديموقراطية بالمضمون الذي حدده ومارسه الاسلام .

٢ — ان طبيعة الجمعية وتكوينها ، كجمعية عثمانية تضم العثمانيين من مسلمين وغير مسلمين ، تسعى لكي تقيم لها فروعا في البلاد العثمانية وفي غيرها من البلاد التي يقيم فيها العثمانيون ، يدل دلالة واضحة على انها كانت — بالمبدأ — جمعية غير طائفية وغير عنصرية ، كذلك فهي مفتوحة العضوية للعثماني المسلم والمسيحي ، العربي وغير العربي كذلك .

٣ — انها كانت تؤمن باتباع الاساليب المشروعة في الوصول الى هدفها ، وكانت لذلك جمعية علنية .

النظام الداخلي لجمعية الشورى العثمانية : فاذا ما انتقلنا الى دراسة « البعد التنظيمي » لجمعية الشورى ، نرى أن قانون الجمعية ينظم في فصوله الثاني والثالث والرابع والخامس شروط العضوية وواجباتها وحقوقها ، ويحدد الهيئات المسؤولة وطريقة تكوين شؤونها الداخلية ، فيحدد مدتها وسلطاتها ، كما ينظم الشؤون المالية للجمعيـة .

لقد فتحت جمعية الشورى باب العضوية أمام « كل عثماني عاقل محب لوطنه ، على ان يكون حميد السيرة » ، واشترطت ان تحل الارقام بدلا من الاسماء في تعريف الاعضاء ومخاطبتهم والكتابة اليهم .

وكان لهذه الجمعية تشكيل حزبي متكامل . يتكون من هيئات مركزية ، وهيئات فرعية توزع فيما بينها الصلاحيات الحزبية الادارية ، كما كان لها مالية منظمة . وأقام قانون الجمعية سلطة مركزية تتكون من مجلس ادارة يتالف من اثني عشر عضـوا يسمى الهيئة المركزية ، وسلطات محلية تتكون من مجالس ادارات الفروع(م٥وم٦) وحدد مدة تلك الهيئة وهذا المجلس بسنتين كحد أعلى(م٩) .

وقد وزع هذا القانون السلطات بين الهيئة المركزية ومجالس ادارات الفـروع توزيعا عاما ، غير مفصل او معقد ، بحيث تتولى الهيئة المركزية ادارة اعمالها والبحث عن طرق الدعوة لها ، وجمع المال وتنفيذ مقاصدها ، وتدبير شؤون فروعها ، وسـن اللوائح والقوانين لها(م٥،م٧) والاشراف المباشر على ماليتها .

واخذ القانون بمبدأ الانتخاب في تكوين الهيئة المركزية والمجالس المحلية وفي توزيع وظائف هذه الهيئات كذلك (٣٠) .

كما أسست الجمعية عدة فروع لها في الاقطار المختلفة ، وكانت تطبع منشوراتها بالعربية والتركيةوترسلها الى فروعها في البلاد الاجنبية فتوزع في الولايات ، ثم اصدرت جريدة ناطقة باسمها سنة ١٩٠٧ كما اشرت سابقا(٣١) .

وعندما علم السلطان عبد الحميد بتأسيس هذه الجمعية ولمس نشاطها اخذ في مقاومتها « وهجر النوم مضجعه ثلاث ليال »(٣٢) . « ولم يقر له قرار » حتى عرف مؤسسيها من بعض جواسيسه بمصر ، وأخذ في مقاومتها واطلق عليها اسم « الجمعية الافسادية »(٣٣) وعلى الرغم من موقف السلطان منها ومقاومته لها ، فقد استطاعت الشورى العثمانية ان تصمد للضغط الحميدي وتبقى قائمة حتى حدوث انقـلاب سنة ١٩٠٨ الدستوري .

جمعية الشورى العثمانية بعد الدستور : لقد حاول اعضاء جمعية الاتحـاد والترقي ، التقرب من أعضاء جمعية الشورى العثمانية بعد اعلان دستور سنة ١٩٠٨، ونجحوا في ذلك الى حد ما ، دليلنا على ذلك ما كتبه أحد أعضائها الدكتور « شبلي الشميل » مجاملا الاتحاديين بأن عليهم ان يفرضوا لغة مشتركة في البلاد ، وفضل

اللغة التركية على اللغة العربية «بالرغم من انها اغنى ماضيا وأوسع أدبا من اللغة التركية وادبها»(٣٤)لانها ــ في رأيه ــ اكثر ملاءمة لشكل الحكومة الحرة الجديدة .

ثم حاول الاتحاديون استقطاب اعضاء الجمعية والسيطرة عليها ككل ، وعندما فشلوا في ذلك ، لجأوا الى اسلوب **التفتيت**، ذلك انهم استطاعوا أن يؤثروا على رفيق العظم وحقي العظم ، فآثرا الدخول في جمعية الاتحاد والترقي ، عند زيارتهما للاستانة بعد الدستور ، وتفرق سائر الاعضاء الذين لم يجمعهم في مصر الا الاضطهاد ، فلم يبق لجمعية الشورى عمل(٣٥) ، وحلها حزب الاتحاد والترقي الحاكم .

أما جمعية النهضة العربية : فقد فكر في تأسيسها طلاب حلقة دمشق الصغرى منذ تاريخ ٨ ذي القعدة سنة ١٣٢٤ هـ ، أي بعد سفرهم الى استانبول ، على أن تكون « جمعية سياسية عربية سرية » وبقيت « الفكرة » تراودهم حتى استقر رأيهم على تأسيسها رسميا في : « صباح الثلاثاء الموافق ٥ جمادى الآخر سنة ١٣٢٥ / ١٣ تموز يوليو سنة ١٩٠٧ ، حيث دعا اعضاؤها الى حفلة عامة اقيمت في الحديقة البصرية في جزيرة « بيوك » وهي مصيف شهير لاستانبول .

وقد قدم الدعاة لتأسيس الجمعية بخطب سياسية منها : خطبة محب الدين الخطيب وكانت بعنوان ــ واجباتنا ــ ثم قصيدة عارف الشهابي بعنوان ــ نحن والاعياد ــ وبعد الحفل استقر رأي المؤسسين على أن تكون الجمعية في هذه المرحلة سرية(٣٦) .

لقد تشكلت أول هيئة ادارية لهذه الجمعية من الاعضاء المؤسسين ، وهم : محب الدين الخطيب ، عارف الشهابي ، عبد الكريم الخليل ، وشكري الجندي، (٣٧) .
وفي يوم الجمعة الموافق ٧ رجب سنة ١٣٢٥ / ٦ اغسطس آب سنة ١٩٠٧ . تأسس فرع الجمعية في دمشق باشراف صلاح الدين القاسمي ولطفي الحفار .

كان مركز الجمعية عند تأسيسها مدينة استانبول كما أشرنا ، ولكن بعد ثلاثة أشهر ، عاد أعضاء المركز الى مدينة دمشق بمناسبة العطلة المدرسية ، واجتمعوا باعضاء الفرع ،وقر رأيهم على ان تكون دمشق هي المركز العام للجمعية (٣٨) .

مبادىء جمعية النهضة العربية وأهدافها : لم يكن للجمعية عند تأسيسها قانون اساسي او قانون داخلي او برنامج مكتوب « بل كانت تمشي في عامة اعمالها على قرارات شتى تقررها هي لنفسها ومن ثم تشرع في تنفيذ ما يعهد اليها والى البعض من

اعضائها من مهامها م الاعمال(٣٩) . وعلى الرغم من ذلك ، ففي وسعنا أن نستخلص مباديء هذه الجمعية وأهدافها من محاضرات مؤسسيها واعضائها أو من آثارهم ، ونوجزها على الشكل التالي :

أهم مباديء الجمعية : ان العروبة اكرم عناصر الجامعة الاسلامية .

ان العروبة هي المسؤولة عن حمل رسالة الاسلام وتجديد شبابه وذلك بازالة الاسباب التي فرضتها الدولة العثمانية وهي : استعجام اللغة العربية ، وتجاهل ماكان يقع في الغرب من نهضة في الصناعة والعلم والتنظيم .

أما أهم أهداف الجمعية فهي : تعريف شباب العرب المثقفين بعروبتهم ،ودعوتهم الى التعاون في اصلاح المجتمع العثماني الذي كان يتوقف على صلاحه صلاح المجتمع العربي ، من جبال طوروس الى باب المندب .

واما من حيث النظام الداخلي : فانه لم يكن للجمعية عند تأسيسها نظام داخلي مكتوب ينظم شؤون عضويتها وادارتها ، وكانت مواردها المالية عبارة عن قطرات قليلة من المال يضعها كل فرد من اعضائها في صندوق يقتصدونها من مواردهم الخاصة حسب قانون عرفي سنوه فيما بينهم سرا .

تطور جمعية النهضة العربية بعد عام ١٩٠٨ : لقد طرأت تطورات هامة على هذه الجمعية بعد عام ١٩٠٨ كانت وليدة طبيعية لما عقد على اعلان الدستور من آمال في حرية العمل التنظيمي . فقد شارك العرب وجمعياتهم ، جمعية الاتحاد والترقي أفراح الاحتفال بالانقلاب الذي أعاد الدستور سنة ١٩٠٨ ، أملا منهم وتطلعا الى عهد جديد من الحرية الفردية والعربية .

ففي اليوم الاول لاعلان الدستور ، احتفلت جمعية الاتحاد والترقي باعلانه احتفالا عاما في استانبول ، وشارك الطلاب العرب هناك في الاحتفال ، وخرج أعضاء جمعية النهضة العربية « فرع استانبول » يساهمون في تمجيد هذه المناسبة ، ولم يكتف فرع جمعية النهضة العربية في دمشق بالاحتفال فقط ، بل توافد اعضاؤه في اليوم الثاني لاعلان الدستور الى مقهى القوتلي في دمشق واعلنوا عن انفسهم كجمعية قومية عربية ، واصبحت جمعية النهضة العربية جمعية علنية بعد ان كانت جمعية سرية .

وقام الخطباء من أعضاء الجمعية يلقون بكلماتهم الوطنية المعبرة عن اتجاهات

جمعيتهم وآمالها ، فألقى رشدي الحكيم خطابا عنوانه « امنية ولا كالاماني » وزكي الخطيب ألقى كلمة بعنوان « على سلم الارتقاء » ولطفي الحفار « في الماضي والحاضر » وصلاح الدين القاسمي « سماء تركيا » .

ولكن هذا التعبير العربي الايجابي لم يكن ليغير من سياسة حزب الاتحادوالترقي المرسومة والمدروسة :

لقد لمس الاتحاديون منذ اليوم الاول لاعلان الدستور حقيقة مطالب القوميات وامانيها ، وشهدوا كذلك مدى التأييد الهائل الذي اكتسبوه بعد الانقلاب الدستوري، فقد عبرت عن تلك المطالب وعن هذا التأييد جميع الجمعيات التي اقامتها قوميات الامبراطورية باشتراكها في أفراح أعياد انقلاب ٢٣ تموز سنة ١٩٠٨ . فكانت المحافظة على هذه الشعبية ، مع التنكر لتلك المطالب هي أول مهمة واجهتها جمعية الاتحاد والترقي لدى تطبيق برنامجها في التتريك والمركزية ، تجاه جمعيات القوميات الاخرى وباشرت جمعية الاتحاد والترقي تنفيذ خطتها الهادفة الى تصفية الجمعيات التي وجدتها قائمة عند اعلان الدستور .

تطور جمعية النهضة العربية بعد اعلان دستور سنة ١٩٨٠ : ومن هذا المنطلق ، **طرأ تطور كبير على جمعية النهضة العربية ، اذ حاول اعضاؤها الحصول على ترخيص** للعمل العلني « كجمعية عربية » بكل الوسائل ، ولكن حكومة الاتحاد والترقي بدأت تماطل دون الوصول الى نتيجة حتمية ، وكان الهدف من هذه المماطلة تحويل الجمعية من جمعية عربية سياسية الى جمعية ثقافية فقط . . .

ورغم هذه المماطلة فقد اجتمع اعضاء جمعية النهضة العربية في دمشق أوائل سنة ١٩٠٩ ووضعوا لجمعيتهم قانونا خاصا صادق عليه الاعضاء في جلسة علنية عامة وانتخبوا هيئة ادارية جديدة ، برئاسة محب الدين الخطيب ، وعضوية رشدي الحكيم ، وجمال الحفار وزكي الخطيب ، وعندما عاد رئيس الجمعية وبعض اعضائها للدراسة في استانبول ، انتخبت الجمعية هيئة ادارية جديدة برئاسة رضا مردم ، وعضوية حكمت المرادي (نائب الرئيس) ، ورشدي الحكيم (المحاسب) ، وجمال الحفار (امين الصندوق)، وزكي الخطيب (كاتب)، ولطفي الحفار وصلاح القاسمي، (من أعضاء مجلس الادارة) .

وبقي هذا الوضع قائما حتى فشل الثورة المضادة سنة ١٩٠٩ ، اذ عادالاتحاديون الى الحكم أشد قوة وتصلبا تجاه ابناء القوميات الاخرى وجمعياتهم ، وكانت أول

خطوة على طريق هذا التحدي ان تقدم النواب الاتحاديون بطرح المادة الرابعة من نظام الاجتماعات في مجلس المبعوثان ، وطلبوا مناقشتها في الجلسة المنعقدة بتاريخ ٧-٧-١٩٠٩ ، وتنص على أنه : « يمنع قيام الجمعيات ذات الاهداف السياسية والتسمية القومية في الدولة العثمانية »(٤٠) .

وبالرغم من مقاومة اعضاء القوميات غير التركية لهذه المادة ، الا انها فازت عندما عرضت على الاقتراع فنالت اكثرية ٩٠ — ٦٩ صوتا(٤١) .

اخذ الاتحاديون في ملاحقة اعضاء جمعية النهضة العربية في الاستانة ولم تكن مرخصة بعد ، فهاجر رئيس فرع استامبول ، محب الدين الخطيب الى مصر ، وتقلصت الجمعية في استامبول الا انها توسعت في دمشق ، وعقدت اجتماعا ليلة السبت في ١٣ ربيع اول سنة ١٣٢٧ لبحث قضية تغيير اسمها الى جمعية « النهضة السورية » بناء على طلب من حكومة الاتحاد والترقي ، وبعد المداولة قررت اللجنة الادارية ادخال تعديل على طلب الاتحاديين « رعاية لما كان يقتضيه الحال وناموس بقاء الانسب » وطلبت اللجنة تغيير اسم الجمعية من جمعية « النهضة السورية » الى اسم « جمعية النهضة » فقط ذلك ان الاسم الاول الذي اقترحه الاتحاديون لايعم الاعضاء من غير سورية ولايشمل الفروع التي في الاقطار الاخرى (٤٢).

وقد ارفقت الجمعية هذا القرار بنظامها الاساسي الداخلي وطلبت الترخيص لها على اساس ذلك . أخذ الاتحاديون كعادتهم في مماطلة اعضاء جمعية النهضة العربية ومقاومتهم حتى « عدلت الجمعية في قانونها المقترح ونقحته وجعلته منطبقا على قانون الجمعيات الحديث ، بعد أن كانت تمازجه روح السياسة » .

وتبدو لنا هذه التطورات والتعديلات من تحليل قانون جمعية النهضة الذي اجيز في الجلسة العامة المنعقدة ليلة ١٣ ربيع الاول سنة ١٣٢٧ ، والذي قدم لحكومة الاتحاديين من أجل الحصول على الترخيص القانوني للجمعية ، ثم من تحليل هذا القانون بعد ان ادخلت عليه بعض التعديلات قبل أن يتخذ الصيغة النهائية التي اجازته بها الحكومة بتصريح مؤرخ في ١١ تشرين الاول ، شرقي عام ١٣٢٧ ، وفي ضوء المحاضرات الهامة التي القاها صلاح الدين القاسمي أول أمين عام للجمعية في وضعها النهائي ، وكانت هذه المحاضرات بعنوان « عقبات في طريق الجمعية »(٤٣) .

مبادىء الجمعية واهدافها : يوجز قانون الجمعية الذي اجازته الحكومة مبادئها بصورة محددة في المادة الثانية من هذا القانون ، وهي المادة التي تبتدىء بتحديد

هوية الجمعية في أنها « علمية محضة » وبالرغم من وضوح مقدار ما فرضته الحكومة على الجمعية من ابتعاد عن الاشتغال بالسياسة باية صورة من الصور ، فان الامريبدو بصورة أوضح عندما تقارن هذه المادة في القانون المصرح به مع مثيلتها في قانـــون الجمعية المقترح .

لقد راعت جمعية النهضة ما تدركه من عزم الحكومة على حرمانها من اي نشاط سياسي ؛ وصاغت نظامها الاساسي المقترح على اساس هذا الوعي ، ولكن بصـــورة تتيح بعض النشاط السياسي غير المباشر ، فجاء التعديل الذي فرضته الحكومة على الدستور حاسما وقاسيا في اقفال ماقد تتيحه تلك الصياغة من أوجه هذا النشاط السياسي غير المباشر اقفالا محكما على الشكل التالي :

١ ــ تنص المادة الثانية من القانون المقترح على أن « الجمعية علمية » بينما يؤكد القانون المصرح به في نفس المادة على أن الجمعية علمية « محضة » وواضح ما تنطوي عليه كلمة محضة من معاني التحريم المطلق لكل نشاط ذي صبغة سياسية ، مباشرة كانت أو غير مباشرة .

٢ ــ تنص المادة الثانية من القانون المقترح على ان مبادىء الجمعية هي :

المبدأ الاول : نشر اللغة العربية وادابها وترقية العثمانيين عموما والعــرب خصوصا باشاعة العلم بين ابنائها .

المبدأ الثاني : اقامة اوضاع علمية وخيربة خدمة للمبادىء المصرح بها في هذا القانــون .

المبدأ الثالث : تنشيط كل ما من شأنه عمران الوطن اذا كان في وسعها ذلك .

المبدأ الرابع : التعاون بين الاعضاء في المصالح الادبية والمادية .

المبدأ الخامس : اغاثة العضو أو اسرته اذا دعت الحال الحيوية وكان ذلك في امكان الجمعية(٤٤) .

بينما تنص المادة الثانية من القانون المصرح به على ان مبادىء الجمعية هي :

أ ــ العناية باللغة العربية وآدابها .

ب ــ اقامة أوضاع علميــة .

جـ ـ التعاون بين الاعضاء في المصالح المادية والادبية(٤٥) .

وهكذا فان القانون المصرح به عدل هذه المادة تعديلا جذريا يبدو بالمقارنة فيمايلي:

ـ حذفت المبدأ الثالث والخامس بأكملهما .

ـ حذفت عبارة ترقية العثمانيين عموما والعرب خصوصا باشاعة العلم بين ابنائها من المبدأ الاول ، واستعيض عن عبارة : نشر اللغة العربية وآدابها ، بعبارة : العناية باللغة العربية وآدابها .

ـ ابدلت عبارة اقامة اوضاع علمية وخيرية خدمة للمبادىء المصرح بها في هذا القانون ، التي تكون المبدأ الثاني من القانون المقترح ، بعبارة « اقامة أوضاع علمية » الواردة في المبدأ الثاني من القانون المصرح به .

ـ بقي المبدأ الرابع من القانون المقترح على حاله في القانون المصرح به واصبح المبدأ الثالث والاخير .

واضح من النصين المقترح ثم المصرح به أن ماسمي مبادىء الجمعية انما ينحصر في أهدافها التي ضيق القانون المصرح به افاقها تضييقا بالغا .

العضوية : أخذت جمعية النهضة بنوعين من العضوية هما : في القانون المقترح اعضاء شرف واعضاء عاملون ، في القانون المصرح به : أعضاء عاملون واعضاء مساعدون .

أما بصدد شروط العضوية ، فقد كان القانون المقترح ، يتضمن اربعة شروط تجعل من الجمعية ، جمعية عربية ، وتؤكد التزام العضو بمبادىء الجمعية ،وبالمناداة بمبدأ لشورى ، وبأن يكون العضو حسن السيرة يعرف القراءة والكتابة(م٦) ولكن القانون المصرح به الغى هذه المادة الغاء كليا.

أما بالنسبة لحقوق الاعضاء ، وواجباتهم والهيئات المسؤولة في الجمعية وتنظيم عملها وعلاقاتها : فقد تحددت هذه النواحي في النظام الداخلي لجمعية النهضة ، في الفصول الثالث والرابع والخامس من نظامها المصرح به ، وهي الفصول التي تشتمل على المواد من ٧ حتى ٣٣ .

لقد اختصرت صيغة القانون المصرح به مواد القانون المقترح في هذه المسائل

اختصارا كبيرا ، قلل من وضوحها وانضباطها ـ تمشيا مع سياسة ضمان ان تكون الجمعية مجرد جمعية علمية ـ وبدا ذلك بصورة خاصة في نقطتين بارزتين هما :

١ ـ حذف الفصل السابع من القانون المقترح الذي ينظم مالية الجمعية .

٢ ـ حذف الفصل الثامن من القانون المقترح الذيينظم مالية الجمعية بصورة استهدفت خنق الجمعية ماليا ، وذلك من حيث قصر القانون المصرح به ماليتها على اشتراكات الاعضاء الشهرية التي جعل حدها الادنى ربع مجيدي ، ووضع لها حدا اعلى لايتعدى ٢٤ ليرة في السنة ، ومنع عنها الموارد الاخرى التي كان ينص عليها القانون المقترح في المادة (٣٤) وهي المواد الاتية :

ـ من واردات المشروعات والاعمال التي تقوم بها (م٢) .

ـ من التبرعات والهداياالتي ترد اليها (م٣).

ـ من الاعانات التي تقررها على اعضائها اذا مست الحاجة ، او تستجلبها من صناديق الفروع (م٤) .

أما الاسس الاخرى التي يقوم عليها تنظيم تلك الشؤون الحزبية الداخلية فلم يصبها تغير جذري ، فبقيت قابلة للايجاز على الشكل التالي :

١ ـ يكون طلب الانتساب الى الجمعية : « بان يقدم الراغب في ذلك طلبه الى اللجنة الادارية بكتاب خاص ، أما بواسطة احد اعضائها او بوضعه في صندوق المراسلات ، واذا قررت اللجنة قبوله تبلغه ذلك في مدة معينة » .

٢ ـ للجمعية لجنة ادارية تتألف من سبعة اعضاء (كانوا في القانون المقترح اربعة عشر عضوا) ينتخب اعضاؤها من بين الاعضاء العاملين وينتخب اعضاء اللجنة من بينهم رئيسا ونائب رئيس وكاتبا وأمين صندوق ومحاسبا .

٣ ـ يدفع العضو الى صندوق الجمعية اشتراكا شهريا حده الادنى ربع مجيدي وحده الاعلى ٢٤ ليرة في السنة (الحد الادنى في القانون المقترح نصف مجيدي ولايوجد تعيين للحد الاعلى).

٤ ـ اماواجبات وصلاحيات لجنة الادارة وموظفيها (حسب تعبير قانون الجمعية) فهي ان اللجنة مسؤولة مسؤولية مشتركة عن سير اعمال الجمعية ، بينما تكون واجبات الموظفين كما يلي :

ـ واجبات الرئيس هي :

رئاسة لجنة الادارة والجلسات العامة والمحافظة على النظام فيها ، والاشراف على اعمال الجمعية (م ١٠) .

ـ واجبات نائب الرئيس هي :

القيام بواجبات الرئيس عند غيابه (م ١١) .

ـ واجبات الكاتب هي :

ان يحفظ جدولا فيه اسماء الاعضاء وتاريخ دخولهم ومقدار المرتب الذي يستوفى منهم مشاهرة وان يقوم بالشؤون الكتابية في الجمعية (م١٢) .

ـ واجبات المحاسب هي :

تنظيم الدفاتر وتسجيل حسابات الجمعية وعرضها على لجنة الادارة اخر كل شهر وتوقيع الوصولات (م ١٣) .

ـ واجبات امين الصندوق هي :

حفظ اموال الجمعية وجباية المرتبات وصرف ماتقرره اللجنة والجمعيةوتدوين ذلك فيدفتر خاص (م ١٤) .

٥ ـ امابصدد نظام جلسات لجنة الادارة فقد اخذت الجمعية بالاسس التالية:

ـ تجتمع لجنة الادارة ليلة الجمعة من كل اسبوع (م ١٥) .

ـ اذا اجتمع خمسة من اعضاء اللجنة ، يباشرون العمل (م١٧) .

٦ ـ اما بصدد نظام اجتماعات الجمعية العامة فقد اخذت الجمعية بالاسس التـالية :

ـ اعضاء الجمعية يجتمعون في جلسة عامة مرة كل شهر يتلي فيها خطاب عن اعمال اللجنة خلال ذلك الشهر (م ١٦) .

ـ الجلسة العامة تعقد اذا وجدت الاكثرية المطلقة (م ١٧) .

٧ ـ وقد وردت بعض اسس تنظيمية اخرى في ذيل القانون الاساسي اهمها :

ـ لايجرد العضو من العضوية الا بثلثي الاراء في جلسة عامة (م١٩).

ـ لايجوز نقض قرار الجمعية او اللجنة الا بأكثرية ثلثي الاراء (م ٢٣) .

ـ اذا طلب عشرة على الاقل من اعضاء اللجنة احداث تغيير في القانون أو قررت اللجنة الادارية ذلك يعرض الطلب او القرار على الجمعية في جلسة عامة ويكون التغير بأغلبية ثلثي اراء الاعضاء (م ٢١) .

ـ تغيير مواد هذا القانون من حقوق اللجنة الادارية (م ٢٠) .

ـ لا تسأل الجمعية الا عما تقرر عمله بقرار اللجنة الادارية أو الجلسة العامة وليس عليها تبعة عمل يأتي به احد اعضائها بدون قرار منها (م ٢٢) ،

ويبدو واضحا من نص هذه المادة جو الارهاب الذي كان مفروضا على جمعية النهضة ونشاطها .

ويبرز من هذا التحليل ان من اهم سمات التنظيم الداخلي الوارد في قانون جمعية النهضة سمة الديموقراطية التي تتجسم في العناصر التاليـــة :

١ ـ الانتخـاب : سواء اكان ذلك في ان الهيئة العامة تنتخب اللجنة الادارية او في ان اللجنة الادارية تنتخب موظفيها .

٢ ـ رأي الاكثرية : هو الذي يسري في جميع قرارات الجمعية ولجنتها مع تحفظ يتطلب ان تكون هذه الاكثرية في مستوى الثلثين حينما يتعلق الامر بحرمان عضو من عضويته ، او تعديل قانون الجمعية او تغيير قرارات اللجنة الادارية .

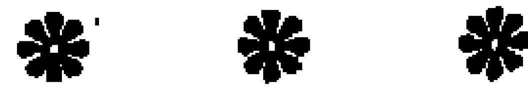
لقد اقر الاتحاديون دستور الجمعية بصيغته الجديدة سنة ١٩١٠ وبذلك اصبحت الجمعية شرعية بعد مماطلة دامت اكثر من سنتين. وقدبقيت جمعية النهضة قائمة حتى نشوب الحرب العالمية الاولى . ويعود الفضل في بقائها طيلة هذه المدة ، الى الخط الثقافي ذي المضمون السياسي الذي سارت عليه حتى الحرب ، فكانت قلعة ثقافية متحررة في مدينة دمشق (٤٦) تعلم ابناء الشعب من التجار والصناع واعضاء الجمعية الذين لم تمكنهم ظروفهم من تلقي الدروس العربية ، وذلك بأن افتتحت «مكاتب الشعب» أو «بيوت الشعب». وقام الاعضاء بتمثيل الروايات الوطنية مثل « فتاة الدستور » وغيرها ، وخصص ربع هذه التمثيليات الى غرف القــراءة التابعة للجمعية(٤٧) . وكان اشهرها قاعة القراءة في الدرويشية ، وقاعة القراءة التي اقامها اعضاء الجمعية في الطابق الاعلى من خان الجمرك ، وكان ممن يلقي الدروس

في هذه الدور (او الغرف) فارس الخوري ، وعبد الرحمن الشهبندر وشكري العسلي ، وكرد علي وغيرهم (٤٨) .

امابرنامج الجمعية الثقافي بشكل عام ، فكان يتناول الابحاث العربية ويكفي ان نستشهد بعناوين المحاضرات ،فهي التي تدل على اتجاه جمعية النهضة القومي، رغم الضغط الشديد عليها لتحويلها الى جمعية علمية فقط ، فقد كانت المحاضرات تحمل هذه العناوين «المسألة العربية ونشأتها» و «الخطران الاصفران » ويعني المحاضر بهما الصهيونية ووباء الكوليرا)،و « الامة والموظفون »،ثم« القومية فيالامم ».

ويشير المحاضر في هذه المحاضرة الاخيرة الى تأليف الاتراك عدة جمعيات تركية محضة مثل: « ترك درنكي »و« ترك اوجاغي »و« ترك يوردي»...الخ،الى ان يقول : فعسى ان يكون لنا نحن العرب من ذلك درس نافع يحملنا على الاخذ بالجديد المفيد وطرح النظريات الرثة البالية في عصر ليس الحكم فيه الا للقوة والمصلحة القومية (٤٩) .

واذا كانت جمعية النهضة قد انتهت مع بداية الحرب العالمية الاولى الا انهـا امدت الحركة الوطنية في سورية برجال كان لهم الاثر الفعال في كل التشكيلات الحزبية التي ظهرت في النصف الاول من القرن العشرين ، وخصوصا ـحزب الكتلة الوطنيةـ كما امدت الحركة السياسية بعدد من الرجال الذين كان لهم اثرهم الفعال في تاريخ الدولة السورية من امثال فارس الخوري ، وزكي الخطيب ، وعبد الرحمن الشهبندر ولطفي الحفار وغيرهم كثير .



(١) وهي الجمعيات التي اسسها السوريون داخل سوريا وخارجها .

(٢) راجع مجلة المقتطف م٧ ج٣ ص ٣٨٧ .

(٣) مذكرات مدحت باشا ، تعريب يوسف كمال حتاته ، ص ٣٦ – ٣٧ .

(٤) احمد امين ، زعماء الاصلاح ، ص ٥٤ .

(٥) مجلة المقتطف ، المرجع السابق .

(٦) لا بد من الاشارة الى أن جمعيات علمية كبرى كانت قائمة في مصر ايضا مثل المجمع العلمي المصري، ومجلس المعارف المصري ، والجمعية الجغرافية الخديوية ، وجمعية الاداب التي تاسست سنة ١٨٧١ والجمعية العلمية الشرقية سنة ١٨٧٧ ، وهذا بالاضافة الى جمعية العروة الوثقى التي ساهمت في تمويل مجلة العروة الوثقى التي اصدرها جمال الدين الافغاني ومحمد عبده في باريس .

(٧) J. leine, Arab - Turkish. P. 57

(٨) مصطفى الشهابي ، محاضرات في القومية العربية ، ص ٤٨ .

(٩) مصطفى الشهابي ، المصدر السابق .

(١٠) الشيخ طاهر الجزائري علامة من علماء دمشق ، كان المفتش الاول من جانب الدولة العثمانية على جميع دور الكتب في الولايات السورية من اقصى حلب شمالا الى جنوب فلسطين . ولد سنة ١٨٥٢ وتوفي سنة ١٩٢٠ (من أوراق محب الدين الخطيب) .

(١١) مذكرات محب الدين الخطيب ، سيرة جيل ، مخطوط لم يطبع بعد .

(١٢) عبد العزيز عوض ، الادارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤ – ١٩١٤ .

(١٣) مصطفى الشهابي ، المصدر السابق ص٥٠ . ومذكرات محب الدين الخطيب ، سيرة جيل .

(١٤) مصطفى الشهابي ، المصدر السابق ، ص ٥١ .

(١٥) محمد الفرحاني ، فارس الخوري وايام لا تنسى ، ص ٢٣٦ .

(١٦) مذكرات محب الدين الخطيب ، سيرة جيل ، مخطوط لم يطبع بعد .

(١٧) راجع كتاب بحوث في التاريخ الحديث مهداة الى الدكتور احمد عزت عبد الكريم صادر عن جامعة عين شمس ١٩٧٦ ، ص ١١٠ ، بحث للسيدة سهيلة الريماوي بعنوان « أوراق محب الدين الخطيب » .

(١٨) مذكرات محب الدين الخطيب ، سيرة جيل .

(١٩) د. صلاح الدين القاسمي ، آثاره ، من المقدمة بقلم محب الدين الخطيب .

(٢٠) مصطفى الشهابي ، محاضرات من القومية العربية ، ص ٤٠ .

(٢١) يشير السيد توفيق برو في كتابه ، العرب والترك في العهد العثماني ، ص ٢٤ الى ان بعض السوريين اشتركوا في تاسيس جمعية سرية سنة ١٨٦٥ مع الاتراك ، وتعرف باسم « يكي عثمانليلر » اي جمعية العثمانيين المحدثين ولكنه لم يذكر اي اسم عربي .

(٢٢) المنار م ١٢ ، ج١ ، ص ١٢ – ١٣ .

٢٣ ـ رفيق لعظم ، اثاره ، من المقدمة بقلم رشيدرضا ، ط ٢ ، ١٣٤٢ هـ .

٢٤ـ رفيق العظم ، المصدر السابق .

٢٥ ـ المنار ، م٩ ، ج١٢ ، ص٩١٥ .

٢٦ ـ المنار ، المصدر السابق .

٢٧ ـ المنار ، المصدر السابق .

٢٨ ـ المنار ، م٩ ، ج١٢ ، ص ٩٥٢ ، تاريخ ١٣ شباط ـ فبراير ١٩٠٧ .

٢٩ ـ وثيقةمن مجموعة وثائق محب الدين الخطيب.

٣٠ ـ وثيقة من مجموعة وثائق محب الدين الخطيب .

٣١ ـ رفيق العظم ، اثاره ، المقدمة .

٣٢ ـ المنار ، ١٢٣ ، ج١ ، ص ١٣ ، فاتحة السنة الثانية عشرة .

٣٣ ـ رفيق العظم ، المصدر السابق .

٣٤ ـ جريدة الاهرام ، بتاريخ ١٩٠٩/٣/٨ .

٣٥ ـ رفيق العظم ، مجموعة آثاره ، من المقدمة بقلم رشيد رضا .

٣٦ ـ مذكرات محب الدين الخطيب ، سيرة جيل، مخطوط لم يطبع بعد .

٣٧ ـ مصطفى الشهابي ، القومية العربية، ص٥٥ .

ومذكرات الخطيب ، المصدر السابق .

٣٨ ـ صلاح الدين القاسمي ، آثاره ، ص ٦ .

٣٩ ـ صلاح الدين القاسمي ، المصدر السابق ، ص ٩ .

٤٠ ـ Corresp. d'orient, 20 e année, 15-2-1909.

٤١ ـ جريدة المؤيد بتاريخ ٢ـ٨ـ١٩٠٩ .

٤٢ ـ من وثائق محب الدين الخطيب ، المقدمــة في القــانون المقترح .

٤٣ ـ من وثائق محب الديــن الخطيــب مؤسس الجمعية ، قانون جمعية النهضة المعدل .

٤٤ ـ من وثائق محب الدين الخطيب ، القانون المقتــرح .

٤٥ ـ من وثائق محب الدين الخطيب ، القانون المصرح به .

٤٦ ـ مذكرات محب الدين الخطيب ، سيرة جيل .

٤٧ صلاح الدين القاسمي ، اثاره ، ص ٨ مــن محاضرة القاها بعنوان كلمة في تاريخ الجمعية .

٤٨ ـ محمد الفرحاني ، فارس الخوري وايام لا تنسى ، ط بيروت سنة ١٩٦٥ ، ص ٢٣٧ .

٤٩ ـ صلاح الدين القاسمي، اثاره ، ص ٤٣ .

دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية

تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب

تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

العدد الثامن : رجب ١٤٠٢ هـ / نيسان (ابريل) ١٩٨٢م

ثمن العدد

سورية	٦٫٠٠ ق.س	تونس	١٫٠٠ دينار كويتي
لبنـان	٨٫٠٠ ق.ل	المغرب	١٤٫٠٠ دينار مغربي
الكويت	٧٫٠٠ فلس كويتي	قطـر	٩٫٠٠ ريال قطري
البحرين	١٫٠٠ دينار بحراني	السعودية	٨٫٥٠ ريال سعودي
ليبيـا	١٫٣٠٠ دينار ليبي		

الاشتراكات – يرسل طلب الاشتراك الى ادارة المجله

المراسلات: لجنة كتابة تاريخ العرب
جامعة دمشق – الجمهورية العربية السورية

في هــذا العــدد

صفحة

تنويــه

- الاراء الواردة في المجلة تعبر عن وجهة نظر صاحبها .
- ترتيب البحوث يخضع لضرورات فنية .

تقـــديم

في الاعداد القادمة تبدا مجلة « دراسات تاريخية » بانتهاج اسلوب (الملف) ، الذي اعلنت عنه في عدد سابق ، وذلك بطرح موضوعات عامة تتعدد جوانبها ، ليسهم عدد من الباحثين المتخصصين ببحث هـــذه الجوانب ، كل من زاويته الخاصة ، بحيث يتكون من هذه البحوث دراسة متكاملة ومتعددة الجوانب للموضوع المطروح .

اما موضوعات الملفات المقترحة ، فهي الموضوعات التالية :

أ ـ في التاريخ القديم :

١ ـ دور الجزيرة العربية في التجـارة الدوليـة في التـاريخ القديـم وما قبل الاسلام .

٢ ـ الموقع الاستراتيجي للبلاد العربية ، واثره في العلاقات مع الشعوب الاخرى في القديم وحتى قيام الاسلام .

ب ـ في التاريخ الاسلامي :

١ ـ عصر الفتوح واثره في التحولات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي طرأت على المجتمع العربي .

٢ ـ العلاقات العربية الاوربية منذ فتح الاندلس وحتى سقوط صقلية .

٣ ـ حركات العامة في العصر العباسي : اسبابها ، اهميتهـا ، آثارهـا الاقتصادية والاجتماعية .

٤ ـ الترجمة والمترجمون واثرهما في تقدم العلوم عند العرب ، وفـي الحضارة الانسانية .

جـ ـ في التاريخ الحديث :

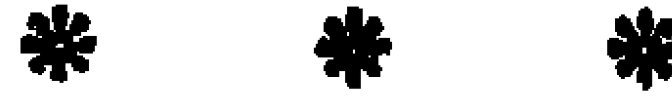
١ ـ اثر اختلال الادارة العثمانية على اقطار الوطن العربي (دراسة قطرية).

٢ ـ الاستعمار الاوربي ، ودوره في الحياة السياسية والداخليـة لاقطار الوطن العربي .

٣ ـ الحياة السياسية والدستورية في اقطار الوطن العربي في فترة مابين الحربيـن .

ويمكن ان تتناول البحوث ، اضافة الى هذه الموضوعات المقترحة ، موضوعات اخرى بمبادرات السادة الباحثين .

ولجنة الاشراف على المجلة نأمل ان لا يتأخر ورود البحوث ، حرصا على صدور الاعداد في مواعيدها المقررة .



جوانب من التاريخ العمراني والاجتماعي والاقتصادي في غزة ١٢٧٣ ـ ١٢٧٧ / ١٨٥٧ ـ ١٨٦١ من خلال الوثائق الشرعية

د. عبد الكريم رافق

كلية الاداب ـ جامعة دمشق

مازالت جوانب هامة من التاريخ الحضاري للاقطار العربية ، في مختلف عصورها ، مهملة الى حد كبير في الكتابات العربية . وقد اهتم الباحثون ، والى حد كبير في العقود الاخيرة ، بعدد من الجوانب العمرانية والاجتماعية والاقتصادية العربية ، امتدادا لاهتمامهم بهذه الجوانب في بلادهم ، وظهرت لهم دراسات معمقة حينا ، وسطحية حينا اخر ، في هذا المجال .

وغني عن القول ان التاريخ السياسي ، الذي انصب عليه اهتمام معظم المؤرخين العرب ، من الاهمية بمكان ، لانه يعطي ، حين يكتب بشكل متفهم ومتتبع للتيارات العميقة التي تنتظم الاحداث ، الخلفية التي تساعد على فهم النواحي الحضارية المختلفة . ولكل قوم طريقة عمرانهم ، وأساليب حياتهم الاجتماعية والاقتصادية . وبالرغم من شمولية الكثير من النواحي الحضارية وعالميتها، فان الصفات الخاصة تبقى اساسية ، لانها هي التي تتفاعل مع المؤثرات الخارجية ، وينتج عنها مزيج معين ، يبرز ما هو عام وما هو خاص . لذلك ، والامة العربية تتعرض لتبدلات وتحديات حضارية جذرية ، على اكثر من صعيد ، يجدر بنا توجيه الاهتمام الكافي الى الاصيل في تراثنا لنتبين المميزات الخاصة به .

(*) هذه الدراسة مبنية على سجل وحيد يعود لمحكمة غزة في الفترة موضوع البحث ، محفوظ في مديرية الوثائق التاريخية بدمشق ، ويتالف من ٤٥٩ صفحة من القطع الكبير ، ويضم حوالي ٣٧٤٥ وثيقة . وتسهيلا للبحث فقد أشرنا ، حيث دعت الحاجة ، الى الرموز المتعارف عليها للاشهر القمرية في التاريخ الهجري ، وما يقابلها في التاريخ الميلادي .

وبحثنا عن غزة اسهام بسيط في هذا النوع من الدراسات ، هدفه الكشف عن بعض الميزات العمرانية والاجتماعية والاقتصادية لمدينة هامة ،وثغر هام ، فيفلسطين، في فترة تعرضت فيها المنطقة بكاملها لمحاولات عثمانية فاشلة في الاصلاح ، وللمطامع الاستعمار والصهيونية .



وقد اعد هذا البحث عن غزة بمناسبة المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام ، الذي انعقد في الجامعة الاردنية بعمان في الفترة ما بين ٤ـ٩ جمادى الثانية ١٤٠٠هـ/١٩ـ٢٤ نيسان ١٩٨٠ م وتركزت ابحاثه حول فلسطين عبر التاريخ . وقد رأينا ، حرصا على تقديم هذا البحث لقراء مجلة (دراسات تاريخية) ، ان نختصر بعض الهوامش والتحقيقات ليسهل استيعابه في صفحات المجلة . ويمكن العودة النص الاصلي للاطلاع على الهوامش والمصادر المختلفة .



١ ـ مقدمـة :

لعبت غزة دورا هاما ابان الحكم العثماني . وكانت ، في معظم الاوقات ، صنجقا ، أو لواء ، في ولاية الشام . وألحقت ، لفترة قصيرة ، بولاية صيدا ، وكذلك بمتصرفية ، ثم ولاية ، القدس ، كما في الفترة التي نحن بصدد دراستها .

واشتهرت في غزة ، في النصف الثاني من القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر ، أسرة الأمير مصطفى ابي شاهين ، التي برز منها ابناه بهرام ورضوان . واشتهر كذلك ابن هذا الاخير ، أحمد ، الذي توفي في ١٥/١٠/١٦٠٦ . وعين هؤلاء الامراء حكاماً على صنجق غزة ، وشغل بعضهم حكم ولاية اليمن ومصر ، كما عهد اليهم بامارة الحج الشامي ، لسنوات عديدة . واشتهر من مماليك هذه الاسرة الامير فروخ بن عبد الله ، الذي حكم صنجقي نابلس والقدس ، وعين اميرا للحج الشامي، في الربع الاول من القرن السابع عشر(١) .

وبرز من أبناء غزة ، في القرن الثامن عشر ، حسين باشا ابن مكي ، الذي عين صنجقاً عليها ، وكانت تابعة لولاية الشام ، ثم نقل والياً على دمشق في عام ١٧٥٧ ، خلفا لاسعد باشا العظم(٢) ، واعتبره الاخباري الدمشقي المعاصر ، ميخائيل بريك ،

« من ثاني طائفة من أولاد العرب الذين صاروا وزراء في بلادنا »(٣) . وكانت الطائفة الاولى آل العظم(٤) .

واشتهرت غزة بمرور قافلة الحج الشامي فيها ، في بعض الاحيان ، اثناء عودتها من الحجاز ، لتحاشي هجمات البدو ، او لانقاذ ما يمكن انقاذه ، في اعقاب هذه الهجمات . وعرف الطريق الذي سلكته القافلة ، عبر غزة ، بالطريق الغزاوي ، تمييزا له عن الطريق الرئيسي ، المعروف بالطريق السلطاني(٥) . وذكر ان من أراد اللحاق من الحجاج الشاميين بقافلة الحج المصري ، التي كانت تمر بالعقبة ، كان يمر بغزة في طريقه الى العقبة(٦) . وافادت غزة كذلك من وقوعها على الطريق التجاري ، الذي يربط بين بلاد الشام ومصر .

ويتبين من وثائق محكمة غزة الشرعية ان غزة كانت ، في فترة دراستنا ، صنجقاً ، أو لواء ، حكمه قائمقام ، لقب بالافندي ، والحق بالقدس ، التي كانت آنذاك ، كما يبدو ، ولاية قائمة بذاتها . وكان والي القدس ، في عام ١٢٧٣/١٨٥٦ — ١٨٥٧ ، اسماعيل كامل باشا ، الذي وصف بأنه متصرف الالوية . وأشار الى امر صدر عنه بانه سطر « من ديوان متصرفيتنا ايالت قدس شريف ونابلس وغزة»(٧) . ويبدو انه خلفه في ولاية القدس مصطفى باشا ثريا ، الذي وصف في أمر أصدره الى قائمقام غزة ، في٢٨ محرم ١٢٧٤/ (١٨ ايلول ١٨٥٧) ، بانه « متصرف القدس الشريف »(٨) . كما وصف في الاوامر اللاحقة التي اصدرها الى قائمقام غزة وكبار موظفيها بانه « والي الالوية » ، وان امره صادر من « ديوان الوية القدس الشريف وملحقاتها » .

وقد شغل قائمقامية غزة في فترة دراستنا هذه كل من مصطفى بك السعيد ، الذي عزل بموجب الأمر الذي أبلغه والي القدس ، مصطفى باشا ثريا ، الى المسؤولين في غزة ، بتاريخ ٢٨ محرم ١٢٧٤/(١٨ ايلول ١٨٥٧) ، وعين مكانه سالم افندي . ثم عزل هذا القائمقام ، وخلفه في حكم غزة عثمان افندي القاسم ، كما جاء في الامر المؤرخ في ١٧ ربيع الثاني ١٢٧٤/(١٥ كانون الاول ١٨٥٧) ، الذي ابلغه مصطفى باشا ثريا الى المسؤولين في غزة . وفي أمر لاحق من مصطفى باشا ثريا ، مؤرخ في ١٩ شوال ١٢٧٤/(٢ حزيران ١٨٥٨) ، الى المسؤولين في غزة ، ابلغهم انهاء قائمقامية عثمان افندي القاسم في غزة ، وتوجيه هذا المنصب الى مصطفى بك السعيد(٢) .

واقام القائمقام في سراي غزة ، وتقع في الجانب الشرقي منها ، في مكان غير بعيد عن الجامع الكبير(٩) . وجاء في أوامر تعيينه ذكر المسؤوليات المترتبة عليه ،

مثل مطابقة أعماله للشريعة والقانون ، وتحصيل اموال الميري من محلاتها بأوقاتها ، وتوريدها الى الخزينة . ولعل المقصود بالخزينة هنا خزينة غزة التي اشارت اليها الوثائق . وحثت الاوامر القائمقام على الاهتمام بكافة السكان في غزة وخارجها ، وتأمين الأمن في الطرق .

وجاء تسلسل المسؤولين في غزة ، كما ورد ذلك في مطلع الأوامر الصادرة اليهم من قبل والي القدس ، وفق الترتيب التالي : قائمقام غزة ، وهو المعني الاول بتنفيذ الامر ، ثم نائب الشريعة حالا افندي ، اي القاضي الحنفي (ولم يذكر اسمه الا اذا كان الامر موجها اليه) . ومفتي افندي بها حالا ، وقائمقام نقيب السادة الاشراف بها حالا ، ثم اعضاء المجلس بها حالا . ولا نعرف شيئا عن تركيب هذا المجلس أو صلاحياته . وأشارت الأوامر ، بعد ذلك ، الى اصحاب الالقاب التالية ، او بعضهم « وجوه البلدة ، مختارين المحلات ، مشايخ الحارات ، ارباب التكلم بوجه العموم ، ومفاخر القبايل والعشاير شيوخ مشايخ عربان الصف القبلي والشمالي ومشايخ العربان ومشايخ واختيارية قرايا بلاد غزة بوجه العموم » .

وقد عين قاضي غزة الحنفي ، الذي اشير اليه ، عادة ، بنائب الشريعة في غزة ، واحيانا بخليفة الحكم الحنفي بمدينة غزة ، من قبل قاضي القدس ، الذي وصف بأنه منلا (مشتقة من مولى ، اي سيد) افندي الديار القدسية ، وذكر في قرار تعيين قاضي غزة انه نصب نائبا شرعيا بغزة هاشم ومجدل عسقلان . وكان والي القدس يؤكد تعيين القاضي بتوجيه أمر من قبله الى قائمقام غزة ، والى القاضي المعين ، والمفتي ، ونقيب الاشراف ، وأعضاء المجلس ، ووجوه البلدة ، وارباب التكلم بوجه عام ، يعلمهم فيه بتعيين القاضي الجديد وعزل سلفه ، ويوصيهم بأن يكون القاضي الجديد مرفوع المقام بينهم . ويهيب بالقاضي الجديد ان يتعاطى الاحكام على قاعدة ابي حنيفة وبتقوى الله .

واشير ، عادة ، في أمر تعيين قاضي غزة الى مهامه الرئيسة التي خوله اياها قاضي القدس ، ومنها « مباشرة وتعاطي فصل الاحكام بين الاهالي ، وختم الصكوك الشرعية والسندات المرعية ، وتحرير التركات الغير جسيمة وتقسيمها بين مستحقيها ، ونصب الاوصياء والنظار من أهل الدين والصلاح ، وتزويج من لا ولي لهمن الصغار ، وانابة من شاء عند الحاجة(١٠) . وابلغ القاضي ، وغيره من كبار الموظفين ، بالتوجيهات الجديدة حين صدورها . ومما أبلغه ، مثلا ، ضرورة تطبيق المساواة العادلة بين السكان ، على اختلاف مللهم ومذاهبهم ، وذلك في اعقاب صدور خط شريف همايون في ١٨ شباط ١٨٥٦ ، الذي أقر المساواة بين السكان .

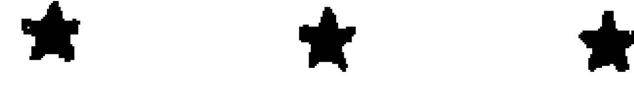
وابلغ القاضي ايضا ضرورة التأكد ، في عمليات شراء العقارات ، من هوية المشترين وجنسياتهم ، ومن صفة العقار ، ان كان ملكا ام وقفا . ومن صلاحيته (اي القاضي) النظر في امر العقار ،من حيث تبعيته لدائرته ام لدائرة قاض آخر ، وذلك في اعقاب صدور قانون الاراضي العثماني في عام ١٨٥٨ .

وشغل منصب القضاء في غزة ومجدل عسقلان ، في فترة دراستنا ، ثلاثة قضاة هم : مصطفى افندي ، وعلمي زاده السيد مصطفى وفا افندي (اي السيد مصطفى وفا افندي ابن علمي) ، الذي عين بموجب مراسلة من قبل والي القدس بتاريخ الاول من ربيع الاول ١٢٧٤/(٢٠ تشرين الاول ١٨٥٧) ، ثم عزل في الاول من ذي الحجة ١٢٧٦/(٢٠ حزيران ١٨٦٠) ، وخلفه صلاحي زاده السيد عبد الغني افندي .

ولا نعلم فيما اذا كانت الدولة قد اعتمدت في غزة ، او قام فيها ، في الواقع ، قضاة من المذاهب الاخرى . ووردت معلومات في الوثائق الشرعية عن ممارسة المفتي الشافعي في غزة ، واسمه محمد نجيب افندي النخال ، عملية الافتاء ، الى جانب المفتي الحنفي . ولكن المفتي الحنفي بقي متمزا ، واشير اليه بانه مفتي غزة . وشغل هذا المنصب ، في فترة دراستنا ، السيد الحاج احمد محي الدين عبد الحي الحسيني . وكان نقيب الاشراف في غزة السيد صالح افندي عبد الحي الحسيني ، ولعله من اقرباء المفتي الحنفي . ولم يرد ، في الوثائق ، ما يشير الى هوية السلطات التي عينت كلا من المفتي الحنفي والمفتي الشافعي ونقيب الاشراف في غزة .

وضم لواء ، او صنجق ، او قضاء غزة ، عددا كبيرا من القرى ، تراس كلا منها شيخ عرف بشيخ القرية . وذكرت الوثائق الشرعية ، في فترة دراستنا هذه ، القرى التالية (١١): برير ، البطاني الغربي ،بعلين ، بيت جرجا ،بيت حانون ، بيت داراس (ذكرها العارف ، ص ١٩٧ ، بيت دراس)(١٢) ، بيت طيما ، بيت لاهيا ، تل الترمس ، جباليا ، الجسير ، جلين ، جولس ، الجية ، حتا ، الحديثة ، حمامة ، حميل الخيل (ذكر العارف ص ١٩٧ قرية حميل ، ولعلها نفسها) ، خان يونس ، دمرة ، الدوالية ، الدوايمة ، دورة ، الدير ، دير البلح ، دير سنيد (ذكرها العارف ، ص ١٩٧ ، دير اسنيد) ، ذكريا ، زرنوقة ، سدود (ولعلها اسدود) سنمسم ، سوافير عودة ، سوافير المسالقة ، الشيخ مؤنس ، صامة (او حامة) ، عبسان ، عجور ، عراق المنشية ، الفالوجة ، القبيبة الغربية ،

القبيبة (وردت أيضا القبية) ، القسطينة ، التينة (وردت أيضا التينة)) المسمية ، معربيا ، المغـار ، ثعلبا ، هربيا ، يبنـا ، وكرين البردان . وبدهي ان هذه القري لا تشمل جميع قرى لواء غزة .



٢ ـ مظاهر عمرانيـة :

ميزت الوثائق الشرعية ، في تحديد مواقع المحلات والخطوط ، ومن خلالها مواقع العقارات ، في غزة ، بين داخل مدينة غزة وظاهرها . ومثل هذا التمييز ، بين داخل المدينة وظاهرها ، يقوم، عادة ، كما في دمشق مثلا ، بالاستناد الى سور المدينة . ولم تشر وثائق غزة ، في فترة دراستنا ، الى وجود مثل هذا السور . ولاحظ كتاب (بيديكر)(١٣) ، في حوالي عام ١٨٩٠ ، زوال وجود السور ، كذلك زوال وجود بوابات المدينة . وهناك اشارة(١٤) الى وجود السور قبل ذلك ، والى ان البقية الباقية منه قد تهدمت ابان هجوم نابليون بونابرت . ولم يتبق منه الا بقايا قليلة ، بجوار مدرسة الفلاح الاسلامية(١٥) . وربما كانت تسمية داخل غزة وظاهرها تعود الى زمن وجود السور . ومهما يكن ، فالامر الثابت ان وثائق غزة الشرعية اشارت الى هذا التقسيم ، وان داخل غزة ضم سبع محلات ، وما عداها عرف بظاهر غزة .

ولم يتجاوز ظاهر مدينة غزة حدود اراضيها المباشرة ، التي توقفت عنـد حدود اراضي القرى المجاورة لها . وتألفت الاراضي ظاهر مدينة غزة ، والتي اشير اليها بارض غزة ، من بساتين ، وحواكير ، كانت بجوار غـزة المباشر ، كما في داخلها ، ومن كروم وموارس (جمع مارس ، وهي الارض الزراعية) . ومن جملة ما وجد في ظاهر غزة سوق الحمير .

ومن النقاط المشهورة ، ظاهر غزة ، ما اسمته وثائق غـزة الشرعية بجبـل المنطار . واشير اليه كذلك بتل المنطار ، وكان على ارتفاع ثلاثة وثلاثين مترا عـن سطح البحر ، ويقع الى الجنوب الشرقي من غزة ، على مسافة خمس عشرة دقيقة منها ، كما قدرت في حوالي عام ١٨٩٠ . وفيه عدد من القبور ، واختلف المسلمون والمسيحيون حول تسميته ونسبته اليهم(١٦) . ولا ندري اذا كان المنطار هذا هو نفسه الذي اعطى اسمه الى ضريبة (منطقة) عرفت بضريبة ولي الله تعالى الشيخ ابو علي المنطار ، وكانت ظاهر غزة ، من الجهة الشرقية .

وتالف داخل غزة ، في فترة دراستنا ، من عدد من المحلات (مفردها محلة) ، وربما عادلت الاحياء في التعبير الدمشقي وغيره آنذاك . وورد في وثائق غزة الشرعية استخدام كلمة « حارة » ، ولكن بمعنى مرتبك ، فمرة قصد بها محلة ، ومرة سمي بها زقاق . وقسمت كل محلة الى خطوط (مفردها خط) ، وهي ما يعادل الشارع الرئيسي . وكلمة « خط » مقتبسة من مصر ، حيث استخدمت للدلالة على الشارع(١٧) . واستخدمت وثائق غزة الشرعية كلمة « شارع » بشكل ضئيل ، وبصورة مرتبكة ، فمرة استخدمتها للدلالة على « خط » ، كما ورد في العبارة التالية، حول موقع دكان صباغة : « داخل غزة بمحلة السجاعية بشارع الاسكافية » وهذا الشارع اشارت اليه الوثائق باستمرار تقريبا ، بخط الاسكافية . ووردت كلمة « شارع » بمعنى التفرع من خط ، كما في العبارة التالية : « الدار الكاينة داخل غزة بمحلة السجاعية بخط الجديدة شارع الواوية » . ويبدو ان « شارع » هنا اطلق على مسار سالك ، أي نافذ ، وربما يوازي ، في ذلك ، تعبير « الطريق السالك » الذي استخدمته الوثائق الشرعية ، باستمرار تقريبا ، حين تحديد جهات عقار ما ، ويقع فيه ، عادة ، باب العقار . ومن تفرعات الخط والطريق السالك الزقاق ، ويفترض انه ضيق وقصير ، وكان ، عادة ، غير نافذ ، وفتحت عليه ابواب الدور . ولم ترد في وثائق غزة كلمة « الدخلة » ، التي استخدمت في دمشق آنذاك لتدل على تفرع اصغرمن الزقاق ، وكانت غير سالكة .

ومن الطريف ان الامر الذي وجهه والي القدس الى قائمقام غزة وكبار موظفيها واصحاب النفوذ فيها ، بتاريخ ١٥ ذي الحجة ١٢٧٤/(٢٧ تموز ١٨٥٨) ، قد ذكر « مختارين المحلات ومشايخ الحارات » . ويبدو ان هذه العبارة هي مجرد اصطلاح ، استخدم في الاوامر الادارية ، بصورة عامة ، و لاينطبق على لواء غزة ، لأن الوثائق الشرعية فيها لم تشر الى الحارات ، وانما الى الخطوط ، الا اذا كان القصد من المحلات ، في الامر ، الاشارة الى الخطوط ، التي لم يكن لفظها مستعملا في غير لواء غزة .

ومما تجدر ملاحظته أن بعض القرى ، على الاقل ، المحيطة بغزة ، قد حذت حذوها في تسمية الشارع بالخط . ويلاحظ ذلك ، بصورة خاصة ، في جباليا ، اذ قسمت الى خطوط . ولكن لم ترد اشارة الى انتظام هذه الخطوط في محلات ، كما كان الامر في غزة ، ربما بسبب صغر حجم القرى . ومن الخطوط ، في قرية جباليا ، خط الدرادنة ، وخط الجامع الكبير .

وقد اشارت وثائق غزة الشرعية ، في فترة دراستنا ، الى سبع محلات فيها . واذا ما رتبناها بالنسبة لعدد الخطوط في كل منها لاصبح تصنيفها كما يلي :

السجاعية (وكتبت احيانا : الشجاعية) ، البرجلية ، الزيتون ، الدرج ، حكر التفاح (او التفاح) ، الخضر (أو دار الخضر) ، وبني عامر . وورد في الوثائق احيانا ذكر خط بني عامر ، التابع لمحلة البرجلية . فاذا كانت الاشارة هنا الى محلة بني عامر فهذا يعني ان المحلة لصغرها اعتبرت ، أو اصبحت خطا تابعا لمحلة البرجليـة .

وتقـع محـلات غزة ، مـن الناحية الجغرافية ، بالاستناد الى مصـور غزة الـذي وضعـه Aldrich (١٨) ، والى الاوصـاف الواردة في الوثائق الشرعية ، والمصادر الاخرى ، كما يلي : محلة السجاعية في الشرق من غـزة ، قرب الطريق المؤدي الى الخليل ، ومحلة التفاح في الشمال ، غربي الطريق المؤدي الى الرملـة ويافا ، ومحلة الزيتون في الجنوب ، غربي الطريق المؤدي الى العريش ، ومحلـة الدرج في الغرب من غزة ، أي الى الشمال الغربي من محلة الزيتون ، ومحلة الخضر الى الجنوب الغربي من محلة الدرج . وتقع محلة البرجلية الى الجنوب الشرقي من محلة الدرج ، باتجاه الشمال الغربي من محلة الزيتون . والى جانب محلة البرجلية ، وربما في قسم منها ، قامت محلة بني عامر ، التي حلت تسميتها فيما بعد ، كما يبدو ، محـل تسمية البرجلية .

ولو قارنا محلات غزة هـذه مع محلاتها ، التي ذكرتها كتابات اخـرى ، في فترات اخرى ، سابقة ولاحقة ، ابان الحكم العثماني ، لوجدنا انسجاما اكثر بين هذه المحلات ومحلات الفترات التي تقدمت دراستنا بحوالي ثلاثة قرون وربع القرن ، واختلافا مع محلات الفترة التي اعقبت دراستنا بحوالي ربع القرن . ففي القـرن السادس عشر ، ومن خلال عـدد مـن السجلات العثمانيـة ، ذكـرت احـدث الدراسات(١٩) وجود الحارات التالية : حكر التفاح ، دار الخضر ، الدباغة او الصباغة ، الزيتون ، البرجلية ، التركمان وسجاعية (او شجاعيـة) الاكـراد . وبالمقارنة مع فترتنا نجد ان حارة التركمان اصبحت خطا ، ضمـن محلة السجاعية . اما محلة الدباغة ، أو الصباغة ، فلـم ترد اية اشارة اليها في وثائق غـزة الشرعية ، في فترة دراستنا . وبدت الدراسة ، التي اوردت هذه التسمية ، غيـر متأكدة من طريقة كتابتها ، كما انها ذكرت انها جزء مـن حارة التفاح ، ولعلهـا جنوبـه حيث يقوم المسلخ ، وذلك بالاستناد الى ما ذكره العارف بعد حوالي اربعة قرون . ومع ذلك ينسجم هذا التقسيم مع تقسيم غزة ، في فترة دراستنا ، الى حد كبير ، ويتفق معه بانه لا يذكر حيا خاصا بالنصارى ، واخر باليهود ، واخر بالمسلمين .

بعد الفترة التي تلت دراستنا : بحوالي ربع القرن ، جاء في كتاب (بيديكر)(٢٠): ان غزة تألفت من اربع حارات ، هي : حارة التفاح ، وحارة السجاعية ، وحارة الزيتون ، وحارة الدرج ، وانه في السنوات الاخيرة زاد عدد حاراتها خمس حارات جديدة . ولكن الكتاب لم يسم هذه الحارات ، ولا موقعها ، ولا السنوات التي ازدادت فيها . كما انه لم يشر الى هوية السكان الذين اقاموا فيها ، وفيما اذا كانت هذه الحارات قد سلخت أو تفرعت عن الحارات الاربع الاولى .

ثم جاءت دراسة Gatt عن غزة في عام ١٨٨٧(٢١) ، ويبدو انه كان على اطلاع بما جاء في كتاب (بيديكر) باللغة الالمانية ، وربما على تنسيق معه ، فذكر ان حارات غزة، آنذاك ، هي التالية : الزيتون ، اليهود ، النصارى ، المسلمين ، الفواخير ، الدرج ، بني عامر ، التفاح ، والسجاعية ، وهذا التقسيم يعني انه في مدى حوالي خمس وعشرين سنة ، من فترة دراستنا ، اصبح في غزة تسع حارات ، عوضا عن المحلات السبع ، وان محلتي البرجلية والخضر قد الغي اسماهما على الاقل، وبرزت حارات لليهود والنصارى والمسلمين . وقد نقل Meyer (٢٢) في عام ١٩٠٧ هذا التقسيم عن (غات) ، وقبله بدون مناقشة ، حتى بالنسبة لكلمة « التفاح » التي وردت في (غات) على شكل Tufen ، فأبقاها كما هي . وأخطأ (ماير) في كتابة كلمة Al-Fawakhir ، التي ذكرها (غات) بشكل صحيح فجعلها Al-Fawakhin

والملاحظ ان كلا من (غات) و (ماير) ذكر حارات خاصة باليهود والنصارى والمسلمين ، وهو ما لم تذكره وثائق غزة الشرعية في فترة دراستنا ، ولا السجلات العثمانية في القرن السادس عشر(٢٣) . فهل تعرضت غزة الى موجة من هجرة اليهود خاصة ، وربما النصارى ، اليها ، في مدة خمسة وعشرين عاما ، استدعت قيام حارات خاصة بهم ، او ربما غلب وجودهم في هذه الحارات على ما عداهم من السكان ، ام هل اتخذ التقوقع الديني بعداً كبيرا جعل اتباع هذين المذهبين يتجمعون في حارات خاصة بهم . ثم هل تتطابق حارات اليهود والنصارى والمسلمين مع الحارتين ، او المحلتين ، اللتين اندثرت تسميتهما على الاقل في تقسيم (غات) ومن نقل عنه ، وهما محلة الخضر ومحلة البرجلية، اللتان اشارت اليهما الوثائق الشرعية قبل حوالي ربع قرن . لقد اشارت السجلات العثمانية ، في القرن السادس عشر ، الى وجود النصارى في غزة ، والى تواجد معظمهم في حارة الزيتون ، وكذلك الى وجود اليهود باعداد اقل ، بحيث شكلوا ، وسطيا ، حوالي ثلث عدد النصارى(٢٤) ، وان حوالي ثلثهم ، في سجل عام ٩٣٢/١٥٢٥ ـ ١٥٢٦ ، كانوا من المغرب ، بنتيجة

هجرة السفارديم(٢٥) من اسبانيا بعد اخراج العرب والساميين منها . ولكن وثائق غزة الشرعية ، في فترة دراستنا ، لم تشر الى محلة خاصة بالنصارى اذ انهم توزعوا في عدد من المحلات اهمها : الزيتون ، والخضر ، والدرج ، وسنتعرض الى ذلك في مكان آخر من هذه الدراسة(٢٦) . كما انها لم تشر الا الى اسمين يهوديين مـن غير غزة فهل هـذا يعني انعدام ، وفي احسن الحالات ، تضاؤل عـدد اليهـود في غـزة آنـذاك .

وعلى اية حال فقد ذكر D. Sourdel (٢٧) ان عدد سكان غزة في عام ١٨٨٢ كان ١٦,٠٠٠ نسمة ، وبلغ في عام ١٩٠٦ ٤٠,٠٠٠ نسمة ، منهم ٧٥٠ مسيحيا و ١٦٠ يهوديا . ويفترض ان عدد هؤلاء كان اقل من ذلك في عام ١٨٨٢ ، اي قبـل خمس سنوات مـن التاريخ الـذي ذكـر فيه (غـات) وجود حارة للنصارى واخرى لليهـود في غـزة .

اما عارف العارف ، الذي طبـع كتابه عـن تاريخ غـزة في عـام ١٩٤٣ ، فقد ذكر(٢٨) انه وجد في غزة القديمة خمسة احياء هي : الدرج ، الزيتون ، التفاح ، والشجاعية (بقسميها : الجديدة والتركمان) . ولم يذكر العارف الحدود الزمنية لغزة « القديمة » ، ولا في اية فترة وجدت هذه الاحياء . وتقسيم الشجاعية الـى الجديدة والتركمان ربما ينطبق على فترة المؤلف ، ولكنه لا يتفق مع محلات غزة ، في حوالي منتصف القرن التاسع عشر ، حين كانت الجديـدة والتركمان خطين ، من جملة خطوط في هذه المحلة .

وضمت محلات غزة ، في فترة دراستنا ، عددا كبيرا من الخطوط جاءت على ذكرها وثائق المحكمة الشرعية ، واشتملت محلة السجاعية(٢٩) على الخطوط التالية : خط الجديدة ، خط التركمان(٣٠) ، خط الاسكافية (ورد ايضا باسم خط السكافية)، خط المحكمة القديمة ، خط الحمام (وقف آل رضوان) بزقاق الحزيزاتي ، خط الشيخ الغزالي (ورد ايضا باسم خط الفزالي)(٣١) ، خط مسجد ولي الله تعالى السيد علي المغربي (ورد ايضا باسم خط الشيخ علي المغربي أو خط السيد علـي المغربي)(٣٢) ، خط اولاد عياد ، خط العيايدة (ولعل التسميتين الاخيرتين لخط واحد) ، خط بوابت ابو بكر (ورد ايضا باسم خط بوابت(٣٣) ابو كر) ، خط ولي الله تعالى الشيخ نصر الدين ، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ عكري بن مسافر (ورد ايضا باسم خط بن مسـافر)(٣٤) ، خـط التفليسي ، خـط سوق الغزل ، خط العابد(٣٥) ، خط زقاق اولاد حتحت ، خط الباسطية(٣٦) ، خط مسجد الشيخ محمد الطيار(٣٧)، خط ساقية خليل(٣٨) ، خط خليل (لعل التسميتين لخط واحد)،

خط المفتي ، خط البازار (ضمن سوق السجاعية) ، خط الباز (قد يكون هو نفسه خط البازار(٣٩) ، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ محمد الظفر دمري(٤٠) ، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ سعيد (ورد ايضا باسم خط الشيخ سعيد(٤١) ، خط الشيخ علي ابو الكاس(٤٢) ، خط الواوحد ، خط جامع شهاب الدين بن عثمان(٤٣) ، خط ولي الله تعالى الشيخ المضلع (ورد ايضا باسم خط الشيخ مضلع (٤٤) ، خط الجامع الكبير(٤٥) ، خط حارة حلس ، خط الترجمان ، خط الطواشي ، خط اولاد سهمود (ورد ايضا باسم خط سهمود) ، خط مسجد محمد الهواشي(٤٦) ، خط مسجد الست رقية (٤٧) (ورد ايضا باسم خط الست رقية) .

وضمت محلة البرجلية(٤٨) الخطوط التالية : خط سوق الخضر ، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ ظريف(٤٩) (ورد ايضا باسم خط الشيخ ظريف) ، خط زاوية الهنود(٥٠) ، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ عياد(٥١) ، خط مسجد ولي الله تعالى فرج(٥٢) (ورد ايضا باسم خط الشيخ فرج) ، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ محمد المغربي(٥٣) ، خط الشيخ محمد العراقي(٥٤) ، خط مسجد ولي الله تعالى محمد الهليس(٥٥) (ورد ايضا باسم خط الشيخ محمد الهليس) خط بني عامر ، خط الخرابة(٥٦) ، خط سوق الفخار(٥٧) ، خط خان الكتان(٥٨) ، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ علي الاندلسي(٥٩) (ورد ايضا باسم خط مسجد الاندلسي ، وباسم خط الاندلسي) ، خط حمام السوق ، خط القهوة ، خط الشيخ الاوزاعي(٦٠) ، خط مسجد سيدي هاشم(٦١) ، خط مسجد محمد العجمي(٦٢)، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ منصور(٦٣) ، خط جامع البلاطة(٦٤) ، خط الشيخ شرف(٦٥) ، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ محمد الازبكي(٦٦) ، خط ساقية الدرج(٦٧) ، خط البيطار(٦٨) ، خط زاوية سيدي ابن مدين الغوث(٦٩) ، خط القلعة(٧٠) ، خط الجامع الكبير(٧١) .

وضمت محلة الزيتون الخطوط التالية : خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ عثمان قوشقار(٧٢) (ورد ايضا باسم خط الشيخ عثمان قوشقار) ، خط الكمالية(٧٣) ، خط الخضر ، خط بوابت اولاد شبير(٧٤) ، خط ولي الله تعالى الشيخ عطية(٧٥) ، خط مسجد الشمعة(٧٦) (ورد ايضا باسم خط جامع الشمعة) ، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ كاتب الاوليا(٧٧) ، خط مسجدولي الله تعالى الشيخ محمد البطل(٧٨) (ورد ايضا باسم خط البطل) ، خط جامع باب الدروب (ورد ايضا باسم خط باب الداروب) ، خط ساقية القيدة(٧٩) (ورد ايضا باسم خط القيدة) ، خط الشيخ الياس (حيث وجد مقام الشيخ الياس ،

ولا نعلم اذا كان هذا نفسه مسجد الشيخ الياس الذي ذكرت الوثائق انــه في خــط الكمالية(٨٠) ، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ محمد العجمي (ورد ايضا باســم خط مسجد الشيخ العجمي)(٨١) ، خط مســجد ولي الله تعــالى الشيخ ابــي ركاب(٨٢) (ورد ايضا باسم خــط مقــام ابي الركاب) ، خــط مســجد الشيخ الصيحاني(٨٣) ، خــط آل رضوان ، خط بوابت سليط ، خط دار شرير(٨٤) ، خط مسجد ولي الله تعالى عمر(٨٥) ؛ خط مسجد الوزيري(٨٦) .

واشتملت محلة الدرج(٨٧) علــى الخطــوط التالية : خــط مســجد الشيخ ظريف(٨٨) ، خط الشيخذكري(٨٩) ، خطالشيخ خالد(٩٠) ، خط الخرابة(٩١) ، خط مسجد البلاطة(٩٢) ، خط الفواخير(٩٣) ، خط سوق الفخار(٩٤) (ويبدو انهماخطان منفصلان) ، خط بير الدولاب ، خط الشيخ شعبان(٩٥) ، خط البيمارستان(٩٦) ، خط الشيخ محمد الخروبي(٩٧) .

وضمت محلة حكر التفاح (او التفاح) الخطوط التالية : خط جامــع الشيخ عبد الله الايبكي(٩٨) (ورد ايضا باسم خط جامع الشيخ عبد الله) ، خط جامع المسكة(٩٩) ، خط ولي الله تعالى الشيخ عبد الرحمن بــن سلطان ، خــط جامــع القهوة(١٠٠) ، خط القهوة(١٠١) (لعلهما خط واحد) ، خط جامع السدرة(١٠٢) ، خط المعصرة ، خط الجماحية ، خط القاعات ، خط زقاق الشرفا(١٠٣) .

واشتملت محلة الخضر على الخطوط التالية : خط حمام السمرة(١٠٤) ، خط مسجد كاتب الاوليا(١٠٥) ، خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ ابي ركاب(١٠٦) ، خط سوق الخضر ، خط معصرة اولاد مكي .

وضمت محلة بني عامر(١٠٧) خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ محمــد المغربي(١٠٨) (ورد ايضا باسم خط محمد المغربي ، وخط الشيخ المغربي) .

ويلاحظ في خطوط غزة ان عددا منها اجتاز محلتين متجاورتين واحتفظ باسمه في المحلتين ، مثل خط مسجد ولي الله تعالى الشيخ محمد المغربي ، الــذي اجتاز محلتي البرجلية وبني عامر ، وخط الجامع الكبير ، الذي مر بمحلتي السجاعية والبرجلية ، وخط مسجد الشيخ الظريف الذي امتد فيمحلتي البرجلية والدرج ، وخط مسجد البلاطة في كل من محلتي البرجلية والدرج ، وخط مسجد كاتب الاوليا الذي مر بمحلتي الزيتون والخضر ، وكذلك خط مسجد الشيخ ابي ركاب الــذي مر بهاتين المحلتين ، مما يــدل على تجاور الاحياء ذات الخطــوط المشتركة وانفتاح المحــلات على بعضها .

ويلاحظ كذلك ان معظم الخطوط تسمى باسم جامع أو مسجد فيها ، مما يدل على كثرة الجوامع والمساجد في غزة عبر العصور . وتعتبر هذه الجوامع والمساجد من السمات العمرانية البارزة في غزة . ولا ندري هل استخدمت كلمتا « جامع » و « مسجد » بمعناهما ، كما في اوج ازدهار الحضارة العربية الاسلامية ، حيث عقدت في الجامع حلقات الدراسة في العلوم الدينية المختلفة في حين غلب على المسجد تدريس الشريعة(١٠٩) ، أم انهما استخدمتا بمعنى آخر ، اي ان الجامع حيث اقيمت صلاة الجمعة والصلوات الخمس ، والمسجد حيث اقيمت الصلوات الخمس فقط ، كما ذكر العارف(١١٠) ، أو انهما استخدمتا بدون تمييز في الوظيفة والمعنى .

ونستدل من كثرة الجوامع والمساجد في غزة على تاريخ حافل لها خلدته هذه المجموعة من الابنية الدينية ، التي حملت في تسمياتها بعض تاريخ المدينة وتاريخ بناتها . ويمكن ايضا ان نستشف من كثرة الجوامع والمساجد ، والمحافظة عليها ، الى حد كبير ، درجة عالية من التدين والتقى عند السكان أكدها لجوؤهم في كل امر ، مهما صغر ، الى القاضي الشرعي لتحكيم الشريعة ، وكذلك مستوى عال من الالتزام بقواعد الدين ، كما دلت على ذلك عدة امثلة في الوثائق .

ولو احصينا الجوامع والمساجد ، التي ورد ذكرها في مختلف الخطوط في غزة ، لتبين ان عددها ثمانية وثلاثون جامعا ومسجدا . وهناك مسجد آخر لم يسم خط باسمه ، وهو مسجد المحكمة القديمة ، في محلة السجاعية(١١١) ، وكان بخط المحكمة القديمة. وذكرت الوثائق جامع الخضر دون ان تعين مكانه . وهناك مسجد عرف بمسجد الشيخ الياس (ورد ايضا لياس) ، بخط الكمالية ، في محلة الزيتون ، علما بانه وجد خط في هذه المحلة عرف باسم خط الشيخ الياس(١١٢) . ووجد مسجد باسم مسجد الكمالية ، بخط الكمالية ، في محلة الزيتون ، وكذلك وجد مسجد الشيخ محمد العجان(١١٣) ، بمحلة الزيتون . وذكر وقف يخص مسجد جامع النخدره ، ولعل هذا المسجد ، وليس فقط الوقف ، في غزة . ولا نعلم تفاصيل اخرى عنه(١١٤) ، مما يرفع عدد الجوامع والمساجد ، التي ذكرتها الوثائق الشرعية ، في فترة هذه الدراسة ، الى اربعة واربعين . وقد ذكرت الوثائق عددا من الزوايا ، يفترض انها ضمت مساجد اخرى ، ولكن ليس من نص صريح على ذلك في الوثائق ، في حين ذكر العارف(١١٥) ان لكل من الزاوية الاحمدية وزاوية الهنود مسجدا ، مما يرفع عدد جوامع ومساجد غزة الى ستة واربعين . ولا ندري كم من هذه الجوامع والمساجد كان ، في فترةدراستنا ، بحالة تسمح بأن يؤمه المصلون . واستبعدنا خربة مسجد الجاولي ، التي ذكرتها الوثائق ، رغم ان كلمة « خربة » قد تعني مكانا خربا ملحقا بالمسجد ، او ان المسجد قد اصبح خربا ، فاخذنا بالمعنى الثاني بدليل

ما ذكره العارف (ص ٣٥٢) من ان هذا المسجد قد هدم اثناء حملة نابليون بونابرت ، وانه كان مندثرا في زمنه .

واذا اعتبرنا ان عدد سكان غزة ، في تلك الحقبة من الزمن ، وفـق تقديرات عدة ، يساوي تقريبا ١٥٫٠٠٠ نسمة ، وان عدد المسلمين منهم حوالي ١٤٫٠٠٠ نسمة ، فيكون لكل ٣٠٤ اشخاص جامع او مسجد . واذا اخذنا بعين الاعتبار ان حوالي ثلث هؤلاء الاشخاص من الاطفال ، بدليل ما سنلاحظه فيما بعد مـن ان عدد غير البالغين فاق عدد البالغين ، لاصبح لكل ٢٠٣ اشخاص جامع او مسجد . مما يؤكد شدة التدين عند سكان غزة . ونستدل من ذلك ايضا ان الجوامع صغيرة . ويمكن معرفة ابعادها على اساس ما يحتاج اليه الرجل من مساحة لاداء الصلاة .

والى جانب الجوامع والمساجد ، وجد في غزة عدد من الابنية الدينية الاخرى ، مثل المزارات والزوايا . ولا تزودنا الوثائق الشرعية بمعلومات عن المزارات(١١٦) ، ولكنها ذكرت عددا من الزوايا . فهناك زاوية الهنود ، بمحلة البرجلية ، وقد تسمى خط باسمها(١١٧) . وذكرت زاوية سيدي احمد البدوي بمناسبة الاشارة الى دكان اوقف عليها بسوق الصوافين بمحلة السجاعية(١١٨) ، ولا نستدل من ذلك على انها كانت فعلا في هذه السوق او المحلة . ووجود هذه الزاوية في غـزة دليل على تأثيـر مصري قوي فيها ، لان سيدي احمد البدوي لـه مكانة صوفية مرموقة في مصر ، وخاصة في طنطا ، حيث توفي ودفن فيها في عام ٦٧٥/١٢٧٦ – ١٢٧٧ ، واقيم له مقام مشهور(١١٩) . واشارت الوثائق الى الزاوية الاحمدية بمناسبة ذكر دار موقوفة عليها بمحلة الزيتون ، بخط مسجد الشيخ الصيحاني(١٢٠) . وذكر العارف(١٢١) ان مسجد الزاوية الاحمدية يقع في حي الدرج وانه كان عامرا في زمنه ، وان انشاء هذه الزاوية قد تم على يد اتباع الطريقة البدوية ، في اوائل القرن الثامن للهجرة ، انتسابا منهم للسيد احمد البدوي ، فهل يعني هذا ان الزاوية الاحمدية هي نفسها زاوية سيدي احمد البدوي . واذا كان الامر كذلك ، فلماذا اشارت الوثائق ، خلال ست صفحات ، الى الزاوية الاحمدية وزاوية سيدي احمد البدوي . ولهذا نحتاج الى مزيد من الادلة لنتمكن من القول ان الزاويتين مستقلتان عن بعضهما ، او انهما تسميتان لزاوية واحدة .

وذكرت الوثائق زاوية المغاربة ، ولعلهـا بخـط مسجد الشيخ فرج ، بمحلـة البرجلية(١٢٢) . وتسمى احد خطوط محلة البرجلية بخط زاوية سيدي ابن مديـن الغوث(١٢٣) ، مما يدل على وجود هذه الزاوية في ذلك الخط .

ووجد عدد من السبل في غزة ذكرت الوثائق منها سبيلا بسوق الخضر ، ولعله بخط سوق الخضر ، في محلة الخضر ، وسبيلا آخر بخط الاسكافية ، في محلة السجاعية ، بمناسبة وقف دكان صباغة عليه . والمدرسة الوحيدة التي ذكرت في الوثائق هي المدرسة الحسنية ، بمحلة البرجلية ، تجاه الجامع الكبير .

وذكرت الوثائق الشرعية عددا من الحمامات في غزة ، مثل حمام السمرة بمحلة الخضر . وعرف خط باسمها ، وحمام السوق ، بمحله البرجلية ، حيث عرف خط باسمها ، وحمام السجاعية (الذي شهرته بمحلة تغني عن وصفه) ، وحمام آل رضوان ، بمحلة السجاعية ، بزقاق الحزيزاتي ، الذي تسمى خط باسمه ، ويبدو ان حمام السوق ، الذي اشارت اليه الوثائق ، لم يكن حماما واحدا ، وانما سمي كذلك نسبة الى السوق الذي وجد فيه ، اي انه وجد في معظم الاسواق الرئيسية ، على الاقل ،حمام . فقد ذكر ، مثلا ، السوق الفوقاني، وفيه حمام السوق ، وسوق المسلخ ، وفيه حمام السوق .

وقد ميزت وثائق غزة الشرعية بين انواع من الابنية السكنية ، مثل الحوش والدار والبيت والقاعة . واكثر هذه الانواع تنوعا في اقسام البناء وفي الاستخدام هو الحوش . ووجود الاحواش باعداد كبيرة في غزة يدل على غلبة الطابع الزراعي على سكانها ، لان الاساس في الحوش انه لايواء الحيوانات المستخدمة في الزراعة ، والتي كانت تقيم في البايكة ، ثم استعمل لاقامة اصحابها ايضا . وتطور الحوش ، من الناحية السكنية ، الى درجة الغيت معها البايكة في عدد من الحالات . وقد وصفت بايكة في حوش ، تألفت من ست قناطر ، بانها بايكة كبيرة ، وكانت مسقوفة بالاخشاب . وقد تباع البايكة دون بقية الحوش . وهناك امثلة متعددة على بيعها بمفردها ، وكانت في هذه الحالة اما ذات بناء مستقل في الاساس ، او انها استخرجت من حوش . ومن اجزاء الحوش الاساسية الساحة السماوية . ويلحق الحوش احيانا بالدار ، فيعرف عندئذ بحوش الدار (ولا علاقة لهذا بالتعبير الدارج ان حوش الدار يعني ساحتها السماوية) ، ويشكل ، في هذه الحال ، القسم البراني منها . واذا الحق الحوش بمعصرة سمي بحوش المعصرة . واشتمل الحوش ، مثل الدار ، على عدد من الابار التي استخدمت لتخزين الغلال . واحيانا سمي مكان خزن الغلال بالكورة .

وقد لا يشتمل الحوش على بايكة ، كما في المثال التالي ، الذي كان الحوش فيه ملحقا بحاكورة : « المبيع ستة قراريط في جميع الحوش والحاكورة الكاينين داخل غزة بمحلة البرجلية بخط مسجد ولي الله تعالى الشيخ محمد الهليس ... المشتمل

الحوش المذكور على ايوانين وخمسة قاعات معقدات بالحجر والجير وساحة سماوية بها بئرين معــدين لتخزين الاغلال ومحل راحة وممر موصل الى الحاكورة المذكورة » واحاط بالحوش هذا دور سكن . ويلاحظ في هذا الحوش ، رغم ضخامته ، غياب البيوت السكنية فيه ، وكذلك المطبخ ، الذي هو لخدمة الساكنين . وقد وجــد مطبخ ، مثلا ، في حوش اصغر ، بمحلة السجاعية ، بخط مسجد الست رقيــة (المشتمل على بيتين وخزانة ومطبخ مسقفات بالاخشاب وساحة سماوية) ، ممــا يدل على ان المطبخ كان لخدمة ساكني البيتين . ومع ذلك فالمطبخ لم يكن موجودا باستمرار في دور السكن ، ووجوده فيها يدل عادة على مستوى مادي متميز لاصحابها . واصغر حوش ورد ذكره ، في فترة دراستنا ، تألف من بيت واحد ، مســقوف بالخشب ، ولا توجد فيه ساحة سماوية او بايكة .

واطلقت كلمة « دار » على مكان سكن الناس ، وقد تضـم بايكـة ، ولكــن اسمها ، في هذه الحال ، لا يتحول الى حوش ، لان الاساس فيها سـكن الناس ، والبايكة شيء اضافي . وضمت دار كبيرة ، بمحلة البرجلية ، بخط مســجد ولي الله تعالى الشيخ فرج « قاعتين عقد وثلاثة بيــوت مسقفات بالخشــب وثلاثة لواوين مسقفات بالخشب ومحل راحة عقد وساحة سماوية مفروشة بالبلاط بها سلمين من الحجر احدهما يوصل الى قصر معقد بالحجر والجير وايوان واوضــة مسقفين بالخشب بجانب القصر المذكور ومحل راحة عقد والسلم الثاني موصل الى حضير فقط »(١٢٤) . ويستخدم الحضير عادة لتربية الحمام والدجاج ، ووجــد في معظم دور غزة ، مما اضفى على المدينة صفة ريفية . ولتلك الدار بابان : احدهمــا جواني ، يفتح على زقاق غير نافذ ، ولعله لاستخدام الحريم ، والاخر براني ، يفتــح علــى طريق سالك . ورغم ضخامة هذه الدار يلاحظ عدم وجود المطبخ فيها . وخصت الدار محمد آغــا سليمان الذي باع ستة قراريط منها لابنه خليل آغــا بثمن قدره ٦٠٠٠ قرش اسدي ، مما يجعل سعرها معادلا لـ ٢٤٠٠٠ قرش ، وهذا ثمن من اغلى اثمان الدور في غزة في الفترة التي ندرسها .

ومما يلفت النظر في هذه الدار وجود طابق اعلى فيها ، لان معظم دور غــزة كانت من طابق واحد ارضي . ولهذا الامر دلالته . فلم تكن هناك من حاجة للتوسع عاموديا ، مما يدل على توافر الارض للتوسع افقيا . وربما كان السبب في ذلك ان طبيعة الارض ومواد البناء لم تكن مهيأة لبناء طوابــق عليــا ، كما ان حجــم الاسرة الواحدة ، والازدحام السكاني بصورة عامة ، لم يبلغا درجة كبيرة يتحتم معها بناء طوابق عليا . وبالاضافة الى ذلك فالمجتمعات المحافظة تتحاشى عادة الطوابق العليا خشية اشراف ساكنيها على جيرانهم ، وبالعكس . واقتصار معظــم دور غزة على

طابق ارضي اعطى للمدينة امتدادا افقيا ، مع مراعاة ارتفاعها عن المناطق المحيطة بها بحوالي ثمانين مترا(١٢٥) .

واصغر دار في غزة ، ورد ذكرها في الوثائق ، ضمت بيتا واحدا وساحة سماوية، وكانت بمحلة السجاعية ، بخط المحكمة القديمة ، وبيعت بثمن قدره ٨٠٠ قرش . ولكن هذه لم تكن ارخص دار اذ بيعت دار بمحلة السجاعية ، بخط الشيخ محمد الطيار ، بثمن قدره ٥٥٠ قرشا ، وكانت مستخرجة من دار اخرى . وفي الحالين كانت الدار ، في الاصل، قسما من دار اكبر .

ولبعض الدور دهليز ، أي دخلة طولانية تفصل الباب الخارجي عن ساحة الدار . والى جانب شيوع الايوان أو الليوان ، في الدور الكبيرة ، وجد الرواق ، ولكن بصورة أقل ، وهو ، على الغالب ، مسقوف ، مثل الايوان ، بالخشب ، ويختلف الرواق عن الايوان بطولانيته ، في حين يكون الايوان مربعا ، على الغالب ، أو مستطيلا . ويلاحظ في دور غزة عدم وجود الاقبية أو المغر فيها ، واستخدمت هذه ، عادة ، لايواء الحيوانات ، أو لخزن الحبوب ، وعوضت عنها ، في الحالين ، البايكة والآبار .

ولا توجد اشارة في الوثائق الى اماكن تجمع المياه في الدور . وقد استخدمت كلمة بئر لمكان خزن المؤونة والغلال . وذكرت الوثائق « ماء الاشتية النازل من السما » ، وذلك حين تقسيم دار ما وظهور خلاف حول مساره . ولكن لم يرد ذكر لمكان تجمع المياه،وهل سمي ذلك بالبئر او بغير ذلك . ويبدو ان الدور كانت تشرب من السواقي أو من السبل خارجها . وربما وجد فيها ما يشبه الابار لجمع مياه المطر (الاشتية)، أو للوصول الى نبع ارضي . وكثرت في غزة ومنطقتها المياه الجوفية ، بدليل كثرة السواقي فيها ، والحزام الاخضر من الاشجار الذي احاط بها وتخللها . ونقل المياه من الخارج الى اماكن استخدامها كان يتم بواسطة القرب . وذكر ان شخصا حصل على اذن بنقل الف قربة ماء ، كل سنة ، من احدى السواقي ، الى جامع كاتب الاوليا في غزة ، لاستخدامها في الوضوء . ويبدو ان مياه هذه القرب ،بمعدل ثلاث قرب في اليوم ، دعمت ما يوجد محليا ، في الجامع ، من الماء ، الا اذا كان عدد المصلين في هذا الجامع محدودا لا يحتاج لاكثر من ثلاث قرب يوميا .

وخضعت معظم دور غزة الى التجزئة باستمرار ، سواء من ناحية الملكية ، حين كانت مشاعا ووجب تعيين او فرز حصص الورثة ، أو من ناحية الواقع ، اذا

ما رغب الورثة في اخذ حصصهم ، ومن هنا تقسيم الدور ، وخاصة اذا ما بيع قسم منها الى اناس من خارج الاسرة . واقيمت جدران فاصلة ، في هـذه الحالات ، وفتح باب آخر . وتم تقسيم الدور رغم ان الحصص فيها غير متكافئة ، وربماسهل هذا عملية التقسيم ، وفي احـدى الحالات كانت نسبة القسم الواحد الـى الآخر عشرين قيراطا الى اربعة ، واشتملت حصة صاحب القراريط الاربعة على بيت ومطبخ وساحة سماوية ، مما يدل على كبر العقار . والخلاف الرئيسي الذي اثاره عادة تقسيم العقار ، دار حول صعوبة تقسيم ماء المطر ، وغالبا ما اتفق ان « يمر حسب عادتـه » .

والى جانب الحوش والدار ذكر البيت كعقار قائم بذاته . والبيت ، في الاساس، كان جزءا من الدار ، وعمد الى اخراجه منها ، احيانا ، وبيعه بمفرده . وشـاري البيت ، في هذه الحال ، كان ، في الغالب ، صاحب دار مجاورة له رغب في ضمه اليها . اما البيت ، كعقار مستقل ، فغالبا ما كانت له ساحة سماوية ، ويشـكل وحدة اصغر من الدار . ونسبة وجوده في غزة لم تكـن بقليلة ، ولكنـه كان اكثر في الريف منـه في غزة ، ممـا يـدل على ان الاوضاع الماليـة لقطاع من السكان لـم تكن جيـدة .

اما بالنسبة للقاعة ، فقد اشتملت بعض دور غزة على قاعة واحدة أو أكثر ، ودل وجودها ، عادة ، على اتساع الدار وثراء صاحبها ، لانه غالبا ما استقبل زواره فيهـا . وعلى غـرار البيت ، امكـن اخراج القاعة من الـدار ،وجعلهـا عقارا قائما بذاته . وهناك امثلة عـن قاعات مستقلة ، وربما بنيت كذلك ، أو استخرجت من دور ، استخدمت للحياكة ، وكانت موزعة في انحاء غزة .

وكانت مواد البناء من الحجر والجير ، المعقودة ببعضها ، بالنسبة للجدران ، ومن الخشب بالنسبة للسقف . اما السلم ، الذي يصعد عليه الى السطح ، فكان ، عادة ، من الحجر . وفي الحالات النادرة التي وجد فيها طابق اعلى فقد بنيت جدرانه هو الاخر من الحجر والجير المعقدين ، وسقف بالخشب . وفي احدى الحالات اشترط بائع الدار على المشتري الا يحدث على سطح الدار اي بناء الا بموافقته ، ولعل سبب هذا الشرط رغبة البائع بتقاضي مبالغ اضافية ، في حال البناء على السطح ، أو ربما لان البائع يسكن ، فعلا ، في دار ، لصيقة بالدار التي باعها ويخشى ان يشرف الطابق الاعلى ، اذا ما بني ، على داره .

ولم تذكر المادة التي بنيت منها ارض الساحة السماوية في الدار الا اذا كانت من البلاط ، وهذا شيء متميز ، لان الغالب ان تبنى الساحة من الحجارة المرصوفة ، وليس في هذا الامر الشائع المألوف من جديد يستدعي ذكره . وزرعت في الساحة السماوية ، أو في جانب منها على الاقل ، اشجار متنوعة ، ذكرت في احدى الحالات بانها شجر نخل ورمان وسدر .

ويلاحظ في عمليات بيع العقارات عدم ورود ذكر لمساحة العقار ككل . وفي بعض الحالات ، عند تقسيم دار ما ، ذكرت مساحة الساحة السماوية بذراع البنا ، او الذراع الاسلامبولي(١٢٦) .

وتنوعت طرق قبض ثمن العقار المباع ، فاما أن يتم ذلك في المحكمة، وتستعمل عندئذ عبارة « الثمن مقبوض بالحضرة والمعاينة » ، او عبارة « حالا مقبوضا » بيد البايع من المشتري ، واما ان يعترف البائع ، في المحكمة ، بقبض الثمن ، ويشار عندئذ الى ذلك « مقبوض بالاعتراف » . والبيع اما يكون باتا ، اي نهائيا ، لا رجعة عنه ، وان كان فيه غبن ، او ان يكون بالوعد ، اي ان يتم دفع الثمن بعد فترة معينة ، ويبيح عندئذ البائع للمشتري استخدام العقار قبل الدفع . وحدث ايضا ان البائع قبض ثمن عقاره ، ولكن المشتري وعده برد العقار له ان جاءه بالثمن الذي اخذه بعد فترة ، واباح البائع للمشتري استخدام العقار في هذه الفترة ، وسمي هذا « بيع وعد بالاباحة » . وفي هذا نوع من انواع الفائدة . وذكر(١٢٧) احيانا ، في عملية البيع ان كلا من البائع والشاري ابرأ واحدهما الاخر من دعوى العذر والاغراء والغبن الفاحش والا رد القاضي عملية البيع بسبب ذلك . واستخدمت عملية المقاصصة ، أي اقتطاع مبلغ بذمة البائع ، أو بذمة من يقبل به البائع . للمشتري من اصل ثمن الشراء. وكثرت المقاصصة في المخالعة ، واشير اليها انها مقاصصة شرعية .

وحين شراء عقار ما ، ذكر اذا كان المشتري يشتري العقار بماله لنفسه دون مال غيره ، او انه يقوم بالشراء بالوكالة عن شخص اخر ، او جزئيا بماله وايضا بالوكالة عن غيره . كما ذكر احيانا (في دمشق انذاك ذكر باستمرار) فيما اذا كان البائع قد ال اليه العقار المباع عن طريق الشراء ام الارث ، وفيما اذا كان يقوم بالبيع بطريق الوكالة ، او بالاصالة عن نفسه وبالوكالة عن غيره في آن . وتم ايضا البيع والشراء بطريق الولاية عن قاصر . ولهذه المعلومات اهميتها لانها تدلنا على طرق انتقال الملكية ، بالشراء أم بالارث ، وما يترتب على ذلك من اوضاع اجتماعية واقتصادية .

وذكر في معظم عمليات شراء العقارات التي تمت في عام ١٨٥٦/١٢٧٣ ـ ١٨٥٧ ، ومطلع العام التالي ، العبارة التالية : « بثمن قدره (كذا) وصرة مجهولة القدر مستهلكة بالمجلس » . وهذا يعني ان صرة طعام ، احضرها الشاري الى المجلس (مجلس عقد البيع) في المحكمة ، كما يرجح ، قد استهلكت فيه من قبل الحاضرين ، احتفالا بعملية الشراء . وفي حالات قليلة ، ذكر ان الصرة مقبوضة بالاعتراف ، وقد تعني انها استهلكت في غير ذلك المكان والتاريخ ، او ربما حصل وعد بها . وعدم ذكر الصرة في عقود البيع التي تمت في بقية عام ١٢٧٤ وما بعد، ربما يدل على ان هذه العادة قد بطلت ، اكثر من انها قد رسخت ولم تعد من ضرورة لذكرها ، لانه لا يعقل ان تكون قد بدأت قبل فترة قصيرة .

وروعيت شفعة الجوار بدقة في عمليات بيع العقارات . والغي البيع ، لصالح الشفيع ، في عدد من الحالات . وفي حال علم الشفيع بعملية الشراء ، وعدم مطالبته بذلك مباشرة (لم يرد ذكر لطول المهلة المعطاة للشفيع للمطالبة) ، فقد حقه بالمطالبة بالشفعة . وطلب القاضي عادة الى الشهود ، الذين عدلهم (أي زكاهم وشهد بصحة أقوالهم) آخرون ، اثبات حق الشفعة . وحق الشفعة لا يورث . فقد اشترت امراة ، لها ولاختها ، حصة شائعة في كرم ، في اواخر ربيع الثاني ١٢٥٢/ أواسط آب ١٨٣٦ ، وحين احتج على هذا الشراء وارث لكرم مجاور ، بعد اكثر من عشرين سنة ، في ٣ رمضان ١٢٧٣/٢٧ نيسان ١٨٥٧ ، بشفعة الجوار ، رفضت المرأة التسليم للوارث بحق الشفعة ، لان والده من قبله لم يطالب بشفعة الجوار ، حين كان حيا ، وان جوار الابن لكرمها قد ورثه عن ابيه . وقضى القاضي بأن لا شفعة للابن لان الشفعة لا تورث ، ومنعه من معارضة المراة . والاراضي الموقوفة لا تجري فيها الشفعة بالنسبة للعقارات المبنية عليها ، والتي هي ملك للافراد ، يتصرفون فيها بيعا وشراء ، لان الاساس هو الارض .

واستخدم حق التصرف في العقار ، فترة من الزمن ، تراوحت ، في اربعة امثلة من وثائق غزة ، بين ثلاث عشرة سنة ، وما يزيد عن اثنتين وثلاثين سنة ، لمنع مالك العقار من المطالبة بعقاره من المتصرف به ، واعتبر المتصرف بالعقار بمثابة مالك له ، بعد اثبت تصرفه به ، هدما وبناء وغير ذلك ، وبعد أن ثبت لدى القاضي ، بافادات الشهود ، ان مالك العقار لم يعارض المتصرف بالعقار طيلة تلك الفترة . وتمتع وارث المتصرف بالعقار بحقوق موروثه ، في هذا المجال ، وضمت فترة تصرف المتصرف الى مدة تصرف الوارث ، وذلك لمنع المالك من المطالبة بعقاره ، نظرا لطول

المدة مجتمعة ، لتصرف كل من المورث والوارث ، حتى ولو اثبت المالك انه تغيب عن البلدة في بعض الاوقات ولم يستطع معارضة المتصرف ، فالمهم انه علم بالامر ، ولم يحتج طيلة تلك المدة .



٣ ـ مظاهـر اجتماعيـة :

يمكننا التعرف على هوية معظم سكان الخطوط والمحلات المختلفة في غـزة ، ومكانتهم الاجتماعية والاقتصادية ، المتمثلة في حجـم دورهم ، واتساع ملكيتهم ، وعدد افراد أسرهم ، وكذلك التعرف على مدى تجمع ، أو انتشار الاسر المتقاربة في النسب ، أو الاصول ، او المذهب ، من خلال دراسة بيع الدور وشرائها ، كلها او اجزاء منها ، وكذلك تقسيمها ، وتعيين حصص الورثة فيها . وطبيعي ان احصـاء كهذا لا يشمل جميع الدور ، ولكن تحديد موقـع الدور المباعة ، والمقسمة ، مـن جهاتها الاربع (لانه غالبا ما كانت الجهة المطلة على طريق سالك ، او زقاق غـير نافذ ، يتممها عقار آخر ، كما ان اكثر من عقار واحد شكل الحدود في جهـةما) ، كفيل بذكر ثلاث دور ، على الاقل ، واحيانا اربع ، او أكثر ، بمقابل كل دار خضعت لعملية شراء أو مقاسمة . وبذلك نضمن ذكر معظم دور الخط والحي ، وبالتالي المدينة ككل .

وبالاضافة الى المعلومات ، التي تزودنـا بها الوثائق ، بخصوص التركيب الاجتماعي والاقتصادي لسكان مدينة غزة وريفها ، وللمقيمين والمتوطنين فيها من النزلاء ،وخاصة من المصريين ، الذين كان عددهم كبيرا ، يمكننا معرفة حجم الاسرة ، ونسبة الاناث الى الذكور ، ومستوى الدخل ، وعمليات توظيف رأس المال والربح ، من دراسة ضبوط تركات المتوفين .

ويلاحظ من مواقع الدور وأثمانها ان أي خط او محلة لم يكونا مقتصرين على طبقة اجتماعية او اقتصادية معينة . ونجد الدور ذات الاثمان العالية تجاور دورا ذات اثمان متدنية . ومع ذلك فهناك خطوط دورها أكثر تواضعا في الثمن ، بصورة عامة ، من دور خطوط اخرى . مثلا ، دور خط مسجد الشيخ عثمان قوشقار ، بمحلة الزيتون ، اكثر ثمنا من دور خط جامع (أو مسجد) الشمعة . ودور الخط الاخير أكثر ثمنا من دور خط البطل ، علما بأن الخطين الاخيرين هما أيضا من خطوط محلة الزيتون .

ويلاحظ في خطوط محلة الزيتون ان بعضها كثرت فيه الحواكير ، مثل خــط الكمالية ، مما يدل على وقوعها على اطراف المحلة المتاخمة لحدود المدينة ، وبعضها الآخر كثرت فيه الاحواش والبايكات ، مثل خط ساقية القيدة ، مما يدل على اصول ريفية لساكنيها ، وعلى علاقاتهم الزراعية .

وكثرت الخرائب في انحاء غزة . وهنــاك خطوط تميزت في هــذا المجــال ، فعرف واحدها بخط الخرابة ، كما في خط الخرابة بمحلة الدرج ، وخط الخرابة بمحلة البرجلية . ويفترض ان تكون هــذه الخطوط اكثر فقرا من غيرها . وكثرة الخرائب ، بالنسبة لدور بكاملها ، او لاجزاء من دور مسكونة ، في مختلف انحــاء غزة ، دليل من ناحية ، على ضعف النشاط العمراني ، ومن ناحية اخرى ، على الضيق الاقتصادي ، بالنسبة لبعض قطاعات السكان على الاقل . كما انــه دليل على توافر الارض ، وعلى عدم وجود ضرورة لتوسع المساحة المعمورة في غــزة ، ربمــا بسبب عدم ازدياد السكان بشكل كبير ، وبالتالي عدم الحاجة لاشغال جميــع مناطق السكن في المدينة .

ولعل شيوع العقارات ، الذي يلاحظ بكثرة في ممتلكات غزة ، دليــل عــلى الصعوبات التي واجهت عملية بناء ، أو بيع ، عقار تهدم كله أو جزء منــه ، وكثيرا ما قسمت بيوت كبيرة ، وحتى صغيرة ، بيــن الورثة ، كمــا سبق القول . وهــذا التفتت في الملكية اوجد دورا كبيرة الى جانب الصغيرة ، اذ نتجت عن ذلك محاولات لتجميع الملكية في مكان معين كأن يعمد صاحب دار الى شراء عدد من القراريط في دار مجاورة له ويضمها الى داره ، او يطمح الى شراء بقية الدار ليجعل منها دارا اخرى ، الى جانب داره . ولم تكن هذه القاعدة مطلقة ، اذ كثيرا ما بيعت حصة من دار مشاع الى اشخاص اغراب عن المنطقة ، واحيانا عن المذهب ، ممــا يدل على ملكية صغيرة ومتسامحة تحرص على ايجاد مكان للسكن بالدرجة الاولى وقبل اي اعتبار آخر . وهذاالاقبال على ، شراء او بيع ، الدور ، او الحصص الشائعة فيها ، وبما يفسر الغياب الملحوظ لعمليات تأجير الدور او اجزائها ، بشكل فاق معــه نسبة الايجارات التي قد لا تسجل في المحكمة الا في حالة خلاف ، وذلك بالمقارنة مع كثرة عقود الايجار في دمشق ، مثلا ، في الفترة ذاتها .

ويلاحظ كذلك ان العادة ، عند بيع عقار او جزء منه ، ان يسجل في المحكمة ، اي في حجة البيع أو الشراء ، نوع ملكية الجزء المباع ، وهل انتقلت ملكيته لبائعه ، في الاصل ، عن طريق الشراء أو الارث . ومــن دراسة عقود البيع والشراء في سجل غزة الشرعي ، في فترة دراستنا ، يتبين لنا ان معظم اجــزاء الدور المبيعة قــد

استملكت عن طريق الارث ، وان مشتريها كانوا من الورثة . ونتج عن ذلك تجميع الملكية في يد واحدة ، والتخلص قدر الامكان من شيوع العقار . كما بيع عدد من العقارات : أو اجزاء منها ، بسبب وجود المسوغ الشرعي لبيعها ، وهو احتياج القاصرين ، من الورثة ، للنفقة ، او بسبب غرق التركة بالديون . ولعبت النساء دورا هاما في شراء العقارات ، أو حصص منها ، لانهن تمتعن بثروة مجمدة ، كسبنها عن طريق ارث أو نفقة ، ووظفنها بشراء العقارات او الحلي ، أو في الديون . كماانهن ادخرن المال ، بصورة عامة ، أكثر من الرجال .

ويلاحظ انه لم يكن هناك من محلة او خط خاص بالمسيحيين في غزة في فترة دراستنا . فقد سكن هؤلاء في عدد من خطوط محلة الزيتون ، كما سكنوا في محلات اخرى ، مثل محلة الخضر ومحلة الدرج . وكان المسيحيون أقل سكنا في حي السجاعية والبرجلية مثلا . وتواجد المسيحيين في خطوط ومحلات معينة ، أكثر من تواجدهم في خطوط ومحلات أخرى ، ربما يفسر بقلة نسبتهم العددية الى باقي السكان ، الامر الذي لا يمكنهم من الانتشار بصورة متساوية في مختلف محلات غزة وخطوطها . ولم تكن أمكنة عمل المسيحيين ملاصقة لمناطق سكنهم ، بل نجدهم يشغلون دكاكين في قصبة السوق الرئيسية ، في حي السجاعية مثلا . ولم تكن دور المسيحيين متقوقعة على بعضها ، في الخطوط والمحلات التي تواجدت فيها ، بل جاورت دور المسلمين ، كما في المثال التالي : دار شايعة في خط (مسجد) الشيخ عثمان قوشقار ، بمحلة الزيتون ، اشترت فيها حبيبة بنت ابراهيم الخوري اربعة قراريط ونصف قيراط وربع قيراط ، البايع ولدها عبد النور بن يوسف حديدة ، الثمن ١٥٠٠ قرش صاغ مقبوضة بالاعتراف ، حدها قبلة الزقاق الغير نافذ ، وفيه الباب ، وشرقا دار السيد محمد بن السيد مصطفى العلمي ومن يشركه ، وشمالا حوش الحاج حسن بن الحاج احمد البورنو ، وغربا دار ايوب بن الياس الحداد ، وكان للمشترية ومن يشركها حصة بالدار . ونلاحظ في عمليات بيع وشراء العقارات ، ان ذلك لم يكن ضمن اطار الطائفة الواحدة ، بل شارك فيها ، كما في اية سلعة أخرى ، مسلمون ومسيحيون ، مما يدل على عدم تقوقع الطوائف في أمكنة معينة ، وعلى اختلاط دورهم . وهناك امثلة على اشتراك الفريقين حتى في ملكية عقار واحد ، مثل الدار ، في محلة الزيتون ، بخط مسجد الوزيري ، التي اشترى فيها كل من الشقيقين ، موسى وخليل ، ولدي المعلم ايوب مخايل الرومي ، سوية بينهما ، اثني عشر قيراطا . وكان البايع حمودة بن المرحوم سليمان شبلاق ، الوكيل الشرعي عن الحرمة خديجة بنت المرحوم حسين شبلاق . بثمن قدره ٣٦٠٠ قرش اسدي ، شركة الحرمة زبيدة أخت البائعة بحق الباقي . وحد هذه الدار قبلة دار

ورثة المرحوم محمد ابو عاصي المناخلي ومن يشركهم ، وشرقا دار ورثـة المرحوم مصطفى المجنون ، وشمالا الزقاق الغير نافذ وتمامه دار ورثة المرحوم درويش السوق ومن يشركهم ، وغربا الطريق السـالك وفيها الباب . ثم استأجر يوسف ، أحـد المشترين ، من الحاج احمد شبلاق ، وكيل الحرمة زبيدة بنت المرحوم حسين شبلاق، فأجره الموكل المذكور نصف الدار المرقومة اعلاه ، شركة بها ، مدة خمس سنين ، بأجرة قدرها ٣٠٠ قرش اسدي ، واذن له الوكيل بصرفها في عمارة الحصة المذكورة بمعرفته . ويلاحـظ من المثال السابق ، بالاضافة الى التسامح وانتفاء التكتـل الطائفي ، ان الاجرة السنوية لنصف الدار ، التي عادلت ٦٠ قرشـا ، تشـكل نسبة ضئيلة من ثمن المأجور ، اذ تقدر بـ ١٫٦٦٦٪ من ثمنه البالغ ٣٦٠٠ قرش .

ومما يدل على عدم رغبة المسيحيين في التقوقع أو التكتل انهم لم يحاولوا شراء دور لمسلمين جاورت دورهم ، حين طرحت هذه الدور للبيع ، بل اشتراها مسلمون آخرون ، ولم يستغل المسيحيون شفعة الجوار لتملكها .

وهكذا ، فلم تكن في غزة ، في فترة دراستنا على الاقل ، محلة أو خط خاصين بالمسيحيين ، حرصوا على حصر ملكيتهم فيها ، كما انهم لم يمتنعوا عن بيع العقارات للمسلمين أو شرائها منهم . وما ورد في مقال (غات) ، في عام ١٨٨٧ ، ومن نقل عنه ، من ان هناك حارة خاصة بالنصارى ، مما قد ينطبق على الفترة التي كتب عنها ، ليس هناك ما يؤكده في وثائق غزة الشرعية ، في فترة دراستنا .

كما انه ليس من دليل ، في الوثائق الشرعية ، في الفترة التي درسناها ، على وجود حارة خاصة باليهود في غزة ، كما جاء في المقال المشـــار اليـــه ، ولعل ذلك قـد حدث في فترة لاحقة للوثائق التي ندرسها ، والتي تقف عند عام ١٢٧٧/١٨٦١ . واذا صح ذلك فانه يعني ان هجرة مكثفة لليهود الى غزة قد تمت خلال حوالي خمس وعشرين سنة ، أي بين ١٨٦١ و ١٨٨٧ ، استوجبت فرزا طائفيا بين السكان . وجاء ذكر اليهود مرتين في وثائق غزة الشرعية التي استخدمناها ، وفي المرتين لم يكن هؤلاء اليهود من سكان غزة . ففي المرة الاولى اشارة الى شلوه اليهودي اليافي ، الذي استأجر اوضة (غرفة) بخان الزيت في غزة ، محل الكمرك ، وضع فيها امتعته ودراهمه ،ثم قفلها وتوجه الى اسكلة يافـا . وعند رجوعه ادعى ان ممتلكاته في الاوضة سرقت ، واتهم اناسا حلفوا ان لا علاقة لهم بذلك . وعجز شلوه عن اثبات التهمة عليهم ، فمنع مـن معارضتهم . والمرة الثانية حين اشترى الخواجه معتوق مسعد ، بطريق الوكالة الشرعية عن الحرمة رحيل بنـت ساسون الجوهري البغدادي اليهودي ، بتاريخ ١٧ محرم ١٢٧٥/٢٧ آب ١٨٥٨ حصة من سبعة قراريط ونصف

قيراط وربع قيراط وثمن قيراط وثلاثة ارباع ثمن قيراط في الدار الكائنة داخل اسكلة يافا ، المعروفة بدار الكنفاني ، بخط حارة اليهود . ففي الحالة الاولى كان شلوه من يافا ، وفي الحالة الثانية لا نعرف مكان اقامة رحيل بالضبط ، وليست نسبة ابيها بالبغدادي بكافية للاستنتاج على ان مكان اقامتها كان في بغداد أو في غزة ، ولكن شراءها قسما من دار في يافا يدل على علاقتها بذلك البلد ان لم يكن على اقامتها فيه . واجراء البيع والشراء امام قاضي غزة ربما يفسر بأن البائعين اقاموا في غزة ، أو ان وكيلهم ، على الاقل ، الذي اجرى عملية البيع ، كان من سكان هذه المدينة ومن المقيمين فيها . ولم يكن أمر تسجيل حجج البيع في محكمة غير محكمة المدينة التي يوجد فيها العقار المباع بالامر الممنوع ، بل كان ذلك شائعا آنذاك الى درجة استدعت اصدار امر من والي القدس الى قاضي غزة بتاريخ ٢ جمادى الثاني ٧/١٢٧٥ كانون الثاني ١٨٥٩ ، أي بعد اربعة أشهر ونصف من صدور حجة البيع العائدة لرحيل ، طلب فيه التدقيق في عملية انتقال الاملاك ، وعدم تعاطي بيع اي عقار خارج منطقة القاضي « فبعد الآن اذا تعاطيتم عملا مخلا بهذه النظامات وانوجد حجة بيع وانتقال بعد الاعلان الذي حصل ليس مستوفيا النظام المقرر او حررتم حجة بيع محل واقعا بالقدس أو في محل خارج نيابتكم فلا نقدر نصمت عن اجرى التربية اللازمة »(١٢٨) .

ولو نظرنا الى مجموع السكان في غزة لوجدنا انسجاما ومساواة في التعامل ، بين اتباع مختلف المذاهب . مثلا ، اعتمدت شهادات المسيحيين في المحكمة ، بالنسبة للمسلمين ، والعكس بالعكس . كما ان دور السكن ، كما لاحظنا ، اختلطت ببعضها . واستدان اتباع المذاهب المختلفة بعضهم من البعض الآخر ، وتشاركوا في اعمال ومشروعات تجارية واحدة . ولم يعطل هذا التعايش بعض مظاهر التمييز ، التي كانت شائعة آنذاك في الدولة العثمانية ، كأن يشار الى المسيحي بالذمي ، أو النصراني ، وان يلقب بالمدعو ، أو الخواجة ، وان تستخدم كلمة « ولد » حين نسبته ، وليس «ابن» التي كني بها المسلمون . اما كلمة «المعلم» ، التي اشير بها الى عدد من المسيحيين والمسلمين فيبدو انها كانت ذات مدلول حرفي ، تشير الى اتقانهم الحرفة ، وتعادلها كلمة « اوسطة » ، المحرفة من « استاذ » الفارسية الاصل . ولم يكن وجود المسيحيين طارئا في غزة بل كانوا من سكانها الاصليين بدليل اشارة الوثائق لاحدهم بانه من نصارة غزة .

ولم تشر وثائق غزة ، في فترة دراستنا ، الى المذاهب المسيحية المختلفة فيها . وهناك اشارة في احدى الوثائق الى بيع الحرمة مارية بنت روفايل القبطي دارا لها

بمحلة الزيتون بغزة . فاذا كانت كلمة « القبطي » تشير الى مذهبها ، فيعني ذلك ان اقباطا من مصر هاجروا ، مثل المسلمين ، الى غزة . وهناك اشارة الى ان صراف كمرك غزة كان زنون الارمني (وامين الكمرك جناب حمدي افندي) ، ولا نعلم الى اي مذهب مسيحي انتسب زنون . ولكن امرا اصدره والي القدس الى قاضي غزة ، علمي زادة السيد مصطفى افندي ، بتاريخ ٢ جمادى الثاني ١٢٧٥/ (٧ كانون الثاني ١٨٥٩) ، اشار الى وجوب التفحص عن هوية مشتري العقار ، وهل « هو من تبعة الدولة العلية أم لا وكيفية الوقوف على هذه الحقيقة يكون من راس الملة المنسوب اليها اعني ان كان من المسيحيين ورومي المذهب مثلا ام خلافه فيصير الاستعلام من رأس ملته ومتى أخذ الجواب انه من تبعة الدولة العلية وتبين محليا سلامة جميع ذلك المحل من المحذور ملكا وموقعا فعندها يصير الرخصة من الحكومة بتحرير حجة وسند البيع للمشتري كمايوافق اصول الشرع» (١٢٩) . ونلاحظ ان الامر خص المسيحيين من اصحاب الملل ، ربما لعدم وجود غيرهم ؛ كما انه خص ذكر المذهب الرومي ، أي الارثوذكسي ، المعروف والمعتمد في الدولة العثمانية . واشار ضمنا الى وجود مذاهب اخرى ، ربما كانت هي المعنية بالامر الصادر ، لان طلب التأكد من أن المشتري يجب أن يكون من تبعة الدولة العلية يعني ان اناسا من غير هذه التبعه كانوا يشترون العقارات بشكل مخالف لاصول الشريعة . ولعل في هذا ما يدل على تهافت الاجانب على شراء العقارات في غزة ، وربما في غيرها .

وقد اكدت الدولة العثمانية ، في فترة التنظيمات ، وفي اعقاب صدور خط شريف همايون في عام ١٨٥٦ وقانون العقوبات الجديد في ١٨٥٨ ، على المساواة بين سكان الدولة ، بقطع النظر عن مذهبهم . ففي ٢٥ ذي الحجة ١٢٧٤/ (٦آب ١٨٥٨)، بعث والي القدس بأمر الى قائمقام غزة ، وكبار موظفيها ، يبلغهم بوجوب تطبيق المساواة العادلة بين جميع السكان « من كل صنف وتبعة ومن أي ملة ومذهب » ، عملا بأوامر الدولة العثمانية(١٣٠) .

ولو استعرضنا تركات المتوفين في غزة ، في فترة دراستنا ، لوجدنا معلومات هامة تتعلق بالحياة الاجتماعية والاقتصادية فيها . وهناك بضع ملاحظات ، في هذا المجال ، يجدر ذكرها أولا . فالمعتاد ان تنظم ضبوط التركات ، في المدن الكبيرة ، من قبل قسام عربي ، أو بلدي ، فيما يتعلق بالمدنيين ، ومن قبل قسام عسكري ، فيما يتعلق بالعسكريين . ونظرا لوجود نائب قاض حنفي واحد ، وبالتالي محكمة واحدة في غزة ، فقد نظرت هذه المحكمة في تركات المتوفين بعامة . والمعتاد أيضا ، كما في دمشق مثلا ، ان تذكر تركات كافة المتوفين ، على اختلاف مذاهبهم وثرواتهم

واجناسهم ، في سجلات القسام ، التي اشير اليها بالمخلفات ، وذلك بشكل متتال ، وليس وفق ترتيب معين ، كأن يخصص سجل ، او جزء منه ، للمتوفين من غير المسلمين ، أو للنساء ، أو للريفيين . ورغم ان سجل الوثائق الشرعية في غزة ، الذي اعتمدناه ،ذكر مخلفات نساء توفين فيها ، فانه لم يذكر المتوفين في الريف التابع لغزة ، باستثناء حالتين ، احداهما لشخص توفي بقرية الدوايمة ، والاخرى لآخر توفي بخان يونس ، وكلاهما من موظفي كرنتينة غزة . اما الذين يحملون ، مثلا ، نسبة « الجبالي » او « الرملي » من المتوفين ، الذين ذكرت ضبوط تركاتهم ،فهم من سكان غزة الذين احتفظوا باصولهم الريفية في اسمائهم . ولم يرد في ضبوط المتوفين في سجل محكمة غزة ذكر للمتوفين من النصارى .

ومن الملاحظات الاخرى على ضبوط التركات ما جاء في المراسلة التي وجهها قاضي القدس « منلا افندي الديار القدسية » ، الى نائب القضاء في غزة ، بمناسبة تعيين هذا الاخير في منصبه ، حين أوكل اليه ، من جملة ما أوكل « تحرير التركات الغير جسيمة وتوزيعها بين مستحقيها بالفريضة الشرعية »(١٣١) . ولا نعلم هل هذا التقييد شيء جديد أم انه تذكير بقاعدة اهملها القاضي . فاذا طبقت هذه المراسلة بحذافيرها فهذا يعني ان قاضي غزة (نائب القضاء فيها) لم ينظر في التركات الكبيرة ، التي يفترض ان امرها قد اوكل الى قاضي القدس . ولا ندري ، في حال تطبيق ذلك ما اذا كان ضبط هذه التركات قد سجلت صورة عنه في سجل محكمة غزة . ولا نعرف ، كذلك ، سقف التركة ، الذي لم يسمح لقاضي غزة بأن يتجاوزه ، أو بمعنى آخر ما هي حدود « التركات الغير جسيمة » ، التي سمح له بالنظر فيها . وبتفحص ضبوط التركات في سجل غزة الذي استخدمناه نجد ان اكبر تركة فيه بلغت ٦٥٠٨٦ قرشا اسديا ، قبل حسم الرسوم والمصاريف المترتبة على التركة .

وبلغ عدد ضبوط التركات ، التي سجلت في سجل غزة الذي اعتمدناه ، ستة وخمسين ضبطا ، تاريخ أقدمها ٢٨ جمادى الاول ١٢٧٣/ (٢٤ كانون الثاني ١٨٥٧) ، وتاريخ احدثها حوالي منتصف جمادى الثاني ١٢٧٧/ (اواخر كانون الاول ١٨٦٠) ، وهي حدود السنوات التي يعالجها السجل . ومن مجموع التركات هذه ، خصت ثمان منها نساء توفين . واذا اعتبرنا ان عدد سكان غزة قدر ، في فترة دراستنا ، بحوالي خمسة عشر الف نسمة ، فان وفاة ستة وخمسين منهم على مدى حوالي اربع سنوات يعتبر نسبة ضئيلة ، رغم ان معظم المتوفين كانوا من اصحاب الاسر . ولم تذكر الوثائق من توفي من القاصرين ، ولا بد ان نسبتهم كانت

كبيرة . واذا صعب إتخاذ ضبوط التركات كمؤشر لمعرفة نسبة الوفيات بين السكان ، فان دراستها ، اذا ما اخذناها كعينة ، توصلنا الى نتائج اجتماعية واقتصادية هامة .

ويلاحظ في تركات الرجال الثمانية والاربعين المتوفين ان اربعة منهم لـم تذكر لهم زوجات ، او أولاد على قيد الحياة ، حين توفوا . وربما كانوا غير متزوجين ، أو متزوجين ماتت زوجاتهم ، وان ستة منهم كانت لكل منهم زوجتان ، مما يدل على تدني نسبة تعدد الزوجات . كما انه لم ترد أية حالة بلغت فيها زوجات شخص واحد ، خلفن له أولادا وكن في عصمته حين وفاته ، اكثر من زوجتين ، وفي حالة واحدة كانت احدى الزوجتين قاصرة . وطبيعي ان الزوجات اللواتي طلقن ، دون أن يخلفن أولادا ، لم يذكرن ، لانهن لا يرثن ، في حين يذكر الاولاد من زوجة سابقة ، لم يشر الى اسمها ، لانها لم تكن في عصمة صاحب التركة حين وفاته .

ونلاحظ ان عدد الابناء البالغين ، مـن الجنسين ، للرجال المتوفين الاربعـة والاربعين ، بلغ واحدا وخمسين (منهم ٢٩ من الذكور و ٢٢ من الاناث) ، وعـدد القاصرين بلغ تسعين (منهم ٤٤ ذكرا و ٤٦ انثى) ، أي ان مجموع الابناء ، من بالغين وقاصرين ، كان ١٤١ . وبذلك يكون وسطي ابناء الاسرة ثلاثة ، وهذه نسبة قليلة اذا ما اخذنا بعين الاعتبار الطبيعة الزراعية لسكان غزة ومنطقتها . ويتبين أيضا ان عدد الاناث بين الابناء الـ ١٤١ ، كان ٦٨ انثى ، اي بنسبة ٤٨٪ ، ولكن نسبة الاناث بين مجموع القاصرين ، وهو ٩٠ ، بلغت حوالي ٥١٪ ، في حين بلغت مـن مجموع البالغين ، وهو ٥١ ، حوالي ٤٣٪ . وربما يفسر هذا التدني في نسبة الاناث بين البالغين بقلة الرعاية التي تمتعت بها الاناث ، حين كن قاصرات ، مما أدى الى ارتفاع نسبة الوفيات بينهن .

ونتج عن كثرة عدد الاناث بين ورثة المتوفين تجزئة الارث الى حصص اكثر مما لو كان العدد الاكبر ، من الورثة ، من البنين . وحدث مثـل ذلك بالنسبة لتعدد الزوجات ، لان الثلث قسم بينهن مهما كان عددهن . واذا اعتبرنا ان المراة عندما تتزوج لا تنفق على نفسها بل ينفق زوجها عليها ، حتى بعد طلاقها ، وذلـك خلال عدتها الشهرية ، كما تشير عشرات الوثائق في غزة ، فانها على قلة حصتها في الميراث ، تدخر كمية لا بأس بها من المال ، وتوظف ذلك في ميادين مختلفة ، مثـل شـراء العقارات ، والحلي ، وعقد الديون ، بالدرجة الاولى لزوجها ، وأولادها ، ثـم للآخرين .

ولعل اهم استنتاج ديموغرافي نصل اليه من دراسة التركات هو النسبة الكبيرة من الابناء القاصرين الذين خلفهم المتوفون ، والتي بلغت ٩٠ من اصل ١٤١ ، اي حوالي ٦٣٪ . ولو اضفنا الى عدد القاصرين في التركات الاربع والاربعين التي درسناها ، اربعة أجنة ، يتوقع ولادتها لدى بعض زوجات المتوفين ، لارتفعت هذه النسبة الى حوالي ٦٤٪ . ونستنتج من ذلك أحد امرين : اما ان الزواج كان يتم في سن متأخرة نسبيا ، وهذا غير معقول ، بالنسبة للمعطيات الاخرى المعروفة في المجتمع الزراعي ، مثل حرص الاهل على زواج الابناء في سن مبكرة ، لاسباب اجتماعية واقتصادية ، او ان وسطي الاعمار بين الرجال كان متدنيا . ومهما كان السبب ، فان في ذلك دليلا على ان مجتمع غزة كان فتيا نسبيا . وطول اعمار الزوجات ، بالنسبة للازواج ، ربما يفسره صغر سنهن ، بالنسبة للازواج ، عند الزواج ، وقلة الاعمال المرهقة التي يقمن بها . كما ان من بقي منهن على قيد الحياة ، بعد وفاة أزواجهن ، يدل ايضا على مقاومتهن الطبيعية ومناعتهن ، حين كن صغيرات ، فبقين عندئذ على قيد الحياة .

ويمكننا أيضا ، من خلال الوثائق الشرعية ، معرفة النسب التقريبية للزواج والطلاق وايجاد خط بياني لها مرتبط بالاوضاع الاقتصادية . فقد اخذنا ، بصورة عشوائية ، عينة تقع ضمن فترة بين ٢٣ ذي الحجة ١٤/١٢٧٤ آب ١٨٥٧ ونهاية رجب ١١/١٢٧٧ شباط ١٨٦١ ، اي في حوالي واحد وثلاثين شهرا ، فوجدنا انه ذكر فيها احدى وخمسون حالة زواج مقابل سبع وثمانين حالة طلاق . ورغم ما قد يكون في هذا من تكرار في الزواج ، أو في الطلاق ، بالنسبة لشخص واحد ، فان النسبة المقارنة تبقى ذاتها . وهذا يدل ، بوجه عام ، على تفكك في الاسرة . وفي حالات الزواج الاحدى والخمسين كانت الزوجة في ثلاث وثلاثين منها بالغة عند الزواج ، وقاصرة في الحالات الاخرى . وأقل مهر بالنسبة للبالغة كان اربعمائة قرش ، وفي هذه الحالة كان الزوجان مصريين ، من نزلاء لواء غزة . واعلى مهر بلغ ١١٠٠٠ قرش ، وكان الزوج ابن أمير بدوي ، وهذا استثناء لان أعلى مهر بالنسبة لسكان غزة ، بلغ ٥٥٠٠ قرش . وبلغ متوسط مهر البالغة ، في العينة التي درسناها ، ١٦١٨ قرشا ، في حين بلغ متوسط مهر القاصرة ١٧٢٥ قرشا . ولم تقل نسبة المهر في الريف عنها في المدينة ، بصورة عامة ، مما يدل على مستويات إقتصادية متشابهة وتقاليد مالية متقاربة في الزواج . وفي مختلف حالات الزواج شكل المقدم ، أو الحال ، من المهر نسبة تتراوح بين ٨٠ و ٩٥٪ من مجموع المهر . ويؤكد هذا الفائدة الاقتصادية من الزواج بالنسبة لاهل العروس ، كما انه يفسر سهولة الطلاق وعدم وجود رادع اقتصادي كبير له .

ويلاحظ ، في العينة التي درسناها ، ان الزواج بين الاسر المتباعدة كان هو الغالب في حين كان الزواج بين الاقرباء أقل نسبة . وربما يفسر هذ الامر ، الذي يبدو غريبا ، بالنسبة لتقاليد الزواج ، وخاصة بين الريفيين ، أو بين من هم من اصول ريفية ، ان الزواج بين الاقرباء قد لا يسجل في المحكمة ، لان أي خلاف يحل عائليا . وقلما وردت حالات زواج بين سكان الريف وغزة . وكان الزواج في الريف ، بصورة عامة ، ضمن اطار القرية الواحدة ، وفي حالات أقل بين قريتين . كما ان الزواج بطريق البدل ، كان يزوج رجل ابنته من شخص آخر مقابل زواجه من ابنة هذا الشخص ، كان معروفا ، وخاصة في الريف . أما بالنسبة للنزلاء المصريين ، سواء في غزة أم في الريف ، فغالبا ما تزاوجوا من بعضهم ، ويسهل معرفة ذلك من نسبة « المصري » التي لحقت باسمائهم ، مما ابقاهم كتلة متراصة وغريبة .

اما بالنسبة للطلاق في العينة التي درسناها ، فقد بلغت حالات الطلاق بالثلاثة احدى وثلاثين حالة من اصل سبع وثمانين ، والبقية كانت بالمخالعة . ومبادرة الطلاق بالثلاثة ، كما هو معروف ، تخص الرجل ، اما الطلاق بالمخالعة فأمره بيد الزوجة ، أو وكيلها ، الذي قد يكون والدها أو شخصا آخر ، ويتم بموافقة الزوج . وارتفاع نسبة الطلاق بالمخالعة يفسر بسبب اقتصادي ، كأن تحاول الزوجة الحصول على مؤخر مهرها ، ونفقة عدتها ، ونفقة اولادها القاصرين ، ثم تتزوج من جديد في غالب الاحيان . ويستفيد والدها ، ايضا ، مرة ثانية ، من زواجها هذا . ولا يعطي الزوج موافقته ، في الطلاق بالمخالعة ، الا حين يسترد ما بذمة الزوجة أو والدها ، او وكيلها له . والمثال التالي يوضح ذلك : سألت الحرمة فطومة بنت عمرو أبو عقبة زوجها ، الحاج احمد بن يوسف بلبل ، ان يخالعها من عصمته وعقد نكاحه على ۱۲۰۰ قرش بذمتها له ، فاجابها لذلك ، وقال لها خالعتك من عصمتي وعقد نكاحي على ۱۲۰۰ قرش بذمتك لي ، ثم دفعت له من ذلك ٥٤٠ قرشا ، وقاصصها بمؤخر صداقها ، وقدره ۲۰۰ قرش ، ونفقة عدتها ، وقدرها ٦٠ قرشا . والباقي لها بعد ذلك ، وهو ٤٠٠ قرش اسدي ، اذن لها ان تصرفه على ولده القاصر منها ، في مدة اربع سنوات ، كل سنة مائة قرش . ولكن ، بعد اقل من شهرين ، تزوج الزوج ، الحاج احمد بن يوسف بلبل ، الحرمة فطومة ، مخلوعته سابقا ، بمهر قدره ٨٤٠ قرشا ، الحال منها ٦٤٠ قرشا ، والباقي ۲۰۰ قرش ، وهي التي زوجت نفسها على ذلك . ولا ندري اذا كان في الامر محاولة لتغطية شيء ما ، او ان اعادة الزواج اقتضتها ضرورات اقتصادية ، وربما شخصية .

وقد تمتعت المرأة ، في غزة وريفها ، بقدر كبير من الاستقلال في العمل . وكثيرا ما ظهرت في المحكمة بنفسها ، فيما يتعلق بزواجها وطلاقها ، وشرائها العقارات ،

او بيعا ، ووقفها الاوقاف ، وعقدها الديون والمطالبة بها . كما انها ظهرت في المحكمة كمدعية ومدعى عليها . ومع ذلك ، لم يرد اسم امرأة بين شـهود الحال او العدول في المحكمة . وطبيعي ان الوكيل ناب عن المراة ، حين لم تحضر بنفسها ، واقتضى ذلك منه ان ياتي بالشهود لتأكيد وكالته عنها . وكان ظهور المراة المسيحية في المحكمة الشرعية اقل من ظهور المرأة المسلمة ، نظرا لان زواجها او طلاقها لا يتمان في هـذه المحكمة ، وناب عنها ، في الغالب ، وكيلها في قضايا البيع والشراء . ولم تميز المحكمة بين المرأة المسلمة والمسيحية من حيث اللقب والنسبة ، كما فعلت بالنسبة للرجال مـن الطرفين ، فكلتاهما وصفتا بالحرمـة ، اذا كانتـا متزوجتين ، واسعملت في نسبتهما لفظة « بنـت » فـلان .

ووجدت الجواري في غزة ، واختلفت الوانهن واثمانهن . مثلا ، جارية سمراء بيعت في تركة احمد عودة البطل بثمن قدره ٢٥٠٠ قرش ، واخرى سوداء ، اسمها امان ، اعتقها مالكها قبل وفاته . وكان للنساء الثريات جوار او مملوكات اعتقنهن ابان حياتهن ، واوصين لهن بالمال بعد مماتهن . وعرفت الجارية ، قبل عتقها باسمها الاول فقط ، وبلونها ، واسم مالكها . واطلق على الجارية ، التي اعطيت حريتها ، لقـب « معتوقة » أو « عتيقة » ، ونسبت الى معتقها ، كأن يقال الحاجة حليمة عتيقـة الحرمة السيدة الحاجة زينب .

وكثر النزلاءالاغراب في غزة وريفها . واشير الى زاوية الهنـود وخـان زاوية الهنود فيغزة ، في محلة البرجلية ، بخط سوق الفخار . وربما دل هذا على تواجد الهنود في غزة وترددهم عليها للتجارة . وليس من دليل ، في الوثائق ، علـى توطن الهنود فيها ، او في ريفها ، اذ انهم لا يذكرون في عمليات بيع العقارات او شرائها ،ولا في وقائع الطلاقوالزواج والوفيات . ولا ندري اذا كان قدوم الهنود الى غزة قـد تم في الماضي البعيد او القريب ، واذا ما كان متصلا . ولكن نسبة الزاوية والخان اليهم ربما يدل على تواجد مستمر ، وان يكن غير مستقر .

وهناك اشارات الى وجود المغاربة في غزة وتوطنهم فيها . فقـد ذكر استيفاء الحرمة حفيظة بنت المرحوم محمد آغا البرعصي المغربي مبلغا من المال من زوجها عبد الله بن المرحوم عبد الحفيظ آغا البرعصي المغربي . وذكرت دار الحاج هيبة المغربي بمحلة السجاعية ، بخط الشيخ محمد الطيار . ولا ندري الى اي مدى تواجد المغاربة في غزة وريفها ، وبأية صفة : كمجاورين ، ام كعسكريين ، ام كتجار ،ونستدل من لقب آغا ، بالنسبة للاسمين السابقين ، الصفة العسكرية التي غلبت على المغاربة

المتواجدين بكثرة ، مثلا ، في بلاد الشام ، منذ القرن الثامن عشر ، اذ كانوا فيهـا جنودا وحرابا . والتواجد المغربي ، في بلاد الشام في العهد العثماني ، بدأ اساسا بهدف المجاورة والعلم ، ثم ازداد في المجال العسكري . وزواج المغاربة ، فيما بينهم ، كما في المثال السابق ، امر له دلالته ، لان من طبيعة المغاربة ، في بلاد الشام ، الانطواء على انفسهم والتكتل في طوائف ، يحمل كل منها اسم منطقة في المغرب انتسب افرادها اليها ، مثل طائفة الفاسية ، والمراكشية ، والدراوية ، والتونسية ، والسوسية ، والجزائرية ، والطرابلسية . وترأس كل طائفةشيخ رعى مصالحها . وترأس الجميع شيخ المشايخ .

واشارت الوثائق الى طائفة النور في غزة ، وذلك بمناسبة مخالعة تمت بين امرأة وزوجها من النـور . ويدل لجوء النور الى المحكمة الشرعية على تمسكهم بمبادىء الشريعة ، وعلى ترددهم الى غزة ، وربما على استقرارهم الجزئي او الكلي في المنطقـة .

اما الفئة التي فاقت ما عداها ، من النزلاء الاغراب ، بعددها ، واستقرارها في غزة وريفها ، واشتراكها في الفعاليـات الاقتصادية المختلفة ، ونشرهـا لكثير من المصطلحات التي اتت بها من بلدها الاصلي ، فهي المصريون . ولا عجب في ذلك نظرا لجوار لواء غزة لاراضي مصر ، وللعلاقة السياسية والاقتصادية والسكانية المستمرة بين المنطقتين . وكانت قلعة العقبة ، في فترة دراستنا ، تابعة « قضا مصر » . وجاء في كتاب (بيديكر) ، من حوالي ١٨٩٠ ، ان غـزة شبه مصرية ، وان الغطاء الذي استعملته نساؤها كان مشابها لغطاء سكان مصر .

وكثيرا ما استخدم المصريون محكمة غزة لتسجيل عقود بيع العقارات وشرائها في مصر ، بالاضافة ، طبعا ، الى استخدامهم اياها في تسجيـل العقود المحلية . واشارت الوثائق الى كل مقيم من اصل مصري بالمصري ، مما سهل تمييز المصريين عن غيرهم . واشير احيانا الى البلد الام للمصري المتوطن في لواء غزة ، كأن يكون من دار قلعة نخل ، من اعمال مصر ، او من قرية الصالحية ، او غيرهـا . وكـان عدد من المصريين القادمين الى لواء غزة من اصول بدوية ، واشير اليهم على انهم من عرب مصر ، وسميت بعض طوائفهم مثل « طايفة السعادين » و « طايفة الحـواز » و « طايفة اكباد الفتاورة » .

ولم يحل المصريون في محلة او خط خاص بهم في غزة ، فقـد تواجدوا ، مثلا ، في محلات الزيتون ، والبرجلية ، والسجاعية ، وتملكوا فيها . كما تزاوجوا ،

أحيانا ، مع السكان المحليين . ويبدو ان الوضع الاقتصادي للمصريين المقيمين في غزة لم يكن متميزا ، نظرا لشرائهم دورا في غزة باسعار متدنية .

ولا تتوافر معلومات مفصلة حول عمل المصريين المقيمين في لواء غزة . وقد اشير الى احدهم انه جندي ، ولا ندري صفة الجندية آنذاك . فقد اشير ، في احدى الوثائق ، الى شاب في غزة اخذ للنظام ، مما يدل على نوع من الخدمة الاجبارية في الجيش العثماني . ووصف مصري آخر في غزة بانه دقاق البارود . وهذه صفة اطلقت على اصحاب الزنود القوية ، الذين عملوا في دق البارود بمطارق طويلة القبضة تحاشيا لانفجار البارود . واشير الى اخر اقتنى ثلث دار بمحلة الزيتون في غزة بانه الاسطى . واذا كان مفهوم اللقب هنا حرفيا فانه يدل على براعته في المهنة .

وقد عمل بعض المصريين في كرنتينة غزة . وكان لهذه الكرنتينة ، التي اقيمت جنوبي غزة ، في منطقة عرفت باسمها (ضريبة الكرنتينا) ، ناظر ، ومدير ، واون باشي ، اي قائد عشرة . وذكر كتاب (بيديكر) وجود كرنتينة ، بجوار قلعة ، قرب العريش ، في منطقة الحدود مع مصر . ولا ندري ما اذا كانت هي ذاتها الكرنتينة التي اشارت اليها وثائق غزة الشرعية ، حين ذكرت ضريبة الكرنتينا ظاهر غزة . ومما يرجح انها هي نفسها ان المفروض في الكرنتينة ان تكون في منطقة الحدود ، حيث يمكن عزل المصابين . كما ان مصطفى افندي اسطنبلي ، اون باشي كرنتينة غزة ، توفي في خان يونس ، القريبة من الحدود .

وقد تواجد المصريون في ريف غزة . ومن القرى التي سكنوها زرنوقة ، خان يونس ، دير البلح ، يبنا ، وجولس . واشير الى المصريين المقيمين في هذه القرى على انهم من نزالها . وذكرت اسماء عدد منهم بمناسبة خلاف حول ملكية ثور ، او حمار ، او جمل . وبلغ من سماحة صدر قاضي غزة ، واهتمامه بتطبيق القواعد الشرعية في كل كبيرة وصغيرة ، ان احضرت هذه الحيوانات في المجلس ، او اكتفي بايقافها في بابه .

وغالبا ما تزاوج المصريون بين بعضهم ، سواء في ريف غزة ام في قراها ، مما ابقاهم كتلة متميزة لم تندمج كلية مع السكان المحليين الا بمرور الزمن . ولم تكن نسبة الطلاق بينهم باقل من نسبتها بين السكان المحليين . وقلما لجأت المرأة المصرية الى تعيين وكيل عنها في القضايا التي رفعتها الى المحكمة ، بل كانت تظهر بنفسها في المحكمة .

والكتلة السكانية الرئيسية في ريـف غـزة ، مـن حيث الاهمية السياسية والاقتصادية ، كانت البدو . وسنستعرض الفعاليات الاقتصادية للبدو في بحث الاقتصاد ، ونكتفي هنا بالتعريف بهم وذكر مظاهر من حياتهم الاجتماعية مستشفة من خلال الوثائق الشرعية . فقد انقسم البدو ، في منطقة غزة ، الـى قسميـن رئيسيين : عربان بلاد غزة الصف القبلي ، او القبالي ، وترأسهم الشيخ عيسـى ابن المرحوم الشيخ عايش الوحيدي الحسيني ، الذي لقب بشيخ مشايخ هـؤلاء العربان ، وعربان بلاد غزة الصف الشمالي ، وتراسهم الشيخ حسين بن المرحـوم الشيخ رباح الوحيدي الحسيني ، الذي لقب بشيخ مشايخ هؤلاء العربان . ويبدو ان الشيخ حسن بن المرحوم الشيخ رباح الوحيدي الحسيني ، الذي كان احيانا الوكيل الشرعي عن اخيه الشيخ حسين ، قد حل مكانه كشيخ مشايخ عربـان الصف الشمالي ، وذلك في الفترة الواقعة بين ٢٥ شوال ١٢٧٥/(٢٨ ايار ١٨٥٩)، حين ورد اسم الشيخ حسين ، شيخ مشايخ عربان بلاد غزة الصف الشمالي ، و ٢٥ شوال ١٢٧٦/(١٦ ايار ١٨٦٠) ، حين ورد اسم الشيخ حسن شيخ مشايخ هؤلاء العربان ، هذا اذا لم يخطىء كاتب الوثائق الشرعية بين اسمي حسين وحسن ، كعادته في كثير من الاحيـان .

ويبدو من تسميات شيوخ عربان الصفين الشمالي والقبالي انهم انتسبوا الى اسرة واحدة ، هي الوحيدي او الوحيدات . ولا نعرف من اي وحيدات كان هؤلاء ، اذ ذكر العارف ان هناك وحيدات الترايين ووحيدات الجبارات ، ونسب الوحيدات اصلهم الى قريش وانتموا الى الحسين بن فاطمة الزهراء .

وورد كذلك ذكر عرب السواركة ، وموقعهـم الى الشرق من غزة ، ربما في منطقة بئر السبع ، وهم غير عرب السويركة الى الجنوب منها . وذكـر شيـخ عرب القديرات ، واسمه الشيخ عوض بن المرحوم الشيخ سلامة ابي رقيـق . ويشتق اسم عرب القديرات مـن قدرتهم « على الطعن والنزال » ، وكانـوا في الجنوب الشرقي من غزة ، الى الشرق من عرب العزازمة . كما ورد ذكر عرب بني ايوب ، وعرب وادي موسى . ولا نعلم اذا كان هؤلاء الاعراب قد شكلوا جزءا مـن عربان الصف القبلي او الصف الشمالي . والدليل انه وجد مشايخ عربان خارج نطاق نفوذ شيخي مشايخ الصفين القبلي والشمالي ان الاوامر التي ارسلها والي القدس الى المسؤولين في لواء غزة اشارت الى « مفاخر القبايل والعشاير شيوخ مشايخ عربان الصف القبالا والشمالا ومشايخ العربان زيد عشيرتهم » . وقـد اعتمدت الدولة العثمانية على معظم هؤلاء العربان في نقل المؤن ، وعلى الاخص الشعير والحنطة من غزة الى بندر معان لحساب قافلة الحج الشامي .

وقد التزم البدو باصول الشرع الاسلامي فلجأوا الى محكمة غزة لفض المنازعات بينهم وبين غيرهم ، او لابراء ذمتهم تجاه مالية الدولة . كما انهم سجلوا بعض عقود الزواج في محكمة غزة . فقد تزوج ، مثلا ، الشيخ عوض ابن المرحوم الشيخ سلامة ابي رقيق ، شيخ عرب القديرات ، امونة البكر البالغ بنت المرحوم الشيخ احمد الشاعر اللهواني ، بمهر مقداره اربعة آلاف وخمسماية قرش اسدي ، الحال منها اربعة آلاف قرش ، والباقي يؤخر على الزوج لاقرب الاجلين ، زوجها على ذلك وكيلها السيد سلامة الهليس . وقبل الزوج المذكور لنفسه ذلك . ولا نعلم تماما فيما اذا كان الشيخ احمد الشاعر اللهواني غزيا ، ولو ثبت ذلك لتأكد لدينا بعض علاقات الود ، لا العداء ، بين سكان غزة والبدو . ويؤكد هذا التزام مشايخ البدو بالشريعة حين سجلوا عقود زواجهم في محكمة غزة ، وكذلك شراء عدد منهم دورا لهم في غزة . وكان اعلى مهر سجل في محكمة غزة ، في فترة دراستنا ، هو مهر زواج الشيخ عيسى بن المرحوم الشيخ عايش الوحيدي الحسيني ، شيخ مشايخ عربان بلاد غزة الصف القبلي ، من امينة البكر القاصر ابنة جناب عين الاغوات الشيخ عقيلة الحاسي (لعله شيخ بدوي) ، اذ بلغ احد عشر الف قرش ، الحال منها عشرة آلاف ، مقبوض بيد والد الزوجة . وقد زوجها على ذلك الشيخ حمود شقيقها الثابتة وكالته عن والدها عقيلة آغا .

وكان الشيخ عيسى قد اشترى ، قبل زواجه هذا بحوالي ثلاث سنوات ، دارا من اكبر دور غزة ، بمحلة الخضر ، بخط حمام السمرة ، داخل بوابة الكجك ، بأعلى ثمن ذكرته الوثائق لاية دار ، ومقداره ثلاثة وثلاثون الفا وستمائة قرش ، قبضت في المحكمة بيد الشقيقين البايعين ، الشيخ عبد الله والشيخ عبد القادر ، ابني المرحوم الحاج صقر العايدي . وكان هذان قد اشتريا عشرين قيراطا من هذه الدار من الشيخ عايش ، والد الشيخ عيسى ، الاصيل عن نفسه والوكيل عن ابنتي اخته ، كما اشتريا بقية القراريط ، وهي اربعة ، من شركاء الشيخ عايش ، بموجب حجيج مؤرخة في رمضان وشوال ١٢٦١/(آب ـ تشرين الاول ١٨٤٥) . والذي يلفت النظر في هذه الدار انها ضمت ما لم تضمه دور غزة الاخرى ، لتتلاءم ، كما يبدو ، مع احتياجات ساكنها البدوي . فقد اشتملت على قاعة كبيرة بخيمتين ، وقاعة بخيمة واحدة ، الى جانب لواوين ، وبيوت وغيرها . ولم تكن هذه الدار اول تملك للشيخ عيسى في غزة ، فقد امتلك دارا ، بمحلة الزيتون ، بخط الخضر ، باعها بثمن قدره ستة آلاف وثمانية قروش ، قبل اربعة اشهر من شرائه الدار الاخرى .

للبحث صلة

(٤ ـ مظاهر اقتصادية)

الحواشي :

(١) انظر حول حكم افراد هذه الاسرة ومملوكهم الامير فروخ ، كتابنا : بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني الى حملة نابليون برنابرت ، ١٥١٦ ـ ١٧٩٨ ، ط ٢ ، دمشق ، ١٩٦٨ ، ص ١٦٤ ، ١٩٩ ـ ٢٠٠ ، ٢٠٨ .

(٢) انظر حول حكم حسين بشا ابن مكي في دمشق ومهاجمة البدو قافلة الحج الشامي ، التي كانت بامرته ، كتابنا :
The Province of Damascus, 1723 - 1783, paperback ed., Khayats, Beirut, 1970, 209 ff.,

(٣) الخوري ميخائيل بريك ، تاريخ الشام (١٧٢٠ ـ ١٧٨٢) ، نشره الخوري قسطنطين الباشا ، حريصا ، ١٩٣٠ ، ص ٣٦ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٢ .

(٥) انظر مصور هذا الطريق في كتابنا : بلاد الشام ومصر ، ص ٤٧٣ .

(٦) انظر : مصطفى مراد الدباغ ، بلادنا فلسطين ، دار الطليعة ، ج١ ، ق ٢ ، ص ٩٧ . وانظر حول طريق الحج المصري ، كتابنا : بلاد الشام ومصر ، ص ٤٧٥ .

(٧) سجل غزة ، ص ١٢ مكرر ، صورة امر من اسماعيل كامل باشا ، بتاريخ١٢ جمادي الثاني ١٢٧٣/(٧ شباطط ١٨٥٧) .

(٨) سجل غزة ، ص ٥٩ .

(٩) انظر : K. Baedeker, **Palestine et Syrie, Manuel du Voyageur,** Deuxième édition, Leipzig, 1893, p. 159.

(١٠) سجل غزة ، ص ٨٣ : صورة مراسلة ، ص ٣٥٨ : صورة مراسلة .

(١١) انظر الدراسة المفصلة لهذه القرى التي قام بها الدباغ ، ج١ ، ق٢ ، ص ١٨٩ ـ ٣٠٦ .

(١٢) عارف العارف (قائمقام غزة) ، تاريخ غزة ، مطبعة دار الايتام الاسلاميـــة في بيت المقدس ، ١٣٦٢/١٩٤٣ ، ص ١٩٧ .

(١٣) Baedeker, p. 159

(١٤) العارف ، ص ٢٠٩ .

(١٥) الدباغ ، ج١ ، ق٢ ، ص ٩٩ .

(١٦) انظر حول المنطار ، العارف ، ص ٣٢٧ ، الدباغ ، ج١ ، ق٢ ، ص ٩٩ ، وانظر ايضا :
Baedeker, p. 159; Martin M. Meyer, **History of the City of Gaza,** 1st ed. Columbia University Press, 1907, reprinted by AMS Press, N.Y. 1966, pp. 109- 111.

(١٧) انظر :
André Raymond, **Artisans et Commerçants au Caire au XVIIIe Siècle,** 2 tomes, Damas, 1973, 1974, II, p. 855.

(١٨) Reconnaissance of Gaza, of the villages of Harrat IT TE Fear and Sajaeah, by Lt Aldrihc RI Engrs, June, 1841.

(١٩) انظر :
Amnon Cohen and Bernard Lewis, **Population and Revenue in the Towns of Palestine in the Sixteenth Century,** Princeton University Press, 1978, pp. 117 - 677.

(٢٠) Baedeker, p. 159

(٢١) G. Gatt, « Legende zum Plane von Gaza », ZDVP (**Zeitschrift des deutschen Palestina Vereins**), XI (1888), pp. 149-159.

(٢٢) Meyer, p. 108

(٢٣) انظر بصورة خاصة : Cohen and Lewis, p. 127

(٢٤) Ibid., p. 128

(٢٥) **Ibid.,** p. 120, n. 15

(٢٦) انظر ما يلي ، ص ٢٩ .

(٢٧) **Encyclopaedia of Islam,** 2nd ed., s, v. Ghazza, pp. 1080-1081.

(٢٨) ص ٢٥٥ .

(٢٩) ذكر العارف ، ص ٢٥٥ ، ان تسميتها تعود الى شجاع الدين عثمان الكردي الذي استشهد في غزة سنة ٦٣٧/ (١٢٣٩ ــ ١٢٤٠) ، ابان الحروب الصليبية . وذكر الدباغ ، ج١ ، ق٢،ص٥٣، احتمال نسبة الشجاعية الى شجاع الدين عثمان الكرديالذي استشهد بغزة، ولكنه،فيهامش ٢ ، رجح ان الاسم نسبة الى « السجاعية » ، وهيبلدة من اعمال «المحلة الكبرى» ، في مصر ، وان جماعة منها نزلت غزة وسميت البقعة التي استقرت فيها باسم وطنهاالاول.

(٣٠) ذكر العارف ، ص ٢٥٦ ، ان التسمية نسبة الى القبائل التركمانية التي سكنت غزة ، في القرن الثالث عشر ،في عهد السلطنة المملوكية . ولا ندري اذا كان للتسمية من علاقة بمسجد ركن الدين التركماني الذي بناه ركن الدين عمر بن خليلالتركماني الغزي في ٧٨٢/(١٢٨٠ ــ ١٢٨١) ،والذي ذكر العارف ، ص ٢٥٣ ، انه اندثر في عهده .

(٣١) ذكر العارف ، ص٢٤٩ ، ان كثيرين يظنون ان الذي بنى هذا الجامع هو جان بردي الغزالي والي الشام (ومن ضمنها غزة) في مطلع الحكم العثماني .

(٣٢) هناك مسجد اخر باسم محمد المغربي تسمى به خط في محلة البرجلية . وقد اشار العارف ، ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ ، الى مسجد المغربي ، المسمى ايضا بمسجد الشيخ المغربي ، وانه في حي الدرج. والمعروف لدينا ، من خلال الوثائق الشرعية، انخط مسجد الشيخ محمد المغربي وجد فيمحلةالبرجلية التي اندمجت ، في زمن العارف ، وما قبله بحارة الدرج . لذا فمسجد المغربي الذي اشار اليه العارف هو مسجد محمد المغربي . ويبقىمسجد علي المغربي دون تعريف .

(٣٣) هكذا وردت كتابتها في الوثائق الشرعية ، وستبقىكتابة الاسماء كما وردت .

(٣٤) ذكر العارف ، ص ٣٥٣ ، ان مسجد الشيخ مسافر ، في حي السجاعية ، كان مندثرا في زمنه. وذكر ان الذي انشاه هو الحاج سعد الدينمسافر بن قتبغلي احد المماليك السلطانية ، فيعام ٧٠٦/(١٣٠٦ – ١٣٠٧) .

(٣٥) لعله اشارة الى مسجد العابد ، الذي ذكر العارف ، ص ٣٥١ ، انه كان مهجورا في زمنه ، وانظر ايضا ، العارف ص ٣٥٤ .

(٣٦) نسبة الى جامع الباسطية . وجاء في الوثائق بعبير ((خربة جامع الباسطية)) ، سجل غزة ، ص ١٨،٩٩جا٧٤٤/(٤ كانونالثاني ٥٨) ، ولا ندريهل الجـامع كان خربة ام أن خربة وجـدت قـرب الجامع فعرف بها . وذكر العارف ، ص ٣٥٣،ان هذا المسجد كان مندثرا في زمنه ، وقامت في مكانه مطحنة زهو .

(٣٧) ذكر العارف ، ص ٣٥٣ ، ان هذا المسجد كانمندثرا في زمنه .

(٣٨) اشار اليها Gatt, p. 157 في عام ١٨٨٧ انها ساقية اخليل .

(٣٩) ذكر العارف ، ص ٣٥٢ ، مسجد الشيخ الباز في حي التفاح بغزة ، وانه كان مندثرا بكامله في زمنه . وقد يكون ان الشيخ الباز هذا تسمى خط الباز باسمه في محلة البرجلية او ان مسجد الشيخ الباز كان في محلة البرجلية ، وسمي الخط ، بالنسبة اليه ، اختصارا بخط الباز .

(٤٠) ذكر العارف ص ٣٥٠ ان هذا المسجد انشىء من قبل شهاب الدين احمد ازفير بن الظفر دمري في سنة ٧٦٢/(١٣٦٠ – ١٣٦١) ، وينسبالى ظفر دمر من بلاد المغرب ، وانه عامر الى يومه .

(٤١) لم يرد ذكره في كتاب العارف ، سواء بين اسماء المساجد القائمة او المهجورة او المندثرة ، او بين المزارات .

(٤٢) لا نعلم فيما اذا كان للشيخ علي ابو الكاس مقام او مسجد اندثر (لم يشر اليه ، على اية حال ، العارف) في هذا الخط واشار Gatt, p. 151 الى مقبرة ابو الكاس في غزة .

(٤٣) ذكر العارف ، ص ٣٤٢ ،، والدباغ ، ج١ ، ق٢ ، ص ١٢٦ ، ان هذا الجامع من الجوامـع الكبيرة في غزة ، ويأتي بعد الجامع العمري الكبير من حيث الحجم ومتانة البناء ، والذي بناه هو احمد ابن عثمان من رجال القرن الثامن الهجري .

(٤٤) لا نعرف الاسم الكامل لهذا الشيخ ولا لماذا نسب الخط اليه .

(٤٥) اشار العارف ، ص ٣٣٠ – ٣٣٧ ، والدباغ ، ج١ ، ق٢ ، ص ١٢٤–١٢٦ ، الى الجامع العمري الكبير وانه قائم في محلة الدرج ، وانه بني في مكانه ، في الاصل ، معبد وثني ، ثم كنيسة بيزنطية . ولكن الوثائق الشرعية في فترتنا ذكرت خط الجامع الكبير في محلة الشجاعية وكذلك في محلة البرجلية ، وربما أن الخط استمر في المحلتين نظرا لان الجامع واحد . وبما ان العارف ، ص٢٥٥ ، حين تعداد احياء غزة ، لم يشر الى محلة البرجلية ، التي يعتقد انها دمجت بحي الدرج ، فان هذا يفسر ورود الجامع الكبير في حي الدرج في تصنيفه . انظر وصف الجامع الكبير حوالي عام ١٨٩٠ في كتاب Baedeker, p. 159

(٤٦) ذكر العارف ، ص ٣٥٠ ، ان هذا الجامع واقع في حي الشجاعية ، ولا يعرف عن ماضيه شيئا .

(٤٧) ذكر العارف ، ص ٣٥٠ ، ان التسمية نسبة الى اسم زوجة احد حكام غزة العثمانيين .

(٤٨) التسمية ، حسب الرواية المحلية ، بالنسبة الى جزء من سور غزة القديم ، الذي كثرت فيه الابراج ، انظر Cohen and Lewis, p. 117 n. 6

(٤٩) اشار العارف ، ص ٣٥١ ، الى ان هذا الجامع ، الذي اضحى في عهده في حي الدرج ، هجره الناس ، مع جوامع اخرى ، لقلة استعمالها ، او لعدم تصليح الخراب فيها . وورد هذا الخط ايضا في محلة الدرج ، انظر فيما يلي ، ص ١٨ .

(٥٠) ذكر العارف ، ص ٣٤٨ ، وجود مسجد زاوية الهنود . وحول هذه الزاوية ، انظر فيما يلي ، ص ٢٠ .

(٥١) لم يرد في كتاب العارف مسجد بهذا الاسم . ولا ادري اذا كان لهذه التسمية من علاقة باسم الشيخ عياد بن الشيخ عبد الله الايبكي ، الذي ذكر العارف ، ص ٣٤٠ ، انه مدفون بالقرب من السيد هاشم .

(٥٢) ذكر العارف ، ص ٣٤٧ ، ان هذا المسجد كان صغيرا ، وانه ينسب الى فرج ، عبد السيد محمد خطاب ، من اواخر القرن العاشر (اواخر القرن السادس عشر) ، وانه دفن في ذلك الموقع وبني مسجد عنده .

(٥٣) انظر فيما سبق ، ص ١٦ ، حاشية ٣٢ . لعل هذا المسجد هو الذي اشار اليه العارف ، ص٣٤٦ ، ٣٤٧ ، وانه كتب على مدخله ان الذي أمر بانشائه هو شاهين بن عبد الله الكجكلي ، واوقف الاوقاف عليه في ١٣٨٤/٨٧٦ – ١٣٨٥ .

(٥٤) لا تتوافر معلومات حوله .

(٥٥) ذكر العارف ، ص ٣٥١ ، أن مسجد الهليس كان مهجورا في زمنه .

(٥٦) انظر فيما يلي ، ص ١٨ .

(٥٧) انظر فيما يلي : مظاهر اقتصادية .

(٥٨) انظر فيما يلي : مظاهر اقتصادية .

(٥٩) ذكر العارف ، ص ٣٥٢ ، ان هذا المسجد ، الذي كان مندثراً في عهده ، بني في القرن الثامن الهجري ، وسمي كذلك لان فيه قبر الشيخ علي الاندلسي المتوفي رجب ٧٥٩/(حزيران ١٣٥٨) .

(٦٠) ذكر العارف ، ص ٣٥٢ ، انه من الساجد المندثرة في زمنه وان مقبرة حلت مكانه .

(٦١) ذكر العارف ، ص ٣٣٧ ، ان هذا الجامع ، في حي الدرج ، من اكبر جوامع غزة واتقنها بناء ، وانه يعتقد ان السيد هاشم جد الرسول الكريم مدفون فيه ، وقيل انه بني في ١٢٦٨/(١٨٥١ – ١٨٥٢) من قبل السلطان العثماني عبد المجيد (١٨٣٩ – ١٨٦١) . ولكن مما يشكك في هذا الكلام ما جاء في وصف هذا الجامع في كتاب Baedeker, p. 159 ، في حوالي عام ١٨٩٠ من ان هذا الجامع assez vielle ، وانه رمم في ذلك القرن ، أي التاسع عشر .

(٦٢) ذكر العارف ، ص ٣٥٢ ، مسجد العجمي بانهمن المساجد التي اندثرت في زمنه ، ولكنه ذكر ان موقعه في حي الزيتون ، ونظرا لان الوثائق الشرعية ذكرت خط مسجد العجمي في حي البرجلية ومسجد محمد العجمي في حي الزيتون ، ولعل الاسمين للشخص نفسه وان خط مسجد العجمي، امتد في الحيين ، أو ان خط مسجد العجمي في البرجلية هو غير خط مسجد محمد العجمي في محلة الزيتون .

(٦٣) ذكر العارف ، ص ٣٥١ ، ان جامع الشيخ منصور ، في حي الدرج ، بجوار خان الكتان ، كان مهجورا في عهده .

(٦٤) وجد خط في محلة الدرج يحمل اسم مسجد البلاطة ، انظر فيما يلي ، ص ١٨ ، والتشابه في التسمية ربما يفسره ان الخط امتد في المحلتين باسم واحد تقريبا (مع اختلاف بين جامع ومسجد). ولا نعرف دلالة ((البلاطة)) .

(٦٥) لا تتوافر معلومات حول هوية الشيخ شرف .

(٦٦) لم يشر اليه العارف بين المساجد القائمة ، او المهجورة ، أو المندثرة . واذا لم يكن له من اسم اخر فلعله يندرج تحت جملة ((جوامع سمعت بها ولكنني لم اعثر لها على أثر)) ، كما ذكر العارف ، ص ٣٥٣ .

(٦٧) ذكر Gatt, p. 157 ساقية الدرجية في غزة عام ١٨٨٧ ولعلها ساقية الدرج .

(٦٨) لا نعلم دلالة الكلمة .

(٦٩) يبدو ان جامعا كان مندثرا في زمن العارف ، ص ٣٥٢ ، قد اقترن بالزاوية .

(٧٠) ذكر اوليا جلبي ، الذي زار غزة في عام ١٦٤٩(انظر العارف ، ص ١٧٩) ، ان في غزة قلعة تبعد ساعة عن البحر الى الشرق . ولم ترد في الوثائق الشرعية ، في فترة الدراسة ، معلومات عن القلعة . وقد اشار الى هذه القلعة الياس ديب مطر في كتابه المطبوع عام ١٨٧٤ ، وعنوانه : العصور الدرية في المملكة السورية ، وذكره الدباغ ، ج١ ، ق٢ ، ص ٩٨ .

(٧١) انظر فيما سبق ، ص ١٧ .

(٧٢) يظن ان عثمان قوشقار الباني الاصل ، انظر العارف ، ص ٣١٩ .

(٧٣) لم يتبين لنا وجه التسمية .

(٧٤) وجد في هذا الخط دار اولاد شبير (سجل غزة ، ص ١٨٠ ، ١٧ر٧٥/ (٢٤ تشرين الثاني ٥٨) ويبدو انه سمي نسبة اليها .

(٧٥) ذكر العارف ، ص ٣٥٤ ، مزار الشيخ عطية ، الذي كان مسجدا ، وهو في زمنه مزار فيه قبر بنت الامام الشافعي ، وخادمه الشيخ عطية ، واضاف، ص ٣٥١، ان المسجد اصبح مهجورا في عهده .

(٧٦) ذكر العارف ، ص ٣٤٠ ، انــه من الجوامع الشهيرة بغزة في زمنه ، وانه نقش على بابه الخارجي ان سنجر بن عبد الله الجاولي ، نائب غزة في ٧١١ – ٧٢٠/(١٣١١ – ١٣٢٠) وفي ٧٤٠/(١٣٣٩ – ١٣٤٠) امر ببنائه .

(٧٧) عرف ايضا بجامع كاتب الولاية ، كما يقول العارف ، ص ٣٣٨ ، والدباغ ، ج١ ، ق٢ ، ص ١٢٧ واضاف العارف انه بالقرب من كنيسة الروم الارثوذكس ، وانه نقش على بابه ان احمد بك كاتب الولاية امر ببناء هذا الجامع في اوائل ذي القعدة ٩٩٥/ (اوائل تشرين الاول ١٥٨٧) . وقد اشار اليه Gatt, p. 152 باسم جامع كاتب ولايات .

(٧٨) من الجوامع التي اندثرت تماما في عهد العارف ، انظر ص ٣٥٢ .

(٧٩) ذكرها Gatt, p. 152، من جملة سواقي غزة . يبدو انه وجد عندها مسجد عرف بمسجد القيدة، انظر العارف ، ص ٣٥٢ .

(٨٠) ذكر العارف ، ص ٣٥١ ، ان مسجد الشيخ الياس يقع ، في زمنه ،امام مقبرة ال الشوا ،بالقرب من زاوية الشيخ عابد (انظر فيما سبق ، ص١٦) ، وانه كان مهجورا انذاك .

(٨١) اشار العارف ، ص ٣٤٩ ، الى مسجد العجمي ، في حي الزيتون ، والى قيام الصلوات الخمس فيه. وذكر ان هناك مسجدين بهذا الاسم واحد في حي العجمي واخر في حي المباشر لكنهما في حالــة من الخراب شديدة . ثم ذكر ص ٣٥٢ ،انمسجد العجمي ، في محلة الزيتون ، كان مندثرا في زمنه ، ولا نعلم أي مسجد يتفق مع المسجد الذي ذكرته وثائق غزة الشرعية. وذكر Gatt, p. 152 جامع العجمي . انظر فيما سبق ، ص ١٧ .

(٨٢) ذكر العارف ، ص ٣٥١ ، ان هذا المسجد كان مهجورا في زمنه .

(٨٣) لا تتوافر معلومات عنه .

(٨٤) كانت اسرة شرير من الاسر الكبيرة في غزة في فترة دراستنا .

(٨٥) لا تتوافر معلومات عنه .

(٨٦) من المساجد التي ذكرها العارف ، ص ٣٥١ ، بانها مجهورة في زمانه ، واطلق عليه لقب جامع .

(٨٧) سمي بذلك لانه اعلى من المناطق المجاورة وبشعر المرء وكأنه يرتقي درجا للوصول اليه ، انظر العارف ، ص ٢٥٥، و Gatt, p. 142 .

(٨٨) ذكره العارف ، ص ٣٥١ ، باسم جامع الشيخ ظريف ، وانه في حي الدرج ، وكان مهجورا في زمنه

(٨٩) لعل التسمية مشتقة من جامع الشيخ ذكري ،الذي ذكرGatt, p. 142 وجوده في غزة في ١٨٨٧ .

(٩٠) لعل التسمية نسبة لمسجد خالد ، الذي يحمل كتابة تذكر انه جدد في أوائل جمادي الاول ٩٥٥/ (اواسط حزيران ١٥٤٨) ، وانه يضم ضريح الشيخ خالد المتوفي سنة ١٣٤٨/٧٤٩ – ١٣٤٩ ، انظر ، العارف ، ص ٣٤٧ .

(٩١) هناك خط اخر باسم الخرابة ورد في محلة البرجلية (انظر فيما سبق ، ص ١٧) ، والتسميات تشير الى كثرة الخرائب في هذين الخطين .

(٩٢) انظر فيما سبق ، ص ١٧ .

(٩٣) انظر فيما يلي ، مظاهر اقتصادية .

(٩٤) انظر فيما يلي ، مظاهراقتصادية .

(٩٥) يبدو ان التسمية لمزار الشيخ شعبان ، الذيكان من أولياء غزة ، او ربما لمقبرة الشيخ شعبان ، انظرGatt, p. 152, Baedeker, p. 159 اذا كان الشيخ شعبان هذا هو الذي ذكره العارف ، ص٣٥١،حين اورد اسم مسجد الشيخ شعبان ابي القرون ووصفه بانه مهجور فربما تكون التسمية مشتقة ايضا من هذا المسجد .

(٩٦) لعل التسمية نسبة الى جامع البيمارستان الذي ذكره العارف ، ص ٣٥٢ ، بانه من الجوامع التي اندثرت في زمنه ، وان به رباطا انشاه الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون سنة ٧٣٠/ ١٣٢٩ – ١٣٣٠ ، وانه بقي عامرا حتى عام ١٢١٥/١٨٠٠ ، اذ تهدم ابان هجوم نابليون بونابرت .

(٩٧) لعل التسمية بالنسبة الى مقبرة الخروبي التي ذكرها Gatt,p.151

(٩٨) كان هذا الجامع عامرا في زمن العارف ، انظر، ص ٣٤٠ ، وتسميته بالنسبة الى الشيخ عبد الله الايبكي من مماليك عز الدين أيبك المدفون بجانبه .

(٩٩) لا تتوافر معلومات حول هذا الجامع .

(١٠٠) لم يرد في كتاب العارف مسجد بهذا الاسم ، لعله اتخذ تسمية اخرى .

(١٠١) انظر فيما يلي ، مظاهر اقتصادية .

(١٠٢) ذكره العارف ، ص ٣٤٩ ، بانه يقع الى جانب بئر الاجمقية ، انه سمي كذلك لوجود سدره بالقرب منه .

(١٠٣) لعل التسمية نسبة الى اسرة الشرفا التي ذكرتها وثائق غزة الشرعية في فترة دراستنا.

(١٠٤) ذكرها.Gatt, p. 154 في ١٨٨٧ ، وذكر العارف ، ص ١٧٧ ، انها بنيت في عهد حكام غزة من ال رضوان في القرن السادس عشر ،

(١٠٥) هناك خط مسجد كاتب بمحلة الزيتون – انظر فيما سبق ص ١٧ – مما يدل على ان هذا الخط مر بمحلتي الزيتون والخضر .

(١٠٦) انظر فيما سبق ، ص ١٧، حاشية ٨٢ ، ويبدو ان هذا الخط مر بمحلتي الزيتون والخضر .

(١٠٧) لعلها سميت كذلك لكون سكانها ، كما قيل (العارف ، ٢٥٥) ينتسبون الى عامر بن لؤي .

(١٠٨) انظر فيما سبق ، ص ١٦، حاشية ٣٢.

(١٠٩) George Makdisi, « Muslim institutions of learning in eleventh-century Baghdad», **Bulletin of the School of Oriental and African Studies**, London, XXIV (1961), pp. 1 - 56.

(١١٠) ص ٣٣٠ ، ٣٣٦.

(١١١) ذكره العارف ، ص ٣٣٠ ، باسم جامع المحكمة ، سجل غزة ، ص ١٣٣ ، ٧ ذا ٧٤/ (١٩ حزيران ٥٨) .

(١١٢) انظر فيما سبق ، ص ١٧ .

(١١٣) ذكر العارف ، ص ٣٥٢ ، انه كان مندثرا في زمنه .

(١١٤) سجل غزة ، ص ٢٧٨ ، ٥جا ٧٦/ (٣٠ تشرين الثاني ٥٩) .

(١١٥) ص ٣٤٨ .

(١١٦) ذكر العارف ، ص ٣٥٣ ـ ٣٥٥ ، عشرة من هذه المزارات في غزة .

(١١٧) انظر فيما سبق ص ١٧ ، وانظر : سجل غزة، ص ١٢٣ ، ٧ ن ٧٤/ (٢١ نيسان ٥٨) .

(١١٨) سجل غزة ، ص ٢٧١ ، ٧ م ٧٧/(٢٦ تموز ٦٠) .

(١١٩) انظر كتابنا : العرب والعثمانيون ، ١٥١٦ ـ ١٩١٦ ، دمشق ، ١٩٧٤ ، ص ١٣١.

(١٢٠) سجل غزة ، ص ٢٧٥ ، ختام ر ٧٦ / (٢٥ تشرين الثاني ٥٩).

(١٢١) ص ٣٤٨

(١٢٢) يبدو ان هذه الزاوية ضمت جامعا ، عرف بجامع ابي مدين الغوث . وقد ذكر العارف ، ص ٣٥٢ ، انه كان مندثرا في زمنه ، ووصفه انه في حي الدرج ، الذي اندمج في حي البرجلية .

(١٢٤) سجل غزة ، ص ٦٠ ، ١١ ص ٧٤/(١ تشرين الاول ٥٧) .

(١٢٥) Baedeker, p. 158.

(١٢٦) انظر فيما سبق ، مظاهر اقتصادية .

(١٢٧) انظر فيما يلي ، مظاهر اقتصادية .

(١٢٨) سجل غزة ، ص ١٩٠ ، صورة امر من والي القدس الى نائب الشريعة بغزة ، بتاريخ ٢ ج ٧٥/(٧ كانون الثاني ٥٩) .

(١٢٩) سجل غزة، ص ١٩٠ ، صورة امر من والي القدس الى نائب الشريعة بغزة ، بتاريخ ٢ ج ٧٥/(٧ كانون الثاني ٥٩).

(١٣٠) سجل غزة ، ص ١٤٥ ، ٢٥ذ٧٤/ (٦ اب ٥٨) .

(١٣١) سجل غزة ، ص ٨٣ ، صورة مراسلة ،بتاريخ غرة ربيع الاول ٧٤/(٢٠ تشرين الاول ٥٧) ، ص ٣٥٨ ، صورة مراسلة ، غرة ذي الحجة ٧٦/(٢٠ حزيران ٦٠).

D. Sourde

العرب والنوبة في صدر الإسلام

د. عوض محمد خليفات

كلية الآداب – الجامعة الاردنية

اطلق العرب في العصور الوسطى اسم النوبة على الارض الواقعة على جانبي وادي النيل والممتدة من الشلال الاول شمالا وحتى سنار جنوبا . وكانت هذه المنطقة عند ظهور الاسلام تضم ثلاث ممالك هي : مملكة نوباتيا ، وكانت تشمل الاراضي الممتدة من الشلال الاول حتى بلدة عكاشة جنوب الشلال الثاني . وقد سماها المؤرخون والجغرافيون العرب « المريس » (١) . وعاصمتها بجراش التي تسمى الآن فرس (٢) . اما المملكة الثانية فكانت تسمى مقرة، وعاصمتها دنقلة. وتمتد جنوبا حتى مدينة الابواب (كبوشية) ، حيث تبدأ حدود المملكة الثالثة المسماة علوة ، وعاصمتها سوبا . وقد اتحدت المملكتان الشماليتان في دولة واحدة في وقت غير معروف تماما . ويرجح بعض الباحثين المحدثين ان هذا الاتحاد قد حصل في الفترة الواقعة بين عامي ٥٨٠م و ٦٥٢ م(٣) . وبقيت دنقلة عاصمة للدولة الجديدة ، وعرفت المملكة كلها باسم مقرة. وهذا يعني أن اسم المملكة الثانية وعاصمتها قد غلبتا على الدولة الجديدة ، مما يوحي بأن الاتحاد قد تم بالقوة من قبل مقرة ، أو أن مملكة نوباتيا قد انضوت تحت نفوذ المملكة الثانية لاسباب قاهرة .

وقد اخذت الديانة النصرانية طريقها الى النوبة في القرن السادس الميلادي ، عن طريق البعثات التبشيرية التي ارسلت مباشرة من قبل حكام الدولة البيزنطية ، وعن طريق المبشرين الاقباط ، كما كان للاتصالات التجارية بين مصر والنوبة اثر كبير في نقل الافكار والعقائد النصرانية الى تلك البلاد . ولم يكد القرن السادس الميلادي يشرف على الانتهاء حتى اصبحت الديانة المسيحية الدين الرسمي للدولة ، وعقيدة معظم السكان هناك على الرغم من وجود اناس حافظوا على معتقداتهم الوثنية القديمة حتى فترة متأخرة (٤) .

واجه المسلمون منذ وطئت اقدامهم مصر موقفا عدائيا من النوبيين . ولعل السبب في ذلك يعود الى عوامل دينية معادية للاسلام ، وخاصة بعد الانتصارات التي احرزها المسلمون على بيزنطة المسيحية في مصر ، واخضاع الاقباط النصارى هناك للحكم الاسلامي . وجدير بالذكر أن الكنيسة المصرية كانت الزعيمة الروحية لنصارى النوبة ، وكان رؤساؤها هم الذين يعينون الاساقفة النوبيين في مناصبهم (٥) . ولعل ابرز مثال على التعاون بين النوبة ومصر النصرانية كان عندما استنجد والي الصعيد في اواخر الحكم البيزنطي بملك النوبة لمعاونته ضد العرب الفاتحين . وكادت النجدة ان تصل الوالي البيزنطي لولا ان فتنة وقعت بين البجة والنوبة ، ادت الى عدم وصول التعزيزات النوبية الى الوالي البيزنطي . فلاقى مصيره السيء وهزم امام جحافل العرب المسلمين (٦) .

على الرغم من الهزائم التي مني بها البيزنطيون في مصر ، وعلى الرغم من اخضاع مصر للحكم العربي الاسلامي فان النوبيين لم يستكينوا بل راوا ان من واجبهم معالجة المسلمين ومفاجأتهم بالحرب ، انتقاما وثأرا لما حل بأهل ديانتهم في الشمال وحماية لانفسهم قبل ان يوجه العرب انظارهم اليهم . واخذوا يمطرون مصر الجنوبية بغاراتهم المتتالية مسببين ازعاجا وانهاكا للقوات العربية المتواجدة هناك . و يبدو ان هذه الغارات كانت خطيرة جدا ، مما حدا بالخليفة ، عمر بن الخطاب ، لان يأمر واليه في مصر للتصدي لهذا الخطر ، ووضع حد له (٧) . وقد صدع عمرو بن العاص لامر الخليفة ، فوجه عدة حملات عسكرية ضد النوبة ، تختلف المصادر في عددها الا انها تتفق في ان النوبيين قاوموا المسلمين بعنف ، ولم يستطع المسلمون احراز نصر حاسم عليهم طيلة ولاية ابن العاص . ويصف أحد المقاتلين العرب الذين شاركوا في احدى هذه الحملات (عام ٢٠ — ٢١ هـ) ما لاقاه المسلمون من عنت وشدة ، ويقول « شهدت النوبة مرتين في ولاية عمر بن الخطاب ، فلم أر قوما أحد في حرب منهم . لقدرأيتاحدهم يقول للمسلم اينتحب أن اضع سهمي منك ؟ فربما عبث الفتى منا فقال : في مكان كذا فلا يخطئه . كانوا يكثرون الرمي بالنبل فما يكاد يرى من نبلهم في الارض شيء ، فخرجوا الينا ذات يوم فصافونا ونحن نريد أن نجعلهم جملة واحدة بالسيوف ، فما قدرنا على معالجتهم . رمونا حتى ذهبت الاعين ، فعدت مئة وخمسون عينا مفقوءة »(٨) . وتبعا لذلك فقد سمى العرب النوبيين « رماة الحدق » وطلب بعض المقاتلين من عمرو بن العاص مصالحتهم الا انه ابى وظل يوجه الحملة تلو الاخرى ضدهم الى ان عزل عام ٢٥ هـ زمن الخليفة عثمان بن عفان(٩) . وخلفه في ولاية مصر عبد الله بن سعد ابن ابي السرح الذي واصل غاراته على النوبة . وكانت اكبر هذه الحملات وآخرها تلك التي حدثت عام ٣١ هـ / ٦٥١ — ٦٥٢ م ، والتي قادها عبد الله بن سعد بنفسه ،مصمما على ان يضع حدا نهائيالهجمات

النوبة على حدود مصر الجنوبية . وعلى ان يبقي الطرق التجارية بين البلدين مفتوحة وآمنة ، بعد ان هددتها الغارات والهجمات النوبية ، وعطلتها الحروب المتوالية بين الطرفين (١٠) .

سار عبد الله بن سعد على رأس قواته، التي استطاعت ان تجتاز الحدود النوبية بنجاح وحاصرت العاصمة دنقلة . وقد قاوم النوبيون مقاومة عنيفة ، لكن العرب دكوا العاصمة بالمنجنيق واجبروا النوبيين على الاذعان وطلب الصلح . وقد استجاب عبدالله بن سعد لطلبهم ، وعقد معهم اتفاقا عرف باسم اتفاق البقط (١١) . ولا تتحدث المصادر عن أسباب عقد هذا الاتفاق الذي لم يسبق له مثيل في تاريخ الفتوحات الاسلامية في صدر الاسلام . ومن المحتمل ان عبد الله بن أبي السرح لم يشأ أن يواصل عملياته العسكرية واخضاع النوبة للحكم الاسلامي المباشر للاسباب التالية :

١ — أن بلاد النوبة كانت واسعة ، وفي الوقت نفسه قاحلة ، وبالتالي فانها تحتاج الى استمرار بقاء حاميات عسكرية عربية قوية هناك ، مما يكلف العرب كثيرا من المال والرجال دون مردود مجز . ولعل هذا السبب هو الذي جعل بعض المسلمين يطلبون مصالحة النوبة منذ زمن عمرو بن العاص وخاطبه بعضهم قائلا : ان سلبهم (أي النوبيين) لقليل وان نكايتهم لشديدة (١٢) .

٢ — حاجة المسلمين للمال والجند لتثبيت الحكم العربي الاسلامي في مصر ، وحمايته من التهديدات البيزنطية التي لا تزال تشكل خطرا كبيرا ومستمرا في البحر الابيض المتوسط ، وفي شمال افريقية على حدود مصر الغربية . وتبعا لذلك فان عبد الله بن سعد قد راى ، بحق ، ان اي جهد عسكري اضافي في الجنوب سيحرمه من القوة اللازمة في الشمال . وبالفعل لم يكد يعقد الاتفاق مع النوبيين حتى عاد الى مصر للدفاع عن سواحلها ، واشتبك بعد أعوام ثلاثة مع البيزنطيين في معركة ذات الصواري المشهورة (١٣) .

٣ — يبدو ان المسلمين في المرحلة الاولى لم يطمعوا في فتح النوبة ، بل كانوا يرمون الى تأديب النوبيين ، وحماية حدود مصر الجنوبية من غاراتهم المتكررة ، وضمان استمرار التجارة بين مصر وهذه البلاد . وقد ضمن الاتفاق ـ كما سنرى ـ هذه الاهداف جميعها .

٤ — وهناك عامل آخر ربما حد من طموحات عبد الله بن سعد ، وهو ان بوادر الثورة على الخليفة عثمان قد أخذت تلوح في الافق ، وبدأ المحرضون على عثمان

نشاطاتهم داخل الحجاز وخارجها . وكانت مصر وكرا لبعض هؤلاء وانصارهم. فوجد ابن ابي السرح أن من غير الحكمة أن يتوغل في النوبة بينما الخليفة، رئيس الدولة ، واخوه في الرضاعة يواجه المصاعب في مركز الخلافة وفي الامصار . ولذا قرر عقد اتفاق مع النوبيين يعطي النوبيين الحرية في بلادهم ، ويحافظ في الوقت نفسه على مصالح المسلمين ويحمي حدودهم الجنوبية في مصر ويمنحهم بعض الامتيازات الاقتصادية .

اما بنود الاتفاق فتختلف حولها الروايات وتتناقض ، ويمكن تصنيفها على النحو التالي :

١ ـ روايات يزيد بن ابي حبيب (ت ١٢٨ / ٧٤٦ م) . ولد يزيد عام ٥٣ هـ / ٦٧٣ م لاب نوبي يدعي سويد ، الذي أسر أثناء غزوة ابن ابي السرح عام ٣١هـ (١٤). والتقى يزيد ببعض الصحابة في مصر واصبح في زمن عمر بن عبد العزيز (ت ١٠١ هـ / ٧٢٠ م) احد ثلاثة أشخاص وكل اليهم الخليفة امر الافتاء (١٥). اما رواياته عن صلح النوبة فانه لا يسندها الى راوية معين . ومن المحتمل انه أخذ بعض معلوماته الاساسية حول شروط الاتفاق بين المسلمين والنوبيين عن والده الذي ـ كما ذكرنا ـ شهد معركة دنقلة ، وسبي اثناءها ، وشهد الصلح ، وربما عرف مبادىء الصلح وشروطه . وتتلخص روايات ابن ابي حبيب بأن عبد الله بن سعد بن ابي السرح صالح النوبيين على هدنة بينهم وبين المسلمين ، على ان لا يغزو أي من الفريقين الفريق الآخر ، وان يؤدي النوبة للمسلمين عددا من السبي كل سنة . ويؤدي لهم المسلمون ، مقابل ذلك ، قمحا وعدسا . ولكن ابن حبيب لا يذكر أرقاما معينة عن عدد السبي أو كمية المواد الغذائية التي يعطها المسلمون لاهل النوبة .

وفي بعض الروايات لايشير الى نوع المواد الغذائية بل يكتفي بالقول أن ابن ابي السرح تعهد بأن يهدي المسلمون الى النوبة طعاما مسمى وكسوة في كل عام (١٦) .

٢ ـ ويعطي تلميذه الليث بن سعد رواية مختصرة تشبه في بعض محتوياتها ما ورد في رواية ابن حبيب ، يذكر فيها شرط عدم الاعتداء بين الطرفين ، وأن على النوبيين ان يعطوا المسلمين رقيقا ، ويعطيهم المسلمون طعاما بقدر ذلك (١٧).

٣ ـ ويروي ابن سعد عن الواقدي عن الوليد بن كثير عن يزيد بن ابي حبيب عن شخص يدعى ابو الخير ان النوبيين سألوا عبد الله بن سعد بن ابي السرح

الصلح والموادعة فأجابهم الى ذلك على غير جزية ، لكن على هدنة ثلاثمائة راس في كل سنة وعلى ان يهدي المسلمون اليهم طعاما بقدر ذلك . وتشبه هذه الرواية روايات ابن ابي حبيب وتلميذه الليث الا انها تختلف معهن في ذكر عدد السبي . والغريب ان الواقدي لا يذكر هذه الرواية في كتابه عن فتوح مصـــر والاسكندرية،كما ان البلاذري هو المصدر الوحيد الذي يورد هذه الرواية(١٨) .

٤ ــ ويورد ابن خرداذبه رواية بدون سند يقول فيها : ان عبد الله بن ابي السرح صالح النوبة على ثلاثمائة راس هدية ، ليست بجزية ولا خراج ، ولهم على المسلمين العوض على الموادعة . وهم (النوبيون) أصحاب الزرافة التـــي تهدى الى الخلفاء (١٩) . ويبدو ان ابن خرداذبه قد جمع معلوماته هذه مـــن مصادر مختلفة وانها تعبر عن تطبيق متأخر لاتفاق البقط . لان اهداء بعض أنواع الحيوانات للولاة المسلمين ، كالزرافة ، لم يحدث الا في العصـــــــر العباسي ، وذلك نتيجة لعدم مقدرة النوبيين على الوفاء بالتزاماتهم من الرقيق، فكانوا يعوضون النقص ببعض الحيوانات النادرة التي يطلبهـــا الولاة او الخلفـــــاء .

٥ ــ ويورد البلاذري رواية مجموعة من مصادر مختلفة ، تفيد بأن عدد السبي الذي اعتاد النوبيون ان يدفعوه للمسلمين كل سنة كان ٤٠٠ راس يأخذون بدلا منها طعاما من مصر (٢٠) .

٦ ــ ويورد ابن عبد الحكم رواية يسندها الى بعض مشايخ أهل مصر ، يذكر فيها ان عدد السبي الواجب تقديمه للمسلمين كل سنة كان ٣٦٠ راسا ، أو ٤٠٠ راس، منها ٣٦٠ لفيء المسلمين ، ولوالي البلد اربعين راسا (٢١) .

٧ ــ وينقل لنا ابن عبد الحكم رواية اخرى عن بعض مشايخ مصر المتقدمين الذين أخذوا معلوماتهم من سجلات الديوان في مصر . وتقول الرواية : ان هـــؤلاء الشيوخ قد نظروا في الديوان ، فوجدوا فيه مايلي : «اناعاقدناكم، ان توفونا في كل سنة ثلاثمائة راس وستين راسا ، وتدخلون بلادنا مجتازين غير مقيمين، وكذلك ندخل بلادكم على انكم ان قتلتم من المسلمين قتيلا فقد برئت منكم الهدنة ، وعلى ان آويتم للمسلمين عبدا فقد برئت الهدنة ، وعليكم رد آباق المسلمين ومن لجأ اليكم من أهل الذمة (٢٢) . ويبدو من هـــــذه الرواية ان أصحابها لم ينقلوا وثيقة الصلح كاملة ، بل اكتفوا بالمبادىء الاساسية التي احتواها عقد الاتفاق بين الطرفين . واذا صحت المعلومات الواردة فيها ، فانها

تعتبر أقدم نص وصل الينا منقولا عن الوثيقة الاصلية المحفوظة في سجلات الديوان الرسمية بالفسطاط .

٨ — اما المسعودي الذي زار مصر سنة ٣٣٢ هـ فيعطي تفصيلات اكبر عن اعداد السبي المقرر سنويا ، وكمية المواد الغذائية التي يرسلها المسلمون مقابل ذلك الى النوبة ويقول : « ... فصالحهم (عبد الله بن سعد) على رؤوس من السبي معلومة ، مما يسبيها هذا الملك المجاور للمسلمين من غيرهم من بلاد النوبة ... فصار ما قبض منه من السبي سنة جارية في كل سنة الى هذه الغاية يحمل الى صاحب مصر ، ويدعى هذا السبي بأرض مصر والنوبة بالبقط . وعدد ذلك ثلاثمائة رأس وخمس وستون راسا ، وآراه رسما على عدد أيام السنة ، هذا لبيت مال المسلمين بشرط الهدنة بينهم وبين النوبة. وللامير بمصر غير ما ذكرنا من عدد السبي : اربعون راسا،ولنائبهالمقيمبلاد اسوان المجاور لارض النوبة ، وهو المتولى بقبض هذا البقط ، وهو السبي ، عشرون راسا غير الاربعين . وللحاكم بأسوان الذي يحضر مع امير اسوان لقبض البقط خمسة ارؤس غير العشرين التي يقبضها الامير ، ولاثنى عشر شاهدا عدولا من اهل اسوان يحضرون مع الحاكم لقبض البقط اثنى عشر راسا من السبي على حسب ما جرى به الرسم في صدر الاسلام في بدء ايقاع الهدنة بين المسلمين والنوبة » (٢٣) .

ان هذه التفصيلات الرقمية التي يذكرها المسعودي لا ترد في اي مصدر آخر سواء قبل المسعودي ام بعده . ولعل المسعودي قد ذكر ما كان موجودا في عصره وخاصة عام ٣٣٢ هـ عندما زار مصر وكتب روايته حول هذا الموضوع . واذا صح هذا الراي فان الاختلاف في الروايات حول ارقام السبي انما تعود الى اختلاف التطبيق الفعلي للاتفاق الاصلي من سنة لاخرى .

٩ — ويورد المقريزي رواية اخرى مفصلة منقولة عن ابي خليفة حميد بن هشام البحتري عن ابي زكريا يحيى بن عثمان عن والده عثمان بن صالح المتوفى عام ٢١٩ هـ/٨٣٥م . تذكر الرواية أن النوبة صولحوا على ان يدفعوا سنويا ٣٦٠ راسا لفيء المسلمين ، ولصاحب مصر ٤٠ راسا ، ويدفع اليهم مقابل ذلك « ألف اردب قمحا ، ولرسله ثلاثمائة أردب ، ومن الشعير كذلك ، ومن الخمر الف اقنين للمتملك ، ولرسله ثلاثمائة اقنين وفرسين من نتاج خيل الامارة ، ومن أصناف الثياب مائة ثوب ، ومن القباطي اربعة اثواب للمتملك ، ولرسله

ثلاثة ، ومن البقطرية ثمانية أثواب ، ومن المعلمة خمسة أثواب وجبةمجملة للملك ، ومن قمص ابي بقطر عشرة اثواب ، ومن احاص عشرة أثواب ، وهي ثياب غــلاظ »(٢٤) .

يبدو ان هذه الرواية لا تعكس الصورة الحقيقية للاتفاق الذي جرى بين ابن ابي السرح والنوبيين ، اذ لا يعقل ان يتعهد ابن ابي السرج بان يعطي النوبيين خمرا، ويلزم من يخلفه من الولاة باتباع هذه السنة . واذا تذكرنا ان هذه الاتفاقية قــد صودق عليها من قبل الخليفة نفسه ، فاننا على يقين بأن ما ورد في هذه الروايةلايعطي الصورة الحقيقية للصلح بين المسلمين والنوبة في تلك الفترة المبكرة . ومما يدل على صحة هذا الراي ان عطية الخمر لا ترد في الروايات المعاصرة مثل روايات ابن ابي حبيب ، ولا في الروايات التي زعم اصحابها انهم اخذوا معلوماتهم من سجــلات الديوان(٢٥) . ويبدو لي ان رواية عثمان بن صالح هذه عبارة عن مزيج من المعلومات بعضها يعود الى زمن ابن ابي السرح وبعضها الى زمن عثمان بن صالح . وربمــا اضاف اليها الرواة والنساخ فيما بعد حتى وصلت الى المقريزي على النحو الــذي رايناه . ومن المحتمل ان بعض المعلومات الواردة فيها انما تعبر عن التبادل التجاري بين المصريين والنوبيين في الوقت الذي يتبادل فيه الطرفان البقط والهدايا . فمن المعروف أن بعض التجار المصريين من أهل الذمة كانوا يستغلون فرصة تبادل البقط السنوي للتبادل التجاري مع النوبيين . وكان بعضهم يبيع الخمر والخل المعتق للنوبيين ، فظن بعض المعاصرين والرواة ان هذا العمل كان جزءا من الاتفاق الاصلي بين المسلمين واهــل النوبــة .

اما ما تذكره الرواية من ان والي مصر قد ارسل الى الديوان ، بعد سماع الرواية من عثمان بن صالح ، فاستخرج خبر النوبة ، ووجد كلام عثمان بن صالح مطابقا لما فيه ، فلا يتعدى ان يكون ذلك اختراعا من قبل الرواة المتأخرين ليعطوا الرواية مظهرا حقيقيا .. وخاصة ان الوالي كان بامكانه الاطلاع على الوثيقة مباشرة من السجلات المحفوظة لديه في الديوان ولا حاجة لان يشغل نفسه جزءا من الوقت في السؤال عمن يعرف خبر النوبة من مشايخ مصركما تزعم الرواية .

١٠ — ويورد المقريزي رواية سماها « كتاب البقط » يفصل فيها شروط الصلح الذي جرى بين عبد الله بن ابي السرح وملك النوبة عام ٣١ هـ . ولكنه لايذكرسندا

لهذه الوثيقة ، ولا يخبرنا عن المصدر الذي استقى منه معلوماته . وتدل العبارة التي قدم بها لنص الوثيقة على انه نسخها من مصدر مكتوب . ومن المحتمل انه اخذ بعضا من نصوصها من روايات عبد الله بن احمد بن سليم الاسواني الذي زار النوبة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري مبعوثا من الخليفة الفاطمي المعز الدين الله الى ملك النوبة . وبعد عودته صنف كتابا سماه « اخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل » (٢٦) . وقد ضاع هذا الكتاب ولم يصل الينا الا ما نقله بعض المؤلفين المتأخرين ومنهم المقريزي الذي نقل عنه بعض المعلومات عن ممالك النوبة والبجة في كتابيه : الخطط والمقفى .

اما نص الوثيقة فقد أورده المقريزي على النحو التالي : بسم الله الرحمن الرحيم عهد من الامير عبد الله بن سعد بن ابي سرح لعظيم النوبة ولجميع اهل مملكته، عهد عقده على الكبير والصغير من النوبة ، من ارض اسوان الى حد ارض علوة ، ان عبد الله بن سعد بن ابي سرح جعل لهم امانا وهدنة جارية بينهم وبين المسلمين ممن جاورهم من اهل صعيد مصر وغيرهم من المسلمين واهل الذمة : انكم معاشر النوبة آمنون بأمان الله وأمان رسوله محمد النبي صله الله عليه وسلم ، ان لا نحاربكم ، ولا ننصب لكم حربا ، ولا نغزوكم ما اقمتم على الشرائط التي بيننا وبينكم ، على ان تدخلوا بلدنا مجتازين غير مقيمين فيه ، وندخل بلادكم مجتازين غير مقيمين فيه ، وعليكم حفظ من نزل بلادكم او يطرقه من مسلم او معاهد حتى يخرج عنكم . وان عليكم رد كل آبق خرج اليكم من عبيد المسلمين حتى تردوه الى ارض الاسلام ، وعليكم رد من لجأ اليكم من مسلم محارب للمسلمين وان تخرجوه من بلادكم الى ارض الاسلام ولا تستميلوا عليه ولا تمنعوا منه . وعليكم حفظ المسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم ، ولا تمنعوا منه مصليا ولا تعرضوا لمسلم قصده وجاور فيه الى ان ينصرف عنه . وعليكم كنسه واسراجه وتكرمته . وعليكم في كل سنة ثلثمائة وستون راسا ، تدفعونها الى امام المسلمين من اوسط رقيق بلادكم غير المعيب ، يكون فيها ذكران واناث ، ليس فيها شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم . تدفعون ذلك الى والي اسوان . وليس على مسلم دفع عدو عرض لكم ولا منعه عنكم من حد ارض علوة الى ارض اسوان . فان انتم آويتم عبدا لمسلم أو قتلتم مسلما او معاهدا أو عرضتم للمسجد الذي ابتناه المسلمون بفناء مدينتكم بهدم ، او منعتم شيئا من الثلاثمائة رأس والستين رأسا فقد برئت منكم هذه الهدنة والامان ، وعدنا نحن وانتم على سواء ، حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين .

علينا بذلك عهدالله وميثاقه وذمته وذمة رسوله محمد صلى اللهعليه وسلم، ولنا عليكم بذلك اعظم ما تدينون به من ذمة المسيح وذمة الحواريين وذمة من تعظمونه من اهل دينكم وملتكم . الله الشاهد بيننا وبينكم على ذلك .

وكتب عمر بن شرحبيل في رمضان سنة احدى وثلاثين(٢٧) .

يبدو من مقارنة ما ورد في هذه الوثيقة مع المعلومات الواردة في المصادر الاخرى المتقدمة انها احتوت على المبادىء العامة للصلح بين العرب والنوبة زمن ابن ابي السرح، الا أن اشارة الرواية الى المسجد الذي ابتناه المسلمون في دنقلة ، عاصمة النوبة ، يجعل الباحث يشك في صحة كل ما جاء في هذه الوثيقة ، اذ من الثابت ان المسلمين في تلك الفترة المبكرةلم يكن لهم مسجد في المدينة . وليس هناك أي دليل على ان جماعة من المسلمين قد استقروا في دنقلة في ذلك الوقت الذي ساد فيه العداء بين المسلمين في مصر والنوبة المسيحية . وتشير الروايات بوضوح الى ان المسلمين لم يكن لهم مسجد في دنقلة حتى عام ٣٦٥هـ /٩٧٥م . ففي ذلك العام زارها ابن سليم الاسواني وحدث ان حصل عيد الاضحى ، فلم يجد مكانا في المدينة يصلي فيه ، فذهب مع ستين من المسلمين (ربما كانوا من رفاقه ، او تجارا) الى خارج المدينة ، حيث ادوا شعائر صلاة العيد ، وأقاموا احتفالا بهذه المناسبة اثار حفيظة بعض اهل دنقلة ، وطلبوا من الملك انكار هذا العمل . فأبى الملك وقال : « هذا رجل فارق اهله ووطنه في صلاح ، وهو يوم سرور ، ويريد ان يتجمل بفعله هذا فلا ابخل »(٢٨) .

ومن المستبعد ان يكون قد بني مسجد كبير في مدينة دنقلة قبل عام ٧١٧ هـ/ ١٣١٧ م . عندما اعتلى عرش دنقلة عبد الله برشمو ، ابن اخت الملك داود النوبي ، بمساعدة القوات المملوكية ، وبذلك أصبح اول حاكم مسلم في بلاد النوبة . وقام بتحويل الكنيسة الكبيرة في دنقلة الى جامع . وقد عثر على نقش عربي في المسجد المذكور كتب بأمره لتخليد هذا العمل . ويحمل تاريخ السادس عشر من ربيع الاول سنة ١٧١٧ هـ (٢٩) .

على الرغم من ان وثيقة المقريزي احتوت بعض المعلومات المشكوك فيها ، مثل قضية المسجد ، الا ان الباحث يجد ان معظم المبادىء الواردة فيها موجودة في المصادر والروايات المتقدمة . كما ان بينها وبين الروايات الاخرى التي اوردها ابن عبد الحكم نقلا عن اناس اخذوا معلوماتهم من سجلات الديوان شبها كبيرا ، من حيث نصها على الهدنة والامان ، وعدد السبى ، وكذلك التزام الطرفين باستمرار التبادل

التجاري ، وعدم ذكر اي التزام مكتوب من المسلمين بدفع كمية من الطعام الى النوبيين .

بعد هذا العرض والتحليل للروايات المختلفة التي تناولت اتفاق البقط بين المسلمين والنوبة ابان ولاية عبد الله بن ابي السرح عام ٣١ هـ فان الباحث يستطيع – رغم التناقض الموجود في الروايات – استخلاص عدد من النقاط ، او ربما الحقائق ، اتفقت عليها معظم الروايات يمكن اعتبارها الخطوط العامة الرئيسة للاتفاق المعقود بين المسلمين والنوبة في تلك الفترة المبكرة ، ويمكن اجمالها بما يلي :

١ – الهدنة والامان من الحرب بين الطرفين .

٢ – ان يدخل رعايا كل طرف بلد الطرف الاخر مجتازين غير مقيمين ، ومعنى هذا المحافظة على استمرار التجارة بين مصر والنوبة .

٣ – حماية كل مسلم او معاهد يدخل النوبة حتى يخرج منها .

٤ – على النوبيين ان يردوا الى والي مصر كل مسلم منشق او ذمي خارج على طاعة المسلمين .

٥ – ان يدفع النوبيون سنويا ٣٦٠ رأسا من السبى للمسلمين . ويتم تسليمهم تحت اشراف والي اسوان المسلم ، في قرية يقال لها القصر ، على بعد خمسة اميال من اسوان بالقرب من بلاق ، داخل ارض النوبة .

٦ – بالاضافة الى هذه البنود التي يرجح الباحث انها تشكل المبادىء الرئيسية للوثيقة التي كتبت بين ابن ابي السرح وملك النوبة ، والتي اطلق عليها المؤرخون المسلمون « كتاب البقط » ، فقد وعد ابن ابي السرح النوبيين بأن يرسل لهم بعض حاجاتهم من الحبوب والاطعمة هدية من المسلمين وليست شرطا لازما . ويبدو ان هذا الوعد كان شفهيا ولم يرد في الوثيقة المكتوبة ، ومن هنا فقد ذكر بعض المؤرخين بأنه « لا سنة للنوبة على المسلمين »(٣٠) وعلى اي حال فقد وفى ابن ابي سرح ومن تبعه من الولاة بهذا الوعد ، ومع الزمن اصبح رسما يأخذه النوبيون عند دفع البقط في كل سنة(٣١) ، فظن المؤرخون ان هذا الوعد كان جزءا من الوثيقة الاصلية . وعلى اي حال فان عدم ادراج هذا الوعد في الوثيقة المكتوبة كان خطوة من جانب ابن ابي السرح لاشعار النوبيين بهيبة المسلمين وقدرتهم . ومحاولة منه لجعل الباب مفتوحا لمن يأتي بعده من الولاة لتعديل الاتفاق ان راوا في ذلك مصلحة للمسلمين .

ويظهر من سير الحوادث في العصور التالية ان المبادىء الاساسية لهذا الاتفاق ظلت محترمة من قبل الطرفين لفترة طويلة ، غير ان التطبيق العملي من حيث عدد السبي النوبي المقرر للمسلمين وكميات المواد الغذائية التي وعد المسلمون ان يهبوها الى اهل النوبة كانت تختلف من وقت لاخر طبقا لعدة عوامل اهمها :

١ ـ حاجات الفريقين : المسلمين والنوبيين .

٢ ـ رغبة الخليفة عندما يرفع له امر يتعلق باتفاق البقط .

٣ ـ رغبة والي مصر وغيره من الموظفين المسلمين المكلفين بتنفيذ الاتفاق مثل والي اسـوان واعوانـه .

٤ ـ الحالة السياسية في بلاد الخلافة الاسلامية عامة ومصر خاصة .

٥ ـ الحالة الاقتصادية في النوبة .

وفي ضوء هذه العوامل يمكن للباحث ان يفسر الاختلاف الواضح في الروايـات حول عدد السبي النوبي وكمية المواد الغذائية الاسلامية . ويمكن اضافة سبب اخر لهذا الاختلاف الرقمي وهو ان المسلمين وسكان مصر من اهل الذمة كانوا يستغلون الفرصة السنوية لتبادل البقط فيذهبون الى بلدة القصر حيث يتبادلون التجارة مع النوبيين مما حدا ببعض المؤلفين الى الخلط بين بنود الاتفاق وبين المبادلات التجارية الحرة . وما تذكره بعض المصادر من ارسال الخمر الى النوبة من قبل المسلمين انما هو تعبير عما كان يحدث فعلا من الناحية التجارية . وظن بعض الرواة ان الخمـر جزء من التزام المسلمين نحو النوبة فذكروه في رواياتهم . ولهذا فقد امر بعض الولاة والخلفاء ، عندما علموا بهذا النوع من التبادل التجاري بوجوب استثناء الخمر مـن التبادل بين المسلمين والنوبة(٣٢) .

وكما اختلفت الروايات في عدد السبي وبعض شروط الاتفاق الاخرى ، فقـد اختلف الفقهاء المسلمون منذ فترة مبكرة حول ماهية هذا الاتفاق ، وهل يعتبر صلحا كما جرت العادة في الفتوح الاسلامية أم لا ! . وهل يعامل النوبيون معاملة اهـل الصلح من حيث عدم جواز شراء رقيقهم ام معاملة خاصة تجيز اخذ السبي وشراء الرقيـق منهـم .

لقد اعتبر الفقهاء المدنيون ، وعلى راسهم مالك بن انس ، اتفاق البقط مع النوبة صلحا ولم يجيزوا شراء رقيقهم . اما فقهاء العراق فقد اعتبروا ما جـرى

بين المسلمين والنوبة موادعة ومنعوا شراء رقيقهم لان احكام الموادعة في نظرهم امان . والامان لا يجيز الاسترقاق . وهو تفسير مخالف لتفسير الفقهاء المصريين الذين فسروا الامان بانه عدم اعتداء من الناحية الحربية فقط . وبناء على ذلك فلم يعتبروا اتفاق النوبة صلحا بل اعتبروه هدنة . وفي ذلك يقول يزيد بن ابي حبيب : « ليس بينهم (النوبة) وبين اهل مصر عهد ولا ميثاق . انما هي هدنة امان بعضنا من بعض، ولا بأس ان يشترى رقيقهم منهم ومن غيرهم » ونعت الفقهاء المصريون مالك بن انس وزملاءه المدنيين بالجهل بأمور النوبة (٣٣) .

ومن المحتمل ان الفقهاء المصريين كانوا مدفوعين بارائهم بعاملين ، الاول خبرتهم بالنوبة ومعرفتهم الوثيقة بما اتفق عليه بين المسلمين وبين النوبيين . اما العامل الثاني فهو التعبير عن مصالح المسلمين في مصر اذ ان عدم كونه صلحا يعطي المسلمين والمعاهدين في مصر الحرية في التجارة وشراء الرقيق من اهل النوبة .

وعلى اي حال فان التدقيق في بنود الاتفاق ، والتطبيق العملي لعقد النوبة ، يظهر ان ما حدث بين العرب والنوبة لم يكن صلحا بالمعنى المعروف والمألوف في الفتوحات الاسلامية في تلك الفترة المبكرة من تاريخ الاسلام . فالثابت ان النوبة لم تفتح عنوة كما ان الهدنة بين الطرفين لا تعتبر صلحا وخاصة ان المسلمين لم يلتزموا بحماية النوبيين بل اعلنوا صراحة في الوثيقة المكتوبة بين الطرفين ان ليس على المسلمين دفع اي عدو يعرض للنوبيين من حد علوة (جنوب مملكة مقرة النوبية) جنوبا الى اسوان شمالا . وبناء على ذلك فان بلاد النوبة لم تعتبر جزءا من دار الاسلام كما أنها استثنيت من دار الحرب . فوضعها فريد بين البلاد التي غزاها العرب في تلك الفترة . ويمكن للباحث الحديث أن يطلق على الاتفاق بين العرب والنوبة بانه معاهدة عدم اعتداء وحسن جوار وتبادل تجاري(٣٤) ومن هنا يمكن اعتبار بلاد النوبة دار هدنة وامان تمييزا لها عن داري الحرب والاسلام .

وايا كانت الاراء حول ماهية هذه المعاهدة ، فقد استفاد الفريقان منها ، فالمسلمون ضمنوا عدم اعتداء النوبيين على حدودهم الجنوبية ، واتاح لهم الاتفاق ان يركزوا قواتهم على جبهات أخرى في البحر المتوسط وفي شمال افريقية . كما استفاد المسلمون من استمرار التجارة بين مصر وبلاد النوبة . ومهد الاتفاق الطريق للمسلمين لنشر دينهم الاسلامي وثقافتهم العربية بالوسائل السلمية ، سواء عن طريق التجارة او عن طريق استقرار بعض المسلمين في بلاد النوبة . وعلى الرغم من أن الاتفاق لم يسمح للمسلمين بالاقامة في النوبة ، فلم يتقيد المسلمون بهذا الشرط وانسابت مجموعات عربية اسلامية نحو المناطق الشمالية من بلاد النوبة ، وامتلكوا ضياعا

واراضي هناك بعد ان اشتروها من أصحابها . وقد حدث ذلك منذ ايام الامويين والعباسيين الاوائل . ورغم احتجاج ملك النوبة ضد هذا العمل ، الا ان المسلمين واصلوا زحفهم السلمي جنوبا في بلاده ناشرين معهم دينهم ولغتهم . ولم تمضي فترة طويلة حتى انتشر الاسلام بين النوبيين الشماليين في المنطقة المحاذية لصعيد مصر ، والتي كانت تعرف باسم المريس (٣٥) .

على الرغم من ذلك فان النوبيين بدورهم استفادوا من الاتفاق مع المسلمين اذ ضمنوا عدم غزو بلادهم وفتحها واخضاعها للحكم الاسلامي المباشر ، وبذلك حافظوا من الناحية الرسمية على دينهم وتقاليدهم المحلية لعدة قرون . ليس هذا فحسب بل اتاح الاتفاق لهم فرصة لمقارعة اعدائهم اصحاب مملكة علوة في الجنوب وقبائل البجة في الشرق . اضف الى ذلك فان استمرار التجارة بينهم وبين مصر الاسلامية قد وفر لهم بعض ما يحتاجونه من المواد الغذائية وانـواع الاكسيـة .

ونظرا لضمان الاتفاقية لمصالح الطرفين فقد بقيت العلاقات سلمية بين مصر الاسلامية والنوبة المسيحية لعدة قرون ، على الرغم من بروز خلافات محدودة من وقت لاخر ولكنها لم تؤثر على جوهر الاتفاق بين الفريقين . ويبدو ان النوبيين قد حاولوا جهدهم الوفاء بعهودهم تجاه المسلمين حتى وصفهم بعض المؤلفين العرب بأنهم أهل « كف ووفاء وحسن عهد »(٣٦) . ولعل هذه الصفات كانت السبب في رواج بعض الاحاديث التي تمتدح النوبيين وتحض على حسن معاملتهم كتلك التي تقول : « من لم يكن له اخ فليتخذ اخاً من النوبة » و « خير سبيكم النوبة »(٣٧) .

استمر الاتفاق دون اية منازعات منذ ولاية ابن ابي السرح وحتى نهاية العصر الاموي(٣٨). حيث تذكر الروايات المسيحية ان النوبيين اغاروا على جنوب مصر عام ١٣٢ هـ في عهد اخر الخلفاء الامويين ، مروان بن محمد ، وتدعي الرواية المسيحية ان الحملة النوبية كانت كبيرة جدا وضمت ١٠٠ الف فارس و١٠٠ الف جمل ، وكان الهدف منها الضغط على المسلمين لاطلاق سراح البطريرك القبطي ميخائيل من السجن(٣٩) . وعلى الرغم من ان الظروف في الدولة الاسلامية انذاك كانت مضطربة اثر المشاكل التي عانت منها الدولة الاموية في اخر عهدها ونتيجة للثورة العباسية ، الا ان الباحث يستبعد قيام مثل هذه الحملة العسكرية النوبية الكبيرة نظرا لفقر النوبة وعدم مقدرتهم على تجهيز مثل هذه الحملة ولان المصادر الاسلامية ، المتقدمة منها والمتأخرة ، لم تشر اليها على الاطلاق . بالاضافة الى ذلك فان المصدرين المسيحيين اللذين ذكرا هذه الحملة اختلفا في تاريخها وفي اسم والي مصر انذاك . واذا كان لابد من قبول وجود نزاع بين النوبة ومصر في تلك الفترة فلا يتعدى ذلك ان يكون غارة صغيرة

قام بها بعض النوبيين دون موافقة رسمية من ملكهم . وعلى أي حال فاننا لا نسمع عن تجدد للقتال بين الطرفين ولاعن نقض لاتفاق البقط الذي تحدثنا عنه سابقا .

وتدل الشواهد التاريخية على ان ملوك النوبة قد احترموا العقد المبرم مع المسلمين بالرغم من تغير الاسر الحاكمة في دار الخلافة . فبعد ان اجتاحت قوات الثورة العباسية الولايات الشرقية هرب اخر الخلفاء الامويين الى مصرحيث قتل هناك ثم هرب ابناه عبيد الله وعبد الله جنوبا الى النوبة مصحوبين بعدد من الاقارب والاتباع البالغ عددهم نحو ٤٠٠ شخص . واستجار الامويون بملك النوبة أملا في أن يبقيهم في بلاده . ولكن الملك النوبي رفض ذلك وطلب منهم الرحيل حيث توجهوا شرقا مارين بارض البجة الى ميناء باضع . وتعرضوا للجوع والعطش والتعب فهلك منهم عدد كبير من بينهم عبيد الله بن مروان . ومضى اخوه الى ميناء باضع على ساحل البحر الاحمر ، حيث عبر الى جدة ومنها سار الى مكة ، وقبض عليه واخذ الى بغداد حيث بقي سجينا حتى ايام الخليفة هارون الرشيد ، الذي امر باخراجه بعد ان اصبح كهلا ضريراً (٤٠) . ومن غير المستبعد ان يكون النوبيون ، بالاتفاق مع رجال البجة ، قد غدروا بالامويين واصحابهم وضللوهم تقربا للعباسيين ، حكام الاسلام الجدد . وقد كشفت الحفريات الاثرية الحديثة عن قبور هؤلاء الامويين على طول الطريق الذي سلكوه من النوبة الى ميناء باضع(٤١).

ويبدو ان بعض من نجا من الامويين قد استقر على الساحل السوداني للبحر الاحمر قرب باضع ، حيث اختلطوا بالسكان المحليين ، وتزوجوا منهم ، واصبح لهم شأن كبير تبعا لاصلهم القرشي . وقد كان لبقاء هؤلاء الامويين في تلك المنطقة اثر في ادعاء بعض القبائل والاسر السودانية بانها تنحدر من اصل اموى . ولعل اوضح الامثلة على ذلك اسرة الفونج المشهورة(٤٢) .

لا شك ان لموقف النوبيين العدائي تجاه بقايا الاسرة الاموية الهاربة ، اثرا ايجابيا على العلاقات بين الطرفين حتى عهد الخليفة المهدي (١٥٨-١٦٩هـ/٧٧٥-٧٨٥م) مما يشير الى ان العلاقات كانت سلمية ، وان النوبيين بقوا محافظين على التزاماتهم السابقة نحو المسلمين . وفي عهد الخليفة المهدي تذكر المصادر العربية ان النوبيين التمسوا من الخليفة ان يخفف عنهم مقدار البقط ، لانهم لم يعودوا قادرين على الحصول على رقيق كاف من أعدائهم ، ويضطرون احيانا لبيع اولادهم لاكمال العدد المقرر الذي التزموا به طبقا لوثيقة العهد بين الطرفين التي عقدت ايام ولاية عبد الله بن ابي السرح . واستجاب الخليفة المهدي لهذا الطلب وامر ان يؤخذ البقط منهم مرة كل ثلاث سنوات بدلا من كل سنة . وقد وجد في سجلات الديوان بمصر ما يثبت هذا الترتيب الجديد وفي ذلك يقول البلاذري :

« وقد ادعوا حديثا انه ليس يجب عليهم البقط لكل سنة، وانهم كانوا طولبوا بذلك في خلافة المهدي ، فرفعوا اليه ان هذا البقط مما يأخذون من رقيق اعدائهم ، فاذا لم يجدوا منه شيئا عادوا على اولادهم فأعطوا منهم فيه بهذه العدة . فأمر أن يحملوا في ذلك ، على ان يؤخذ منهم لكل ثلاث سنين بقط سنة . ولم يوجد لهذه الدعوى ثبت في دواوين الحضرة ، ووجد في الديوان بمصر »(٤٣) .

ويبدو ان الخليفة قد زاد قيمة البقط بأن طلب تسليم بعض الحيوانات النادرة للمسلمين اضافة الى السبي المقرر ، ولكن الالتزام الجديد لم يكن ثقيلا وبقى التعديل الذي اقره المهدي منسجما مع رغبة النوبيين في تخفيف الالتـزام الاصلـي عن كواهلهم(٤٤).

ولهذا استمرت العلاقات بين الطرفين حسنة ولا تحدثنا المصادر عن أية تطورات خلال نحو نصف قرن بعد الترتيب الذي اتفق عليه زمن الخليفة المهدي . وفي عام ٢١٧هـ/٨٣٢م عندما زار الخليفة المأمون مصر ، حاول ملك النوبة انتهاز هذه الفرصة ليطلب من الخليفة المأمون التدخل لاعادة بعض الاراضي التي استملكها العرب المسلمون داخل اراضي النوبة . وكانوا قد اشتروها منذ أيام الامويين من المواطنين النوبيين القاطنين في منطقة المريس ، شمال مملكة النوبة . وادعى الملك النوبي ان هذا العمل مخالف لنص الاتفاق بين الطرفين . كما ان المواطنين الذين باعوها هم عبيد له ولايحق لهم التصرف بأي شيء دون موافقته . ولم يحسم المأمون الامر بل احال القضية على والي أسوان ليحقق فيها ، وينفذ مايراه مناسبا . وكان الطبيعي ان تحسم القضيـة لصالح المسلمين ، وبذلك اصبحت معظم اراضي المريس تحت سيطرة المسلمين الفعلية ناشرين معهم دينهم وثقافتهم العربية(٤٥) .

ويبدو ان موقف المأمون قد أثار حفيظة النوبيين ، مما حدا بهم الى التفكير في الغاء المعاهد من جانب واحد ، وتحكيم السيف من جديد بين الطرفين . وفي عهد الخليفة المعتصم (٢١٨–٢٢٧/٨٣٣–٨٤٢م) ارتفعت بعض الاصوات في بلاد النوبة تنادي بوضع حد للاستسلام للعرب . وكان ولي عهد النوبة على رأس اولئك المنادين باعادة تنظيم العلاقات مع المسلمين . وحاول اقناع والده بعدم ارسال البقط المقرر سنويا للمسلمين . الا ان والده ابى ان يتخذ هذه الخطوة خوفا من العاقبة التي قد تجرها عليه وعلى بلاده . وحتى يرضي ابنه واعوانه قرر ارسال وفد الى الخليفة برئاسة ولده قرقي(٤٦) ، ليطلع بنفسه على قوة المسلمين قبل القيام بأي عمل غيـر ودي تجاههم . وذهب الوفد الى بغداد وبهر بما رآه من كثرة الجيوش وعظم العمارة . عند ذلك ايقن الوفد النوبي عدم قدرة النوبة على معاداة المسلمين . وحاولوا ، بدلا من ذلك ، التوسل للخليفة علّه يخفف عنهم ما وجب عليهم من البقط . والتمس ولي العهد النوبي من المعتصم مطالب ثلاثة وهي :

أ ــ تخفيف عدد الرقيق المقرر ارساله الى المسلمين .

ب ــ اعادة الاراضي التي تملكها المسلمون في بعض بلاد النوبة .

جـ ــ ازالة المسلحة التي اقامها المسلمون في بلدة القصر داخل اراضي النوبة حيث يتم تبادل البقط والهدايا .

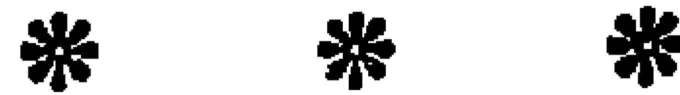
وقد اجاب الخليفة على الطلب الاول بالقبول ، وامر ــ كما فعل المهدي من قبل ــ ان يؤخذ البقط مرة واحدة كل ثلاث سنوات ، وحتى يصبح الامر ساري المفعول من بعده فقد كتب لهم كتابا بذلك واحتفظ الوفد النوبي بنسخة منه . وفي الوقت نفسه رفض الخليفة تلبية الطلبين الاخرين(٢٧) ؛ وبذلك اصبح الوجود العربي الاسلامي في شمال بلاد النوبة غير قابل للنقاش ، وثبت المسلمون مواقعهم هناك ، ولم يتراجعوا عنها واصبحت هذه المواقع مراكز انطلاق لنشر الحضارة العربية والدين الاسلامي في نواحي النوبة الاخرى . وعندما زار ابن سليم الاسواني المنطقة في منتصف القرن الرابع الهجري ، وجد ان كثيرا من النوبيين المحليين قد اعتنقوا الاسلام . كما تأثرت اللغة النوبية بالالفاظ العربية على الرغم من ان النوبيين ما زالوا يتكلمون لهجاتهم المحلية ، ولم يفصحوا اللسان العربي(٤٨) .

على الرغم من الحفاوة التي قوبل بها الوفد النوبي في بغداد وفي الطريق اليها ومنها ، الا ان الوفد قبل شروط الخليفة خضوعا واستسلاما ، لا عن قناعة ورضى . ولذلك فان النوبيين قد اضمروا الحقد والكراهية للحكام المسلمين ، واصبحوا ينتهزون الفرص لعدم دفع البقط ، بل والاغارة على الصعيد . وقد حدث ذلك في عهد الاخشيديين مستغلين الاضطرابات الداخلية وانتشار الاوبئة في مصر ، وتعرضها للتهديد المباشر من قبل القرامطة والفاطميين . فامتنع النوبيون عن دفع البقط واغاروا على منطقة الصعيد في عامي ٩٥١/٣٣٩ و ٩٥٦/٣٤٤ م ، وقتلوا عددا من المسلمين في اسوان وما حولها . ولكن المسلمين استطاعوا دفعهم ، وتوغلوا في النوبة واحتلوا ابريم عام ٣٤٥ هـ/٩٥٧ م بقيادة محمد بن عبد الله الخازن . وعاد المسلمون محملين بالغنائم والسبي . ولكن هزيمتهم هذه لم تكن حاسمة ولم تجبرهم على دفع البقط المعتاد . وعادوا بعد اربع سنوات لغزو الصعيد مرة اخرى ووصلوا الى اخميم وقتلوا عددا من المسلمين . وبقيت العلاقات متوترة بين الاخشيديين والنوبيين طوال الفترة اللاحقة حتى فتح الفاطميون مصر(٤٩) . والغريب في الامر ان المصادر لا تذكر ان النوبيين قد تعرضوا للمسلمين الذين استقروا في شمال النوبة (المريس) وتملكوا الاراضي فيها . وهذا يدل على ان الاعتداءات النوبية كانت موجهة ضد السلطة

الحاكمة في مصر . ولعل ذلك كان ناتجا عن مؤامرة بينهم وبين الفاطميين وهذا يفسر لنا العلاقات الحسنة بين الطرفين خلال الحكم الفاطمي لمصر .

وبمجيء الفاطميين فتحت صفحة جديدة من العلاقات بين مصر والنوبة . فقد ارسل القائد الفاطمي جوهر الصقلي بعثة برئاسة عبد الله بن احمد بن سليم الاسواني الى ملك النوبة يدعوه للاسلام ودفع البقط الذي انقطع خلال نحو عقدين زمن الاخشيديين . وقد استجاب الملك للطلب الثاني ولكنه رفض اعتناق الاسلام . وعلى اية حال فان هذه المهمة الفاطمية تعتبر اول حادثة تذكرها المصادر بشأن دعوة المسلمين لملك النوبة لاعتناق الاسلام . ولعل الفاطميين ارادوا ان يكون اسلام النوبة على ايديهم ، وبذلك يضمنون عمقا جغرافيا كبيرا للدعوة الفاطمية في افريقية الشرقية . وعلى الرغم من فشل الفاطميين في اقناع ملك النوبة باعتناق الاسلام فان العلاقات بين الطرفين ظلت حسنة طيلة العصر الفاطمي ، وتعاونا ضد بعض القبائل العربية في الصعيد كما حدث في عهد الوزير بدر الجمالي (٤٦٦ – ٤٨٧ هـ/١٠٧٣ – ١٠٩٤ م) (٥٠) .

وفي العصرين الايوبي والمملوكي غلبت المظاهر العدائية على العلاقات بين الطرفين وتوالت الغارات والغزوات المتبادلة ، حتى تم للمماليك السيطرة الفعلية على بلاد النوبة منذ اواخر القرن السابع الهجري . وفي العقد الثاني من القرن الثامن الهجري اعتلى عرش النوبة اول حاكم مسلم . ومنذ ذلك الوقت اخذت الديانة المسيحية تختفي تدريجيا في تلك البلاد . ولم يمض قرن من الزمان حتى اصبح الاسلام دين مجموعة كبيرة من السكان في النوبة والسودان الشمالي وخاصة بعد ان اصبحت المنطقة مسرحا لكثير من القبائل العربية التي زحفت من مصر هربا من سلطان المماليك ، ملتمسة مواطن جديدة تجد فيها امنها وحريتها ومعاشها (٥١) .



الحواشي :

(١) المسعودي ، مروج ، جـ٣ ، ص ٣٢ . المقريزي، خطط (نشر Wiet القاهرة ، ١٩٢٢) ج٣ ، ص ٢٥١ وما بعدها . مصطفى مسعد ، الاسلام والنوبة في العصور الوسطى ، ص ٧١ وما بعدها .

(٢) عن مدينة بجراش وتاريخها وجغرافيتها انظر :
F. Li. Griffith, « Pakhoras - Bakharas - Faras in geography and history», Journal of Egyptian Archaeology, vol. XI (1925) pp. 259-268.

L. P. Kirwan, « Notes on the topography of the Christian Nubian Kingdoms », **J.E.A.**, XXI (1935) pp. 60-61.

(٤) عن ممالك النوبة قبل ظهور الاسلام وبعده يمكن للباحث ان يعود الى كثير من الدراسات الحديثة المدونة في قائمة المصادر والمراجع .

(٥) J. W. Crowfoot, « Christian Nubia », **J.E.A**, vol. XIII (1927) p. 142.

(٦) الواقدي ، فتوح مصر والاسكندرية ، ص ٤ـ٥
Wallis Budge, EA., The Egyptian Sudan, vol. 2, p. 18 (Citing Oxyrhinchus). وثائق البهنسا

(٧) المسعودي ، مروج ، ج٣ ، ص ٣٨ – ٣٩ .

(٨) البلاذري ، فتوح ، ليدن ١٨٦٠ ، ص ٢٨٠ .

(٩) عن حملات العرب ضد النوبة في ولاية عمرو بن العاص انظر :
البلاذري ، فتوح ، ص ٢٨٠ ، الطبري ، س١ ، ص ٢٥٩٢ ، المسعودي ، مروج ، ج٣ ، ص ٣٩ ، ابن عبد الحكم ، ص ١٦٩ – ١٧٠ .

(١٠) ويجدر بالذكر ان حكام مصر قد حرصوا ، منذ اقدم العصور ، على حماية الطرق التجارية بين مصر وبلاد السودان مفتوحة وامنة . وقد استعمل المصريون القوة احيانا ، لتحقيق هذا الغرض . ومنذ عهد الاسرة المتوسطة (٢١٥٠ ـ ١٥٨٠ ق.م) تتحدث الوثائق والمصادر عن حملات عسكرية مصرية ضد الجماعات التي تهدد الطريق التجاري . وقد سار على هذه السنة كل من حكم مصر فيما بعد . ويبدو ان العرب قد نهجوا الطريق نفسه ولا يمكن تفسير الحملات العسكرية العربية في العصور الاسلامية بمعزل عن تامين الطرق التجارية بين مصر واقطار وادي النيل في الجنوب . انظر :
G. A. Reisener, « Excavations at Semna and Uronarti by the Harvard-Boston expedition », **SNR**, vol. 12 part2, pp. 143-161; F. Addeson, « An archaelogical survey of the Sudan », in **The Anglo-Egyptian Sudan from within**, ed. J. A. de C. Hamilton, London, 1935, P. 21.

(١١) اختلف العلماء المحدثون في اصل كلمة بقط ،فبعضهم قال بان اصلها لاتيني وهو Pactum ومعناه الاتفاق والهدنة . بينما قال البعض الاخر بان اصلها مصري قديم ويعني العبد او الضريبة التي تدفـع عينا

See Lokkegaard, « Bakt» E.I 2. vol. I, P. 966; Caetani, Annalidell' Islam, vol. 4,P.521.

وايا كان المعنى الاصلي لهذا المصطلح فانه يعني هنا الضريبة التي كان يدفعها النوبيون للمسلمين ابتداء من عام ٣١ هـ ، والتي تتكون في الاصل من عدد محدد من الرقيق .

(١٢) البلاذري ، فتوح ، ص ٢٨١ .

(١٣) عن معركة ذات الصواري انظر :

E.I 2. art. « Abdallah B. sa'd b. Abi Sarh »; E.I 1. Supplement, art. « Dhat al-Sawari ».

يجد القارىء ثبتا بالمصادر في ذيل كل من المقالتين المذكورتين .

(١٤) ابن عبد الحكيم ، ص ١٨٨

(١٥) عن يزيد بن أبي حبيب انظر :

R. Guest, Introduction to **Kitab al-Wulah wa'l-Qudah** of al-Kindi, Leiden, 1912, p. 34.

(١٦) ابن عبد الحكم ، ص ١٨٨ ، بلاذري ، فتوح ،ص ٢٨١ ، الطبري ، س١ ، ص ٢٥٩٣ ، ابن الاثير ج٢ ، ص ٥٦٧ ، ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ، تحقيق قسطنطين زريق ، بيروت ، ١٩٣٨ ، ج٧ ، ص ٤٥ ، النويري ، مخطوط ، ج٢٩ ، ص ٢٥٩ ب .

(١٧) بلاذري ، فتوح ، ٢٨١ .

(١٨) المصدر السابق ، ص ٢٨٠ .

(١٩) ابن خرداذبه ، المسالك والممالك ، ص ٩٢ .

(٢٠) بلاذري ، فتوح ، ص ٢٨١ .

(٢١) ابن عبد الحكم ، ص ١٨٨ ــ ١٨٩ .

(٢٢) المصدر السابق ، ص ١٨٩ .

(٢٣) المسعودي ، مروج ج٣ ، ص ٣٩ ، ينقل المقريزي رواية المسعودي في الخطط ج٣ ، ص ٢٩٦ .

(٢٤) المقريزي ، خطط ، ج٢ ، ص ٢٩٢ ــ ٢٩٣ .

(٢٥) انظر الروايات رقم ١ ، ٢ ، ٧ ، ٨ .

(٢٦) عن ابن سليم الاسواني انظر :

Troupeau, G., « la Description de la Nubie' d'al-Usawani », **Arabica**, I (1954), pp. 276 ff; Y.F. Hasan, « Ibn Sulaym al-Aswàni », E. I2. vol. 3, p. 949.

(٢٧) المقريزي ، خطط ، ج٣ ، ص ٢٩١ ــ ٢٩٢ .

(٢٨) المقريزي ، مقفى ، مخطوط ، الجزء الخاص بالسودان ، تحقيق مصطفى مسعد ، المكتبة السودانية ، ص ٣٧١ .

Yusuf Fadl Hasan, The Arabs and the Sudan, Edinburgh, 1967, pp. 24-5.

(٢٩) Yusuf Fadl Hasan, op. cit, p. 125; p.M.Holt, «Dongola», E. I (2), vol. 2, p. 615.

اما في شمال النوبة في منطقة المريس المحاذية للصعيد فقد ابتنى المسلمون فيها مساجد منذ فترة مبكرة في عهد الدولة الاموية والعباسية .

(٣٠) ابن عبد الحكم ، ص ١٨٩ .

(٣١) المقريزي ، خطط ، ج٣ ، ص ٢٩٢ .

(٣٢) المصدر السابق ، ص ٢٩٣ .

(٣٣) عن اراء الفقهاء حول هذا الموضوع انظر : ابن عبد الحكم ، ص ١٨٨ ، البلاذري ، فتوح ، ص ٢٨١ المقريزي ، خطط ، ج٣ ، ص ٢٩٣ ــ ٢٩٤ ، ابو عبيد ، الاموال ، ص ٢٠٥ .

(٣٤) مصطفى مسعد ، الاسلام والنوبة في العصور الوسطى ، ص ١١٤ ــ ١١٥ .

(٣٥) المسعودي ، مروج ، ج٣ ، ص ٤١ ــ ٤٢ ، المقريزي ، خطط ، ج٣ ، ص ٢٥٣ (عن الاسواني) .

G . Troupeau , « la Description de la Nubiè d'al-Uswani », Arabica , I (1954), pp. 276-288.

(٣٦) ابن الفقيه ، البلدان ، ليدن ١٨٨٥ ، ص ٧٦

(٣٧) المصدر السابق ، ص ٧٦ ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج٤ ، ص ٨٢٠ ، القزويني ، اثار البلاد واخبار العباد ، بيروت ، ١٩٦٠ ، ص ٢٤ .

(٣٨) اما ماتذكره بعض المصادر الاسلامية المتاخرة من ان المسلمين غزوا بلاد النوبة زمن هشام بن عبد الملك فامر مشكوك فيه ولا تشير اليه الروايات المعاصرة والمصادر المتقدمة . انظر : ابن الفرات ، تاريخ الدول والملوك ، نشر قسطنطين زريق ، بيروت ، ١٩٣٨ ، ج٧ ، ص ٤٥ ، النويري ، نهاية الارب ، مخطوط ، ج٢٩ ، ورقة ٢٥٩ ب . ويبدو ان هذه المصادر خلطت بين هذه الحملة المزعومة وبين حملة عبيد الله بن الحبحاب ، والي الخراج ، ايام هشام بن عبد الملك ، على قبائل البجة في الصحراء الشرقية ، حيث اخضعهم وعقد معهم اتفاقا يشبه في كثير من بنوده اتفاق البقط مع النوبة . عن هذا الموضوع انظر :

ابن عبد الحكم ، ص ١٨٩ ، المقريزي ، ج٣ ، ص ٢٧٣ ، مصطفى محمد مسعد ، البجة والعرب في العصور الوسطى ، مجلة كلية الاداب ، جامعة القاهرة ، ج٢١ (١٩٥٩) ، ص ٢٤ ــ ٢٦ .

Yusuf Fadl Hasan, op. cit, p. 31; A. Paul, **A History of the Beja tribes of the Sudan,** Cambridge, 1954, p. 67.

(٣٩) سايروس بن المقفع ، تاريخ بطاركة الكنيســـة المصرية ، بيروت ، ١٩١٤ ، ص ١٨٥ ـ ١٨٦ ، ابو صالح الارمني ، تاريخ الشيخ ابي صالح الارمني ص ٢٢ ـ ١٢٣ .
The Churehes and Monastries of Egypt and neighbeuring countries, Oxford, 1894, pp. 122-3.

(٤٠) اليعقوبي ، تاريخ ، ليدن ، ج٢ ، ص ٤١٥ ، المسعودي ، التنبيــه ، ليدن ، ص ٣٢٩ ، ابن عبد ربه ، عقد ، ج٤ ، ص ٤٧٠ وما بعدها ، ابن وصيف شاه ، جواهر البحور ، مخطوط ، دار الكتب المصرية رقم ٢٢٥٥ تاريخ ، الجزء الخاص بالسودان ، تحقيق مصطفى محمد مسعد ، المكتبة السودانية ص ١٢٢ ، القزويني ، ص ٢٥٠ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، بولاق ١٣١١ هـ ، ج١ ، ص ٢٩ ، مصطفى مسعد ، البجة والعرب في العصورالوسطى ، ص ٢٧ .
Yusuf Fadl Hasan, op. cit, p. 39.

(٤١) J. F. E. Bloss, « The story of Suakin », **SNR**, vol. xix, part II, p. 279. see also: O. G. S. Crowford, « The stone tombs of the N. E. Sudan », **Kush**, vol. II, p. 6; E. T. Combe, Four Arabic Inscriptions from the Redsea », **SNA**, vol. XIII, pp. 288 ff.

(٤٢) عن اصل الفونج انظر :
Yusuf Fadl Hasan, « The Umayyad genealogy of the Funj », **SNR**, vol. XIV i (1965), pp. 27-32; L. F. Nadler, « Funj Origins », **SNR**, vol. 14, part I (1931), pp. 61-66; A. J. Arkell, « Funj Origins », **SNR**, vol. 15, part II (1932), pp. 201-250; Idem, « More about the Funj Origins », **SNR**, vol. 27 (1946), pp. 77-9; P. M. Holt, « Funj Origins: A critique and new evidence », **Journal of African History**, vol. 4 (1963), pp. 39-55.

(٤٣) البلاذري ، فتوح ص ٢٨١ .

(٤٤) المصدر نفسه .

(٤٥) المسعودي مروج ، ج٣، ص٤١ـ٤٢ .

(٤٦) يرد اسمه باشكال مختلفة ، قرقي ، كركي ، قراقي ، فرقي ولعل ذلك تحريفا لاسم جورج .

(٤٧) المقريزي ، خطط ، ج٣، ص٢٩٤ـ٢٩٦ .
قارن مع رواية ابن العبري :
Barchebreaus, Chronography, tr. E. A. Wallis Budge, London, 1932 pp. 133 - 5.

(٤٨) المقريزي ، المقفى ، مخطوط المكتبة الوطنية ، باريس ، رقم ٢١٤٤ ، ج٤ ، ص ٢٢٧ب .

(٤٩) عن العلاقات بين مصر والنوبة زمن الاخشيديين انظر : يحيى بن سعيد الانطاكي ، تاريخ ، باريس ، ١٩٢٤ ، ص ٧١ ، ٧٥ ، المقريزي ، ج٣ ، ص٣٢٦، سيدة اسماعيل كاشف . مصر في عهد الاخشيديين ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٧٠ ص ٣٧٦ ـ ٣٧٧ .

(٥٠) المقريزي ، مقفى ، مخطوط ، ص ٢٢٧ب ـ ٢٢٨أ ، سايروس بن المقفع ، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٣ ، ٢ ، ص٢٠٤ـ٢٠٥، ٢١١ .
Y. F. Hasan, op. cit, pp. 91-93.

(٥١) لما كان البحث مقصورا على فترة صدر الاسلام فلم اطنب في الحديث عن العهود التي تلت عهد المعتصم . اما عن علاقة المماليك ببلاد النوبة فيمكن للقارىء ان يجد عنها تفصيلا واسعا في كتابنا الموسوم « امارة ربيعة العربية في وادي النيل » الذي لايزال تحت الطبع وكذلك في بحثنا المعنون « انتشار الاسلام والثقافة العربية في السودان الشمالي » .

المصادر والمراجع

أ ـ المصادر

١ ـ ابن الاثير ، عز الدين ابو الحسن علي بن محمد (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) ، **الكامل في التاريخ** ، ليدن ١٨٦٢ ـ ١٨٧١ م ، بيروت ، ١٩٦٥م .

٢ ـ ابن اياس ، ابو البركات محمد بن احمد (ت ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م) ، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، بولاق ، ١٣١١ هـ .

٣ ـ ابن خردا ذبه ، ابو القاسم عبيد الله بن عبدالله (ت ٣٠٠ هـ/ ٩١٢ م) ، **المسالك والممالك** ، ليدن ، ١٨٨٩م .

٤ ـ ابن عبد الحكم ، عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢٥٧هـ / ٨٧١م) ، **فتوح مصر واخبارها** ، تحقيق توري ، نيوهافن New Haven ، ١٩٢٢ م .

٥ ـ ابن الفرات ، ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن علي (ت ٨٠٧هـ/١٤٠٥ م) ، **تاريخ الدول والملوك** ، تحقيق قسطنطين زريق ، بيروت، ١٩٣٨ .

٦ ـ ابن الفقيه ، أبو بكر أحمد بن محمد بن اسحق الهمداني (ت ٢٩٠ هد / ٩٠٣ م) ، **كتاب البلدان** ، ليدن ١٨٨٥ .

٧ ـ ابن وصيف شاه ، ، ابراهيم (ت ٥٩٩هـ / ١٢٠٣م) ، **جواهر البحور** ، مخطوط دار الكتب المصرية ، رقم ٢٢٥٥ تاريخ .

٨ ـ ابو صالح الارمني (ت ٦٠٥ هـ/١٢٠٨) ، **تاريخ** ، نشر Evetts اكسفورد ، ١٨٩٤ م.

٩ ـ ابو عبيد ، القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ/٨٣٦م) ، **الاموال** ، القاهرة ١٩٦٨ .

١٠ـ البلاذري ، أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩ هـ/ ٨٩٢ م) .
١ ـ **فتوح البلدان** ، ليدن ١٨٦٦ .
٢ ـ **انساب الاشراف** ، مخطوط ، استنبول ، المكتبة السليمانية رقم ٥٩٨.

١١ـ الحموي ، ياقوت (ت ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٩م) ، **معجم البلدان** ، ليبزغ ، ١٨٦٦ ـ ١٨٧٣ م .

١٢ـ سايروس بن المقفع (عاش في النصف الثاني من القرن ٤هـ/١٠م) ، **تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية**، بيروت ، ١٩١٤ ، القاهرة ، ١٩٤٣م .

١٣ـ الطبري ، محمد بن جرير (ت٣١٠هـ/٩٣٢م) ، **تاريخ الرسل والملوك** ليدن ، ١٨٨١

١٤ـ القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود (ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م) ، **اثار البلاد واخبار العباد** ، بيروت ١٩٦٠ م .

١٥ـ الكندي ، ابو عمر محمد بن يوسف (ت٣٥٠هـ/٩٦١م) ، **الولاة والقضاة** ، ليدن ، ١٩١٢م .

١٥ـ المسعودي ، ابو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦هـ/٩٥٦ م) .
١ ـ **التنبيه والاشراف** ، ليدن ١٨٩٤ .
٢ ـ **مروج الذهب ومعادن الجوهر** ، باريس ١٨٧٣ م.

١٦ـ المقريزي ، احمد بن علي (ت٨٤٥هـ/١٤٤٥م).
١ ـ **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار** ، نشر فيت Wiet ، طبع المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة ، ١٩٢٢ ، وانظر ايضا طبعة بولاق .
٢ ـ **المقفى** ، مخطوط المكتبة الاهلية ، باريس ، رقم ٢١١٤ .
٣ ـ **البيان والاعراب** ، تحقيق عبد المجيد عابدين ، القاهرة ١٩٦١ .

١٧ـ النويري ، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب الكندي (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م ، **نهاية الارب في فنون الادب** ، **مخطوط** ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، رقم ٥٤٩ معارف عامة .

١٨ـ الواقدي ، محمد بن عمر (ت٢٠٧ هـ /٨٢٣م) ، **فتوح مصر والاسكندرية** ، **الجزء الخاص بالسودان** في المكتبة السودانية العربية ، تحقيق مصطفى مسعد ، القاهرة ١٩٧٢ م .

١٩ـ اليعقوبي ، احمد بن ابي يعقوب بن واضح الكاتب (ت ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م ، **البلدان** ، ليدن ١٨٦٠ ١٨٩١ .
تاريخ ، ليدن ، ١٨٨٣ .

ب ـ المراجـع :

١ ـ المراجع العربية :

١ ـ التيجاني ، عامر ، **السلالات العربية السودانية في النيل الابيض** ، الخرطوم ، ١٩٧١.

٢ ـ الشامي ، صلاح الدين علي ، **الموانىء السودانية** ، القاهرة ١٩٦٣م .

٣ ـ شبيكة ، مكي ، **السودان عبر القرون** ، القاهره ، ١٩٦٤ م .

٤ ـ شقير ، نعوم ، **جغرافية وتاريخ السودان** ، بيروت ١٩٦٧م .

٥ ـ عابدين ، عبد المجيد ، **دراسات سودانية** ، الخرطوم ، ١٩٧٢ م ، **دراسات في تاريخ العروبة في وادي النيل** ، ملحق بكتاب **البيان والاعراب** للمقريزي ، تحقيق عابدين ، القاهرة ، ١٩٦١م.

٦ ـ عبد الجليل ، الشاطر بصيلي **تاريخ وحضارة السودان الشرقي والاوسط من القرن السابع الى القرن التاسع عشر للميلاد** ، القاهرة ، ١٩٧٢م.

٧ ـ عوض ، محمد عوض ، **السودان الشمالي ، سكانه وقبائله** ، القاهرة ، ١٩٥١م .

٨ ـ كاشف ، سيدة اسماعيل ، **مصر في فجر الاسلام** ، القاهرة ١٩٤٧ .
مصر في عهد الاخشيديين ، القاهرة ، ١٩٧٠ .

٩ ـ مسعد ، مصطفى محمد ، **الاسلام والنوبة في العصور الوسطي** ، القاهرة ١٩٦٠ .

١٠ ـ مسعد ، مصطفى محمد (محقق وجامع) ، **المكتبة السودانية العربية** ، القاهرة ١٩٧٢

١١ ـ نور ، قاسم عثمان ، **مصادر الدراسات السودانية بالمجلات والدوريات السودانية ١٩٣١ـ١٩٦٧** ، الخرطوم ١٩٧٠ .

٢ ـ المراجع الاجنبيـة :

أ ـ الكتـب :

1 — Arkell, A. J., **A history of the Sudan,** London, 1961.

2 — Atiya, A. S., **A History of eastern christianity,** London, 1968.

3 — Belzoni, G., **Narrative of the operations and recent discoveries in Egypt and Nubia,** London, 1922.

4 — Hasan, Yusuf Fadl, **The Arabs and the Sudan,** Edinburgh, 1967.

5 — Kirwan, L. P., **The Oxford University excavations at Firka, Oxford,** 1939.

6 — Lewis, I. M. (ed.), **Islam in Tropical Africa,** Oxford Univ. press, Lond-don, 1980.

7 — MacMichael, H. A., **A History of the Arabs in the Sudan** 2nd edition, London,1967.

8 — Nadel, S. F., **The Nuba,** Oxford, 1947.

9 — Paul, A., **A History of the Beja tribes of the Sudan,** Cambridge, 1954.

10 — Villard, Ugo Monneret de, **Storia della Nubia Cristiana,** Roma, 1938.

11 — Voll, J. O., **Historical dictionary of the Sudan,** London, 1978.

12 — Wallis Budge, E. A., **Nubian Texts,** London, 1909.

13 — Wallis Budge, E. A., **The Egyptian Sudan, its history and monuments,** New York, 1976.

14 — Wallis Budge, E. A., **A History of Ethiopia, Nubia and Abyssinia,** London, 1928.

ب ـ المقــــالات :

1 — Abdin, Abd al-Majid, « Some general aspects of the Arabisation of the Sudan», **SNR,** Vol. XL (1959) pp. 48-57 and 64-74.

2 — Addeson, F., « An Archaeological Survey of the Sudan », in **the Anglo-Egyptian Sudan from within,** ed. J. A. de C. Hamilton, London, 1935.

3 — Arkell, A. J., « More about the Funj Origins », **SNR,** Vol. XXVII (1946) pp. 77-9.

4 — Arkell, A. J., «Funj Origins», **SNR,** Vol. XV part 2(1932) pp. 201-250.

5 — A - Becker, C. H., « Abdallah B. Sa'd », **E. I** (2) Vol. I, P. 51.

5 — B - Bloss, J. F. E., « The Story of Suakin », **SNR,** Vol. XIX, part 2.

6 — Combe, E. T., « Four Arabic Inscriptions From the Red Sea », **SNR,** Vol. XIII, part 2, pp. 288-291 with plates.

7 — Crowfoot, J.W., «Christian Nubia», **JEA**, Vol. XIII (1927) pp. 141-150

8 — Gadallah, F.F., «The egyptian contribution to Nubian christianity», **SNR**, XL (1959) pp. 38 - 43.

9 — Griffith, F.Li., «Christian documents from Nubia, **Proceedings of the British Academy** Vol. XIV (1928) pp. 117-146.

10 — Griffith, F. Li, « pakhoras - Bakharas - Faras in Geography and History», **Journal of Egyptian Archaeology**, Vol. XI. (1925) pp. 259-268.

11 — Hasan, Yusuf. Fadl, «The Umayyad genealogy of the Funj », **SNR**, Vol. XLVI (1965) pp. 27-32.

12 — Hasan, Yusuf Fadl, «Main aspects of the Arab migration to the Sudan», **Arabica**, Vol. XIV (1967) pp. 14-31.

13 — Haycock, B. G., « Medieval Nubia in the perspective of Sudanese history », **SNR**, (1972) pp. 18-35.

14 — Hebbert, H. E., « El-Rih: A Red Sea Island», **SNR**, Vol. XVIII (1935) pp. 303-314.

15 — Holt, P. M., « Dongola », **E.I(2)**, Vol. 2, p. 615.

16 — Holt, P. M., « Funj Origins: A critique and new evidence», **Journal of African History**, Vol. IV (1963) pp. 39-55.

17 — Kirwan, L. P., « Notes on the topography of the christian Nubian Kingdoms », **JEA**, Vol. XXI (1935), pp. 60-1.

18 — Kirwan, L. P., «Studies in the later history of Nubia », **LAAA**, Vol. XXIV, pp. 69-105.

19 — Kirwan, L. P., « The international position of Sudan in Roman and Midieval times », **SNR**, XL (1959), pp. 32-7.

20 — Lokkegaard, F., «Bakt», **E. I(2)**, Vol. I, p. 966.

21 — Mus'ad, M. M., «Some New lights on the Origin of the Blemmyes », **Kush**, Vol. 16 (1972).

22 — Mus'ad M. M., «Islam in medieval Nubia», **Cahiers d'Histoire Egyptienne**, Vol. X (1967) pp. 165-176.

23 — Mus'ad, M. M., «The downfall of the christian Nubian Kingdoms , **SNR,** Vol. XL (1959) pp. 124-27.

24 — Nadler, L. F., «Funj Origins», **SNR,** Vol. XIV part 1 (1931) pp. 61-66.

25 — Reisener, G. A., «Excavations at Semna and Uronarti by the Harvard-Boston expedition», **SNR,** Vol. XII part 2, pp. 143-161.

26 — Stevenson, R. C., «Some aspects of the spread of Islam in the Nuba mountains », **SNR,** (1963) pp. 9-20.

27 — Troupeau, G., « La description de la Nubie d'al - Uswani » **Arabica,** 1 (1954) pp. 267 ff.

Abbreviations

ASN = Archaeological Survey of Nubia.

EI = Encyclopaedia of Islam.
JEA = Journal of Egyptian Archaeology.

LAAA = Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology.

SNR = Sudan Notes and Records.



هجرة الثقافة من المشرق إلى المغرب في القرن الثاني للهجرة

د . أحمد بدر

كلية الآداب ـ جامعة دمشق

تعددت المؤلفات وكثرت الابحاث الهادفة لبسط جوانب التاريخ السياسي للمغرب خلال العصور الوسطى ، وتفصيل حوادثه وتبيان الخيط الرابط لوقائعه عبر الزمن . وقد سادت في اكثر المؤلفات ، نظرة (مارسية) التي تجعل المحور او الخيط الرابط للحوادث ذلك التناحر والصراع الذي بدأ بفتح قاس عسير غرق فيه المغرب بدماء الفاتحين وسكان البلاد على السواء ، ثم تلته ثورة المغاربة على حكم المشرق وسلطانه ، لتبدأ بعد فشلها عملية تملص وخلاص تدريجي للمغرب من ربقة هذا الحكم وذلك السلطان . واخيرا جاءت الخلافة الفاطمية ، التي نشأت على ارض المغرب اواخر القرن الثالث الهجري ووطدت سلطتها عليه في القرن التالي ، لتصل بعملية الخلاص الى ذروتها وتحدث الخلاص التام أو الطلاق بين المشرق والمغرب(1) . واذلم نكن في صدد مناقشة صحة هذه النظرة ، لكننا نلاحظ ان الوجه الاخر من العلاقات بين المغرب والمشرق لم يحظ بالاهتمام نفسه ، وبالتالي لم يكن الانتاج العلمي فيه على المستوى ذاته من حيث التفصيل والافاضة . نعني بهذا الوجه الاخر من العلاقات ، تلك الصلات الحضارية التي ظلت مستمرة ودون انقطاع طيلة تلك العصور والتي اسفرت عن سيادة حضارة واحدة على جناحي ديار العرب والاسلام كونت لهما شخصية حضارية متميزة ، مثلت الثقافة الواحدة اكثر ظواهرها بروزا ووضوحا .

اعد هذا البحث للمؤتمر العالمي لتاريخ الحضارة العربية الاسلامية ، دمشق ، ١٦ ـ ٢٢ جمادى الاخرة ١٤٠١ هـ / ٢٠-٢٦ نيسان ١٩٨١ م .

بدأت الخطوة الاولى والحاسمة في مجال تكوين هذه الثقافة الواحدة في اواخر القرن الهجري الاول ، عند تمام فتح المغرب ، وخلال القرن الذي تلاه عندما توالت وتعددت طرق الاتصال وهجرة الثقافة من المشرق الى المغرب التي حملها الفاتحون في ركابهم واشخاصهم ، ثم بدأت الاحزاب السياسية التي ارتدت فيما بعد ثوب المذهب تعمل عملها وتنقل الثقافة عبر تعميقها لمفاهيم الاسلام لدى المغاربة الذين اعتنقوا الدين الحنيف ، وتبع ذلك او رافقه دور الرحلة في طلب العلم ، او التجارة من المغاربة باتجاه المشرق او هجرة المشارقة في الاتجاه المعاكس .

هجـرة الثقافة في ركـاب الفتـح

من المعروف ان الفتوحات الاسلامية اختلفت عن الغزوات الواسعة النطاق التي كانت تقوم بها اقوام متعددة ما بين فترة واخرى في التاريخ الانساني . اذ انها لم تكن حربا بالمعنى المتداول للكلمة ، هدفها توسيع سلطان او كسب غنيمة ، بل كانت جهادا ، ينظمه قانون هو الشريعة الاسلامية التي حددت لهذه الحرب اهدافها بتأمين حرية نشر الدعوة ، ورسمت للقائمين بها حدود العمل وطرق التنفيذ في بعض الاحيان ، لذلك كله كان الجيش العربي الاسلامي بنية واجهزة مختلفا عن الجيوش الاخرى تبعا للاختلاف في الغاية ، وهذا الامر بالذات جعل منه اداة اكثر ملاءمة واكبر فعالية في نقل الثقافة . اذ ان الجهاد فرض ، مما جعل الصحابة والتابعين وهم حملة العلم ونقلته يقفزون الى المقدمة فيه ، لحرصهم على القيام بفروضهم ، واسهم هذا ، اضافة لمكانتهم الاجتماعية ، في جعل القيادات من نصيبهم في الغالب . وقد بلغ عدد من دخل المغرب من الصحابة في فترة الفتح واقام فيه، لامد قصير او طويل حسب كتاب الطبقات ثلاثين من كبارهم ممن شاهد الرسول الكريم ، واثني عشر من صغارهم ممن ولدوا في عهده ولم يروه . كما استقر به من التابعين المشهورين برواية العلم ونشره خمسة وعشرون(٢) .

من ناحية اخرى ضم الجيش في جملة اجهزته جهازا يمكن تسميته بالجهاز المعنوي حسب مصطلحاتنا الحديثة ، وتقتضي مهماته ان يكون العاملون فيه من حملة العلم ايضا . وقد ظهرت نواته منذ عهد الرسول الكريم فاستمر بعده لانه سنة كما يفهم من رواية لسيف في الطبري يورد فيها ايضا المناصب المتعددة لهذا الجهاز في معرض حديثه عن موقعة اليرموك سنة ١٣ هـ وذلك بقوله « وكان القاضي

ابو الدرداء ، وكان القاص ابو سفيان بن حرب ... وكان على الاقباض عبد الله بن مسعود .. وكان القارىء المقداد . ومن السنة التي سن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد بدر ان تقرأ سورة الجهاد عند اللقاء وهي الانفال ولم يزل الناس بعد ذلك على ذلك »(٣) .

على الرغم من اسناد الرواية مهمة القراءة لقارىء واحد الا انه يمكن الاعتقاد بأن القراء في الجيش قد تعددوا تبعا لتضخم عدد افراده وتمايز فرقه . كما ان انتشار تعلم قراءة القرآن الكريم وحفظه في اوساط الناس جعل اعداد القراء في صفوف الجيش ، ممن لم يولوا هذه المهمة بتكليف ، كبيرة . حتى اننا نجد في ثنايا روايات الاخباريين المهتمين بتبيان تمايز فرق الجيش وحدات خاصة بالقراء . اما القاص فكان ممن يحمسون الجند اثناء الاستعداد لدخول المعركة مستخدما الاخبار والقصص الديني والتذكير بأوامر الله التي يقوم المجاهدون بتنفيذها ، فهو والحال كذلك واعظ . ومن هذه المهام التي يقوم بها مسلمون من حملة العلم (الاقباض) ، وصاحبها تجمع لديه الغنائم قبل قسمتها وقد يتولى فيما بعد قسمتها . وقد نظم الشرع العملية مما جعل العارف به مؤهلا لها . وممن قاموا بها في واحدة من عمليات فتح المغرب عبد الله بن عباس بن عبد المطلب المشهور بعلمه الواسع حتى ان اصحابه يسمونه الحبر ، اذ « كان من العلماء بكتاب الله وبتفسيره وناسخه ومنسوخه ومحكمه وعالما بالسنة » .

ويقول التابعي طاووس في هذا الصدد « ادركت نحو خمسمائة رجل من اصحاب رسول الله (ص) اذ ذاكروا ابن العباس فخالفوه ، لم يزل يقررهم حتى ينتهوا الى قوله »(٤) اضف الى ذلك ان الجيش كمجموعة من المسلمين اقتضى قيامهم بفروضهم الدينية نشوء بعض المهام التي عين لها موظفون معروفون بمكانتهم الدينية والعلمية ، منها جمع الصدقات التي عين لها لاول مرة في صفوف الجيش الفاتح للمغرب حنش الصنعاني(٥) ، وهو تابعي اشتهر بغزارة علمه وسعة درايته وشدة حماسته لنشر الاسلام ، وقد اخذ عنه الناس حيثما سار ، من مصر حتى الاندلس مرورا بالمغرب .

وكان طبيعيا ان يتم انتقال الثقافة التي يحملها هؤلاء الفاتحون للمغرب عبر دخول المغاربة في الاسلام ، ومع ذلك تبقى كيفية الاتصال بين الطرفين التي تمكن من هذا الانتقال مجالا لطرح التساؤلات . وتزودنا المصادر العربية في هذا المجال باخبار عدة موضحة الكيفية التي تمت بها الاتصالات .

كان اول المجالات حسب هذه المصادر ، الجيش ذاته الذي التحقت بـه الوف مؤلفة من المغاربة ، ومن كل تجمعاتهم القبلية . بدأ ذلك بأول هذه التجمعات واقربها مواطنا الى المشرق حيث دخل العرب ونعني به تجمع زناته ، ومن جملة قبائله قبيلة جرادة قوم الكاهنة ، التي حطم انتقاضها نهائيا حسان بن النعمان . وقد نقل لنـا ابن عذاري في جملة ما نقلهمناخباره انه « كان مع حسان جماعة من البربر (المغاربة) استأمنوا اليه فلم يقبل امانتهم الا ان يعطوه من قبائلهم اثني عشر الفا يجاهـدون مع العرب فأجابوه واسلموا على يديه فعقد لولدي الكاهنة ، لكل واحد منهما على ستة الاف فارس واخرجهم مع العرب يجولون في المغرب يقاتلون الروم ومن كفـر من البربر »(٦) . وبعد عدة قرون من الفتح تبرز من هذا التجمع على مسـرح الاحداث قبيلة يفرن التي تقول انها من موالي عثمان بن عفان ، الخليفة الراشدي الثالث الذي جرت من عهده وقائع عدة لفتح المغرب ، مما يدفع للظن بأن القبيلة قد حالفت العرب في فترة حكمهواصبح افرادها بالتالي موالي حلف يختارون حسـب العادة الجارية في المشرق ، القوم الذي ينتمون اليه . وفي عهد موسى بن نصير الذي اوصل عمليات فتح المغربالى نهايتها المظفرة ، واتبع سياسة في الفتـح قامت على اساس مهاجمة القبائل في مواطنها . وكي يأمن بقاءها على الولاء رغـم ما اشتهرت به من كثرة الانتقاض ، كان يأخذ منها رهائن ومن ثم يستخدمهم في عمليات الفتـح ويلحقهم بالجيش . وعن هذا الطريق انضم للجيش الفاتح آلاف مؤلفة من التجمعين القبليين الباقيين في المغرب ، صنهاجة ومصمودة . فقد قدم عليه حسب قـول ابن عذاري وفد كتامة الصنهاجية بالطاعة « فولى عليهم رجلا منهم واخذ منهم رهائن من خيارهم » . وفي المغرب الاقصى ، حيث يستوطن التجمع القبلي الثالث ، مصمودة في الجبال خاصة تكرر ما حصل في اجزاء المغرب الاخرى ، اذ « حمل ابو مدرك زرعة ابن ابي مدرك رهائن المصامدة ، جمعهم موسى مع رهائن البربر الذين اخذهم مـــن افريقية والمغرب وجعل عليهم مولاه طارقا ودخل بهم جزيرة الاندلس » . وفي مكان اخر يحدد المؤرخ نفسه النسبة العددية المتقاربة للمشاركة بيـن قبائل المشارقـة والمغاربة وذلك بقوله « استعمل مولاه طارقا على طنجة وما والاها في سبعة عشر الفا من العرب ، واثني عشر الفامن البربر »(٧) وظلت المشاركة قائمة ايضا في الجيش الذي دخل به موسى بن نصير الاندلس بعد دخول مولاه طارق ، اذ يذكر ابن عبد الحكم ذلك بالقول « ثم خرج موسى بن نصير الى الاندلس في رجب سنة ٩٣ هـ

بوجوه العرب والموالي وعرفاء البربر »(٨) . هذه المشاركة في الجيش لابناء القبائل العربية المشرقية والقبائل المغربية والتي نسميها فن مصطلحاتنا الحديثة (اخـوة السلاح) ربما كانت الواقع المعروف المشهور لدى نقلة اخبار المغرب او حفظته ، الذي اوحى لهم بابتداع اسطورة تعبر عن هذه المشاركة تعبيرا رمزيا ، وهي حسب رواية ابن عذاري « ان خالد بن يزيد العبسي كان في جملة اسراها فقالت له يوما : ما رايت في الرجال اجمل منك ولا اشجع وانا اريد ان ارضعك فتكون اخا لولدي . وكان لها ابنان احدهما بربري والاخر يوناني ... وقالت له نحن جماعة البربر لنا رضاع اذا فعلناه نتوارث به . فعمدت الى دقيق الشعير فلتته بزيت وجعلتـه على ثدييها ودعت ولديها وقالت كلا معه على ثديي ففعلا فقالت قد صرتم اخوة »(٩).

من الطبيعي ان تشكل هذه المشاركة في صفوف الجيش انتقال الثقافة من الطرف العربي الى الطرف المغربي . ومن الامثلة البارزة على ذلك مثل طارق بن زياد الذي اضحى عارفا بالعربية قادرا على الخطابة بها ، واذا صوبت سهام النقد للخطبـة المشهورة المنسوبة اليه فان هذا النقد لم يطل اكثر من الشكل البديعي ولم يتعـد الى امكانياته الخطابية ، ولا الى النص البسيط الخالي من المحسنات اللفظية الذي اوردته المصادر المبكرة نسبيا من تاريخ الاندلس(١٠) .

لكن عملية انتقال الثقافة العربية الى المغرب لم تقتصر على نتاج عمليات عفوية تمت بفعل ظروف مواتية ، وانما تعدى الامر ذلك الى عملية نشر موجهة من قبـل القواد . وقد حفظت الروايات لنا ذكرا لعمل اثنين منهم وهما عقبة بن نافع وموسى ابن نصير . يذكر ابن القطان عن عمل الاول منهما في هذا المضمار في معرض حديثـه عن دخول المصامدة من اقصى المغرب في الاسلام بقوله : « واكثرهم اسلموا طوعـا على يديه ، وانه ترك معهم بعض اصحابه يعلمونهم القرآن والاسلام ، منهم شاكر صاحب الرباط وغيره »(١١) وممن تدخلهم الرواية ضمن اصحاب هذا الفاتـح صالح بن منصور الحميري الذي نزل في منطقة الريف ونشر الاسلام في صفـوف قبائله من غمارة وبعض فروع صنهاجة ، وانشأ احفاده فيما بعد دولة لهم في المنطقة عاصمتها ناكور التي تقع خرائبها على مقربة من ميناء الحسيمة الحالي(١٢) .

وقام موسى بن نصير بأمر العرب في جيشه أن يعلموا المغاربة القرآن ويفقهوهم في الدين . اما بالنسبة للناس خارج الجيش فقد ترك فيهم سبعة عشر رجلا يعلمونهم القرآن وشرائـع الاسـلام .

يلاحظ ان المواطن التي عمل فيها القادة الفاتحون على نشر الثقافة العربية الاسلامية ونقلها للمغاربة ، كانت في اقصى المغرب ، في حين لا يرد في الروايات شيء عن عمل مماثل لهم في المغرب الادنى . وهو امر يمكن تفسيره بأن الحاجة لعملهم هنا لم تكن قائمة ، مادام المشارقة المستقرون في هذا الموطن كثر ، نقلوا معهم جو المشرق الثقافي وكذلك وسائله في نشرها ، مثل المساجد وحتى الكتاتيب التي وجدت في القيروان منذ وقت مبكر ، بدليل ما يروى على لسان احد تلامذتها من قول : « كان سفيان بن وهب صاحب رسول الله (ص) يمر بنا ونحن غلمة في القيروان فيسلم علينا ونحن في الكتاب وعليه عمامة قد ارخاها من خلفه »(١٣) . ومن الطبيعي ان تكون هذه الثقافة جامعة للتراث العربي من لغة وشعر ، اضافة للتراث الاسلامي من قرآن وحديث واقوال للصحابة . وهذا ما تؤكده الوصية المنسوبة لعقبة ، لاولاده ، عندما غادر القيروان متجها لغزوته الكبرى في المغرب ، ويقول فيها : « يا بني اوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تضيعوها : اياكم ان تملؤوا صدوركم بالشعر وتتركوا القرآن فان القران دليل على الله عز وجل ، وخذوا من كلام العرب ما يهتدي به اللبيب ويدلكم على مكارم الاخلاق ، ثم انتهوا عما وراءه . . »(١٤)

هجرة الثقافة عن طريق دعاة الاحزاب السياسية ـ المذهبية

عندما كانت علميات فتح المغرب تأخذ مجراها في النصف الثاني من القرن الاول الهجري ، كان المشرق يعج بالتيارات السياسية التي تبلورت خلال صراعها مع السلطة السياسية الاموية على شكل مذاهب اعتقادية ضمن اطار الدين الاسلامي . وعند هزيمتها في ثوراتها المعلنة على السلطة السياسية كانت تلجأ للتنظيم السري ونشر مبادئها بواسطة دعاة توجههم الى سائر انحاء ديار العرب والاسلام .

وقد افاد الدعاة الموجهون للمغرب من عدة ظروف مواتية ، منها بعده عن المركز ، ورغبة القبليين المغاربة بالاستقلال ، شأنهم في ذلك شأن غيرهم ممن ينتمون الى قبيلة تربط بين افرادها رابطة العصبية التي تسعى الى الملك الذاتي ، اضافة لكون بعض هذه المذاهب تعزف على وتر المساواة بين المسلمين ، وعدم تفضيل قريش على غيرها ، كالخوارج ، واجازة بعضها للثورة على ائمة الجور ضمن اطار احد مبادئها بضرورة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . لكل هذا وجد زعماء القبائل المغربية ان بينهم وبين هذه الاحزاب ودعواتها قضية مشتركة هي عداء السلطة . لكن الامر يظهر وكأنه اكبر من قضية نفعية ، لان مبادىء هذه الاحزاب لم تنتشر فقط بل وترسخت ايضا ، واصبح لها بين المغاربة اتباع كثر متحمسون ، مما يدفعنا للبحث عن عامل اخر يضاف للعوامل السابقة ، فهل يكون طبيعة اسلام المغاربة الاول ؟ .

الملاحظ ان انتشار الاسلام كان سريعا على عكس الفتح الذي كان عسيرا وبطيئا. ففي العقد السابع من القرن الاول يصف ابن القطان موقف المصامدة في المغرب الاقصى من عقبة : « انه اول الفاتحين قدوما وانهم اسلموا طوعا على يديه»(١٥) ، وفي العقد التالي يفهم من ابن عبد الحكم ان اغلبية البتر ، احد الجذمين اللذين تنحدر منهما القبائل المغربية ، قد دخل في الاسلام(١٦) ، وفي اخر القرن ، أي زمن ولاية اسماعيل بن ابي المهاجر سنة ١٠٠ – ١٠١ هـ ، تقول الاخبار انه لم يبق في زمنه احد من المغاربة الا اسلم ، وهو امر لايصدق على الجميع . وبخاصة على اتباع الديانات التوحيدية كالمسيحيين خاصة ، الذين ظل البطارقة يأتونهم من الاسكندرية حتى بعد عدة قرون(١٧) . وهذا كله يدل على ان الاسلام شهد في المغرب انتشارا واسعا في امد قصير لم يشهد مثيلا له في البلاد الاخرى ، حتى انه كان يشمل الوثنيين في مدة لاتزيد عن ثلث قرن. ولكن هذه القبائل التي اسلمت بسرعة كانت كثيرة الانتقاض ، حتى ان ابن خلدون يقول انهم ارتدوا اثنتي عشرة مرة (والغالب ان المعنى المقصود انتقاض سياسي) وهذا ما يعرضها لعقوبة النكث بالعهد ، خاصة وان الاسلام كان اقل تسامحا مع الوثنيين وبالتالي كان اسلامهم بمثابة استسلام ولم يرافقه فهم كامل عميق . ولا ادل على ذلك من ان افريقية اول البلاد فتحا واقدمها اسلاما ظلت حتى نهاية القرن الاول غير متقيدة في ممارساتها بأوامره ونواهيه ، حتى ان ابن عذاري يورد وصفا لعمل اسماعيل بن ابي المهاجر بالقول « علم اهل افريقية الحلال والحرام ، وبعث معه عشرة من التابعين اهل علم وفضل .. وكانت الخمر بافريقية حلالا حتى وصل هؤلاء التابعون فبينوا تحريمها»(١٨).

هذه السطحية في اسلام المغاربة اول الامر هو الذي مكن الدعاة ، وكان اكثرهم من الراسخين في العلم، من بلورة مبادئه ومفاهيمه في اذهان المغاربة وفق الشكل المطابق لمذاهبهم .

دعاة الخوارج :

كان الخوارج اول المستغلين لهذه الظروف المواتية في المغرب ، حيث ظهر في اواخر النصف الثاني للقرن الاول الهجري داعيان كبيران لهما ، يمثل احدهما الصفرية، ويدعو الثاني للاباضية . وهكذا ظهر في القيروان عكرمة مولى الصحابي الشهير عبد الله بن عباس(١٩) ، وكان مقامه في مؤخرة المسجد ، ونجح في اقامة اتصالات من اناس من قبائل مغربية شتى ومن اماكن عدة . فبرز من بين اتباعه فيما بعد ميسرة المدغري الذي تنعته الروايات بالحقير ، والذي تقلبت به الاحوال من سقاء في سوق القيروان

لقائد اول ثورة صفرية خارجية كبيرة ، انطلقت من طنجة في اقصى المغرب عام ١٢٢هـ ــ٧٤٠م ، وهددت سلطان الامويين في المغرب كله ، وممن لقي عكرمة سعد المكناسي الذي اسس حفيده عيسى بن يزيد ، او مزيد الاسود معما يزيد على ٤٠٠ من الصفرية دولة اتخذت من سجلماسة في اقصى جنوب المغرب الاقصى على حدود الصحراء (تافيلالت الحالية) دولة صفرية سنة ١٤٠ هـ/٧٥٧م ٠ ظلت قائمة حتى اواسط القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ، رغم ان الحكم انتقل فيما بعد من يد عيسى الى صفري اخر هو سمعون او سمكو بن واسول او يزيلان الذي كان صفريا ايضا(٢٠) . وتغلغل المذهب الصفري في المغرب الاقصى حتى شواطىء الاطلسي عندما تزعم اشتاتا من قبائل زناتية ــ اشتهرت باسم برغواطة ــ صالح بن طريف احد اعوان ميسرة، ولو ان المذهب اختلط هنا ببقايا معتقدات اخرى قائمة في المنطقة المعروفة بتامسنا والممتدة على الاطلسي من الرباط الى ما وراء الدار البيضاء . وامتدت مواطن انتشار الصفرية نحو المغرب الاوسط ، عندما انتشرت بين بني يفرن الزناتيين المقيمين حول تلمسان والذين بايعوا اميرهم ابا قرة اماما حوالي سنة ١٤٠ هـ/٧٥٧ م .

لقي المذهب الخارجي الثاني ، الاباضي ، انتشارا مماثلا في سعة النطاق ، لكنه كان اكثر تعمقا في الافكار واكثر رسوخا حيث انتشر ، وربما نتج ذلك عن حسن تنظيم دعوته وطريقته في اعداد اتباعه وافراده . فقد لجأ شيوخ هذا المذهب منذ النصف الثاني من القرن الاول الهجري للسرية في ظل امامة جابر بن يزيد(٢١) ، والناطق باسم جماعتهم تجاه الجميع عبد الله بن اباض . وعندما خلف ابو عبيدة مسلم بن ابي كريمة جابرا في الامامة سنة (٩٥) على ما يرجح ، تطور التنظيم المركزي ونشطت الدعوة . فقد نظم الاتباع في مجالس، وقاد الجميع عدد قليل في الاعلى ، وتقلد ابو عبيدة ضمن القيادة كل ما يتعلق بالمذهب والتبشير به ، بينما تقلد حاجب الطائي شؤون الحرب والاشراف على بيت مال الجماعة ، واعد الدعاة في مركز خاص للتعليم اشرف عليه ابو عبيدة وعلم فيه طلابا هرعوا اليه من اصقاع شتى من ديار الاسلام ، وكان يرسل منهم بعد تدريبهم على التبشير مجموعة لكل بلد يسميها (حملة العلم) او (نقلة العلم)، وفيها امام وقاض وعليها نشر المذهب وجمع الاتباع ، وارسال من ينجب منهم الى المركز في البصرة ليصار الى تعليمه وتدريبه ، وبذلك يؤمن للدعوة في كل بلد عنصرا محليا من سكانها . وكان ذلك على ما يظهر بمثابة السياسة المتبعة ، فقد روي عن احد اباضية الحجاز قوله : « قدم الينا ابو عبيدة مرة حاجا ومعه امرأة من المهلبيات ، فلما فرغوا من حجهم قالت : يا اباعبيدة اني اريد المقام بمكة فقال : لاتقيمي الخروج افضل لك ، قال ابن مسروق (من دعاة الاباضية في الحجاز) فقلت وانا اخرج معكم يا اباعبيدة فقال : اما انت فأقم ، فقلت تأمر هذه بالخروج معك وتأمرني بالمقام ؟ قال : لانك قريب من مكة ونحن بعيد عنها(٢٢) » .

يظهر اول دعاة الاباضية المرسلين الى المغرب وهو سلمة بن سعيد في جبــل نفوسه ، حيث افلح في جميع اتباع وارسال البعض منهم الى مدرسة البصرة ،وقدبرز منهم ابوعبد الله محمدبن عبد الحميد بن مغطير الجناداني.الذي عاد واشترك مع سلمة في نشر المذهب . ولقيت العملية نجاحا باهرا اذ اضحى جبل نفوسة معقلا رئيسا لاباضية المغرب ، سواء على صعيد اشعال الثورات او المساهمة في اقامة الدول الاباضية .كما تقدمت الدعوة غربا واستطاع دعاتها ارسال بعثة علمية من منطقتي طرابلس والمغرب الادنى تتكون من ابي ضرار اسماعيل بن ضرار الغدامسي مــن غدامــس جنوب طرابلس ، وعبد الرحمن بن رستم من القروان وعاصم السدراتي من سدراته في غرب الاوراس ، وابو داود القبلي النفزاوي من نفزاوة بجنوب المغرب الادنى ، وانضم اليهم في البصرة ابو الخطاب المعافري . قضى هذا الوفد خمس سنوات في البصرة بين ١٣٥ ــ ١٤٠ هـ ، واضحى كل عضو منه بعد عودته بؤرة اشعاع للمذهب وتتلمذ عليه اخــرون(٢٣) .

وقد انشأ عمر بن يمكتن احد التلاميذ مدرسة في جبل نفوسة لتعليم القرآن وتفسيره ، كما قاد بعض الاعضاء ثورات كانوا فيها الائمة للثائرين ، كأبي الخطاب عبد الاعلى بن السمح المعافري ، الذي دعي له بالامامة سنة ١٤٠ هـ ، وظل كذلك طيلة اربع سنوات قتله بعدها ابن الاشعث(٢٤) . اما عبد الرحمن بن رستم فقد نجح في اقامة دولة اباضية كبيرة نسبيا قاعدتها تاهرت في المغرب الاوسط ، انضوى تحت لوائها كل اباضية المغرب حتى جبل نفوسة شرقا ، وعاشت منذ سنة ١٦١ ــ ٢٩٦هـ/ ٧٧٨ ــ ٩٠٨ م .

ولعل ما يهمنا في المقام الاول من دعوة الخوارج في المغرب ، هو نوعية الثقافة التي نقلوها اليه . وتــدل الشواهد على انها تلك الثقافة العربية الاسلامية التي حملها الصحابة وبعدهم التابعون اواخر القرن الاول الهجري واوائل الثاني ، وتتألف من كتلة تشتمل على بذور علوم دينية متعددة ، ففيها القرآن قراءة وتفسيرا وغريبا ، وفيها الحديث واقوال الصحابة وفتاواهم . ذلك لان العلوم لم تكن قد تمايزت بعد ، ولم يفترق الخوارج عن غيرهم من المسلمين فيهذا المضمار باستثناء بعض الاجتهادات الخاصة بهم حول مدلول نص من القرآن الكريم او الحديث او الاخذ بفتاوى صحابي دون غيره . وعرف اقطاب الخوارج المشارقة ، سواء منهم من قدم للمغرب كي ينشر مذهبه او من نقل عنه حملة العلم المغاربة ، بأنهم من مشاهير العلماء في صفوف التابعين ، وقد نقلوا علمهم عن كبار الصحابة المبرزين فيهذا المضمار . فجابر بن زيد، الذي تنسب اليه امامة الاباضية ، كان من كبار التابعين ويقال انه ادرك سبعين من

اهل بدر ، واخذ اكثر ما اخذ عن ابن عباس وعائشة ام المؤمنين ، واعتبره العاملون في جمع الحديث الصحيح ، كالبخاري ومسلم وابي داود ، ثقـة، وكان له مؤلف ضخم هو مدونته التي احتوت على الحديث واقوال الصحابة وفتاواهم . اما ابو عبيدة مسلم بن ابي كريمة فقد حفظ علم استاذه جابر ، واخذ كذلك عن بعض الصحابة ويؤثر عنه قوله : « من لم يكن له استاذ من الصحابة فليس على شيء من الدين وقد عن اربعة كان عكرمة احدهم . ويقال ان عبد الله بن عباس قال له : « انطلق فافت بالناس » وقوله هو ، أي عكرمة « طلبت العلم اربعين سنة ، وكنت افتي بالباب وابن عباس في الـدار » .

اما عكرمة ناشر مذهب الصفرية في المغرب فقد اخذ عن عبد الله بن عباس وعائشة وابي هريرة وعبد الله بن عمر ، وروت عنه جماعة كبيرة من التابعين منهم جابر بن زيد امام الاباضية ، واحتج بحديثه عامة الائمة القدماء اذ اعتبر لدى الجميع حافظ علم سيده عبد الله بن عباس المشهور بين الصحابة بعلمه الواسع . لذلك كان في الحديث كما ذكرنا ، وكذلك في القرآن اذا أثر على الشعبي قوله : ما بقي احد اعلم بكتاب الله من عكرمة ، كما روى عن سفيان الثوري نصحه للناس في الكوفة بان يأخذوا التفسير عن أربعة كان عكرمة احدهم . ويقال ان عبد الله بن عباس قال له : « انطلق فافت بالناس » وقوله هو ، أي عكرمة « طلبت العلم اربعين سنة ، وكنت افتي بالباب وابن عباس في الدار » .

ففهاء الجماعـة :

يظهر ان نشاط دعوة الخوارج والنجاح الذي احرزته منذ بدايتها في اواخر القرن الاول الهجري لم تخف عن علم البلاط الاموي ، وتدل اعمال الخلفاء ومساعيهم التي بذلوها ردا على ذلك ، على انهم ادركوا احد الاسباب الرئيسية لنجاحها ، وهو سطحية اسلام المغاربة ، وهذا ما يفسر مسارعة عمر بن عبد العزيز الخليفة الاموي لارسال عشرة من التابعين مع واليه للمغرب بغاية تفقيه المغاربة في الدين . وقد ركز كتاب التراجـم على تبيان نشاطهم في هذا المضمار وابعاده ، بجمل محددة قد تتكرر في اكثر من ترجمة مثل « انتفع به اهل افريقية وبث فيهم علما كثيرا » و « وعلموهم السنن » وعلموهم « الحلال والحرام » كما يشيرون الى بناء العديد منهم للمساجد ، التي لا يخفى دورها في التعليم الى جانب العبادة . ومن ناحية اخرى ، كانت اعمال هؤلاء الفقهاء تجعلهم على صلة بقطاعات واسعة من الناس ، فقد كان بعضهم قضاة مثل جعثل بن هاعان بن عمير البتور(٢٥) الذي كان قاضيا للجند حتى ايام هشام بن عبد الملك ، كما ان ابا الجهم

عبد الرحمن بن رافع كان قاضيا للقيروان منذ استقرار الفتح بها زمن موسى بن نصير . وكان اسماعيل بن عبيد الانصاري تاجرا موسرا ، يرسل الاحمال من المغرب الى المشرق وقد بنى فيالقيروان مسجدا كبيرا دعي بمسجد الزيتونة وتصدق بسبعمائة ثوب على المجاهدين ، ونتيجة لمسلكه دعي بتاجر الله(٢٦). وفي مجال المستوى العلمي كان العشرة تابعين ،وبعضهم كانعالما مشهودا ، وراوية ثقة اعتمد عليه وروى عنه بعض مشاهير علماء المسلمين في المشرق . ولعل اهم حادثة تتجلى فيها الغاية من ارسالهم للوقوف في وجه مد الدعوة الخارجية ، بتعميق مفاهيم الدين الاسلامي للمغاربة وفق المنظور والاجتهاد الذي تراه الجماعة من اهل الطاعة للخلافة الاموية ، استعانة والي المغرب ، حنظلة بن صفوان بهم لتنفير الناس عن الخوارج . اذ يروي المالكي في الروض نقلا عن عبد الاعلى بن عقبة الغفاري : « لما ثارت الخوارج على حنظلة بن صفوان بطنجة جمع حنظلة علماء افريقية ، وهم الذين بعثهم عمر بن عبد العزيز الى افريقية ليفقهوا اهلها في الدين ، منهم سعد بن مسعود وحبان بن جبلة وطلق بن حابان ، فكتبوا له رسالة ليقتدى بها المسلمون ويعتقدوا ما فيها »(٢٧) .

الدعوة الفاطمية :

بينما كان هذا الصراع على الصعيد الفكري بين تيار الجماعة والخوارج ، يجري على ارض المغرب ، وتنتقل عبره من المشرق ثقافة مرتبطة باطراف الصراع ، كانت الدعوات في المشرق تزداد عددا وتترقى تنظيما وتغنى فكرا وتتطلع الى نشر افكارها ومبادئها في اطراف الدولة . وربما لفتت نجاحات الخوارج فيه انظار اصحاب الدعوات للفرص المتوافرة فيه ، فقام المشرفون على الدعوة التي نجحت بعد قرابة قرن ونصف في انشاء الدولة الفاطمية على ارض المغرب ، بارسال داعيين سنة ١٤٥ هـ ونسب ارسالهما لجعفر الصادق (٨٣ ـ ١٤٨ هـ) ، الذي « امرهما ان يبسطا ظاهر علم الائمة من آل محمد وينشرا فضلهم » ، وامرهما ان يتجاوزا افريقية الى حدود البربر ثم يفترقان فينزل كل منهما ناحية . فلما وصلا الى مرماجنة (على نحو ثلاث مراحل من القيروان) ، نزل احدهما وكان يعرف بابي سفيان ، بتالا(تقع على بعد ٤٥ ميلا جنوب السكاف وعلى١٧ ميلا شرق الحدود الجزائرية)، واستطاع بمسلكه وعمله نشر مذهبه فيمرماجنة والاربس ،واستفاد ايضا من وضع المدينة كمركز للتبادل التجاري لينشر مذهبه في نقطة في الجريد عن طريق جماعة كان افرادها يختلفونبالتمر الى تلك المدينة ويشترون القمح . اما الثاني فعرف بالحلواني وعمل في منطقة الاوراس ، اذ نزل في موضع الناظور على مقربة من بجاية ، ونشر مذهبه في صفوف قبائل كتامة ، ومعقلها جيل ايكجان على مقربة من سطيف ، وكذلك في نفزه وسماته ، او سماطة ،

وهي عند النسابين فرع مـن الاولى ، وبها سميت مدينة سماطـــة بين بلزمـة وسجلماسة(٢٨).

الاعتـزال :

يكاد هذا التيار ان يكون فكرا بحتا ولا علاقة مباشرة له بالسياسة ،ومع ذلك كانت اوساط الجماعة تنظر اليه نظرة معادية لخوضه في امور لم يتعرض لها السلف الصالح كما ان السلطات : سواء الاموية او العباسية قبل المأمون ، لم تنظر اليه بارتياح ، خاصة وان بعض مبادئه قد تفسر سياسيا في غير مصلحة السلطة ، كقوله بحرية الارادة الانسانية ومسؤولية الانسان عن عمله وخلق الانسان للافعال ، مما يجعل السلطة والملك من فعل الانسان . وقد ارسل هؤلاء الدعاة الى المغرب منذ ايام شيخهم الكبير واصل بن عطاء المتوفى سنة ١٣١هـ ، والذي نشط لبث الدعاة ايضا في شرق اراضي الدولة العربية الاسلامية وغربها ، كما يشير الى ذلك شاعر المعتزلة صفوان الانصاري بقوله :

لـه خلف شـعب الصين في كـل ثغـرة
الى سوسهـا الاقصـي وخلف البرابـر
رجـال دعـــاة لا يفــل عزيمهـم
تهـــكم جبــــار ولا كيـد ماكـر

وكان داعيته الى المغرب عبد الله بن الحارث الذي يقول عنه صاحب المنية والامل انه اجابه خلق كثير (٢٩). والواضح ان عدد الاتباع اضحى كبيرا بعد امد ، واذا كان وجود جماعة كبيرة لهم في القيروان قد اقض مضاجع الفقهاء المالكية خاصة ، امرا طبيعيا ، نظرا لموقع القيروان ونشاطها الثقافي العام ، الا ان ما يستلفت النظر تجاوز الاعتزال في انتشاره للمغرب الادنى ووصوله الى المغرب الاوسط ، حيث سيصبح عددهم كبيرا في المستقبل ، اذ ينقل ياقوت عن البكري ، « ان مجمع الواصلية اصحاب واصل بن عطاء كان قريبا من تاهرت ، وكان عددهم نحو ثلاثين الفا في بيوت كبيوت الاعراب يحملونها». كذلك وصل المذهب منذ وقت مبكر الى المغرب الاقصى حيث نرى شيخ قبيلة اوربة الذي لجأ اليه ادريس بن عبد الله صاحب الدولة الادريسية معتزليا. ويضيف البكري على ذلك ان ادريس شاركه في هذا الرأي ايضا(٣٠) .

هجرة الثقافة بواسطة رحلات طلب العلم والكتب

نتج عن النشاطات السابقة في نقل الثقافة في ركاب الفاتحين واجهزة الدولة والاحزاب السياسية ـ المذهبية ، ارتقاء الثقافة بالمغرب على صعيدي عدد المثقفين بالثقافة العربية الاسلامية ، وارتقائها لديهم ، ومثل هذا الامر يزيد من الرغبة في تلقي المزيد من المشرق حيث المنبع والمصدر . وبالرغم مـن عدم انقطاع ورود العلماء من المشرق الا ان هؤلاء اصبحوا قلة نادرة اذا ما قيسوا بعدد الراحلين ، اما مراكز الفكر المشرقي التي يرتادونها فكانت بشكل رئيسي مراكز الحياة الدينية في الحجاز ، او السياسية في العراق ، وخاصة في الكوفة والبصيرة ، ومحطة الطريق الرئيسية الى المركزين وهي الفسطاط .

وازدهرت في المغرب نتيجة لهذا الاتصال مراكز فكر كبيرة كان على راسها القيروان وتونس في المغرب الادنى ، ومركزا تاهرت وجبل نفوسة الخارجيان . اما المغرب الاقصى فقد تأخر ظهور المركز الفكري فيه حتى اواخر القرن الثاني للهجـرة في ظل ادريس الثاني . ومن اشتهروا بالعلم فيه جاؤوه من مركزي القيروان ومركز الاندلس مع موجات السكان التي قدمت الى المدينة من هذين الموقعين ، وبدانا نسمع عن وجود فقهاء كعبد الله بن مالك الانصاري الخزرجي التي كتب العقد بشراء ادريس الثاني للارض التي بنيت عليها عدوة الاندلس من فاس . كما تظهر اسماء حملة علم مشرقي ، ففي سنة ١٨٩ هـ وفدت على ادريس وفود العرب من بلاد افريقية وبلاد الاندلس في نحو خمسمائة من الازد وبني يحصب والصدف وغيرهم ..« فاستوزر عمير ابن مصعب الازدي وكان من فرسان العرب وساداتها .. واستقضى منهم عامر بن محمد بن سعيد القيسي من قيس قيلان ، وكان رجلا صالحا ورعا سمع مالكا وسفيان الثوري وروى عنهما كثيرا »(٣١) . وقد حمل هؤلاء الراحلون كل ما في المشرق آنذاك من علوم واكثرها علوم دينية ، او لغة وآداب .

الفقه والحديث :

من المعروف ان فترة القرن الثاني في المشرق هي فترة جمع الحديث التي بدات بقوة في اوله ، وقد اشتهر من المجموعات جامعا سفيان الثوري (المتوفى سنة ١٦٥هـ)، وهما الجامع الكبير الذي ادخله علي بن زياد في تونس ، والجامع الصغير الذي ادخله ابو خارجة عنبسة بن خارجة الغافقي المقيم في حصن على البحر بناحية سفاقس، وكان مشاهير الفقهاء يقصدون هذين الاثنين لسماع جامعي سفيان عليهما . اما في الفقه فقد برز

في هذه الفترة مذهب مالك بن انس في المدينة وابي حنيفة في العراق ، هذا عدا مذاهب متعددة ظهرت آنذاك وبلغت حوالي ثلاثة عشر مذهبا ، ومع ذلك كان العديد من الفقهاء لايتقيدون بأي واحد منها .

رغم هذا التعدد الكبير في المذاهب الفقهية في المشرق الا ان فقهاء المغاربة اشتهر عنهم الاخذ عن العلمين الكبيرين في الفقه آنذاك : مالك بن انس امام اهـل المدينة ، وابي حنيفة النعمان بن ثابت امام اهل الراي في العراق ، ويأتي بعدهما سفيان الثوري . وبين هؤلاء من لم يتقيد براي واحد من هؤلاء الائمة الثلاثة ، على الرغم مما يبدو لاول وهلة من قربهم من مالك بن انس اكثر من غيره . فقـد رحل اليه حسب قول القاضي عياض اكثر من ثلاثين رجلا منهم كلهم لقيه(٣٢) وسمـع منه . ويبدو لنا هذا الامر واضحا فيما لو استعرضنا شيئا من السيرة العلميـة لكبار فقهـاء المغـرب اناذاك .

اشتهر علي بن زياد (ت ١٨٣ هـ) بانه اول من ادخل موطأ مالك وفسر لهم قول مالك ولم يكونوا يعرفونه ، واصبح معلما لعدد من مشاهير فقهاء المغرب ، ومع ذلك فانه لم يدخل الموطأ وحده وانما ادخل ايضا جامع سفيان الثوري . اما ابن فروخ الذي تولى القضاء في القيروان ولقي مالكا وبصحبته اشتهر وبه تفقه ، فقد اخـذ من ناحية اخرى عن ابي حنيفة ، واشتهرت عنه مناقشته لتلميذ ابي حنيفة زفـر ابن الهذيل القياس المشهور(٣٣) ، وقد دون عن ابي حنيفة عشرة آلاف مسألـة . لذلك كان يحكم بما يراه صوابا سواء من اقوال مالك او من اقوال اهل العـراق . اما ابن غانم قاضي افريقية للرشيد (ت ١٩٦ هـ) فقد اخذ من مالك وعليه اعتماده ومن سفيان الثوري وكذلك من ابي يوسف صاحب ابي حنيفة . وكان في تدريسـه يخصص يوما لكتب ابي حنيفة ، وعندما تعرض له قضايا جديدة يكتب لمالك مـن جهة ولابي يوسف من جهة اخرى . وقام البهلول بن راشد (ت ١٨٣ هـ) بتأليـف كتاب في الفقه على مذهب مالك ومع ذلك كان في احكامه يميل احيانا الى راي الثوري

بعد ذلك جاء اسد بن الفرات،ذو الاصل الشامي من حران ،ليوازن في الاعتماد على الامامين ويحمل رأيهما في كل قضية . اخذ الموطأ عن مالك وحمله الى العراق حيث رواه عنه احد كبار تلامذة ابي حنيفة ، وقد لقي اثنين منهما ، وهما ابـو يوسف ومحمد بن الحسن ، وارتبط بصداقة مع هذا الاخير ، ثم حمل مسائل جماعة ابي حنيفة وعرضها على ابن القاسم تلميذ مالك بمصر فاجابه هذا بالحكـم فيها ، اما نقلا ثابتا عن مالك ، واما ما يظن انه سمعه عنه ، او ما يعتقد انه حكمه في قضية مشابهة . وما لم يجد له اصلا عند مالك قال به باجتهاده على اصـل قول مالك .

سجل اسد كل هذا في ستين كتابا سميت الاسدية ، فعلا مقامه بها واشتهرت في المغرب . لكن المالكية خطت خطوة الى الامام بتدوين احكام ائمتها في كتاب خاص على يد سحنون الذي حمل الاسدية لابن القاسم في مصر ، فاسقط منها ما شك فيه ، وهذبها سحنون وبوبها والحق فيها ما اختار ذكره مما اختلف عليه كبار اصحاب مالك فدعيت المدونة . وقد وصفها القاضي عياض بقوله « وهي اصل المذهب المرجح روايتها على غيرها عند المغاربة واياها اختصر مختصروهم وشرح شارخوهم ونسيت الاسدية »(٣٤) .

يلاحظ مما مر ان الفقهاء المغاربة ظلوا في حالة تبعية للفقهاء المشارقة ، ولو انهم ابقوا باب الاختيار منهم مفتوحا ليأخذوا من كل قضية ما يعتقدون صحته وملاءمته ونجد عديدا من الامثلة على هذين الوجهين للرابطة التي ربطت فقهاء المغاربة باساتذتهم المشارقة . وقد بالغ بعضهم في تقليله هؤلاء المشارقة الى حد جعل السلوك حتى في الدقائق تقليدا للائمة في المشرق ، حتى ان البهلول ذاته وضع مرة خيطا في خنصره كي يذكر شيئا ، ثم خشي ان يكون ابتدع بدعة . ولما اخبره بعض اصحابه ان عبد الله بن عمر كان يفعل ذلك ، قال : الحمد لله الذي لم يجعلني ممن ابتدع بدعة في الاسلام . ونقل اخرون راي مالك في الثوب ، مما يدل على الاهتمام بجعل الثياب منسجمة مع رأيه ، مثل قوله « حياة الثوب طيه وعيبه قصر اكمامه » .(٣٥) وسأله بعضهم عن العمامة من ناحيتي الشكل والضرورة . كما كانوا يتهيبون من الحكم في القضايا الجديدة التي لا يجدون لها حكما فيما حفظوه عنه او دونوه فيرسلون الكتب الى المشرق لسؤال الائمة كما كان يفعل اخوانهم المغاربة الخوارج الذين كانوا يستفتون الائمة في البصرة . كذلك كانوا يخضعون بعض عاداتهم للتقييم على اساس الشرع لتبين عدممخالفتها ، كما هو الحل في سؤالهم لمالك عن جواز الصلاة وهم يضعون (التاملة) ، وهي قماش مصنوع بشكل خاص ، يربطونه على انفسهم ليجمعوا فيه ما يجنونه من الحشائش . وجاءهم جوابه بالقول « اذا كنتم انما تفعلون هذا لمنافعكم ، فتحضركم الصلاة فتصلون به هكذا ، ما ارى فيه بأسا ان شاء الله » . ومع اتباعهم للاحكام الجاهزة التي يستخرجها الائمة المشارقة من الاصول ، الا انهم يحاولون عند التطبيق مراعاة الظروف المحلية والحكم على الاشياء في ضوء المبدأ العام ، كما هو الحال في قضية الاشربة ، التي عرضها اسد بن الفرات في كتاب الاشربة وفيه حكم بجواز شرب المنصف ، اي عصير العنب الذي يغلى حتى يذهب نصفه ويبقى النصف الاخر . لكنه راى ان الحكم يتعلق بعنب خراسان و هوحسب قوله « كثير العسل قليل الماء فهو ينعقد على النصف ، واما غيره فلا يجوز حتى ينعقد وان بلغ الثلثين » . قال : ولقد اختبرنا عنبنا بمجردة (وادي) فوجدناه لاينعقد الا على الثلاثة ارباع لانه قليل العسل كثير الماء ، ولا يحل قبل انعقاده وكذلك قال

اهل العلم ، اذا انعقد قبل ان يبلغ الثلثين حل لان الحكم فيها انعقاده ، ولا يشرب الطلا جتى يصير اصفر كعسل النحل(٣٦) .

اللغـــة والادب :

لم تكن العلوم انذاك قد تمايزت الى حد كبير في المشرق . وكان الطلبة الوافدون من المغرب يحملون من مراكز النشاط الفكري ، وخاصة من مراكز العراق ، بعضا من نتاجه في هذه الميادين .

ومن المعروف ان الفترة كانت فترة نشاط للبحث في النحو وفي جمع اللغة ، والبحث في التاريخ الذي تبلور في تياري السيرة او المغازي واخبار الفعاليات القبلية في الماضي الاسلامي . اضف الى ذلك ان ولاة القيروان وخاصة المهالبة المشهورين بالجود في العطاء ، حاول بعضهم ان يجعل بلاطه شبيها ببلاط اسيادهم في العراق ، فساد فيه الشعر والحديث في اللغة ، كما قصد هذا البلاط بعض المشارقـة . ومن الامثلة عليها ما جرى في مجلس الوالي يزيد بن حاتم المهلبي اذ ورد على لسان قاضيه قوله : « وقد اهللنا هلال شهر رمضان فتشايرنا بالايدي . فاتهمه يزيد بانه لحن ويجب ان يقول تشاورناه » فحكم الطرفان احد النحويين في ذلك(٣٧) .

ومما انتقل الى القيروان في هذا المجال من المشرق الشعر ومجموعاته . فقد قام امان ابن الصمصامة بن الطرماح بن حكيم ، الشاعر والعالم باللغة بنقل اشعار جده التي كان يحفظها ، ومثله عياض بن عوانة بن الحكم بن عوانة الكلبي ، وكان نحويا ايضـا حافظا للشعر فنقله مع تراث العائلة من جدها في حفظ الانساب والتاريخ . كما دخلت في هذه الفترة كتب المغازي فقام ابو الوليد المهري بشرحها . وبدأ القيراونيون، على شاكلة المشارقة ، بالسماع من الاعراب الذين يحلون بين صفوفهم وخاصـة للتجارة ، حتى ان وصف اليمني ابي هلال ، الذي اتجه الى تاهرت ومنها الـى بلد السودان ، للشمس ، ظل محفوظا ومكررا في كتبهم عدة قرون ، كما لم يعدم الامر ورود مشارقة الى بلاط المهالبة كما هو شأن قتيبة النحوي احد اعلام مدرسـة الكوفـة في النحـو .

بهذا كان القرن الثاني للهجرة فترة التكوين للثقافة العربية الاسلامية في المغرب، التي استمدت اصولها من المشرق ، ثم طورت هذه الاصول بالانسجام مع اوضاع المغرب . الامر الذي يعني بحد ذاته اغناء وتنويعا في الفروع ضمن اطار الثقافة الواحدة



الحواشي :

(1) G. Marçais, La Berberie musulmane et L'O rient, p. 133

(٢) الدباغ ، معالم الايمان في معرفة اهل القيروان ، مصر ١٩٦٨ ، ص ٣٢٠ – ٣٢٣ .

(٣) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٣ ، ص٣٩٧ .

(٤) الدباغ ، معالم الايمان ، ص ١٠٧ – ١١٢ .

(٥) ابن سعد ، طبقات ، ج٥ ، ص ٣٩١ . ابن عساكر ، التهذيب ، ج٥ ، ص ٧ . المقري ، النفح ، ج٤ ، ص ٥–٦ . ابن الفرضي ، تاريخ العلماء ، ت ١٤٨ .

(٦) ابن عذاري ، البيان ، ج١ ، ص ٤١ – ٤٢ . ابن خلدون ، العبر ، ج٧ ، ص ٩ .

(٧) ابن عذاري ، البيان ، ج١ ، ص ٤٢ .

(٨) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٢٠٧ .

(٩) ابن عذاري ، ج١ ، ص ٣٧ . المالكي ، رياض النفوس ، ص ٣٣ – ٣٤ ، وفيه ان هذا يسمى البسيسة . الدباغ ، معالم الايمان ، ص٦٥ .

(١٠) بدر ، دراسات في تاريخ الاندلس ، ص ٢١ – ٢٤

(١١) ابن عذاري ، البيان ، ج١ ، ص ٢٧ – ٤٢ .

(١٢) ابن الخطيب ، تاريخ المغرب في العصر الوسيط ، ص١٧١ – ١٧٢ . البكري ، المسالك ، ص ٩٠–٩١

(١٣) الدباغ ، معالم الايمان ، ص ١٥١ .

(١٤) المالكي ، رياض النفوس ، ص ٢٢ .

(١٥) ابن عذاري ، البيان ، ج١ ، ص ٤٢ .

(١٦) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٢٠١ .

(١٧) ابن ابي دينار ، المؤنس ... ، ص ٣٨ .

(١٨) ابن عذاري ، البيان ، ج١ ، ص ٤٨ .

(١٩) ابن سعد ، طبقات ، ج٥ ، ص ٢١٦ . ياقوت الحموي ، معجم الادباء ، ج١٢ ، ص ١٨١ – ١٩٠ . المالكي ، رياض النفوس ، ج١ ، ص ٩٣ .

(٢٠) ابن الخطيب ، الاعمال (الخاص بالمغرب) ، تحقيق العبادي والكتاني ، ص ١٣٨ ، ١٤٠ – ١٤٢ .

(٢١) ابن سعد ، ج٧ ، ص ١٣١ – ١٣٢ . ابن حجر ، تهذيب ، ج٢ ، ص ٣٨ . الشماخي ، السير ، ص ٧٠ – ٧٧ .

(٢٢) المصدر السابق ، ص ٨٤ . سالم الحارثي ، العقود الفضية في اصول الاباضية ، ص ١٣٩–١٤٨.

(٢٣) الشماخي ، سير ، ص ١٢٣ – ١٢٢ . ديوز ، تاريخ المغرب ، ج٣ ، ص ١٩٤ .

(٢٤) ابن ماكولا ، اكمال ، ج٤ ، ص ٣٥٩ .

(٢٥) المالكي ، رياض النفوس ، ج١ ، ص ٧٥ . الدباغ ، ص ٢٠٢ .

(٢٦) المصدر السابق ، ص ١٩١ – ١٩٥ .

(٢٧) المالكي ، رياض النفوس ، ج١ ، ص ٦٧.

(٢٨) القاضي النعمان ، رسالة افتتاح الدعوة ، ص٥٤–٥٨ . ابن خلدون ، ج٤ ، ص٢١ . ابن الاثير الكامل ، ج٨ ، ص ٣١.

(٢٩) المنية والامل ، ص ١٩ .

(٣٠) البكري ، المسالك ، ص ١١٩ – ١٢١ . ابن ابي زرع ، روض القرطاس ، ج١ ، ص ٢٣ – ٢٤ .

(٣١) ابن القاضي ، جذوة الاقتباس ، ج١ ، ص ٢٧ ، ٣١–٣٢ .

(٣٢) القاضي عياض ، ترتيب المدارك ، ج١و٢ ، ص٤٥٢ .

(٣٣) ابن النديم ، الفهرست ، ص ٢٠٢ .

(٣٤) القاضي عياض ، ترتيب المدارك ، ج١و٢ ، ص ٤٧٢ .

(٣٥) المالكي ، رياض النفوس ، ج١ ، ص ١٥٧ .

(٣٦) المصدر السابق ، ص ١٨٤ .

(٣٧) الزبيدي ، طبقات النحويين واللغويين ، ص٢٢٥ – ٢٢٧ ، ١٣٥–١٣٦



حول الأهمية الأثرية لمكتشفات ابلا ـ تل مرديخ

د. عدنان البني

المديرية العامة للآثار والمتاحف ـ دمشق

ان الاهمية الكيفية والكمية للرقم المسمارية المكتشفة في القصر الملكي في ابلا ـ تل مرديخ ، العائدة للالف الثالث قبل الميلاد ، واساءة تأويل محتوى هذه الرقم ، ومن ثم اساءة استعمال ذلك المحتوى ، قد اثارت انتباه العالم ، حتى الصحافة اليومية في الشرق والغرب ، الى جانب وحيد من مكتشفات ابلا هو تلك الرقم المسمارية . فأصبحت هذه الرقم بالنسبة للبعض كالعقل الاليكتروني فيها جواب لكل سؤال . وبالنسبة البعض الاخر اصبحت رؤيا من رؤى التوراة . وادلى الكثيرون بدلوهم بين الدلاء ووجدوا الحلول على كل الاصعدة ، وجلهم أهمل الجانب الاثري البحت لمكتشفات ابلا ، ولم يتصد له الا بعثة التنقيب نفسها وقلة من المختصين العرب والاجانب .

وخلال السنوات العشر التي انقضت بين استهلال التنقيب الاثري في تل مرديخ واكتشاف محفوظات ابلا ، وخاصة في السنوات الخمس الاخيرة ، تحققت مكتشفات اثرية صرفة وذات اهمية علمية باهرة ولكنها مرت غالبا دون أن تلفت انتباه احد تقريبا ، حتى في الاوساط الاثرية .

ولسنا ننوي في هذا البحث او ندعي اصلاح هذه الحال ، بل كل ما نبتغيه ان نلقي بعض الضوء على الناحية الاثرية من مكتشفات ابلا ، منوهين بهذه المناسبة بالمثابرة التي تتحلى بها بعثة التنقيب الايطالية ورغبتها في الاسراع بتزويد العالم والجمهور الواسع بثمرات جهودها(١) .

(*) بحث القي بجامعة روما ، في ختام الندوة العالمية التي عقدت حول مكتشفات تل مرديخ ـ ابلا ، في باريس ١٩٨٠ .

ان تل مرديخ الذي يبلـغ طـوله ١١٠٠م ومساحته ٥٦ هكتارا ليس تلا من اضخم التلال الاثرية في سورية فحسب ، بل هو من احسنها موقعا ؛ لكونه في منتصف الطريق بين الفرات والبحر الابيض المتوسط . وهو خير مكان يشكل استجابة لكل بحث اثري يستهدف خاصة ماضي القطر العربي السوري في تلك العصور الموغلة في القدم والتي مازلنا لا نعرف عنها الا القليل .

وفي هذه الركامات السعيدة التي تكون تل مرديخ يتتبع الباحث خلال الف عام (من حوالي ٢٥٠٠ الى حوالي ١٦٠٠ قبل الميلاد) (٢) دور بلاد الشام وعطائها في مطلع عهد نشأة المدن ومن ثم في عهد السلالات الامورية الاولى . واذا كان بعض هذا الدور معروفا جزئيافان الملاحظ ان هناك انتقاصا من أهميته .

ان المكتشفات الاثرية في تل مرديخ قد زودتنا حتى قبل العثور على المحفوظات الملكية ، ومن ثم بعد العثور عليها ، بمعلومات وافرة عن فن عمران المدن في سورية خلال الالف الثالث قبل الميلاد وكذلك عن عمارة القصور والمعابد في الالفين الثالث والثاني قبل الميلاد . كما ان تلك المكتشفات الاثرية كانت بالغة الفائدة في معرفة بعض الفنون والحرف السورية ، كالنسيج والصباغة والتنزيل والنقش والنحت والفخار، خلال تلك القرون المعتمة . كما انها القت ، بشكل غير مباشر ، الضوء على العلاقات الاقتصادية ، وعلى طرق المبادلات والتجارة بين سورية والاقطار المجاورة ، بما في ذلك مصر .

ولم يكن موقع تل مرديخ جديرا بالثقة لو لم يقيض له تنقيب ستراتيغرافي دقيق ودراسة منهجية . ان نتيجة هذه المنهجية هي الوصول الى تقويم راسخ علميا موثق أثريا لسويات التل . فاكتشاف اجزاء من اناء مصري في القصر الملكي العائد للالف الثالث يحمل كتابة تعود للفرعون المصري بيبي الاول، هو دعم للتأريخ الذي كان قد قدمه الاستاذ ماتييه للسلالة الملكية في ابـلا ، ودافع عنه في مناسبات عدة . اذ ان العلماء يجمعون على ان بيبي الاول حكم فترة تمتد من عهد سرجون الاكادي الى عهد حفيده نارمسين . وبالنسبة لبعض الاحداث اصبحنا بفضل المكتشفات الاثرية لتل مرديخ ، نمتلك تواريخ مطلقة تسهل لنا مهمات التأريخ الصعبة في مواقع أخرى . اذ اننا نرى في هذا الموقع « تطابقا بين تاريخ ابلا الذي نعرفه من المصادر القديمة وتأريخ طبقات تل مرديخ التي ظهرت في التنقيب »(٣) . وهذا الامر لم يسهل انشاء تقويم فحسب ، بل سهل ميلاد مصطلح اثري خاص بسورية ، مستقل عن

المصطلح الرافدي أو المصري - اللذين كانا يطبقان عليه(٤). اذ ان الافاق الاثرية ، اي السويات ، موسومة باحداث تاريخية :

فسوية تل مرديخ المسماة(IIB_1) التي تعود للطور (آ) من عصر البرونز القديم الرابع ، والمؤرخة من حوالي ٢٤٠٠ الى حوالي ٢٣٠٠ – ٢٢٢٥ قبل الميلاد ، تعادل عهد سلالة ابلا الملكية .

وسوية تل مرديخ المسماة(IIB_2) التي تعود للطور (ب) من عصر البرونز القديم الرابع ، المؤرخة من حوالي ٢٢٢٥ الى حوالي ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، يقع في نهايتها قيام السلالة الامورية في ابلا .

وهاتان السويتان تقابلان كأفق اثري ، مبدئيا ، السوية (I) والسوية (j) في سهل العمق ، واجمالا السوية (j) في حماة .

ثم ان سوية تل مرديخ المسماة(IIIA) ، التي تعود للطور الاول من عصر البرونز الوسيط ، والمؤرخة من حوالي ٢٠٠٠ الى حوالي ١٨٠٠ قبل الميلاد ، تعادل عهد السلالة الامورية في ابلا ، وكذلك السوية (H) في حماة .

واخيرا ان سوية تل مرديخ المسماة (IIIB) تنتهي حوالي ١٦٥٠ او ١٦٠٠ ، وتقابل قيام الحثيين بالهجوم على ابلا .

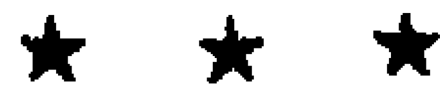
وهذه التواريخ اكدتها ، فضلا عن ذلك ، المكتشفات الحديثة في تل مرديخ التي تضم هدايا من عهد الفرعون خفرع من السلالة الرابعة ، والفرعون بيبي الاول من السلالة السادسة كما اسلفنا(٥) ، وأخيرا الفرعون حوتت رع الذي حكم في فترة ما بين ١٧٧٠ – ١٧٦٠ ق.م .

ومهما كان موقفنا من مسائل التقويم في الشرق فلا بد من ان نعطي لهذه المكتشفات المصرية في ابلا قيمتها التاريخية البالغة ، نظرا لما تقدمه من ايضاحات من اجل تقويم ابلا ، ومن اجل الجدل المزمن حول التقويم الرافدي القصير والطويل(٦) .

وبعد هذه الايضاحات الخاصة بالتقويم ، فان مكتشفات تل مرديخ – ابلا قد اثارت لدى العلماء اتجاهين ، فبعضهم يشد ابلا نحو الرافدين وينزع احيانا حتى الى احتواء سورية الشمالية القديمة كلها في المجموعة الرافدية(٧) ، والبعض الاخر

يبالغ في الالحاح على الاصالة السورية منذ اقدم العصور المعروفة ومنهم الاستاذ ماتييه نفسه. لكن المرء يتساءل : اين كانت الحدود الجغرافية الخاصة بسورية في عصور البرونز (الالفين الثالث والثاني قبل الميلاد)؟ . من الواضح ان ذلك ينطبق على المنطقة المعروفة ببلاد الشام لدى العرب جميعا ، أي الشريط الـذي يمتد غربي الرافدين من الامانوس الى سيناء ، والذي يضم الالاخ ويمحاد وأوغاريت وابلا وحماة وقطنا (تل المشرفة بجوار حمص) ودمشق والمواقع الهامة من فلسطين . واننـا لنجد في هذه المواقع تجانسا كبيرا يتحكم به الوضع الجغرافي ، والدور التجاري ، والمبادلات الاقتصادية . على ان هذه العوامل نفسها تكون هذا التجانس بر فده بتيارات ثقافية تعدل تلك الخصائص التي تميز بها هذا الشطر الشامي من الهلال الخصيب(٨). وفي اعتقادنا ان بلاد الشام تأصلت خصائصها المميزة تلك مع انسياح الاموريين ــ الكنعانيين من الجزيرة العربية وتأسيس ممالكهم اعتبارا من مطالع الالف الثاني قبل الميـلاد .

وعلى اية حال ان ما تقدم يبدو لنا صحيحا في ضوء ما لدينا من معلومات حتى الان . على ان الحقيقة التاريخيةهي محصلة صعبة جدا ، فالحدود السياسية القديمة والحديثة والسلالات ، واحيانا اللغات المكتوبة ، تشوشنا في موضوع الاصل والانتماء.



في هذا السياق العام ، تبدو لنا ابلا اهم مركز مدني سوري في الالف الثالث قبل الميلاد ، مدينة تجارية كبرى تعقد مع العالم المجاور صلات اقتصادية وسياسيـة واحيانا حربية . ولابد ان نفوذها كان كبيرا ، ولكن اراضيها لم تشكل ابدا امبراطورية كبرى(٩) .

وان الميل للمبالغة المفرطة في امتداد تلك الامبراطورية بالاستناد الى تأويـل خاطيء للنصوص (١٠) هو في خطورة التقليل من دور ابلا (١١) .



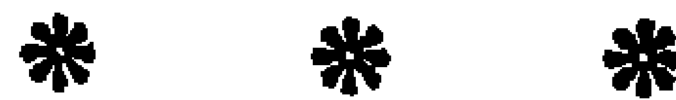
وعلى الضفة اليسرى من الفرات الاوسط ، أعطتنا ، مؤخرا ، مواقع كثيرة اثارا من عصر البرونز القديم (٢٩٠٠ ــ ٢٠٠٠ ق.م) ، ومنها تل شمس الدين الغربي، تل العبد ، تل ممباقة ، تل الجفلة (قرب تل طاوى) وتل حلاوة الجنوبي ..الخ. تلك المواقع التي شملتها حملةانقاذ اثار الفرات قبل انتهاء السد وتشكل بحيرة الاسد(١٢)

والامر نفسه في موقع « ابو ضنة » قرب حلب حيث اظهر لنا سبر طبقي واسع سورا ضخما من عصر البرونز القديم ايضا . وذلك كله يضاف لما كنا حصلنا عليه في اسبار اوغاريت وحفريات سهل العمق وحفريات حماة . ولكن ، في هذه الافاق الاثرية كلها، لا يوجد ــ اثريا ــ مايوازي تل مرديخ الذي يبقى ، وربما لوقت طويل ، خير مصدر لنا عن الثقافة المادية والفكرية في سورية الشمالية خلال النصف الثاني من الالف الثالث قبل الميلاد . ومع ذلك فان ثمة مسألة تتطلب الحل وهي عدم وجود سابقات معروفة حتى الان تسهل معرفة اصول العمارة وفن التخطيط المدني في ابلا . ويتساءل المرء اين نشأ وتطور ما يسمى لدى الاستاذ ماتييه بالمفهوم السوري لعمارة القصر في ابلا ؟(١٣) وهل نأمل ان نجد النموذج الاقدم لهذا القصر في اكروبول المدينة نفسه ؟، أم يجب ان نفتش عنه فيمكان آخر ؟(١٤).



وتبقى اخيرا نقاط اخرى نأمل ان نجد جوابا لها في معاول المنقبين بتل مرديخ ، وعلى رأس تلك النقاط معرفة ابلا بشكل افضل خلال عصر البرونز في اطواره الاول والثاني والثالث ، والفترة ما بين احتلال المدينة من قبل نارمسين ، وتأسيس السلطة الامورية في ابلا . ثم اننا نتمنى ان نصل الى صورة اكثر واقعية لابلا التي احتلها تحوتمس الثالث (١٥). وليس هذا من قبل الامل فحسب ، لان تل مرديخ ــ ابلا عودتنا على المفاجات الاثرية الطيبة . فما كاد العالم يستفيق من مفاجأة المحفوظات الملكية حتى بهرته روعة التحف الامورية(١٦) في قبور الامراء ، في قصر الالف الثاني .

وختاما ، فان ابلا التي يرى فيها البعض امبراطورية منقوشة على الطين (١٧) ، هي بالنسبة للعالم الاثري نبع اثري لاينضب معينه .



الحواشي :

(١) هذا الامر معترف به دوليا . وقد نوه به العالم المنصف ر.بيغس في مقاله الشهير عن ابـلا ورقمها راجع :
R. BIGGS, The Ebla Tablets, Biblical Archaeologist, 43/2, Spring 1980, P. 85.

(٢) وثمة عهود اخرى في الطبقات العليا من عصر الحديد ، وحتى من العصور الرومانية والبيزنطيةوالعربية الاسلامية ، اذ نجد كتابات اموية تذكارية منقوشة على جدران البوابة الجنوبية الغربية .

(٣) P. MATTHIAE, Le palajs royal et les archives d'état d'Ebla proto-syrienne, Akkadica 2, Mars/Avril 1977, p.3.

(٤) على ان هذا المصطلح الخاص بسورية يحتاج لبعض لتعديل وقد نعود له في مناسبة اخرى .

(٥) G. SCANDONE - MATTIHAE, Vasi inscritti di Chefren e Pepi I nel Palazzo Reale (G) di Ebla, « Studi Eblaïti», I. 3/4, p.33-43.

(٦) في راي ليبنسكي ان مكتشفات تل مرديخ تلائم التقويم القريب . راجع مقاله في المجلة التالية :
« Akkadica », 14, (1979), p. 46-47.

(٧) راجع على سبيل المثال : ش
G. BUCCELLATI and M. KELLY BUCCELLATI, « Syro-Mesopotamien Studies.», (May 1977) p. 1 - 2.

(٨) ومن ذلك ان الاثر الاكادي واضح في اعمال النحت والمنقوشات الابلية (العمائم « والبروكات » والوجوه وتنزيل العيون ، وكذلك مواضيع الاختام الاسطوانية) .

(٩) راجع :
A. ARCHI, Ebla according to tests.
وهو عنوان محاضرة القاها في حلب عام ١٩٧٨

(١٠) A. ARCHI, Notes on Eblaite Geography, « Studi Eblaiti», II/1, 1980
H. KLENGEL, the Archives of Ebla and Syrian History, Problems and Effects, colloquium on Ebla, Roma, May, 1980.

(١٠) مثال ذلك ما ذهب اليه بيتناتو في مؤلفه التالي :
G. PETTINATO, Ebla, Un impero incisa nell argilla, Milano 1979, p. 111.

(١١) مثل ذلك المؤلف التالي الذي يجعل من ابلا دولة مدنية صغيرة فحسب :
CH. BARMANT und M. WEITZMANN, Ebla, Neu entdeckte Zivilisation in alten Orient, Frankfurt, 1979, p. 136.

(١٢) راجع دليل معرض آثار الفرات (حلب ١٩٧٤) ، والحوليات الاثرية العربية السورية (العدد ٢٥) ومجلة AASOR الامريكية ـ عدد ٤٤ عام ١٩٧٧ ـ وابحاث ندوة آثار الفرات الاوسط (ستراسبورغ ١٩٨٠) .

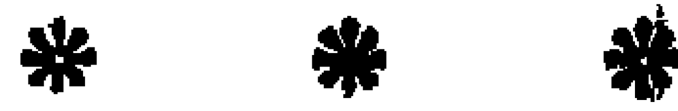
(١٣) P. MATTHIAE, « akkadica », 2, p. 9.

(١٤) يقول روبرت بريدوود منقب سهل العمق ليس لدينا دليل واحد من حفريات حماه وسهل العمق على وجود هندسة معمارية في سورية في طور حماه (I) والعمق (I,J) راجع مؤلفه :
Plain of Antioch, I'p. 533.

(١٥) حاليا تعتقد البعثة الايطالية انها كانت في ذلك الوقت حقلا من الاطلال مع بعض مساكن على الاكروبول راجع :
P. MATTHIAE, Akkadica, 2, 1977, p. 4.

(١٦) P.MATTHIAE, Two Princely tombs at tell Mardikh-Ebla, «Archaeology» vol. 33/2 (1980) p. 9s.

(١٧) اشارة الى كتاب بيتناتو ابلا امبراطورية منقوشة على الطين المذكور في الحاشية رقم ١ من هذا المقال.



المشرق الاسلامي في القرنين الثالث والرابع للهجرة
«عصر الفارابي»

د. نقولا زيادة

المقدمــة

(١)

يكاد يجمع الباحثون المحدثون(١) ، استنادا الى الروايات التي وصلتنا من القدامى(٢)، فيما يتعلق بحياة الفارابي ، على الامور الاتية :

أولا ــ ان الذي نعرفه عن حياة هذا الفيلسوف ، بالنسبة الى مكانته العلمية واثره في تطور الفكر العربي الاسلامي ، ضئيل جدا . فالرجل لم يخلف لنا ترجمــة لحياته ، والذي رواه القدامى ضئيل جدا .

ثانيا ــ اسمه محمد وكنيته ابو نصر ولقبه الفارابي . أما تسلسل اسماء ابائه ففيه خلاف .

ثالثا ــ ولد في مدينة وسيج (٣) من اعمال فاراب ، ومن هنا جاء لقبه . فهو تركي عنصرا .

رابعا ــ توفي الفارابي في دمشق سنة ٣٣٩ (٩٥٠ ــ ٩٥١) وقد ناهز ثمانين سنة ، فيكون مولده اذن حول سنة ٢٥٩ (٨٧٢ــ٨٧٣) .

خامسا ــ ان الفارابي دخل بغداد حول سنة ٣١٠ هـ ، وكان يومئذ يناهز الخمسين(٤) .

سادسا ــ قضى الفارابي نحو عشرين سنة في بغداد ، وفيها وضع اكثر كتبه ، وانتقل سنة ٣٣٠ (٩٤١ ــ ٩٤٢) الى بلاط سيف الدولة الحمداني . ومــن ذلك الوقت ، الى حين وفاته ، كان كثير التنقــل والسفر . فــزار مصر (؟) ودمشق وغيرهما .

---

* بحث مقدم الى مهرجان الفارابي ببغداد .

سابعا – كان الفارابي يعيش عالمه الخاص ، بعيدا عن الاضواء . فلا اتصل ببلاط ، ولا عمل عند سلطان .

وهذا القليل يترك امامنا مجالا لعدد كبير من الاسئلة :

١ – ما الذي تعلمه الفارابي قبل دخوله بغداد واين تعلمه ؟ فالذي يجمع عليه قدامى الرواة انه دخل بغداد وهو يعرف التركية والفارسية . ثم يختلفون في قضية معرفته للعربية . فهل **تعلمها** في بغداد ام انه **اتقنها** في العاصمة العباسية ؟ ليس من المعقول ان يعيش الفارابي خمسين سنة دون ان يثقف نفسه ، والرجل لم يدخل بغداد الا وقد اتصل بالكثير من شؤون المعرفة . والمعرفة ، في ذلك الوقت ، كانت العربية سبيل الحصول عليها . فنحن نأخذ بالراي القائل بان الرجل كان يعرف العربية **متعلما** قبل دخوله بغداد ، ولكن الذي تم له في العاصمة العباسية هو اتقان العربية لاستعمالها **معلما ومؤلفا** . وثمة فرق بين الامرين .

٢ – هل من الممكن تحديد الاماكن التي استقى فيها الفارابي معارفه قبل وصوله بغداد ؟ اذا كان الفارابي ولد في فاراب في حوض نهر سيحون (سرداريا) ، وتنقل حتى وصل بغداد ، فالمنطقة التي تنقل فيها تشمل رقعة واسعة تمتد من بلده ، عبر ما وراء النهر وفارس . وقد كان في هذه الرقعة مدن مختلفة فيها مدارس وشيوخ ومدرسون .

٣ – من هم شيوخ الفارابي واساتذته في هذه المنطقة وفترة العقود الاولى من حياته ؟ ولا شك ان الاجابة على هذا السؤال صعبة ، ان لم تكن مستحيلة ، على اساس ما بين أيدينا من المصادر .

وفي سبيل محاولة توضيح بعض الامور المتعلقة بالسؤال الثاني اولا ، والسؤال الاول ثانيا ، نود ان ندرس عصر الفارابي زمانا ومكانا ، أي من ناحيتيه التاريخية والجغرافية . ونحن نستميح القراء العذر ان نحن اطلنا في ذلك . اذ لابد من التعرف الى المنطقة والفترة والمجتمع (او المجتمعات) التي عاصرها الفارابي ، ولا نشك في انه اتصل بها .

ولنبادر الى القول بان المنطقة التي تعنينا بشكل خاص باديء بدء هي التي سماها الجغرافيون العرب ما وراء النهر وخراسان ، والتي تضم اليوم جمهوريات ازبكستان وتركمنستان وخزكستان في الاتحاد السوفييتي ، والجزء الغربي من افغانستان ، والجزء الشرقي من ايران .

القسم الاول

(٢)

تكون المنطقة التي حددنا رقعة اتصال بين الشرق (الصين والهند) والغرب (من ايران الى البحر المتوسط) وبين الشمال ، حيث كانت تقوم قبائل رحل متنقلة هي التي اطلق عليها الترك والمغول (وثمة اجزاء منها لا تزال كذلك) والجنوب الذي غلبت عليه ، منذ الاف السنين ، حياة مستقرة مدنية . واذا كان سكان الشمال يعتمدون الرعي أساسا لمعيشتهم ؛ فقد كان سكان الجنوب يرتكزون على الزراعة في ذلك . وقد كان لكل من الفريقين صناعاته الخاصة به .

وبسبب من وقوع هذه المنطقة في مركز الاتصال ، فقد كانت دوما على الطريق ، وكانت التجارة تعبرها من جميع الجهات . ومع التجارة كانت تنتقل عناصر حضارية مختلفة .

الا أن التجارة لم تكن السبيل الوحيد لنقل العناصر الحضارية . ذلك ان الدول والامبراطوريات التي قامت في الرقعة الكبيرة الممتدة من البحر المتوسط الى تخوم هندكوش والبامير ، ومن الخليج العربي الى بحري قزوين (الخزر) وآرال ، هذه الدول والامبراطوريات كانت عاملا قويا في توسيع رقعة الحضارة ، حتى قبل قيام الدولة العربية الاسلامية .

ولسنا نريد أن نوغل في مجاهل التاريخ القديم جدا ، اذ لا حاجة بنا الى ذلك . والذي نريد ان نفعله هنا هو ان نضع امامالقارىء جدولا تاريخيا بالدول التى كان لها تأثير في المنطقة ، ثم ننتقل بعد ذلك الى تتبع ما عرفته المنطقة من تطور حضاري نتيجة لقيام هذه الدول وما حملته معها الى المنطقة ومنها .

١ ــ والدولة الاولى الحرية بعنايتنا هي الامبراطورية الفارسية القديمه التي قامت في اواسط القرن السادس واستمرت الى اواخر الرابع ق.م لما قضى عليها الاسكندر . وقد شملت رقعة هذه الدولة ايران الحالية وجزءا من افغانستان اليوم ومنطقة ما وراء النهر (نهر جيحون او اموداريا) ، هذا فضلا عن ان هذه الدولة شملت ارض الرافدين وديار الشام ووادي النيل غربا .

٢ ــ توغل الاسكندر ، بعد قضائه على امبراطورية الفرس ، في منطقة ما وراء النهر (٣٣٠ ــ ٣٣٧ ق.م) وكان من جراء ذلك أن ضمت تلك الارجاء القاصية الى

امبراطوريته ، التي توزعها بعده خلفاؤه ، فكانت المنطقة التي يهمنا امرها الان جزءا من الامبراطورية التي اقامها سلوقس سنة ٣١٢ ق.م ، بعد نزاع طال امده بين خلفاء الاسكندر ، والتي امتدت من المتوسط الى حدود الهند. الا ان هذه الامبراطورية الواسعة خرج عنها ، مما يهمنا امره ، جزءان ، أولهما بارثيا (او فرثيا)التي نشأت عنها دولة الفرثيين القوية (٢٥٠ ق.م ــ الى ٢٢٦ م) والتي حكمت اخيرا ايران وبلاد الرافدين وكانت عاصمتها اصلا نيسا (هيكاتومبوليس ؟) واخيرا ضمت دولتهم منطقة الصغد من ما وراء النهر . وانتقلت العاصمة فيما بعد الى مكان على مقربة من المدائن . اما الجزء الثاني فقد كان بكتريا ، التي ظلت اغريقية عرشا وادارة ، التي شملت المنطقة الممتدة من مرو الى البامير ومن سمرقند الى هندكوش . وهذه الدولة ظهرت ايضا سنة ٢٥٠ ق.م الا ان امرها انتهى حول سنة ١٤٠ ق.م . وكانت بكترا (بلخ) عاصمة هذه الدولة .

(٣) كان الدور الان للمنطقة الشمالية الشرقية التي دفعت بجماعات من رعاتها المعروفين باسم يوي ــ تشي (Yue-che) جنوبا ، وكان نتيجة هذه التحركات المتتابعة القضاء على دولة بكتريا حول سنة ١٤٠ ق.م ومع توزع هذه الجماعات في جهات مختلفة قامت دولة كوشان التي بلغت ذروتها في القرنين الاولين للميلاد ، وكان اكبر ملوكها كاشنكا (١٢٠ ــ ١٤٠ م) .

(٤) بين سنتي ٢٢٦ و ٦٤٢ م سيطرت الدولة الساسانية على المنطقة الممتدة من ارض الرافدين الى حدود افغانستان ونهر سيحون (سرداريا) . وقد قام الهطل (**Hephthalites**) ، وهم قبائل من الترك والمغول الشرقيين بالهجوم على الجزء الشرقي من الامبراطورية واسسوا لانفسهم دولة على شيء من المنعة (اواسط القرن الخامس) الا ان جماعة من الاتراك الغربيين هاجمتهم من الشمال ، والساسانيين اعادوا عليهم الكرة من الغرب ، فقضوا عليهم . لكن الاتراك الان اقاموا لانفسهم ملكا فيما وراء النهر .

هذه هي التجربة التاريخية العسكرية السياسية التي مرت على المنطقة المعني بها الان في الاثني عشر قرنا التي سبقت الفتح العربي لتلك الجهات(٥) .

(٣)

الا ان المهم ليس ما تم هناك من حروب وقتال وقيام دول وذهابها ومعاهدات ومحالفات . المهم في رأينا هو التجربة الحضارية التي عرفتها المنطقة في هذا الزمن المديد . وهذا ما نود ان نعرض له الساعة .

أولا : تذكر النقوش التي خلفها دارا الكبير على المباني التي شادها في سوسة عاصمة ملكه على انه جلب الذهب من بكتريا واللازورد والعقيق الاحمر من بـلاد الصغد والفيروز من خوارزم . وهذا دليل واحد فقط على مدى الاهتمام بالتجارة ــ ونقصد التجارة البرية الشرقية ــ الذي نجده عند الفرس القدماء . وكان معنى ذلك الاهتمام بالطرق ايضا . ففي حدود الامبراطورية نفسها كان ثمة « الطريق الملكي » المتد من افسس ، في غرب اسية الصغرى ، الى سوسة والذي بلغ طوله نحو ٢٥٠٠ من الكيلومترات ، والطريق الاطول الذي كان يصل بابل بهمدان (اكبتانا) وكابل (هذا بالاضافة الى طرق ثانوية) والطريقان الرئيسيان كانا يصلان الامبراطورية الفارسية بالطرق الشرقية الى الهند من جهة ، والى مناطق حوض تاريم (والصين) . وكانت السلطة المركزية ، على الاقل في ايام بعض ملوك تلك الاسرة ، قوية منظمة : فقد كان ثمة مفتشون ينتقلون الى الولايات المختلفة للاطلاع على الادارة والمحافظة على الطرق ومراقبة الاعمال والمشاريع المختلفة .

وحري بالذكر ان التجارة الخارجية الفارسية ــ شرقا وشمالا ــ كانت واسعة ومنوعة . فالمتاجر المختلفة كالخيول والجمال والابقار والصوف والجلود كانت تصل ايران عبر المنطقة التي يعنينا امرها . ولعل النحاس وامورا اخرى كانت تنقل من ايران الى المنطقة المذكورة . ومن المرجح ان الحرير كان معروفا في ايران في القرن الخامس ق.م . ومعنى هذا وجود تبادل تجاري مع الصين .

ثانيا : كان ثمة اهتمام بالمشاريع الزراعية . ولعل اهم ما نقله الفرس القدامى الى شرق الامبراطورية وولاياتها الشرقية الشمالية هي القنى المحفورة في جـوف الارض (وتسمى واحدتها قناة او كارز) . وهذه القنى ، فضلا عن انها قد تنقل المياه ، فانها تسمح للتربة الكلسية ان ترشح المياه منها بشكل بطيء ثم تتجمع ، او تنضم الى المياه الاخرى ، وتصبح كسبا للزراعة والزراع .

يضاف الى ذلك أن الامبراطورية القديمة قامت بدور انتقال النباتات مـن الشرق الى الغرب . ومع ان القضية لم تدرس بشكلها النهائي ، فان الباحثين يؤكدون مثلا على ان الدراق والمشمش وصلا الاصقاع الايرانية ، في طريق انتقالهما مـن الصين ، في ايام دارا الكبير . ويبدو ان الارز وصل حتى بلاد الشام قبل وصول حملة الاسكندر اليها ، وان نقله من مشارف الهند الى هذه المناطق هو من عمـل الامبراطورية ، كما ان انتاج الفستق نقل الى حلب ، والسمسم حملت زراعته الى مصر . ولعل الدجاجة والطاووس يعود وصولهما الى الغرب الى هذه الامبراطورية .

ومما هو هام جدا هو أن الفرس القدامى نقلوا عن مملكة ليديا (في اسية الصغرى) سك النقود . وهذا الامر اتاح لهم ادخال عنصر النقد في الاقتصاد ، سواء كان ذلك في دفع الضرائب ام في التبادل التجاري . وهذا ، بدوره ، شجع الصيرفة . ومما هو جدير بالاهتمام هو ان الامبراطورية الفارسية القديمة ، باتصالاتها التجارية المختلفة الاتجاهات والنشاطات ، شجعت لا التجارة في السلع الثمينة فحسب ـ مثل البخور العربي والحرير الصيني والكتان المصري والبهارات والطيوب الهندية ـ بل انها فتحت الابواب الواسعة امام المتاجرة في الاشياء التي يحتاج اليها الناس عادة مثل الحبوب والاقمشة الرخيصة والفخار (٦) .

ثالثا : كان احتلال الاسكندر للمنطقة التي تعنينا وقيام دولة يونانية ـ بكترية ودولة سلوقية ، مدعاة لانتقال الحضارة اليونانية وما فيها من اراء وفنون الى تلك المنطقة . ولا بد من ان نذكر ان الاسكندر انشأ عددا من المدن في الجهات التي فتحها منها الاسكندرية في اريانا (اريجانا) (هراة فيما بعد) والاسكندرية التي اقامها على نهر سيحون (سرداريا او جكسارتس) . وتبع خلفاؤه سنته في انشاء المدن . وقد ذكر بارتولد ان المدن التي حملت اسماء الاسكندر وانطيوخوس وسلوقس وغيرهم كثيرة . فهناك انطاكية شمالي سرادريا (سيحون) ومدينتان بنفس الاسم في حوض مرغاب وهما اللتان اصبح اسمهما فيما بعد مرو الروذ ومرو الشاهجان(٧) . وهذه المدن كان سكانها يتألفون ـ بالاضافة الى من قد يقطنها من اهل البلاد الاصليين ـ من اليونانيين الذين كانوا يرافقون الجيوش اليونانية (ايام الاسكندر وخلفائه) والجماعات اليونانية التي نقلها الاسكندر من مصر واسية الصغرى الى تلك الجهات ومن التجار اليونان الذين ساروا على خطى رجال الحرب ليفيدوا من وجودهم هناك . وفي ايام الدولة الساسانية كان الاسرى من الدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية) يوزعون على المدن هذه وغيرها .

في هذه المدن الحديثة ، وفي سواها من المدن القديمة ، تطورت الصناعات بدافع مما حملته الحضارة الهلينية الى تلك الجهات . واصبح الفن تظهر فيه مؤثرات يونانية ، حتى في بلاد ما وراء النهر(٨) .

رابعا : نعرف من رحلة تشانغ تشئين (Chang Ch'ien) التي قام بها في عهد وو-تي امبراطور الصين (١٤٠ ـ ٨٧ ق.م) ومن الحملات التي ارسلها هذا الملك لتامين الحصول على خيول فرغانة اللازمة لجيوشه امورا اهمها : أن الاتصال بين الصين الشمالية وشمال ايران كان معروفا وان كان الطريق غير مضمون دائما . وهذا الطريق كان يبدأ من شمال الصين وبعد ان يجتاز مدينة انسي كان يتفرع

الى طريق شمالي واخر جنوبي . وهذا كان ضروريا لتجنب صحراء تكلا مكان . فالشمالي كان يمر بواحات اهمها طرفان وكوشا حتى يصل كشغر . والجنوبي كان يمر براحات نيا وخوطان ويركند الى كشغر . اما التفرع بعد كشغر الى الغرب فكان يصل الى الكثير من مدن ايران وارض الرافدين . وهذا الطريق ، مع زيادة في المراكز والمحطات ، واهتمام اصحاب الامر به ، ظل المحور الرئيسي للتجارة بين الصين وما وراء النهر وخراسان حتى مطلع القرون الحديثة(٩) .

خامسا : في أيام الدولة الفرثية ظهرت امور هامة تتعلق بالكتابة والادب كان لها تأثير في الحياة الثقافية في المنطقة . فقد كانت الارامية مستعملة في الامبراطورية الفارسية القديمة منذ القرن الخامس ق.م ، الى جانب كتابة ايرانية حروفها مأخوذة عن الارامية (اما مباشرة او بالوساطة) . مع مجيء الاسكندر واليونان انتشرت اللغة اليونانية (والقانون اليوناني) في كثير من المدن . واستمرت اللغة اليونانية لغة رسمية ، للنقوش والنقود وغير ذلك ، في ايام الفرثيين . ومن هنا كان ثمة اثر يوناني مباشر في الحياة الادبية . واذا تذكرنا ان الزرادشتية بعود ظهورها الى ايام هذه الدولة ، كان معنى هذا تمازج في الاداب الدينية المعروفة والمتلاحمة في تلك المنطقة ، البوذية والزرادشتية والاساطير اليونانية واخبار الابطال الاسطوريين من شمال ايران نفسها وغيرها . وكل هذا كان ينقله الشاعر ــ المغني(١٠) .

سادسا : في ايام دولة بني ساسان كان ثمة احياء وتقوية وتنظيم للتجارة عن طريق تحسين الطرق القديمة وزيادة الخانات (الفنادق) في الطرق والعناية بالابار وتجميع المياه واقامة مراكز التعشير اي المراكز الجمركية . فضلا عن ان الساسانيين وضعوا حدا ، ولو موقتا ، للهجوم الشمالي وبذلك حافظوا على الامن ، وهذا يسر للتجارة الجو المناسب(١١) .

وما دمنا نشير الى العمران الساساني ، فلنذكر ان اردشير وشابور ، وهما اول ملكين من الاسرة الجديدة ، كانا شديدي الاهتمام بتمصير المدن . وقد عدد فراي سبعا وثلاثين مدينة في الامبراطورية الساسانية بنيت او عمرت او وسعت او اصلحت او سورت في عهدهما(١٢) . وكان الملك الثاني ، شابور ، قد انتصر على الرومان مرات ، وكان يبعث بالاسرى لاستيطان المدن والاهتمام بها عمارة وفنا وتسويرا .

سابعا : يبدو ان البوذية وصلت الصين في القرن الاول الميلادي ، وزاد انتشارها مع الزمن ، بحيث ان الكثرة من السكان كانت ، في القرن الرابع ، تدين بالبوذية . وقد ظل اتباعها يعتبرون الهند المحجة الروحية لهم . ولابد ان كثيرين من بوذيي

الصين زاروا الهند للتزود بالكتب المخطوطة واثار كبار البوذيين ، لكن الزمن حفظ لنا روايتين لرحالين صينيين زارا الهند . اولهما فا ـ هسين (Fa-hsien) الذي بدأ رحلته سنة ٣٩٩ م والثاني هو هسوان ـ تسانغ (Hsuan-tsang)الذي بدأ برحلتـه سنة ٦٣١ م . ولسنا ننوي هنا ان نتابع هذين الرحالين في تنقلهما ، فذلك أمر يطول ، ولكننا نود ان نشير الى بضعة امور مرتبطة بالحياة الثقافية في المنطقة التي نعنـى بهـا الان(١٣) .

فمن ذلك ان المدارس التي تعنى بتعليم البوذية كانت متعددة ، ولم تقتصر على التعليم الديني بل كانت مراكز للرياضيات والفلك . وكانت الثقافة السنسكريتية عميقة الجذور في اماكن مختلفة (اوديانا في الهند وكوشا وكشغر) . وكان سـكان خوطان يقدرون اهل المعرفة والبحث ويحبون الموسيقى(١٤) .

ويبدو انه كان في بخارى دير ـ مدرسة(١٥) .

اما الصناعات ، وخاصة ما يتعلق بالاقمشة على اختلاف انواعها وصناعة المعادن ، فقد بلغت حد الاعجاب عند رحالينا .

والذي نود ان نقوله هو ان هذه المنطقة كان قد مر عليها ، منذ قيام الدولة الفارسية الاولى حتى انقضاء دولة الساسانين تجارب حضارية هيأتها للقيام بدور هام كنقطة اتصال بين الصين وتركستان وايران والهند وما يجاور هذه كلها مـن بلاد وشعوب .

(٤)

نود ان نضع بين ايدي القراء ملاحظ مقتضبة تتعلق بالحياة الفكرية والثقافية في المنطقة . على ان هذا يقتضي ان تحمل امورا تتعلق بغرب ايران وارض الرافدين وبلاد الشام ، اذ ان الكثير مما عرف طريقه الى الشرق والشمال الشرقي من دولة الساسانيين كانت المناطق الغربية نقطة انطلاقه .

اولا : في الفترة الممتدة من القرن الرابع الى اواخر القرن السادس للميلاد كانت للاسكندرية مكانة خاصة في الحياة العلمية ، في الطب والفلسفة والرياضيات ، هذا فضلا عن نواح متعددة من اللاهوت المسيحي . وكان هناك مدرستان تشاركان الاسكندرية شيئا من مكانتها هما انطاكية وغزة . والمتعارف عليه ان المناهج التعليمية في انطاكية كانت ، بدءا من القرن الرابع ، تقليدا للمناهج الاسكندرية .

ثانيا : في القرن الرابع انشئت في نصيبين مدرستها الاولى التي كانت تعنى بالدراسات اللاهوتية . الا انه مما يجب ان يذكر دوما هو ان الدراسات اللاهوتية ، سواء في ذلك النسطورية او اليعقوبية ، كانت تعتمد نواحي من المنطق (والفلسفة) اليوناني في تفاسيرها وتلاحيها وجدلها . ومن ثم فقد كان هناك حركة ترجمة الـى اللغة السريانية لما يحتاجه القوم من المنطق والفلسفة عند اليونان . هذه المدرسـة مرت بها ، في اواخر القرن الرابع او اوائل القرن الخامس ، فترة ضعف ، بحيث اننا لا نرى الكثير من آثار معلميها العلمية . لكنها عاد اليها نشاطها في اواخر القرن الخامس . وظل علماؤها يشتغلون بالامور اللاهوتية والترجمة طوال القرن السادس وحتى الى القرن السابع .

ثالثا : كان في ادسا (الرها) مدرسة تعود الى القرن الرابع . وقد اصبحت هذه المدرسة منذ القرن الخامس مركزا علميا كبيرا لنشر المعرفة بحيث تخرج منهـا عدد كبير من الاساقفة والادباء والعلماء . وقد كان بعض اساتذة نصيبين قد انتقلوا اليها ايام تقهقر حالة هذه المدرسة الاخيرة . وفي هذه المدرسة ازدهر الادب السرياني من حيث انه ادب ترجمة وادب ديني وادب شعري ونثري فني واسطوري . الا ان هذه المدرسة ، التي كانت نسطورية في مذهبها الديني ، لم يرض عنهـا الاباطرة البزنطيون دوما . لذلك امر الامبراطور زينون باغلاقها (٤٨٩) . عندها هاجـر اساتذتها الى نصيبين التي كانت تقع في الامبراطورية الساسانية . وتعتبر هجـرة هؤلاء بمناسبة احياء فعال لمدرسة نصيبين على ما نجده في قوانينها الجديدة (٤٩٦). وهذه المدرسة ظلت تقوم بعملها العلمي الكبير حتى القرن السابع للميلاد . ومن هنا كانت الاسقفيات النسطورية المختلفة تزود باساقفتها ، كما كانت المدارس النسطورية في الدولة الساسانية تزود باساتذتها منها . وقد كان في مدرسة نصيبين في اواخـر القـرن السادس نحو ٨٠٠ تلميذ .

رابعا : ان المنازعات الدينية بين اليعاقبة والنساطرة كانت خيرا على الحركة العلمية في المراكز المختلفة . وكان للنساطرة نشاط تبشيري اقوى في الجهات الشرقية من الامبراطورية الساسانية . فقد كانت مرو منذ اواخر القرن الخامس مركزا لاسقفية نسطورية . وفي سنة ٥٤٠ عين ثيودور (النسطوري) اسقفا (أي مطرانا) لمرو . وكان في مرو اكاديمية علمية دينيـة ، مع مايقتضي ذلـك مـن الاهتمـام بالعلوم الدنيوية المساعدة كالمنطق والفلسفة ، والنافعة كالطب والرياضيات . كذلك كان في كل من سلوقية وحران ومنبج وحمص مدرسة واحدةعلى الاقل . وقد انتشرت الثقافة اليونانية بين اهل حران حتى ان جيرانهم اطلقوا على مدينتهـم اسـم « هيلينوبولس » (ومعناه مدينة الهلينيين) ، وكان يقصد بذلك « المدينة الوثنية » .

خامسا : مع ان كسرى (٥٣١ ــ ٥٧٨) كان يشن الغارات والحروب ضد البيزنطيين ، فقد كان معجبا بالحضارة اليونانية الرومانية . وكان حريصا كل الحرص على ان يدخلها الى بلاده فهو الذي استضاف سبعة من الفلاسفة اليونان لما اقفل جستنيان مدرسة اثينا سنة ٥٢٩ . (ولكن هؤلاء لم يألفوا الجو الجديد ففضلوا العودة الى بلادهم ٥٣٣) . الا ان ذلك لم يحل دون كسرى وتجديد السعي لانشاء اكاديمية يونانية الصبغة على غرار اكاديمية الاسكندرية في بلاده ، وانتهى به الامر الى انشاء اكاديمية جنديسابور . وقد نقل اليها المنهاج الاسكندري في الطب والرياضيات . ولعله من الممكن ان هذا المنهاج قد نقل اما عن مدرسة انطاكية او عن مدرسة حمص ، وكانت كلتاهما قد نقلتا منهاج الاسكندرية . على انه ليس ما يمنع من ان يكون النقل قد تم عن طريق العلماء الذين رحلوا من الاسكندرية الى بلاد الشام او ارض الرافدين . وحري بالذكر ان تعليم الطب في جنديسابور كان يقوم على الملاحظة العملية (السريرية) في المستشفى ، على النحو الذي انتشر فيما بعد في الدولة العربية الاسلامية .

سادسا : اشرنا من قبل الى وجود اكاديمية (مدرسة) نسطورية في مرو . ونود ان نشير هنا الى بعض المدن التي وصلتنا اخبارها واخبار مدارسها . فمنها ريشهر وشيز (في اريجانا او اريانا) . ويبدو ان الاولى كان فيها مكتبة ضخمة . وكانت بلخ مركزا دينيا كبيرا للبوذية وللزرادشتية ، مع ما يرافق ذلك من اديرة ومدارس ورهبنات وتعليم . وقد كان في مدينة خوارزم وما حولها زرادشتيون ومسيحيون نسطوريون اصلا (وان كان هناك بعض الارثوذكس) وبوذيون . ويرى الباحثون ، مما ذكره البيروني ، ان بقايا قوية من الحضارة الايرانية كانت تتناقل هناك ، وان كنا لم نحصل على آثار مكتوبة لها . وكانت بخارى في ايام الزرادشتيين تعتبر بانها « مثابة العلوم كلها » .



يتضح من هذا العرض المقتضب للتجربة السياسية والحضارية والثقافية التي بلتها المنطقة التي حددناها في مطلع هذا الحديث ، والتي كانت تشمل في المصطلح الجغرافي العربي خراسان (الشرقية) وبلاد ما وراء النهر ، بالمعنى الواسع لهذا التعبير ، انها ــ على العموم ــ كانت تفيد من حالات الاستقرار والامن ، فتقوم فيها المدن الكبرى ، وتنشط فيها الزراعة والصناعة والتجارة ، وتتعرف الى المنجزات الحضارية التي تصل اليها من الصين والهند والفرس واليونان ، وتتصل بالحركات الفكرية المرتبطة بالاديان التي انتشرت فيها كالبوذية والزرادشتية والمانوية والمسيحية وقد عرفت تيارات متنوعة . ومع انها كانت تتعرض كثيرا الى قيام دول من الشرق والشمال تطغى عليها ، او تهاجمها جماعات من رعاة السهوب الشمالية فتعزل بعض

اجزائها ، الا ان ذلك كله لم يمنع المؤثرات الخارجية ان تتوطن فيها وتنتج فنونا وصناعات محلية متأثرة بالاتي من الخارج(١٦) .

(٥)

لما اتيح للعرب ان يفتحوا تلك البقاع وتستقر لهم دولة ، وينتشر الاسلام في اجزائها ، اصبحت تلك المنطقة جزءا من الدولة العربية الاسلامية ، واتسعت المجالات امامها بحيث استطاعت ان تسهم اسهاما كبيرا في المنجزات الحضارية الجديدة . واصبح اتصالها بالاجزاء الغربية من الدولة الجديدة لا يحول دونه حائل . وعندئذ اصبح دورها ، كنقطة للاتصال مع الصين والهند ، اوسع مدى وابعد اثرا ، ومصرت فيها مدن جديدة ، كما عمرت مدن كانت قد تضررت بسبب الاحداث المنوعة . وهذا هو ما نريد ان ننتقل الى الحديث عنه الان .

بعد معركة نهاوند (٦٤٢/٢١) انهارت المقاومة الساسانية المنظمة ، ووجد يزدجرد (الثالث) آخر ملوك بني ساسان نفسه شريدا ، واقتصرت المقاومة للجيوش العربية على جيوب محلية ، لكنها لم تكن ، في غالب الاحيان ، شيئا يذكر . وقد تم النصر الاولي في خراسان بسبب قيام جيشين عربيين اتجها نحو تلك المنطقة في وقت واحد . ففي سنة ٦٤٩/٢٩ سارت قوة من الكوفة بقيادة واليها سعيد بن العاص متخذة طريق همذان والري قاصدة جرجان وخراسان ، كما خرجت في الوقت نفسه قوة من البصرة بقيادة اميرها عبد الله بن عامر متجهة الى واحة طبس عبر فرس وكرمان . وعلى يد هذين القائدين تم الاستيلاء على نيسابور وسرخس وطوس وهراة ومرو . وسار الربيع بن زياد الى سيستان (سجستان) واستولى عليها . ونجح الاحنف بن قيس في فتح بلخ .

الا ان الخلاف الذي نشب في الدولة بين سنتي ٣٥ و ٤٠ (٦٥٦ — ٦٦١) ادى الى التراجع من خراسان وضعف في السيطرة على الامور في تلك الجهات . على انه ما كاد معاوية يتولى الخلافة حتى عاد النشاط هناك الى ما كان عليه . ولما ولي زياد بن ابي سفيان البصرة ، قسم خراسان الى اربعة ارباع سمي كل منها باسم المدينة الرئيسة فيه وهي : نيسابور وبلخ ومرو وهراة . ولما عين عبد الله بن زياد على خراسان عاد التقدم العربي الحربي الى سابق زخمه فجازت جيوش العرب نهر جيحون (اموداريا — اكسوس) وتغلبوا على حاكم بخارى . وتذكر بعض الروايات ان امراة تسمى « خاتون » هي التي كانت تحكم المدينة يومها . واستمرت الغزوات

في ما وراء النهر بقيادة مسلم بن زياد (ولي الامر في سنة ٦١/٦٨١) فقاد حملات موفقة ضد خوارزم ، ثم وصل الى سمرقند .

وقد اضطرب امر الفتوح ايام الخلاف بين الخليفة عبد الملك وعبد الله بن الزبير (٦٤ — ٧٣/٦٨٣ — ٦٩٢) لان اثر الخلاف وصل الى القبائل العربية التي استقرت في خراسان . ومع ذلك فقد استولى موسى بن عبد الله على ترمذ على شاطىء جيحون الشمالي . فلما عاد السلام الى الدولة بعث الخليفة المهلب بن ابي صفرة الى خراسان الذي جاز النهر الى كش (شهرسابز) ونسف (نخشاب) . ولما توفي المهلب ولي ابنه يزيد مكانه . الا ان العمل الحربي المنظم في بلاد ما وراء النهر تم على يد قتيبة بن مسلم الذي تمكن من فتح المنطقة بشكل منظم ، وارسى الجند العربي في الشاش (طشقند) شمالي نهر سيحون (سرداريا ـ جاكسارتس) ومنها هاجم اسفيجاب . وفي الوقت ذاته استولى اخوه عبد الرحمن على دولة خوارزم . وقد قضى قتيبة نحبه في تلك الانحاء .

وقد توقف العمل العسكري هناك بعد وفاته ، وبدأت دعوة ابي مسلم تشغل الناس ، كما ان قبيلة من الاتراك تسمى ترغش قامت شمال نهر سيحون وقاومت الفتح العربي ، بل لعلها استرجعت اكثر المناطق الواقعة خلف نهر جيحون . لكن امور ترغش اضطربت ، فلما ولي الامر نصر بن سيار (١٢٠/٧٣٧) استرجع المنطقة وفرض فيها النظام والامن .

وفي الوقت الذي كان ابو مسلم يعد الجيوش في خراسان ضد الامويين ، كانت قوى صينية تقاتل العرب في ما وراء النهر . لكن زياد بن صالح ، الذي تولى الحرب بعد قيام الدولة العباسية نجح في رد هؤلاء على اعقابهم وتغلب عليهم في معركة الطراز الفاصلة (١٣٤/٧٥١) ، بحيث لم يتدخلوا بعدها في شؤون ماوراء النهر . وقد كان من اثار هذه المعركة ان الاسرى الصينيين علموا اهل سمرقند صناعة الورق ، الذي شاع استعماله بعد ذلك بدل الرق والبردي .

على ان مما يلفت النظر ان هذه المنطقة التي نتحدث عنها كان حكام بعض اجزائها اول من انتزعوا السلطة محليا وادارو البلاد ادارة مستقلة ، ولو ان غالبهم ظلوا يعترفون بخلافة بغداد ولو اسميا .

وكان اول من اسس واحدة من هذه الدول طاهر بن الحسين الذي كان قائد جيش المأمون في خلافه مع اخيه الامين . فلما انتصر المأمون ولاه خراسان فانفرد بامرها . وحكمت هذه الدولة من سنة ٢٠٥ الى ٢٥٩ (٨٢١ — ٨٧٣) . وكانت

العاصمة اولا مرو ، لكنهم نقلوها فيما بعد الى نيسابور . وقد قلد الامراء الطاهريون عاصمة الخلافة فاتخذوا لهم بلاطا وشجعوا العلماء والشعراء .

وثمة دولة اخرى انشأها يعقوب بن ليث الصفار (٨٦٧/٢٥٣) في سجستان ودام امرها الى ٢٩٨ (٩١١) اذ استولى عليها السامانوين . اما ما حدث لامرائها بعد ذلك فليس يعنينا امره من الناحية السياسية . الا ان هؤلاء القوم كان منهم من عني بالعلم والعلماء واشهرهم خلف بن احمد الملقب بولي الدولة (٣٥٢ — ٩٦٣/٣٩٣ — ١٠٠٣) .

على ان اهم الدول التي قامت في المنطقة التي نعنيها هي الدولة السامانية (٢٠٤ — ٨١٩/٣٩٥ — ١٠٠٥) . وكانت بخارى عاصمتهم مركز طرق القوافل الاسيوية ، وكعبة للعلم في تلك الديار .

لسنا نود ان نؤرخ للدول التي قامت في ظلال الخلافة العباسية ، فليس ذلك مما نعنى به الان . ولكن لابد من الاشارة الى دولة الحمدانيين وذلك لارتباط سيف الدولة بحياة الفارابي . والدولة الحمدانية كانت في الموصل اصلا ، لكن الذي يهمنا منها هو اقامتها في حلب (٣٣٣ — ٩٤٥/٣٩٤ — ١٠٠٤)(١٧) .

القسم الثاني

ملاحظ تمهيدية

(٦)

قبل ان ننتقل الى وصف المنطقة جغرافيا واقتصاديا على ما كانت عليه في عصر الفارابي ، نود ان نضع النقاط التالية امام القراء .

اولا : الصورة التي ننوي ان ننقلها الان منتزعة اصلا من ثلاثة من الجغرافيين البلدانيين العرب وهم ، على ترتيب الزمن الذي صنفوا فيه ، الاصطخري صاحب كتاب « المسالك والممالك » (كتب بين ٣١٨ و ٩٣٠/٣٢١ و ٩٣٣) وابن حوقل ، الذي وضع « صورة الارض » (الف كتابه في النصف الاول من القرن الرابع/العاشر) والمقدسي مؤلف « احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » (٩٨٣/٣٧٥) . الا اننا لن نغفل اولئك الذين سبقوهم من المسالكيين مثل ابن خرداذبه (تو حول ٨٨٥/٢٧٢) واليعقوبي (تو حول ٨٩١/٢٨٨) وابن رسته (تو بعد ٩٠٣/٢٩٠) وقدامة بن جعفر (تو بعد ٩٢٢/٣١٠) .

ثانيا : من الواضح ان ابن حوقل والمقدسي توفيا بعد الفارابي ، لكن المعلومات التي يقدمانها لنا فيها ما يعكس العقود الاولى من القرن الرابع الهجري (القرن العاشر الميلادي) ، اي انها معاصرة لبعض عقود من حياة المعلم الثاني .

ثالثا : الغاية من تفصيل الصورة الجغرافية الاقتصادية هو توضيح المنطقة التي ولد فيها الفارابي وعاش قبل ان يدخل بغداد . وسنرى ان مدنا كثيرة من هذه المنطقة كانت غنية ، اذ احتفظت بالكثير من التقاليد الزراعية والتجارية والصناعية القديمة التي سارت الى الامام حين استقرت امور الدولة العربية الاسلامية . كما ان هذه المدن احتفظت بتقاليدها من حيث الاهتمام بالعلم والثقافة ، وان كانت هذه ، بطبيعة الحال ، قد صبغت بالصبغة العربية الاسلامية ، بسبب انتشار الاسلام هناك .

رابعا : ستمر بنا ، في هذه الوصف الجغرافي ، فيما يتعلق بالمدن المذكورة هناك ، ان بعضا من تلك المدن الكبرى كانت تتكون ، من حيث طوبوغرافيتها ، من الاقسام التالية : المدينة والقهندز (القلعة) والربض . والاول هو المدينة الداخلية ، والثاني حصن المكان وقلعته والثالث ما يحيط بالاثنين (غالبا) ، وهو ضواحي المدينة . وقد يكون للمدينة سورها الخاص وللقهندز سور خاص ، وقد يحيط بالمدينة والقهندز والربض سور خارجي . وثمة عناصر ثلاثة هامة توجد في المدن وهي المسجد الجامع ودار الامارة (في الحواضر) والحبس . وهذه تكون في المدينة غالبا ، لكن الحبس قد يكون داخل دار الامارة(١٨) .

خامسا : البلدانيون الثلاثة لا يتفقون تماما على تحديد كل من خراسان وما وراء النهر . فالاصطخري وابن حوقل يعتبران بلاد الختل من خراسان(١٩) . فيما يعتبر المقدسي المنطقة كلها (اي خراسان وما وراء النهر) اقليما واحدا يسميه اقليم المشرق ؛ ويقسمه الى قسمين ، جانب هيطل (الختل) وجانب خراسان (٢٠) اما نحن فسنتحدث هنا عن المنطقة تحت عنوانين اولهما يتناول خراسان ، وثانيهما يتناول ما وراء النهر . وتجنبا للتكرار لن نعدد ما يدخل في كل منهما الان لكننا سنوفي ذلك حقه عندما نصل اليه .

خراسان في عصر الفارابي

(٧)

كانت خراسان في أيام ابن حوقل لال سامان ، وكان فيها ثلاثون عملا ونيف ، « وكل عمل منها لا يخلو من قاض وصاحب بريد وبندار وصاحب معونة . هذا الى

غير عمل من اعمالها فيه قضاة يتصرفون عن قاضي الناحية التي هو بها ، واصحاب اخبار وبرد ينهون اخبارهم الى صاحب ناحيتهم ، وجباة للخراج ... واعظم هـذه النواحي منزلة واكثرها جيشا وشحنة واجلها منزلة وجباية نيسابور ومرو وبلخ وهراة » . (٢١) وهذا التعيين يتفق مع ما مر بنا من ان خراسان قسمت اربعة ارباع ، كل ربع فيها سمي باسم المدينة الرئيسة فيه .

« ونيسابور (٢٢) مدينة في ارض سهلة ابنيتها من طين وهي كانت مفترشة البناء نحو فرسخ مثله ولها مدينة وقهندز وربض ، وقهندزها وربضها عامران ومسجد جامعها في ربضها بمكان يعرف بالمعسكر . ودار الامارة بمكان يعرف بميدان الحسين والحبس عند دارة الامارة . وبين الحبس ودار الامارة وبين المسجد الجامع نحـو ربع فرسخ ، ودار الامارة بها من بناء العاتي عمرو بن الليث ، ولقهندزها بابان وللمدينة اربعـة ابواب ، فاما اسواقها سوقان : احداهما تعرف بالمربعة الكبيرة والاخرى بالمربعة الصغيرة ... وفي خلال هذه الاسواق خانات وفنادق يسكنها التجار بالتجارات، وفيها الخانبارات للبيع والشري . فيقصد كل فندق بما يعلم انه يغلب على اهلـه من انواع التجارة . وقل فندق منها لا يضاهي اكابر اسواق ذوي جنسه . ويسكن هذه الفنادق اهل اليسار ممن في ذلك الطريق من التجارة ، واهل البضائع الكبار والاموال الغزار . ولغير المياسير فنادق وخانات يسكنها اهل المهن وارباب الصنائع بالدكاكين المعمورة والحجر المسكونة والحوانيت المشحونة بالصناع : كالقلانسيين في سوقهم غير فندق فيه الحوانيت والحجر المملوؤة بهـم . وكذلـك الاساكفـة والخرازون والحبالون الى غير ذلك في اضعاف اسواقهم الفنادق المملوؤة بذوي الصنائع منهم . واما فنادق البزازين وخانباراتهم بها وبيعهم فيها وشراهم فاكثر البلدان يشركهم في ذلك ولا يقصرون عنهم . وشرب البلد ومياهه فاكثره من قنى تجري تحت مساكنهم وتظهر خارج البلد في ضياعهم ، ومنها قنى تظهر في البلد وتجرى في دورهم وبساتينهم بقصبة نيسابور . ولهم نهر كبير يعرف بوادي سغارد ويجتمع اليه كثير من قنى البلد فيسقى منه بعض اجنة البلد ورساتيق كثيرة . وعلى هذا الوادي قوام وحفظة عليه وعلى قنيهم في عمق الارض ، وربما كان منها شيء بينه وبين وجه الارض مائة درجة ، ويزيد وينقص في نفس نيسابور . وليس بخراسان مدينة اصح هواء وافسح فضاء واشد عمارة وادوم تجارة واكثر سابلة واعظم قافلة من نيسابور . ويرتفع عنها من اصناف البز وفاخر ثياب القطن والقز ما ينقل الى سائر بلدان الاسلام ، وبعض بلدان الشرك لكثرته وجودته ، لايثار الملوك والرؤساء لكسوته اذ ليس يخرج من بلد ولا ناحية كجوهريته ولا يشاكله لرفعته وخاصيته ...

ولنيسابور حدود واسعة ورساتيق عامرة وفي ضمنها مدن معروفة .

وكانت دار الامارة بخراسان في قديم الايام بمرو وبلخ الى ايام الطاهرية فانهم نقلوها الى نيسابور ، فعمرت وكبرت وغزرت وعظمت اموالهـا عند توطنهـم اياها وقطونهم بها ، حتى انتابها الكتاب والادباء بمقامهم بها وطرأ اليها العلماء والفقهاء عند ايثارهم لها ، وقد خرجت نيسابور من العلماء كثرة ونشأ بها على مر الايام من الفقهاء من شهر اسمه وسمق قدره وعلا ذكره .

« ومدينة مرو قديمة تعرف بمرو الشاهجان ازلية البناء . وهي في ارض مستوية بعيدة من الجبال فلا يرى منها جبل بالقرب وليس في شيء مـن حدودها جبل . وارضها سبخة كثيرة الرمال وابنيتها من طين . فيها ثلاثة مساجد للجمعات فاما اول مسجد اقيمت فيه الجمعة فمسجد بني داخل المدينة في اول الاسلام ، فلما كثر الاسلام بني المسجد المعروف بالمسجد العتيق على باب المدينة ويصلي فيه اصحاب الحديث ، وبني من بعد ذلك المسجد الذي على ماجان . ويقال ان ذلك المسجـد والسوق ودار الامارة من بناء ابي مسلم . ودار الامارة على ظهر هذا المسجد . وفي هذه الدار قبة بناها ابو مسلم كان يجلس فيها وفيها يجلس امراء مرو(٢٣) . وبهـا قهندز خراب ومقداره مقدار مدينة وهو مرتفع وقد سيقت اليه قناة ماء يجري فيه الى يومنا هذا ، وربما زرع عليها مباقل ومباطخ وغير ذلك. فاما اسواقها فعلى قديم الايام كانت على باب المدينة جنب الجامع ، فنقلها ابو مسلم الى ماجان . وهي من انظف الاسواق واوجدها لسائر ما يحتاج اليه من ليل ونهار . ومصلى العيد في محلة راس الميدان في مربعـة ابي الجهم ويطوف به من جميع جوانبه ونواحيه البنيان والعمارات . . والبلد ارباع معروفة الحدود ولارباعه انهار معروفة فمنها نهر هرمز فرة وهو نهر عليه ابنية كثيرة من البلـد وهو مما يلي سرخس . وللمدينـة الداخلـة اربعة ابـواب . . .

« ولمرو نهر عظيم تتشعب هذه الانهار منه وانهار الرساتيق عنه ومبتداه مـن وراء الباميان ، ويعرف بنهر مرغاب . . ومجرى هذا النهر على مرو الروذ وعليـه ضياعهم . . ومقاسم الماء من زرق قرية بها مقسم ماء مرو . وقد جعل لكل محلـة وسكة من هذا النهر ساقية صغيرة عليها الواح خشب فيها ثقب مقدرة لا يترك احد يزيد فيها ولا ينقص ، ويأتي كل قوم من شربهم بمقدار ان زاد الماء دخلت عليهم الزيادة وان نقص نقصوا باجمعهم لا ايثار لقوم على قوم . ومتولي هذا الماء امير مفرد وهو اجل من والي المعونة بمرو . وبلغني انه يرتزق على هذا الماء زيادة على عشرة آلاف رجل لكل واحد منهم على هذا الماء عمل .

وكانت مرو معسكر الاسلام في اول الاسلام ومنها استقامت مملكـة فارس

للمسلمين ... ويرتفع من مرو الابريسم والقز الكثير ، ويقال ان اصل الابريسم بجرجان وطبرستان على قديم الايام وقع من مرو . ومنها يرتفع القطن الذي ينسب في سائر الاقطان اليها جودته وهو الغاية في اللين ، والثياب التي تجهز منها الى كثير من البلاد . ولها منابر مضافة اليها وبرسمها . وبالسوسقان منبر وهذه منابر مضافة اليها ومدنها القريبة منها .

واما هراة فهو اسم المدينة وكان عليها حصار وثيق ، وخارجها وداخلها مياه ومن داخلها القهندر ، ولها ربض والمسجد الجامع بها ودار الامارة خارج الحصن بمكان يعرف بخراسان اباذ منقطع عن المدينة . وبينها وبين المدينة نحو ثلث فرسخ على طريق بوسنج من غربي هراة ، وبناؤها من طين . والمدينة مقدار نصف فرسخ في مثله وكان لمدينتها الداخلية اربعة ابواب ... وعلى كل باب سوق وفي داخل المدينة والربض مياه جارية . وللحصن اربعة ابواب بحذاء كل باب من ابواب المدينة باب لهذا الحصن . وخارج الحصن جدار يطوف بالحصن كله اطول من قامة وكان بينهما اكثر من ثلاثين خطوة .. والمسجد الجامع في المدينة وحواليه الاسواق والسجن على ظهر قبلة مسجد الجامع ، وليس بخراسان وما وراء النهر وسجستان والجبال مسجد اعمر بالناس على دوام الايام من مسجد هراة ومسجد بلخ واليه مسجد سجستان ، فان بهذه المساجد كثرة من الفقهاء وزحمة من ارباب القرآن على رسم الشأم والثغور . وهي فرضة لخراسان وسجستان وفارس .

« والجبل من هراة على فرسخين على طريق بلخ ، ومحتطبهم من مفازة بينهم وبين اسفزار وليس لهذا الجبل محتطب ولا مرعى وانما يرتفقون منه بالحجارة للارحية والفرش وما اشبه ذلك وعلى راس هذا الجبل بيت نار يدعى سرشك وهو معمور ، وبينه وبين المدينة بيعة للنصارى وليس بينها وبين المدينة مياه ولا بساتين سوى نهر المدينة ، على باب المدينة ، فاذا عبرت القنطرة لم تر بعدها ماء ولا خضرة الى البلد . وعلى سائر الابواب والجهات مياه جارية وبساتين ..

« واكبر مدينة بنواحي هراة بعد هراة كروخ واوفه ، ويرتفع من كروخ الكشمش المجلوب الى الافاق والزبيب الطائفي المحمول الى العراق وسائر البلاد ومعظمه يرتفع من مالن . وكروخ مدينة قصدة واهلها شراة .. وبناؤها من طين وهي في شعب بين جبال مقدار عشرين فرسخا وجميعها مشتبكة البساتين والمياه والاشجار والغياض والقرى العامرة . واوفه اهل جماعة وهي نحو كروخ في القدر ، ولها بساتين ومياه وبناؤها من طين ايضا . ومالن اصغر من كروخ وهي ايضا مشتبكة البساتين والمياه والاشجار والكروم عامرة . وخيسار قليلة الاشجار والمياه ،

وهي اصفر من مالن واهلها اهل جماعة . واستربيان اهلها خوارج وهي اصغر من مالن ، ولها مياه وبساتينهم قليلة والغالب عليهم في غلاتهم الزروع دون الكروم وهي في جبال وعرة . وماراباذ فكثيرة البساتين والمياه وهي مدينة اصغر من مالن، ويرتفع منها ارز كثير يجلب الى النواحي ...

« واما بوسنج ففيها من المدن خركرد وفركرد وكره ، واكبرها بوسنج وهي مدينة نحو نصف هراة وهي وهراة في مستواة ، ومن بوسنج الى الجبل نحو فرسخين وهو الجبل الذي من هراة اليه فرسخان ؛ وبناؤهم من جبس وليس كبناء هراة ولهم مياه واشجار كثيرة ، ولهم من اشجار العرعر ما ليس بجميع خراسان في بلد ويحمل هذا الخشب الى سائر النواحي . وماؤهم من نهر هراة وهو النهر الذي يجري الى سرخس وينقطع دون سرخس في اكثر الاوقات ، وينضب في الصيف ويصل اليها الماء في الشتاء فيمر في وسط البلد . ولبوسنج حصار وعليه خندق وله ثلاثة ابواب: فباب يعرف بباب علي يفضي الى طريق نيسابور ، وباب هراة يشرع الى هراة ، وباب قوهستان يأخذ الى قوهستان . واكبر المدن بها بعد بوسنج كوسرى وهي مدينة خصبة ولها ماء وبساتين قليلة ، وهي نحو الثلث من بوسنج وبناؤهم من طين . وخركرد لها ماء وبساتين كثيرة وهي اصغر من كوسرى . وفركرد اصغر من خركرد وماؤها الجاري قليل وهم اصحاب سوائم وليس لهم بساتين كثيرة . وكره لها بساتين ومياه كثيرة وهي نحو فركرد في الكبر .

وباذغيس بها من المدن جبل الفضة ...

« وكنج رستاق مدينتها بين ولها كيف وبغشور ، ومنها ابو منصور البغوي صاحب بريد نيسابور وايسر من بخراسان واكثرهم كتبا واحسنهم انشاء ، والكنهم بالعربية وافصحهم بالفارسية ، وهو اخطر من رأيت بخراسان واكثرهم صامتا وناطقا وتجارات وضياعا وكراعا واوثقهم عند سلطانه حكاية . وسلطان هذه الناحية مقيم ببين ، وهي اكبر هذه المدن ..

واما الغور فانها دار كفر وانما تذكر في الاسلام لان بها مسلمين ، وهي جبال عامرة ذات عيون وبساتين وانهار وهي حصينة منيعة وفي اوائلهم مما يلي المسلمين قوم يظهرون الاسلام وليسوا بمسلمين ... وجميع البلاد المطيفة به للمسلمين من جميع النواحي وليس في جميع بلد الاسلام ناحية كفر يشتمل على اقطارها وحدودها المسلمون غير الغور، وهم في وسطهم(وقبائل برغواطه الذين بنواحي فاس والسوس وسجلماسة وماسة ، وهم قوم في زنقة من الارض يحيط بها البحر المحيط) . واكثر رقيق الغور

يقع الى هراة وسجستان ونواحيها . وتمتد جمال الغور في حدود خراسان وظاهر الباميان الى البنجهير حتى تدخل بلاد وخان وتمر في بلاد الترك على حدود الشاش الى خرخيز ، وهذا الجبل من اوله الى اخره معادن للفضة والذهب واغزر معادنـه ما قرب من خرخيز ومر على نواحي فرغانه واشروسنه ، ولو عمل لزاد على ما بالبنجهير . .

« واما سرخس فمدينة بين نيسابور ومرو وهي في ارض سهلة ، وليس بها ماء جار الا نهر يخرج اليهم فضله في بعض السنة ولا يدوم ماؤه ، وهو وفضل مياه هراة وزروع سرخس بخوس ، وهي مدينة تكون نحو نصف مرو عامرة صحيحة التربة ، والغالب بعد الزرع على نواحيها المراعي وهي قليلة القـرى ومعظم املاكهم الجمال والاغنام وهي مطرح لحمولات ما وراء النهر ، ومدن خراسان وماؤهم من ابار وارحيتهم على الدواب وليس بها طواحين الماء وجميع ابنيتهم من طين . ونسا مدينة خصبة كثيرة المياه والبساتين وهي في الكبر نحو سرخس ومياههم جارية في دورهم وسككهم وهي نزهة ولها رساتيق واسعة خصبة ، وهي في اضعاف جبال . وفراوه مدينة ثغر في وجه البرية على الغزية وهي منقطعة عن القرى وفيها منبر ويقيم بها المرابطون ، وهم عدد يسير الا انهم يرجعون الى عدة وافرة وينتابهم الناس للرباط عنهم ، وليس لهم قرية ولا يتصل بهم عمارة ولهم عين ماء يجري ومنها شربهم وممرها في وسط القرية ، وليس لهم بساتين ولا زرع ولا مباقل ويكونون دون الفرجل ذي بأس .

وبلخ مدينة يتصل بعملها طخيرستان والختـل وبنجهير وبذخشان واعمال الباميان وما يتصل بها ...

« واما بلخ فمدينة جليلة مثل مرو وهراة ، وهي في مستواة وبينها وبين اقرب الجبال اليها نحو اربعة فراسخ ، وهي بربضها نحو فرسخ في مثله وبناؤها الطين ولها ابواب فاشهرها : باب النوبهار وباب واخته وباب الحديد وباب الهندوان وباب اليهود وباب الشستمن وباب بختي ، وعليها سور يشرع منه هذه الابواب . وربضها حسن آخذ من شرقها وجنوبها وغربها وقد حف بها . ومسجد جامعها بالمدينة في وسطها واسواقها تحف بمسجد جامعها وهو مسجد معمور بالناس على مر الاوقات وتعاقب الايام والساعات . ولها نهر يدير عشر ارحية مارا على باب النوبهار ويسقي رساتيقها وتحتف بابوابها كلها البساتين والكروم . وسور المدينة من طين وهـي مدينة قديمة ازلية تجمع جميع التجارات وتقصد بالامتعة من سائر الجهات ؛ وفي اهلها علم ويغلب عليهم الادب ودقة النظر في الفقه والعلوم الغامضة وقد خرجت غير رئيس وعرف من اهلها غير نفيس .

وليس للباميان حصار وهي على جبل ويجري بين مدنها نهر كبير ويقع الى غرجستان ، وفواكههم تجلب اليهم وليس لهم بساتين وتنقل الثمار من ارسف وغيرها . وليس بنواحي الباميان مدينة على جبل سواها وجميعها ذوات انهار واشجار وثمار غزنة فانه ايضا لا بساتين بها ولا نهر . وليس بهذه النواحي والمدن التي هي في نواحي بلخ اكثر مالا وتجارة من غزنه لانها فرضة الهند ، وان كانت قد تغيرت في سنة خمس وخمسين ... ومدينة كابل مدينة لها قهندز موصوف بالتحصن والمنعة واليه طريق واحد وفيها المسلمون ولهم ربض فيه الكفار واليهود .. وهي ايضا فرضة للهند وطريقها سابل الى كل جهة لهم ويباع بها من النخيل في كل حول مما يعمل بقصبتها وسوادها دون الباقي منه بايدي التجار على ما يذكره تجارهم بالفي الف دينار وزائد . والذي شاهدت دون ذلك لاسباب جرت من الفتن بدخول الجيش مع الحاجب اليهم ، والخلاف بينه وبين الملوك المجاورين لها ومطالبتهم بما بعد عهد سلفهم به من الضرائب القديمة والكلف السالفة ، وجباية الاموال الجسيمة كالجزية عن رؤوسهم والاخرجة من بلادهم . ويرتفع من كابل ثياب من القطن حسنة يعمل منها السبنيات الفاخرة والشرابيات المثمنة وتخرج الى خراسان وتدخل الى الصين وتنبت بالسند واعمالها ، وبها معادن حديد كثيرة . وكابل جروم ولا نخيل بها ويقع في بعض نواحيها ثلج .

« ويرتفع من بلخ واعمالها في نفسها النوق المتقدمة على سائر ما في جنسها لصحة مراعيها وخلوص نتاجها والبخاتى التي بها فتختار ، غير ان بخت سمرقند اصلب واشد وابدن من نوق بلخ ولا نظير لها في جميع الارض . وبها الاترج الحسن الفائق الكباب والنينوفر وقصب السكر وما لا يكون الا بالبلدان الحارة الجرومية غير انه لا نخيل بها . وبها من انواع النواوير الحسنة المختلفة الاشكال الطيبة الارائيج والاصباغ ما ليس بكثير من الاماكن كهو . ويقع بها وفي نواحيها الثلوج العظيمة وهي من اكابر بلاد الصرود ويجمد بها الماء .

« واكثر السوائم بخراسان من الابل بناحية سرخس وبلخ ، واما الغنم فاكثرها ما يجلب اليهم من بلاد الغزية ومن الغور والخلج . وبخراسان من الدواب والرقيق والاطعمة والملبوس مما يحتاج الناس اليه ما يسعهم ينقل الى سائر الاقطار عنهم . واما الدواب فانفسها ما يقع من نواحي بلخ ، وانفس الرقيق ما يقع من بلاد الترك ولا نظير لرقيق الترك في جميع رقيق الارض ، ولا يدانيه في القيمة والحسن . وغير غلام رايته قد بيع بخراسان بثلاثة آلاف دينار ، وتبلغ عندهم الجارية التركية ثلاثة آلاف دينار ، ولم ار بجميع اقطار الارض من الرقيق ما بلغ هذه القيمة من غلام ولا جارية رومية ولا مولدة ، ولا سمع في خبر ولا اثر الا ما كان معه آلة السماع مع

الحذق البارع والاداء الصحيح ، ومن هذا الجنس كثير في دور آل سامان وعند الجلة والقواد من اهل خراسان . وانفس ثياب القطن والابريسم ما يرتفع من نيسابور ومرو . واخير لحمان الغنم والذه ما يجلب من بلاد الغزية ، واعذب المياه عندي واخفها ماء جيحون وذلك ان البرد يسرع اليه والحم في اقرب وقت من الزمان. وايسر اهل خراسان اهل نيسابور ، وانجب بلدان خراسان اهل بلخ ومرو في الفقه والدين والنظر والكلام ، وازكى اراضي خراسان سقي نيسابور والاعداء ما بين هراة ومرو الروذ . وليس بخراسان جروم الا ما كان بناحية قوهستان فيما يلي فارس وكرمان واشدها بردا وثلوجا نواحي الباميان .

ما وراء النهر في عصر الفارابي

(٨)

الجزء الذي اطلقنا عليه ، متبعين في ذلك بعض الجغرافيين البلدانيين ، ما وراء النهر من المنطقة التي نعنى بدرسها ، يشمل ، نهر جيحون وما عليه وخوارزم والصغد (السغد) واقاليم نهر سيحون .

وحدود ما وراء النهر وميزات الاقليم فقد ذكرها الاصطخري بقوله :

« واما ما وراء النهر(٢٤) فيحيط به من شرقيه : فامر وراشت ، وما يتاخم الختل من ارض الهند على خط مستقيم ، وغربيه بلاد الغزية والخرلخية من حد طراز ، ممتدا على التقويس حتى ينتهى الى فاراب وبيسكند وسغد سمرقند ونواحي بخارى الى خوارزم ، حتى ينتهي الى بحيرتها (بحيرة ارال) ، وشماليه الترك الخرلخية من اقصى بلد فرغانة الى الطراز على خط مستقيم ، وجنوبيه نهر جيحون من لدن بذخشان الى بحيرة خوارزم على خط مستقيم ، وجعلنا خوارزم والختل في ما وراء النهر لان الختل بين نهر جرياب ووخشاب ، وعمود جيحون جرياب ، وما دونه من وراء النهر . وخوارزم مدينتها وراء النهر ، وهي الى مدن ما وراء النهر اقرب منها الى مدن خراسان .

« ما وراء النهر من اخصب اقاليم الاسلام وانزهها واكثرها خيرا ، واهلها يرجعون الى رغبة في الخير ، واستجابة لمن دعاهم اليه ، مع قلة غائلة وسلامة ناحية ، وسماحة بما ملكت ايديهم ، مع شدة شوكة ومنعة وبأس وعدة وآلة وكراع وسلاح ، فاما الخصب بها فانه ليس من اقليم ذكرناه الا يقحط اهله مرارا قبل ان يقحط

ماوراء النهر ، ثم ان اصيبوا ببرد او جراد او آفة تاتي على زروعهم ففي فضل ما يسلم في عرض بلادهم ما يقوم باودهم ، حتى يستغنوا عن نقل شيء اليهم من غير بلادهم ،. وليس بما وراء النهر مكان يخلو من مدن او قرى او مباخس او مراع لسائمة ، وليس شيء لابد للناس منه الا وعندهم منه ما يقيم اودهم ويفضل عنه ملغيرهم ، فاما اطعمتهم فمن السعة والكثرة على ما ذكرناه ، واما مياههم فانها اعذب المياه واخفها ، وقد عمت المياه العذبة جبالها وضواحيها ومدنها ، واما الدواب ففيها من النتاج ما فيه كفاية لهم مع كثرة ارتباطهم لها ، وكذلك البغال والحمير والابل ، واما لحومهم فان بها من النتاج ما يجلبونه من الغزية والخرلخية ، وما يتصل بهم من حواليهـا ما يفضل عن كفايتهم ، اما الملبوس ففيها من ثياب القطن ما يفضل عنهم ، حتـى ينقل عنهم الى الافاق ، ولهم القراء والصوف والاوبار ، وببلادهم من معادن الحديد ما يفضل عن حاجتهم في الاسلحة والادوات ، وبها معدن الفضة والذهب والزيبق ، الذي لا يقاربه في الغزارة والكثرة معدن في سائر بلدان الاسلام الا بنجهير في الفضة . واما الزيبق والذهب وسائر ما يكون في المعادن فاغزرها ما يرتفع مما وراء النهر ، وليس في شيء من بلدان الاسلام النوشاذر والكاغد الا في ما وراء النهر ، اما فواكههم فانك اذا تبطنت السغد واشروسنة وفرغانة والشاش رأيت من كثرتها ما يزيد على سائر الافاق ، حتى يرعاها لكثرتها دوابهم ، واما الرقيق فانه يقع اليهم مـن الاتراك المحيطة بهم ما يفضل عن كفايتهم ، وينقل الى الافاق من بلادهم ، وهـو خير رقيق يحيط بالمشرق كله ، وبها من المسك الذي يجلب اليهم من تبت وخرخيز ما ينقل الى سائر الامصار منها ، ويرتفع من الصغانيان الى واشجرد من الزعفران ما ينقل الى الافاق ، وكذلك الاوبار من السمور والسنجاب والثعالب وغيرها ، ممـا يحمل الى اقصى الغرب ، مع طرائف من الخدنك والختو والبزاة ، وغير ذلك مما يحتاج اليه الملوك . . . وترى الغالب على اهل الاموال بما وراء النهر صرف نفقاتهم الى الرباطات وعمارة الطرق والوقوف على سبيل الجهاد ووجوه الخير الا القليـل منهم . وليس من بلد ولا منهل ولا مفازة مطروقة ولا قرية آهلة الا بها من الرباطات ما يفضل عن نزول من طرقه . وبلغني ان بما وراء النهر زيادة على عشرة آلاف رباط ، في كثير منها اذا نزل النازل اقيم علف دابته وطعام نفسه ان احتاج الى ذلك ، وقل ما رأيت خانا او طرف سكة او محلة او مجمع ناس في الحائط بسمرقند يخلو مـن ماء جمد مسبل . ولقد اخبرني من يرجع الى خبره ان بسمرقند في المدينة وحائطها فيما يشتمل عليه السور الخارج زيادة على الفي مكان ، يسقى فيها ماء الجمـد مسبلا ، من بين سقاية مبنية وجباب منصوبة . واما بأسهم وشوكتهم فانه ليس في الاسلام ناحية اكبر حظا في الجهاد منهم ، وذلك ان جميع حدود ما وراء النهر الى دار الحـرب .

« اما من خوارزم الى ناحية اسبيجاب فهم الترك الغزية ، ومن اسبيجاب الى اقصى فرغانة الترك الخرلخية ، ثم يطوف بحدود ما وراء النهر من السندية وبلد الهند من ظهر الختل الى حد الترك في ظهر فرغانة .* فهم القاهرون لاهل هذه النواحي ، ومستفيض انه ليس في الاسلام دار حرب هم اشد شوكة من الترك . فهم ثغر المسلمين في وجه الترك ، يمنعونهم من دار الاسلام ، وجميع ما وراء النهر ثغر ، يبلغهم نفير العدو ، ولقد اخبرني من كان مع نصر بن احمد رحمه الله في غزاة شاوغر ، انهم كانوا يحزرون ثلاثمائة الف ... وبلغني ان بالشاش وفرغانة من الاستعداد ما لا يوصف مثله عن ثغر من الثغور ، وهم على بعد دارهم اول سابق الى الحج ، لا يدخل البادية قبلهم احد ، ولا يخرج منها بعدهم احد ... حتى دعا ذلك الخلفاء الى ان استدعوا مما وراء النهر رجالا . وكانت الاتراك جيوشهم ، لفضلهم على سائر الاجناس في البأس والجراة والشجاعة والاقدام ، وذهاقين ما وراء النهر قوادهم وحاشيتهم وخواص خدمهم ... فصاروا حاشية الخلافة وثقاتهم ورؤساء عساكرهم ، مثل الفراغنة والاتراك الذين هم شحنة دار الخلافة ، والاتراك الذين كانوا لبأسهم ونجدتهم غلبوا على الخلافة مثل الافشين وآل ابي الساج ، من اشروسنة ، والاخشيد من سمرقند ، والمرزبان بن تركسفي وعجيف بن عنبسة من السغد ، والبخارا خذاه وغيرهم من امراء الحضرة وقوادها وجيوشها ، والملوك على هذا الاقليم وعلى سائر خراسان آل سلمان ، وهم من اولاد بهرام جوبين الذي سار ذكره في العجم بالبأس والنجدة . فلمثل هذه الاسباب ليس في الاسلام ملك امنع جانبا ولا اوفر عدة ولا اكمل اسبابا للملك منهم ، لانه ليس في الاسلام جيش الا وهم شذاذ القبائل والبلدان والاطراف ، اذا تفرقوا في هزيمة وتمزقوا في حادثة لم يلتق منهم جمع بعد غير جيش هؤلاء الملوك ، فان جيوشهم الاتراك المملوكون .

واما نزاهة ما وراء النهر فاني لم ار ــ ولا بلغني في الاسلام ــ بلدا احسن خارجا من بخارى ، لانك اذا علوت قلعتها لم يقع بصرك من جميع النواحي الا على خضرة ، تتصل خضرتها بلون السماء ، فكأن السماء بها مكبة خضراء مكبوبة على بساط اخضر ، تلوح القصور فيما بينها كالنوائر فيها ، واراضي ضياعهم مقومة بالاستواء كأنها المرآة ، وليس بما وراء النهر وخراسان بلد احسن قياما بالعمارة على ضياعهم من اهل بخارى ، ولا اكثر عددا على قدرها في المساحة منهم ، وذلك مخصوص بهذه البلدة . ويحيط ببخارى وقراها ومزارعها سور قطره عشرة فراسخ في مثلها كلها عامرة . واما سغد سمرقند فانها من حد بخارى على وادي السغد يمينا وشمالا تتصل الى حد البتم لا تنقطع . ومقدارها في المسافة ثمانية ايام ، مشتبكة الخضرة والبساتين ، فهي ميادين وبساتين ورياض مشتبكة ، قد حفت بالانهار الدائم

جريها ، والحياض في صدور رياضها وميادينها ، مخضرة الاشجار والزروع ، ممتدة على جانبي واديها ، ومن وراء الخضرة من جانبيها مزارع تحرسها ، ومن وراء هذا المزارع مراعي سوائمها . والقلعة من كل مدينة وقرية بها تبص في اضعاف خضرتها ، كأنها ثوب ديباج اخضر ، قد سيرت بمجاري مياهها ، وزينت بتبصيص قصورها . وهي ازكى بلاد الله واحسنها اشجارا وثمارا ، وفي عامة مساكنهم البساتين والحياض والمياه الجارية ، قل ما تخلو سكة او دار من نهر جار . وبفرغانة والشاش واشروسنة وسائر ما وراء النهر من الاشجار الملتفة والثمار الكثيرة والرياض المتصلة ما لا يوجد مثله في سائر الامصار . وبفرغانة في الجبال الممتدة بينها وبين بلاد الترك — من الاعناب والجوز والتفاح وسائر الفواكه مع الورد والبنفسج وانواع من الرياحين ، كل ذلك مباح لا مالك له ولا مانع دونه ، وكذلك في جبالها وجبال ما وراء النهر من الفستق المباح ما ليس في بلد غيره . وباشروسنة ورد يتصل الى آخر الخريف » .

وقد قسم الجغرافيون كلا من الاقاليم الرئيسة كورا ونواحي (على اختلاف فيما بينهم في تصنيف الكور والنواحي) . ونهر جيحون ، وما عليه ، هو اول ما يصادف الذاهب من خراسان الى اواسط اسية ، وقد اشار اليه كثير من الجغرافيين على انه حد بين توران (اي الاتراك) وايران (اي الفرس)(٢٥) . ونهر جيحون فان عموده هو نهر جرياب الا انه تجتمع اليه انهار كثيرة من بلاد الختل والوخش فيصير بذلك نهرا عظيما(٢٦) . وينتهي الى خرازم وبحيرتها .

« ولا ينتفع بماء هذا الوادي(٢٧) بالختل والترمذ الى ناحية زم احد ، فتعمر به زم وآمل وفربر ، ثم ينتهي الى خوارزم فيعمر خوارزم ، وعامة نفعه لاهل خوارزم، فاول كورة على جيحون مما وراء النهر : الختل والوخش ، وهما كورتان غير انهما مجموعتان في عمل واحد ، وهما ما بين نهر حرياب ووخشاب ، فمن مدن الختل : هلبك ومنك وتمليات وفارغر وكارنبج وانديجاراغ ورستاق بنك ، ومدن الوخش ، هلاورد ولاوكند ، ومقام السلطان بهلبك ، ومنك وهلاورد هما اكبر من هلبك ، غير ان مقام السلطان بهلبك . والذي يتاخم الوخش والختل ووخان والسندية وكران ، وهي دور كفر يقع منها المسك والرقيق . وبوخان معادن من الفضة غزيرة ، وفي اودية الختل ذهب يجمع في السيول من بلاد وخان ، وبين وخان وتبت قريب ، وارض الختل ذات زروع كثيرة ومياه وثمار ، وهي على غاية الخصب والسعة ، وبها دواب ومواش كثيرة .

وقد راينا ان ننقل ، ببعض الايجاز ، ما قاله الاصطخري عن ما وراء النهر(٢٧أ) « فاذا جزت الختل والوخش الى نواحي واشجرد والقواذيان والترمذ والصغانيان

وما في اضعافها فانها كور مفردة بالاعمال ، واما الترمذ فانها مدينة على وادي جيحون لهـا قهندز ومدينة وربض ، ويحيط بالربض ايضا سور ، ودار الامارة في القهندز ، والحبس خارج القهندز في المدينة في السوق ، والمسجد الجامع في المدينة ، والمصلى داخل السور في الربض ، واسواقها في مدينتها . وابنيتها طين ، ومعظم سككها واسواقها مفروشة بالاجر ، وهي عامرة آهلة ، وفرضة تلك النواحي علـى جيحون ، واقرب الجبال اليها على نحو مرحلة ، وماؤهم للشرب من جيحون ونهر يجري من الصغانيان ، وليس لضياعهم من جيحون شرب ، وشرب ضياعهم من نهر الصغانيان ، ولها من المدى صرمنجن وهاشم جرد ، والقواذيان مدينـة لهـا كورة ، وهي اصغر من الترمذ ، ولها من المدن نودز ، والواشجرد نحو الترمـذ في الكبر ، وشومان ، اصغر منها ، ويرتفع من واشجرد وشومان الى قرب الصغانيان زعفران كثير ، يحمل الى الافاق ويرتفع من القواذيان الفوة ، والصغانيان مدينة اكبر من ترمذ ، الا ان الترمذ اكثر اهلا ومالا ، وللصغانيان قلعة . واما اخسيسك فهي بحذاء زم ، وزم في ارض خراسان الا انهما مجموعتان في العمل ، والمنبر بالزم ، وهي مدينة خصبة صغيرة ، والغالب على اطرافها السوائم من الابل والغنم ، وعلى ظهر كل واحدة منهما مفاوز وآبار ومراع . واما فربر فهي مدينة من بخارى ، وقد وصفناها في جملـة بخارى .

واما خوارزم فانه اسم الاقليم ، وهو اقليم منقطع عن خراسان وعما وراء النهر ، وتحيط به المفاوز من كل جانب ، وحدها متصل بحد الغزية فيما يلي الشمال والمغرب ، وجنوبيه وشرقيه خراسان وما وراء النهر . وهي في آخر نهر جيحون ، وليس بعدها على النهر عمارة الى ان يقع في بحيرة خوارزم ، وهي على جانبي جيحون، ومدينتها في الجانب الشمالي من جيحون ، ولها في الجانب الجنوبي مدينة كبيرة تسمى الجرجانية ، وهي اكبر مدينة بخوارزم بعد قصبتها ، وهي متجر الغزية ، ومنها تخرج القوافل الى جرجان والخزر والى خراسان .

« فاما قصبتها فانها تسمى بالخوارزمية كاث ، ولها قلعة ليست بعامرة ، وكانت لها مدينة فخربها النهر ، وبنى الناس من وراء المدينة ، وقد قارب النهر القلعة ويخاف على تهدمها ، والمسجد الجامع على ظهر القلعة ، ودار خوارزم شاه عند المسجد الجامع ، والحبس عند القلعة . وفي وسط المدينة نهر جردور يشق المدينة ، والسوق على جانبي هذا النهر ، وطولها نحو ثلث فرسخ في نحوه . واما ابوابها فقد تهدم بعض المدينة وذهب ابواب ما تهدم منها ، والباقي قد بني خلف ما تهدم على الوادي . وأول حد خوارزم يسمى الطاهرية مما يلي آمل ، فتمتد هذه العمارة في جنوبي جيحون ، وليس في شماليه عمارة ، الى ان ينتهي الى قرية تسمى غارابخشنه ،

ثم يكون من غارابخشنه الى مدينة خوارزم عامرا من جانبي جيحون جميعا .. وقبل غارابخشنه بستة فراسخ نهر يأخذ من جيحون فيه عمارة الرستاق الى المدينة ... عرضه نحو خمسة ابواع (لعلها أزرع) ، وعمقه نحو قامتين، فيحمل السفن . ويتشعب منه بعد ان يجري خمسة فراسخ نهر يعمر به بعض الرساتيق ، وليس للعمارة على شط جيحون من الطاهرية الى هزاراسب كبير عرض . يعرض بهزاراسب فيصير عرضه نحوا من مرحلة الى مقابل المدينة ، ثم لايزال يضيق حتى يصير بالجرجانية نحو فرسخين ... وبعده نهر خيو .

« وخوارزم مدينة خصبة كثيرة الطعام والفواكه ، الا انها لا جوز بها ، ويرتفع منها من ثياب القطن والصوف امتعة كثيرة تنقل الى الافاق ، وفي خواص اهلها يسار وقيام على انفسهم بالمروة الظاهرة ، وهم اكثر أهل (المنطقة) انتشارا وسفرا ، فليس بخراسان مدينة كبيرة الا وبها من اهل خوارزم جمع كبير ، ولسانهم لسان مفرد ، وليس بخراسان بلد على لسانهم ، وزيهم القراطق والقلانس ، وخلقهم لا يخفى فيما بين اهل خراسان ، ولهم بأس على الغزية ومنعة ، وليس ببلدهم معادن ذهب ولا فضة ولا شيء من جواهر الارض ، وعامة يسارهم من متاجرة الترك واقتناء المواشي ، ويقع اليهم اكثر رقيق الصقالبة والخزر وما والاها مع رقيق الاتراك ، والاوبار من الفنك والسمور والثعالب والخز وغير ذلك من اصناف الوبر .

فهذا ما على جيحون من الكور ، فنبدا مما وراء النهر في كورة بخارى ، لانها اول الكور وبها دار امارة خراسان ، وهي مستقيمة على ترصيف كور ما وراء النهر . اما بخارى ، واسمها نومجكث ، فهي مدينة في مستوى ، وبناؤها خشب مشتبك ، ويحيط ببنائها قصور وبساتين وسكك وقرى تكون اثني عشر فرسخا في مثلها . ويحيط بجميع ذلك سور يجمع هذه القصور والابنية والقرى والقصبة ، فلا يرى في اضعاف ذلك كله مفازة ولا خراب . ومن دون هذا السور ــ على قصبة المدينة وما يتصل بها من القصور والمساكن والمحال والبساتين التي تعد من القصبة ، ويسكنها من يكون في جملة القصبة شتاء وصيفا ــ سور آخر قطره نحو فرسخ في مثله ، ولها مدينة داخل هذا السور ، يحيط بها سور حصين ،ولها قهندز خارج المدينة يتصل بها مقدار مدينة صغيرة ، وفيه قلعة اخرى ، ومسكن ولاة خراسان من آل سامان في هذا القهندز . ولها ربض ، والمسجد الجامع على باب القهندز في المدينة ، وحبسها في القلعة ، واسواقها في ربضها . وليس بخراسان وما وراء النهر مدينة أشد اشتباكا من بخارى ، ولا اكثر اهلا على قدرها ، ولهم في الربض نهر السغد يشق الربض واسواقها ، وهو آخر نهر السغد ، فيفضي الى طواحين وضياع ومزارع ، ويسقط فاضله في مجمع ماء يجاور بيكند الى قرب فربر يعرف بسام خواش ، واما المدينة فلها

سبعة ابواب حديد ... ومياههم من النهر الاعظم وينشعب من هذا النهر في المدينة أنهار للشرب والــريّ .

أما رساتيق بخارى فمنها الذر وفرغيدد وسخر ورستاق الطواويس وبورق وخرغانة السفلى .. فهذه الرساتيق داخل الحائط ، وخارج الحائط جزه وشابخش ويسير رستاق ـ وغيرها ... ويتشعب من عمود نهر السغد في حد بخارى خارجا عن القصبة من الحائط الخارج بناحية الطواويس الى ان ينتهي الى باب المدينة انهار كثيرة ، تتفرق في القرى والمزارع في الحائط ، وعليها عمارة قرى بخارى .. وما فضل من ماء نهر السغد فانه يجري في نهر يعرف بالذر ، وهو النهر الذي يشق ربض بخارى ، ومنه انهار المدينة ، واكثر هذه الانهار تحمل السفن كبرا وغزارة . وكلها تأخذ من النهر داخل حائط بخارى من حد الطواويس الى ان تنتهي الى المدينة . وابنية قرى بخارى كلها على اشتباك البناء والتقدير في المساكن وارتفاع اراضي الابنية ، وهي محصنة بالقلاع بالابنية المجموعة ، وليس في داخل هذا الحائط جبل ولا مفازة ، واقرب الجبال اليها جبل وركه ، ومنه حجارة بلدهم للفرش والابنية ، ومنه طين الاواني والنورة والجص ، ولهم خارج الحائط ملاحات ، ومحتطبهم من بساتينهم وما يحمل اليهم من المفاوز من الغضا والطرفاء . واراضي بخارى كلها قريبة الى الماء لانها مغيض ماء السغد ، ولذلك لا تنبت الاشجار العالية فيها مثل الجوز والدلب والحور وما اشبه ، فاذا كان منه شجر فهو قصير غير نام . وفواكه بخارى اصح فواكه ما وراء النهر والذها طعما ، ومن عمارة بخارى ان الرجل ربما قام على الجريب الواحد من الارض فيكون منه معاشه ، ومن كثرة عددهم ان ما يرتفع من بلادهم يقصر عن كفايتهم ، لوفور عددهم وتضاعفهم على ما يخرج من اراضيهم ، فيحمل اليهم المير من الطعــام وسائر ما يحتاجون اليه من سائر ما وراء النهر .

ولبخارى مدن داخل حائطها وخارجا عنه ، فما داخل حائطها فالطواويس ، وهي اكبر منبر بعد القصبة ، وتومجكث وزندنه ومغكن وخجادة ، وخارج الحائط بيكند وفربر وكرمينيه وخديمنكن وخرغانكث ومذيامجكث . فاما الطواويس فانها مدينة لها سوق ، ومجمع عظيم ينتابه الناس من اقطار ما وراء النهر في وقت معلوم مــن السنة ، ويرتفع منها من الثياب القطن ما ينقل الى سائر المواضع ، وهي مدينة كثيرة البساتين والماء الجاري خصبة . ولها قهندز ومدينة ومسجد جامعها في المدينة ،واما المدن التي داخل الحائط فهي متقاربة في الكبر والعمارة ، ولكل منها حصن ، واما كرمينية فهي اكبر من الطواويس واعمر واكثر عددا واخصب ، وخديمنكــن من كرمينية ، وبحذائها خرغانكث ومذيامجكث ، وهي متقاربة في الكبــر والعمــارة ، ولكرمينية قرى كثيرة ، وكذلك لكل منبر قرى ومزارع ، الا بيكند فانها وحدها ،

غير ان بها من الرباطات مالا اعلم في بلدان ما وراء النهر اكثر عددا منها ، وبلغني ان عددها نحو من الف رباط ، ولها سور حصين ومسجد جامع تؤنق في بنائـه وزخرف محرابه ، فليس بما وراء النهر محراب احسن زخرفا منه ، وفربر مدينة من جيحون ، ولها قرى وهي عامرة خصبة .

واما لسان بخارى فانه لسان السغد الا انه يحرف بعضه ، ولهم لسان الدرية ، واهلها يرجعون من الادب الى ما يفضلون بهما وراء النهر . ونقودهم الدرهم ولا يتعاملون بالدينار فيما بينهم .. ولهم داخل الحائط وخارجه اسواق متصلة معلومة في اوقـات من الشهر دارة ، يجري فيها من الشراء والبيع للثياب والرقيق والمواشي وغير ذلك مما يتسع به اهلها . ويرتفع من بخارى ونواحيها من ثياب القطن ما ينقل الى الافاق وكذلك البسط والمصليات وثياب من الصوف تستحسن ، ويتحدث اهل بخارى ان من بركة القلعة انه لم تخرج منها جنازة وال قط ، وما عقدت فيها راية خرجت فهزمت ، وهذا من الاتفاق العجيب ان صح ، ويقال ان اصل أهل بخارى في قديم الايام ناقلة اصطخر ، وسكن ولاة خراسان من السامانية مدينة بخارى ، لانها اقرب مدن ما وراء النهر الى خراسان ، فمن كان بها فخراسان امامه ومـا وراء النهر وراءه ، ولهم من حسن الطاعة وقلة الخلاف على الولاة ما يؤدي الى اختيار المقام بينهم على سائر ما وراء النهر . واول ولاة خراسان من آل سامان اسماعيل بن احمد ، جاءته ولاية خراسان وهو ببخارى فاستدام المقام بها ، فبقيت الولاية بها في اولاده ، وقد كان ولاة ما وراء النهر يقيمون قبل ذلك اما بسمرقند واما بالشاش وفرغانة في وجوه الترك ، وكان عمل ولاة بخارى يحزر مفردا من خراسان الى ان زالت ايـام آل طاهر .

ويتصل ببخارى من شرقيها السغد ، واولها اذا جزت كرمينية الدبوسيـة ثم ربنجن والكشانية واشتيخن وسمرقند ، وكل هذا قلب السغد ، وقصبة السغد سمرقند ، وهي مدينة على جنوبي وادي السغد ، مرتفعة عليه ، ولها قهندز ومدينة وربض ، فاما القهندز ففيه الحبس ودار الامارة عامران . واما المدينة فلها سور واربعة ابواب ... ولها اسواق ومساكن وماء جار يدخل اليها في نهر من رصاص ، وهو نهر قد بنيت له مسناة عالية من حجارة ، يجري عليها الماء من الصفارين حتى يدخل من باب كش ، ووجه هذا النهر رصاص كله ، وذلك ان حوالي المدينة خندقا قد تسفل ، لانه استعمل طينه في سور المدينة ، فبقي حواليها خندق عظيم ، فاحتيج الى مسناة في هذا الخندق يجري الماء عليها الى المدينة ، وهو نهر جاهلي في وسط السوق بموضع يعرف برأس الطاق ، وهو اعمر موضع بسمرقند . وعلى جنبات هذا النهر غلال موقوفه على مرمات هذا النهر ، وعليه حفظة من المجوس عليهم حفظه

شتاء وصيفا . والمسجد الجامع في المدينة بينه وبين القهندز عرض الطريق . وفي المدينة مياه من هذا النهر وبساتين ، وفيها دار الامارة لال سامان غير دار الامارة بالقهندز والمدينة من الربض على جانبه ، قريب من وادي السغد الذي هو بين الربض والمدينة ، وذلك ان سور الربض ممتد من وراء وادي السغد ، والوادي للربض كالخندق مما يلي الشمال ، ويكون قطر السور المحيط بربض سمرقند فرسخين . غير ان الربض شربه ومجمع اسواقه رأس الطاق ، ثم تتصل به الاسواق والسكك والمحال ، وفي تضاعيف ذلك قصور وبساتين فليس من سكة ولا دار الا وفيها ماء جار الا القليل ، وقل دار تخلو من بستان . حتى انك اذا صعدت اعلى قهندزها لم تبد المدينة للنظر ، لاستتارها بالبساتين والاشجار ، واكثر الاسواق والتجارات في الربض الا شيئا يسيرا في المدينة . وهي فرضة ما وراء النهر ومجمع التجار . ومعظم جهاز ما وراء النهر يقطع بسمرقند ، ثم يتفرق الى سائر الكور ، وكانت دار امارة ما وراء النهر بها الى ايام اسماعيل بن احمد (الساماني) فنقلها الى بخارى . ولسور ربضها ابواب .. وتربة سمرقند من اصح تربة وايبسها ، ولولا كثرة البخارات من المياه الجارية في سككهم ودورهم وكثرة اشجار الخلاف بينهم لاضر بهم فرط يبسها ، وبناؤها طين وخشب . واهلها يرجعون الى جمال بارع ورزانة ، وهم من الافراط في اظهار المروة وتكلف القيام على انفسهم مايزيدون على سائر بلاد خراسان ، حتى يجحف ذلك باموالهم . وبسمرقند مجمع رقيق ما وراء النهر ، وخير الرقيق بما وراء النهر تربية سمرقند ، وبينها وبين اقرب الجبال نحو مرحلة خفيفة الا انه يتصل بها جبل صغير يعرف بكوهك ، يمتد طرفه الى سور سمرقند ، وهو مقدار نصف ميل في الطول ، ومنه احجار بلدهم ، والطين المستعمل في الاواني والنورة والزجاج وغير ذلك ، وبلغني ان به ذهبا وفضة غير أنه لا يتسوغ العمل فيه. والبلد كله طرقه ومحاله وسككه الا قليلا مفترش بالحجارة ، ومياههم من وادي السغد ، وهذا الوادي مبدؤه من جبال البتم على ظهر الصغانيان ... ومنه تتشعب انهار سمرقند ، ورساتيق تتصل بها من غربي الوادي من جانب سمرقند .

واما رساتيق سمرقند فان اولها بنجيكث ومدينتها بنجيكث ... والساودار هو الجبل الذي عن جنوبي سمرقند ، وليس بنواحي سمرقند رستاق اصح هواء ولا زرعا وفواكه منه، واهلها اصح الناس الوانا وابدانا ، وطوله زيادة على عشرة فراسخ ، وبالساودار دير للنصاري يعرف بوزكرد ، ورستاق الدرغم ازكى هذه الرساتيق في الزروع ، ويفضل من اعنابها ما يحمل الى غيرها من الرساتيق ، واما ابغر فانها مباخس ، غير ان قراها اكثر عددا من رساتيق سمرقند واراضيها منجبة ، وبلغني ان القفيز البذر يريع بها مائة قفيز وبها مراع كثيرة .

« واما اشروسنة فاسم الاقليم ، كما ان السغد اسم الاقليم ، وليس ثم مدينة

بهذا الاسم ، والغالب عليها الجبال ، حدود اشروسنة : غربيها حدود سمرقند ، شماليها الشاش وبعض فرغانة ، جنوبيها بعض حدود كش والسغانيان وشومان واوشجرد وراشت ، شرقيها بعض فرغانة .. ومدينتها التي يسكنها الولاة هي برنجكث ، وبناؤها طين وخشب ، وهي مدينة داخلها مدينة اخرى على كل منهما سور ، وللمدينة الداخلة بابان ، ويجري في المدينة الداخلة نهر كبير وعليه فيها رحى ، ويشتمل حائطها على دور وبساتين وقصور وكروم ، وقطرها نحو فرسخ ، وابوابها اربعة ... ولها ستة انهار ، كلها من منبع واحد ، هو من المدينة على اقل من نصف فرسخ ..... وليس بجميع اشروسنة نهر تجري فيه سفينة .

والبتم جبال شاهقة منيعة ، واكثرها تغلب عليها البرد ، وبالبتم حصون منيعة جداً ، وفيه معدن الذهب والفضة والزاج والنوشاذر ، وهو جبل فيه مثل الغار يبنى عليه بيت ويستوثق من ابوابه وكواه ، فيرتفع من الغار بخار يشبه بالنهار الدخان وبالليل النار ، فاذا تلبد هذا البخار قلع منه وهو النوشاذر ، ولا يتهيأ لاحد ان يدخله من شدة حره ، الا ان يلبس لبودا ويدخل بها كالمختلس ، وهذا البخار يتنقل من مكان الى مكان فيحفر عليه حتى يظهر ، فاذا انقطع من مكان حفر عليه من مكان آخر فظهر منه . والبتم جبال تسمى البتم الاول والاوسط والداخل ، وماء سمرقند والسغد وبخارى من البتم الوسطى . ومينك الموضع الذي قاتل فيه قتيبة بن مسلم ، وحصار الافشين هناك .

واما الشاش وايلاق فان مقدار عرضهما مسيرة يومين في ثلاثة ، وهي كثيرة القرى والعمارات والمنابر ، وهي في ارض سهلة كثيرة المراعي والرياض ، وبالشاش وبايلاق مدن كثيرة ذوات ابواب واسوار وارباض وقلاع واسواق وانهار تخترق بعض المدن ، ومدن الشاش كثيرة ... والشاش وايلاق متصلتان لا فصل بينهما ، وبايلاق معدن ذهب وفضة ، واكبر مدن ايلاق نوكث وتونكت ، وليس بما وراء النهر دار ضرب الا بسمرقند وتونكت . واما اسبيجاب فمدينة نحو الثلث من تونكت ، وفي ربضها بساتين ومياه ، وابنيتها طين وهي في مستوى من الارض وبينها وبين اقرب الجبال اليها نحو ثلاثة فراسخ . وللمدينة اربعة ابواب فباب منها يعرف بنوجكث وباب فرخان وباب سواكرائة وباب بخارى واسواقها في المدينة الداخلة وهي مدينة على غاية الخصب ولا اعلم بمكان بخراسان كلها وما وراء النهر بلدلا خراج عليه الااسبيجاب ومما يقع من المدن في نواحيها بدخكث وسبانيكث والطراز واطلخ وشلجي وكدر وبيسكند وشاوغر وصبران ووسيج فاما سبانيكث فانها قصبة كورة كنجيدة واما كدر فانها قصبة كورة فاراب ووسيج ايضا من مدن فاراب ، وصيران هي مدينة

تجتمع بها الغزية للصلح والتجارات اذا كانوا صلحا وهي مدينة حصينة وفاراب اسم الناحية ومقدارها في الطول والعرض اقل من يوم الا ان بها منعة وباسا وهي ناحية سبخة لها غياض ولهم مزارع في غربي الوادي تأخذ من نهر الشاش وبيسكند بها منبر على غربي وادي الشاش وهي مجمع الاتراك وقد اسلموا من اجناس للغزية والخرلخية ولهم باس ومنعه في الاتراك وبين فاراب وكجندة .. ابنية ابتناها نحو من الف بيت من الاتراك قد اسلموا وهم مقيمون بها في خركاهات لهم ، والطراز متجر للمسلمين من الاتراك وحواليها حصون منيعة منسوبة اليها ولم يجتازها احد .. لانك اذا جزتها ذخلت الخرلخية فهذا هو حد الشاش ونواحيها واما خجندة فانها متاخمة لفرغانة ... في جملة .. متاخمة منفردة الاعمال عنها وهي على نهر الشاش في غربيه وطولها اكثر من عرضها وتمتد على فرسخ كلها دور وبساتين وليس في عملها مدينة غير كند وهي بساتين ودور مفترضة ولها قرى يسيرة ومدينة وفهندز وجامعها في المدينة ودار الامارة في الميدان بالربض والحبس في القهندز وهي مدينة نزهة بها فواكه تحمل الى سائر النواحي وفي اهلها جمال ولهم مروة وهي بلد يضيق عما يقيم من الزروع والجلب اليهم من سائر فرغانة واشروسنة ما يقيم اودهم تنحدر اليهم السفن في نهر الشاش وهو نهو عظيم من انهار تجتمع اليه في حدود الترك والاسلام وعموده نهو يخرج من بلد الترك في حد اوركند ثم يجتمع اليه نهر خرشاب ونهر اوسن وقبل نهر جدغل وغيرها فتجتمع ويعظم فيمتد على اخسيكث ثم على بناكث فيجري الى فاراب فاذا جاوز حد صبران جرى في برية يكون على جانبه الاتراك القرية الحديثة على فرسخ منها ثم يقع في بحيرة خوارزم على مرحلتين من القرية الحديثة وهذا نهر اذا امتد يكون نحوا من الثلثين من جيحون وتحمل فيه الميرالى القرية الحديثة اذا كانوا صلحا والقرية الحديثة فيها مسلمون غير انها دار المملكة للغزية ويقيم بها في الشتاء ملك الغزية وبقربها جند وخواره وفيهما قوم مسلمون غير ان السلطان بها للغزية واكبر هذه الثلاثة مواضع الحديثة وهي من خوارزم على عشر مراحل ومن فاراب على عشرين مرحلة .

« وفرغانة اسم الاقليم عمل موضوع على سعة مدنها وقراها وقصبتها اخسيكث وهي مدينة على شط نهر الشاش على ارض مستوية بينها وبين الجبال نحو فرسخ وهي على شمالي النهر ولها قهندز ولمدينتها ربض ودار الامارة والحبس في القهندز والجامع خارج من القهندز ومصلى العيد على شط نهر الشاش واسواقها في مدينتها وربضها واكبر الاسواق بالمدينة ومقدارها في الكبر نحو ثلث فرسخ وبناؤها طين وعلى ربضها سور وللمدينة الداخلة خمسة ابواب .. وفي ربضها مياه جارية وحياض كثيرة وكل باب من ابواب ربضها يفضي الى بساتين ملتفة وانهار جارية لا تنقطع

مقدار فرسخين ويلي اخسيكث في الكبر قبا وهي مدينة من انزه تلك المدن وهي تقارب اخسيكث في الكبر ولها قهندز ومدينة وربض الا ان القهندز خراب والمسجد الجامع في القهندز واسواقها في ربضها ودار الامارة والحبس في الربض وعلى الربض سور محيط ولها بساتين كثيرة ومياه جارية تزيد على بساتين اخسيكث ومياهها . ويلي قبا في الكبر اوش وهي تقارب قبا في الكبر ولها مدينة عامرة وقهندز عامر ودار الامارة والحبس في القهندز وللمدينة ربض وعلى الربض سور وهي ملاصقة للجبل الذي عليه مرقب الاحراس على الترك ولها ثلاثة أبواب . واوزكند اخر مدن فرغانة مما يلي دار الحرب » .

الاتراك والعالم الاسلامي الى عصر الفارابي

(٩)

مع ان نهر جيحون كان يعتبر الحد الفاصل بين طوران (توران) وايران ــ شعوبا ولغات ، فالواقع هو ان الشعوب التركية وشعوب ايران كانت ، منذ اقدم الازمنة ، على اتصال . وقد يكون الاتصال هجوما من الرعاة الاتراك على الاجزاء الزراعية ، وقد ينتهي باستقرار القادمين وتبلدهم ، وقد يكون الاتصال سلميا ، قوامه التجارة وتبادل المنافع ، وهو الاكثر استمرارا . ومعنى هذا انه لم يقم في وقت من الاوقات خط اوحد فاصل ثابت بين الفريقين . وهذا الوضع ينطبق على شرق خراسان بخاصة بسبب جوارها لما وراء النهر اولا ، ولان الارض ايسر اجتيازا في اودية معينة ودروب معروفة . وكان تبادل السكان بين المنطقتين وما ورائها امرا مألوفا .

فمن المتاجر التي كانت المناطق المتحضرة الزراعية تصدرها الى بدو الشمال (اي تركستان) الطحين والقمح والشعير والسكر والافاويه والاسلحة والاقمشة . اما البدو انفسهم فقد كانوا يسوقون قطعانهم ومواشيهم الى المدن القريبة من الحدود ليبيعوها لاهل هذه المدن . فكان هؤلاء يحصلون على حاجتهم من الخيول والاغنام والحمير والبغال من الفز والخرلخية مثلا . وكان هؤلاء البدو يقومون بحراسة القوافل عبر السهوب(٢٨) .

ولعل من اهم ما كان يحمل من مناطق الشمال هو الرقيق التركي . ويبدو ان هذا الرقيق عرف في ايام الخلافة الاموية ، نتيجة للاتصال الحربي والتجاري بين العرب المسلمين وسكان تلك الاماكن النائية . ولم تلبث تجارة الرقيق ان اصبحت

تجارة رائجة رابحة بحيث ان السامانيين ، مثلا ، كانوا يمنحون جوازا من السلطان للسماح للغلمان والجواري اذا كانوا اتراكا(٢٩) . وقد كان حكام الاقاليم الشرقية يبعثون الى الخلفاء ببغداد هدايا من الرقيق . كما كان في بغداد ، الى جانب الرقيق ، جماعة من التجار الصغار والصناع من الاتراك ، الا ان الاتراك دخلوا الباب الواسع كجنود . بحيث اصبح الخلفاء يعتمدون عليهم دون العرب والفرس(٣٠) .

والذي يعنينا في هذا البحث هو ان الاتراك الغز (أو الاغز او الطقوز اغز) الذين وصلوا الى حوض نهر سيحون في القرن الثامن للميلاد بأعداد وافرة ورثوا حضارة مستقرة الصفات عمن سبقهم ونموها بحيث ان البحوث الاثرية التي قام بها تولستوف تثبت ان حضارة المدن الواقعة في حوض سيحون لا يظهر فيها اي انقطاع بين ايام الهيطل (او الختل) في القرنين الخامس والسادس من جهة والقرن العاشر للميلاد من الجهة الثانية(٣١) . ويبدو ان تأثر هذه المدن بالمسلمين المجاورين في خوارزم وما اليها دفع تطورها الحضاري الى الامام .

المدن الكبرى والمراكز العلمية

في خراسان وما وراء النهر

(١٠)

اولا : يبدو ، مما مر بنا ، انه كان ثمة ، على الاقل ، ستمدن كبرى في منطقة ما وراء النهر وخراسان هي : سمرقند وبخارى ونيسابور ومرو وهراة وبلخ . وكل من هذه المدن كانت تقع على الطرق التجارية الرئيسية التي تصل بين الصين او الهند من جهة ، وايران وما الى الغرب منها من جهة ثانية .

ثانيا : في هذه المدن كان يجتمع التجار والسفراء ورجال الدين واهل العلم مشرقين ومغربين .

ثالثا : ان اكثر هذه المدن كانت لها مكانة علمية في ناحية من النواحي قبل الفتوح العزبية وانتشار الاسلام في تلك الربوع .

رابعا : ان المنطقتين الواقعتين الى الشرق (الصين والهند) والى الغرب (ايران وبلاد الرافدين وما الى ذلك) من البلاد التي تقوم بها هذه المدن ، كان لهما حضارات وفلسفات وعلوم حرية بان يتبادلها سكانهما . وقد تم هذا التبادل على اشكال مختلفة .

خامسا : ان الفتوح العربية وقيام الدولة العربية الاسلامية (ونشوء الدويلات فيما بعد) وانتشار الاسلام كانت عوامل فعالة في توسيع مجال الاتصال بين هذه المدن والمناطق الواقعة الى الشرق والغرب (وحتى الشمال) منها .

سادسا : ان الدويلات التي قامت في المشرق ، والدولة السامانية في مقدمتها ، كانت تسير على غرار البلاط العباسي في الاهتمام بالعلم والعلماء ، مفيدة من تقاليد تليدة عرفتها المنطقة حتى قبل وصول العرب والاسلام اليها . والذي حدث ان العامل الفعال في التطور الفكري والعلمي والحضاري اصبح الان الاسلام ، وصارت اللغة العربية هي لغة العلم والادب ، الى ان عاد للفارسية دورها الادبي في القرن الرابع (العاشر) .

سابعا : يمكن ان نضيف الى هذا الامر امرا آخر ، وهو ان ما اصاب العالم الاسلامي في القرون الثاني والثالث والرابع/الثامن والتاسع والعاشر من خلافات فكرية دينية في الاسلام نفسه ، عرفتها المنطقة وتأثرت واسهمت فيها . وهذا معناه مشاركة فعلية في جميع الاتجاهات والتيارات العقلية والفقهية والشرعية والادبية التي عرفتها بغداد ودمشق وحلب والفسطاط وغيرها من امهات المدن العربية الاسلامية .

ثامنا : عرفت خراسان وما وراء النهر مدارس بالمعنى الاسلامي (الفقهي .. الخ) في ايام الفارابي وقبله . وقد بحث ناجي معروف هذا الموضوع بحثا وافيا في كتابه مدارس قبل النظامية (بغداد ، ١٣٩٣/١٩٧٣) . وخلص من بحثه الى نتائج هامة يمكن تلخيصها فيما يلي :

أ ـ ان المدارس الاولى التي بنيت في خراسان وما وراء النهر كانت « احادية اي بنيت لمذهب واحد من المذاهب الفقهية الاربعة . وكان اغلبها للشافعية والحنفية » (ص ١٥) .

ب ـ « وقد اتخذت المدارس في خراسان وما وراء النهر لسكنى المدرسين والطلبة وفي بعض الاحيان كان ينزلها العلماء الطارئون » (ص ١٧) .

ج ـ كانت الاوقاف على هذه المدارس كثيرة ، وكانت تستخدم ، « لعمارتها واجراء الجزايات على اربابها من المدرسين والعلماء والطلبة من المتفقهة واهل الحديث والوعاظ والمذكرين والصوفية والائمة والمؤذنين وغيرهم . فقد جعل ابن حبان

التميمي المتوفى سنة ٣٥٤/٩٦٥ لطلاب مدرسته جرايات دارة يستنفقونها » (ص١٩)

د ـ « ولما كانت خزائن الكتب في المدارس من الامور التي تساعد على الدرس والبحث فقد اكثر مؤسسو المدارس من ايقاف الكتب على اختلاف علومها وفنونها في المدارس ، وانشأوا لها المباني الخاصة والحجرات العديدة واقاموا عليها الخزان والمشرفين والنظار ... فقد سبل ابو حاتم البستي التميمي (المذكور آنفا) كتبه ووقفها وجمعها في دار رسمها لها » (ص ١٩ ـ ٢٠) .

تاسعا : بين لنا الدكتور ناجي معروف في دراسته المذكورة المدارس التي يعنينا امرها (من حيث انها كانت قائمة في عصر الفارابي) . ومنها :

ا ـ مدرسة حسان بن محمد القريشي بنيسابور . وقد توفي سنة ٣٤٩/٩٦٠ (ص ٢٥) . وتاريخ وفاته ياتي بعد عشر سنوات من وفاة الفارابي .

ب ـ مدرسة ابن حبان التميمي بنيسابور . وقد توفي صاحبها سنة ٣٥٤/ ٩٦٥ (ص ٢٦) .

ج ـ مدرسة ابي حفص ببخارى التي درس فيها ابن شاهويه المتوفى سنة ٣٦١/٩٧١ . ومعنى هذا ان المدرسة كانت قائمة ايام تدريس ابن شاهويه فيها . وهذا الرجل كان اماما بنيسابور ثم خرج الى بخارى ثم عاد الى نيسابور وحدث بها وتوفي هناك سنة ٣٦١ هـ . (ص ٢٦) .

د ـ مدرسة مرست في بنج ديه في منطقة مرو الروذ . وقد درس فيها ابن اسماعيل القفال الكبير الشاشي (الطشقندي) المولود سنة ٢٩١/٩٠٢ والمتوفى سنة ٣٦٥/٩٧٥ . فهو معاصر ـ بعض الوقت ـ للفارابي .

هـ ـ بالاضافة الى هذه المدارس التي كانت قطعا قائمة في ايام الفارابي . ذكر الدكتور معروف مدارس انشئت قبل سنوات معينة ، وقد تكون قديمة بحيث عاصرها الفارابي او قد تكون متأخرة عن ايامه . ولنذكر منها على سبيل المثال : مدرسة محمد الحمشاذي (نيسابور) انشئت قبل سنة ٣٨٨/٩٩٨ . مدرسة ابن رضوان (نيسابور) قبل سنة ٣٩٠/٩٩٩ . المدرسة السعيدية (نيسابور) انشئت بعد سنة ٣٩٠/٩٩٩ بقليل . المدرسة الدقاقية (نيسابور) بنيت في سنة ٣٩١/٩٩٩ (ص ٢٨ ـ ٣٠ . وفي الصفحات التالية عدد اخر من المدارس انشيء بعد ذلك) .

عاشرا :خزائن الكتب كانت كثيرة في تلك المدن . فقد ذكر ياقوت ان مرو كان بها عشر خزائن للكتب . ويبدو من رواية ياقوت ان اثنتين منها كانتا قد انشئتا قبل زيارته لمـرو(٣٢) .

حادي عشر : يقول المقدسي عن نيسابور (ويسميها ايرانشهر) انه قد اجتمع لها من الخلال الكثير منها المدارس الرشيقة ، وانه يرحل اليه في العلم والتجارات(٣٣) وقد نقل لسترانج عن ابن بطوطة ان مدارس بلخ ، بعد ان هدم جنكيز خان المدينة ، باقيـة الرسوم(٣٤) .

ثاني عشر : لعل المدينتين اللتين كانتا تتقدمان سواهمافي المنطقة في عصر الفارابي هما نيسابور في خراسان وبخارى في ما وراء النهر . على اننا نقع على اسماء علماء ومحدثين منسوبين الى مدن اخرى او جهات معينة : كالسمرقندي والشاشـي والبستي والبلخي والفارسي والبوشنجي والنسـوي . ونحن نقتصر هنا على اسماء توفي اصحابها قبل سنة ٤٠٠ هـ(٣٥) . . .

وقد كان فيما نقلناه عن نيسابور (ابن حوقل) وعن بخارى (الاصطخري) الكفاية لما كان لهاتين المدينتين من اهمية تجارية وصناعية وسياسية وعلمية . الا اننا نود ان نلفت نظر القراء الى ما كتبه بوزورث وشبولر عن نيسابور(٣٦) وما جـاء عن بخارى عند فراي(٣٧) . نود ان ننقل هنا بعض ما جاء في كتاب فامبري (تاريخ بخارى)(٣٨) . فقد جاء فيه قوله :

« ان بخارى التي اشتهرت ايام الزرادشتيين بانها « متابة العلوم كلها » اشتاقت كذلك لاسترداد صيتها القديم في ظل الاسلام . وسرعان ما اصبحت تعرف باسم « بخارى الشريفة التقية » .... وكان النشاط العقلي السائد في ذياك الوقت وقفا على علوم الدين . وبهذا كان اوائل المشاهير الذين ازدانت بهم تلك المدينة التي تقع على نهر زرفشان هم من الاولياء الذين لا تزال قبورهم هناك اعظم المزارات حتى اليوم . ومن هؤلاء ابو حفص البخارى المولود عام ٧٦٧/١٥٠ ، وكان من العلماء الذين تزعموا الحركة الفكرية في مدينة بخارى زمنا طويلا . وهو من تلاميذ الامام محمـد شيباني ، وقد شهد له بانه كان اقدر تلاميذه . ومات ابو حفص عام ٨٤١/٢٢٧ ، وترك من بعده ذكرى خالدة لنشاطه العقلي تمثلت في تلميذه عبد الله الفقيه الملقب بالبخاري شيخ المحدثين المسلمين الذي ولد عام ٨٠٩/١٩٤ في بخارى . ويعد كتابه الكبير « جامع الصحيح » اعظم مرجع للحديث في الثقافة الاسلامية كلها . ويذكر ابن خلكان ان اكثر من سبعين الفا من طلبة العلم درسوا هذا الكتاب على هذا الشيخ ،

وان هذا الكتاب يحوي ستمائة الف حديث انفق البخاري ستة عشر عاما في جمعها وتصنيفها . ومات في نواحي سمرقند عام ٨٦٩/٢٥٦ . ويأتي من بعـده محمد السبدموني العلامة قاضي القضاة في عصر اسماعيل ، ومات عام ٩١٦/٣٠٤ م . ثم محمد بن الفضل اعظم فقيه في عصره ، وغير هؤلاء ممن صارت بهم بخارى . ومدن العالم الاسلامي الاخرى تحسدها على وجودهم بها . ويقول مقرظو اسماعيل ان صيت بخارى بهؤلاء العلماء هو الذي حدا بالامير الساماني الكبير الى ان يتخذهـا حاضرة لـه بدل سمرقند . ومهمـا يكن فقد عـرف اسماعيـل نفسه بالتقـوى والاستمساك بالشرق وبرعايته للعلماء حتى قدم اليه كثير منهم من اماكن بعيدة ليستكملوا دراستهم في مدرسته او ليقضوا حياتهم في التأمل والبحث بدار كتبه التي حبس عليها الحبوس .

« ويحدثنا التاريخ عمن يدعى حاشد الصوفي وكان اميرا عالي المقام بدمشق ، قدم بخارى ليقضي بقية ايامه في عزلة وتأمل ديني . وبقي هناك حتى مات عـام ٨٠٩/٢٤٦ . وما غدا هـذا الشعور القومي الذي بعث مـن جديد بايران في ظل السامانيين ، بالاضافة الى انعطافاته الدينية ، ان خطا اول خطوة لاحياء اللغة الفارسية وآدابها من جديد ، فانتعش اللسان الفارسي المتناسق مرة اخرى في عهد نصر واسماعيل بعد ان كان حكام العرب قد حرموه على الناس لاكثر من مائتي عام . وعلى خلاف ما حدث عند شعوب آسيا التي دخلت في الاسلام في وقت متاخر فدخل في لغاتهم ، مع الثقافة الاسلامية ، قدر كبير من الكلمات والمصطلحات العربية ، فان الشعر الفارسي قد احتفظ اول الامر بنقائه تاما ، ذلك النقاء الذي هو سر الجمال في اشعار ابي الحسن الرودكي واغلب اشعار الفردوسي الخالد الغنائية .

« كان اسماعيل (او الامير اسماعيل على ما كان يلقبه المؤرخون الشرقيون باعتبار استقلاله الظاهر عن بغداد) هو الرجل الوحيد الجدير بهذه الحقبة المشهورة في تاريخ آسيا الوسطى . فلم يكن في شجاعته دون مؤسسي دول الصفاريين او الديالمة أو البويهيين ، كما كان يشتهر فوق ذلك بتقواه وعدله ورحمته وميله الى العلم . ولقد ترامى الى سمعه ذات يوم ان جباة الخراج في الري يطففون بموازين ثقيلة زائفة ، فبعث برسوله من فوره ليأتيه بتلك الاثقال في حرز الى بخارى ويوقف الجابي عن عمله ويغلق ادارته حتى تصب الاثقال على حقيقتها وتعاد الى هناك . . . .

« اشرنا من قبل الى كلف اسماعيل بتلك المدينة الواقعة على زرفشان وتفضيله لها على غيرها . وهو وان لم يستطع ان يبلغ بها ما بلغه تيمور ، مثلا ، بسمرقند ، الا ان ذكراه ستبقى ماثلة على الدوام في اذهان سكان بخارى الاصليين بوصفه الامير

العظيم الحقيقي الوحيد . ونذكر من بين المنشآت التي اقامها اسماعيل ، اولا ، ذلك القصر الذي يقع على ريغستان . وكان قد شرع في بنائه اصلا قبل الاسلام ، حتى جاء اسماعيل فقام بتوسيعه وزخرفته ليصير بذلك مقراً للامير الحاكم وكبار رجال الدولة . ويأتي من بعده قصر موليان الذي اقامه على ضفاف القناة التي تعرف بهذا الاسم في بذخ يليق بعظمة الإمراء . ويشتهر هذا القصر بروعة بنائه . وكانت تحيط به الحدائق والمروج واحواض الزهر وفيها النافورات والغدران الجارية . وعانى اسماعيل مشقة شديدة لمده بالماء الذي جلب اليه في قنوات اجروها ، بدقة ، اليه من النهر الذي يجري باعلى المدينة . كذلك مد اسماعيل اسوار المدينة وحصنها ، وكانت هذه قد بناها الحاكم ابو العباس الطوسي في عهد الخليفة المهدي .

« ويقال ان عدد المدارس الجامعة ببخارى كان في عهد اسماعيل يزيد على نظائره في كل مدن آسيا ، حتى لنرى بلخ وهي التي تعرف بقبة الاسلام ، لم تستطع ان تبرز لتنافسها الا بعد ذلك بكثير . واخذت هذه المدينة التي تقوم على شاطىء زرفشان ، والتي غدت قلب نصف آسيا الاسلامية ، تزدهر ويعلو قدرها يوما عن يوم بوصفها قصبة المال والعلم ومركز انتاج الحرير الذائع الصيت كذلك . ولقد جنى اسماعيل خير الثمار من وراء حروبه الطويلة وان لم يمتد به الاجل طويلا لينعم بالملك ، فقد نزل به الداء في قصره الواقع على قناة موليان فنصحه طبيبه ان يغادر المكان لرطوبته الى مصطاده في زرمان ، حيث وافاه الاجل به بعد قليل مساءالثلاثاء من صفر عام ٢٩٥/٩٠٧ وهو في الحادية والستين من عمره ، بعد ان حكم اربعة وثلاثين عاما قضى بضع سنين منها عاملا لاخيه على بخارى ، وكان في باقيها حاكما مستقلا على القسم الشرقي من آسيا الاسلامية » .

الخاتمة

(١١)

لا نود ان نكثر من النقل عن الجغرافيين البلدانيين ما ذكروه عن مدن خراسان وما وراء النهر . فذلك من المتيسر الحصول عليه في مظانه(٣٩) . كما اننا لا نعتزم البحث عن الحياة العلمية في بغداد وحلب ودمشق وغيرها في عصر الفارابي ، فتلك امور كتب فيها الكثير الكثير .

ولكن الذى رمينا اليه من هذه العجالة هو ان نضع بين ايدي القارىء فكرة ، ولو مقتضبة ، عن البلاد التي عاش فيها الفارابي الخمسين سنة الاولى من حياته ، وهي السنون التي كونت الاسس الاولى لشخصيته العلمية والفكرية وهيأته لان

يعب مما عرفته بغداد شيعه ، ثم يعكف على الكتابة والتاليف ، بحيث تبوا هذا المقام الرفيع في عالم الفكر الاسلامي .

فنحن اذا لم ناخذ براي ولتزر بان الفارابي قد يكون عرف بغداد لما كان ابوه قائدا فيها (٤٠) . او براي من قال بان الفارابي لعله اتصل بيوحنا بن حيان ايام كان هذا في مرو ، وهي رواية ضعيفة ، فنحن يتوجب علينا القول بان الرجل قد التقى الكثيرين من اهل العلم والمعرفة ، من المسلمين وغيرهم ، في هذه الرقعة الواسعة الممتدة من فاراب ، شمالي نهر سيحون ، الى بغداد ، على دجلة ، والتي كانت عامرة بالجوامع والربط والمدارس والديارات، ومليئة بالمحدثين والفقهاء والفلاسفة والعلماء والتجار الذين كانوا يفدون الى مدنها من الصين والهند وتركستان وايران والعراق وغيرها . وكل واحد من هؤلاء كان يحمل معه اراء وافكارا ومعرفة .

والفارابي الطلعة كان يتزود من كل هؤلاء .

اما في اي مدرسة جلس على اقدام اهل العلم ، ومن هم شيوخه الذين نقل عنهم ، ومن هم معلموه من غير المسلمين ، فهي اسئلة لا يمكن الاجابة عنها في حدود ما بين ايدينا من المصادر .



الهـوامشـــــس

(١) راجع مثلا مصطفى عبد الرازق ـ **فيلسوف العرب والمعلم الثاني** (القاهرة ، ١٩٤٥) ص ٥٥ـ٦٤. وقد ناقش روايات القدامى مناقشة علمية ووصل الى استنتاجات منطقية . سعيد زايد ـ **الفارابي** (القاهرة ، ١٩٦٢) ص ١٤ ـ ١٧ ، وهو يقبل اراء عبد الرازق . ماكس مايرهوف «من الاسكندرية الى بغداد» في ترجمة عبد الرحمن بدوي ـ **التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية** (القاهرة ، ١٩٤٠) ص ٧٨ ـ ٨٠ ، راجع كذلك
R. Walzer, al-Farabi in E. I.2

(٢) راجع مثلا ابن ابي اصيبعة **عيون الانباء في طبقات الاطباء** ، تحقيق نزار رضا (بيروت ، ١٩٦٥) ص ٦٠٣ ـ ٦٠٩ ، ابن خلكان ـ **وفيات الاعيان** ، تحقيق احسان عباس (بيروت ، ١٩٧٢) م٥ ص ١٥٣ ـ ١٥٧ ، البيهقي ـ **تاريخ حكماء الاسلام** (دمشق ، المجمع العلمي العربي، ١٩٤٦) ص ٣٠ـ٣٥ ، القفطي ـ **تاريخ الحكماء** (ليبزغ ، ١٩٠٤) ص ٢٧٧ ـ ٢٨٠ ، ابن النديم **الفهرست** (ليبزغ ، ١٨٧١).

(٣) ابن حوقل **صورة الارض** (طبعة كرامر) نشر بيروت (لاتا) ص ٤١٨ . وابن حوقل هو الوحيد ، فيما وصل الينا ، الذي ذكر ذلك على التخصيص .

(٤) يرى ر. ولتزر ان الفارابي قد يكون ذهب الى بغداد قبل ذلك . راجع المصدر السابق .

(٥) راجع W. Barthold - **Turkestan down to the Mongol Invasion** (London, 1982), pp. 180-186; W. Barthold - **Four Studies on the History of Central Asia** vol. I (Leiden, 1956), pp. 1-17; Richard N. Frye - **The Heritage of Persia** (New York, 1966), pp. 79-262; Gregoire Frumkin - **Archaeology in Soviet Central Asia** (Leiden / Koeln, 1970), passim; Gavin Hambly (ed.) **Central Asia** (New York, 1969), pp. 19-62 ; C. G. F. Simkin - **The Traditional Trade of Asia** (London, 1968) pp. 1-61.

(٦) Simkin, pp. 2-7; Hambly, pp. 22 ff.

(٧) Barthold, **Four Studies**, I pp. 3-4.

(٨) Edgar Knobloch - **Beyond the Oxus** (London, 1972), pp. 52-53; Frye, ibed, pp. 170-2, 194-204.

(٩) راجع Simkin, pp. 29-38

(١٠) Hambly, pp. 49-50; Frye, ibed, pp. 225-234.

(١١) Simkin, p. 58

(١٢) Frey, ibed, p. 289 (map) and p. XV (notes)

(١٣) راجع Simkin, pp. 63-73 وقد اورد المؤلف هناك مصادره ومراجعه فيمكن الاستئناس بها .

(٢٥) كي ليسترنج ـ **بلدان الخلافة الاسلامية** (الترجمة العربية من عمل بشير فرنسيس وكوركيس عواد ، بغداد ، ١٩٥٤) ص ٤٧٦ .

(٢٦) راجع ابن رسته ص ٩٢ و ٩٣ ، الاصطخري ص ١٦٦ ـ ١٦٧ ، المقدسي ٣٠٣ .

(٢٧) الاصطخري ١٦٧

(٢٧ آ) **الاصطخري ص ١٦٧ ـ ١٨٦ .**

(٢٨) راجع

C. E. Bosworth - The Ghaznawids (Edinburgh, 1963) pp. 154-5, 206-9, 214 - 15;

احمد بن فضلان ـ **رسالة ابن فضلان** تحقيق سامي الدهان (دمشق ، ١٣٧٩ ـ ١٩٥٩) ص ٨٦ ـ ٨٨ .

(٢٩) المقدسي ـ **احسن التقاسيم** (ليدن ، ١٩٠٦)ص ٣٤٠ .

(٣٠) للحصول على تفصيل لورود الاتراك الى دار الخلافة ، وللاطلاع على المصادر الاصلية للاخبار ، راجع زكريا كتابجي ـ **الترك في مؤلفات الجاحظ** (بيروت ، ١٩٧٢) ص ٩٣ ـ ١٨٤٤ .

(٣١) **Bosworth, pp. 211-13.**

(٣٢) ياقوت الحموي ـ **معجم البلدان** مادة مرو .

(٣٣) المقدسي ص ٣١٥ .

(٣٤) لسترانج (الترجمة العربية) ص ٤٦٤ .

(٣٥) ناجي معروف ـ **مدارس قبل النظامية** (بغداد ، ١٣٩٣ ـ ١٩٧٣) ص ٦٩ ـ ٧٠ .

(٣٦) **Bosworth, The Ghaznawids pp. 149-202; Spuler, op. cit. passim.**

(٣٧) **Frye, Bukhara, pp. 50-100**

(٣٨) **فانبري ص ١٠٥ ـ ١١٠ .**

(٣٩) **يمكن الرجوع الي الذين لم نقتبس عنهم على الوجه الاتي :**
نيسابور ـ ابن رسته ص ١٧١ ، المقدسي ص ٣٠٠ ، ٣١٤ ـ ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣٢٩ . مرو ـ اليعقوبي ص ٢٨٠ ، المقدسي ٢٦٩ ، ٢٩٨ ، ٣١٠ ـ ٣١٢ ، ٣٣٠ ، ٣٣١ ، هراة ـ ابن رسته ص ١٧٣ ، المقدسي ٣٢٩ ، ٣٣٠ . بلخ ـ اليعقوبي ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ . سمرقند ـ المقدسي ص ٢٧٨ . خوارزم ـ المقدسي ص ٢٨٤ ـ ٢٨٦ . وهنا موضع للاشادة بكتاب لسترانج **بلدان الخلافة الشرقية** في ترجمته العربية . فالمؤلف اصلا اعتمد على المصادر العربية والاسلامية في وضع كتابه ، وقد قام المترجمان بنقل المادة نقلا صحيحا دقيقا ثم علقا عليها بفوائد كثيرة لم يكن لسترانج قد وقع عليها لما نشر كتابه في اصله الانكليزي (سنة ١٩٠٥) . **والقسم الخاص ببحثنا من هذا الكتاب هو المشمول** بالصفحات ٤٢٣ ـ ٥٣٢ .

(٤٠) **راجع مقاله عن الفارابي في** **E. I. 2 (Farabi)**